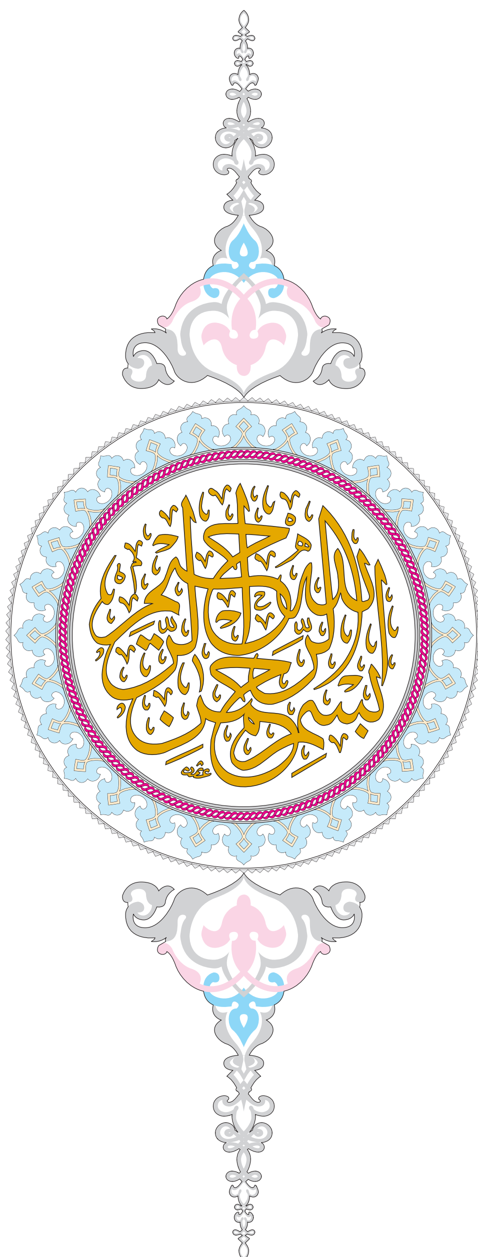
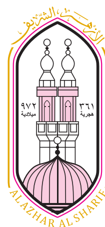




٣١


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

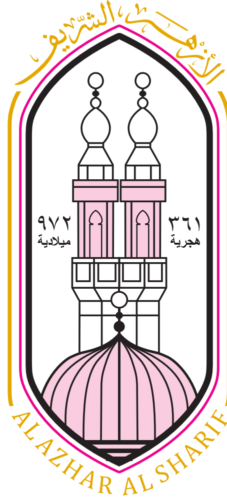
٣١

المجلد الحادي والثلاثون - القسم الأول

السنة ١٣٧٩هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

يشترك فى التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الأول — المحرم سنة ١٣٧٩ هـ — يوليو سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادى والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلة فى سنتها الحادية والثلاثين

قطعت هذه المجلة فى سبيل الله ثلاثين مرحلة من مراحل عمرها المقدور ، تحمل القرآن وتبلغ ، وتعلن الأذان وتدعو ، وترفع المنار وتدل .

ولكنها كانت فى مراحلها الثلاثين كالسائر فى فدافد الأرض ، تجد الرى حينا فتقوى وتنشط ، وتفقده أحيانا فتضوى وتكل .

وها هى ذى تبدأ بعون الله مرحلتها الحادية والثلاثين وقد توفر لها الزاد والعتاد والقوة : وفرها لها الإمام الصالح المصلح محمود شلتوت ، فهى عسية ألا تشكو بعد اليوم طوى ولا ضوى ولا كلالة . ستسير فى المقدمة من ركب الإصلاح الثورى الصاعد ، تنشر نور الله فى كل طريق ، وتبث روح النبوة فى كل عمل ، وتقوّم لسان العروبة فى كل قطر ، وتجمع كلمة المسلمين على كل أمر . والأمة العربية فيما تكابد اليوم من أخطار الشيوعية والصهيونية والاستعمار ، أحوج ما تكون إلى هذا التوجيه . والأزهر هو الباب المفتوح على السماء ، يتنزل عليه منها الرَّوْح والروح والهداية ، فلا يفعل فعله فى جهاد العدو جيش ، ولا يحل محله فى جهاد النفس قانون . وهذه المجلة هى كلمته ودعوته . وكلمته ستبقى ما بقيت الأرض . ودعوته ستسير ما سارت الشمس . والله متم نوره ولو كره الكافرون .

رئيس التحرير

قوى الإسلام الثلاث

بقلم : أحمد حسن الزيات

الإسلام دين القوة ، وكيف يكون غير ذلك وشارعه هو الجبار ذو القوة المتين ، ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ، وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ، ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ، وقواده (الخالديون) هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ، وخلفاؤه (العمريون) هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب ؟

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .

هو قوة فى الرأس ؛ لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

وهو قوة فى اللسان ؛ لأن البلاغة هى معجزته وأداته ، والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد ؛ لأن موحيه وهو الحكيم الخبير ، قد علم أن العقل بسلطانه ، واللسان ببيانه ، لا يغنيان عن الحق شيئا إذا ما أظلم الحس ، وتحكمت النفس ، وعميت البصيرة ؛ فجعل من القوة المادية ذائداً عن كلمته ، وداعيا إلى حقه ، ومنفذاً لحكمه ، ومؤيداً لشرعه . كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه ، وفرض عليهم إعداد القوة والخيل إرهابا لعدوهم وعدوه ، وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح ؛ لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وهذه القوى المتفرقة إنما تتضام وتتجمع فى قوى ثلاث ذوات صيغ ثلاث : قوة الفرد بالإيمان وصيغتها : (الله أكبر) ، وقوة الجماعة بالوحدة وصيغتها : (لا إله إلا الله) ، وقوة العالم بالألفة وصيغتها : (السلام عليكم) ، فالتكبير والتهليل والتسليم هى هتاف المسلم فى أذانه وصلاته ، وهى شعاره فى أعماله ومعاملاته ، ولا أجد للإسلام خلاصة تستوعب أسراره ومعانيه ومغازيه ، خيراً من هذه الصيغ الثلاث . !

فالله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد ، وسر الجهاد ، وسر الفداء ، وسر النصر . ولاشتمالها على هذه الأسرار كانت ركنا جوهرياً فى الصلاة : يدخل بها المصلى إلى الله ، ثم يرددها فى ركوعه وسجوده ، وفى قيامه وقعوده ، ثم كانت هتافا حماسياً فى الحرب ، يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر فى نفسه النصر ، ويصغر فى عينه الخطر . وكان غالبا ما يكون هذا الهتاف : الله أكبر ! فتح ونصر . فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوى نشيداً قوميا ينشده المجاهدون فى كل مسجد ، ويردده المصلون فى كل عيد : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ، وأقدر من كل قدير ، وأعلى من كل علىّ . فهو فى حمى هذا الاعتقاد ، يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ، ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالى . وكيف يخشى ضرراً أو يبالى خطراً ، والله الذى تفرد بالسلطان الأعظم ، واختص بالقدرة العليا ، يحميه من ورائه ويكفيه من أمامه ؟ .

والتكبير فى حقيقته إعلان عما يجيش بالنفس من إجلال للمثل الأعلى ، وإعجاب بالعمل الأرفع : فنحن نكبر الله حين يملأ قلوبنا جلاله ، وحين يملك شعورنا صنعه ، ونحن نكبره كل يوم فى الأذان والإقامة والصلاة ، لأن الإسلام قائم بأركانه الخمسة على القوة أو على ما تحصل به القوة : فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية للمال بالتطهير ، وتمكين للمجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق ؛ فلولا قوته الروحية فى الصلاة ، وقوته الاقتصادية فى الزكاة ، وقوته الاجتماعية فى الحج ، وقوته المادية فى الجهاد ، لما استطاع المسلمون أن يفتحوا أكثر الدنيا القديمة ، فيملكوا معظم أفريقيا وأطراف أوربا من الغرب ، ومعظم آسيا وأطراف أوربا من الشرق .

ولا إله إلا الله ، هى كلمة التوحيد . والتوحيد ركن من أركان الإسلام وعنوان بارز من عناوينه . يقصد به فى الأصل توحيد الله ، ثم قصد به من طريق اللزوم توحيد الكلمة ، وتوحيد القبلة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا . فهى من الكلم الجوامع ، التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل جماعة وأمة

ذلك لأن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال ، الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإســـلامية .

فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى البناء الذى قام . ومن ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوه بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة . فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل ، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتل ، والحاكم الذى يضل قومه السبيل يعزل ، والصلاة إنما يعظم أمرها ، ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهـذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة على الأقل فى كل عمر .

أما السلام عليكم ، فهى الصيغة للمعنى الإسلامى الذى يقابل معنى الجاهلية قبل الرسالة ، ومعنى الجهاد بعد الدعوة ، ومعنى التكبير فى أول الصلاة . ومقابلة التكبير وهو رمز القوة ، بالتسليم وهو رمز الرحمة ، دليل على أن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والعدل ، لا قوة السفه والجور ، فهى قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان : قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس . فالمصلى يدخل فى الصلاة إلى الله بالتكبير وهو خشوع وعبادة ، ويخرج منها إلى الناس بالتسليم وهو أمان ورحمة و (السلام عليكم) ، بعد أولئك كله تحية المسلم لنبيه فى الصلاة ، وتحية المسلم لأخيه فى كل وقت . يلقيها عليه حين يلقاه فيضمن له الأمان من نفسه ، ويحمله على أن يطمئن إليه بأنسه .

فأنت ترى أن القوة الحكيمة التى تصدر عنها العزة والمروءة ، والحرية والعدالة ، هى طبيعة الإسلام ووسيلته ، على ذلك كان إسلام محمد وأبى بكر وعمر ، وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق ، والسيف للباطل ، وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة : أن فعل كتاب الرشيد فى (نيقفور) ما لا يفعل الجيش ، وبلغوا من المروءة أن سير المعتصم جيشا إلى (عمورية) لإنقاذ امرأة . !

فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، يؤمن بالوحدة ، ويحرص على الجماعة ، ويخلص للقومية ، كان مسلما من غير إسلام ، وعربيا من غير عروبة .

أحمد حسن الزيات

الإيمان: بين التفكير والفلسفة

للأستاذ عباس محمود العقاد

ينسب إلى المعرى أنه قال فى اللزوميات :

قلتم لنا خالق حكيم
صدقتم ، هكذا نقول
زعمتموه بلا زمان
ولا مكان ، ألا فقولوا :
هذا كلام له خبىء
معناه ليست لكم عقول

ويروى « قديم » بدلا من حكيم فى البيت الأول ، وهى رواية ضعيفة متناقضة ؛ لأن من يقول بقدم الخالق لا يستغرب بعد ذلك أن يكون بلا زمان . فإن أقرب معانى القدم إلى الذهن ألا يكون مسبوقا بما هو أقدم منه إن لم يكن سابقا للزمان .

ونحن على كلتا الروايتين نتردد فى نسبة الأبيات إلى أبى العلاء لسبب يتعلق بالصيغة فى اللزوميات على الخصوص ؛ فإن أبا العلاء إنما نظم قصائده التى التزم بها ما لا يلزم فى القافية ، ليتقيد بأكثر من حرف واحد فى الروى ، فليس من المناسب لهذا القيد أن ينظم ثلاثة أبيات : اثنان منها منتهيان بنقول وقولوا ، وهما مضارع فعل واحد ، ولم يكن عزيزاً عليه أن يتجنب هذا الإيطاء الذى يتجنبه الشعراء ممن لا يلتزمون فى الروى والقافية ما كان يلتزمه رهين المحبسين .

وأيا كان قائل الأبيات فهو ولا ريب من المفكرين الذين يتعرضون للفلسفة بغير أداتها ، وقديما كان التفكير والفلسفة لفظين بمعنى واحد يحل أحدهما محل الآخر بلا اختلاف فى رأى الكثيرين . ولكن موضوعات التفكير قد تخصصت بعد تصنيف العلوم على أوضاعها الحديثة ، فتعددت ملكات التفكير على حسب الموضوعات والعلوم التى يتصدى لها المفكرون .

هناك التفكير العلمى ، ويكفى فيه أن تكون للباحث قدرة على ملاحظة التجارب المحسوسة والمقابلة بين المتشابه منها والمختلف ، والإفضاء من هذه المقابلة إلى نتيجة عامة محسوسة قلما تتعدى الوصف والإحصاء .

وهناك التفكير الرياضى ، ويكفى فيه أن يتفهم الباحث علاقات المدركات الذهنية التى

يسلمها العقل فرضا وتقديراً ولو لم يكن لها وجود فى الخارج ، وأكثر ما تكون الحقائق الرياضية تقديرات ذهنية لا ترى بالحواس بل لا يتصورها العقل نفسه إلا من قبيل التسليم بالفرض الذى لا بد منه ، كالنقطة الهندسية التى لا طول لها ولا عرض ولا عمق ولا امتداد على الإطلاق ، وكالبسيط الذى يخالف المركب فى الأشكال والأبعاد . فإن الذهن الرياضى يعقل من هذه الفروض ما لا وجود له فى الطبيعة ، ولا دليل عليه ، إلا أنه مستلزم بحكم البداهة ، وليس هذا الفرض من ضروب التفكير التى يطبع عليها من طبع على جمع المعلومات بالمشاهدة والتجريب .

والتفكير الفلسفى ملكة أخرى لا تشبه كل الشبه ملكة العلم التجريبى وملكة الفروض الرياضية ، ولكنها تشترك فيهما بنصيب لا غنى عنه ، وقوامها الأكبر أن تحسن الفهم فى المسائل المجردة ، أو المفارقة ، كما يقول المتقدمون . وهى بهذا قد تشبه الرياضة إلى حد بعيد ، لولا أن الرياضة تنتهى إلى الفرض ولا يعنيها أن تتصوره أو تحوم حوله بوجدان أو إلهام .

وصاحب الأبيات الثلاثة مفكر يعتمد على المشاهدة التجريبية فى فهم الحقائق الفلسفية ، فيستغرب البديهيات التى تنتفى بها الغرابة عند الفيلسوف وهى استقلال وجود الخالق عن الزمان والمكان .

إن الذى استغربه قائل الأبيات الثلاثة هو الفهم الوحيد الذى يستطيع الفيلسوف أن يفهم به وجود الخالق المبدع لجميع الموجودات ، ومنها الزمان .

فليس فى وسع العقل الفلسفى أن يتصور خالق يسبقه زمان ويحيط به مكان ، ولا بد للخالق من استقلال عن الوقت وعن الحيز المحدود ، ولن يكون الحيز إلا فى حدود ، ولن يكون الخالق الأبدى إلا منزها عن جميع الحدود .

وإنما استغرب قائل الأبيات أن يتنزه الخالق عن الزمان ؛ لأنه لا يفهم بالمشاهدة الحسية كيف يفرق بين الوجود فى الزمن وبين الوجود بلا زمن ، وهو الوجود الأبدى السرمدى : وجود الخالق المنزه عن الحدود والأشكال .

أما العقل الفلسفى فإنه يستطيع على الأقل أن يفرق بين الوجودين ، وأن يدرك أنهما نقيضان متقابلان فى أهم الصفات ، ولا يلزم من إدراكه الفرق بينهما أنه يحيط بهما تصوراً وتصويراً للحس أو للبديهة ؛ لأن التناقض بين الوجود والعدم - مثلا - معقول وإن لم يكن فى وسع العقل أن يحيط بماهية

الوجود كله، أو يدرك العدم على أى حال من أحوال الإدراك، غير إدراك الفارق بينه وبين الوجود.

وكذلك الأبد والزمن نقيضان: فالأبد لا يتصور مع الحركة، ولكن الزمن لا يتصور إلا مع الحركة.

الأبد لا تعقل له حركة فى مكان، لأنه بلا بداية ولا نهاية، وبلا أول ولا آخر، وبلا حيز ينتقل من بعد إلى بعد ومن موضع إلى موضع.

والزمن على نقيض ذلك لا يتصوره العقل إلا مع الحركة التى لا يخلو منها مكان.

وهنا يشترك العقل الرياضى والعقل الفلسفى فى ملكات التقدير الصحيح. فالعقل الرياضى يستلزم أن يفرق بين الزمن والأبد، ويستلزم أن يكون الزمن مبتدئا، وأن يكون الأبد بغير ابتداء، ولا يستلزم أن يكون معهما ثالث بين هذا وذاك.

وعلى هذا النحو يدركهما العقل الفلسفى كما أدركهما حجة الإسلام الغزالى رضوان الله عليه. فإنه استلزم أن يكون أبد، وأن يكون زمن لا زمن قبله، ولم يستلزم بينهما شيئا ثالثا، لأن هذا الشىء المقتحم من أغاليط الأوهام كما قال رحمه الله.

ويقال عن المكان ما يقال عن الزمان، وغاية الفرق بينهما أن أحدهما امتداد مع الحركة، والآخر امتداد مع السكون. وإذا كان العقل الفلسفى لا يحيط بحقيقة المكان إدراكا وتصوراً فإنه ليستطيع أن يتبعها إلى مقتضاها فيغنيه ذلك بعض الغنى عن الإدراك الشامل والتصور المحيط، إذ هو يستطيع أن يتبعه فيدرك أن وراءه شيئا غير الامتداد الذى يتراءى للإنسان. فلابد من شىء وراء النقطة الهندسية التى هى حقيقة من الحقائق، ولكننا لا نفرض لها امتداداً على الإطلاق، وكذلك الخط الذى هو مجموعة من النقط على هذه الصفة، وكذلك النهاية الصغرى التى لا نصل إليها بالحساب فى الأبعاد ولا فى الأرقام.

هنالك شىء وراء امتداد الحركة ووراء امتداد السكون.

ما هو على التحقيق؟.

لا ندرى، ولا يمكن أن ندرى، ولكنه هناك!.

وننتهى الآن إلى السؤال الذى لا مناص منه وهو: كيف إذن يكون الإيمان بالحقائق الأبدية؟ وكيف إذن يكون الإيمان بالخالق الذى لا أول له ولا آخر ولا زمان ولا مكان؟.

إن العقل لا يستطيع أن يحيط به إدراكا وتصوراً على وجه من الوجوه، ولكنه

يستطيع أن يدرك ضرورة الإيمان بغير شك وبغير محال .

إن الخالق الذى يستحق أن نؤمن به لا تكون له حدود ولايحصره إدراك ، ومن كان كذلك فهو أعظم من أن تحيط به العقول .

فماذا يكون حكم العقل فى هذه الحقيقة التى يقررها ولا يسعه أن يقرر غيرها ؟ .

هل يكون سبب الإيمان مانعاً للإيمان ؟

هل تكون « الأبدية » مبطلة لوجود الخالق ومبطلة للإيمان به أو الإيمان بوجوده وهى هى شرطه وسببه وداعيه ؟ .

العقل يدرك على الأقل أن الإيمان ضرورة « عقلية » ؛ لأن سبب الشىء لا يكون مبطله وسبب إلغائه ونقضه .

والعقل إذن يستلزم التسليم بالإلهام والهداية الدينية فى الأمور التى تمتنع الإحاطة بها ؛ لأنها بطبيعتها وراء متناول العقول .

هل معنى ذلك أن العقل لا عمـــل له فى الإيمان ، ولا قدرة له على بلوغ الهداية ؟ .

كلا ! فإن القول . بترك المجهود العقلى غير القول ببذل المجهود إلى غاية مداه والانتهاء من هذا المدى إلى ما يليه .

فرق بين أن يقال : إن الإيمان ضرورة عقلية ، وأن يقال : إن الإيمان يناقض العقل أو أن العقل لا يعمل شيئا فى السعى إلى الإيمان .

وحسب العقل « أولا » أن يعلم أن الوجود الأبدى ضرورة عقلية ، وأن الإيمان به كذلك ضرورة عقلية ، وأن هناك مطلباً يسعى إليه ليدرك منه ما وسعه إدراكه وينتهى منه إلى الملكة التى تهدى إليه ؛ فإنه يدرك هذه الحقائق « عقلا » ، ولا يتسنى له « عقلا » أن يهملها ويدع البحث عنها ، ومتى آمن بذلك فقد أسقط الإنكار من حسابه ، فليس فى وسعه أن ينكر لسبب معقول . وقد جاء فى الأثر أنه « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » ، وما خطر على البال فهو موجود ، وإن لم يكن له مثيل فى الوجود ؟

عباس محمود العقاد

الإسلام كنظام للحياة

للدكتور محمد البهى

الإسلام هو رسالة الله للبشرية كافة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ؛ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » هو رسالة الله للعرب والعجم ، سواء من كانوا وقت إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم : أم من جاءوا بعده إلى يوم الدين « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

هو رسالة الله لتوجيه الإنسان : كطبيعة أعدها الله على خلق خاص وميزها على سواها مما خلق . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » هو للطبيعة البشرية ، سواء عاشت هذه الطبيعة فى الصحراء ، أم على قمم الجبال أم على شواطئ البحار والأنهار ، أم فى الشرق أم فى الغرب أم فى الشمال أم فى الجنوب : هو رسالة الطبيعة البشرية أينما كانت ومتى وجدت ؛ ليهديها الطريق السوى ، ويجنبها الوهم والخرافة فيما تتجه إليه « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

والإسلام فى توجيهه للإنسان إذن يجب أن يكون متفقا مع خصائص طبيعته : يعترف بأنها طبيعة إنسان ، ويعمل على أن تبقى طبيعة إنسان . لا يحاول أن ينقل الإنسان من طبيعته إلى طبيعة ملك ، كما يحول دون أن تتحول إلى طبيعة حيوان . الإنسان فى الإسلام بشر ، ويبلغ بالإسلام أعلى درجة البشرية .

لهذا كان الإسلام نظاما لحياة الإنسان الذى لا يستطيع أن يبلغ مبلغ الألوهية ، حتى لو كان رسولا مصطفى من ربه « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . . . » « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » . ونظاما لحياة الإنسان الذى لا ينبغى أن ينحط عن طبيعته التى يتميز بها عن غيره .

وهنا نرى الإسلام يدخل بتوجيهه جميع جوانب الحياة الإنسانية . يدخل بتوجيهه :

(ا) فى نظافة الإنسان فيحمله على غسل بعض أعضاء جسمه عدة مرات فى اليوم ، وعلى غسل جميع جسمه فى مناسبات خاصة ، ويحثه على أن يحتفظ بنظافة ثوبه وبدنه وفمه عند الاجتماع واللقاء ، على نحو ما يحدث فى صلاة الجمعة . يدخل بتوجيهه :

(ب) فى غذاء الإنسان وشرابه . فيحرم عليه بعض ألوان الطعام ، كما يحرم عليه بعض أنواع الشراب « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . ينصح الإنسان عندما يبتغى أن يتناول طعاما أو شرابا أن لا يتناوله إلا إذا شعر بالحاجة إليه ، وبالمقدار الذى يسد به حاجته « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . يتدخل بتوجيهه :

(ج) فى ملبس الإنسان . فيحرم على الرجل لبس الحرير وأن يختتم بالذهب . ويحرم على المرأة أن تثير الفتنة فى ملبسها وزينتها « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن . . . » . يتدخل بتوجيهه :

(د) فيما يتسلى به الإنسان . فيحرم عليه ما يثير أعصابه أو يتلفها ، كالقمار فى صوره المختلفة « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . بينما ينصحه بما ينشط بدنه وعقله ويزيل عنه السآمة والملل ، كمباشرة الرمى والعدو ، فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يرمون بالسهام فقال : « ارموا بنى اسماعيل ، إن أباكم كان راميا » وقال « كل لهو ابن آدم باطل إلا مداعبته أهله ، وتأديبه فرسه » . وكان صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة رضى الله عنها فيسبقها مرة ، وتسبقه أخرى . يتدخل بتوجيهه :

(ه) فى معاملة الإنسان للإنسان ، فإن كان الإنسان أبا أو أما نصحه بعدم الافتتان بالولد . « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ... » وإن كان ابنا نصحه برعاية علاقته بأبيه وأمه رعاية تقوم على الوفاء ، وعلى المحافظة على الشعور الكريم نحوهما ، وتجنب ما يؤذى نفسهما من قرب أو بعد « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، « ... فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما

قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

وإن كان زوجا نصحه بالإحسان فى المعاشرة وفى المفارقة على السواء « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وإن كانت زوجة نصحها بأن تؤدى مايجب عليها لقاء مايجب لها . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن كان ذا قرابة نصحه بتقديم المساعدة لقريبه مهما نازعته فى ذلك نفسه « وآتى المال على حبه ذوى القربى » . وإن كان ذا جوار نصحه بمشاركة جاره فى سرائه وضرائه ، وعلى الأقل بأن يؤمنه من أذاه : عن ابن أبى شريح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن : قيل : ومن يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه (شروره وأذاه) » .

وعنه صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وإن كان راعيا حمله مسئولية الرعاية والقيادة « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » .

وإن كان ذا عهد أمره بالوفاء بالعهد « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .

وإن كان ذا تجارة أمره بالقسطاس المستقيم وبالعدل فى المبادلة « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » ، « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وإن كان ذا شهادة أو قضاء أمره بالعدل مهما كانت الدوافع والظروف . . . « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ...» .

يتدخل الإسلام بتوجيهه :

(و) فى عبادة الإنسان لله فيوجهه إلى أن المعبود إله واحد لاشريك له « قل الله أعبد مخلصاً ، له دينى » « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

يتدخل بتوجيهه أخيرا :

(ز) فى رفع الإنسان نحو أسمى صورة من صور الإنسانية . وهى صورة الإنسان الذى لا تتحكم فيه شهوة المال والفرج . ومن لا تتحكم فيه شهوة المال والفرج ، هو الذى خشى ربه، وآمن بجزائه، وعبد ربه دون

انقطاع ، وأعطى دون أن يسأل ، وحفظ حرمة الغير سراً وعلانية ، وأوفى بعهده إن عاهد ، وصان الأمانة إن اؤتمن عليها ، وأدى الشهادة فى غير مواربة « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنات مكرمون ».

* * *

نرى الإسلام هنا يتدخل بالتوجيه فى حياة الإنسان الخاصة والعامة . ينهاه عن هذا ويأمره بذاك . يتدخل فى أمر نظافته ، وفى غذائه وشرابه ، وفى ملبسه ، وفى وسائل تسليته ، وفى معاملته لغيره ، وفى عبادته لربه . وحياة الإنسان أينما كان وفى أى مكان وجد ، هى تلك الحياة ذات الألوان العديدة : فلماذا كانت عناية الإسلام بالإنسان إلى هذا الحد ؟

أكان يوجد هناك خطر على الإنسان لو تخلى عنه الإسلام كلية ، أو لم يبد له النصح والتوجيه فى بعض جوانب حياته ؟ . لماذا لم يدعه الإسلام مثلا يفعل ما يريد فى خاصة نفسه : فى شأن نظافته ، وغذائه ، وكسائه ، وما يتسلى به ؟ أهناك ضرر عليه وحده أو على غيره معه لو تركه بدون توجيه فى حياته الخاصة ؟ .

كل هذه أسئلة يجاب عنها ، لو تبين أن توجيه الإسلام كان ضرورة للإنسان وفق طبيعته الخاصة .

الإنسان يشتهى ، وأعد فى الوقت نفسه لأن يكون ذا قيادة يقود بها ذاته ويقود بها ما عداه من الكائنات الأخرى . الإنسان طبيعة لها دوافع الأنانية ، ومع ذلك لها ميل إلى الاجتماع .

الإنسان يشتهى ، وما يشتهيه لبطنه وفرجه ، والإنسان ذو قيادة ، ومركز قيادته الفؤاد وهو سره وسبب تميزه . فلو استرسل الإنسان فى طلب ما يشتهيه لعاش لبطنه وفرجه ، وأخضع ماله من ميزة القيادة لتحقيق شهوة البطن والفرج . وعندئذ يصبح إنسانا يشتهى فقط . يحاول أن يملأ البطن ويلبى رغبة الفرج . لا يتخير ما يملأ به بطنه ولا ما يلبى به رغبة فرجه . وإنسان يندفع ولا يختار يجنى على نفسه أولا ، لا لأنه فقد خاصة الاختيار بين

الضار والنافع ؛ بل لأنه لا يستطيع الآن أن يقف عند حد . يسلك مندفعاً كل طريق معوج أو مستقيم ، ويستخدم مضطراً كل وسيلة ضارة أو نافعة . لا يعرف خطا معيناً لسيره ، ولا يسأل عن صالح وغير صالح فيما يتناوله من أكل وشرب ، ولا عن ضار وغير ضار فيمن يتصل به اتصالا جنسيا . يرى الهلاك فيما يذهب إليه وليست لديه مقاومة : يرى فى نوع معين من الأكل والشراب حسب إحساسه الباطنى وتجربته الشخصية ، أنه مزعج له إن أكله أو شربه ، ومع ذلك لا يستطيع أن يمتنع عن أكله وشربه . ويرى فى اتصال جنسى معين أنه يسبب له ضرراً فى صحته ، ومع ذلك لا يستطيع أن يغالب رغبته الجنسية . هو إنسان ضعيف المقاومة والمغالبة فى مواجهة شهوته . استكان لشهوته فوهنت إرادته وعزيمته ، وخضع لبطنه وفرجه ، وأغفل أمر القيادة فيه فخلا قلبه إلا من الشهوة ، وتحرك تفكيره كما تحركت قدماه فى سبيلها وحدها . هو إنسان ميت فى صورة حى ، وعليل فى صورة مصح ، وهزيل فى صورة قوى .

هذا من جانب . من جانب آخر الإنسان أيضا له طبيعة تدفعها الأنانية ، ولكن مع ذلك لها ميل إلى الاجتماع بالآخر ، إذ المجتمع للإنسان وحده ، دون غيره من الكائنات التى تتحرك بدافع الغريزة وحدها ، وهى كائنات الحيوان ، فلو ترك الإنسان نفسه لدوافع الأنانية وحدها عندما يتصرف أو يأتى بعمل ، لكان إنسانا لا يعترف بوجود غيره وعندئذ لا يفقد حاجته عند غيره فحسب ، بل سيصطدم بوجود هذا الغير معه ؛ لأن وجوده معه حقيقة واقعة غير منكرة ، وهو الآن إنسان يعتدى كما يعتدى عليه . يعتدى على غيره ، لأنه لا يعترف به ، ويعتدى عليه ؛ لأن غيره كذلك لا يعترف بوجوده .

والنتيجة التى تترتب على ترك الإنسان من غير توجيه ومن غير تدخل فى رسم خطوط السير لحياته الخاصة والعامة - هى فقدان الإرادة والشخصية الإنسانية . فقدان المقاومة والمغالبة ، وفقدان التميز والاختيار ، ثم الخصومة والاحتكاك والاعتداء المستمر .

ولذا - لأن الإنسان قد أعد من طبيعته وخلقه لأن يكون ذا شخصية وإرادة من جانب ، وذا ميل اجتماعى من جانب آخر - كانت رسالة الإسلام لمعاونة هذه الطبيعة ، ولإنماء ما لها من ارادة وميل اجتماعى . كانت رسالة الإسلام تخطيطا للطريق الذى يوصل الإنسان الى أن يكون ذا إرادة وذا قوة واستطاعة للمقاومة والمغالبة ، وذا مشاركة اجتماعية . كانت رسالة الإسلام لإيقاظ الوعى بالذات ، والوعى بالمجتمع معا . إذ أضرار البشرية

هى فى فقدان إرادة الأفراد ، وانعدام المشاركة الاجتماعية بينهم .

والإسلام إذن جاء لاتقاء هذه الأضرار البشرية . واتقاؤها - كما ذكرنا - فى تنمية إرادات الأفراد وتأكيد روابط المجتمع بينهم . وهو بذلك رسالة توجيه ذى شقين : للفرد والمجتمع .

وهنا نسأله كيف يدفع الإسلام هؤلاء الأفراد عن طريق التوجيه ؟ . كيف يجعل الفرد ذا إرادة ، وكيف يجعله ذا مشاركة قوية بمجتمعه ؟ .

لنستعرض صور العبادة فى الإسلام . لنستعرض الصلاة والصوم ، والزكاة والحج. لنستعرض الصلاة والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم ، والصوم شهرا فى العام من الفجر إلى غروب الشمس . ولنستعرض الزكاة وهى اقتطاع جزء من مال المزكى عن اقتناع إلى صاحب الحاجة . والحج وهو اجتماع لعشرات الآلاف من المسلمين فى مكان واحد وفى وقت واحد ، على جبل عرفات عند غروب شمس اليوم التاسع من ذى الحجة ، متجردين من كل ما يميز بينهم من مظاهر الدنيا ، ومتجهين بدعاء واحد إلى رب واحد ، مشتركين فى إيمان واحد . أجسامهم عديدة ولكن قلوبهم قلب واحد، وأبصارهم شاخصة إلى الله وحده ، فإذا ما نزلوا من عرفات وطافوا بالكعبة أحاطوا بقبلتهم جميعا ، التى تنمحى فيها فواصل الشرق والغرب ، والجنوب والشمال فى المكان والاتجاه .

فإذا استعرضنا الصلاة والصوم من صور العبادة التى جاء بها الإسلام . أدركنا أنهما عبادتان لتنمية شخصية الفرد ، لتقوية إرادته واستطاعته على المقاومة والمغالبة . فالصلاة وهى مناجاة لله وحده خمس مرات فى اليوم ، فى واقع أمرها تفريغ القلب من زخرف الدنيا وزينتها ؛ لأن لقاء المصلى بالله جل جلاله فيها لا تعدله متعة من متع هذه الدنيا ، وما فى الدنيا هو شهوة البطن والفرج . وهنا ندرك قول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وليس هناك فحش ولا منكر إلا فيما تشتهيه البطن والفرج . وإذا استخف المصلى بمتع هذه الدنيا فى مواجهة لقاء المولى سبحانه وتعالى فى مناجاته وصلاته ، فى تكبيره وتسبيحه ، فى ركوعه وسجوده - فإنه لا شك سيحد من رغباته وشهواته ، وإذا مالت نفسه عن الانطلاق إلى الحد ، فإنه سيتخير عند ما يشتهى . سيتخير عندما يأكل ويشرب . وسيتخير عندما يريد أن يتصل اتصالا جنسيا بغيره . وعندئذ يصبح إنسانا ذا اختيار وتحديد ، يصبح إنسانا يأخذ النافع ويترك الضار .

وتلك نتيجة الصلاة : « تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم — وهو حرمان البطن والفرج فى الدرجة الأولى — حرمانا تاما فى فترة معينة — هو العبادة المباشرة لتنمية الاختيار والإرادة، وقوة المغالبة والمقاومة، إذ الصوم صراع بين ما تلح فيه شهوة البطن والفرج وبين حرمانهما من ذلك . هو صراع فيه مقاومة ومغالبة . فإذا صام الإنسان شهر رمضان من كل عام انتصر فى مقاومته ومغالبته. وانتصرت معه الإرادة على شهوة البطن والفرج. وانتصر العزم والتصميم على التردد والضعف والتبعية . وهنا ندرك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تقدير الصوم فيما يرويه عن ربه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

وإذا استعرضنا بعد ذلك عبادتى الزكاة والحج نجدهما - على نحو ما وصفنا - تطبيقا عمليا لروح الجماعة التى أيقظتها صلاة الجماعة فى الأوقات الخمس كل يوم ، وفى الجمعة كل أسبوع ، وفى العيدين كل عام . كلتاهما ينطوى على هذه الروح ، وكلتاهما يزيد فى قوتها وتأكيدها بالسعى والعمل .

وإذن صور العبادة التى رسمها الإسلام وفرضها على المسلمين فى فترات الزمن التى حددها ، أو فى المكان الذى عينه من صلاة وصوم وزكاة وحج - هى صور لتدريب النفس البشرية على أن تحصل ما أعد لها بطبيعتها من قوة الإرادة وسبيل الاختيار من جانب ، وما كان لها من خاصة الاجتماع وروح المشاركة الجماعية من جانب آخر . وبذلك تتمكن من الحد من الاندفاع فى طريق شهوة البطن والفرج ، فتقى نفسها أخطار الاسترسال والتبعية ، كما تتمكن من رؤية الغير فتعترف بوجوده وتؤاخيه بدل أن تحتك به وتخاصمه .

العبادات كما حددها الإسلام هى لتنمية الفرد كإنسان ، وبالتالى هى لوقايته من أضرار نفسه ، ومن عدوان غيره عليه أو عدوانه هو على غيره . هى لتهذيب الفرد وصقله ، وإقامة المجتمع وبقائه .

وربما لا يبدو واضحا أن المجتمع يقام ويبنى، وأنه وضع طارئ على وجود الأفراد. وأن إقامة المجتمع وبناءه يتوقف على إيقاظ الروح الجماعية وتقوية الميل إلى الاجتماع عند الأفراد . وطالما لا توقظ روح الجماعة بين أفراد من الناس ، فهم مجموعة من البشر لم يرتق أمرهم إلى أن يصير مجتمعا . ولذلك وجود المجتمع آية على تحضر أفراده ، آية على أن وعيهم الجماعى تيقظ ، وأن شعور

المشاركة عندهم فى الغاية والمصلحة قد أخذ طريقه إلى الظهور فى الحياة العملية . وغاية ماتسعى إليه البشرية الخالصة هى إقامة مجتمع لايرتكز على القبلية ، ولا على الشعوبية ، وإنما على خصائص الإنسانية وحدها ، التى تتمثل فى السلم فى العلاقات العامة ، والاطمئنان وعدم الاضطراب فى الحياة الخاصة .

والإسلام بتوجيهه ـ كما رأينا عن طريق العبادة ـ يسعى إلى إقامة المجتمع الإنسانى ، وإلى نزع العدوان والاعتداء من العلاقات العامة ، وإلى تمكين الاطمئنان فى الحياة الخاصة . ولهذا كانت نظرته إلى الناس نظرة واحدة « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وكانت رسالته إلى الناس جميعا « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » . وكانت عبادته متجهة بالأفراد إلى اطمئنانهم أولا ، وإلى سلمهم فى علاقات بعضهم ببعض ثانياً .

وبعد ما أيقظ الإسلام روح الجماعة فى الأفراد عن طريق العبادة ، وأقام بذلك بينهم مجتمعه ـ وهو المجتمع الإسلامى ـ أحاط هذا المجتمع بسند قوى كى يبقى ، وكى يستقر فى بقائه . أحاطه بتأكيد النهى عن الاعتداء والعدوان « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وكى لاتصل النفس إلى التفكير فى الاعتداء ، فضلا عن مباشرته ، أمر بالعدل ، والإحسان ، وبإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . أمر بالعدل فى جميع صوره : فى الشهادة وفى الرواية ، وفى الحكم والفصل . وأمر بالإحسان فى جميع صوره : بالمال ، والصحة ، والعلم والجاه . ونهى عن الظلم فى جميع صوره : وهى كل مايؤذى النفس والبدن والملك والحرمة الشخصية . ونهى عن الفحشاء والمنكر فى جميع صورهما : وهى كل ما لا ترضى عنه النفوس ويستقبحه العرف والوضع فى المجتمع .

وبهذا : المجتمع الإسلامى مجتمع سلم ، وعدل ، وإحسان . مجتمع يستقبح الفواحش والرذائل والعدوان . فهو مجتمع خلقى فاضل .

ولكنه ليس بمجتمع استسلام ، ولا مجتمع طغيان . ليس مجتمع استسلام يقبل اللطمة ، فيسلم ، ولكنه مجتمع يدفع اللطمة باللطمة « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وليس مجتمع طغيان ، يغريه الانتصار على مجتمع آخر فينسيه مبادئ الإنسانية فى معاملته « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم

فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . « لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » .

* * *

وهنا نرى أن رسالة الإسلام إطار للإنسان الحى والمجتمع القوى . للإنسان ذى الإرادة والعزم ، وللمجتمع العطوف المتواد المتآخى ، ولكنه المجتمع الأبى الذى لا يقبل الضيم والذل .

للإنسان المسلم رسالة فى الحياة هى أن يكون ذا إرادة ، وللمجتمع الإسلامى رسالة هى أن يحقق العدل والسلم ، ويدفع الأذى والعدوان . ورسالة المسلم مقدمة لرسالة المجتمع الإسلامى . إذ لا يتحقق عدل ولا سلم فى مجتمع ، ولا يدفع أذى وعدوان من مجتمع إلا إذا كان أفراده ذوى إرادة . ذوى مراس على الكفاح ، ذوى قوة على المثالية .

ليست رسالة المسلم - من وجهة نظر الإسلام - أن يعيش ليأكل وينسل ، وإنما رسالته أن يأكل وينسل ، ليكون ذا قوة وغلبة « أخشى أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

وليست رسالة المجتمع الإسلامى أن يعيش للترفيه ، وإنما رسالته أن يكافح فى سبيل القيم ؛ يكافح فى سبيل العدل ، ودفع الظلم والاعتداء ، يكافح فى سبيل الترابط والتآخى ، ورابطة الإسلام فوق رابطة القبيلة ، وأخوته فوق لحمة الدم . هى قبل كل شىء رابطة المبادئ وأخوة الأهداف والغايات المشتركة .

* * *

إن رسالة الإسلام ليست تخطيطاً اجتماعياً من إنسان ، وليست طريقاً من طرق التربية وضعه فرد من البشر . لو كان كذلك ما صلح هذا التخطيط الاجتماعى للناس كافة ، وما صلح هذا الطريق من طرق التربية لغير فئة من الناس ، هى تلك التى أقام فيها ذلك المربى . فالإنسان هو الإنسان . محدد ببيئته ، وبوراثته ، وبنشأته ، وبعوامل التأثير فى جو إقامته . ولذا تفكيره يعبر عن محدوديته - ومن هنا كانت صلاحيته - إن صلح - لمن عاش فى هذه البيئة ، وتأثر بعوامل الوراثة الخاصة والنشأة المعينة .

إن الإسلام وحى الله العليم بكل شىء « وهو بكل شىء عليم » هو تعاليم الله الخالق لكل موجود ، وفوق كل إنسان « وهو القاهر فوق عباده » إنه ممن وسع كرسيه

السموات والأرض . فصلاحيته إذن للناس جميعاً .

إن الإسلام ليس معرفة . إنه إيمان وتقوى ، إنه إيمان بالله ، وخشية من الله ، وتقوى الله . وهذا الإيمان هو مصدر الدفع فى الإنسان نحو اطمئنان نفسه ، ونحو وعيه بالمجتمع ، ونحو إسهامه فى بقاء المجتمع واستقراره .

الإسلام منحة إلهية « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . هو منحة الله لعباده لا يكفر بها إلا الجاحدون .

هذا هو الإسلام كنظام للحياة . هو نظام للحياة الإنسانية الفاضلة المطمئنة المستقرة . هو نظام لحياة الفرد والمجتمع معا . أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى ولكن لها قيادة ، وتستجيب لدوافع الأنانية ولكن لها ميل إلى الاجتماع وقابلية نحو المشاركة الجماعية .

وتوجيه الإسلام يقوم على تنمية إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده ، فلا يندفع اندفاعا كما يندفع الحيوان والآلة . ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع ، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال والتدهور والضعف ، حتى يكون مجتمعا قويا فاضلا .

نظرة واحدة هى أساس تعاليم الإسلام وأهداف ثلاثة هى الغاية من توجيه الإسلام .

* * *

الإسلام بعد ذلك ليس مسئولا عن ضعف المسلم وخضوعه لشهوته ، وليس مسئولا عن ضعف روابط المجتمع الإسلامى أو انحلاله ، وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الإسلام ، والانحراف فى تطبيقه . كتاب الله ليس مسئولا عما يستورد من الشرق والغرب من فكر فى التوجيه . وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الإسلام والانحراف فى تطبيقه .

وسوء فهم الإسلام والانحراف فى تطبيقه لا يسأل عنه نفر معين من المسلمين ، إنما المسلم ما دام قد ارتضى لنفسه أن ينتسب إلى الإسلام — عليه أن يؤمن أولا بقلبه بالله ، فإذا آمن حقا بالله عرف الطريق الصحيح إليه « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

ترد بضاعة من الشرق وأخرى من الغرب . بعضها يدعو إلى الإلحاد ويكفر بالإنسانية وبقيمها .

وبعضها الآخر يدعو إلى الطغيان : طغيان المال على القيم الإنسانية ، وطغيان النار والحرب والقوة المادية على حق الشعوب فى الحرية والحياة .

وإسلامنا لا يتصل بالشرق أو الغرب ؛ لأنه يقوم على الإيمان بالله ، وعلى تمجيد القيم الإنسانية ، وعلى مكافحة الطغيان فى أية صورة . إننا لسنا شرقيين ولاغربيين ، إننا مسلمون . إننا دعاة الإيمان بالله وحده وبالقيم الإنسانية الفاضلة . إننا مجندون من ديننا لمقاومة الطغيان ، وإحلال العدل والسلم محله .

إن إسلامنا لا يعرف طبقات فى مجتمعه . لايعرف مجتمعا يقوم على أرستقراطية المال والشرف ، كما لا يعرف مجتمعا يقوم على خصيصة العمل البدنى وحده . ولكن يعرف التفاضل بين أفراده على أساس من توجهه . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولذا لا يقر أن تتحكم طبقة فى طبقة ، ولاطائفة فى طائفة ؛ لأنه لا وجود لطبقة أو طائفة فيه .

إسلامنا يعتمد على الضمير فى الإنسان . ولذا لا يعرف الإرهاب فى دفع الأفراد . إسلامنا يعتمد على الخشية من الله . ولذا لا يخشى طغيانا فيه ، من مجموعة على مجموعة ،

للمستورَد من الغرب أو الشرق بريق . ولكنه بريق خادع ، وإسلامنا هو الذهب الذى لاتتغير قيمته . ولكننا فى حاجة إلى أن تزيل عنه مالا بسه من سوء الفهم ، وانحراف التطبيق ، حتى يروج بين غيرنا بعد أن يسد حاجتنا ويغنينا عن التبعية لدخيل . يوم أن نكون كما ـ وصف كتاب الله المؤمنين به « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » ـ نكون بالفعل أغنياء .

إننا بإسلامنا خير أمة أخرجت للناس ، ولينا الله ورسوله والذين آمنوا « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » . « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . ؟

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

مقدمة :

١ — لم يكن عمر بن الخطاب مجرد مجتهد عادى ، أو فقيه له فهم وتصرف فى الشريعة ، ولكن ظروف حياته جعلت منه شخصية فذة فى محيط الفقه والشريعة والدين ، كما جعلت منه شخصية فذة فى السياسة والإدارة ، وذلك أنه منذ أول اتصاله بالإسلام كان يتبوأ منزلة عملية هامة، وصدارة بجانب الرسول والأصحاب. وكان إحساس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منذ أول الأمر مهيأ لذلك ، ودالا عليه ، إذ كان يشعر بأنه لو أسلم عمر لكان لإسلامه أثر كبير فى نجاح الدعوة وقوتها ، وكان لذلك يدعو الله أن يؤيد الإسلام به ، ولما أسلم فرح بذلك ، وفرح معه المؤمنون ، ولا شك أن شعور عمر بمركزه فى هذه الدعوة بعث فى نفسه مايحس به المسئول عن فكرة ومبدأ ، وذلك إحساس يعرفه الذين يتصلون بالأعمال اتصالا شخصيا ، ويجابهونها بأنفسهم وجها لوجه فإنه يفترق عن إحساس الذين يجتلبون لينظروا فى المشكلات ، أو الذين يحاولون حلها على الورق أو من الكتب ، أو على الجملة : فى غيبة عن المسئولية الذاتية ، والمجابهة العملية للواقع .

وابن الخطاب عاش طول حياته منذ أسلم فى هذا الوضع العملى الواقعى الذى يشعر فيه بأنه مسئول ، ويجعله مطالبا بأن يتصرف تصرف المباشر للسلطة ، المواجه للأعمال فى الخارج ، ولحساب مايؤمن به ، لافى الذهن فحسب ولا لحساب من يعمل باسمه وينفذ توجيهه.

هذه الحياة هى بعض ماهيأ عمر بن الخطاب تهيئة خاصة على غير ماتهيأ عليه المجتهدون الذين نعرفهم أو يعرفهم تاريخ الفقه الإسلامى .

ولسنا ننسى طبيعته الشخصية إلى جانب ذلك ، فإن هناك أفرادا لهم خلق البت فى المسائل ، والقدرة على مواجهة المشاكل ، والرغبة فى إنهائها وحسمها ، لافى تأجيلها ومحاولة التملص منها ، والتنصل عنها ـ أو بعبارة أخرى : هناك أفراد خلقوا متهيئين لتحمل التبعات ، والبت فى الأمور ، كما أن هناك أفرادا خلقوا على طبيعة من التهيب للأمور ، ومحاولة الابتعاد عن اقتحام المشكلات ، ومواجهة مالا عهد لهم أو للناس به ، ومن شأن هؤلاء الآخرين أن يكونوا مقتفين لآثار غيرهم ، متحرجين من الابتكار والإقدام على الجديد ، أما الأولون فمن شأنهم الإقدام دون تردد أو ضعف ، والقوة فى تحمل المسئولية والاضطلاع بالأعمال والتبعات .

وطبيعى أن أخطاء المتريثين أو المترددين قد تكون قليلة ، ولكن ذلك ليس راجعا فى حقيقة الأمر إلى أنهم فى حصانة ومناعة عن الخطأ ، لشدة ذكائهم ، أو بعد نظرهم ، ولكن إلى أنهم لم يباشروا إلا عدداً قليلا محصوراً من التبعات ، استقلوا بالنظر فيه ، ولو شئنا أن نوازن بين فرد وفرد من هؤلاء وأولئك لكان علينا - لكى تكون الموازنة صحيحة منصفة - أن نعد أولا عدد القضايا التى أقدم عليها واضطلع بها كل منهما ، ثم ننظر فى نسبة النجاح .

لهذا أصاب عمر فى كثير ، وأخطأ فى كثير ، وكان بحاجة أحيانا إلى أن يستثير ، واضطر أحيانا إلى أن ينفرد بالرأى .

— ٢ —

وعمر شخصية قوية ، خلق ليكون قائداً متبوعا ، لا جنديا تابعا ، وهذا المعنى كان يدفعه فى كثير من الأحيان إلى أن يعارض الرسول نفسه ، وإلى أن يعتبر أن لرأيه وزنا ، وأنه شريك فى تقدير الأمور ، وفى توجيه السياسة العامة للدعوة الإسلامية ، وحتى لما ينبغى أن يكون عليه الرسول فى شخصه ، وفى بيته وبين نسائه ، وشىء من الموازنة بينه وبين أبى بكر يرينا أن أبا بكر كان مثال الصاحب الممتثل امتثالا تاما ، الذى يؤمن من أعماق قلبه بأن له قائداً هادياً مهدياً من الله ، لا يمكن أن يصدر منه إلا ما هو حق وصواب وخير ، فإذا رأى ما لا يفهم لم يعجل ، بل تريث وصبر حتى ينجلى له الأمر دون أن يتطلب هو جلاءه ، أو يتشوف إلى بيانه ، أما عمر فكان يحب أن يفهم كل شىء ، ويحب أن يؤمن بكل شىء ، إيمانا عمليا نابعا من درسه للأمور ، ومعرفته بالحقائق ، وتفسيره للغوامض ، ولذلك كان يعارض أحيانا ، ويثور أحيانا ، وربما خرج فى بعض هذه الأحيان عن الرفق والهدوء الواجبين بإزاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [1] ، ولكن هذا كله لم يكن الدافع إليه ضعف الإيمان بالرسول — حاشاه ، ثم حاشاه — ولا الغرور بالقوة الشخصية التى هو عليها ، والتى يرى من حوله جميعا يقرون له بها ، وإنما كان دافعه شخصيته نفسها ، وما طبع عليه من استقلال ، وما يحس به من أنه مسئول أو مشارك فى المسئولية ، ومن أنه حامل

(١) أخرج البخارى من كتاب اللباس فى صحيحه بسنده إلى عبد الله بن عمر قال : لما توفى عبد الله ابن أبىّ ، جاء ابنه فقال يارسول الله أعطنى قميصك أكفنه به ، وصل عليه ، واستغفر له ، فأعطاه قميصه ، وقال له إذا فرغت منه فآذنا ، فلما فرغ منه آذنه به ، فجاء صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فجذبه عمر فقال له : أليس قد نهاك الله أن تصلى على المنافقين فقال لك : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال ابن عمر فنزلت « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم بعد نزولها .

للتبعة فى شأن الدعوة التى آمن بها ، ومن أنه ليس مجرد مستشار نظرى يبدى رأيه وينتهى الأمر ، ولكنه مستشار يحس بأن له شأنا فيما يستشار فيه ، وبأنه يحمل من أعبائه مثل ما يحمل الذين استشاروه ، فكان يتحمس للرأى ويحاول أن يفرضه فرضا ، لشدة إيمانه به ، وثقته بأنه الحق والصلاح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرف ذلك فيه ، ولا يكاد يغضب لشدته أو تحمسه ، أو مخالفته أو معارضته ، ثم كان يحاول أن يأخذه بالإقناع ، وأن يلزمه بالرأى أو بالعمل عن طريق بيان ما فيه من الخير والمصلحة فى كثير من الأحيان ، أو عن طريق إخباره بأنه مأمور بذلك من الله فى أحيان أخرى ، فكان عمر فى الحالين يذعن إذعان المؤمن المطمئن ، إما عن طريق المعرفة والاقتناع إذا عرف ، وإما عن طريق الثقة والإيمان إذا لم يكن الوقت قد حان لأن يعرف .

وينبغى ألا يغيب عنا أن اختلاف عمر عن أبى بكر رضى الله عنهما ، ليس اختلاف الإيمان والشك ، ولا القوة والضعف ، وإنما هو اختلاف ملامح الشخصيتين ، ولذلك نرى الصوفية يستخلصون من صفات هاتين الشخصيتين مقامين من مقامات الإيمان ، فيقولون : هناك مقام يسمى مقام (الصديقية) فإن من الأمة من يكون فى صفاء فطرته شبيها بالأنبياء ، فنفسه قريبة المأخذ من النبى كالكبريت بالنسبة إلى النار فكلما سمع خبرا ممن آمن به وقع فى نفسه بموقع عظيم ، وصار كأنه - علم هاج فى نفسه من غير تقليد ، وإلى هذا المعنى الإشارة فيما ورد من أن أبا بكر الصديق كان يسمع دوى صوت جبريل حين كان ينزل بالوحى على النبى صلى الله عليه وآله وسلم — والمراد أنه من شدة التلبية والاتباع والاقتداء ، كان بمثابة من يسمع ذلك بنفسه لنفسه . وهناك مقام آخر هو (المحدثية) ومظهره التأمل والتجوال بالفكر فى ملكوت العلم والنظر ، ومن كان هذا شأنه مع الإخلاص فى البحث والتطلع تواردت عليه الحقائق فكأنه يحدث بها ، وربما وافق فى الحوادث والأحكام ما ينزل به الوحى وإن لم يوح إليه .

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة (الصديقية) لأبى بكر ، وعرف أنه صاحبه المصافى الوفى الذى طبع حواسه بطابع قلبه من الإيمان المطلق ، فلا يشارى ولا يمارى فلذلك قال : (لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا) وقال : (أبو بكر أمنّ الناس على فى ماله وصحبته) . كما عرف مقام المحدثية لعمر ، فقال : (لقد كان فيمن قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر) ، ولما عرف له هذه المنزلة ، ورأى الوحى فى بعض الحوادث ينزل برأيه لم يكن يعبأ بأسلوب عمر المنبعث عن قوته فى الحق ، والذى قد يلابسه أحيانا شىء من الشدة أو العنف والإصرار .

هـذا مركز عمر من الرسـول الـكريم صلوات الله عليه ، ومع ذلك كان هذا المركز يحول بينه وبين أن يطلق لشخصيته القوية الجريئة عنانها ، ولـكنه انطلق حين كان بجانب أبى بكر بعـد وفاة الرسول انطلاقا أوسع وأبعد ، فـكان ربما رد على أبى بكر أمراً ، وربمـا عنف فى هذا الرد كما فعل فى حادثة المؤلفة قلوبهم (١) . وكان أبو بكر لثقته بإخلاصه وحسن نيته ،ولمعرفته بطابعه الشخصى ، وتأثرا بما كان يعامله به حبيبه رسول الله ـ كان أبو بكر لهذا كله ؛ ولأنه لا يبتغى إلا الخير ،ولا يحركه عامل التعصب لرأيه ، ولا يعانى النزعة التسلطية التى عهدناها فى الحكام والملوك ، حين يكبر عليهم أن يراجعوا فيما قرروا أو يرجعوا عنه ولو كان خطأ ؛ حفظا لمهابتهم وردا على من تحدثه نفسه بأنهم ضعفاء فى رأيهم ، أو متخبطون فى سياستهم ـ أقول كان أبو بكر لهذا كله، يسمع من عمر ، ويقبل من عمر ، ويرجع أحيانا إلى رأى عمر ، وكان مع ذلك إذا رأى عمر قد أخطأ ولم يتبين وجهة الصواب وقف له ورده وبصره بالأمر ، ولم يعـول على معارضته فيراجع عمر نفسه،وقد يعلم خطأه، وقد يصبر على ما لم يتبينه ثقة بصاحبه ، واطمئنانا إليه ، لا يدفعه الى الغضب أو الشغب أو انطواء النفس على شهوة الفلج دافع .

— ٣ —

ثم بانت ووضحت شخصية عمر تمام الوضوح بعد أن تم له الاضطلاع بالمسئولية كاملة .وهنا نراه يأخذ فى نسق آخر قد يبدو مخالفا لطبيعته فيكثر من الشورى،ويستعين فى درسه للمسائل بالسؤال والبحث ومعرفة رأى غيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر ما يرى على بصيرة من الأمر سواء أوافقهم على ما رأوا أو خالفهم.

وقد قلت : إن هذا يبدو مخالفا لطبيعة عمر؛ لأن طبيعته التى تحدثنا عنها طبيعة استقلالية ولـكن المتأمل يعرف أن الشورى والبحث ، والفحص ، من أهم الملامح التى تـكون الطبيعة الاستقلالية وليست تنافيها ؛ فإن القوى يريد أن

---

(١) روى ابن أبى الحديد وغيره : أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس جاءا إلى أبى بكر فقـالا له : إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعل الله ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمـن حوله : ما تقولون ؟ . فقالوا : لا بأس فـكتب لهم كتابا بها ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهم فيه ، فأخـذه منهم ثم تفل فيـه فمحاه ، فتذمرا وقالا له مقالة سيئة ، ثم ذهبا إلى أبى بكر وهما يتذمران . فقالا : والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر ؟ ! ـ فقال بل هو . وجاء عمر حتى وقف على أبى بكر وهو مغضب . فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هـذين أهى لك خاصة أم بين المسلمين؟؟ فقال : بل بين المسلمين فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين ؟ قال : استشرت الذين حولى . فقـال : أو كل المسلمين وسعتهم مشورة ورضى ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : فقد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا الأمر منى لـكنك غلبتنى .

يصدر رأيه قويا ؛ لأنه يريده حاسما لاتردد فيه ولا رجوع عنه ، فتراه قبل أن يصدره يدرسه ويطمئن إليه ثم يعزم فيصمم — والقوى ليس عنده تلك العقدة النفسية من الشعور بالضعف وبأن الآخرين أقوى منه ، فهو لذلك لا يأبى أن يستشير ، ولا يدور بخلده أن أحدا سيتصور أن استشارته ضعف أو قصور ، ولا يدور بخلده أنه لو أخذ برأى فلان أو ترك رأيه لفلان ، فإن ذلك سيحسب عليه ، ويؤخذ على أنه ضعف فى شخصيته أو أفن فى رأيه .

— ٤ —

يضاف إلى ما ذكرناه أن عمر يعتبر هو المؤسس العملى للدولة الإسلامية ؛ لأنه أول حاكم عام نهض بأعباء الدولة فى وقت كان لها فيه كيان داخلى وخارجى ، وصلات وإدارة ودخل وخرج على نظام متناسق ، وكان لها عمال وولاة وفتح ومصالح هنا وهناك . فهذا كله جعل عمر يدخل فى معركة حامية الوطيس ، وجعله مضطرا إلى إعطاء عمله جميع مواهبه ودقته وفكره ، ولم يمنحه فرصة التمهل وترك الأمور ، ولا كان هناك سوابق يمكنه أن يعتمد عليها فى كل شىء ؛ لهذا كان دوره دور المنشئ المؤسس الواضع للتقاليد الذى عليه أن يدرس كل مشكلة ويكون فيها رأيا ، ويضع لها حلا ، ولم تكن المشكلات قليلة ولا محصورة ولا كانت فى دائرة دون دائرة ، ولا كان له أعوان يستقلون بالبت فى بعض الألوان من دونه ، كما نعهد فى عصرنا الحاضر ، وما يشبهه من أن يكون بجانب الملك أو الحاكم العام ، وزراء لهم اختصاصات وسلطات ، تمكنهم من البت فى بعض الأمور .

لهذا صار عمر كأنه عقل وفكر ، وتمحص للتدبير ومرن عليه .

وإلى هذا ترجع أوليات عمر .

— ٥ —

ولم يكن عمر يفهم الإسلام فيما وراء العقيدة ، وما رسمه الله من شئون العبادة إلا على أنه نظام يستهدف المصلحة ، ويرمى إلى تنظيم شئون المجتمع على صورة مؤلفة من العدل والخير والتعاون ، ومعرفة الحقوق لأصحابها وأخذ الحقوق ممن وجبت عليهم ، ولم يكن حرفيا نصيا فى كل ما يعرض عليه ، ولذلك نراه أحيانا يواجه بالنص ويروى له فعل أو قضاء للرسول ، ومع ذلك يتمسك بما قضى هو ، ورأى هو ، إما لأنه لم يكن يثق تمام الوثوق بصحة ما روى له ، وإما لأنه لا يراه معارضا أو صالحا لأن يقف معارضا لنص آخر أوثق منه أو أدل منه ، أو لأنه يرى أن فعل الرسول كان معللا بعلة ، أو مرتبطا بنوع من أنواع المصلحة والنظر الخاص ، وأن ما لديه من الحال الواقعة ليس على نفس الصفة ، ولا مرتبطا بتلك المصلحة ، فكأنه يرى نص الرسول أو فعله أو حكمه خاصا غير عام ، أو مقيدا غير مطلق ، أو أنه قضى به باعتباره رئيسا

وإماما قدر ظروف وقته ، فله باعتباره رئيسا وإماما أن يقدر أيضا ظروف وقته .

وإذا كان عمر يبيح لنفسه والرسول قائم حى يوحى إليه أن يراجعه ويناقشه ويشير عليه ، وكان الرسول يقبل منه ، ويقبل عنه ، ويرجع أحيانا إلى رأيه ، فإنه ليس مما يتوقف فيه عمر أن يراجع ويناقش ويفهم ما روى عن الرسول بعد حياته ، ومرجع ذلك إلى أنه فى الحالتين ـ حالة حياة الرسول وبعد مماته ـ لا يعتبر نفسه مطبقا فحسب ، ولا ينظر إلى أفعال الرسول على أنها فى كل صغيرة وكبيرة تعاليم دينية ، لا فرق فى ذلك بين ما هو من شئون التبليغ عن الله ، وما هو من شئون النظر والاجتهاد والتطبيق العملى لما يصلح عليه المسلمون أفرادا وجماعة ، ولم يكن يعقد عليه الأمر فى نفسه هذا التعقيد الذى يبعث على التحرج والتخوف والتزمت ، وإنما كان كما قلنا : ينظر إلى الشريعة فى جوانب المصالح والمعاملات وسبل الحياة على أنها قواعد مفهومة وأحكام معقولة ، وطرق عملية ينبغى أن تقدر الواقع وتقدر على أساس من الواقع ، وأن تكون لها مرونة وقدرة على مواجهة كل حالة ، وعلى أن تتقدم أحيانا وتتأخر أحيانا وتتشدد أحيانا وتتسامح أحيانا ، وقد روى عنه أنه حكم فى قضيتين موضوعهما واحد ، بحكمين مختلفين فقيل له فى ذلك ، فقال ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى .

وإلى هذا الجانب يرجع كثير مما وجه إلى عمر من النقد ولاسيما من إخواننا الشيعة.

— ٦ —

وكان عمر شديد الحرص على أن يلتزم المسلمون كتاب الله ، وعلى أن يكون هو الدستور الأول ، والأساس الذى لا يبنى إلا عليه ، حين يعارضه غيره ؛ ولذلك ورد عنه أنه كان يكره التحديث أو الإغراط فى التحديث والرواية ، وأنه نهى عنهما بعض الذين أولعوا بذلك من الصحابة ، وأنه كان يستشهد على الحديث بغير راويه ، مع أن القاعدة التى أخذ بها علماء الحديث والأصول تقضى بقبول رواية الصحابى كائنا من كان ؛ لأن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم ، بل تقضى عند بعض العلماء بقبول رأى الصحابى والاستدلال به فى كثير من الصور ، فالذى كان عمر يفعله هو الاستيثاق حتى على الصحابى، بل روى عنه أنه كان يترك أحيانا رواية يرويها أحد الصحابة إذا رآها معارضة لنص قرآنى أو لسنة أخرى ، كما فعل فى رواية فاطمة بنت قيس فقال : لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لامرأة لا نعرف أحفظت أم نسيت ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

من هدي الكتاب العزيز

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة

المسلمون اليوم فى أمر مريج ، فى أمر له مابعده ، فقد غزاهم المذهب الشيوعى فى عقر دارهم واحتاز بعض أبنائهم وهو الآن جاهد فى أن يضم اليه رقعة المسلمين كلها ، والمذهب الشيوعى مذهب مادى ينكر الأديان ، ويراها ملهاة بالنعيم المنتظر فى الآخرة عن النعيم الحاضر فى الدنيا . والمسلمون اليوم فى موقف الاختيار أيختارون البقاء على دينهم ومثلهم العليا ويرفضون المادية الشيوعية ، أم يقبلون الشيوعية ويرفضون دينهم ؟ . وكأن هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها أنزلت اليوم غضة لتفصل فى هذا النزاع وهى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (آل عمران : ١٠٣) .

أتت الآية بحكم فصل فى هذه القضية العتيدة ، ولم يكن قولا خاليا من الدليل وإنما بينت دليله من تاريخ العرب فى جاهليتهم وتاريخهم ، بعد أن دخلوا فى الإسلام .

وخلاصة هذا الدليل أن الدين الإسلامى فى الأمة الإسلامية بمنزلة الروح من البدن ، به حياتها كأمة وبه بقاؤها . وما كان كذلك يجب أن يحتفظ به ويجعل بين الحشا والفؤاد . والدليل على أن الدين الإسلامى بهذه المنزلة ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، وتاريخهم بعد الإسلام . فقد كانوا متباغضين أعداء . فجاء الإسلام فألف بين قلوبهم ، وصاروا إخوانا وتبع ذلك العز والمنعة والقوة وملك الأرض .

أشارت هذه الآية إلى مكان الدين الإسلامى من الأمة الإسلامية . أهو زخرف لها وحلى ؟ أم حاجة من حاجتها وضرورة من ضروراتها ؟ أهو الشىء الذى تستغنى عنه وتعيش دونه ؟ أم هو الشىء الذى لاغنى لها عنه ولم توجد إلا به ولا بقاء لها بدونه ؟ .

أبانت الآية أنه ليس عضوا ثانويا فى جسم الأمة الإسلامية ، فليس كطرف من الأطراف التى تحيا دونه ، بل هو كالروح السارى فيها

لا وجود لها إلا به ولا بقاء لها دونه . ليس هو من بناء الأمة بمنزلة شرفة من الشرفات ، أو طلاء يطلى به البناء ، وإنما هو بمنزلة القواعد والأساس من هذا البناء . فإذا انهارت القاعدة انهار ما عليها من بناء .

بينت ذلك فى عبارة موجزة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . ذكرهم حالهم التى كانوا عليها قبل الإسلام من العداوة والبغضاء ، وحالهم بعد الإسلام من المحبة والإخاء ، وما تبع المحبة والإخاء من التعاون والتناصر على دفع الأعداء والمغيرين ، وما تبع ذلك من العز والقوة والغلب، ولم يزد عليهم شىء إلا الإسلام . لم تمدهم أمة من الأمم المجاورة بمال ولا سلاح ولا عدة، ولم تعززهم بجنود وفرسان . ولم يكن إلا أن جاءهم الإسلام فعزوا بعد ذل وقووا بعد ضعف ، وكثروا بعد قلة . فهو سبب هذا كله . به قام المجتمع الإسلامى وبه ظفر وانتصر وعز وغلب .

ليس ذلك حكما خطابيا بل هو حكم برهانى مقدماته ضرورية ، ترجع إلى الموازنة بين ما كانوا عليه قبل الإسلام وما كانوا عليه بعده ، فما حدث من ألفة وأخوة بعد عداوة وبغضة، إنما هو بما جد عليهم وهو الإسلام . وقد أمرت الآية بأن يذكروا هذه النعمة ليعلموا للإسلام قيمته فى توحيد الأمة وتأليف القلوب ، وجعلهم إخوانا فيما حفظوا عليه ما حافظوا على وحدتهم واجتماعهم ، وعزهم وقوتهم . وما أجدر المسلمين فى هذا العصر أن يذكروا للإسلام ذلك فيعلموا أنه كون المجتمع الإسلامى الذى عز وعظم ، ولولاه ما تكون . وأنه هو الذى حافظ على وجوده وبقائه ولولاه لما بقى . يجب أن يعلموا ذلك وأن تختفى تلك النظرة التى ينظر بها إلى الإسلام من أنه علاقة بين العبد وربه فحسب ، وأن الدين فى المساجد والكنائس . هذه نظرة خاطئة ! وهى سبب إهمال الإسلام اليوم .

إن الإسلام هو الذى بث فى الأمة الإسلامية الفضائل الاجتماعية التى بها عزت وسادت ، من الألفة والمحبة، والتعاون والنصرة والفداء ، والعدل والقيام بالقسط . لقد بنيت فضائلها كلها عليه، فإذا ضعف فى نفوس المسلمين أو زال، ضعف أو زال ما بنى عليه من فضائل ، ويتبع ذلك ضعف المجتمع الإسلامى . والمسلمون فى هذا العصر أحوج ما يكونون إلى ما يبث فيهم القوة والتعاون والتناصر ، وما يفعل ذلك هو الإسلام .

أى شىء أسنى قيمة ، وأولى بأن تحفظوه ، وتدفعوا عنه دفاعكم عن أموالكم، وأبنائكم ، وحريمكم ، من شىء جاءكم وأنتم أجوع الناس بطونا، وأعراهم جلوداً، وأذلهم ذلا، وأشقاهم عيشا ، وأبينهم ضلالة ؛ فأطعمكم وكساكم ،

وأعزكم وبسط لكم فى الرزق ، وهداكم من ضلالتكم ؟ .

أى شىء أولى بأن تجعلوه بين الحشا والفؤاد ضنا به ، وحفاظا عليه ، من شىء جاءكم وأنتم أصغر أهل الأرض حظا ، وأدقهم شأنا ، فجعلكم شيئا مذكوراً ، ورفع قدركم فوق الأقدار ، واسمكم فوق الأسماء ؟ .

أى شىء أولى بأن تدفعوا عنه دفاع من يعلم أنه إذا حرمه هلك ، من شىء جاءكم وأنتم رعاة غنم ، وحداة إبل ، فجعلكم رعاة أمم ، وساسة ممالك ؟ .

أى شىء أعظم فى نفوسكم من شىء . علمكم الكتاب والحكم ، بعد الجهل والأمية ؟ .

أى شىء أعظم من شىء جاءكم وأنتم يغير بعضكم على بعض ، فتقتتلون وتنهبون حتى قال شاعركم :

وأحيانا على بكر أخينا
إذا ما لم نجد إلا أخانا

فجعلكم أعف الناس وأعدلهم ، تقومون فى الناس حكاما مقسطين ، حتى قال أحد خلفائكم : عمر بن الخطاب لعامله على مصر عمرو بن العاص ، وقد ضرب ابنه ابن أحد سكانها القبط متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ؟ ؟ .

تعلموا أيها المسلمون أن الذين يخادعونكم عن دينكم يسلبونكم أسمى شىء فى حياتكم ، يسلبونكم أرواحكم ، ومقومات وجودكم .

وإن المرء لا يسعه أن يمر على هذه الظاهرة التى أشار إليها القرآن ، وهى : أن العرب كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا إخوة متحابين ، دون أن يتساءل ما الذى منحهم الألفة بعد التفرق والأضغان والإحن ؟ . وما الذى عمد إلى صدورهم فمحا ما فيها من غل وضغن ، وإلى عقولهم فأنساها العداوات والتراث ، وعادت صدوراً بريئة طاهرة لا غل فيها ولا ضغن ، بل المحبة والطهر ، وعادت لا تذكر التراث والماضى المضرج بالدماء ، وإنما تذكر الحاضر وما فيه من نعمة الأخوة . وهذا شىء كان صعب المنال ، بعيد الاحتمال؟ كما قال الله تعالى: « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » (الأنفال: ٦٣) ، أهذا أمر إعجازى خارج عن الأسباب الاجتماعية فليس لنا أن نطمع فيه ثانية، لأنه خارج عن القوى والقدر؟ أم هو أمر يرجع إلى أسباب طبيعية هدى إليها الله، فاذا رجع المسلمون إلى تلك الأسباب وأخذوا بها ارتدت إليهم ألفتهم وعاد إليهم تعاونهم ؟ كذلك ينبغى أن ننظر إلى هذه الظاهرة التى أشار إليها قتادة وهى أن العرب كانوا أذل الناس ذلا وأشقاهم عيشاً ، وكانوا يؤكلون . فلما جاء الإسلام صاروا أعزاء أقوياء وملوكا على رقاب الناس ، وبسط لهم فى الرزق وفى أسباب الحضارة والرقى . ما هذه الأسباب الخفية فى الإسلام التى جعلت من

الضعف قوة ، ومن الجهل علما ، ومن التوحش مدنية ؟ ، ما هذه الأسرار الكامنة التي فعلت فعل السحر ، وربت هذه القبائل في زمن وجيز ، لا يتسع لتربية فرد ، وتهذيبه وتثقيفه ؟ . إنه ينبغي البحث في ذلك كله لتعلم علل ذلك وأسبابه ، ومعرفة العلل والأسباب للأشياء هي العلم الحقيقي . ولتعلم أسرار القوة في الإسلام فنحافظ عليها ونجتلبها إن كنا قد ضيعناها ، وأسباب الضعف التي طرأت على الإسلام فننحيها ونعود بالدين غضا كما كان ؛ ليكون مناراً للعزة والمنعة والقوة والخير ، كما كان . إنه يجب أن نعرف وضعنا في هذا الوجود ، ونعرف الأفاعي التي حولنا ، والتي تنفث فينا سمومها ، والتي حذرنا إياها القرآن منذ نزل . وكل ذلك من التفسير بل هو صميم التفسير ، لأنه ليس الغرض من التفسير أن تعرف مدلولات الألفاظ اللغوية والجمل ، ولا نطبق ذلك على أنفسنا وعلى مجتمعنا . وإنما الغرض أن نتدبر القرآن ونفقهه ، والفقه أعلى منزلة من الفهم ، ونطبقه على أنفسنا ومجتمعنا ، فنعتبر به ونهتدي ، ولهذا أنزل القرآن «الم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين» (البقرة : ١ ، ٢) .

سر ذلك كله كامن في الإيمان بهذا الدين الجديد ، الذي هو الإسلام . آمنوا بهذا الدين إيمانا انعقدت عليه قلوبهم ، واطمأنت به نفوسهم ، فصاروا يعملون حسب أوامره وينتهون عند نواهيه . وقد جاءهم بمكارم الأخلاق وأحاسن الصفات ، وأمرهم بما يوحد مشاعرهم وآراءهم في الحياة ، وأغراضهم ومثلهم العليا وأهدافهم ، وفرض عليهم أخوة إسلامية جعل لها حقوقا مثل الحقوق في أخوة النسب ، بل أكثر . فقد كان المؤمن يقاتل أخاه في النسب ، حماية لإخوانه في الدين . وبذلك زالت العداوات والإحن القديمة ، وحل محلها الإخاء الإسلامي والتعاون .

لولا الإيمان اليقيني بهذا الدين لما أطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، ولولا أن الدين جاء بخيرهم في الدنيا مع خير الآخرة لما تم هذا الصلاح العظيم . نقول لولا اليقين بهذا الدين الذي جاءهم لما أطاعوا ، لأن العرب كان فيهم خلق الأنفة والعناد والإصرار ، لما فيهم من بداوة وتوحش . فكانوا لا يستجيبون بعضهم لبعض ، ويصعب على المرء قيادهم . فلما كان الأمر أمر سماء قبلوه وأطاعوه ، وصاروا يراعونه في السر كما يراعونه في العلن .

ولولا أن الأوامر التي يجب أن يأتمروا بها ، والنواهي التي يجب أن ينتهوا عنها تضمنت الخير والصلاح : من المحبة والتعاون والصدق والعدل وبذل النفس والنفيس في سبيل الذب عن جمعهم ، والدفاع عن عقيدتهم ، لما بلغوا هذا الشأو من الصلاح ؛ فإننا لا نعلم أمة من أمم الأرض في القديم كان لها مثل هذا الملك الواسع والمجد الباذخ . ؟

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

تنظر الديانة اليهودية إلى الزواج على أنه واجب ديني على كل قادر عليه . ويقرر فقهاء اليهود أن جريمة من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه تعدل جريمة القاتل ؛ لأن كليهما « يطفئ نور الله . وينتقص ظله في أرضه ، ويبعد رحمته عن إسرائيل » . بل لقد ذهب كثير منهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فقرروا أن من يبلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج .

ومن أهم الأسباب التي جعلت اليهود يعلون من شأن الزواج إلى هذا الحد ، أن تخليد اسم الأسرة وتخليد شعائرها ووظائفها الدينية وتوثيق صلتها بالرب ، كل ذلك كان يتوقف في عقيدتهم على إنجاب البنين . وليس ثمة وسيلة مشروعة لإنجاب البنين إلا الزواج ، وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم حكاية عن زكريا : « وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا ، فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب ... » (١) .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الشرعية نفسها إذا لم ترزق ذكرا تتنازل لجارية زوجها أو لجاريتها عن فراشها ، ابتغاء أن يأتي منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة . ومن الغريب أن من كانت تأتي به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعد ولداً للزوجة الأصيلة لا للجارية التي ولدته . فكانت الزوجة هي أمه الشرعية ، على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت للإتيان به . وقد طبق هذا النظام على اسماعيل الذي جاء به ابراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجه الأصيلة بابنها اسحق ، وطبق على « دان » و « نفتالي » Dan,nephthali اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلها Bilha قبل أن ترزق زوجه الأصيلة راحيل بيوسف وبنيامين (٢) .

---

[١] آيتي ٥ ، ٦ من سورة مريم

[٢] سفر التكوين إصحاح ١٦ وفقرات ١ ـ ١٤ من إصحاح ٣٠ .

ولم يشذ عن ذلك من فرق اليهود جميعا إلا فرقة الحسديين أو الإيسينيين أو الآزيين Esséniens (١) فقد كان من أهم مبادئ هذه الفرقة، حسب ما يحدثنا به المؤرخ الشهير يوسف Josephe «الرغبة عن جميع متع الجسم، والنظر إليها على أنها شرور. واعتبار التبتل (٢) والبعد عن النساء من أمهات الفضائل. ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج (٣)».

ومع أن هذه المبادئ الحسدية لم يكن لها أثر كبير فى الديانة اليهودية نفسها، ولم تطبق إلا فى نطاق جماعة الحسديين وحدهم، وفى مواطن منعزلة عن الناس، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال فى الديانة المسيحية التى جاءت بعد ذلك. فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج، وأن الحصور (٤) أدنى إلى الله ممن يقرب النساء. وفى هذا يقول: بولس الرسول فى رسالته إلى أهل قورنثة (٥): «من يزوج ابنته يأت عملا طيبا، ومن لا يزوجها يأت ما هو خير (٦)، و«إنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع

---

[١] انقسم بنو إسرائيل فى العصور الأخيرة السابقة للميلاد إلى ثلاث فرق: فرقة الفروشيين «فروشيم pharisiens» وفرقة الصادوقيين «صادوقيم saducèens» وفرقة الحسديين أوالإيسينيين أو الآزيين «حسديم essèniens»، ومعنى حسديم: المشفقون، والياء والميم علامة الجمع فى العبرية». وقد امتازت هذه الفرقة الأخيرة عن سائر فرق اليهود فى الشئون الاقتصادية باتجاهاتها الشيوعية المتطرفة، وفى الشئون الدينية بالإكثار من الغسل والوضوء، وبتحريمها تقديم الأضحية والقرابين، وبالدعوة إلى الزهد والتقشف. ومحاربة البذخ والترف والحياة الناعمة، وفى الشئون العائلية بتحريم الزواج واعتبار التبتل من أمهات الفضائل. وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى، وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت. وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه الفيلسوف فيلون philon، والمؤرخ اليهودى يوسف josephe. وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادى.

[٢] تبتل إلى الله وبتل بتشديد التاء انقطع وأخلص، أو ترك النكاح وزهد فيه. ا هـ. قاموس. وبهذا المعنى الأخير سنستعمل هذا الفعل ومشتقاته فى هذا المقال.

[٣] Josephe: De Bello Judaico, II, 8, 2.

[٤] الحصور: من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك، والممنوع منهن، ومن لا يشتهيهن، ولا يقربهن «من القاموس المحيط» وبالمعنى الأول وحده نستخدم هذا الوصف فى مقالنا هذا.

[٥] انظر بحثنا فى هذه الرسائل وغيرها من أسفار العهد الجديد فى مقالنا بعدد شوال ١٣٧٨ هـ من مجلة الأزهر.

[٦] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة، فقرة ٣٨ من الإصحاح السابع.

فى الخطيئة (١) » و« إنى لأنصح الأيامى (٢) من الرجال والنساء أن يمتدوا بى ، فيظلوا على ماهم عليه . فإن لم يقو أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج ، فلأن يتزوج خير من أن يكون وقودا لنار جهنم » (٣) .

ويعلق ترتوليان (٤) Tertullien على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيراً فى ذاته ، فلأن يفقد الإنسان عيناً واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه . ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير فى شىء - فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم ، ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معا : فلا يتزوج ، ولا يعرض نفسه لعذاب النار . وإن قصارى مايحققه الزواج أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتى بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان Jean Baptiste (يحيى بن زكريا) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم فى سفر الخلود ، آثروا التبتل وحثوا الناس عليه . وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى (٥) أن تعبر البحر هى وجميع من كن يسرن خلفها من النساء ، فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات . والقديسة البتول تكلا Thècle قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها وخرت جاثية تحت قدميها (٦) ... وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء . . . ولو أن آدم لم يعص ربه

---

[١] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، فقرتى ١ ، ٢ من الإصحاح السابع .

[٢] الأيم - بتشديد الياء المكسورة - : العزب رجلا كان أو امرأة والجمع فيهما أيامى اهـ. المصباح.

[٣] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة فقرتى ٨ ، ٩ من الإصحاح السابع .

[٤] من كبار رجال الكنيسة المسيحية « ١٦٠ ، ٢٤٠ م » .

[٥] هى التى ورد ذكرها فى القرآن فى قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل : فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ » [آيتى ١١ ، ١٢ من سورة القصص] .

[٦] تذكر القصص المسيحية أن الشهيدة تكلا كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية فى القرن الأول الميلادى على يد الرسول بولس ، وأن الله قد نجاها بمعجزة منه من كثير من أنواع العذاب التى امتحنها بها الوثنيون ؛ ليثنوها عن عقيدتها ، ويحتفل المسيحيون بذكراها فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر.

لعاش طاهرا حصورا ولتكاثر النوع الإنسانى بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين » (١) .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لايجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى إن مجمع مديولاننس Médiolanense المسيحى قد حكم فى أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب جوفينيان Jovenien بالطرد من الكنيسة ، لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج . وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنسانى ولصيانة الفرد من الفاحشة . ومن ثم لاينبغى فى نظرهم للمسيحى أن يطلق لنفسه العنان فى إشباع شهواته ، بل ينبغى أن يفيد من ذلك بقصد واعتدال، وفى الحدود التى تحقق الذرية والنسل، « فيكون شأنه شأن الزارع الذى إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذوراً أخرى » (٢) .

وقد ذهبت فرقة المارسيونيين Marcionies (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون) (٣) إلى ماهو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد

---

[١] Tertullien, de Monogamia 3, atépar Westermarck, Idées Morales, II, 395, 396 ، وقد وافق ترتوليان على ماتضمنته الفقرة الأخيرة الخاصة بآدم ونسله جريجوار النيسى ويوحنا الدمشقى Grégoire de Nysse, Jean de Damas ، وخالفه فى ذلك توماس الإكوينى St Thomas d'Aquin الذى يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسى . ولكن هذا الاتصال — فى نظر توماس الإكوينى — لم يكن فى بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التى امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة Westermarck, op. cit. 396 .

[٢] Westermarck op. cit. 396 .

[٣] ولد مارسيون Marcion هذا ببلدة سينوب Sinop « ميناء على البحر الأسود فى تركيا » فى أوائل القرن الثانى الميلادى وكان أبوه قسيسا ، ونشأ هو قسيساً كذلك ، ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية ، ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلى من صنع الإله العادل Dieujuste أو الإله ديميورج Démiurge وهذا الإله هو الذى اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً وأنزل عليهم التوراة ولكن سلطان هذا الإله قد انتهى عند ماظهر الإله الخير Dieu Bon متمثلا فى المسيح ، وخلص الإنسانية من خطاياها ، فحينئذ بطلت كل أعمال الإله السابق . ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم « كتب اليهود المقدسة » فى جملته وتفاصيله . أما العهد الجديد « كتب المسيحيين المقدسة » فإن هذا المذهب لا يعترف منه إلا بسفرين: وهما إنجيل لوقا ورسائل بولس وبعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة . وعلى الرغم من الحرب الشعواء التى شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير، فى إيطاليا وإفريقية ومصر . وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ، ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضا تاما فى القرن الخامس الميلادى .

نحلتها ، كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود ، وأوجبت على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجه ، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى ، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على الرهبان ، وعلى القسيسين فى المذهب الكاثوليكى ، فمنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة متوفى عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته .

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى أصدر مجمع إلفيرا Elvira (فى أسبانيا) قرارا بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة . وفى أواخر القرن الحادى عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمرا بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان : كبارهم وصغارهم « حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسى » ، ومع أن هذا القرار قد لاقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة فى كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكد ينتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان نظاما مقررا فى الكنيسة الكاثوليكية ومطبقا على جميع القساوسة والرهبان من الرجال والراهبات من النساء .

* * *

وكان العرب فى الجاهلية ينظرون إلى الزواج على أنه واجب اجتماعى وعائلى ، ويحرصون على إتمامه فى سن مبكرة لذكر والأنثى على السواء ، بل لقد كانوا يزوجون الأنثى أحيانا وهى فى سن الطفولة . ومع ذلك فقد كان منهم من يترك الزواج تبتلا ، وكانوا يطلقون فى الجاهلية على كل رجل من هذا النوع اسم « الصَّرُورَة » . ولعل هذا النوع كان يتألف ممن اعتنق المسيحية من العرب أو ممن تأثر بعقائدها .

* * *

وأما الشريعة الإسلامية فإنها تحث على الزواج وتنظر إليه على أنه الحالة المثلى ، والوضع السليم الطبيعى للمسلم والمسلمة . بل لقد ذهب الظاهريون من فقهاء المسلمين ، وعلى رأسهم داود الأصفهانى وابن حزم ، إلى أن الزواج فرض عين على كل مسلم قادر عليه ، وعلى مختلف أعبائه . فهو للمسلم فى نظرهم بمنزلة الصلاة والصوم وما إليهما من الفروض العينية حتى إنهم

يرون أن من تركه مع القدرة عليه وعلى أعبائه يكون إثمه إثم من ترك ركنا من أركان الإسلام ، ويستدلون على ذلك بعدة آيات وأحاديث ورد فيها طلب النكاح بصيغة الأمر ، ذاهبين إلى أن الأمر المطلق للفرضية والوجوب . وذلك كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (١) وقوله : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » (٢) وكقوله عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » ؛ وقوله : « من استطاع منكم الباءة (٣) فليتزوج ، ومن لم يستطع فليصم ؛ فإن الصوم له وجاء » (٤) وقوله : النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » ؛ وقوله : « تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » (٥) .

وحتى معظم فقهاء المسلمين الذين لم يذهبوا إلى حد القول بفرضية الزواج على الإطلاق ، ينزلونه منزلة تقرب من منزلة الواجب ، ويقولون بوجوبه إذا خشى الفرد الوقوع فى المحرم .

فلا خلاف بينهم جميعا فى أن العزوبة تتنافى مع الأوضاع الإسلامية الصحيحة ، وفى هذا يقول عليه السلام : « من تزوج فقد أحرز نصف دينه » ؛ ويقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، والولد الصالح لا يكون إلا ثمرة لزواج مشروع . وعن أنس بن مالك أنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته . فلما أخبروا كأنهم تقالوها (أى عدُّوها قليلة) ، فقالوا : أين نحن من رسول الله ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ! . قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ؛ وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله

---

[١] آية ٣ من سورة النساء . [٢] آية ٣٢ من سورة النور

(٣) الباءة والباء النكاح ، وبوأ تبويئا نكح ، من القاموس المحيط . والمعنى من قدر منكم على أعباء الزواج فليتزوج

(٤) يطلق الوجاء على رض عروق الخصية من غير إخراج . فيكون شبيها بالخصاء ؛ لأنه يكسر الشهوة ، اهـ . من المصباح ، والمعنى : من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم ؛ فإن فى الصيام إضعافا للنزوات ، ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع فى المحظور .

(٥) انظر فى هذا الموضوع « بدائع الصنائع » للكاسانى ، باب الزواج .

أنجع وسائل الدعوة

للأستاذ محمد الغزالى

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان .

وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب ...

أتظن جمال الباطن أضعف أثرا من وسامة الملامح ؟ .

كلا ، إن طبيعة البشر محبة الحسن والالتفات إليه .

وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والركون إليهم .

ومن ثم فإن الداعية الموفق الناجح هو الذى يهدى إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة ، لأنه مثل حى متحرك للمبادئ التى يعتنقها .

وقد شكا الناس فى القديم والحديث من دعاة يحسنون القول ويسيئون الفعل ! !

والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم ، لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان ويصيبها فى الصميم ...

ولا يكفى ــ لكى يكون المرء قدوة ــ

عليه وسلم إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١).

وأما ما ينسب إلى الرسول عليه السلام من أحاديث ترغب فى التبتل ، كقوله : « خيركم من لم يتزوج بعد المائة أو بعد الألف » أى من التقويم الهجرى ، فهى أحاديث موضوعة تتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه . ويظهر أنها تعبر عن اتجاهات مسيحية تسربت إلى بعض بلاد المسلمين أو عن اتجاهات الغلاة من المتصوفين .

دكتور على عبد الواحد وافى

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

أن يتظاهر بالصالحات أو يتجمل للأعين الباحثة ، فإن التزوير لا يصلح فى ذلك الميدان ، ولا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة وامتداد الزمن وتمحيص الأحداث .

وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية ...

ذلك أن النفس المتحركة بروح الإيمان كالآلة الدائرة بما يعمر خزانها من وقود ، أما النفس المحرومة من هذا الروح فهى كالآلة التى تدفع باليد حينا ثم لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب فتتوقف وتسكن ...

والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج إلا إلى شىء من التكلف والمصانعة ، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشىء من إدمان الرسوم وإتقان الهمهمة .

وهذا ضلال بعيد فالأمر أخطر مما يظنون .

إن التدين الحقيقى صورة لجوهر النفس بعد ما استكانت لله ونزلت على أمره ، واصطبغت بالفضائل التى شرعها ، وترفعت عن الرذائل التى حرمها ، واستقامت على ذلك استقامة تامة .

هذا التدين وحده هو الذى تلتمس منه الأسوة ويقتبس منه الهدى ، ويؤسفنى أن أقول : إن هذا الضرب من التدين العالى نادر الآن ، وأن أشعة الكمال المنبعثة من وهجه لا تكاد ترى .

بل إن نفراً من الناس الذين لا ينميهم دين أقرب إلى المسلك الصحيح ، وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من آخرين انتسبوا إلى الدين ، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرب لروحه ... !

وعندما ينكب الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار ، فالمجال واسع لشيوع الإلحاد وانتشار المعصية والعدوان .

قال لى صديق : إن فلانا « الأوربى » إذا وكلت إليه مهمة خرجت من بين يديه متقنة الأداء ، ظاهرة الجودة. أما فلان الذى يكثر الصلاة فقلما يرحنى فى إحسان عمل أو أداء واجب ... !

لقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين ، ولم يسؤنى منها أنها باطل ـ إذ هى أحيانا حق ـ وإنما ساءنى منها أن ذلك « المتدين الكسول » دعاية شنيعة ضد الصلاة ، إنها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادئ الفاضلة . !

وقد لاحظت أن الأجنبى ـ فى أغلب الأحيان ـ يرى خدشا لكرامته ، وطعنا

فى كيانه أن يصدر العمل عنه ناقصا ، فهو يجوده احتراما لنفسه ، وصيانة لشخصه .

على حين تجد مواطنا ينتمى إلى الدين - كما يزعم - ثم هو يقوم بالعمل على أسوأ الوجوه ، ويبسط لسانه بالجدل الطويل فى تسويفه وإقناع الآخرين بقبوله ... !

ولعلنا لم ننس قصة المهندس الذى أشرف على بناء جسر السلطان أبى العلاء ، وكان أجنبياً .

فإنه لما رأى عمله لم يصل إلى درجة الكمال التى ينشدها ، رمى بنفسه من فوق الجسر العالى ، فهوى بين أمواج النيل ، وكاد اليم يبتلعه لولا إسعاف المنقذين .

لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعد ما فشل فى إحسان العمل الذى كلف به ...

وإنما أثبت هذه القصة لأنى أعرف أناسا مثله ، وقعوا فى شر من تفريطه وخرج العمل من بين أيديهم مبتورا مشوها ، فلما عوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقيا التبعة على غيره ...

ولعله بعد ذلك جلس إلى مكتبه يجرع القهوة فى كبرياء !

أيصلح هؤلاء أمثلة للإسلام ؟ ؟ .

قل لى بالله : كيف يهوى سلوك الفرد منا إلى هذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الناس الإسلام ويقبلوا عليه ؟ .

إن الدعوة إلى الاسلام تكون أولا بعرض ثماره فى الأخلاق والأحوال ، أعنى : ثماره فى أتباعه المؤمنين به ، ويومئذ ترجى الإجابة ، ويرتقب الاهتداء ...

ولنعد إلى أسباب انتشار الإسلام أيام السلف الصالحين . . .

إن « خلق » الدولة ، وصلاح أنظمتها وكفالتها أكبر حظ من العدالة والسعادة للأفراد ، كان الباعث الأعظم على دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الإسلام .

بل غبطتهم لأن دائرة هذا الدين بلغت من الرحابة حداً جعلتهم يأوون إليها وهم وافرون أعزاء . . .

حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم فى الدولة الإسلامية وقصورها ، عن التحليق مع المثل الرفيعة التى نشدها الإسلام فى اختيار الحكام .

إن هذا القصور لم يقدح فى مدى الخير الذى يحرزه الناس تحت علم الدولة الجديدة ! ! ذلك أنه أعلى درجة ألف مرة

من الخير الذى رأوه فى ظل أكاسرة فارس وقياصرة روم .

وحين تتابع أوصاف المسلمين الفاتحين - كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين - نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظافرة بشىء من الدهشة ، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل ، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها ! !

أجل : زاحموهم عليها ، ونافسوهم فيها ، واعتنقوها ليعملوا بها مثل أو أجل من أصحابها الذين نقلوها ، مصداق قول الرسول الكريم : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

الإعجاب بالإسلام فى أحوال الفرد ، والإعجاب بالإسلام فى أحوال الدولة ، هو وحده السبب الفعال فى تزاحم الخاصة والعامة على هذا الإسلام ، وارتضاؤهم له ...

والإعجاب لا ينبت فى النفس خبط عشواء .

أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخرفة ؟ .

أتظن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة ؟ .

أتظن المتقدم فى أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف فى هذه وتلك ؟ كلا كلا ....

إن المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم ، وأن ينسجوا على منوالهم ، وأن يقلدوهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وأن يهجروا لغاتهم الأصلية إلى اللغة العربية الوافدة ، لأن المسلمين كانوا يمثلون فى العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة .

والمعجب بك قد يذوب فيك ، وذلكم هو ما حدث فى « المستعمرات » التابعة للشرق والغرب ، أعنى : لفارس والروم ، يوم زحف عليها الإسلام ، وانساب فى جنباتها .

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحداً يؤمن بك عقب انتصار فى معركة جدل ، أو انتصار فى ميدان حرب .

إن المقهور فى أحد الميدانين قد يستسلم راضيا أو ساخطا .

بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص ، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدا .

ومن ثم نرى لزاما علينا التوكيد بأن القدوة وحدها ، وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب ، هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة فى أوسع نطاق .

محمد الغزالى

نفحات القرآن

— ٦٨ —

الهجرة - « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

(ا) ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة .
(ب) ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما .

١ — حادث الهجرة النبوية الذى نحن بصدده اليوم : لم يكن الأول فى بابه - فيما نفهم من التاريخ - فقد هاجر إبراهيم - عليه السلام - بدينه ودعوته من العراق إلى الشام ، بعد أن تحداه الفرس ، وحاولوا أن يحرقوه بالنار .

وهاجر موسى - عليه السلام - مع المؤمنين به من بنى إسرائيل ؛ فرارا من فرعون وجنوده بمصر ، واستدراجا لهم إلى البحر ؛ لينجو موسى ومن معه ، ويغرق فرعون وجنوده

ويشبه ذلك أن تحول عيسى عليه السلام من بلده ومولده - بيت لحم - إلى أورشليم ، حيث انتهت حياته فى بنى إسرائيل .

ولكن هذه الهجرة ونحوها لم تأخذ ما أخذته هجرة محمد - عليه وعلى صحبه الصلاة والسلام - من الأهمية فى ميزان التاريخ ، ولم تحمل واحدة منها اسم الهجرة كما حملته هجرة النبى والمسلمين من مكة إلى المدينة ؛ حتى أصبحت هذه الكلمة كعنوان خاص : فيه من المعانى ، والذكريات ، والمقاصد ، ما يحتاج إلى بسطة فى القول ، وفسحة فى الزمن ، على نحو ما نرى من عناية الكاتبين سلفاً وخلفاً ، وحتى صارت الأذهان تنشط - عند ذكر كلمة الهجرة - إلى استشعار قصص حق ، فضفاض ، رائع ، خطير عن شأن من شئون الإسلام الهامة .

فمن الحق الذى صرنا إليه أن نعتبر هجرة محمد والمسلمين حادثا أول فى نوعه ، ومبدأ جديداً فى بابه ، وعبرة شاخصة على الزمن ، وأن يعتبره المسلمون الأولون صدر التاريخ .

٢ — كانت دعوة محمد - صلوات الله عليه وسلامه - سلمية رفيقة ؛ لأنها حق ، وللحق مع

هدوئه صولة تبدو وضيئة رحيمة. ولكنها لقيت خصومة باطلة عارمة.

وللباطل دولة، يبدو فيها متجهما عانيا.

فما يكاد الحق ينبثق نوره حتى تبهت جهامة الباطل.. ولا يكاد الحق ينشر رحمته، حتى يذل جبروت الباطل، ويستقر الأمر على خير ما أراد الله، ويعيش الحق فى سلطان الله ورعايته، ويذهب الباطل، أو يعيش فى غير محبة الله، حتى يزهق يوما ما ؛ «إن الباطل كان زهوقا».

٣ - اشتد اللجاج من قريش مع محمد، وبقدر ما كان شغوفا بهدايتهم، ووفيا لقرابتهم، كانوا ينفرون من نصحه، ويتجهمون لشخصه، وينسون ما بينه وبينهم من لحمة، ودم، ورحم.

ومع ما لقى من عنتهم له، وإيذائهم لمن يتابعه، كان مأموراً بالتجاوز عن مساءتهم ؛ «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين».

ولم يكن يستطيع غير الصبر والمصابرة، فإذا اشتد به الضجر من مهانتهم لاذ بالصبر كما علمه ربه، ولم يكن مأذوناً له - حتى بعد انضمام أناس إليه - أن يحاول الدخول معهم فى حرب ؛ لأنها مجازفة بالقلة العارية عن قوة، أمام الكثرة المستعصية.

وإذ بلغ الشر مبلغه كان جائزاً أن يأخذ الله قريشا بعذاب من عنده، كما فعل بأمم سابقة، فسلط عليها الأعاصير المحرقة، أو الغرق المبيد أو الصيحة والصواعق الماحقة، ولكن الله أكرم محمداً حتى فى خصومه، فأعفاهم من هلاك عاجل، وأمهلهم إلى عذاب آجل ؛ واستجاب فيهم لدعوة محمد لهم «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون»، أو لعل الله يخلق من ظهورهم من يعبده.

٤ - ثم لما استجاب لدعوته أناس من حجاج المدينة، وكثر بهم عدد المؤمنين من أبناء مكة أذن الله لمحمد بالمقاتلة، دون إيجاب لذلك ؛ «أذن للذين يقاتلون، بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير»، ثم تدرج الإذن بالقتال إلى تكليف به، إذ أصبحت للمسلمين كثرة ؛ «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله».

ولكن: كيف يقاتل محمد وهو مع القلة من مؤمنى مكة يعيشون فيها بين جمهرة ساحقة من كفار قريش ؟؟ ليس ميسورا أن يحضر إليه الأنصار من المدينة، ويتخلفوا عن وطنهم، وأموالهم ؛ ليهاجموا قوما أشداء فى بلدهم.

وليس سهلا أن يظفر المحارب الدخيل على مواطنين يعرفون مداخل بلدهم ومخارجها. وكما يقال: أهل مكة أدرى بشعابها.

لذلك : كانت السياسة الرشيدة التى رسمها الإسلام ، وجعلها منهجا متبوعا لنا إذا اقتضت الحال فى موقف كهذا — أن يهاجر محمد وأصحابه إلى المدينة بلد الأنصار الكثيرين الذين دخلوا فى الإسلام ، وحالفوا محمدا صادقين على التضحية معه فى سبيل الله .

٥ — وقد أذن الله لمحمد أن يسمح لراغبى الهجرة من أصحابه أن يبادروا إليها ، فصاروا يتتابعون إلى المدينة أرسالا أرسالا .

أما هو : فقد بقى متطلعا إلى إذن الله له ، وأبقى على أبى بكر معه ، فلم يسمح له بالخروج قبله .

أحست قريش من هجرة أصحاب محمد أن الأمر جد لا هزل ، وأن من وراء ذلك خطرا جماعيا سيحدق بهم ، فأخذوا يحزمون رأيهم ، ويدبرون كيدهم ، ويبيتون شراً ، ويرجفون به ، وهم فى وجل مما وراء ذلك التجمع فى المدينة ، حتى رتبوا مكيدة القتل للنبى ، أو الإيقاع به على أى نحو يكون ، وفاتهم أن الله محيط بما هم عليه ، وكاشف لنبيه مايخفون « وإذ يمكر بك الذين كفروا ؛ ليثبتوك ـ يمنعوك من مواصلة دعوتك ـ أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين »، « أم يقولون: شاعر، نتربص به ريب المنون . قل تربصوا ، فإنى معكم من المتربصين »

ولما اقتربت ليلة المؤامرة التى دبرتها قريش للفتك بالنبى ، وأعدت لها طائفة من شبابهم الأشرار أذن الله لنبيه بالهجرة .

وهنا تبتدئ المواقف الحاسمة ، ويكون الرأى ، والتدبير ، والحيلة فى إحباط مكر قريش وتغلب مكر الله سبحانه .

فأبو بكر فى داره يترقب نبأ الخروج من يوم إلى يوم ، غير كاره لمكة ، ولكن إيثاراً لصحبة الرسول ، وشغفا بالانضمام إلى الأنصار ، وفى ساعة الهجير من يوم جمعة ، وحين غفوة الناس من حر الظهيرة يخرج النبى ـ صلوات الله عليه ـ نحو بيت أبى بكر ، ويسر إليه نبأ الهجرة ، ويأذن له بالخروج معه ، ويتفقان على التنفيذ من ليلتهما ، على أن يكون ارتحالها ـ أولا ـ إلى غار فى جبل ثور ، بعيداً عن مكة ، وعلى شرف منها .

ولم يكشفا ذلك إلا لنفر قليل : عائشة ، وأسماء ، وأخوهما عبد الله ، ثم عامر بن فهيرة خادم أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط ، وهو قرشى على دين قومه ، ولكنه أجير ، دليل على الطريق أمين ، وقد أسلمه أبو بكر راحلتين ليحضر بهما إلى الغار بعد ثلاث ليال .

وإذ انتهى النبى وصاحبه إلى الغار اختفيا فيه ، وظل عبد الله بن أبى بكر يقضى نهاره فى قريش ، ويرقب تدبيرهم ، ويسمع أخبارهم

ثم يأتى ليلا إلى الغار ويروى ماعرف ، وفى الصباح يعود إلى مكة كما كان .

وظل عامر بن فهيرة يغدو بأغنام أبى بكر ، يرعاها قريبا من الغار . وفى رواحه مساء يمر بها على الصاحبين ، ويحلب لهما مايحتاجانه من لبن .

وقريش تجهد نفسها فى البحث وتتعقب محمدا وصاحبه هنا ، وهناك ، حتى وقفوا يوما على باب الغار ، واشتد الهلع بأبى بكر خوفا على حياة الرسول ، فكان النبى يهدئ من روع صاحبه ، ويقول له : يا أبا بكر « لاتحزن ، إن الله معنا » ، وقدضلت قريش ، وحجب الله أبصارهم عمن فى الغار ، وجعل من نسج العنكبوت على بابه ، ومن تفريخ الحمام على مدارجه صارفا لقريش عن الإمعان فى داخل الغار « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

فلما كان موعد عبد الله بن أريقط بعد الليلة الثالثة حضر بالراحلتين ، وحضرت أسماء بالزاد والماء ، وحينما أرادت تعليق الزاد بالرحل واحتاجت إلى رباط شقت نطاقها ـ حزامها ـ نصفين فعلقت بأحدهما قربة الماء ، وبالثانى جراب الطعام ، فسميت من ذلك الحين بذات النطاقين ؛ مفخرة لها ، وتقديراً لموقفها ، ثم سار محمد وصحبه على بركة الله وفى رعايته .

٦ ـــ وهنا عجيبتان من مكارم الله لنبيه :

إحداهما ـ : فى حادث سراقة بن مالك ـ

ثانيتهما :ـ فى قصة أم معبد بنت كعب الخزاعية.

أما سراقة فكان مشركا ، سمع أن قريشا فرضت على نفسها عطاء ماليا جزيلا لمن يأتيها بنبأ محمد ، وإلى أين ذهب .

وكان سراقة ذا أمل فى أشباح مرت من بعيد ، فامتطى فرسه ، واتجه إلى وجهة الأشباح ، فرآها محمداً وأصحابه ، وعند اقترابه منهم ساخت قوائم فرسه ، وثبتت مكانها عاجزة عن النهوض ، فاستغاث بالنبى وطلب إليه أن يعفو عنه ويدعو له ، فإذا ما انطلقت فرسه فسيعود كما أتى ، ولن يفضى بشىء من ذلك ، وقد استجاب له النبى صلى الله عليه وسلم ، وقبل وعده ، ودعا له ، فنهضت فرسه ، وعاد الرجل ، ووفى بوعده ، ولم يتحدث بهذا ؛ إلا بعد أن استقرت الأمور وأسلم .

وأما أم معبد بنت كعب الخزاعية ، فكانت فى نأى عن القوم ، تقيم فى خيمتين لها ، وزوجها يغدو ويروح بالغنم ، وهى فى مقرها ، وكانت تسقى وتطعم من يمر بها من المسافرين ، فمر بها المهاجرون وهم فى حاجة إلى طعام وشراب ، فسألها النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهى لا تعرفه ـ عن شىء من القوت ، فاعتذرت وأقسمت له آسفة .

وكان عندها شاة هزيلة متخلفة عن الرعى ، لا لبن فيها ، ولا يرجى منها ، فاستأذنها النبى

فى حلب الشاة فأذنت له ترضية ومروءة ، ولم تكن تأمل فى الشاة لبنا ، فسمى النبى باسم الله ، ومسح ضرع الشاة بيده فدر منه اللبن الغزير ، فشربت أم معبد وشرب السفر ، وبقى عندها شىء كثير ، ثم غادروها ، وظلت فى عجب ، حتى عاد زوجها بغنماته ، ووجد عندها بقية اللبن ، وسألها فقصت عليه النبأ فعرف الزوج أن هـذا شأن الرجل الذى سمع به فى قريش ـ محمد ـ وأيقن أن تلك الأوصاف أوصافه التى يتحدثون عنها فى الأندية والأسفار .

٧ ـ وإلى هنا كانت قريش فى يأس من الوقوف على أثر محمد ، وفى جزع من فشلها فيما دبرت ، وفى حيرة مما تصنع .

وعلى حين غفلة سمع الناس فى مكة هاتفا ينشد أبياتا من أناشيد العرب وهم لا يرون شخصه .

وما زالوا يتبعونه ويسمعون غناءه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول وهم يسمعون :

جزى الله رب العرش خير جزائه
رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ، وارتحلا به
وأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
فإنكمو إن تسألوا الشاة تشهد

ومن ذكر أم معبد فى هذه الأبيات ، وذكر محمد ورفيقه ، أيقنت قريش أن محمدا وصحبه قصدوا إلى المدينة لأن سبيلها تمر بخيمتى أم معبد .

٨ ـ وما كاد النبى وصحبه ينتهون من سفرهم ، ويستقرون بين الأنصار حتى تهيأت للمسلمين حياة أرحب ، وأخذت قوتهم تزداد ، ورهبتهم تشيع .

وأخذوا ينشئون المساجد ، ويوثقون الصلة بين الأنصار والمهاجرين ، وينظمون حياتهم الجماعية ، ويقيمون أركان دولتهم الناشئة على أحكام القرآن . وانبعثت من جانبهم إلى الآفاق سيرة عطرة .

وبدأت غزواتهم تشق للدعوة طريقها ، وتفسح لسلطانهم أن يمتد ، حتى تهيأ لدين الله الحق أن ينشر لواءه ويركز قواعده فى بلاد غمرتها الضلالة ، وهزها الطغيان .

ومن ذلك الحين تأكدت قريش أن شمسهم آفلة ، ودولتهم زائلة ، وكم حاولوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وسلاحهم ، ولكن الله أتم نوره ، فأصبح للإسلام دولة ، ولأمته أمجاد ، وصار لها فى سجل الحضارة ومجال العلم صفحات مشرقات .

٩ - فإن يكن حادث الهجرة فى أوله صراعا بين الحق والباطل ، أو محاولة من محاولات البطولة الصامدة فى وجه الكثرة الباغية فهو فى نهايته نصر مؤزر للمجاهدين الصادقين وهو فى قدره منقبة من مناقب الإسلام ، وسيظل مفخرة لأهله ، حتى يلتقى عند الله محق ومبطل ، ويقضى الله بين الخصمين أمراً كان مفعولا .

١٠ - وليس الحديث عن الهجرة مجرد قصص لما كان ، وإنما هو تجديد لمأثرة من مآثر أسلافنا نستمد منها العبرة ، ونتأسى بما فيهم من عزيمة ، وما كان لهم من ثبات على الحق ؛ لتظل راية الإسلام كما أقامها الأوائل خفاقة ، ولتظل أمجاد الإسلام مشهودة ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

١١ - ثم ما حكم تلك الهجرة فى أمسها ويومنا ؟؟ فى أولها كانت مفروضة ؛ لعجز المسلمين فى مكة عن القيام بدينهم فى أمان .

وبعد أن قويت شوكة المسلمين وفتحوا مكة لم تعد واجبة لزوال أسبابها .

ومن كلام النبى فى ذلك « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » يعنى إذا دعيتم للجهاد ، فاخرجوا إليه .

ويرى بعض العلماء بقاء الهجرة واجبة إذا تجددت أسبابها ، وغلب المسلم على أمره فى بلده ، وهذا معقول فإن الحكم يدور مع علته .

وعلى أى القولين فهناك هجرة واجبة ، دائما ، وهى هجرة المعاصى ، حضراً وسفراً ، وهى جهاد أكبر كما قال الرسول لمن سأله عن الجهاد : فسمى جهاد النفس الجهاد الأكبر ، والمجاهد لنفسه هو المهاجر لما نهى الله عنه .

١٢ — وبعد : فعند ما أذن الله للنبى أن يسمح لأصحابه بالهجرة ، وأمره بعد ذلك أن يبرح مكة لم يكن النبى زاهدا فى بلده ، بل كان يحبه أكثر مما يحب أى إنسان وطنه ، ولكنه يؤثر دينه على وطنه ؛ إذ ضاق به أهله ، ويؤثر أنصاره على قومه حبا فيمن أحبوا الله ، ورسوله واتبعوه ، وإن صاروا حربا على قومه .

ولقد كان من حبه لمكة أن يسأل عنها من قدم إليه من أهلها ، وكان يذرف الدمع إذا هاجه الحنين إليها ، وكان من قوله فيها « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت» وكيف كان يكره مكة وهى البلد الذى رفع الله من شأنه ، ومازه بمناقب لم تكن فى بلد من الدنيا مما يطول بنا ذكره .

ولكن حب الوطن شيء، والقيام بنصرة الدين شيء آخر. وحب الأهل شيء، وحب الحق شيء آخر.

١٣ — غير أن ناسا من المسلمين بمكة غلبهم حب وطنهم، فتخلفوا عن الهجرة، وظلوا فى قريش يكثر بهم سوادها، وتجرى على مشهد منهم منكراتها، فنزلت الآيات فى فرق ثلاث.

الأولى: أولئك المتخلفون بغير عذر « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا - يعنى يقول لهم الملائكة يوم القيامة - فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض.. قالوا - الملائكة -: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ذلك جزاؤهم لأنهم متظاهرون بالإسلام.

الفرقة الثانية: العاجزة لكبر أو لمرض أو نحو ذلك من الموانع، فهؤلاء غير مؤاخذين، وهذا قول الله فيهم « إلا المستضعفين من الرجال، والنساء، والولدان، لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » فهم آمنون من عذاب الله إن ظلوا على إيمانهم.

الفرقة الثالثة: المهاجرون فعلا، فلهم فى أرض الله فسحة، ورغام - تراب يعيشون عليه، ويستثمرونه ومن هؤلاء المهاجرين من يخرج ثم يموت قبل أن يصل إلى مهجره، وهذا فى حكم المهاجر الذى وصل، له الأجر ثابت عند ربه، وفيه قول الله تعالى: « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفورا رحيما ».

هذه آيات الله فى بيان الهجرة وجزائها، ولكنها الهجرة فى سبيل الله، لا فى مفاتح الدنيا، والتماس المتاع فى جنباتها، فإن ذلك يجر إلى الانحراف، ويبعد عن مقاصد الخير، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله - يعنى محسوبة له - ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه » يعنى غير محسوبة له هجرة؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

ذو النون المصرى

١٥٥ - ٢٤٥ هـ

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم ، لقب بذى النون ، وقيل : ذو النون المصرى ؛ لأنه ولد بمصر وعاش فيها . واختلفوا فى أصل موطنه أهو من مدينة إخميم بصعيد مصر ، أم من بلاد النوبة فى أقصى الجنوب من الاقليم المصرى ؟ وتروى فى سبب تسميته بذى النون حكاية طريفة تذكرها عن الطبقات الكبرى للشعرانى : « قال - أى ذو النون - قد جاءتنى امرأة فقالت : إن ابنى أخذه التمساح ، فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل ، وقلت : اللهم اظهر التمساح ؛ فخرج إلى ، فشققت عن جوفه ، فأخرجت ابنها حيا صحيحا ، فأخذته ومضت ، وقالت : اجعلنى فى حل ، فإنى كنت إذا رأيتك سخرت منك ، وأنا تائبة إلى الله عز وجل » .

ساق الشعرانى هذه القصة فى معرض حديث السخرية بالمتصوفة وهم الفقراء ، فذكر قبل الرواية السابقة مباشرة ما نصه :

وسئل رضى الله عنه عن السفلة من الخلق من هم ؟ فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرفه .

وكان يقول : سيأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس . (قلت : - وهذا استطراد للشعرانى - والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله تعالى الأمانى ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) .

وكان يقول : لم يزل الناس يسخرون بالفقراء فى كل عصر ليكون للفقراء رضى الله عنهم التأسى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال : قد جاءتنى امرأة ... « الخ » .

حديث التمساح إذن كرامة من كرامات ذى النون ، جعلت تلك المرأة تتأدب فى حق الفقراء من المتصوفة ، وتقلع عن السخرية بهم ، ولم يشر عبد الوهاب الشعرانى أى إشارة يفسر بها هذه القصة : التفسير الذى يستفاد منه أن لقب ذى النون إنما يرجع إلى هذه القصة ، والشعرانى لم يتعرض أبدا لتفسير لقبه ، وإنما اعتمد بعض المحدثين على هذه القصة

فى الموازنة بينها وبين قصة يونس الواردة فى القرآن ، والذى ابتلعه الحوت ، والحوت هو « النون » ، ولذلك سمى يونس ذا النون وسمى ثوبان بن ابراهيم ذا النون كذلك .

قد يكون فى هذا التأويل بعض الصواب ، ولكنه تأويل متعسف ، ولم يعرض أحد من قدماء المؤرخين لتفسير هذه التسمية ، كما أن قصة التمساح هذه لم يذكرها القدماء ، وإنما وردت عن بعض المتأخرين ، ونحن نشك فى صحة وقوعها .

ونحن إذا تتبعنا أخبار ذى النون عند المؤرخين الأقدم فالأحدث ، وجدنا ظاهرتين تحيطان بحياته : الأولى أننا كلما رجعنا للمتأخرين من أمثال الشعرانى وغيره ، وجدنا تزيداً فى الروايات ، ورأينا قصصا جديداً لم يذكره المتقدمون . والظاهرة الثانية أن كل مؤرخ يذكر الجانب الذى يهمه من ذى النون وقد كان متعدد الجوانب ، فهو محدث ، وهو عالم بالكيمياء ، وهو ممن اشتغل بحل طلاسم الكتابة الهيرغليفية ، وهو صوفى .

فابن النديم فى الفهرست يذكره من جملة علماء الكيمياء ، ويذكر أن له كتابين فى هذا العلم ، كتاب « الركن الأكبر » ، وكتاب « الثقة فى الصنعة » .

والقفطى فى أخبار الحكماء ينعته بصفتين ، أنه عالم كيمائى من أكبر العلماء فى هذه الصنعة، وأنه عالم بآثار مصر القديمة . وهذا نص ما جاء فى أخبار الحكماء للقفطى : « ذو النون ابن إبراهيم الإخميمى المصرى ، من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء ، وتقلد علم الباطن ، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة . وكان كثير الملازمة ابربا بلدة إخميم ، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة ، وفيها التصاوير العجيبة ، والمثالات الغريبة ، التى تزيد المؤمن إيماناً ، والكافر طغياناً . ويقال : إنه فتح عليه علم مافيها بطريق الولاية وكانت له كرامات » .

وليس ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب حجة يستدل منها على معرفة ذى النون بالكتابة الهيرغليفية . فقد سمع المسعودى من أهل إخميم أن ذا النون : « كان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى ودورها ، وامتحن كثيراً مما صور فيها، ورسم عليها من الكتابة والصور . قال : رأيت فى بعض البرابى كتابا تدبرته ، فإذا هو : « احذروا العبيد المعتقين ، والأحداث المغتربين ، والجند المتعقدين ، والنبط المستعمربين » قال: ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدرى
ورب النجم يفعل ما يريد

ومن الواضح من هـذه النصوص المترجمة أن ذا النون لم يكن يعرف اللغة الهيرغليفية ، ولذلك شك المسعودى نفسه فى علمه بها ، فقال : « وزعم » . وبذلك نستبعد من ثقافة ذى النون المعرفة بآثار قدماء المصريين ، التى حاول كأى شخص ينشد استطلاع المجهول حل طلاسمها ، ولـكنه لم يوفق .

وتبقى من هذه الثقافة العلم بالحديث والفقه ، والعلم بالـكيمياء والفلسفة ، ثم علم التصوف .

— ٢ —

وأفضل من كتب عن ذى النون حتى الآن وحلل شخصيته من جملة الروايات المذكورة والمتناثرة فى كتب التراجم والطبقات ، هو الأستاذ نيكلسون ، فى كتابه (فى التصوف الإسلامى وتاريخه) وهو الـكتاب الذى نقله إلى العربية الدكتور أبو العلا عفيفى (١) .

غير أن هذه الدراسة على عمقها وأصالتها انزلق فيها صاحبها إلى الأخذ بالروايات على لسان ذى النـون دون أن يمحصها ، ودون أن يعرضها على ميزان النقد العلمى والتاريخى ، فيقبل مايتفق مع العقل، ويرفض ما لا يتفق معه ، وبخاصة إذا خلت الرواية من السند ، وجرت على ألسنة المتأخرين .

مثال ذلك أن نيكلسون يقبل رواية القفطى ويقول فى ذلك : (وتبدو شخصية ذى النون الحقيقية فى وضوح فيما يذكره عنه ابن القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء حيث يقول) : ثم أورد رواية القفطى بتمامها ، وبعد ذلك تـكلم عن المسعودى الذى (توفى بعد ذى النون بمائة سنة كاملة ، وكان أول مصدر تـكلم عنه ، فيخبرنا بأنه جمع معلوماته عن ذى النون من أهـل إخميم عندما زار هـذا البلد . . .) .

ثقة نيـكلسون إذن فى رواية المسعودى ترجع إلى أنه جمع أخباره من أفواه أهـل إخميم ، الذين حـدثوه عن ذى النون من أنه كان يطيـل الوقوف برسوم البرابى وما فيها من تصاوير ، وأنه حل رموز هذه الرسوم . وقد حدثتك من قبـل أن المسعودى نفسه شك فى قيمة معرفة ذى النون بآثار قـدماء المصريين ، والنصوص المترجـمة التى أوردها تشهد بما لا سبيل إلى الريب فيـه أنه لم يبلغ من العلم بها شيئا .

ولـكن الأستاذ نيكلسون لا يثق فقط فى علم ذى النون بلغة قدماء المصريين وأسرارهم، بل يرتب على ذلك الصلة بين علـم الـكيمياء وبين علوم الأسرار المدونة فى رسوم قدماء المصريين ، اعتمادا على ما ذكره أصحاب المقالات عن هرمس ، وهو النبى إدريس ، وهو أخنوخ ، وأنه أول من بنى هياكل

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٧ ـ ٢١ .

الأهرام ومدائن البرابى . ثم رتب نيكلسون على ذلك أنه « يظهر من كل ما تقدم أن ذا النون كان من أصحاب الكيمياء والسحر » (١)

ثم تكلم نيكلسون بعد ذلك كلاما كثيراً عن الصلة بين السحر ، والكرامات ، والتصوف ؛ ليصل من ذلك إلى أن المتصوفة وصلوا إلى هذا السلوك من باب الكيمياء والسحر .

نقول : الاستدلال الذى يقدمه نيكلسون لا يستند إلى أساس صحيح . ذلك أن علم الكيمياء نقل إلى العرب فى عصر الترجمة ، بل قبل عصر الترجمة ، ويقال إن خالد بن يزيد الذى عاش فى آخر القرن الأول الهجرى كان أول من نقل كتابا فى الكيمياء . ولكن مما لا شك فيه أن القرن الثانى للهجرة شهد كثيراً من المترجمات عن اليونانية والفارسية والهندية فى هذا الفن ، الذى يتصل بالمعادن والسوائل وخصائصها ، وفائدة ذلك كله فى الصناعات ، مثل : صناعة السكر والورق والحبر والألوان والعطور والروائح ، وأهم من ذلك صلة الكيمياء بالعقاقير وتحضير الأدوية النافعة فى العلاجات ، فهناك صلة وثيقة بين الطب والكيمياء ، وقد كان الأطباء المشهورون البارزون ، من علماء الكيمياء المشهورين كذلك ، مثل الرازى وابن سينا .

حقا اقترنت الكيمياء بالسحر والطلسمات ولكن ذلك عند المشعوذين لا عند العلماء بمعنى الكلمة . ويبدو أن فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وهى الفكرة التى سادت فى عصور متأخرة بعد القرن الرابع ، هى التى وصمت الكيمياء بهذه الوصمة الباطلة ، ولذلك كان المشتغلون بالكيمياء ، أى : بتحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة ، يعملون فى الخفاء ولكن الرازى وابن سينا وغيرهما لم يتجهوا هذه الوجهة السرية الباطنية ، وهم الذين وضعوا أسس ذلك العلم بمعنى الكلمة .

نحن إذن أمام أحد أمرين ، إما أن يكون ذو النون عالماً حقيقياً بالكيمياء لامشعوذا ، وهذا يقتضى النظر فى كتابيه اللذين أوردهما صاحب الفهرست وهما : الركن الأكبر ، وكتاب الثقة فى الصنعة . ولكن يبدو أن الذين قرنوا بينه وبين جابر بن حيان ، وهو الذى كشفت كتبه عن شخصيته ، إنما يصفونه بالعلم فى هذه الصناعة .

وإما أن يكون ذو النون من المشعوذين ، وهذه أيضاً قضية لانستطيع الفصل فيها دون الرجوع إلى كتبه .

أما ماقيل من أن جابراً كان يلقب بالصوفى ، فليس هذا دليلا على أن كل مشتغل بالكيمياء

(البقية بصحيفة ٥٥)

---

(١) المرجع السابق ص ١١ .

القوميّة في عهد الأيّوبيّين

للأستاذ شفيق جبري
العميد السابق لكلية الآداب بدمشق

كثر فى أيامنا هذه استعمال كلمة : القومية العربية ، فلا تكاد تخلو خطبة أو مقالة أو قصيدة من هذه اللفظة ، وعلى ما به رأينا من الضرورة أن نبحث عن أصول هذه القومية فى تاريخنا ، حتى نستطيع أن نصل حاضرنا بماضينا ، ولكننا لا نقف إلا على عصر واحد من هذا التاريخ وهو عصر الأيوبيين .

لم يحدد العصر الذى نعيش فيه معنى القومية تحديداً شاملا ، فلهذه اللفظة معان تختلف على اختلاف الأذهان التى تستفيض فيها ، غير أنا ننظر إلى القومية فى مقالنا هذا من زاوية واحدة ، فالقومية فى نظرنا إنما هى تعلق الناس بآثار قومهم فى الماضى ، فلا نريد أن نتخطى هذا المعنى البسيط حتى لا نضيع فى مهاب التعريفات فإذا كان هذا هو معنى القومية فى نظرنا فكيف كان نظر التاريخ إلى هذا المعنى على أيام الأيوبيين .

لا شك فى أن القومية لم يكن لها فى القديم المعنى الذى اصطلحنا عليه فى الحديث ، إلا أنهم لم يجهلوا روح هذه القومية وإن كانوا يطلقون عليها اسماً آخر ، فسنجد بعد سطور قليلة أن القومية فى عصر الأيوبيين كان اسمها النخوة العربية :

كنت أعتقد أن النزعة التى غلبت على عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته إنما هى نزعة دينية لا غير ، وقد رسخ فىَّ هذا الاعتقاد زمناً طويلا حتى كنت من أيام يسيرة أناقش جماعة أرادوا أن يجعلوا صلاح الدين رمز القومية العربية ، والذى حملنى على هذا الاعتقاد ما كنت أعلمه من أن الصليبيين لما غزوا هذه البلاد كان همهم فى الظاهر تخليص قبر السيد المسيح من أيدى المسلمين ، ولست أنسى زيارتى لأستاذ من أساتذة جامعة « سياتل » فى الولايات الأمريكية المتحدة ، ولما ودعت هذا الأستاذ فى جامعته دفع إلى كتاباً عن الصليبيين للاطلاع عليه ففتحت هذا الكتاب فوقع نظرى عرضاً على قصيدة فرنسية من أيام الصليبيين اسم صاحبها : Eustache Deschamps وفيها بيتان يحث فيهما الشاعر قومه على جمع الكلمة وتأليف القلوب لإنقاذ الأرض المقدسة ، وأذكر أنى قلت لذلك الأستاذ فى حينه : اقرأ هذين

البيتين، اقرأهما فى الليل والنهار، لأنكم معاشر النصارى أولى الناس يومنا هذا بإنقاذ الأرض المقدسة !.

أجل ، كنت أعتقد أن الصبغة فى زمن الأيوبيين كانت صبغة دينية ليس إلا ، ولكنى اليوم عدلت اعتقادى بعض التعديل، فقد كنت أطالع رسائل ابن الأثير التى نشرها الأستاذ أنيس المقدسى بعد تحريرها وتحقيقها ، فقرأت فى مقدمة الناشر ما يلى :

« ونحن فى نشرنا لرسائله ، لا نقصد فقط إلى الناحية اللغوية والأدبية منها ، بل ننظر أيضاً إلى ما تلقيه من أضواء ، على أحوال عصر من أهم العصور فى التاريخ نعنى به عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته ، ولأجل هذه الغاية عنينا قبلا بنشر ديوان ابن الساعاتى وهو من كبار شعراء ذلك العصر » .

لا ريب فى أن رسائل ابن الأثير ألقت بعض الضياء على عصر صلاح الدين وأسرته من الناحية القومية ، فقد تصفحت طائفة من هذه الرسائل ، وظهرت لى فى خلال ما تصفحته منها نزعة أحب أن أسميها نزعة قومية ، فمن كتب ابن الأثير كتب كتبها إلى الملك الأشرف عند نزول العدو الخوارزمى على مدينة خلاط ، فى هذه الكتب صبغة دينية لا شك فيها ، فإن كلمة الإسلام لا تكاد تفارق السطور ولكن إلى جنب هذه الصبغة صبغة قومية عربية واضحة .

فقد جاء فى أحد كتب ابن الأثير :

« ورجال العرب هم المسلطون فى مجال الحرب على رجال فرسه ورومه ، وإن ارتاب بذلك مرتاب فليسأل عنه أهل النهر ، وأهل الخليج ، وما منهما إلا من هو من آثار تلك الحروب المتقدمة فى أمر مريج » .

فإذا كانت القومية على نحو ما عرفها أحد الكتاب الفرنسيين إنما هى التغنى بآثار القوم فى الماضى ، فابن الأثير فى تفضيله العرب على الفرس والروم فى مجالات الحرب يتغنى بنزعة قومية صريحة ، إلى جنب تغنيه بنزعة دينية تناسب عصر الأيوبيين .

وجاء فى كتاب آخر كتبه إلى الأمير حسام الدين نائب الملك الأشرف وقد رحل الخوارزمى عن خلاط خائباً :

« وقد رأى الأعاجم منه نخوة عربية تهز الأهوال هزاً ، وتبزها بزاً ، وتأبى الحياة ما كانت ذلا ، وتهوى الموت ما كان عزاً ، وهى التى نقضت عليهم مافتلوه ، وأبطلت ما عملوه، وعرفتهم ما جهلوه » .

فهذه النخوة العربية التى وصفها ابن الأثير إنما هى أبرز صورة من صور القومية العربية ، هذه النخوة التى تهز الأهوال ، وتأبى الذل هى أشرف ما يتغنى به العرب .

وآخر ما أحب الاستشهاد به فى رسائل ابن الأثير فى هذا المعنى كلام جاء فى كتابه إلى الأمير حسام الدين :

« ومتى كان كسرى بن كسرى كفؤاً للنعمان بن مقرن أو لسعد بن أبى وقاص...».

ومن أين للعجم رماح العرب التى ترد سهامهم إلى وفاضها وتحيل بسمرتها ما بوجوههم من صفة بياضها ، وتوردهم حياض المنايا فلا يستطيعون صدراً عن حياضها وقد أعوزهم أن يمتطوا ما خصهم الله به من العتاق الشوازب التى صهواتها معاقل عاصمة لامراكب ، وإذا صدم أحدها قرنه من العجم طاح من بين عوديه ، وخر لفمه ويديه ، وصار برذونه اتى كلحم على وضم ، أوكصوفة فى فم جلم ، وتبين حينئذ بسطة العرب وخيلها على العجم وخيل العجم » .

من هذه السطور القليلة يتبين لنا أن عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته لم يخل من مظاهر نزعة عربية ، كما لم ينخل من مظاهر نزعة دينية ، فإن الحرب التى كانت تقع بين المسلمين وبين الصليبيين كانت حربا دينية لا شك فيها ، ولكن النزعة الإسلامية فى تلك الحرب كانت تنطوى بطبيعتها على نزعة قومية ، فالنزعتان منسجمتان ، فقد كان الأيوبيون فى دفاعهم عن الإسلام ، يدافعون فى الوقت نفسه عن لغة العرب وآثار العرب وديار العرب . ولو قدر للصليبيين أن يستولوا على هذه البلاد لمحوا فيها كل مظهر من مظاهر القومية ، وأكبر هذه المظاهر اللغة والأدب .

فإذا بحثنا بعد اليوم عن عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته فإننا لا نستطيع أن نجرد هذا العصر من نزعتين متلازمتين متناسقتين: نزعة دينية ونزعة قومية فى وقت واحد .

وإنى أرى عصر صلاح الدين فى هذا المعنى امتداداً لعصر سيف الدولة ، فكما كان فضل الأيوبيين عظيما فى رد الصليبيين عن هذه البلاد وحفظ الدين ولغة العرب وأدب العرب ، فكذلك كان فضل الحمدانيين فى ردهم الروم عنها ، لقد كانت نزعة الروم فى محاربة سيف الدولة ، والتفكير فى الاستيلاء على بلاده وما وراءها نزعة دينية ، فكان ملك الروم إذا غزا بلاد المسلمين جهز رجاله بالصليب الأحمر ، وإذا رجعنا إلى الشعر الذى شاع فى عصر سيف الدولة وجدنا على هذا الشعر آثار صبغة دينية ، مجاراة لطبيعة الحرب بين المسلمين والروم ، ولكن الشعراء وهم ألسنة الأمة الناطقة فى كل زمن من الأزمان ، جمعوا فى مدائحهم فى سيف الدولة ، وفى وصفهم لحروبه ومغازيه بين النزعتين الدينية والقومية فكانت كلمة العرب لا تفارق قصائدهم .

وفى جملة أولئك الشعراء السرى وابن نباتة وأبو فراس وغيرهم ، فما أكرم هذه الصرخة التى صرخها أبو فراس على لسان نساء بنى كلاب ، وذلك أن سيف الدولة اصطنع بنى كلاب وأدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم ، إلى أن بدت منهم هفوة أحفظت سيف الدولة فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ، ثم صفح عنهم وكرم ،وجمع الحرم، ووكل بهن الخدم،وحملهن وأفضل عليهن . وأحسن إليهن فكتب إليه أبو فراس فى تلك الحال قصيدة يقول فيها :

ينادين بين خلال البيوت
لا يقطع الله أصل العرب !

ولكن الشاعر الذى غلبت على شعره النخوة العربية، إنما هو المتنبى .فقد كان فى شعره يباهى بكل شىء عربى ، يباهى بلسان العرب ، وبتيجان العرب ، وبسيوف العرب ، وقد صحبته هذه العاطفة الشريفة حتى آخر نفس من أنفاسه الذكية .

فإذا أردنا أن نبعث أصول القومية فى أدبنا وتاريخنا ، لزمنا أن نعنى العناية كلها بعصرين من عصور هذا التاريخ : عصر سيف الدولة ، وعصر صلاح الدين ؛ فلولاهما لما كانت لنا فى هذه الأيام لغة وأدب ولما كان لنا إسلام .

شفيق جبرى

التعصب الكريم

فى نهج البلاغة : إن كان لابد من العصبية ، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور التى تفاضلت فيها النجداء من بيوتات العرب .

فتعصبوا لخلال الحمد من الوفاء بالذمام ، والطاعة للبر ، والأخذ بالفضل ، والإنصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض .

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثُلات لسوء الأفعال . فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم .

أسباب اختلاف الرأى بين المسلمين

للأستاذ محمود أبو ريه

بعث الله محمداً صلوات الله عليه بدينه القويم الذى أرسل به من سبق محمداً من الرسل، وأخرجه فى صورة كاملة سمحة أتم بها نعمته على خلقه ، ليكون هذا الدين دستوراً صالحا للناس كافة فى حياتهم الدنيوية وما بعدها ، على مد العصور والأجيال ، وقد أمر الله سبحانه عباده أن يلتزموا الصراط المستقيم فى اتباعه ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا فى الأخذ به ، فلا يتفرقون ولا يختلفون ، فقال سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

ولتوكيد هذا الأمر بَيَّنَ لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه : ليس فى شىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . ولكن ما لبث المسلمون أن وقعوا فيما نهاهم الله عنه ، فتفرقوا واختلفوا فى عقائدهم وعباداتهم من بعد ما جاءهم العلم .

ولقد كان لهذا الاختلاف أسباب كثيرة ، منها ما هو سائغ مقبول ، جاء من ناحية الاختلاف فى فهم النصوص ومنها ما هو ممقوت يغص به الحق مما كان مبعثه الأهواء المختلفة وما تخفى الصدور .

« بقية ذو النون »

صوفى، وأن الاشتغال بالصنعة مطية إلى سلوك طريق الصوفية ، إذ ليس ما يمنع من أن يكون الإنسان عالماً يسلك المناهج العلمية فى بحوثه ، ويكون فى الوقت نفسه صوفيا فى معرفته بالله . فهذا طريق ، وهذا طريق آخر . وكذلك فعل ابن سينا فى أواخر حياته إذ كان طبيبا وعالما ، ومع ذلك سلك طريق التصوف النظرى كما يتضح من كتابه الإشارات .

لاسبيل لنا إذن أن نتحقق من أمر ذى النون من الناحية العلمية التى أشار إليها ابن النديم والمسعودى والقفطى ولم يوضحوا لنا أمرها .

فلم يبق إلا أن نتناول شخصيته من جهتين : هما اشتغاله بالحديث ، ثم انغماسه فى التصوف ، مقبعين فى دراسته نفس المنهج العلمى الذى اتبعناه عند النظر فى أمره العلمى .

وهذا ماسنفعله فى المقال المقبل إن شاء الله .

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

وقد تكلم العلماء فى أسباب هذا الاختلاف وأكثروا ، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، ولم نجد أحداً قد استقصى أسباب هذا الاختلاف بعلم ، ولا بينها أوفى بيان بفهم ، مثل الإمام البطليوسى[1] ، فقد ألف فى ذلك كتابا نفيساً جاء كما وصفه هو أصدق وصف بقوله : إنه « كتاب فى أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قليل النظير ، نافع للجمهور ، عجيب المنزع ، قريب المقطع يشبه المخترع ، وإن كان غير مخترع » .

وقد رأيت أن أوافى إخوانى المسلمين فى أقطار الأرض بفوائد من هذا الكتاب القيم تنفعهم ولا ريب فى علمهم ودينهم ، وأن أنشرها على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، بعد أن أصبحت ـ بحق ـ تحمل رسالة الإسلام على حقيقتها ، إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، بين المؤلف غرضه من تأليف كتابه فقال : « إنما غرضى أن أذكر الأسباب التى أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا ـ الحنيفية ـ التى جعلنا الله من أهلها ، وهدانا إلى أوضح سبلها حتى صار من فقهائهم المالكى والشافعى والحنفى والأوزاعى ، ومن ذوى مقالاتهم الجبرى والقدرى والمشبه والجهمى ، ومن شيعتهم الزيدى والرافضى والسبكى والغرابى والمخمسى والمحمدى وغير ذلك من الفرق ـ وأن أنبه على المواضع التى منها نشأ الخلاف بين العلماء حتى تباينوا فى المذاهب والآراء » .

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم عن « الأسباب الموجبة للخلاف كم هى ؟ » فقال : « إن الخلاف عرض لأهل ملتنا من ثمانية أوجه ، كل ضرب من الخلاف متولد منها ومتفرع عنها » .

الأول : منها اشتراك الألفاظ والمعانى .
الثانى : الحقيقة والمجاز .
الثالث : الإفراد والتركيب .
الرابع : الخصوص والعموم .
الخامس : الرواية والنقل .
السادس : الاجتهاد فيما لا نص فيه .
السابع : الناسخ والمنسوخ .
الثامن : الإباحة والتوسيع .

وقال : إن الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة ـ ينقسم إلى ثلاثة أقسام : (أحدها) اشتراك فى موضوع اللفظة المفردة . والثانى : اشتراك فى أحوالها التى تعرض لها من إعراب وغيره . والثالث : اشتراك يوجبه تركيب الألفاظ

(١) هو الإمام الكبير أبو محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطليوسى ، سكن مدينة بلنسية من جزيرة الأندلس ، له مؤلفات جليلة فى الدين واللغة والأدب ، وكل شىء تكلم فيه كان غاية فى الجودة توفى سنة ٥٢١ هـ .

وبناء بعضها على بعض ـ ثم مضى فقال : فأما الاشتراك العارض فى موضوع اللفظة المفردة فنوعان : اشتراك يجمع معان مختلفة متضادة ، واشتراك يجمع معان مختلفة غير متضادة ، فالأول كالقرء ـ ذهب الحجازيون من الفقهاء إلى أنه الطهر ، وذهب العراقيون إلى أنه الحيض ، ولكل واحد من القولين شاهد من الحديث واللغة ، أما حجة الحجازيين من الحديث فما روى عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت رضى الله عنهم أنهم قالوا . الأقراء الأطهار ، وأما حجتهم من اللغة فقول الأعشى :

أفى كل عام أنت جاشم غزوة
تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالا وفى الحى رفعة
لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأما حجة العراقيين من الحديث فقول النبى صلى الله عليه وسلم للمستحاضة : اقعدى عن الصلاة أيام أقرائك . وأما حجتهم من اللغة فقول الراجز :

يارُبَّ ذى ضغن علىَّ قارض
يرى له قرء كقرء الحائض

وحكى يعقوب بن السكين وغيره من اللغويين أن العرب تقول : أقرأت المرأة إذا طهرت . وأقرأت إذا حاضت ، وذلك أن القرء فى كلام العرب معناه الوقت، فلذلك صح للطهر والحيض معاً .

ومن الألفاظ المشتركه الواقعة على الشىء وضده ، قوله تعالى : « فأصبحت كالصريم » قال : بعض المفسرين معناه : كالنهار المضىء ، بيضاء لا شىء فيها ؛ وقال آخرون كالليل المظلم سوداء لا شىء فيها ؛ وكلا القولين موجود فى اللغة ؛ أما من قال كالنهار المضىء فحجته قول زهير :

بكرت عليه غدوة فرأيته
قعوداً لديه بالصريم عواذله

يعنى الصباح . وأما من قال كالليل فحجته قول الراجز :

تهوى هوى أنجم كالصريم وقال آخر :

كأنا والرحال على جوار
برمل خزاف أسلمه الصريم

قال بعضهم: معناه : انحسر عنه الرمل وقال قوم : معناه : خرج من الليل وانقضى عنه . كما قال النابغة :

حتى غدا فى بياض الصبح منصلتا
يقرو الأماعز من لُبْنان والأ كَمَا

وإنما سمى كل واحد منهما صريما ؛ لأنه ينصرم إذا وانى الآخر ـ والمعنى أيضا يشهد لكل واحد من القولين ؛ لأن العرب تقول لك

بياض الأرض وسوادها ، يعنون بالبياض ما لا عمارة فيه ، وبالسواد ما فيه العمارة - فهذا ما يحتج به لمن ذهب إلى معنى البياض . وأما من ذهب إلى معنى السواد فإنما أراد أنها احترقت بريح صر أو نار كقوله تعالى: « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » .

وعند ما تكلم عن الخلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب قال : « إنه باب ظريف جداً ، وقد تولدت منه بين الناس أنواع كثيرة من الخلاف . وهو باب يحتاج إلى تأمل شديد وحذق بوجوه القياس ومعرفة تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض - وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد، فلم تحوجك إلى غيرها كقوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم » . وقوله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » فإن كل واحدة من هاتين الآيتين قائمة بنفسها مستوفية للغرض المراد منها، وكذلك الأحاديث الواردة كقوله صلى الله عليه وسلم: « الزعيم غارم » وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد وورد تمام الغرض فى آية أخرى كقوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له فى الآخرة من نصيب » فظاهر هذه الآية أنه من أراد حرث الدنيا أوتى منها . ونحن نشاهد كثيراً من الناس يحرصون على الدنيا ولا يؤتون شيئاً منها ، فهو كلام محتاج إلى بيان وإيضاح ، ثم قال فى آية أخرى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » . فإذا أضيفت هذه الآية إلى الآية الأولى بان مراد الله تعالى .

ووجه الخلاف العارض من هذا الموضع أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو بمفرد الحديث . وبنى آخر قياسه على جهة التركيب الذى ذكرنا بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين أو بمجموع آيات أو بمجموع أحاديث فيفضى بهما الحال إلى الاختلاف فيما ينتجانه ، وربما أفضت بهما الحال إلى التناقض فأحل أحدهما ما يحرمه الآخر . وربما أفضى بهما إلى الاختلاف فى الأسباب فقط كاختلافهم فى سبب تحريم الخمر » .

وفى الباب الخامس الذى عقده على (الخلاف العارض من جهة الرواية) قال :

« هذا الباب لا تتم الفائدة التى قصدناها منه إلا بمعرفة العلل التى تعرض للحديث ، فتحيل معناه . فربما أوهمت فيه معارضة بعضه لبعض ، وربما ولدت فيه إشكالا يحوج العلماء إلى طلب التأويل »، ثم أنشأ يبين هذه العلل فقال:

« إن الحديث المأثور عن النبى صلى الله عليه

وسلم وعن أصحابه والتابعين لهم ، تعرض له ثمان علل :

أولها : فساد الإسناد .

والثانية : جهة من نقل الحديث على معناه دون لفظه .

والثالثة : من جهة الجهل بالإعراب .

والرابعة : من جهة التصحيف .

والخامسة : من جهة إسقاط شىء من الحديث لا يتم المعنى إلا به .

والسادسة : أن ينقل المحدث الحديث ويغفل نقل السبب الموجب له ، أو بساط الأمر الذى جر ذكره .

والسابعة : أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه .

والثامنة : نقل الحديث من الصحف دون لقاء المشايخ » .

وأخذ يتحدث عن هذه العلل فقال عن العلة الأولى وهى فساد الإسناد : « إنها أشهر العلل : عند الناس حتى إن كثيراً منهم يتوهم : أنه إذا صح الإسناد صح الحديث وليس كذلك ؛ فإنه قد يتفق أن يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة ، معروفين بصحة الدين والأمانة غير مطعون عليهم ولا مستراب بنقلهم ويعرض مع ذلك أعراض على وجوه شتى فى غير قصد منهم إلى ذلك ـ والإسناد يعرض له الفساد من أوجه ، منها الإرسال وأن يكون بعض رواته صاحب بدعة ، أو متهما بكذب وقلة ثقة ، أو مشهور ببله وغفلة ، أو يكون متعصبا لبعض الصحابة منحرفا عن بعضهم ، فإن من كان مشهوراً بالتعصب ثم روى حديثا فى تفضيل من يتعصب له ولم يرد من غير طريقه لزم أن يستراب به .

ومما يبعث على الاستراب بنقل الناقل أن يعلم منه حرص على الدنيا ، وتهافت على الاتصال بالملوك ، ونيل المكانة والحظوة عندهم فإن من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب حرصاً على مكسب يحصل عليه .

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو هذا الذى ذكرناه بقوله : « إن الأحاديث ستكثر بعدى كما كثرت عن الأنبياء قبلى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله .

وقد روى أن قوما من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الإسلام قد ظهر وعم ، ودوخ وأذل جميع الأمم ، ورأوا أنه لا سبيل إلى مناهضته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة ، فأظهروا الإسلام من غير رغبة فيه وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف ، فلما حمد الناس طريقتهم ولدوا الأحاديث والمقالات وفرقوا الناس فرقا .

وإذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتشدد فى الحديث ويتوعد عليه ، والزمان

زمان، والصحابة متوافرون، والبدع لم تظهر، والناس فى القرن الذى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بالحال فى الأزمنة التى ذمها وقد كثرت البدع وقلت الأمانة؟».

ثم أخذ يصف العلة الثانية وهى نقل الحديث (على المعنى) دون اللفظ بعينه فقال: «إن هذا الباب يعظم الغلط فيه جدا، وقد نشأت منه بين الناس شغوب شنيعة، وذاك أن أكثر المحدثين لا يراعون ألفاظ الشىء التى نطق بها وإنما ينقلون إلى من بعدهم (معنى) ما أراده بألفاظ أخرى، ولذلك نجد الحديث الواحد فى المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى، ولغات مختلفة، يزيد بعض ألفاظها على بعض.

ووجه الغلط الواقع من هـذه الجهة: أن الناس يتفاضلون فى صورهم وألوانهم، وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم، فربما اتفق أن يسمع الراوى الحديث من النبى صلى الله عليه وسلم أو من غيره فيتصور معناه فى نفسه على غير الجهة التى أرادها ـ وإذا عبر عن ذلك المعنى الذى تصور فى نفسه بألفاظ أخر كان قد حدث بخلاف ماسمع من غير قصد منه إلى ذلك ـ وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة، وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التى تقع على الشىء وضده، كقوله صلى الله عليه وسلم: «قصوا الشارب وأعفوا اللحى». فقوله أعفوا يحتمل أن يريد به كثروا ووفروا، ويحتمل أن يراد به قللوا وخففوا، فلا يفهم مراده من ذلك إلا بدليل من لفظ آخر، وفى مثل هذا يجوز أن يذهب النبى صلى الله عليه وسلم إلى المعنى الواحد ويذهب الراوى عنه إلى المعنى الآخر، فإذا أدى معنى ماسمع دون لفظه بعينه كان قد روى عنه ضد ما أراده غير عامد، ولو أدى لفظه بعينه لأوشك أن يفهم منه الآخر مالم يفهم الأول، وقد علم صلى الله عليه وسلم أن هذا سيعرض بعده فقال محذراً من ذلك. نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع.

ومن علل الحديث أن يغفل المحدث عن نقل السبب الموجب للحديث، فيعرض من ذلك إشكال أو معارضة لحديث آخر كنحو ماروا قوم من أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بالعرنيين الذين ارتدوا عن الإسلام وأغاروا على لقاحه فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم وتركوا بالحرة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا، وقد وردت عنه الروايات من طرق شتى أنه نهى عن المثلة ـ وإنما عرض هـذا التعارض من أجل أن الذى روى الحديث الأول أغفل نقل سببه الذى أوجبه ورواه غيره فقال: إنما فعل ذلك لأنهم مثلوا برعاته فجازاهم بمثل فعلهم.

أما العلة السابعة وهى أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه فتمدضرب لذلك، مثلا ما روى من أن عائشة رضى الله عنها أخبرت أن أبا هريرة حدث أن رسول الله قال : إن يكن الشؤم ففى ثلاث : الدار ، والمرأة ، والفرس . وهذا الحديث معارض لما روى فى أحاديث كثيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التطير - فغضبت عائشة وقالت : والله ماقال هذا رسول الله قط وإنما قال : أهل الجاهلية يقولون إن يكن الشؤم ففى ثلاث : الدار ، والمرأة ، والفرس . فدخل أبو هريرة فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله ! - وهذا غير منكر أن يعرض ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يذكر فى مجلسه الأخبار حكاية ، ويتكلم بما لايريد به أمراً ولا نهياً ، ولا أن يجعله أصلا من دينه وشيئاً يستسن به ، وذلك معلوم من فعله ، ومشهور من قوله » .

وختم البطليوس كلامه عن علل الحديث فقال : « وإنما ذكرت هذه العلل العارضة للحديث ؛ لأنها أصول لنقاد الحديث الممتلئين بمعرفة صحيحه من سقيمه ، فإذا ورد عليهم حديث بشع المسموع أو مخالف للمشهور نظروا أولا فى سنده فإن وجدوا فى نقلته ورواته رجلا متهما ببعض تلك الوجوه التى ذكرناها استرابوا به ، ولم يجعلوه أصلا يعول عليه ، وإن وجدوا رجاله الناقلين له ثقاة مشهورين بالعدالة معروفين بالفقه والأمانة ، رجعوا إلى التأويل والنظر فإن وجدوا له تأويلا يحمل عليه قبلوه ولم ينكروه ، وإن لم يجدوا له تأويلا إلا على استكراه شديد نسبوه إلى غلط وقع فيه من بعض تلك الوجوه المتقدمة الذكر ، فهذه جملة القول فى هذا الباب والله أعلم ا هـ » .

* * *

هذا جزء قليل من فوائد هذا الكتاب الجليل ، وحبذا لو نشر فى طبعة جديدة ؛ ليعم النفع به ، لأنه كتاب جامع ، لا يستغنى عنه مفسر ولا فقيه ولا أديب ، رحم الله الإمام البطليوسى وجزاه على فضله خير الجزاء .

محمود أبو رية

وقفة على رأس الخمسين

للأستاذ علي الطنطاوي

مهداة إلى الأستاذ الزيات ، الذى رافقته فى [رسالته] نصف عمرى وصببت فيها شطر أفكارى وعواطفى .

نظرت فى التقويم ، فوجدت أنى استكملت من ثلاثة أشهر إحدى وخمسين سنة قمرية ، فوقفت ساعة أنظر فيها فى يومى وأمسى . أنظر من أمام لأرى ماهى نهاية المطاف ، وأنظر من وراء لأرى ماذا أفدت من هذا المسير .

وقفت كما يقف التاجر فى آخر السنة ، ليجرد دفاتره ، ويحرر حسابه ، وينظر ماذا ربح وماذا خسر .

وقفت كما تقف القافلة التى جنَّ أهلوها . وأخذهم السُّعار ، فانطلقوا يركضون لا يعرفون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون ، ولا يهدءون إلا إذا هدهم التعب فسقطوا نائمين كالقتلى .

وكذلك نحن إذ نعدو على طريق الحياة ، نستبق كالمجانين ولكن لا ندرى علام نتسابق ـ نعمل أبداً من اللحظة التى نفتح فيها عيوننا فى الصباح ، إلى أن يغلقها النعاس فى المساء ، نعمل كل شىء إلا أن نفكر فى أنفسنا ، أو ننظر من أين جئنا ، وإلى أين المصير .

وجردت دفاترى ، أرى ماذا طلبت ، وماذا أعطيت .

* * *

طلبت المجد الأدبى . وسعيت له سعيه ؛ وأذهبت فى المطالعة حدة بصرى . وملأت بها ساعات عمرى . وصرمت الليالى الطوال أقرأ وأطالع . حتى لقد قرأت وأنا طالب كتباً ، من أدباء اليوم من لم يفتحها مرة لينظر فيها . وما كان لى أستاذ يبصرنى طريقى . ويأخذ بيدى . وما كان من أساتذتى من هو صاحب أسلوب فى الكتابة يأخذنى باتباع أسلوبه . ولا كان فيهم من له قدم فى الخطابة ، وطريقة فى الإلقاء ، يسلكنى مسلكه ويذهب بى مذهبه . وما يسميه القراء أسلوبى فى الكتابة ويدعوه المستمعون طريقتى فى الإلقاء . شىء من الله به على . لا أعرفه لنفسى . لا أعرف

إلا أنى أكتب حين أكتب . وأتكلم حين أتكلم . منطلقا على سجيتى وطبعى . لا أتعمد فى الكتابة إثبات كلمة دون كلمة . ولا سلوك طريق دون طريق . ولا أتكلف فى الإلقاء رنة فى صوتى ولا تصنعاً فى مخارج حروفى ...

... وكنت أرجو أن أكون خطيباً يهز المنابر . وكاتباً تمشى بآثاره البرد . وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب . فلما نلته زهدت فيه . وذهبت منى حلاوته . ولم أعد أجد فيه مايشتهى ويتمنى .

وما المجد الأدبى ؟ أهو أن يذكرك الناس فى كل مكان ، وأن يتسابقوا إلى قراءة ماتكتب ـ وسماع ماتذيع ـ وتتوارد عليك كتب الإعجاب ، وتقام لك حفلات التكريم ؟ لقد رأيت ذلك كله ، فهل تحبون أن أقول لكم ماذا رأيت فيه ؟ رأيت سراباً . سراب خادع ، قبض الريح ! .

وما أقول هذا مقالة أديب يبتغى الإغراب ، ويستثير الإعجاب ، لا والله العظيم ـ أحلف لكم لتصدقوا ـ ما أقول إلا ما أشعر به . وأنا من ثلاثين سنة أعلو هذه المنابر ، واحتل صدور المجلات والصحف ، وأنا أكلم الناس فى الإذاعة كل أسبوع مرة ، من سبع عشرة سنة إلى اليوم ، ولطالما خطبت فى الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا خطباً زلزلت القلوب ، وكتبت مقالات كانت أحاديث الناس ، ولطالما مرت أيام كان اسمى فيها على كل لسان فى بلدى ، وفى كل بلد عشت فيه أو وصلت إليه مقالاتى ، وسمعت تصفيق الإعجاب ، وتلقيت خطب الثناء فى حفلات التكريم ، وقرأت فى الكلام عنى مقالات ورسائل ، ودرس أدبى ناقدون كبار ، ودرس ماقالوا فى المدارس ، وترجم كثير مما كتبت إلى أوسع لغتين انتشاراً فى الدنيا . الانكليزية والأردية . وإلى الفارسية والفرنسية ... فما الذى بقى فى يدى من ذلك كله ؟ لاشىء . وإن لم يكتب لى الله على بعض هذا ، بعض الثواب ، أكن قد خرجت صفر اليدين .

إنى من سنين معتزل متفرد ، تمر على أسابيع وأسابيع لا أزور فيها ولا أزار ، ولا أكاد أحدث أحدا إلا حديث العمل فى المحكمة ، أو حديث الأسرة فى البيت ، فماذا ينفعنى وأنا فى عزلتى إن كان فى مراكش والهند وما بينهما من يتحدث عنى ويمدحنى ، وماذا يضرنى إن كان فيها من يذمنى ، أو لم يكن فيها كلها من سمع باسمى ؟ .

ولقد قرأت من المدح لى ما رفعنى إلى مرتبة الخالدين ، ومن القدح فى ما هبط بى إلى دركة الشياطين ، وكرمت تكريما لا أستحقه

وأهملت حتى لقد دعى إلى المؤتمرات الأدبية وإلى المجالس الأدبيـة الرسمية المبتدئون وما دعيت منها إلى شيء ، فألفت الحالين ، وتعودت الأمرين ، وصرت لايزدهيني ثنـاء ولا يهز السب شعرة واحدة فى بدنى .

وأسقطت المجـد الأدبى من الحساب ، لمـا رأيت أنه وهم وسراب .

* * *

وطلبت المناصب ثم نظرت فاذا المناصب تكليف لاتشريف ، وإذا هى مشقة وتعب ، لا لذة وطرب ، وإذا الموظف أسير مقيد بقيود الذهب . وإذا الجزع من عقوبة التقصير أكبر من الفرح بحلاوة السلطان . وإذا مرارة العزل أو الإعفاء من الولاية ، أكبر من حلاوة التولية . ورأيت أنى مع ذلك كله قد اشتهيت فى عمرى وظيفة واحدة . سعيت لها وتحرقت شوقا إليها . هى أن أكون معلماً فى المدرسة الأولية فى قرية حرستا (١) وكان ذلك أكثر من ثلاثين سنة . فلم أنلها فما اشتهيت بعدها غيرها وطلبت المـال وحرصت على الغنى . ثم نظرت فوجدت فى الناس أغنياء وهم أشقياء . وفقراء وهم سعداء . ووجدتنى قد توفى أبى وأنا لا أزال فى الثانوية . وترك أسرة كبيرة . وديونا كثيرة . فوفى الله الدين ، وربى الولد ، وما أحوج إلى أحد . وجعل حياتنا وسطا ما شكونا يوماً عوزا ولا عجزنا عن الوصول إلى شيء نحتاج إليه . وما وجدنا يوماً تحت أيدينا مالا مكنوزاً لا ندرى ماذا نصنع به . فكان رزقنا والحمد لله كرزق الطير : تغدو خماصاً وترجع بطاناً .

فلم أعد أطلب من المـال إلا ما يقوم به العيش . ويقى الوجه ذل الحاجة .

وطلبت متعة الجسد . وصرمت ليالى الشباب أفكر فيها . وأضعت أيامه فى البحث عن مكانها وكنت فى سكرة الفتوة الأولى . لا أكاد أفكر إلا فيها . ولا أحن إلا اليها . أقرأ من القصص ما يتحدث عنها ، ومن الشعر ما يشير إليها . ثم كبرت سنى وزاد عملى . فذهبت السكرة وصحت الفكرة . فرأيت أن صاحب الشهوة الذى يسلك إليها كل سبيل ، كالعطشان الذى يشرب من ماء البحر ، وكلما ازداد شربا ازداد عطشا . ووجدت أن من لايرويه الحـلال يقنع به ويصبر عليه . لايرويه الحرام ولو وصل به إلى نساء الأرض جميعا .

ثم ولى الشباب بأحلامه وأوهامه . وفترت الرغبة . ومات الطلب . فاسترحت وأرحت .

* * *

وقعدت أرى الناس . أسـأل : علام

---

(١) قرية فى طرف الغوطة ، كان منها الإمام محمد صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة .

يركضون ؟ وإلام يسعون ؟ وما ثم إلا السراب !

هل تعرفون السراب ؟ إن الذى يسلك الصحراء يراه من بعيد كأنه عين من الماء الزلال تحدق صافية فى عين الشمس . فإذا كد الركاب . وحث الصحاب ؛ ليبلغها لم يلق التراب .

هذه هى ملذات الحياة . إنها لأتلذ إلا من بعيد .

يتمنى الفقير المال . يحسب أنه إذا أعطى عشرة آلاف ليرة فقد حيزت له الدنيا . فإذا أعطيها فصارت فى يده لم يجد لها تلك اللذة التى كان يتصورها وطمع فى مائة الألف . إنه يحس الفقر بها وهى فى يده كما يحس الفقر إليها يوم كانت يده خلاء منها . ولو نال مائة الألف لطلب المليون . ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لابتغى له ثانيا ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب (١) .

والشاعر العاشق يملأ الدنيا قصائد تسيل من الرقة ، وتفيض بالشعور ، يعلن أنه لا يريد من الحبيبة إلا لذة النظر ومتعة الحديث ، فإذا بلغهما لم يجدهما شيئاً وطلب ما وراءهما ، ثم أراد الزواج فإذا تم له لم يجد فيه ما كان يتخيل من النعيم ، ولذابت صور الخيال تحت شمس الواقع ، كما يذوب ثلج الشتاء تحت شمس الربيع ، ولرأى المجنون فى ليلى امرأة كالنساء ، ما خلق الله النساء من الطين وخلقها (كما كان يخيل إليه) من القشطة ، ثم ملها وزهد فيها وذهب يجن بغيرها .

ويرى الموظف الصغير الوزير أو الأمير ، ينزل من سيارته فيقف له الجندى وينحنى له الناس ، فيظن أنه يجد فى الرياسة أو الوزارة مثل ما يتوهم هو من لذتها ومتعتها ، لحرمانه منها ، ما يدرى أن الوزير يتعود الوزارة حتى تصير فى عينه كوظيفة الكاتب الصغير فى عين صاحبها أوهام . ولكننا نتعلق دائما بهذه الأوهام .

* * *

وفكرت فيما نلت فى هذه الدنيا من لذائذ وما حملت من عناء طالما صبرت النفس على إتيان الطاعة واجتناب المعصية ، رأيت الحرام الجميل فكففت النفس عنه على رغبتها فيه ، ورأيت الواجب الثقيل فحملت النفس عليه على نفورها منه ، وطالما غلبتنى النفس فارتكبت المحرمات وقعدت عن الواجبات . تألمت واستمتعت ، فما الذى بقى من هذه المتعة وهذا الألم ؟ لاشىء . لقد ذهبت المتعة وبقى عقابها وذهب الألم وبقى ثوابه .

ولم أر أضل فى نفسه ولا أغش للناس

(١) حديث آخره (ويتوب الله على من تاب) .

ممن يقولون لك ، لا تنتظر إلا إلى الساعة التي أنت فيها ، فإن :

مامضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي أنت فيها

لا والله. مافات ما مضى ، ولكن كتب لك أو عليك ، أحصاه الله ونسوه ، والآتي غيب ولكنه غيب كالمشاهد ، وما مثل هذا القائل إلا كمثل راكب سفينة أشرفت على الغرق ولم يبق إلا ساعات ، فما أسرع إلى زوارق النجاة إسراع العقلاء ، ولا ابتغى طوق النجاة كما يبتغيه من فاته الزورق ، ولكنه عكف على تحسين غرفته في السفينة الغارقة يزين جدرانها بالصور ، ويكنس أرضها من الغبار ، يقول لنفسه : مادامت السفينة غارقة على كل حال ، فلم لا أستمتع بساعتي التي أنا فيها ؟ .

يفسد عمره كله بصلاح هذه الساعة ، وإذا عرض له العقل يسفه عمله فليضرب وجه العقل بكأس الخمر التي تعمى عينيه فلا يبصر ولا يهتدى ، وإن من الخمر لخمرة المال وخمرة السلطان .

هذا مثال من يجعل هذه الدنيا الفانية أكبر همه ، ويزهد في الآخرة الباقية ، ولو عقل لزهد في الدنيا . لا يحمل ركوته وعصاه ويسلك البراري وحيدا ، ولا يقيم في زاوية ويمد يده للمحسنين - فإن هذا هو زهد الجاهلين - وهو معصية في الدين . إن الزهد الحق هو زهد الصحابة والتابعين ، الذين عملوا للدنيا ، واقتنوا الأموال ، واستمتعوا بالطيبات الحلال وأظهروا نعم الله عليهم ، ولكن كانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم ، وكان ذكر الله أبداً في نفوسهم وعلى ألسنتهم ، وكانت الشريعة نبراسهم وإمامهم ، وكانت أيديهم مبسوطة بالخير ، وكانوا لا يفرحون بالغنى حتى يبطروا ، ولا يحزنون للفقر حتى ييأسوا ، بل كانوا بين غني شاكر ، وفقير صابر ، ومن يحصل المال وينفقه في الطاعة خير ممن لا يحصل ولا ينفق ، بل يسأل ويأخذ ، ومن يتعلم العلم ويعمل به خير ممن يعتزل الناس للعبادة في زاوية أو مغارة ، ومن يكون ذا سلطان ومنصب فيقيم العدل ، ويدفع الظلم ، خير ممن لا سلطان له ولا عدل على يديه . وليست العبادة أن تصف الأقدام في المحاريب فقط ، ولكن كل معروف تسديه إن احتسبته عند الله كان لك عبادة ، وكل مباح تأتيه إن نويت به وجه الله كان عبادة ، إذا نويت بالطعام التقوى على العمل الصالح ، وبمعاشرة الأهل الاستعفاف والإعفاف ، وبجمع المال من حله القدرة به على الخير ، كان كل ذلك لك عبادة ، وكل نعمة تشكر عليها ، وكل مصيبة تصبر لله عليها كانت لك عبادة .

والإنسان مفطور على الطمع ، تراه أبداً كتلميذ المدرسة ، كلما بلغ فصلا كان همه أن يصعد إلى الذى فوقه ، ولكن التلميذ يسعى إلى غاية معروفة إذا بلغها وقف عندها ، والمرء فى الدنيا يسعى إلى شىء لا يبلغه أبداً ؛ لأنه لا يسعى إليه ليقف عنده ويقنع به ، بل ليجاوزه راكضاً يريد غاية هى صورة فى ذهنه ما لها فى الأرض من وجود .

وقد يعطى المال الوفير ، والجاه الواسع ، والصحة والأهل والولد . ثم تجده يشكو فراغا فى النفس ، وهما خفياً فى القلب ، لا يعرف له سببا ، يحس أن شيئا ينقصه ولا يدرى ما هو ، فما الذى ينقصه فهو يبتغى استكماله ؟ .

لقد أجاب على ذلك رجل واحد ، رجل بلغ فى هذه الدنيا أعلى مرتبة يطمح إليها رجل : مرتبة الحاكم المطلق فى ربع الأرض فيما بين الأطلسى والصين ، وكان له مع هذا السلطان الصحة والعلم والشرف ، هو عمر بن عبد العزيز الذى قال :

« إن لى نفسا تواقة ، ما أعطيت شيئا إلا تاقت إلى ما هو أكبر ، تمنت الإمارة ، فلما أعطيتها تاقت إلى الخلافة ، فلما بلغتها تاقت إلى الجنة ! .

هذا ما تطلبه نفس كل بشر ، إنها تطلب العودة إلى موطنها الأول ، وهذا ما تحس الرغبة الخفية أبدا فيه ، والحنين إليه ، والفراغ الموحش إن لم تجده .

فهل اقتربت من هذه الغاية بعد ما سرت على طريق العمر ، إحدى وخمسين سنة ؟ .

يا أسفى ! لقد مضى أكثر العمر وما ادخرت من الصالحات ، ولقد دنا السفر وما تزودت ولا استعددت ، ولقد قرب الحصاد وما حرثت ولا زرعت ، وسمعت المواعظ ، ورأيت العبر فما اتعظت ولا اعتبرت ، وآن أوان التوبة فأجلت وسوفت .

اللهم اغفر لى ما أسررت ، وما أعلنت ، فما يغفر الذنوب إلا أنت .

اللهم سترتنى فيما مضى فاسترنى فيما بقى ، ولا تفضحنى يوم الحساب .

« دمشق » على الطنطاوى
مستشار محكمة النقض
فى الجمهورية العربية المتحدة

المطالع والمقاطع في شعر شوقي

للأستاذ علي الجندي
العميد السابق لكلية دار العلوم

— ١ —

تعد إجادة المطالع والمقاطع ، أي : المبادئ والخواتيم من أمارات براعة الشاعر ، وبعد غوره ، ودقة صناعته ، ورفاهة حسه الموسيقي ، وكبر حظه من الإلهام والألمعية . وقديما سئل بعض النقاد عن أحذق الشعراء ، فقال : من تفقد المطلع والمقطع . وحكمة ذلك : أن المطالع أول ما تصافح أذن السامع ، وبها يستدل على ما يعقبها من الكلام ، ويعرف منها مدى قوة الشاعر وانطلاقه . والنقاد يقولون : الابتداءات دلائل البيان . وقالوا : الشعر قفل أوله مفتاحه . وإذن فليس من سلامة الذوق ، ولا صفاء الشعور ، ولا سجاحة الطبع ، ولا جمال البيان ، ولا مراعاة مقتضيات الأحوال : أن يصك الشاعر آذان مستمعيه بالغث أو الجافى ، أو القبيح ، أو المستكره من القول ؛ فإنه لا فرق ـ إذ ذاك ـ بينه وبين من يقذفهم بالحصى ، ويرميهم بالطين ، ويحثو في وجوههم الغبار . وذلك من أكبر دواعي النفور منه ، والرغبة عنه ، والزراية عليه .

ولا يصدر هذا إلا من عتل فظ غليظ الشعور ، جامد العاطفة ، لا يحترم قراءه ولا سامعيه .

ويروون في ذلك أن « ديك الجن » الحمصي أنشد « دعبلا الخزاعي » مطلع قصيدة ، وهو :

كأنها ما كأنه خلل الخلة   وقف الهلوك إذ بغما

ومعنى البيت إجمالا : أن عشيقته في حسن جيدها ، وحلاوة عينيها ، تشبه الغزال الذي هو بين نبات الخلة ، مثل سوار الجارية المترفة ، الحسنة المشية ، المتهالكة فيها .

فما كان من دعبل إلا أن صاح في وجهه : أمسك ! ! فوالله ما ظننتك تتم البيت إلا وقد غشي عليك ، أو تشكيت فكيك ! ولكأنك في جهنم تخاطب الزبانية ، أو قد تخبطك الشيطان من المس ! ! .

وقول دعبل أشبه بما يقوله العامة : أول القصيدة كفر ، وأول الدن دردي .

أما المقاطع فهي أسس القصائد ، وخاتمة الأشواط ، ونهاية الرحلة ، وهي أبقى من غيرها

فى السمع ، وألصق بالنفس ، وآخر ما يتصل بالأذهان ، لقرب العهد بسماعها ، وربما حفظت دون سائر الكلام ، فمن الحق أن تكون الغاية فى الإبداع والإحكام ، والنهاية فى الجمال والجلال ، وأن يتركز فيها مغزى القصيدة ، وتلتق فيها روافدها ؛ لتغطى على ماعسى أن يكون قد سبقها من العيوب ، وليبقى أثر الشاعر حيا نابضا فى النفوس ، وإنما الأعمال بخواتيمها - كما جاء فى الأثر - .

وهناك شاعران محدثان حازا قصب السبق فى هذين اللونين من البيان : أولهما : أبو تمام الذى عرف بروعة المطالع ، وفخامتها ، وجلالها ، والآخر : المتنبى الذى فاق كل شاعر قبله فى حلاوة مقاطعه ، وبداعتها ، ومناسبتها للمقام ، فكان إمام المحدثين - غير منازع - فى حسن الخاتمة التى عنوا بها دون المتقدمين .

والآن نريد أن نعرف ماذا كان شوقى فى مطالعه ومقاطعه ؟ .

إن من يقرأ شعره يخرج منه بما يأتى :

١ - يصرف مطالعه بين الجزالة والفخامة ، وبين اللين والوداعة ، تبعا للمناسبات ، فهو تارة يجزل ويضخم فيها كقوله :

أقدم فليس على الإقدام ممتنع
واصنع به المجد فهو البارع الصنع

قف ناج أهرام الجلال وناد
هل من بناتك مجلس أو ناد

ما للقرى بين تكبير وإهلال
وللمدائن هزت عطف مختال

قم ناد جِلّق وانشد رسم من بانوا
مشت على الركب أحداث وأزمان

يا راكب الريح حى النيل والهرما
وعظم السفح من سيناء والحرما

وتارة يسلس ويرق - وهو اللون الغالب عليه - وبخاصة فى مطالعه الغزلية - كقوله :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا
لعل على الجمال له عتابا

علمت بالقلم الحكيم
وهديت بالنجم الكريم

وطن يرف هوى إلى شبانه
كالروض رقته على ريحانه

جبريل أنت هدى السماء
وأنت برهان العنايه

بالله يا نسمات النيل فى السحر
هل عندكن عن الأحباب من خبر

قلب يذوب ومدمع يجرى
ياليل هل خبر عن الفجر

يلحسنه بين الحسان
فى شكله إن قيل بان

فى العقل والنعمة العاليه
مضى ومحاسنه باقيه

٢ - يتجنب الحروف البغيضة الناشزة فى القوافى ، وهى على الترتيب : الثاء والخاء

والذال والزاى والشين والصاد والطاء والظاء والغين . وأشدهن قبحا - عند ابن الأثير - الخاء والصاد والظاء والغين .

فلم يقع فى هذا المحظور كما وقع غيره من الشعراء السابقين ، ومنهم شعراء يشار إليهم بالبنان كأبى تمام والمتنبى وابن هانئ الأندلسى، فجاءوا بالفج الركيك ، أو المتعاظل المستغلق ، أو الجهم الثقيل الوخم ، زهواً بالقدرة وفخرا بالتفاصح ، فقال أبو تمام :

قف بالطوال الدارسات علاثا

وقال المتنبى :

كفى أرانى ويك لومك ألوما
هم أقام على فؤاد أنجما

وقال ابن هانئ فى مطلع قصيدة أطول من ليل السليم !! :

سرى وجناح الليل أقتم أفتخ

بل إن شوقى لم يرض أن يتأثر إمام الشعراء فى العصر الحديث « البارودى » فهو على ما نعرف له من جمال الذوق وحسن الاختيار دعته كثرة محفوظه وغزارة مادته - رحمه الله - إلى النظم من هذه الحروف الوحشية كلها ، ماعدا حرف الغين فوقع فيما لا يصح أن يقع مثله فيه .

٣ - يختار شوقى مطالعه من البحور الطوال والمتوسطة فى الأمور الجدية التى يحتفل لها ، ويشاركه غيره من الشعراء فيها ، مثل قصائد : ٢٨ فبراير ، ومشروع ملنر ، والهمزية النبوية ، ونهج البردة ، وصدى الحرب العثمانية ، والأزهر ، ونكبة بيروت ، ونكبة دمشق ، وزلزال اليابان ، والحرية الحمراء ، وشهيد الحق إلخ ...

فإذا تغزل ، أو داعب ، أو وصف المراقص ، ومجالس الأنس ، نظم من البحور القصيرة والمجزوءات ، مثل قصائد : العمال ، والمطرية ، ومملكة النحل ، والصحف ، والحجاب والسفور ، وغاب بولونيا ، والبسفور إلخ ...

كذلك كان يسلك ذلك غالبا فى مراثيه فإذا رثى كبار السن والمقام من الرجال - مثل سليمان أباظة ، وإسماعيل أباظة ، ومصطفى فهمى ، ومصطفى رياض ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وأبى هيف ، وعمر المختار ، وحافظ إبراهيم ، وثروت ، وجاويش ، وعاطف بركات - اصطنع البحار الطويلة وما يدانيها ، وإذا رثى الشباب مثل : محمد تيمور ، وعمر لطفى ، وعلى أبو الفتوح ، أو رثى الفنانين وأشباههم فى غير المحافل مثل الشاعر الموسيقى « فردى » ، والعالم النباتى عثمان غالب ، أو رثى النساء مثل الأميرة فاطمة إسماعيل ، وأم عباس الثانى ، أو عزى فى عزيز مثل تعزيته للبارودى فى ابنته ،

ولهيكل فى ابنه ، ولحامد خلوصى فى أبيه ، جنح إلى البحور القصيرة والمجزوءات ، وكان البحر الكامل ، أحب البحور إليه ، ولا يزيد عنه فى هذا الحب إلا محمود غنيم .

(٤) توخيه قوة التآخى وشدة الملاءمة بين شطرى البيت ، حتى لتستدل من المصراع الأول منه على المصراع الثانى ، وحتى يستطيع السامع أن يتم البيت مع المنشد ، مصداقا لقول من قال :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب
صدورها عرفت منها قوافيها

وهذا يدخل فيما يسميه البلاغيون تمكن القافية ، وهو يدل على سخاء الهبة ، وخصب القريحة ، وثراء الطبع ، وقوة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، ومعرفة الصلات الدقيقة بين الألفاظ والمعانى والأوزان ، كما يدل على عناية الشاعر بإحكام البناء ، وإحسان الصياغة ، والحفاوة بالتنغيم والتطريب ، والاحتفال بالقافية ، وكل هذه السمات عرفت عن شوقى وعرفت فى شعره !

انظر إليها كيف تطالعك فى مطالعه بغررها السائلة الوضاحة :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا
وفاز بالحق من لم يأله طلبا

اثن عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه

الناس للدنيا تبع
ولمن تحالفه شيع

رمضان ولى هاتها يا ساقى
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

طال عليها القدم
فهى وجود عدم

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

منك يا هاجر دائى
وبكفيك دوائى

صريع جفنيك ينفى عنهما التهما
فما رميت ولكن القضاء رمى

من صور السحر المبين عيونا
وأحله حدقا لها وجفونا

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

سماؤك يا دنيا خداع سراب
وأرضك عمران وشيك خراب

انظر إلى الأقمار كيف تزول
وإلى وجوه السعد كيف تحول

علوه كيف يجفو لجفا
ظالم لاقيت منه ما كفى

(البقية على صفحة ٧٩)

الدّيانات الجديدة

الفرم الفادح الذي تحملته البشرية للوفاء بضريبة الفطرة

للأستاذ محمد فتحي عثمان

كتب جوليان هكسلي Julian Huxley الذى لايعترف بالديانات السماوية ، فى ثنايا كتابه(دين بغير وحى Religion without Revelation) يقول :

« كل الحقائق الحيوية فى الحياة الدينية تبقى وتستمر .... إنها لا تحتاج إلا إلى معاودة تعريفها فى اصطلاحات جديدة . إن الحقيقة الحية لن تستغنى عن تبديل أزيائها ـ هذا هو كل الأمر ! ! » .

ولقد حاول هكسلي أن يعرض طرازه الجديد للدين المنشود .... الدين الذى يستمد أصوله من الطبيعة الكونية والإنسانية ، لا مما وراء الطبيعة . الدين الذى لايرضى بالإله (المشخص) فى سماواته العلى ، ويلتمس إلهه فى القوى الملموسة،والنواميس المرصودة. الدين الذى يساير عصرنا العلمى ومنهجنا التجريبى ، حتى لا تتمزق حياتنا بين الحس والغيب ، بين الخالق والكون ، بين الله والإنسان ، بين الدنيا والآخرة ... !!

ولست أحاول الآن أن أعرض لمحاولة هكسلي وحظها من التوفيق ، فهى ليست المحاولة الأولى من نوعها فى هذا الباب ، وقد لا تكون أنجح المحاولات . وإنما الذى يعنينى هنا أن أتساءل عن الثمار التى جنتها البشرية من هذا الاتجاه :

هل عاشت بغير دين ؟ . . . وهل تحررت فلم تخضع لإله ؟ ؟ .

وإذا كانت قد اعتنقت طرازاً آخر من (الدين) ! .

ترى هل كلفها الدين الجديد ، التزامات أقل .... وحقق لها مكاسب أكثر ، مما كانت تجنيه من ديانات السماء ؟ ؟ .

* * *

فلنستمع من هكسلي .... بعض الجواب :

« لقد ظهرت من قبل مذاهب اعتقادية غير إلهية non-theistic belief-systems وأتيح لها أن تغلب على قطاعات كبيرة من البشرية . وأبرز هذه المذاهب : النازية فى ألمانيا ،

والشيوعية الماركسية فى روسيا . وحملت النازية فى طبيعتها جراثيم انحلالها بحكم دعواها فى تسلط فئة قليلة على العالم أجمع ، كما كانت مدعاة للسخرية بالنسبة للفساد والقصور فى تفسيرها لقدرها الرفيع المتعال ، حتى ماثلت فى ذلك بعض الصور البدائية للآلهة : من حيوان معبود أو رب قبيلة متعطش للدم أو إله جبار منتقم ! ! .

وكانت الشيوعية الماركسية أكثر تنسيقا وملاءمة ، لكن أساسها المادى المحض قد حد من فاعليتها ، فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية . وهذه القيم موجودة قائمة ، لذا كان على الشيوعية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الإيديولوجى ، فأقبلت فى غيظ وحنق تفتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية التى انتبذها النظام الشيوعى » (١) .

إن هذه المذاهب الجماعية بما تحويه من نظرات كلية أرادت أن تكون دين المستقبل ، لها نبوءاتها ، ولها عقائدها المستترة المتأصلة التي لا تقبل جدلا ، وهى بذلك تحاول أن ترضى فى الإنسان كل دوافعه ونزعاته ، وتمد نفوذها إلى الفجوات التى عراها تطرف النزعة المادية منذ عصر النهضة الأوربية .

« وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعوا أركان ذلك (التوجيه المنظم) الذى أقرته فلسفتهم الجديدة والذي عرفه النازيون باسم Weltanschauung ومعنى ذلك على حد قول الدكتور دنكان جونز Duncan Jones : تلك الفلسفة التى تفرض على صاحبها إدراكا خاصا لمعنى الحياة ، ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة العقيدة الدينية لديه ، فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص ، وتشعل فى نفسه جذوة التحمس الشديد لإذاعتها فى كل مكان ، دون أن تعتاق نشاطه الحدود السياسية وغيرها من الحواجز التى تفصل بين بلدان العالم ، كأنما مهمته فى الواقع التبشير بدين جديد ... وقرأ القساوسة البروتستنت من فوق المنابر احتجاجا ضد تلك الوثنية الجديدة التى أراد النازيون أن يستعيضوا بها عن الأديان جميعها » (١) .

« وليست البلشفية مجرد برنامج سياسى بل هى كذلك فلسفة وعقيدة ، إذ يمتد مجالها إلى أعمال الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ... ولقد استطاعت البلشفية أن تبث فى قلوب أتباعها ومريديها الإخلاص وشدة الولاء لمبادئها إلى أبعد حد مما يذكرنا بولاء أتباع الديانات والعقائد المتحمسين لها » (٢) .

---

(١) Religion without Revelation pp , 62-63 .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : ألمانيا النازية ص ١٩٦ ، ٢١٢ .

(٢) محمد فؤاد شبل : الدستور السوفييتى (رسالة ماجستير) ص ٤٢٤ .

إن الطاقة النفسية والغرائز الاجتماعية تنفس عن نفسها منذ أن حاول الإنسان العصرى أن يتنكر لفطرته ويجحد أشواقه، ويتجاهل منطق العمليات العقلية العليا فلا يسلم لغير التجربة الحسية المباشرة . وما فتئت هذه الطاقة الإنسانية التى أريد إهمالها تعمل عملها وتعبر عن وجودها بصور متباينة ، تصرخ مشيرة إلى الصخب المستعر فى كوامن الوجدان ينشد الإرضاء أو التعويض . وهذا لوبون الفرنسى يتحدث عن مفخرة أمته التاريخية (الثورة الفرنسية) فيقول :

« لم يقم سلطان الثورة الفرنسية على ما كانت تنشره من المبادئ ، ولا على ما كانت تضعه من الأنظمة ، إذ الأمم لا تبالى بالمبادئ والأنظمة إلا قليلا (؟ !) وإنما السبب فى قوة هذه الثورة وفى رضا فرنسا بما أتته من المذابح والهدم والهول، وفى مدافعتها الظافرة حيال أوربا المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة جديدة ـ لا نظاما جديدا ، ولقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوى من القوة التى لا تقاوم . . . حقا إن مصدر المعتقدات سياسية كانت أو دينية لمشترك ، وهى خاضعة لسنن واحدة ـ أى إنها لا تتكون بالعقل وكثيرا ما تتكون خلافا لما يقتضيه العقل ! ؟، فالبوذية والإسلام والإصلاح الدينى واليعقوبية والاشتراكية وإن لاحت على شكل فكرى ظاهر هى بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة . . .

وحماسة مؤسسى الثورة الفرنسية تعدل ناشرى دين محمد (! ؟) فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى فى المجلس الاشتراعى الأول أنهم أسسوها وقضوا بها على المجتمع القديم، وأقاموا بها حضارة أخرى على أنقاضه ، وما وجد خيال فاتن شغل قلب الإنسان أكثر من ذلك الخيال ! ! فكان أولئك الرجال يقولون: إن مبدأ الإخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوهما يمنحان الأمم سعادة أبدية ، وإنه لما قطعت العلائق بالماضى المظلم الموحش أصبح المجتمع الجديد سائرا على نور العقل المطلق ...

توصف روح التدين بإسنادها قدرة عظيمة إلى قوى علوية ... وهذه الروح هى أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية ، والمنطق الدينى مشبع من المشاعر وسائر العواطف ، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها منه ... ولم تلبث مبادئ الثورة الفرنسية أن ألقت فى قلوب الناس حمية دينية كالتى ألقتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن ...

إن الأمة ـ عند المتقدمين والمتأخرين من اليعاقبة ـ كالآلهة ، ذات شخصية سامية ، لا تسأل عما تفعـــل ، ولا تخطئ أبدا ، فالجميع مسئول عن إطاعتها وإن جاز لها أن تقتل وتنهب وتحرق وتأتى أقسى المظالم وتطرح غـدا فى الدرك الأسفل من رفعته اليوم إلى مصاف الأبطال ، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام حكامها ، مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية ؟!

وقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينيين فى الوقت الحاضر فى مقالة نشرت فى إحدى الجرائد الكبيرة عن أحد وزرائنا السابقين : يسألون عن الفرقة التى ينتسب إليها مسيو فلان ، هل هو من فرقة الملحدين ؟ . . . إنه لا يختار أى إيمان وضعى ، ويلعن روما وجنيف،ويجحد بالعقائد التقليدية . ويكفر بالكنائس المعروفة !! إنه إن جعل الصحيفة هكذا ملساء ، فذلك ليقيم عليها كنيسته الخاصة التى هى ذات بدع أكثر من كل كنيسة ولن تقل محكمته التفتيشية فى شدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم توركمادة !! (١)

ولسنا فى معرض مناقشة تفصيلية لآراء جوستاف لوبون ، وإنما نأخذ منها هنا دلالتها على الأعماق البعيدة فى النفس الإنسانية التى تثبت وجودها بما يفيض على سطح المجتمع من أحداث وظواهر . . . مهما تنكر الناس لنفوسهم !!.

وبمثل هذه الفلسفة يناقش لوبون الشيوعية أيضا فى كتبه « فدعاتها قساوسة متدينون لم يغيروا سوى اسم آلهتهم ، ومن مظاهر هذا التدين ما جاء فى جريدة (الأومانيتيه) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ من أن الأستاذ الشاب فى السوربون ألقى فى حفـلة افتتاح مدرسة ، موعظة حماسية استغاث فيها بآلهة العقل . . أولئك الزعماء متدينون لاعتقادهم انقلابا يخرج منه عالم جديد ، هم يفخرون بإنكارهم الأساطير مع تمسكهم بأسطورة من فصيلة أساطير القرون الأولى ، فالخوارق عندهم بدلت شكلها فقط ، أى : أنها تبدو لهم على وجه قادر على تغيير طبيعة البشر وتجديد المجتمعات فجأة . إن النصرانية تقول بثواب فى جنات الآخرة ، وهذه لا تفتأ تعد بسعادة دنيوية لم تتحقق بعد ! » (١) .

ولكن لوبون لا يناهض الاشتراكية كاتجاه عام لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وإنما يناهض النظريات والتفاصيل « .. لا نكون

---

(١) روح الثورات : ترجمة زعيتر ص ١٧ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(١) روح السياسة : ترجمة زعيتر ص ٢٠ ، ١١٤ ، ١٢٥ ولزيادة التفصيل : كتاب المؤلف نفسه روح الاشتراكية .

بمناهضتها مقاومين لحركة التضامن الاجتماعي التي لا يدور في خلد أحد أن يحول دونها ، فتتقدم طبقات العمال مادة ومعنى من المسائل التي تهم جميع الناس ، والدليل على ذلك ارتياح الكل لمشروعات التأمين ضد حوادث العمل وإنشاء بيوت للعمال . ومنح العمال رواتب تقاعد وتعليم العمال والاعتناء بصحتهم وفتح اعتمادات مالية للمزارعين . الخ » (١) .

هكذا نزغت الديانات الجديدة ، في العصر الذي لا يرضى بالدين ! .

وهكذا أقيمت آلهة الهوى . . . بعد أن رفض الناس أن ينقادوا للإله الذي تحدث عنه الأنبياء ! .

إن نزعات الإنسان في التطلع للمستور ، والتحمس لعقيدة ، والانقياد لقوة عليا ، والانخراط مع الزمرة . كلها نزعات لا تريد أن تموت ! .

* * *

وأقبل العلم يعالج هذه النفس البشرية . . هذا الكيان الغامض الذي يأتي بالعجب العجاب ! .

وتقترن صياغة الديانات الجديدة بدراسة النفوس . . . حتى تأتي الديانات مفصلة موافقة على علم ونور ، وتتحقق (الراحة الإنسانية) بغير دين ! ! .

ومضت الدراسات النفسية قدما، وانفجرت كلمات فرويد تكشف عن متاهات (اللاشعور) ! . اللاشعور ! . . . . وهل هناك غير الحس المباشر القريب، وهل هناك غير العقل الفاحص الرشيد ؟ .

وأقبل علماء النفس ينقبون في أغوار اللاشعور بنفس مناهج التجريب . . . واستعملوا أساليب التأمل الذاتي (الاستبطان) والملاحظة الخارجية والتحليل النفسي . . . وتتابعت الأبحاث والفحوص، وأعد الناس أنفسهم لعهد جديد : تقاس فيه (السعادة) و (الراحة) و (الاتزان) في المعامل بالعدادات ! ! وبدأت الثمار تينع .

« يصارح فرويد الناس بأن كل صنوف النشاط التي تصدر عنهم تعود إلى ما يوجد في أعماقهم من فطرة توجه التفكير والسلوك على اختلاف أشكاله وأساليبه ، مع أن الناس بطبيعتهم يميلون إلى الفخر بقوة إرادتهم وإلى إظهار الحزم في تقرير سلوكهم بأنفسهم ، وينكرون أي أمر في أعماق نفوسهم يوجه نشاطهم دون وعي منهم ! ! .

وأغلب النقد وجه إلى نظريته عن الميول الجنسية وكان نقداً لاذعا قويا دفعه هو إلى

---

(١) روح السياسة ص ١٢٠ .

توضيح كثير مما قال به وإلى توسيع معنى الميول الجنسية عند الإنسان حتى وسعت الحياة الوجدانية كلها بل الحياة الخلقية والجمالية والفكرية أيضاً . . . . حتى لقد اعتبر بعضهم مذهبه نظرية للقيم لها صفة (الواحدية) مثل المذاهب الفلسفية التي ترجع كل ضروب النشاط إلى غريزة البقاء والتناسل . وقالوا إن نتيجة الفرض الذى وضعه فرويد (هو أنه يمكن التطبيق على كل شيء) ولهذا لا يمكن أن يثبت أى شيء ! ! .

ومن ألوان النقد التي وجهت إلى التحليل النفسى أن فرويد وأتباعه — على صواب كثير من آرائهم ، وعلى الجهد الذى يبذلونه لاصطناع الطريقة العلمية فى أبحاثهم — يعرضون لدراسة النفس ويبحثون فى أمراضها بفكرة سابقة فى أذهانهم وبفرض يلتمسون له الإثبات فحسب ! ! .

ويطول بنا الحديث جداً لو أردنا أن نفصل أوجه النقد التي يمكن أن تؤخذ على فرويد فإن ما كتب فى تحليل النفس وما كتب ضد هذا المذهب قد يسع مكتبة بأكملها ! ! .

على أن أهم من نقد فرويد وعمل على استكمال مذهبه اثنان هما آدلر ويونج ... وكان مصدر الخلاف الأساسى بين فرويد ويونج هو السيطرة الكاملة التي كان يقول بها فرويد حينذاك عن الميول الجنسية وحدها فى الحياة النفسية ، سيطرة شملت كل نواحى النشاط وتفاصيله فى النفس ، على حين رأى يونج أن الجنس على ماله من السيطرة فى حياة المرء لا يتفق مع رغبة الإنسان فى الحياة الموفورة التي لا يمكن أن تقتصر عليه ولا أن تشتق منه دون غيره ! !

كذلك قال يونج برأى خاص عن اللاشعور ذلك أنه يزعم أنه قد كشف عن وجود (لاشعور جمعى) فى النفس الإنسانية تشتق منه الحياة الشعورية واللاشعورية فى الفرد ، وهذا اللاشعور الجمعى موروث يحوى الغرائز كما يحوى الأفكار الأولى ، ولا تصدر عن هذا اللاشعور الجمعى معان بينة واضحة بل ميول إلى التفكير على منحى معين قد تظهر فى الأحلام أو فى مخاوف الأطفال أو أوهام المعتوهين ، بل فى حياة الأسوياء من الناس حين يجبه الواحد منهم موقف لا تغيثه فى تفهمه المعارف العلمية التي ألم بها منذ قريب ! ! .

أما آدلر فقد وجد أن الغاية من كل مرض نفسى هى تمجيد الشعور بالشخصية الذى يظهر على أكثر أشكاله سذاجة فى مبالغة المرء فى إظهار الرجولة واعتزازه بكل ما يتصل به من سمات ومميزات ، وهو يخطىء فرويد فى تعليله الجنسى للأمراض العصابية ... الخ » (١) .

---

(١) دكتور إسحق رمزى : علم النفس الفردى ص ٥٢ : ٦٩ .

وعادت المشكلة التى أردنا أن نحلها بعلم النفس، تسخر منا ...

وتشعبت فروع علم النفس: نظرى وتطبيق وتحليلى، مرضى وعلاجى، تربوى واجتماعى وصناعى وحربى، فردى وجماعى ... فروع لا تنتهى تغشى كل آفاق الحياة.

وتعددت المدارس: فرويد وآدلر ويونج ومكدوجل، السلوكيون والارتباطيون (الجشتالت) والبراجماتزم ... واقترنت الفلسفة بالعلم، وتجاوز التجريبيون الحدود الصارمة للملاحظة والاستقراء إلى الآفاق المرنة للتعميم والاستنباط ... ودخلت الأهواء مع نفوس العلماء إلى معامل الاختبار وعيادات التحليل !!!.

ومع هذا كله، فقد كشف علم النفس آفاقا هامة للمعرفة، وأشار إشارة واضحة إلى الطريق حين تجرد من القوالب التى يجمدها تعصب صناعها ... إن آفة العلم فى الذين يتصايحون به لغير العلم، ومن هنا استغلت آراء دارون فيما لم يكن يدور بخلد دارون، ووجهت نظريات فرويد إلى أبعد مما تصوره فرويد !.

أما العلم الرصين الناضج فتقرأ فى صفحاته « لا بد لكل كائن حى من أن يتحرك صوب اكتماله الخاص، فكمال الحياة هو هدف الحياة، والحافز إلى الاكتمال هو أقوى محرك ملزم فيها، والاكتمال فى علم النفس هو تحقق الذات، وكما تكره الطبيعة كل فراغ فإن الكائن الحى يكره عدم الاكتمال كذلك، ونحن نجد السعى إلى الاكتمال والإحساس بعدم الاكتمال ظاهرين بشكل واضح فى الدين والذات المنتظمة يمكن أن تعرف بأنها تنظيم لجميع العواطف والاتجاهات المستساغة .... والإرادة هى الذات المنتظمة عاملة وهى الذات متحركة .... وإن المنبه المناسب للإرادة - ذلك المنبه الذى يصلح لإثارة الذات بصفة خاصة إلى النشاط - هو المثل الأعلى، أى هو الفكرة أو الشىء الذى يؤدى إلى التحقق الكامل للفرد كله.

إن الكائن الحى إذا كان مدفوعا بالغريزة والبيئة وحدها فإننا نسمى ما ينتج (سلوكا) أما إذا اشترك مع القوى الوراثية والقوى البيئية مثل أعلى شعورى أو غاية يتجه إليها الكائن الحى سمينا النتيجة (مسلكا) ولهذا نذكر السلوك ونقصد به سلوك الحيوان، ونذكر المسلك ونقصد به سلوك الإنسان، وكل عمل غريزى يؤدى إلى نتيجة ما، أو إلى (غاية) معينة، ولكن هذه الغاية إذا أدركها الإنسان إدراكا شعوريا وسعى إليها بمحض اختياره فإنها تسمى غرضا، والمثل الأعلى الصائب من الناحية السيكلوجية هو المثل الذى يستطيع جلب التوافق للنفس باجتذاب

الانفعالات الغريزية جميعا وهو الذى يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصب الفرد باعتباره وحدة سيكلوجية فى قالب كائن حى وهو الذى يضمن تحقق الذات والسعادة وذلك بإشباع السعى إلى الاكتمال... والرجل السعيد هو ذلك الذى يجد فى الحياة تعبيرا متوافقا عن غرائزه كلها ـ عن غرائز الطموح وإثبات الذات فى مهنته ، وعن غرائزه الجنسية فى الزواج ، وعن غرائزه الوالدية فى أسرته أو فى عمل الخير ، وعن استطلاعه فى البحث ، وعن حبه للظهور فى الكلام ، أو الكتابة ، أو الرسم. وعن غرائز المقاتلة والغضب فى دفاعه عن معتقده ... هذه الغرائز وغيرها حين توجه نحو غرض مشترك عام كأن يعيش من أجل بنى جلدته تكون قمينة بأن تمنحه سعادة لا حد لها (١) » هنا يسجل العلم تسجيلا أمينا ، لا يتورط ، ولا يتعدى .

والدين لا يضيق بهذا العلم الأمين ، بل إنه يتعزز به ، إذ تتعاون أدوات الله التى استودعها فى الإنسان من حواس وعقل مع أدوات الله التى أرسلها مباشرة من وحى وهدى ، ويركب الإنسان كل مركب لاجتلاء آيات الله فى الآفاق:

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » أما أن ينصرف الإنسان عن الله الواحد لينحت لنفسه آلهة تسد الفراغ ولا تطفئ الظمأ ولا تعفى من الالتزام ، فهذه صفقة خاسرة لا تقدم للعقل جديدا وتزيد قرابين الجهد والدم أى مزيد ؟

فتحى عثمان

---

(١) هادفيلد : علم النفس والأخلاق ترجمة أبو العزم ص٨٥ ـ ٦ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٢١،٦ :

ذلك أن شوقى كان يعتز بآثار أسلافه الشعراء فى الوزن والتقفية ، ويرى أن التجديد الصحيح : لا يهدم الأساس ، ولا يذهب بالأصل ، وأن الفن تعب وعناء ، والعبقرية جد متواصل ، وأن الشعر ليس لهواً ولعبا كما ينظر إليه بعض الشعارير فى هذه الأيام بل هو كما يقول نقاد العرب : عمله على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وهو كالبحر أهون ما يكون على الجاهل به أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته . وهو كما يقول أكثر شعراء العرب اختراعا وتوليدا ابن الرومى :

مطلبه كالمغاص فى درك اللجة
من دون درها الخطر

وكما يقول بعض نقاد الغرب « تين » : لأن أقود جيشا أسهل على من أن أكتب ستة أبيات جميلة من الشعر .

(له بقية)

على الجندى

من وحى الأخبار
إلى المشتغلات بالشئون النسوية

للأستاذ أبو الوفا المراغى

خبر صغير لكنه خطير ، خطير فى معناه ودلالته وفيما ينشده من أهداف وغايات بعثه الأقدار فى وقته المناسب وحين الاحتياج إليه ، نسوقه إلى من يشتغل بالشئون النسوية ويتزعم بزعمه الدفاع عنها ، نسوقه إلى هؤلاء ثم نشرح ما فيه من مغزى ودلالة عسى أن يكون فيه مقنع للبيب أو منصح لرشيد .

نشرت بعض الصحف « أن الملكة اليزابيث استأجرت لابنها ولى عهد انجلترا أبا بدلا من أبيه الذى قام برحلة طويلة إلى الخارج حيث لم يبق مع ولى العهد رجل بين أفراد الأسرة المالكة فكلهن من الفتيات والسيدات ، وقد رأت الملكة أنه لابد من وجود رجل مع ابنها الصغير ، ولهذا استأجرت له أبا ، وسيرافق الأب الجديد ولى العهد فى كل مكان يذهب إليه » .

هذا هو الخبر وإنه لخبر غريب بل ربما كان من أغرب الأخبار . سيدهش له كثير من القراء وسيذهبون فى تفسيره مذاهب، وسيكون تأويل أكثرهم بعيداً عن المغزى المقصود منه ، وسيجد فيه الدارس المتفحص معنى جديراً بالتقدير والاعتبار لما فيه من فلسفة سياسية واجتماعية وحكمية ، ذلك أن ولى العهد الحالى سيكون فى المستقبل القريب أو البعيد ملكا لدولة من أكبر دول العالم وأهمها مشاركة فى توجيهه وقيادته ولا بد لمن يلى هذا المنصب من أن يعد إعداداً يناسب مسئوليته وخطره ومسئولياته متشعبة ، فهى مسئوليات سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية ، وهذا الإعداد لابد له من جو خاص يسوده الحزم والصرامة ، ويمزج فيه بين اللين والشدة ليكون ذلك الجو صورة لواقع الحياة ، وواقع الحياة عبوس وابتسام ، وسلام وخصام وشدة ورخاء واكتئاب وهناء .

ومن قبل هيأت الأقدار لأصحاب الرسالات العظمى فى الحياة هذه الأجواء ، وقل أن تجد فى أصحابها من لم يمتحن فى تاريخه ، ومن لم

تمحضه الحوادث حتى استبانت مواهبه وملكاته وأكثر هؤلاء نجاحا أطولهم فى فترة الاختبار والتمحيص ، وهذا الجو أو هذه البوتقة التى يصاغ منها الرجال وأصحاب الرسالات لا يمكن أن تهيئه امرأة أو مجموعة من النساء مهما كانت حظوظهن الثقافية والخلقية فالجو النسائى بطبيعته جو مرح ومجانة ، وقلق واضطراب تسوده العاطفة المتقلبة والحنان المفرط وتسوده الرخاوة والليونة ، والناشئ فى هذا الجو لابد أن يكون صورة له ومطبوعا على غراره - لاجرم أن يكون واهى الأركان مزعزع البنيان ، لا يثبت لحادث ، ولا يستقر على حال ، لا يغالب الأقران ، ولا يركض فى ميادين الأبطال ، ومن الغريب أن تكون هذه الحقيقة متقررة فى نفوس الشعوب حضريها وبدويها متقدمها ومتخلفها وإنا لنسمع فى أقاصى الريف بعض العبارات التى تترجم عنها ، نسمعهم يقولون فى معرض وصف بعض الأشخاص بالضعف والتخاذل : « هو تربية هجالة » والهجالة فى عرفهم اللغوى من مات عنها زوجها وتولت بعده تربية أبنائها . لقد أثار هذا الخبر الذى ذكرناه أشجاننا مما تطالب به بعض الهيئات النسائية فى مصر وتنشره الصحف ويشتغل به الرأى العام وجعلنا نربط بينه وبين هذه المطالب لنكشف عن وجه الخطأ فيها ونتخذ من مغزاه الذى يلتقى مع بعض مقرراتنا الدينية حجة حديثة على ذلك الخطأ والحديث عند هؤلاء اعتباره وتقديره وبخاصة إذا كان الغرب مطلعه وأنه لمطلع نحس فى بعض الأحيان .

لقد أخذت بعض الهيئات النسائية تطالب بامتداد مدة الحضانة للأبناء . وسلب حق الرجال فى ضمهم إليهم لعلل أقل ما يقال فى أدب الجدال عنها إنها واهية متهافتة . ومما قلنه : إن الأمهات أصلح لهذه المهمة من الآباء لمكان الحنان والعطف فى نفوسهن ولخبرتهن بشئونهم وتوافر أوقات الفراغ لرعايتهم ولأشياء أخرى تدور حول هذه المعانى ، ونحن لا نستطيع أن ننكر بعض هذه الأشياء ولكننا نناقش ونناقش كثيراً فى بعضها وبأيدينا أن ندحضها .

إن الحنان والحب قدر مشترك بين الآباء والأمهات وهبته الطبيعة لهؤلاء وأولئك بالأبناء ووقاية لهن من العواصف والقواصف وقديما قال العربى البدوى سليل الصحراء :

إنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشى على الأرض

ولم يقل إنما أولادهن بينهن أكبادهن أما أن الأمهات أخبر بشئون الأبناء وأدرى بوجوه مصالحهم فتلك دعوى دونها النجم ولعل فى الواقع والمقرر فى نفوس العقلاء ما يغنى عن الحديث فيه . إن تهيئة الأبناء لرسالاتهم فى الحياة تحتاج إلى الحنان والحب وتحتاج أكثر من هذا إلى القسوة والحزم . والحنان المحض ، والعطف الدائم ، طريق لا تحمد مغبته .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما
فليقس أحيانا على من يرحم

والأبناء فى فترة خاصة فى حاجة شديدة إلى سلطان الأب يقفهم دون نزواتهم ، ويقيم خطواتهم ، والمرأة ضعيفة السلاح فى هذا الميدان . وكل أب وكل أم يحس بذلك وما أكثر ماتهدد الأمهات الأبناء عند الزلل بسلطان الأب فيرعون ويرتدعون .

والشريعة الإسلامية كانت فى هذا الشأن حكيمة راشدة شأنها فى كل ماترسم وتقرر فقد قسمت فترة تربية الطفل بين الرجل والمرأة قسمة عادلة فجعلت الفترة الأولى منها للمرأة وذلك حين يكون الطفل فى حاجة إلى الجانب العاطفى الخالص وإلى الرعاية الجسمية المحضة ، وهى الفترة التى بين الولادة وسن السابعة أو قريب منها ووكلت الطفل فى الفترة الثانية - وهى الفترة الخطيرة فترة تكوين الشخصية من الناحية العقلية وإعدادها لمستقبلها - إلى الرجل ينفق فيها خبرته وتجاربه ويمارس فيها سلطانه وقوته ليجعل من أبنائه خلفا صالحا جديرا بحمل مشاق الحياة فى رحلتها الطويلة .

وربما يقال : إن الرجل قد تعوزه الصلاحية لضم أبنائه إليه ورعايتهم وخصوصا حين يتزوج بأخرى لما يتعرض له من توزيع عواطفه بينهم وبين زوجه الجديدة أو بما تسلبه الزوج الجديدة من عطفه عليهم ، فتضطرب حياتهم وتقسو معيشتهم ونحن نسلم بذلك إلا أنا نرى أنها حالات نادرة لاتسوغ سلب حق الآباء فى ضم الأولاد إليهم فى الفترة الخطيرة فى حياتهم ، ويعوض هذه الخسارة على الأبناء مجموع مافى الرعاية الأبوية من الفوائد التى أشرنا إليها، وأهمها هيمنة الرجل وسلطانه اللذان لابد منهما لحماية الناشئة فى عصر تنوعت فيه أسباب الغواية والفتنة .

هذا وتعرض الأبناء للخطر فى حالة زواج الأب بأخرى قد يحصل لهم مثله مع الأمهات وذلك حين ينزلقن فى تيار المدنية فيسلكن بهم مسالك اللهو والخلاعة ، ويفسدن عليهم مستقبل حياتهم وما أكثر الأمهات اللاتى انزلقن فى ذلك التيار فوردن بأبنائهن الموارد الوخيمة .

وعلى كل فحالات الشذوذ التى تعرض لبعض الآباء لاتدعو إلى تغيير أحكام الحضانة الحالية التى قررتها الشريعة وجرى بها العمل منذ أرسى الله قواعدها على أسس اجتماعية صحيحة ، ولم يستمسك بها الفقهاء والمفتون للهوى والعصبية ولكن لما انطوت عليه من مصالح واضحة وحكم معقوله .

إن المطالبة بتغيير هذه الأحكام قضية يغلب عليها الجانب العاطفى وينقصها الدراسة المتأنية الواعية كأكثر القضايا التى تتعلق بالإصلاح الاجتماعى المتصل بالدين فى هذا العصر . وحبذا لو اقتصد القائمون على الحركات الإصلاحية فى المطالب ثم استعانوا بذوى البصر بها فإن خطواتهم حينئذ تكون أكثر سداداً وتوفيقا .

أبو الوفا المراغى

استقبال شهر المحرّم

للأستاذ عز الدّين علي السّيّد

طالعنا هلال المحرم بهلاله السعيد ، يعلن عاما هجرياً جديداً بعد أن تنفس عام مثله آخر الأنفاس . وقد انطوى عنا بجليل من الأحداث فى حياة الإسلام والعرب ، ينبغي على العرب والمسلمين أن يقفوا منها موقف التاجر الكبير عند رأس السنة ، يحصى ماله وما عليه ليعلم إخفاقه أو نجاحه ، وليتعرف فى حذق سر كل منهما ، وليدخل كامل الأهبة لاستقبال الزحام السنيف ، وصراع الحياة القاسية وهو قابض بيديه كلتيهما على عجلة القيادة . هادفا إلى نصر لا تبعده الأخطاء ولا تستحيل به عبادة الهوى ، أو تنحرف به عن الوصول الرذيلة .

انصرم هذا العام بآيات لقوم يتفكرون . فرأينا العراق الحبيب يفور فيحرق الأصنام ويهنئ بعضنا بعضاً بانتصاره ، ورأينا لبنان العزيز تنفجر فيه البراكين فتطيح بمعاقل العدوان الحاقدة على الحق ورأينا الجزائر الصابرة تضاعف جهودها فى جهادها . فتحالف النصر ، ويؤازرها النجاح ، وتؤيدها الملائكة فى كل خطوة ، كما رأينا الكثير من بقاع الأرض العربية والدنيا المسلمة يهتز أو يميد فيفزعنا اهتزازه ؛ لأن السادة العبيد من حكامه غمرتهم المطامع فطمرتهم ، فتوارت عنهم أضواء الفضيلة الممثلة فى حقوق إخوانهم وواجبات بلادهم ومقدسات تاريخهم وحرمات أمتهم فرأينا النكسة التى أصابت العراق فى حكامه الثائرين ، وإذا فرحة الأمس قد شربها الأسى والألم ، والنار فى العراق تلتهم الأبرياء والدم يسفحه السفهاء ، والأمن تسلبه الرذيلة والخير يقتله الشر ، فنحزن للعراق كما فرحنا للعراق ، وتغلى دماؤنا بالغضب لمقدساتنا فيه ولإخواننا منه ، والعروبة شىء واحد لا يتجزأ ، والعقيدة جامعة توحد المفترق ، وتؤلف المتناثر ، ما دامت ثابتة صافية ، لم تختلعها من المكامن عواصف الشك ، ولم تكدرها عناصر الإلحاد .

وولدمع هلال المحرم حادث الهجرة إلى يثرب الذى ارتبط بالمولد الأول مولد الرسول عليه السلام أوثق الربط وتوالت بعده فتوح الإسلام ومغازيه وحيا يوحى للهداية والرشد والفضيلة ، أو سلاحا يشهر فى وجه الباطل والضلال والرذيلة حتى يستقيم المعوج ويعتدل المنحرف ، وتؤمن

الحياة بأن رحمة الله من السماء شملتها ، فاجتثت من الأعماق جذور الغضب فى الأرض حتى يكون فيها أمثال الملائكة أخلاقا « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » ، « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » ، « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وما نبت على هذا الثرى قبل ذلك بكثير من يتحامى الفجور فضيلة أو يتحاشى الرذيلة عفة أو يجنح للسلم إجلالا للسلام ، أو يؤمن بالإنسان على أنه أخ يرحم ويعان حسبة لله أو تلبية لنداء العاطفة .

وقد صاحبت الهجرة إلى يثرب حجج النبوة الدامغة ، وعلائم الرسالة الصادقة لا تترك لمنصف أن يشك فى محمد فيقول : « ساحر كذاب » ، « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » ... إلى آخر الاتهامات التى نسجها الحقد أو الحسد أو التهكم المولود فى ثرى الجهل والضلال « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » . « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ » .

فليس ذهول الساهرين حول الدار عن الخارج المرتقب ـ وهم رصد لقتله ، من أجلد فتيان قريش وأذكاهم وأحقدهم ـ أمرا تلده الصدفة ، أو تحكم به الظروف العابرة دون قصد من الإرادة والقدرة الإلهيتين ، هدفه دفع الباطل بالآية المبينة « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وليس الدرع الواقى تحوكه العناكب الضعيفة على باب الغار من نسيجها الواهن يسكنه الرفيقان الحبيبان ومن فوقه الجناح المرقش يحضن الغار فى حنان ويهدل على رأسه فى سكينة فينبعث من الضعف والوهن أقوى سلاح فى الوجود للضيفين النازلين ، ليس ذلك أمراً تحدثه الموافقة فى الظروف دون العناية الهادفة من رب الرسالة الهادية ، صونا لحياة القائمين بها وبرهنة على صدق ما يدعون .

وليس أحد المارة لو نظر تحت قدميه لرأى الرسول والصديق مع كثرة العيون وشدة الطلب تنصرف أنظارهم عن الهدف

أقرب ما يكونون من الفرصة السانحة فيرجعون بخيبة الفشل - ليس ذلك من الأمور التى يمكن أن تكون عادية فى حياة الناس، إذ العقل يوحى باختفاء الخائف المتسلل فى هذه المهاجر ليضلل الطالب. والأثر المقتفى يؤكد أنه مأواه : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ».

هذه الآيات إلى حديث سراقة كانت جديرة بإجماع أهل الدنيا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى قضية الرسالة ، ولكن طابع البشرية على اختلاف أفرادها لانسجام الحياة جلت حكمته ، فعمى عن هذه الآيات وعن غيرها من بصّرته الرماح البارقة ، وحاد عنها من هدته مصارع الطغاة الحامية ، أو تضاعفت فى قلبه أنوار الوحى الباهرة ، وظل على كفره « من أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ » .

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

هلال المحرم يحمل تلك المعانى ، ويحمل معها معنى عزة المؤمن ينشد مكانها فى أى بلد أو وطن ، لا يبالى بالغربة إباء للضيم . ونشدانا للقوة ، وبناء للأمل ولا يحفل بالأهل والولد يخرجون على فكرته ، ولا يؤمنون بدعوته ، يضع الحنين إليهم وعاطفة الحب لهم تحت صرامة الحق الذى حاربوه وصراحة الوحى الذى كذبوه ، فلا يلبث الحنين الرفيق، وعاطفة الحب أن يستحيلا غضبا ثائرا على المارق « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . .

كان فى الهجرة رضا النبى وأصحابه كل الرضا بالله فتركوا فيه الأهل والمال والوطن ضنا بالعقيدة وطلبا للعزة وتلبية لنداء الله « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » .

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن رام الغنى متحول

وفى الهجرة إلى ذلك انكشاف لجوانب الإيثار والفداء فى صحابة الرسول ، ولشدة ارتباطهم به وانصباب روحه فى أرواحهم وانطباع عقيدته فى عقائدهم فعَـلِىٌّ الفتى الباسل يتسجى برد الرسول المهاجر ، وينام فى مرقده المطلوب ثابت الجأش رابط القلب مؤمنا بالله يخرج على القوم فى الصباح فيبغتهم لا يهاب بطش طيشهم للمفاجأة ، وما تركه النبى الحانى إلا احفاظا للذمة وردا للأمانة وإيصالا للوديعة، لم ينسه ذلك ما يكتنفه من المشاق وما يحيط

به من الصعاب ، وأبو بكر الرفيق الصديق يصحب النبي المهاجر يعرض نفسه للقتل المحتمل وإن كان لا يشك فى نصر الله ، يعز عليه الرسول أكثر من نفسه فيتقدمه إذا ذكر الراصد ، ويتخلف عنه إذا تصور الطالب ليكون فى الحالين دون الرسول والأذى ، وأسماء الفتاة الوديعة تذهب وتجيء إليهما بالطعام لا تخشى أن يدركها من الأمر المفزع ما تضيق به دفعا عن الروح ، كل هذه صور يحملها المحرم ويوحى بها هلاله ، لترتسم فى إطار من الروعة تشهده القلوب المؤمنة فى جلال ، تتخذ منه عتادا وتعتز به زادا .

يحمل هذا هلال المحرم وفوق هذا يحمل هلال المحرم فإذا كان فى الذكريات من نفع وإذا كان فيها من دفع فلتنفعنا هذه الذكرى بالأمل فى عامنا الجديد ولتدفعنا إلى الظهور على الأهل والنفس والمال والولد فى سبيل العزة والمجد ، والوحدة والكرامة ، لنقتل العدو الكاشح الذى يناوئنا فى كل قطر ويحاربنا فى كل بقعة ويحاصرنا فى كل سوق ؛ دعاية لا يضن عليها بمال أو وقت ، واقتصادا لا يبخل عليه بعرق أو دم ، وحربا لا يغلى عن ميدانها ملكه ولا ممتلكا ؛ وأعجب العجب أنه الباطل يدفعه فى عنف وأنه الحق نفترق عليه فى تخاذل ، ولا يؤسف ولا يحزن شر من ذلك فى حياة الآمل الحالم ؟

عز الدين على السيد
إدارة المعاهد الدينية

خصائص قوميتنا

١ ـ هى قومية بالمعنى الحضارى الشامل ولكنها ليست عنصرية .

٢ ـ وهى اشتراكية تدعو إلى تدخل الدولة لزيادة الدخل وتحقيق العدل فى التوزيع ، ولكنها ليست شيوعية .

٣ ـ وهى « شورى » تؤمن بسيادة الأمة ، وتضع مصلحتها فوق كل شيء . وترى فى الديمقراطية الصحيحة السليمة الطريق السوى الذى يكفل الحرية والكرامة والخير العام للأمة العربية .

٤ ـ وهى ترى أن كل نظام استبدادى يناهض طبيعة الأمة العربية من حيث الأساس ويعارض الحقائق النهائية التى ترسبت لهذه الأمة من تاريخها المجيد .

٥ ـ وقوميتنا بعد هذا « تقدمية » تجددية تأخذ بكل وسيلة مجدية لإعلاء شأن العرب ورفع مستواهم الاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

قصص الأنبياء في السينما

للأستاذ محمد على ناصف

اعترضت مشيخة الأزهر على فكرة إنتاج فيلم سينمائى يتناول حياة يوسف عليه السلام. وحاول الأستاذ محمد التابعى فى مقالين بجريدة «الأخبار» أن يثبت :

أولا : أن رأى رجال الدين فى هذا الموضوع لم يتطور ، ولم يختلف عن آراء لهم قديمة .

ثانيا : أنهم ناقضوا أنفسهم فلم يحتجوا على حديث نشرته صحيفة «الأهرام» فى عام ١٩٥٥ جاء فيه أن «سيسيل دى ميل» يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل «صوت الله» باللغة العربية فى الطبعة التى ستوزع على البلاد الإسلامية من فيلم «الوصايا العشر» الذى يخرجه .

* * *

ويبدو لى أن الأستاذ التابعى على قدر اتصاله بالمشتغلين بصناعة السينما ليس لديه الوقت لمشاهدة إنتاجهم ؟ وإلا كان حكمه ـ وهو الناقد الأريب ـ أن صناعة السينما عندنا لم تتطور هى الأخرى ، حتى تتطور الآراء بالنسبة إليها ، وحتى يطمئن ويثق رجال الدين والدنيا فى مهارة القائمين بها ، وفى ائتمانهم على إخراج موضوع جدى عن حياة أحد الأنبياء ! لقد عاصر الأستاذ التابعى صناعة السينما فى مصر خلال الثلاثين سنة الأخيرة ؛ ولعله لا يعترض كثيرا حين أذكر أن تسعين فى المائة من الإنتاج الحالى يهبط فى مستواه الفنى عن أول فيلم أخرجه «ستديو مصر» مثلا ! وإذا كانت هذه حال السينما عندنا فيجب أن نتردد و نتريث طويلا عن طلب إقحام قصص الأنبياء والرسل فى سوق تضرب فيها الفوضى والجهل والارتجال بأوفر سهم .

إن الأفلام الدينيـة : لا يجب الترخيص بموضوعاتها بمثل البساطة التى نرخص بها لموضوعات الأفلام الأخرى لأسباب كثيرة أولها : مكانة مصر فى العالم الإسلامى واعتبار مايصدر عنها مثلا يحتذى . ولقد سمعت من أحد الدبلوماسيين أن بعض الأفلام المصرية التى عرضت فى أندونيسيا كان لتفاهتها أسوأ الأثر فى نفوس الذين شاهدوها ؛ لدرجة اضطرت معها سفارتنا هناك إلى التدخل

والنصح ؛ باتباع سياسة معينة فى هذا الشأن. فما بالك إذا كانت هذه الأفلام تعالج موضوعات لها قداستها وجلالها ؟ ! إن بعض الأفلام الدينية التى رخصنا بصنعها ، ولا تزال تعرض حتى الآن لا يرغب أعداء المسلمين فى أكثر من الحصول على حق توزيعها ! ولست أشك فى إخلاص معظم منتجى هذه الأفلام ؛ ولكن الإخلاص وحسن النية لا يعالج بهما القصور الفنى ! ولقد حشدنا كل الإخلاص والنيات الحسنة فى فيلم « خالد بن الوليد » مثلا .. ولكنى أعتقد أننا نلنا من شخصية خالد فى هذا الفيلم ماعجز عن نيله الروم والفرس ! .

وقد يقال : إن قصة الفيلم مكتوبة فى أسلوب وهيكل رائعين ، ولكن الكتابة الممتازة لا تكفى وحدها ، فمسرحيات « شكسبير » هى هى بنصها على مسرح « الأولدفيك » وعلى مسرح « الانشراح » فى بغداد ، ولكن الفارق بين الأداءين هو نفس الفارق بين ترجمة حياة ينتجها للسينما كل من ستديو « مترو جولدوين » وستديو « شبرا » .

والتمثيل الممتاز لا يكفى كذلك وحده ؛ ولا يكفى الإخراج ، أو التصوير .. لخ .. فإن العمل السينمائى يتألف من عشرات الحلقات المتصلة التى يجب أن تكون جميعها قوية متماسكة وفى مستوى متقارب .. ونحن للأسف لم نصل بعد إلى الدرجة التى ننتج فيها فيلما خطيراً تصل نسبة الكمال فيه إلى درجة عالية . ولذلك يجب أن تقتصر تجاربنا على الموضوعات العادية ، ولا نقحم الدين فى هذه التجارب . إن أفلام « الوصايا العشر » و « الرداء » و « كوفاديس » التى ضرب الأستاذ التابعى المثل بها قد تكلف الواحد منها بين ستة ملايين و ١٣ مليونا من الدولارات وعبئت من أجلها أقوى الطاقات الفنية . ولا يزال أناس يتصدون بالقول إننا نصنع أفلاما ممتازة على مستوى الأفلام العالمية ؛ والدليل على ذلك أن أصحاب هذه الأفلام لا يجدون متفرجين لها حتى فى بلادنا ، ويطالبون الحكومة بأن توفر لهم جمهورا بقوة القانون ! والدليل الآخر أن فيلما واحدا من هذه الأفلام لم ينل جائزة من الدرجة الثالثة فى أى مهرجان دولى أو شبه دولى ! .

ويقول فريق أكثر اعتدالا أن علينا أن نستعين بالخبراء الأجانب فى إخراج أفلام عن ظهور الإسلام وفتوحاته وحضارته وأبطاله ، وهذا رأى غير مدروس ؛ فقد ثبت بالتجربة أن العمل الفنى عن دين ما ، يجب أن يضطلع به رجل يعتنق هذا الدين ويؤمن به فى قرارته ، ولقد كنت فى الولايات المتحدة عند عرض فيلم « الوصايا العشر » والذى لا يعرفه أكثر الناس أن النقاد اليهود قابلوا الفيلم بجفوة ، ووصفوه بأنه جنسيا Sexy أكثر منه دينيا ، ونقموا على مخرج الفيلم

اختيـاره لتمثيل دور فرعون نجماً محبـوبا « يول برينر » أكثر من الذى قام بدور موسى « شارلتون هستون » ، ولو أن سيسيل دى ميل كان يهودياً لتلافى هذا النقد . أو لما كان عمله موضع شبهة .

وشبيه بذلك ما قرأته أخيرا عن رفض مدينة « سلبى » Selby بمقاطعة « يوركشير » الانجليزية تمثالا ضخما للسيد المسيح من صنع المثال اليهودى « ابشتاين » بحجة أن ملامح التمثال تدل على القسوة والفظاظة ! .

إننى أول من يمنى النفس بكتابة قصة عمر رضى الله عنه للسينما ، ولكننى فى الوقت ذاته أعتقد أن قصورنا الفنى لن يحقق فى الوقت الحالى مثل هذه الأمنية . وحينما نستطيع أن نخرج أفلاما عن أمجادنا الدينيـة فى نفس المستوى الذى يخرج فيه الغرب أمثال هـذه الأفلام عن أمجاده ؛ فإن التردد والاعتراض يكونان وقتئذ خطأ كبيرا .

من أجل ذلك أعتقد أن مشيخة الأزهر كانت موفقة فى رأيها الخاص فى قصة « يوسف الصديق » ، كما كانت كذلك غير متناقضة مع نفسها حينما لم تبادر فتعترض على حديث نشر فى « الأهرام » عام ١٩٥٥ جاء فيه أن سيسيل دى ميل يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل « صوت الله » باللغة العربية فى الطبعة التى ستوزع من فيلم « الوصايا العشر » فى البلاد الإسلامية . لأنه ونحن الآن فى عام ١٩٥٩ لم يعرض الفيلم المذكور بعد فى أى بلد إسلامى وأعتقد أنه لن يعرض أبدا فى جمهوريتنا ، لأسباب أخرى غير الدين ، وأغلب الظن أن « حديث الأهرام » المشار إليه لم يكن صحيحا ؛ لأنى - للمصادفة - لازمت مستر دى ميل ، خلال السنوات الثلاث التى أنتج فيها هذا الفيلم ووقفت على خطته ورأيه فى هـذا الشأن ؟

محمد على ناصف

أثر الفرقان في تحرير الفكر الإنساني

للأستاذ عباس طه

لم يكن الفكر الإنساني فى عهد الخليقة الأولى على قسط من التقبل لما توحى به الفطر السليمة والآراء المستقيمة ، بل كان يخبط فى جهالة جهلاء وعماية عمياء ، كان يخبط فى مهمه قفر لا يأتى البصر الحديد على أطرافه ، تكتنفه الظلمة من كل جانب وتحيط به الكثافة من كل سبيل ، وقد غطى ذلك المهمه بغمام فتكاثف ركاماً ركاماً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ؛ لأن قواد الفكر فى تلك العهود الحوالك أحالوا عقل البشر إلى مأكلة رتع فيها قادة الدين واستحلوا لأنفسهم الصدارة الزائفة ، فقلبوا الأوضاع ومسخوا الطباع وبدلوا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين .

فانطفأت شعلة الهداية الدينية من نفوس روادها ؛ لأن النصرانية من جهة والوثنية من جهة أخرى كانت لها الصدارة الأولى فى تلك العصور المظلمة القاتمة ؛ فأول ماوجد الإنسان على أديم تلك الرقعة السوداء كان جاهلا كل الجهل ، وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ ، فلم تشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يوائم الحالة العقلية التى كانوا عليها . ولا تزال على الأرض قبائل ممعنة فى التوحش تقوم مثلا محساً على ما كان عليه الإنسان فى وجوده الأول ـ ومما انعقد عليه إجماع المؤرخين الأول أن الخالق سبحانه لم يحرم الإنسان وهو فى ذلك الدرك الأسفل من مطلع وجوده من رسل يهدونه إلى الحق بالقدر الذى يطيقه تعقله .

ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوهامه ، فيؤله قوى الطبيعة أو يتخيل وراء ظواهرها روحا أو أرواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه وتقذفه بالشر متى نقمت عليه ، فكان يستدر رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها ولا ريب أنه كان يصدر فى كل ذلك عن رجال نحلوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة . فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على ما يدعون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ؛ فكل شىء كان فى تقديره

صحيحا ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانته والممسكين بخطامه شأن المقلد إذا وقع فى آفاق رجل مضلل يعبث به كما يعبث الريح القاصف بكومة من الهشيم .

فلما استبان للإنسان شىء من العلم بالوجود الذى يعيش فيه وجعلت قواه العقلية تشعره شعوراً ساذجاً بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل ازداد ثقة بقادته وركوناً إليهم واحتفاظاً بما يفضون به إليه .

انتقل الإنسان درجة بل درجات فى باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه العلمية والأدبية وما يحيط به من ظاهرات هذا الوجود وتأهبت للقيام بحصتها من حياته العقلية ، ولم يؤثر فى خضوعه لأوليائه وقادته لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه إلى التطور فيوفونه حاجته من المدد العقلى فيضطر إلى الانقياد لهم كلما حفزته الحاجة الملحة إلى المزيد منه فيظل أسيراً فى قبضتهم .

تتابعت القرون والأجيال والناس سواسية على هذه الحال حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين أحضانها رجال وقر فى نفوسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فى نظرياتهم وقضاياهم وفيما يدلون به إلى الناس من عقائد فكان جزاؤهم القتل . وأكبر من ذهب منهم ضحية لرأيه الفيلسوف سقراط الحكيم عمدة الفلسفة اليونانية ولكن ما لبث هذا الحجر الشديد على الفكر أن خفت وطأته وخمدت جذوته فتمكن فلاسفة كثيرون من الإفضاء بمذاهبهم إلى الناس وفى بعضها ما يخالف عقائد عامتهم بل منها ما يفضى إلى المادية البحتة .

غير أن هذا العهد لم يطل أمده ، فلما شملت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ما ليس للملوك المتوجين فوضعوا حدوداً للنظر لا يسمح لأحد بتعديها فوقفت حركة الفكر أكثر من عشرة قرون أو يزيد لم ينبغ فى غضونها على ما يقول المؤرخون عالم واحد فى أى فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الأوائل مكدسة فى المكتبات ترتع فيها الهوام والحشرات .

وكان العالم لا يخلو فى خلال تلك القرون الراكدة الجامدة من نبوغ عقول نيرة تبحث فى العوالم الكونية وتجوب فى آفاقها بعيون بصائرهم فتأتى بما يعتبره القائمون بالشئون الدينية زيغاً وانحرافا وإلحاداً فكان هؤلاء النوابغ المفكرون يحاسبون على ما ما رسوه وأبرزوه للعيان حساباً دونه كل حساب فيستتابون ويعززون تعزيراً حاسماً إن كانت خطاياهم هينة فإن عادوا إلى مثل ما أخذ عليهم لجزاؤهم القتل على أفظع صورة .

هذه الشدة البالغة فى القسوة لم تحجب العقول القوية النيرة المستبصرة عن الظهور رويداً رويداً فكان تجار العقائد يلتقطون أصحابها واحداً إثر واحد ويخمدون أنفاسهم

حتى لا تسرى عدواهم إلى سواهم ، ظلت الحال جارية على هذا المنوال حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثمائة ألف على ما رواه المؤرخون ، أحرقوا بالنار أو ألقوا فى البحار أو ماتوا وخزاً بالسفافيد المحماة .

ومن عجب أنه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون لخطاهم ، والمستهدون بهديهم ، وكلما أوغل رجال الدين فى عنادهم ، استبسل رجال الفكر فى جهادهم ، واستيقظ الناس من سباتهم ، وبعد أن كان النزاع محصوراً بين رجال الدين ورجال العلم جاوزهم إلى رجال الدين أنفسهم ، وما هى إلا نهزة قصيرة من الزمن حتى انصدعت وحدتهم وتفرقت كلمتهم وتبددت أشملهم ، فأعلن سوادهم عزلتهم عن البقية الباقية من زملائهم ، ثم أسسوا مذهباً جديداً للمسيحية باسم البروتستانتية فيها تسامح كبير بالقياس إلى غيرها ، ومجال فسيح للفكر المنطلق غير الحبيس والرأى المستقل وكان ذلك فى القرن السادس عشر أى : بعد ظهور الإسلام بنحو عشرة قرون .

الناظر فى هـــذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات أدبيـــة محلية ، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التى أحدثها القرآن فى الشرق اتصالا وثيقاً ، فإن المسلمين اتصلوا بأوربا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادى بفتحهم للأندلس ، فأسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأى على ما يقضى به الدستور القرآنى فتوصلوا إلى مدى بعيد من المعارف والفنون وصارت جامعات قرطبة وأشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين ، فنهلوا من معينها الصافى ما لا يصلون إلى مثله فى بلادهم ومرنوا على الأسلوب الذى كان يجرى عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال فتشبعت به نفوسهم وارتاحت إليه عقولهم ، فلما عادوا إلى بلادهم جعلوا يبثون فى مواطنيهم هـذه الروح الجديدة ، فسرت فى أذكيائهم سريان النور فى الظلام ، وفتحت أمامهم آفاقا من النظر والتأمل وبصرتهم بمواطن الفساد فى نظمهم التعليمية ، وسلطاتهم الاستبدادية ـ ومتى أشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميله فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر غير معتدين بالحدود التى أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا .

ولا شك أن مؤرخى أوربا قد اعترفوا بأن دخول العلوم الإسلامية فى أوربا وغزوها آفاقها كان عن طريق الأندلس وطريق إيطاليا إذن فاستمدادهـا روح نهضتها من النهضة الإسلامية أمر لا مراء فيه ، وقد أطبق على ذلك مؤرخو أوربا وفلاسفتها وأهل الرأى فيها على أن المدنية التى ترتع فيها أوربا اليوم والمجال الفكرى الذى تستوحى فيه حقائق وجودها العلمية ، إنمـا هى من صنع العلوم الإسلامية ، والفلسفة القرآنية ، فبيـان الأسلوب الذى تمكن به القرآن من تحطيم

الأصفاد المنيعة التى كان يرسف فيها الفكر الإنسانى فى مدى سنين معدودة بعد أن لبث عليها قروناً كثيرة يحمل فى طياته أجل العبر للسائلين والمستبصرين .

أنزل الله الفرقان والناس عاكفون على عبادة الأهواء والجمود على تقليد الآباء ، والطاعة للزعماء ، فلو كان قد جرى على النمط البشرى فى بعث هذه العقليات الخامدة ، وتنبيه هذه النفوس الهامدة ، لاستتبع كل ذلك قروناً وآماداً . ولكنه طلع على البشرية فى هذا الموطن بآية الآيات ، ومعجزة المعجزات ؛ لتكون فى هذا الوجود الصاخب قبساً يستضاء به فى الظلمات الحوالك إذا عميت السبل على الحكماء وشملت الحيرة قلوب أهل الخبرة .

لقد حرر الإسلام العقلية البشرية من طريق غير مباشر ؛ فجاءها من الناحية التى يقوى شعورها بها ، وهى ماستئول إليه بعد الموت ، فأفاض مثلا فى التهويل من العذاب الذى ستصلى به النفوس الجاحدة الكافرة فى حياة الجزاء إفاضة لم تؤثر عن أسلوب سواه مؤكداً ، أن الإنسان وهو فى هذا الطور لا تجديه شفاعة شفيع ولا وساطة وسيط ، حتى ولو كان ملكا مقربا أو رسولا مكرماً ، بل لا يجد من يتطوع أو يسخر نفسه لنجدته وانتشاله من وهدته : من أب أو أم أو صديق ؛ لشغل كل امرئ يومئذ بما كسبت يداه « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » ، « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » .

فالنفوس متى أيقنت بأن لا شىء ينجيها من عذاب يوم الجزاء غير عملها الذاتى ، تأملت فى وجه خلاصها من هذا الهول المستطير ، وطالما تحققت أن شفاعة الشفعاء ، ووساطة الوسطاء ، لا ينجيها من مصيرها المحتوم مقتت الجمود على الموروثات ، وأيقظت فى نفسها الاستجابة إلى النقد الذى يوجهها إلى الصراط السوى ، والتمحيص فيما يعرض لها من علوم وآراء ، فلم تعد أسيرة أحد فيما يخامرها من عقائد وموروثات .

وذلك هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأى الذى سعى لإقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا فى تشييدها دماءهم رخيصة على حين أن الإسلام أقامهما فى سنين معدودات ، لقد أنشأ الإسلام أمة تنظر وتتأمل وتفكر ، وتدعو كل فرد منها للنظر والتمحيص والبحث .

عباس طه
المحامى

ما يقال عن الإسلام

القدر والمصادفة في الإسلام والفلسفة المادية

للأستاذ عباس محمود العقاد

موضوع هذا المقال كتاب باللغة الانجليزية ألفه كاتب مسلم متخصص لهذه الدراسات الفلسفية هو الأستاذ « مجيد فخرى » وسماه

Islamic Occasionalism and its Critique by Averros and Aquinas.

أى « مذهب المصادفة الإسلامى ونقده عند ابن رشد وتوما الأكوينى » .

ويراد بمذهب المصادفة عند الأوربيين إنكار الأسباب الطبيعية واعتبارها مصادفة أو مناسبة تستدل بها على إرادة الله المباشرة للحوادث ؛ لأنها المؤثر الحقيقى فى كل شىء وراء ظواهر الأسباب .

وإذا ذكر هذا المذهب عندهم بين مذاهب الفلسفة انصرف الذهن إلى فيلسوف اشتهر به وتخصص له وقضى حياته فى الدعوة إليه وتفيد أقوال خصومه وهو نقولا ملبرانش malebranche المتوفى سنة ١٧١٥ ميلادية ، مؤلف كتاب « البحث عن الحقيقة » أشهر تصانيفه فى هذا الموضوع .

ورأى ملبرانش فى تعليل الحوادث بالأسباب الطبيعية على اعتبارها المؤثرات الحقيقية فى ظواهر الوجود أنها صورة أخرى من صور الوثنية تدين بآلهة أخرى مع الله تشاركه فى الخلق والإرادة ، وأن المؤثرات الحقيقية ليست مما تحدثه الحوادث المخلوقة وليست مما يفيدنا المعرفه بالأشياء ؛ لأن المادة أدنى من العقل والنفس ، ولا يتأتى أن يؤثر الأدنى فيما هو أعلى منه وأرفع بطبيعته ، وإنما يتأثر عقل الإنسان بعقل أرفع منه وأعظم وأقدر على التأثير فيه ، وكل ما نراه من هذه الأسباب المادية فإنما هو

عوارض ظاهرة توافق ظهور الإرادة الإلهية لحواسنا وعقولنا ، ولا يلزم منها أن تكون علة مؤثرة فى جميع الأحوال ، كما لا يلزم من تتابع شيئين فى الترتيب أن يكون أسبقهما سببا محققا لحدوث تاليه .

والمؤلف الفاضل - الأستاذ مجيد فخرى - يعرض فلسفة ملبرانش فى سياق الآراء التى تناولتها أقوال الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين ، ولا يفوته أن يتعقب هذه الآراء إلى مصادرها الأولى من كتب الأشاعرة على الخصوص ، ويتوقف طويلا عند المعركة الكبرى التى نشبت حول هذه المسألة - مسألة الأسباب والمصادفات - بين الغزالى وابن رشد قبل أن تصل إلى علماء اللاهوت وأقطاب الفلسفة الأوربية فى القرون الوسطى .

فالحقيقة أن مناقشات الغزالى وابن رشد حول هذه المسألة لم تدع للفلسفة الأوربية بقية تزيدها عليها فى بابها . فكل ماجاء فى أقوال الأوربيين المتأخرين عن السببية فهو معروض بتفصيلاته على الوجه الأتم فى أقوال الطرفين اللذين اختلفا عليه بين مفكرى الإسلام ، وأشهرهم صاحب تهافت الفلاسفة وصاحب تهافت التهافت ومن عقب بعدذلك على الكتابين .

وعنى المؤلف بعض العناية بإزالة اللبس الذى لحق بالأفكار عن مذهب الإمام الغزالى على جليته ، فإن حجة الإسلام رضى الله عنه لم ينكر الأسباب ولا أنكر نتائج البحث فيها ولا وجوب هذا البحث لتحصيل المعرفة المناسبة لمعلوماتنا عن المادة وظواهرها ، وإنما قال : إن هذه الأسباب و نتائجها عوارض تتقابل وتتوافق وتحصل الأشياء عندها أو معها ، ولكنها لا تحصل بها ولا تتوقف فى أصولها عليها ، ولم يكن من المعقول أن يبطل الحكيم الكبير حكمة النظر فى مخلوقات الله وما تنجلى عنه من دلائل النظام والتدبير ، ولكنه لم يكن من المعقول أيضا أن يؤمن بإرادة الله الفعال لكل شىء ثم يقيد الإرادة الإلهية بنظام الحوادث على نحو لا يستطاع فيه التغيير والتبديل ، كما يريده الله .

ونحسب أن فلسفة ابن رشد فى الرد على أقوال الغزالى فى السببية ، كانت خليقة أن تتسع للمزيد من الإيضاح والدفاع ، ونقول : « الدفاع » ، لأنها فى الواقع قد تعرضت للهجوم المتلاحق من النقاد المغربيين وبعض الشرقيين سواء منهم أصحاب المنطق وأصحاب الإيمان ، وبولغ جدا فى تأويل أقواله بما يوهم نزوع الرجل إلى الإلحاد والإنكار ، حتى أصبحت الرشدية فى الغرب مرادفة للكفر والجحود ، وحتى خطر لبعض الشرقيين أن الفيلسوف الكبير يمنع القول بقدرة الله على التغيير والتبديل ، متى تعلقت بهما إرادته على الوجه الذى تقتضيه .

أما فلسفة ابن رشد كما نراها أمامنا مبسوطة فى أقواله فليس فيها ما يسوغ هذا الاتهام ، وليس فى كلامه ما ينفى قدرة الخالق فى خلقه ، بل كل ما هنالك أنه يفهم أن الله لا يصنع الشىء على وجه من الوجوه إلا لحكمة عالية تستدعى أن يكون ذلك الشىء مخلوقا على هذا الوجه دون غيره ، وأن خلقه على هذا الوجه أحكم من خلقه على سواه ، فلا يجوز أن يقال : إن اختياره سبحانه وتعالى لسننه فى خلقه عبث يتساوى فيه الاطراد والاختلاف ، وليس من الممتنع على قدرة الله أن تكون له سنن يختارها غير هذه السنن ، ولكنه لا يختار السنة وينقضها فى حالة واحدة ولا يخلو عمله من نظامه المأثور حيثما ارتضى لخلقه هذا النظام .

والمذهبان من ثم ملتقيان على أساس واحد ، وهو التسليم بالقدرة الإلهية وأثرها فى أسباب الحوادث ونتائجها ، ولولا أن الجدل يغرى بالناحية المخالفة لما اتسع الخلف على السببية كل هذا الاتساع بين القائلين بحصول الأشياء مع هذه الأسباب والقائلين بحصولها من أثر هذه الأسباب .

* * *

ونحن ندع الكتاب وموضوعه القديم عند هذا العرض الموجز ونتنقل منه إلى الجانب الحديث من هذه المسألة فى الفلسفة المادية الأخيرة عند الغربيين ، وهى فلسفة المادية الثنائية «الجدلية» التى يسمونها أحيانا بالفلسفة المادية الاقتصادية ، ويفسرون بها ظواهر الوجود جميعا وظواهر التاريخ الإنسانى الذى تحكمه القدرية الاقتصادية كما يقولون .

* * *

إن الحملة على عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر قد استنفدت كل ما فى جعبتها من السهام التى فوقها إليها فلاسفة القرون الوسطى ثم عاد الساسة المستعمرون إلى تفويقها مرات خلال القرن التاسع عشر ؛ لأنهم أرادوا أن يجعلوا استعمارهم ضرورة محتومة فى البلاد الإسلامية ، تمهيدا فى زعمهم لإصلاح تلف البلاد وتعليم أهلها وإنقاذهم من جمود «التواكل» الذى فرضته عليهم عقيدتهم فى «القسمة» وفى «المكتوب» .

نفدت سهام الفلسفة الأوربية فى القرون الوسطى وأعقب الحملة على الإسلام بهذا الصدد مذهب علمى يؤيد آراء الحكماء المتكلمين والأشاعرة، ويتفق عليه علماء العصر كما يتفق عليه فلاسفته ، وهو : تقريرهم أن العلم يصف الظواهر الطبيعية ويسجل أوصافها التى يقترن بعضها ببعض على صورها الظاهرة

ولكنه ينتهى عند ذلك فلا يدعى أنه قد نفذ إلى أصول العلل والأسباب من ورائها .

ونفدت سهام الاستعمار وأعقبت حملته على « القدرية المتواكلة » حملة مناقضة لها تحاول أن تثير المخاوف من خطر الإسلام المهاجم وخطر « الجهاد » كما يصورونه فى حملتهم الجديدة على غير معناه .

أما الحرب القائمة اليوم فى هذا المجال فهى الحرب الضروس بين عقيدة الإسلام فى القضاء والقدر وعقيدة الكفر والإلحاد التى يبشر بها الماديون الاقتصاديون ، وهم زمرة الشيوعية بزعامة ماركس وأنجلز ولينين .

هؤلاء الماديون ورثوا «القدرية» المادية من أسلافهم فى الإنكار والدعوى العلمية : أنصار القوانين الآلية فى الطبيعة وفى حياة الإنسان وفى تواريخ الأمم الإنسانية .

فهؤلاء الماديون « الميكانيكيون » ينكرون الخلق الإلهى ، ويفسرون كل حركة فى هذا الوجود كما تفسر حركات الآلات المسيرة على نظام لا يقبل التغيير والاختلاف ، ومن هنا كانت تسميتهم بالميكانيكيين أو الآليين .

وتلاهم الماديون الماركسيون فنقضوا هذه الفلسفة بما وسعهم من العنف والسخرية مخافة أن يتسلل من الفكر إلى القول بالحاجة إلى « المهندس » المدبر وراء هذه « المكنة » الأبدية المحكمة ، تسليما بأن « المكنات » لا تدير نفسها ولا تتركب باختيارها ، ولا بد لها من تركيب ومن إدارة ، يتولاها مهندس لا يحسب فى عداد المكنات .

قال الماديون الاقتصاديون : كلا . كلا . إن الوجود يتلقى الحركة من طبيعة تكوينه ، ولا يتلقاها من قانون مسلط عليه ، دخيل على حركاته وسكناته .

فالحركة فى المادة ضرورة مستمدة من طبيعتها الأبدية، وطبيعتها الأبدية أنها تشتمل على نقيضين يتبع كلاهما الآخر إلى غير انتهاء .

هذا فى العالم المادى منذ كان بلا ابتداء .

أما فى العالم الإنسانى فالضرورة الأبدية تمثلها الظروف الاقتصادية ، فهى القوة المسيطرة على الأمم والآحاد ، وهى الدافع الغالب الذى لا تقاومه إرادة الفرد ولا إرادة الجماعة ، فلا حيلة لإرادة إنسان قط مع ظروف الاقتصاد أو وسائل الإنتاج ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تخطر لإنسان فكرة علمية أو لمحة فنية مالم يكن لها محرك من ضرورات الاقتصاد الممثلة فى وسائل الإنتاج.

نعم . لا سبيل إلى فكرة قط لم تخلقها وسائل الإنتاج ، ولم تبعثها حاجة مادية فى ظروف الجماعة التى تنبعث منها ، وتدخل فى ذلك علوم الرياضة وبديهيات المنطق والهندسة والحساب

وأول الأباطيل فى هذا المذهب أن يسموه بمذهب « التفسير » المادى للتاريخ ، ولا تفسير فيه للمادة ولا للتاريخ ؛ لأن التفسير هو حل مشكلة التناقض فى الأشياء ، فلا يحتاج الذهن إلى التفسير إلا إذا حيرته مشكلة من مشكلات التناقض يحاول أن يخلص منها إلى التوفيق المعقول .

أما هذا المذهب فقد جعل النزاع نفسه حكما فى قضية النزاع، وجعل التناقض حلا للإشكال وهو عين الإشكال .

المادة مركبة من نقيضين ، وهذا هو تفسير المادة عند الماديين ، وهذا هو الحل الذى يبطل عندهم حيرة العقول .

وأشد من ذلك إمعانا فى الهرب من الحقيقة والتعمية على الفكر أنهم لا يصورون لنا مادة الوجود كيانا واحداً يمضى فى سلسلة النقائض إلى نهايتها على وتيرة واحدة فى هذا الكون المنتظم ، الوحيد .

بل ننظر إلى المادة على قولهم فنرى أمامنا أكوانا متفرقة كل قطعة منها نركب رأسها إلى نقائضها المزعومة كأنها منفصلة عما حولها . فهنا فى الفضاء الرحيب دخان يتحول إلى كوكب وإلى جانبه فى أجواز الفلك كوكب يتحول إلى دخان ، وبينما تنتهى الدولة الرومانية من نقائضها ، تبتدئ الدولة العثمانية فى نقائض أخرى ، وتلحق بهما ثالثة ورابعة وخامسة ، كأنها تستمد أصول مادتها من ألف كون لا من كون واحد .

ونعود إلى النقائض المزعومة فلا نرى حالة واحدة منها تعتبر نقيضا لما قبلها أو لما بعدها، فلماذا يعتبر عنصر الحديد مثلا مناقضاً لعنصر النحاس أو عنصر الهدروجين ؟ ولماذا يعتبر عهد الصناعة مناقضا لعهد الفروسية ؟ وعهد الكهرباء مناقضا لعهد البخار ؟ أو عهد الذرة مناقضاً لهذا وذاك ؟ .

إنها تختلف نعم ! .

إنها تختلف ، لأنها أشياء كثيرة وليست بشىء واحد ، وقد تختلف فى وقت واحد ولا يقال إن اختلافها متولد من نقيض يجر إلى نقيض على تتابع الأزمان ، وفرق بعيد بين القول باختلاف الأشياء وبين القول بأن النقيض منها ينتج النقيض بعده ويسبقه فى الزمان .

وهذا هو معنى تناقضهم الذى لا يفسر شيئا من الاختلاف فى الزمان الواحد ولا من الاختلاف فى الأزمنة المتعاقبة .

هذا هو التفسير الذى لا يوجد فى الدنيا شىء أحوج منه إلى التفسير .

ونرجع إلى «وسائل الإنتاج» التى يفسرون بها كل دور من أدوار التاريخ الإنسانى فماذا نفهم منها كما يصورونها ؟ .

نفهم منها أن القوم يتخيلون « وسائل الإنتاج » هذه ماردة هائلة تكمن وراء التاريخ لكى تنقله من دور إلى دور إلى نهاية الأدوار .

ولكن ما الذى يغير وسائل الإنتاج ؟ ما الذى يغير هذه الماردة الهائلة التى تغير جميع الأدوار ؟ أتغيرها حاجات الناس بين حقبة وحقبة وبين جيل وجيل ؟ فما الذى يغير حاجات الناس فيطلبون اليوم غير ما طلبوه قبل سنوات .

وإذا كانت حاجات الناس هى أساس النظم والأديان والعلوم والمعارف والفنون فلماذا لم يعرفوا علاج السرطان حتى الآن ؟ ولماذا لم يعرفوا علاج الأوبئة وهم قد احتاجوا إلى علاجها قبل مئات القرون ؟

وإذا كانت بديهيات الرياضة نفسها وليدة الحاجة إليها فلماذا عرفت حضارة « المكسيك » رسم الدائرة الرياضية ، ولم تعرف صناعة « العجلة » أو الإطار الدائر ؟ مع أنها هى الدائرة المفيدة التى يحتاجون إليها فى الزراعة وفى الصناعة وفى القتال ؟ .

وانظر إلى ما شئت من تفسير « مادى » عند القوم فلن تجد فيه إلا التعمية والزيغ فى التفكير والهرب من المشكلة باتخاذ المشكلة فى عقدتها الكبرى حلا للإشكال .

وهذه هى النواميس الفعالة التى أسقطوا أمامها حرية الإنسان واختياره ، وحسبوا أنهم قد استردوا هذه الحرية من القضاء والقدر فى عقائد الأديان ولا سيما عقيدة الإسلام وأنهم قد انتزعوا الحرية الإنسانية من ظلمات الدين وأسلموها إلى أنوار العلم تحت شمس النهار .

والآن نتحرى الفرق العلمى ـ ولا نقول الدينى أو الفلسفى ـ بين تفسير « المادية الماركسية » لحرية الإنسان وتفسير الإسلام لهذه الحرية على حسب العقيدة الإسلامية المتفق عليها بين الحكماء والمتكلمين والفلاسفة من المسلمين .

وخلاصة هذا الفرق فى كلمات معدودة أننا أمام تفسير معقول ، بل أمام التفسير المعقول دون غيره ، لا أمام تعمية وروغان فى الحقيقة ، ولا أمام مشكلة نستريح منها ـ كرها ـ فنحسبها حلا للمشكلات .

يعتقد المسلم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال المريد لكل شىء ، والإنسان وما يعمل بعض هذه الأشياء .

ويعتقد المسلم أن الإنسان مسئول عن عمله محاسب عليه ، ولا تناقض بين العقيدتين .

لأن المسلم يعتقد أيضاً أن الله خلق له حريته ، وأن الله متى خلق للإنسان « حرية »

فهى حرية وليست بقيد ، وكون الله خالق للحرية وللقيد لا ينفى أنهما شيئان مختلفان ، وأن الحرية اختيار وأن القيد اضطرار ، فهكذا يصنع الصانع الخشبة التى لا تتحرك ويصنع المحرك الذى يحمل تلك الخشبة ، ولا يكونان مع ذلك صنعة متشابهة لأنهما خارجان فى قدرة واحدة .

فالحرية حين يخلقها الله للإنسان هى الحرية التى يحتاج إليها للنهوض بالتبعة الملقاة عليه .

وفهم الحرية الإنسانية على هذه الصفة هو الفهم الوحيد الذى يقبله العقل ولا يتطلب له حرية سواها .

وإلا فما هى الحرية التى يريدها إن لم تكن هذه الحرية كافية لحمل التبعة والمحاسبة عليها ؟

أتراها تكون حرية تسمح لكل إنسان أن يصنع ما يشاء بنفسه وبغيره من الناس وسائر الموجودات ؟ .

تلك حرية مستحيلة عقلا ، لأن حرية فرد واحد على هذه الصفة تعطل كل ما عداها من الحريات .

أتراها تكون حرية متماثلة بين جميع المخلوقات فى كل زمن وكل مكان ؟ .

تلك قيد من القيود الآلية لا محل معها لاختلاف المساعى والأعمال واختلاف التبعة والحساب .

فالقدرية الإسلامية هى القدرية الوحيدة التى يقبلها العقل علما ومنطقا وتفكيراً على نهج المؤمنين أو نهج المتشككين .

الله خالق كل شىء يريد كل شىء ويخلق كل شىء .

ومما يخلق الله هذه الحرية الإنسانية ، فهى حرية توافق ما عليه من تكاليف .

وغير ذلك إحالة فى العقل وفى فهم النواميس والحدود .

غير ذلك هو « التعمية » المادية التى تسول للإنسان أن يلغى حريته أمام الأضداد والنقائض ، وأن يكره عقله على تصور المحال وهو لا يتصوره مفتوح العينين ، فما من بصر ينظر ليرى يستقر بالنظر عند مشكلة من النقائض تحتاج إلى كل تفسير ، ثم يقول لنفسه ولغيره : هذا هو التفسير .

ولقد آمنوا بالمادة وهم لا يفهمونها ، ووهبوا لها حريتهم وهم لا يعاتبونها ولا يلومونها .

هل ماتت الوثنية العمياء كما قيل ؟ كلا . هذه هى الوثنية فى ثوبها القديم ، وستذهب كما ذهبت وثنيات من قبلها فى شتى الأثواب .

ولا بقاء لغير الله وما أراد له البقاء ؟

عباس محمود العقاد

قصة الفداء

للدكتور أمجد الطرابلسى
وزير التربية والتعليم بالإقليم الشمالى

شعَّ من بسمة الصباح الضياء   وأفاقت من نومها البطحاء
وتبدت ذُكاء فانتفض الرمـ   ـلُ ابتهاجا لما تبدت ذُكاء
فمن الشمس والرمال نُضارٌ   ومن الظل واحةٌ غناء
السُّهوب الفساح والأفق الزا   هى ، وتلك الغمائم الشقراء
والخِضمُّ الموَّاج بالماس والتبـ   ـرِ المصفى والقبة الزرقاء

صورةٌ تفجر العيون وسحر   عبقرى ، ومتعة ، ورُوَاء
ونُحشة ملْؤها الجمال وصمت   خاشع لا تشوبه ضوضاء
أيها الشاعر اتئد ! هل تؤدى   ما تؤدى الطبيعةُ الخرساء
إن صمت الرمال عُودٌ ومزما   رٌ ونايٌ ومِزْهرٌ وحُداء
نغم يُفحِم المسامع سحراً   وغناء ، هيهات منه الغناء !

* * *

من هو السالك القفار ونِدّاً   للأسى فى جبينه سيماء
مطرقا رأسُه الصديع تبدَّى   فى أسارير وجهه البأساء
وإلى جنبه ابنهُ حائر اللب   ـتنزَّى فى صدره الأهواء
يتأسى خُطى أبيه وللحمْـ   ـلان بالشاة أسوة واهتداء

يسأل الرمل عن وجوم أبيه   فإذا الرمل منصت والفضاء
يسأل الأرض والسماء فما تنـ   ـبيه أرض ولا تجيب سماء
وتراه يهم يسأل عن ذا   ك أباه الحزين لولا الحياء
يا إلهى ! هـذا خليلك إبرا   هيم يغدو لما أراد القضاء
وإلى جنبه ابنه البر إسما   عيل سلواه فى الدُّنى والعزاء
جاءه وحيك المقدس فى الليـ   ـل وقد عمت الدنى الظلماء
هب من نومه الشرود مروعا   ونأى عن جفونه الإغفاء
إنما تطلب السماء فتاه !   ليس مما تبغى السماء نجاء !
قد قضى الله ما أراد وأمضى   وقضاء الله الرحيم مضاء
ليكن ما أراد سوف يضحى   بابنه وهو عيشه والهناء
يا رحيم الأكوان ! حكمتك الغرا   ء ، حارت فى كنهها الحكماء
إن أقسى الجراح يا رب ما عا   ناه فى الأرض رسلك الخلصاء
أنت قدرت أن يعذب فى الأر   ض نبى ، ويسعد الأغبياء
طال سير الفتى وخارت قواه   وعراه بعد النشاط وناء
أين يمضى به أبوه ولا زا   د لديه ، وليس فى القفر ماء
وتجرا وقال يستطلع السر   وقد آده الونى والظماء
« أبتى طال سيرنا وعرانى   نصب منه مرمض وعناء
أين نبغى ؟ لعلنا قد ضللنا   نهجنا ! أين قصدنا والرجاء ؟
أبتاه كلت يداى ورجلا   ى ، وأدمت أصابعى الحصباء
مل إلى الظل نستجم قليلا   فلقد هد قوتى الإعياء !
فأجاب الأب الرحيم يوا   سيه وقد شفه الأسى والشقاء
باسما يمنع المدامع أن تجـ   ـرى وأن تستفزه البرحاء :
« يا صغيرى الحبيب ، كيف خبا   عزمك ، أين الثبات أين المضاء ؟
غاية السير ذروة التل هذا ،   وعليه المقيل والإرساء
فوقه يا بنى تؤسى الجراحا   ت وتلقى الجهود والأعباء
فاستحى الطفل من أبيه وأغضى   منتهى البث والأسى الإغضاء

ثم سارا وفى الفؤادين نار وأحاديث جمة وبكاء ! . .
سكنت خطرة النسائم فالأر ض لهيب والأفق والأجواء
فبكى الطفل لا يحير شكاة والفيافى عن بثه صماء
مطرقا رأسه الصغير ليخفى عن أبيه البكا ، وكيف الخفاء ؟
وأبوه الساجى يسارقه اللحـ ـظ فتنزو فى صدره الأدواء
مشهد يمنع القوافى من الجر ى وتعيا عن وصفه الشعراء !
ابهِ كَدمع البنين ماذا يعانى ويقاسى من سكبك الآباء ! ؟
رحمة للأب الشفيق وللأم إذا ما تباكت الأبناء !

* * *

مسح الطفل أدمعا فوق خديـ ـه وأهدابه لها لألاء
قائلا والشحوب فى وجه با دكمن قد براه داء عياء :
« يا أبى قد دنا المكان وفيه للبهيض الهناء والنعماء
هو ذا المذبح المقدس والحبـ ـل ، وهذى سكينك العوجاء
وعلى منكبى محرقة الذبـ ـح ، فأين الضحية القرناء ؟
أترى قد نسيتها أم تراها سبقتنا بها إليه الرعاء ؟ »
صعق الوالد الوجيع وسالت عبرة فوق خده عصماء
وأجاب ابنه مشيحا بوجه غضنته السنون والأرزاء :
« يا صغيرى هناك يرقبنا القر بان ، لا يقعدن بنا الإبطاء
إيه يا موكب الجلال الذى ما دت له من خشوعها الصحراء
إن هذى الدموع ضجت لها الدنـ ـيا ، ورجت لسكبها الأرجاء
وأجل الدموع ما يذرف القلـ ـب ، وتعيا عن حبسه الكبرياء
الفتى خافت الأنين صموت قد براه طول المدى والحفاء
وأبوه يبكى عليه حنانا بالدمع تسحه الأنبياء !
ذاك إبليس فتنه الشر والآ ثام ، من كل همه الإغواء
ساءه أن يفوز ما أمر اللـ ـه ، وأن يخذل الخنا والرياء
فأتى هاجراً ينبئها الأمـ ـر ، وإبليس ساعداه النساء

قال : « فيم الثواء يا أم إسما عيل ، والشكل بيِّنٌ والشقاء
لست تدرين ما يحيك لك المقـــدار ، نامت عن حظها الأشقياء !
قد غدا بابنك المحبب إبرا هيم تحدوه جُنة هوجاء
زاعما ـ والإله أعدل من أن تصطلى نار سخطه الأبرياء ـ
أن وحيا أتاه ، فى الليل ، والنا س نيام ، والأرض والآناء
ودعاه ليذبح الطفل صبرا ! تلك رؤيا مكذوبة شنعاء
أسرعى ! أنقذيه ! من قبل أن تر وى بقانى دمائه الغبراء ... »
فأجابته وهى تخفى أساها ولظاها : « لن يكذب الإيحاء !
إن يكن ذاك ما أراد إلهى فهو الخير كله والهنــاء »

* * *

إيه إبليس ! خاب فألك يا مســكين ! ما كل غادة حواء !

* * *

وصل الوالد الحزين ، ولكن ود لو طال سيره والعناء
وابنه من ورائه مثقل الخطـو ، تلظى فى صدره الصعداء
حط عن منكبيه وهو يجيل الـطرف : أين الخراف ، أين الظباء !
وتحرى فلم يجد حوله الذّبح ولا هز مسمعيه ثغاء
فرنا ثائر الشكوك ، وفى عينـيه شوق للسر واستقصاء
وأبوه يحار فى فمه النطـق ، وفى الرزء تبكم البلغاء
شد من حزنه على قلبه الوا هى ، وغشت عيونه الضراء
قال يانور مقلتى ويا من هو عيشى وسلوتى والرجاء
طال ما قد كتمت عنك من السر وقد شاق سمعك الإصغاء
يا رجائى ! ماذا أقول ؟ وهل للنطـق فى زحمة الدموع غناء ؟
كلما هم بالكلام لسانى أيبسته المصيبة السوداء !
جاءنى الوحى فى المنام بأمر ليس فيه دفع ولا إرجاء
قال لى : اذبح غداً وحيدك ، يا للـهول تنزو لذكره الأحناء
يا بُنَىَّ ! انظر ما تراه ، ولا تأ خذك بى غضبة ولا استهزاء

فاقشعر الفتى كما انتفضت فى خطرة الريح وردة حسناء
وسرت رهبة الرَّدى فى مُحيا ه ، ورفّت غمامة صفراء
ودَّ لو يكتم الأسى عن أبيه ، كيف يخفى عن العيون الداء ؟
رعدة الموت ماتخلص منها فقراء قضوا ولا أمراء
إنما الموت حيثما حل فى الكو خ وفى القصر غمة وبلاء
هو لِلشيب مثلما هو للأط فال ، غول ، وحية رقطاء
وأجاب الفتى يواسى أباه لو يفيد العزاء والتأساء !
أبتاه ! افعل ما أمرت ولا تأ خذك بى رحمة ولا أهواء
أنفذ الوحى يا أبى ! هل يطيع الله إلا المعاشر السعداء ؟
أينا خالدٌ على هذه الأرض ، وما للحياة فيها بقاء ؟
لاتهِن يا أبى هلمّ فاضجعنى من قبل أن يدب المساء
ثم عصّب عينى رفقا بمنديل ، فللموت سحنة نكراء
واشحذ الخنجر المظمأ حتى تتلظى شباته الحمراء
ثم ضعه على خناقى واذبحنى كما تذبح الظبا والشاء ...
فإذا ما ذبحتنى وتروت من دمى هذه الرمال الظماء
فاحترس أن يصيب كفك شىء منه ، أو أن يبلّ منك الرداء
وتجنب رشاشه ، لايهن أجرك فيه ، ولا يقلّ الجزاء
دعه للرمل ينسرب فى حنايا ه ، ففيه لحرها إطفاء
دعه يذهب كما تبدد عطر فى الفضا أو تغيبت أصداء ...
وإذا مافرغت منى وحالت بيننا ظلمة الردى الشحماء
وأردت الرجوع بعدى إلى الدا ر ، فلى يا أبى إليك رجاء
ذاك ثوبى فانزعه عنى إذا مُت ، وقد خضبته مِنّى الدماء
واحبُه إذ تعود ذكرىً لأمى فبه سلوة لها وعزاء
إيه ! أماه لو علمتُ مصيرى وتبينتُ ما تريد السماء
لتمليتُ منك لثماً وتقبيلا ، ولكن هيهات منا اللقاء !
لست آسى إلا عليك من الدنيا ، ولولاك لم يرعنى العفاء
عذب الموت فى سبيلك يارب وساغ البلى وطاب الفناء

فمرور السكين فى العنق لثم ولهيب النيران ظل وماء . .
أضجع الوالد ابنه مثلما تضـ جع شاة وديعة خرساء
والفتى ساكن كما نام فى المهـ د تغنيه أمه الحسناء
والأب الواله المعذب تدوى ثائرات فى صدره الأنواء
قبّـل الطفل ثم عصّب عينيه وقد ينفع البصير الغطاء
تؤلم المبصر الدياجى وتنجو من قذاهن مقلة عمياء
وانتضى الخنجر الرهيب بكف أرعشتها الفجيعة الحمراء
كاد يردى فتاه لولا هتاف فى السموات مطرب ونداء
وإذا بالسماء تلتمع الأ نوار فيها وتسطع الأضواء
رفع الوالد المعذب عيناً ملأتها المدامع الوطفاء
فإذا بالدموع تضحك فى عينيه بشرا وتنجلى الضراء
ملك فى الفضاء يحمل كبشا قد تعالى فى السحب منه الثغاء
هبط الأرض مثلما تهبط الرو ض اشتياقا حمامة بيضاء
فدية للصبى أرسلها الله تهادى بحملها البشراء
رحمة الله كم تداركت الخلـ ق وقد أعوزتهم الرحماء !

* * *

يا خليل الرحمن هيا ارفع الطفـ ـل فقد ردته إليك السماء
واذبح الكبش يا نبىّ فداء عظم المفتدى وطاب الفداء
واسجدا خاشعين شكراً لمن عم البرايا نداه والآلاء
رحمة الله تغمر المجرم العا صى ، فكيف الخلائق الأبرياء
إيه شعرى قد تيمتك البطولا ت وأغواك نورها الوضاء
غنها فهى للجراحات ملهى وعزاء وبلسم وشفاء
واروها فالشباب مصغ لما تنشـ ـد قد هده الأسى والداء
والزمان الشقى ساد به الشر وأخنى على بنيه الشقاء
عذبت فى جحيمه العبقريا ت كما فاز بالنعيم الرياء . . .
غنها ربما تعزى جريح أو تجافت عن ذلها الجبناء
سير الخالدين كم شب فى أحـ ـضانها الخالدون والعظماء

دمشق أمجد الطرابلسى

آراء وأحاديث

كان من فضل الله على الأزهر ، علمائه وطلابه ، أن أبل شيخه الجليل من مرضه ، وأن استأنف عمله فى الإدارة العامة بعد غياب شق مداه ، ويسرنا – بين يدى هذه العودة ، وقبل أن نسرد ما ألقاه الأستاذ الأكبر من كلمات موجهة ، وتصريحات هادية أن نثبت هذه التهنئة الآملة كما كتبها الأستاذ محمد كامل الفقى المدرس بكلية اللغة العربية .

تهنـــئة وأمل

بعد غيبة طال مداها ، ومحنة امتحن بها السيد الإمام فكان عليها من الصابرين ، أشرقت طلعته ، وكرمت وفادته ، وتندت بالشكر ألسنة المسلمين ، أن أبرأ الله قدوتهم ، الذى هو منهم فى موضع الحب والإجلال والتكريم .

إن الأستاذ الأكبر « الشيخ محمود شلتوت » رجل صنعه الله على عينه فذا متميزاً فى صفاته وغاياته ، فهو ذكى لماح ، جرىء هادف ، لم يعش حياته – فى شتى مراحلها – كما يعيش الناس ، إذ لم يدرج لحظة واحدة فى مدارج الخمول ، أو يرض بما تفرضه الحياة إن تجافى مع أسمى الغايات وأكرم الأمثال .

فهو الثائر طالباً وأستاذاً ، وهو الناقد لما حوله من حياة رتيبة غير نابضة بالحس والحركة والتوثب ، وهو الناشئ فى مدرسة الإمام « محمـــد عبده » والمعاضد للأستاذ « المراغى » والمناصر للرجل العظيم « الشيخ عبد المجيد سليم » بل هو خاصة أوليائه وأصفيائه .

وهو المتمرد على فنون من أساليب التعليم فى الأزهر إذ رآها صارفة له عن رسالته التى خالطت دمه ، وامتزجت بإيمانه ومشاعره .

بلغ الشيخ فى الفقه المتبصر مرتبة المجتهدين ، وعرف بندائه إلى الإصلاح مؤمناً مصراً مكافحاً لا ترده عن الذود عن الأزهر والمسلمين صعاب ، ولا يبالى فى الجهر برأيه بما يرتصد له من عنت أو أذى .

والحقيقة التى يلتقى فيها محبو الشيخ وحاسدوه أنه أمد العلماء صوتا ، وأقربهم من قلوب المسلمين مكانة وأذيعهم صيتا .

وقد كان الأزهريون إلى قريب يستخذون من بعض ما يعيرون به ، وينفرون من الصور المرتسمة لهم من بعض قادتهم ، أما اليوم فهم يكتسبون مزيداً من التكريم والرفعة ، مما يجده شيخهم الجليل من توقير يلائمه ، وإجلال يتسق مع علمه وكفاحه فى رد العاديات عن الأزهر والمسلمين .

ومنذ حين تنادى أعداء الأزهر اللدّ ، وخصومه العتاة بالخلاص من هذه الجامعة ، وزعموا لتبرير دعوتهم الفاجرة أن الأزهر لم يعد صالحا للحياة لجافاته للنهضة ، ولعكوفه على رجعية تعوق الركب ، ودعا هؤلاء إلى الخطوة الثانية ، وبرروا دعوتهم بفيض من الأدلة المارقة ، وجرؤ بعض الناس على ما يراه « شيخ الأزهر » من فتوى ، فسفهوا الفتوى فى غير ما استحياء ، ودفع الاستهتار « درية شفيق » مثلا إلى تغليط « شيخ الأزهر » فى رأيه ولعل بعض المنحلين انتصر لها « مفتية موفقة » .

وقال بعض كبار المشرفين على التعليم : إن مناهج الأزهر لا تساوق القومية العربية أو نهضة العرب الصاعدة .

وكان علماء الأزهر والمشفقون عليه يأسفون أشد الأسف لهذا التهافت ويشفقون على « أبى الجامعات » أن تتكاثر عليه السهام . وأن يمسى هدفا لحملة ظالمة لا تبصر فيها ولا رشاد .

ولكنا اليوم نحس بأن هذه الألسنة قد خرست ، وبأن تلكم السهام قد ارتدت إلى نحور أهلها ، وبأن الأزهر قد أمسى صاحب الفضل فيما أعده الله له ، وسمت بين المسلمين مكانة إمامه وأساتذته وطلابه .

ولعل من يمن الطالع أن يمسى الأزهر أمل المسلمين شعوبا وحكومات فى أن يقهر مبادئ الزيغ التى كادت تدخل إلى بعض النفوس والعقول ، وأن يصد عن مصر بل عن المسلمين عامة ما تسلل من الشرق إلى عقائدهم مما يهدم أصول الإيمان ، ويمحو - لا قدر الله - رسالة الإسلام وكتاب الله المجيد.

فالعلماء اليوم جند يقفون صفا لصيانة المسلمين من الشرك الزاحف والضلال الذى يدق أبوابهم فى شره وإصرار .

ولقد أتيحت للأزهر فى عهد شيخه الحالى فرصة يثبت فيها وجوده العامل ، وفضله القوى الذى لا يغنى غناءه فى الذود عن الإسلام وكتاب الله قوة مهما اشتد خطرها وطال صيالها .

ويقيني أن هذه الفرصة هي حلم من أحلام « الشيخ » وأمل من أسمى آماله التي تغنى بها ، فهو لا يرى نفسه سعيداً باسما قرير العين إلا يوم أن تتاح للأزهر فرصة يؤدى فيها واجبه وينهض فيها برسالته ، ويشهد الناس جميعا سهره على هذه الغاية المقدسه وفناءه فيها ، وبلاءه فى سبيلها بلاء مؤمنين أبطال حراص على مجد الإسلام ورفعة شأنه وإعزاز أهله .

لقد كنت بالأمس القريب أمر بقاعة المحاضرات الأزهرية فيشجيني ما غشاها من ظلمة ، وأسأل نفسي متى أراها مشرق الفكر ومنبع الأدب والعلم ؟ .

وقد سجدنا لله شكراً أن انقشع عنها ذلك الصمت الرهيب فباتت منبراً لفحول الأدب والعلم ، وأئمة البيان والفكر ، واجتذب الأزهر الأندية إليه ، وعادت الجامعة العملاق بتلك الوثبة قبلة وكعبة .

وأقيمت أسس جديدة نزيهة لشئون شتى فى الأزهر ترقى عن الشبهات ، وتتنزه عن الأهواء ، ودبت الحياة الجادة الكريمة فى أروقته مما يبشر بالأمل فى نهضة مباركة إن شاء الله .

هذه خواطر سريعة تتألق فى عقولنا وقلوبنا بمناسبة إبلال الأستاذ الأكبر وقيامه على شئونه من منبر هذه الجامعة نمزجها بفرحتنا الكبرى ضارعين إلى الله أن يمكن له وللعلماء العاملين من النهضة التي تعز شأن الإسلام وتؤيد ركب العرب ، وتمضى بالمسلمين جميعا إلى غايات طالما تطلعوا إليها ؟ .

محمد كامل الفقى

مدرس بكلية اللغة العربية

* * *

ذلك ، وقد أدى الشعر حق هذه المناسبة ، وكنا نود لو اتسعت صحائف المجلة لاستيعاب القصائد الجيدة التي ألقيت ، وفى طليعتها قصيدة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة ، وقصيدة الأستاذ أحمد شفيع السيد ، والأستاذ محمد أمين جمال الدين ، والأستاذ حسني مهدى هداهد ، والأستاذ يوسف ابراهيم خليل . .

* * *

أما الصحافة فقد أحصت ما ألقاه الأستاذ الأكبر من كلمات ونصائح ، بعد ما صورت مشاعر الأزهريين قاطبة فى استقبال إمامهم العظيم .

قالت الأهرام :

فتحت غرفة مكتب شيخ الأزهر أمس لأول مرة بعد ٢٢٢ يوما وجلس فضيلة الشيخ محمود شلتوت إلى مكتبه يزاول عمله من داخل الأزهر . كانت أوامر الأطباء تفرض

على فضيلته عدم مغادرته للبيت الذى يسكنه فى مصر الجديدة ، واستسلم الرجل لأوامر الأطباء وراح يزاول مهمته من مكتبه داخل البيت ، وظل مكتبه فى الأزهر مغلقا خلال هذه المدة ، وأمس انتهت أوامر الأطباء ، ولأول مرة يغادر فضيلة الشيخ محمود شلتوت بيته فى طريقه إلى مكتبه

كان أول قرار لشيخ الأزهر الجديد هو موافقته على مشروع تسجيل القرآن المرتل الذى اشتهر بمشروع المصحف المسموع . قال شيخ الأزهر إن رسالة جماعة كبار العلماء هى: الاجتهاد فى فقه الإسلام واستنباط الأحكام من المصادر الأولى وهى القرآن والسنة . والذين يغلقون باب الاجتهاد هم فى الوقت نفسه يجتهدون ويرجحون ويختارون والترجيح والاختيار نوعان من الاجتهاد ونحن نعد الأزهر ليكون أبناؤه أئمة مجتهدين .

أول برقية من بطريرك الأقباط

كانت هناك مئات البرقيات تلقاها شيخ الإسلام من كل مكان . من الدول ومن الهيئات ومن الأفراد .

كانت أول برقية من غبطة البابا كيرلس السادس بطريرك الكرازة المرقسية والتى يقول فيها « شكراً لله على شفائكم . الله يحفظكم فى صحة تامة وعافية كاملة »

بين الأستاذ الأكبر والعقاد

وبعث الأستاذ العقاد هذه البرقية

صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر . مصر .

رضاكم آية الرضى من الله وعباده الأكرمين وفقنا الله لاستحقاقه بالعمل النافع والجهاد الصالح والهداية التى تديم لنا العطف فى فضيلتكم ومريديكم .

عباس العقاد

وقد بعث الأستاذ الأكبر بهذا الرد

السيد الأستاذ الكبير عباس العقاد :

حياتكم الحافلة بالخير المليئة بالإنسانية تبشرنا بأنكم ستخدمون البشرية عقلا وعاطفة فى اللاحقة بأضعاف ماخدمتموها فى السابقة أطال الله بقاءكم وأمد حياتكم وعم النفع بكم .

محمود شلتوت

وأول شىء فعله شيخ الإسلام عند وصوله إلى مكتبه هو رده على حفاوة مستقبليه من العلماء والطلاب بكلمة قال فيها :

« السلام عليكم بعد ابتلاء اشتدت وطأته على ، وكنت أتجه خلاله إلى الله وقت محنتى أن يصون الأزهر ، وأن يوفقه لأداء رسالته والنهوض بأعبائه . فشلتوت لا يعيش إلا إذا عاش الأزهر وأدى أبناء الإسلام رسالتهم

فى جميع الأوطان ، وأنتم يا أبنائى وإخوانى من الطلاب والعلماء والأخوة والبنوة هى الشعار بينى وبين الأزهريين جميعا - ولا أجد ما أستطيع أن أعبر به عن شكرى سوى أن أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى أن يؤيد رئيسنا المؤمن الموفق الرئيس جمال عبد الناصر راعى الأزهر ، والمدافع عن دين الله والقومية العربيـــة وأن يزيده توفيقـا إلى توفيقه .

وإنى فى هذه اللحظة أعاهدكم - والله شهيد على ما أعاهد - أن أضحى بنفسى وأبنائى فى سبيل الإسلام والأزهر .

وقد كان من حسن حظ الأزهر فى هـذه الأيام أن ولى الأمر فى هذا البلد شاب مؤمن يعرف للأزهر كرامته ورسالته ، ويؤمن بأن حياة العروبة متوقفة على النهوض برسالة الأزهر .

فسيروا على بركة الله واستعينوا بالله فى أداء رسالتكم ، واعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .

هتف شيخ الأزهر بحياة الرئيس ورددت الجماهير الهتاف خلف الشيخ الأكبر .

وقالت الشعب :

أروقة الأزهر تدب فيها حركة غير عادية ، ورجال الأزهر أتوا من كل مكان ، وعلى شفاههم ابتسامة واسعة ليهنئوا فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت بشفائه من مرضه وحضوره إلى مقر عمله الرسمى لأول مرة منذ تعيينه شيخا للأزهر فى ٢٣ أكتوبر الماضى .

وقد ألقى السادة عبد الحكيم سرور مدير الشئون العـامة بالأزهر ، ومحمد محمد المدنى عميد كلية الشريعة ، والدكتور محمـــد البهى مدير عام الثقافة ، وصادق كمال الدين المراقب بكلية الشريعـة ، ومحمد البطاوى المدرس ، وأحـد الطلاب الأكراد كلمات ترحيب بالأستاذ الأكبر .

ثم تحدث الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى « الشعب » حديثا ضافيا :

العبء الكبير

وأعرب الأستاذ الأكبر عن تقديره للدور الكبير الذى تقوم به جريدة « الشعب » ، وقال إن هديتى للشعب بمعناه الواسع ، ولجريدة « الشعب » خاصة ، هى العمل متعاونين جميعا لا فرق بين شخص وشخص ، ولا إنسان وإنسان ، على تركيز الإيمـان فى القلوب ، والوقوف صفا واحداً أمام التيارات الجارفة الهوجاء ، التى لا تريد إلا قتل المعانى السامية والمثل العليا التى أودعها الدين قلوبنا ، وربى عليها شعبنا . إن هذه التيارات الجارفة - مع إيماننا وثقتنا فى الله ثم فى التفافنا حول بطل هـذه الأمة ،

وقائدهذا الشعب الرئيس جمال عبد الناصر ـ لن تجد مكانا تثبت فيه ، ولا خصوبة تعيش بين أجزائها ، ولن تجد ثغرة تتسلل منها ، وإذن سنقف قوة أمامها نردها ونصدها لنعيش فى أمن واستقرار نخدم ديننا وشعبنا وأمتنا ، وعلى الصحافة العبء الأكبر فى ذلك ، وإننا مع الإخلاص والسير فى الطريق المستقيم نستطيع أن نصل إلى أهدافنا إن شاء الله : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وهذا تسجيل منى لجريدة « الشعب » لما لمسته فيها من عمل على تركيز لقوة الإيمان فى القلوب وتشتيت شمل الإلحاد والشيوعية ، وخدمتها المستمرة للحركة الإسلامية .

وإنى أدعو الله تعالى أن يوجه الصحافة التوجيه الرشيد ، والعمل السديد ؛ لتخدم شعبنا وأمتنا .

ثم سأل مندوب الجريدة فضيلة الأستاذ الأكبر عن دور الأزهر فى المعركة التى تدور بيننا وبين الموجات الإلحادية والعملاء . . ؟

فأجاب فضيلته :

إن مركز الأزهر من العالم الإسلامى مركز القطب من الرحا ، وأن شمس الأزهر تسطع على العالم الإسلامى بنشر مبادئ الدين ، وتقوية عقيدة الإيمان ، وإن اليوم الذى يمكن الأزهر فيه من أداء رسالته لهو أسعد أيام حياتنا وتاريخنا . . . لا أقول تاريخ أشخاصنا ، ولكن تاريخ القومية العربية والرسالة الإسلامية . وإن ثقتنا وإيماننا بكفالة السيد الرئيس جمال عبد الناصر للأزهر والرسالة الإسلامية ليجعلنا بالغى الإيمان بوصول الأزهر إلى مهمته ، وأداء رسالته فى تبديد غيوم الشك والشبه ، ورد إلحاد الملحدين إلى نحورهم فى صدورهم ، أبقاه الله وحفظه للأزهر والعروبة والإسلام.

وفد الأساتذة والطلاب

وفى وفد الأساتذة والطلاب ألقى فضيلته هذه الكلمة :

إن السعادة إنما تكون بتحقيق الأهداف وبلوغ الغاية التى نرجوها لخير أمتنا الإسلامية وأن ذلك مرتبط كل الارتباط بأداء الأزهر لرسالته ومهمته ، وإنى بالله ثم بكم نستطيع أن نصل جميعا إلى هذه الغاية ، إنه التعاون الذى نرجوه والإيمان الذى ننشده ونسعى إليه ، كل ذلك سنصل به إلى الغاية ونحقق الأمل المرجو .

إن على الأساتذة والمدرسين والموظفين والطلاب مهمة يجب أن تملأ قلوبهم ، وأن تظل دائما فى نفوسهم وألا يشغلهم عنها

النشاط الثقافى للأزهر

كلمة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى الحفل الختامى للموسم الثقافى الأول لعام ١٩٥٨ / ١٩٥٩

من يوم أن أكمل بناء هذه القاعة ، وأتم الله علينا نعمته فتسلمها الأزهر وأنا فى شوق شديد ، ورغبة قوية إلى أن تفتح هذه القاعة وتنبعث منها آثار الحركة العلمية الدينية بمحاضرات وبحوث يلقيها أهل العلم من أزهريين وغير أزهريين ، وطالما حاولت بنفسى تحقيق هذه الرغبة ، فكانت تحول دون ذلك الحوائل ، وتقام الصعاب ، وظلت هذه القاعة خاوية خالية ينظر إليها الغادون والرائحون ، ويتندر بها المتندرون حتى لقد شاغل ، هذه المهمة علمية دينية اجتماعية ، هى رسالة الأزهر ، وما رسالة الأزهر إلا رسالة الإسلام التى حققت للبشرية الخير وأمدتها بالنور والعرفان ، فلنتعاون جميعاً على بلوغ هذه الغاية ، وعلى الطلاب ألا يضيعوا فرصة فى سبيل الفهم الصحيح للعلم والحياة ، وأن يكونوا لبنات قوية فى بناء نهضتها وفى عصرنا الذهبى عصر الشاب المؤمن القوى الرئيس جمال عبدالناصر ، فإن عنايته بالأزهر ورعايته له لتبشر بالخير الوفير الذى يعيد إليه مجده ويعاونه على أداء رسالته .

وفى وفد ضم زعماء المسلمين باليونان ، وأعضاء هيئة التدريس بكلية اللغة العربية قال: يا أبنائى : إن حياتنا بحياة الأزهر وحياة الأزهر بأدائه لرسالته وتمكنه من أداء مهمته . ورسالته تحتاج فى تحقيقها إلى التعاون والتضامن وأنا بكم ولكم أضحى بنفسى وبأبنائى فى سبيل الأزهر ، لأن رسالته هى رسالة محمد ابن عبد الله ـ ومن حسن حظ الأزهر أنه يريد تحقيق نهضته فى عهد رجل يؤمن بالله وبرسالة محمد بن عبد الله ويؤمن بالأزهر ، لأنه هو الحامل لهذه الرسالة ، ذلكم هو الشاب المؤمن القوى السيد الرئيس جمال عبدالناصر ، فسيروا على بركة الله ، واعملوا فى البحث والاجتهاد ، واحرصوا على أن يفيد الشعب منكم ، كما أود أن تقفوا دائما بجانب الخير ، وتعملوا له وأن تكونوا سدوداً مانعة للشر والمبادىء الهدامة ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله .

سمعت اليوم من أحد إخوانى أعضاء جماعة كبار العلماء أن إشاعة سرت عن هذه القاعة الخاوية ، تقول إنها مسكونة بالأفاعى كما سمعت عن أحد أساتذة الجامعة الذين حضروا بعض المحاضرات فيها أخيرا أنه يقول ، أين كانت هذه القاعة ، وكيف ظهرت فجأة ؟ إنها اكتشاف جديد يشبه اكتشاف هرم خوفو .

وها هى ذى قاعة المحاضرات الأزهرية ، الكبرى قد فتحت والحمد لله رب العالمين ، وها هى ذى قد ألقيت فيها المحاضرات ، ويسرنى ويسركم أن نعلم أن هذه المحاضرات كانت على نوعين : محاضرات علمية ذات بحث عميق ومبادىء قيمة فى الحياة الاجتماعية متصلة بخطوط قوية بأصول الإسلام وأخرى توجيهية تبسط السبيل أمام الواعظ والمرشد ، وهى محاضرات التعبئة الروحية الأخيرة اختص بإلقائها بعض أساتذة الأزهر نذكر منهم الدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية ، والأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى شيخ كلية الشريعة ، وأخانا الدكتور على عبد الواحد وافى العالم الاجتماعى الكبير .

ومما زاد فى سرورى ـ وأعتقد أنه يزيد من سروركم أيضا ـ فى هذه المحاضرات أنها تناولت معظم النواحى الاجتماعية الحية التى كان للإسلام فيها الرأى الواضح مع ظهور الروح الإسلامى فى كل محاضرة منها ، ومن حسن التفاؤل أن النوع الأول من المحاضرات بدأ بمحاضرة جامعة منبعها القرآن وحده وهى : « فى العلم ومجالاته ومكانته فى القرآن الكريم » وكان صاحبها قد قصد السير على مبدأ وحى الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان أول ما نزل عليه (اقرأ) .

وقد بلغ عدد المحاضرات من النوع الأول ثلاث عشرة محاضرة .

وبلغ عدد محاضرات النوع الثانى للتوجيهى تسعا وأربعين محاضرة .

وبذلك كان مجموع ما ألقى فى هذه القاعة من محاضرات علمية وتوجيهية اثنتين وستين محاضرة .

والذى ملأ نفسى من هذه الحركة كلها شىء آخر وراء هذه المحاضرات وبحوثها ونتائجها ذلكم هو اجتماع رجالى الثقافتين الدينية والمدنية فى صعيد واحد والتقاؤهم ـ إخوة متعاونين ـ ينشرون كلمة الله وينقبون عن أسرار الإسلام وعن مقدار صلته بالصالح العام ، ففيها :

(الإسلام دين المستوى الكامل فى الإنسانية) وفيها : (المسلمون أمة واحدة) . وفيها : (المواريث الثقافية فى حياتنا) . وفيها : (الخطوط الكبرى للنظام الاقتصادى فى الإسلام) وفيها : (القرآن يخلق المجتمع المتفائل) . وفيها : (ميثاق الأمم والشعوب

فى الإسلام) . وأخيراً : محاضرة الليلة التى نستمع إليها من الدكتور أحمد ثابت عويضه المستشار المساعد بمجلس الدولة : وهى (الإسلام ومنح الأسس الحديثة للتربية) .

التقى الفريقان المثقفان فى الإقليم المصرى بعد تقاطع طويل ظن معه كثير من الناس مختلف الظنون ، فالحمد لله الذى جمع الإخوة وردهم إلى عنصرهم الأول ونسبهم الحقيق وصار الكل يرمون عن قوسه وهو « القرآن الكريم والإسلام » .

ونرجو أن يزيد هذا الاجتماع قوة على قوة وأن يمد الله فى حياة الجميع ليخرجوا للناس من هذه القاعة ومن محاضراتهم فيها الأسرار الكامنة فى الإسلام ومبادئه ، والنظم القويمة التى بها حياة الأمم وسعادة الأفراد .

وهذا عهد يأخذه الأزهر على نفسه بلسان شيخه فى آخر ليلة من ليالى هذا الموسم العظيم وإنا نوثقه بقراءة سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

ونبتهل إلى الله تعالى بهذه المناسبة العلمية الإسلامية السعيدة أن يكلأ بعين رعايته رئيس الجمهورية العربية المتحدة الشاب المؤمن جمال عبد الناصر لقاء ما هيأ للعلم والدين والعروبة من عوامل القوة والازدهار والبيان والهداية .

والله تعالى يشكركم جميعا ويجمع بيننا وبينكم دائما فى كل ما يرضيه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

النشاط العسكرى الرياضى

يهتم فضيلة الأستاذ الأكبر منذ ولى منصبه الخطير بالعمل على أن يتبوأ الأزهر مكانته وأن يعود إليه مجده وألا يقتصر على التفوق العلمى فحسب ، وإنما تكون له الميزات التامة فى كل ناحية وباب ، فمن سبق علمى ، إلى فوق عسكرى إلى امتياز رياضى وثقافى واجتماعى ؛ إيمانا من فضيلته بأن العقل السليم فى الجسم السليم ، وحرصا على تنفيذ سياسته التى رسمها لإصلاح الأزهر والنهوض به :

والأزهر الآن يسير بخطى واسعة نحو المجد الذى يريده المسلمون له ويعلقون فيه الآمال الكبار على السيد الرئيس جمال عبد الناصر .

وإعدادا لهذا كله جعل فضيلته التربية العسكرية مادة إجبارية يختبر فيها الطلاب تحريريا وشفويا وقد أدى أربعون ألف طالب امتحانهم هذا الشهر فى هذه المادة ، وسيقام معسكر التدريب العسكرى

بسيدى بشر لطلاب المعاهد الدينية ويشترك فيه أربعة آلاف طالب .

كما سيقام معسكر التدريب الراقى بمرسى مطروح لطلاب الجامعة الأزهرية ويشترك فيه خمسمائة وألف طالب وذلك فى منتصف الشهر القادم لاستكمال التدريب .

هذا وسيختار من بين الطلاب المتفوقين فى هذه المعسكرات مع اللياقة الصحية من يلتحقون بمدارس الجيش التى تؤهلهم تأهيلا خاصا يخدمون به وطنهم العربى والإسلامى ، ويذودون به عن حياض القومية العربية المكينة فى الأزهر .

ثم يلتحق هؤلاء الطلاب المتفوقون بالمدارس التى تنمى فيهم روح التضحية والفداء وإنكار الذات وذلك بمدرسة الضفادع البشرية ومدرسة الهابطين بالمظلات ومدرسة الصاعقة إلى غير ذلك مما يتناسب والقوى الكامنة فى أجسام الطلاب ، حتى يكونوا نواة صالحة وبذرة طيبة. ويقام كذلك معسكر الرواد والقادة بمرسى مطروح للأساتذة والطلاب ويضم خمسمائة أستاذ وطالب .

كما يشترك الأزهر فى مشروع ناصر لتوسيع قناة السويس بالإسماعيلية ، بخمسمائة طالب كذلك .

من كلمة الأستاذ عبد الحكيم محمد سرور فى حفل توزيع الشهادات على طلبة الأزهر من خريجى الخدمة الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الذى أرسله بشريعة ذات مثل وقيم اشتملت على الصلات الاجتماعية السليمة والأصول البناءة العظيمة.

وبعد : فإن الخدمة الاجتماعية والنهوض بها أصل من أصول النهضة فى المجتمع الذى نعيش فيه ، وليست الخدمة الاجتماعية ولا شئونها بدعا فى العصر الحديث ، وإنما هى دعوة للدين الإسلامى وهدف من أهدافه ؛ إذ أن الدين الإسلامى دين بالمعنى العام الشامل فكما يحدد العلاقة بين الإنسان وربه يعنى ببناء الجماعة وتنظيم شئونها العامة .

ونحن إذ نريد الخير لمجتمعنا والسعادة لأمتنا يجب علينا أن نلتمس ذلك فى الإسلام الذى يقوم على الأخوة الصادقة والرحمة المتبادلة والتعاون العام والمحبة العميقة والشعور الموحد ، الأمر الذى يجعل الفرد لبنة من لبنات المجتمع فيبذل من نفسه وماله وراحته وعلمه ومعارفه ما يحقق الخير .

ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ أهو عن طريق القانون ؟ إن القوانين سنة لازمة لحياة المجتمع لكن لا خير فى قانون لا يحظى بتقديس القلب

ولا يسكن فيه سكن العقيدة الصالحة فى قلب المؤمن ، فإن القانون لا يملك من الإنسان إلا ظاهرا ، فما بالك بما نأخذه فجاً من الغرب غير مدروس ولا معروف ، أم هو بالدين ؟ نعم إن الدين هو الكفيل بذلك ، لأنه الذى يخلق فى الإنسان قوة فى ضميره وإيمانا فى قلبه بما فرضه الله على المؤمن من عبادات ومعاملات تعمل على تطهير القلب من الحقد والحسد كما تعمل على تقوية أواصر الألفة والمحبة بين الأغنياء والفقراء وبين الناس جميعا . وهذه النواحى كلها تخلق الرقابة على كل التصرفات ، فلا يترك أخ أخاه حيث تجب خدمته وإنما يقبل الإنسان على خدمة أخيه بوازع من قلبه ورقيب من ضميره ولا يصلح مجتمع نام فيه الرقيب القلبى أو الوازع النفسى ، ويوم ينام الرقيب القلبى فى الجماعة يضطرب حبلها وتسوء أخلاقها وتتفكك الأواصر فيها فتحيا حياة هزيلة يسودها الحسد والحقد الذى يقضى عليها القضاء الأكيد .

فحاجتنا إلى إيجاد الضمير الدينى أمر ضرورى فى كياننا الجماعى .

ولقد عنيت الشريعة الإسلامية العناية الكاملة بالخدمة الاجتماعية عناية تشد أوصال المجتمع على أساس قويم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، ويقول المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) فأى تعاون أعمق وأبعد أثراً من هذا التعاون الذى يجعل حياة كل فرد مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الآخرين ، بل إن الأخوة الدينية الناشئة عن رباط العقيدة الصالحة والإيمان الصحيح لأقوى ما يبعث فى النفوس معانى التراحم والتعاطف والتعاون وتبادل الشعور والإحساس ، يتجلى ذلك فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويتضح فى قوله صلى الله عليه وسلم :(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله) وبهذه المبادىء تصير الأمة جميعا جهازا واحداً يتقاسم الفرح والحزن والملذة والألم والسعادة والشقاء والرحمة والعطف والإرشاد والمعونة .

لقد عنى القرآن بأمر اليتامى ورعايتهم بل جعلها من ضمن الوصايا القيمة التى أوصى بها القرآن « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

كما عنيت الشريعة بالصدقة التى لا ينقطع أثرها بالبذل وانتقال المال من يد إلى يد ، كإنشاء المرافق الدائمة النفع مثل المستشفيات والملاجىء ودور التعليم ، ومأوى الغرباء وعابرى السبيل وتأمين الثغور وإماطة الأذى عن الطريق وغير ذلك من وسائل النفع العام بما يحقق لنا سلامة الخدمات الاجتماعية .

والقرآن دائما يحقق معنى الأخوة الإسلامية مقترنا بكل بذل وعطاء لإشعار الباذل أنه إنما يبذل لأخيه .

هذا وإننا لنأمل إن شاء الله أن تتسع هذه الدراسات وتنمو لتخرج لنا أبطالا يؤمنون بالله ثم بمجتمعهم ووطنهم ويلتفون حول كل مصلح يؤمن بالله وبمبادىء الإسلام ؟

الكتب

جدد حياتك

تأليف الأستاذ محمد الغزالى

بقلم الأستاذ محمد رجب البيومى

لا يمكن لكتاب يظهر فى النصف الثانى من القرن العشرين باحثا عن طريق السعادة فى الحياة إلا أن يكون ثمرة ناضجة لتجارب عميقة ، وعصارة صافية لقراءات بصيرة ، فموضوع حى كهذا الموضوع يتطلب من الجلد والموهبة ، نصيبا كبيرا يعين على سيره واكتشافه ، فهو فى حاجة ماسة إلى دراسات متشعبة لعلوم النفس والتربية والاجتماع من ناحية ، وإلى نفس حية خصبة المشاعر قوية الأحاسيس من ناحية ثانية، ثم إلى عقل بصير يزن ويحلل وينقد من ناحية ثالثة ، وبهذه الأضلاع الثلاث يمكنك أن تجد فائدة صادقة فيما تطالع من بحث وما تنشد من تسديد .

وقد قدمت الأستاذ الغزالى لقراء مجلة الرسالة من عشر سنوات ، وأحب أن أتخذ من كتابه « جدد حياتك » سببا لتقديمه على صفحات هذه المجلة .

فالكتاب بموضوعه ومؤلفه جدير بالنقد والتحليل ، على أننا لا نحتاج إلى إيضاح هدفه للقراء ، فعنوانه الدقيق « جدد حياتك » يكفى كفاية تامة فى بيان مرماه ، ولكننا نوضح الأسس التى ارتفع عليها بناء هذا الإنتاج ، ولعلها تنحصر فى شمول النظرة ، وتنوع الثقافة وبلاغة التعبير ، وثلاثتها تسد سدآ حميدا فى الإقناع والتوجيه . إن النظرة المحدودة لشىء ما لا تستطيع أن تبرزه على حقيقته ، فأنت إذا نظرت من زاوية خاصة إلى لوحة حسية أمام عينيك لا تقدر أن تكشف جوانبها المختلفة ، بل تعود منها بفكرة جزئية تصدق فى أمر وتكذب فى أمور، والنظرة المحدودة فى المعنويات أشد خطرا على الحقيقة ، وأبعد مدى عن الواقع فلابد لمن يسبر أغوار النوازع والخوالج أن يقلب الرأى على شتى وجوهه ، وأن ينظر إلى موضوعه

نظرة المتفرس الذى لا يدع زاوية فى منحنى أو مسربا فى اتجاه ، وإذ ذاك يستطيع أن يقدم مايقنع ويمتع ، فلايترك نقدا يتردد فى العقل ، أو استدراكا يفد إلى التفكير ، وإذا بلغ الكاتب هذا المبلغ فقد سلك الطريق القويم .

وأنت تجد شمول النظرة فيما تطالع من سطور هذا الكتاب ، فما يلم مؤلفه بناحية إلا وشفعها بإيضاح ما تنطوى عليه من غوامض ، ولا يجيز لقلمه أن يجلو منها وجها واحدا ، فقد يكون الوجه الآخر أدعى إلى استكمال الرأى ونضوج المذهب، ونحن فى حياة محيرة متشعبة فلا بد أن يتشعب إزاءها طريق العلاج ، ومناحى التشخيص ! !

لقد تكلم الكاتب ـ مثلا ـ عن إحساس المرء بنفسه ،فمجّده وعظّمه وذكرأن النفس التى تمتلئ بالثقة واليقين تقدم على المصاعب آملة مستبشرة وتحتقر المكايدمترفقةمستعلية، « فالرجل العظيم حقا كلما حلّق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم والتمس المبررات لأغلاطهم ، فإذا عدا عليه غر يريد تجريحه نظر إليه من قمته ، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعيشون فى الطريق وقد يرمونه بالأحجار ، وقدرأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون عند ما تُقتحم عليهم نفوسهم ! أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم على هذا النحو؟ كلا ، إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها البعيد » ص ١٢٤ .

فهذه زاوية أولى من زوايا الثقة بالنفس ، ولو اقتصر الكاتب عليها لفقد ما تميز به من شمول النظرة ، وتشعب الاتجاه ، ولكنه يعرض لك الزاوية الثانية فيقول :

« وإحساس المرء إذا زاد عن حده يحجبه عن الآخرين ، ويحصره فى علم خاص به ، ولا يزال ماضيا فى تكبير شأنه ، وتهوين غيره ، ولا تزال نفسه تعجبه وتنسج حوله غلالة سميكة من الغرور والشراهة ، ولا تزال أنا تنمو فيه ويتضاعف ورقها وتضخمها حتى يقول : أنا ربكم الأعلى ، إن حب الذات والعيش فى إفرازاتها منته حتما إلى الاختناق وهو اختناق أدبى ، وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان » .

بعد هذه الزاوية الثانية يسير بك الكاتب إلى زاوية ثالثة يحمل فيها حب النفس ، وتظهر « أنا » فى محيطها عظيمة قوية ، تلك هى زاوية الأهوال والمحن حين تدلهم الخطوب ، ويتطلع الناظرون إلى منقذ بطل يحمل روحه على كفه ويقول ، أنا ، الحبيبة بملء شفتيه ، ويا لها من كلمة قوية تدعو إلى الإجلال والإعجاب ، « فأنا فى هذه المناسبات صيحة القوة

لنصرة الحق ، وفاتحة العمل لدعم الإيمان والتعهد بأداء الواجب إن بهظت تكاليفه ، والشعور الحاد بأن المرء قبل غيره مفروض عليه أن يقوم بما ندب إليه ، أنا التى يقولها امرؤ فى مجال المطامع غير أنا التى يهتف بها رجل فى مجال الفزع وبين الاثنين بعد المشرقين » .

هذا مثل واحد من أمثال النظرة الشاملة فى الكتاب ، وأنت تجد نظائره فى جميع ما تقرأ ، فهناك مثلا فرق بعيد بين الصبر حين يصبح ينبوعا تسيل منه مخايل الرجولة ، وحين يكون بلادة تنحرف إليها الطباع المريضة .

وهناك التفكير فى المستقبل إذ يسلم إلى وساوس قلقة ، وأوهام ضجرة ، فيكون داء يعضل . وإذ يكون استعداداً وتأهبا وحيطة فيكون شفاء يريح ، وهناك العودة إلى الماضى حين تكون مجال العظة وموضع الاعتبار والاستفادة فتسعد ، وحين تصير تجديداً للحزن ونكأ للجروح وإظلاما للعين فتشق ، وهناك مركب النقص حين يحفز إلى الكمال ويحدو المجد فيثمر ، وحين يجنح إلى الرياء والتظاهر الكاذب فيجدب ويمحل ، وهناك عشرات الأمثلة من هذه الألوان المتقابلة تلفت إليها الأنظار فى اهتمام وتقدير .

أما تنوع الثقافة فى الكتاب فيستشفه القارىء استشفافا دون أن يجد ما يدل عليه من ثبت المصادر ، وحشد للمراجع ، ومباهاة بالتنقيب والاطلاع فأنت ترى عصارة مهضومة لعلوم متنوعة ، دون أن تصدم بمصطلحات علمية ، يحشدها المتعالمون أو قضايا ذهنية يعرضها المباهون ، بل أجزم أنك لا تكاد تحس بأصول هذه الثمار اليانعة ، لأن الكاتب قد هضم قراءاته المختلفة هضما صحيحا ، فتحولت على أسلات قلمه مادة أخرى ، كما تتحول الطعوم والمشارب إلى دماء تجرى فى العروق ، فهى وإن استمدت خلاصتها مما أكل وشرب إلا أنها فى شرايينها المتدفقة ذات لون خاص وحيوية خاصة ، فأنت إذا قرأت قوله مثلا — ص ٧٧ — « وقد علم أولو النهى من تجاربهم ، أن هناك أشياء تبدر من الإنسان وهو غير آبه بها ولا يقظ لها يعدها الآخرون عليه ، ويستنتجون منها أفكاراخاصة ويرون وراءها نيات غريبة » . أقول إذا قرأت ذلك فإنك ستنتقل إلى العقل الباطن فى علم النفس ، وتعرف كيف يفصح عن رغباته المكبوتة بهذه البوادر الضئيلة ، فتكون على صغرها المنكمش أبلغ فى افتضاح صاحبها من ألف مذياع ، والمؤلف يستمد نظرته تلك من دراسته النفسية ، ولكنه يأبى أن يحشد المقررات النظرية فى اصطلاحاتها

العلمية ، بل يحيلها بأسلوبه الخاص إلى عبارة واضحة متواضعة !! وهو أحيانا يأتى بالظاهرة النفسية دون أن يتعالم بتحليلها العلمى ، بل يتركه للمتخصصين ، وقد كشف كل شيء عنه دون أن يلجأ إلى مصطلح غريب ، وإذا قرأ القارئ مثلا قوله « ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة فى سلوك شخص ما فيتيم الدنيا ويقعدها من أجلها ، ثم هو يعمى أو يتعامى عما تمتلئ به حياة هذا الشخص من أفعال حسان وشمائل كرام ، فليس بعد هذا الوضوح البديهى فى حاجة إلى لغة خاصة ترجع بهذه الصورة إلى قاعدتها العلمية فى دنيا الاصطلاحات والتعاريف ، وهكذا نقطف الثمرة دون أن نتكلف الغراس والرى والتشذيب ، وقد دفعه هذا التنوع الثقافى إلى أن يقتبس أقوالا عديدة لأئمة المفكرين فى الشرق والغرب والمسيحية والإسلام مع مقارنة لذيذة بين نتاج العلوم وحصاد القرائح وكثيرا ما يشفع النص بتحليل عميق يضيف إليه الرائع الطريف .

فلديك قول المسيح عليه السلام « أحبوا أعداءكم » فقد نقل الغزالى أولا تعقيبا عليه قول ، ديل كارنيجى « إنه ليس تقويما للخلق فقط وإنما هو تقويم للبدن أيضاً ، إذ أن العداوة تذيب الجسم وتفرى الضلوع » ثم أتبع ذلك بقوله « أما محبة الأعداء فلعلها تعنى إيثار العفو عنهم ، وتنقية القلب من الضغائن عليهم ، وترك الاشتغال بما أسلفوا من سيئات !! أما أن تكون عواطف الإنسان سواء ، تجاه من يحسن إليه ومن يجور عليه فذلك يستحيل !! » ، وهذا صحيح وإذا كان الكتاب للتربية والتهذيب فقد خاطب الجانب الوجدانى من النفس وسرد الشعر الرائع عربيا وأجنبيا ليثير به الأحاسيس ، وقد هزتنى الأبيات الجميلة المختارة هزة عاطفية ، جعلتنى أنقل أكثرها فى أوراقى الخاصة . وإن كنت لا أوافق على الاستشهاد ببعضها فيما حدده الكاتب من مجال ، فهو ينقل مثلا قول الشاعر « والت هويتمان » :

« ما أجمل أن أواجه الظلام والأنواء والجوع والمصائب والمآسى واللوم والتقريع كما يواجهها الحيوان وتواجهها من الأشجار الجذوع » فالقياس بين الإنسان وغيره مع الفارق ، لأن الحيوان بله النبات لا يدرك العواقب فيبتئس ، أما العاقل فيشقى فى النعيم بعقله ، ولعل مما يشفع لوالت هويتمان أنه شاعر ينظر بإحساسه وحده ، ولكن ماذا يشفع للمؤلف وهو مفكر يمزج الحس بالعقل .. ويمضى مع الخيال إلى مدى محدود ! هذه وجهة نظر فقط ولعلها تكون مداعبة أكثر منها معارضة فالخيال شهى حبيب .

وعلى ذكر الاقتباسات والاستشهادات نسجل للكاتب سعة الصدر لدى خصومه فى الرأى ، فقد استدل بكلام كثير للدكتور زكى مبارك وأيد ما نقله عنه من الآراء فى استحسان وتحبيذ مع أنه فى كتابه عن الاستعمار قد حارب الدكتور زكى مبارك حربا طاحنة وعقب على آرائه فى النثر الفنى بما يطمس لألاءها الخلوب !! ولكنه حين يجد الإصابة لديه فى كتاب التصوف يستقى من معينه ويفرق فرقا جليا بين الرأى والشخص ، سائرا طريقة معتدلة حبذا أن يسلكها الباحثون. ننتقل بعد ذلك إلى الضلع الأخير وهو التعبير المطبوع فقد ترقرق الأسلوب كالجدول الهادئ الشفاف حافلا بكثير من الصور والأخيلة التى ترسم جوا من الجمال الفاتن ! وهو فى صوره الأدبية لا يعمد إلى المبالغة المتكلفة ، بل يهدف إلى الفكرة القوية فيلبسها كساء أخاذا تزدهى به فيوضح تقاطيعها ورشاقتها دون أن يصبغها بتمويه خداع ، ولا أدرى لماذا يذكرنى بابن المقفع ، فكلا الكاتبين يتخذ من الخيال البلاغى إطاراً زاهيا لأفكاره ولكن الجزالة لدى الأديب العباسى تخلى الطريق للرقة لدى الأديب المعاصر ، ولكل عصر مقال ، فما أجمل أن نستروح عبير البيان التصويرى من مثل قوله :

« والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وصبر لا تخضعه الظروف السيئة المحيطة به ، إنما يستفيد منها ويحتفظ بخصائصه أمامها ، كبذور الأزهار التى تطمر تحت أكوام السبخ ، ثم هى تشق الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائحتها المنعشة ! لقد حولت الحمأ المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح ! ! » .

أو مثل قوله «الأفراد والجماعات منطلقون فى سباق رهيب لإحراز أكبر حظ مستطاع من حطام الدنيا ، وقواهم البدنية والنفسية تدور كالآلة الدائبة وراء هذه الغاية إلا أن الآلات قد يقطر عليها من الزيت ما يرطب حدة الاحتكاك أو يمنع الشرر المتولد من إحراقها ، أما أعصاب الناس فى عراك المادة ، فكثيراً ما تفقد هذا العنصر الملطف ، وتمضى مستثارة يستبد بها القلق والضيق حتى تشتعل فتأتى على الأخضر واليابس » .

أليس فى أمثال هذه الصور الجميلة ما يقرع الأسماع الغافلة فيوقظ النائمين ! ! لقد كان القلم فى يد الغزالى ناقوسا يجلجل ، ورعداً يرن ، فهل من سميع ! ؟

محمد رجب البيومى

أنباء الأزهر

وزير الدولة يزور الأزهر

قال السيد كمال رفعت وزير الأوقاف : إن المسلمين فى أنحاء العالم ليعلقون على الأزهر آمالا كباراً ، وخاصة فى هذه الفترة التى نرجو أن يستكمل الأزهر فيها كل نواحيه ؛ لينهض برسالته ويؤدى الأمانة التى وضعت بين يديه.

وقال : إن الأزهر لعريق فى قوميته العربية وفى رسالته الإسلامية ، ويسرنا جداً أن يظل قائما بهذه الأمانة ، وأن يتزايد ولا سيما فى عهد النهضة الحديثة .

وكان السيد الوزير قد زار كليات الأزهر يرافقه مدير مكتبه السيد/ محمود عبد الناصر ، وكان فى استقباله فضيلة الشيخ محمد نور الحسن وكيل الأزهر والدكتور محمد عبد الله ماضى مدير المعاهد الدينية ، والدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية وغيرهم . . .

ورحب السيد الوكيل بالسيد الوزير باسم فضيلة الأستاذ الأكبر والأزهريين وطاف الوزير بالكليات ، وقاعة المحاضرات الكبرى والملاعب ، وميدان التربية العسكرية للجامعة الأزهرية ، وسر بما رأى من وسائل النهوض ، ووعد باستكمال الأسس التى تمكن الأزهر من القيام بأعباء رسالته الاجتماعية والثقافية والرياضية ، والتربية العسكرية . . .

كما أبدى إعجابه بما عرض عليه من المشروعات الإصلاحية بشأن الدراسة ، والمكتبات ، والبعثات الداخلية والخارجية .

ووزير الشئون الاجتماعية :

زار فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ « محمود شلتوت » شيخ الجامع الأزهر السيد محمد توفيق عبد الفتاح وزير الشئون الاجتماعية والعمل التنفيذى للإقليم المصرى ورئيس بعثة الحج فى منزله مهنئا لسيادته بالحج ، وقد دامت الزيارة مدة طويلة تناولت الحديث فى شئون إسلامية شتى .

وقد قال السيد الوزير إننى أحمل إليكم تهنئات المسلمين وسرورهم بتوجيهاتكم وخطوطكم الرئيسية فى الإصلاح الذى ستمتد آثاره إلى جميع الآفاق الإسلامية ، وإنى

لا زلت أذكر يا فضيلة الأستاذ الأكبر هذه الأحاديث الدينية الموجهة للمسلمين فى شئون دينهم ومجتمعهم وأذكر أننا كنا دائما نهرع إلى الاستماع إليها .

وقد قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننا حريصون دائما على أن نعيد للأزهر مكانته فى العالم الإسلامى وخاصة فى عهد النهضة المباركة التى تتمثل فى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وقائد العروبة ، والحريص على كل ما يحقق للأزهر رسالته ، كما أننى أشعر بذلك فى كل اتجاهاتى نحو الإصلاح فى الأزهر ، وإن شعورى بمحبتكم جميعا للإصلاح ليدفعنى إلى التفانى والإخلاص فى سبيل دين الله ، وفى سبيل الأزهر الذى يعلق عليه المسلمون آمالا كباراً ، حقق الله آمالنا جميعا وزادكم خيراً وبركة .

نشاط البعثة الأزهرية

فى الكويت

أرسل الأستاذ مدير الإذاعة الكويتية هذه البرقية :

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن جلال رئيس البعثة الأزهرية المحترم .

يسرنى أن أبعث لفضيلتكم باسم حضرة الرئيس الأعلى لدار الإذاعة صاحب السمو الشيخ عبد الله المبارك الصباح خالص الشكر على ما قمتم به ، وأعضاء البعثة الأزهرية بالكويت من إذاعة الأحاديث القيمة التى كان لها أعظم الأثر فى بث الروح الإسلامية الصحيحة فى نفوس المستمعين وشرح مبادئ الدين الحنيف .

محمد توفيق الغصين

المذهب الجعفرى

بعث السيد/محمد جواد سرى من بيروت إلى فضيلة الأستاذ الأكبر بالبرقية الآتية:ـــ

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر « القاهرة » .

صلوات الله وسلامه عليكم « وبعد »

« فإن الفتوى التاريخية التى أعلنتم فيها للعالم صحة المذهب الجعفرى ومساواته للمذاهب الأربعة قد أدخلت العالم الإسلامى فى باب تاريخ جديد ودفعته ألف سنة إلى الأمام ، وسيبقى صدى هذه الفتوى إلى الأبد ، لقد سجلتم بهذه الفتوى وجودكم وبرزتم شامخين فى سجل الخالدين . »

وفد علماء جامعة فولى

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه وفد علماء جامعة فولى باكنج بأمريكا وقد قال رئيس الوفد لفضيلته : إننى أحمل إليكم أطيب تحية وأعمق تقدير من أحدث جامعة فى أمريكا إلى أقدم جامعة «الأزهر» التى تتشرف

مقتطفات من الصحف والمجلات

تسامح الإسلام :

كان المسلمون يحتملون من العلماء ما لا يطيقونه من سواهم ؛ فكان العلم يغفر لهم كل زلة ، ويمحو كل خطيئة ، حتى لو كانت هذه الزلة تتناول الخليفة نفسه ؛ فقد كان الطبيب بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه ، وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ، ودار الكلام بينهما حتى سأله

بكم موجها لها ، وإماما للمسلمين فى أنحاء العالم . وإننا ليسرنا جميعا أن نسير على ضوء القيادة الروحية فى كل ناحية من أمثال فضيلة الأستاذ الأكبر .

كما انتهزها فرصة مباركة بعد ما سمعت من بيان فضيلتكم الذى يدفع العالم جميعا إلى السلام يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة فأوجه لفضيلتكم دعوة لتشريف وطننا الذى يسعده أن يراكم وتشريف جامعتنا الحديثة . فقال فضيلة الأستاذ الأكبر ، أرجو أن يكون لنا ذلك الحظ ، وأرجو أن تحملوا دعوتى هذه إلى السلام ، وأن توجهوها لرجال العلم والدين عندكم فإننا لو تضافرنا جميعا ، وأخلصنا النيات لعم السلام ربوع المعمورة ، وهدأ الناس واستقروا ، وعملوا لخير البشرية جمعاء .

ثم قال رئيس الوفد « إننى وقد علمت من فضيلتكم أن للجامعة الأزهرية مندوبا فى واشنطن فأبلغ فضيلتكم إننى سأذهب إلى مسجد واشنطن لأستعرض آثاركم أيضا فى بلادنا ، ثم قال أحد الأعضاء موجها كلامه إلى فضيلة الأستاذ الأكبر : سيدى إننى متأثر جدا وسعيد جداً ، وكلى غبطة وسرور منذ استمعت إلى إمام المسلمين فى تلكم الرسالة التى ناشدتم العالم فيها السلام » .

فقال فضيلته : « هذه رسالتنا ونحن نعمل لها طول حياتنا جاهدين ؛ لأنها رسالة الإسلام كما نعمل فيها معتمدين على الله ، ثم على أمثالكم من رجال العلم والنهضات وفقنا الله ووفق كل مخلص أمين محب للسلام . ورعى الله المجاهد الراعى للسلام الذى بعث الوحى قويا فيه السيد الرئيس جمال عبد الناصر » وانصرف الوفد شاكراً مؤكدا الدعوة لفضيلة الأستاذ الأكبر بضرورة زيارته لأمريكا .

المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخلط فى عقله) يحتاج إلى الشد ؟ - يعنى شد الوثاق عليه حتى لا يؤذى الناس - فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه (يعنى كما فعل المتوكل) فضحك المتوكل حتى استلق ، ولم يغضب المتوكل ولا أصاب طبيبه العالم المسيحى بأذى ؛ لأن نفسه تأبى أن تؤذى العلم أو تعصف بكرامة العالم . «عن لواء الإسلام» .

وحشية الاستعمار :

وكتب أحد الضباط (مجيندى) فى مذكراته يقول : (وبتنا تلك الليلة وكنا حراسا على المسجد الجامع فى دلهى ، نمضى أكثر أوقاتنا فى قتل الأسرى الذين قبضنا عليهم صباحا : نقتلهم بالرصاص أو بالشنق ، ولكن كان يظهر على وجوههم آثار الشجاعة والصبر بالرغم من ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لهدف عظيم ، ولذلك كانوا لا يخافون من الموت أو القتل) .

ويذكر مستر « تومسن » للمستر هنرى كوتن عن أحوال بعض المسلمين المسجونين فى بنجاب فيقول : (أتانى ذات ليلة عسكرى من طائفة السيك وبعد أن حيانى بالتحية العسكرية خاطبنى قائلا : لعل الرئيس يحب أن يشاهد المسجونين ، فقمت وهرولت مسرعا إلى السجن ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، وأحرقت أجسامهم من رءوسهم إلى أقدامهم بالنحاس الملتهب ، وتفوح منهم الروائح الكريهة ، فلما رأيت هذا المنظر المفزع أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليهم الرصاص من « الطبنجة » التى كانت معى) . فلما سمع « كوتن » هذه القصة المؤلمة سأل « تومسن » : وماذا فعلت بالذين تولوا كبر هذا التعذيب الشنيع ؟ قال : ما فعلت شيئا .

ويعلق المؤلف الأمريكى «إدوارد توماس» على هذه الحادثة فيقول : (منظر فاجع ؛ أناس يحرقون أحياء بالنار المشتعلة ، والانجليز والسيك قائمون حولهم يتلذذون برؤيتهم كأنهم فى منتزه عام) .

نعم ... لقد فقد الانجليز بعد انتصارهم كل إحساس بمعانى الإنسانية ، وتجاوزوا فى انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان : رأوا أن القتل بالرصاص سهل على المقتولين فاستعملوا المشنقة ، وكانوا يشنقون فى كل مكان ، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ثم يطلقونها فتتناثر أضلاعهم فى كل مكان ،

وكانوا يلفون أجساد الضحايا بجلود الخنازير ويخيطونها عليهم أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونهم، وكانوا يجبرونهم على فعل الفاحشة بعضهم ببعض، ويحشرون الناس فى البيوت ثم يشعلون النار فيها فيتحول المساكين إلى رماد: رجالا ونساء وأطفالا، ولم يتركوا وسيلة للتنكيل والتعذيب يتفنن العقل فى إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم، ولم يفرقوا بين ثائر ومهادن؛ فالكل عندهم ثائر.

هذه الصور المخزية تمت على أيدى مدعى الحضارة، وستظل على مر التاريخ وصمة عار على جبينهم، وكم على جبينهم من وصمات.

«عن مجلة الحج».

حاضر العالم الإسلامى:

من المؤسف أننا نرى أنفسنا مقصرين تقصيراً كبيرا فى هذه الناحية على حين نرى أعداءنا ـ شرقيين أو غربيين ـ يتولون هم تدوين حاضرنا، فتراهم يتبعون أمورنا، ويمكثون السنين الطوال فى بلادنا، فيعرفون كل شىء عنا ويكتبونه، لا من وجهة نظرنا بل من وجهة نظرهم، ووفق ما تقتضيه مصالحهم.

ولقد ألف هؤلاء الكتب، وأنشئوا المجلات الدورية التى تبحث عن شئون العالم الإسلامى: ماضيه وحاضره؛ وتتنبأ بمستقبله.

وفى هذه المناسبة علينا أن نذكر بإجلال واحترام المرحوم العلامة أمير البيان شكيب أرسلان حينما كتب شروحه وتعليقاته الضافية على كتاب «حاضر العالم الإسلامى» للمستشرق الأمريكى «لوتروب سوارد».

فكانت هذه الأبحاث دائرة معارف؛ إذ أنه أرخ لكل بلد فيه مسلمون، وبحث تاريخ دخول الإسلام فى كل بقعة من بقاع العالم، وتسلسل مع الحوادث التاريخية، ولكنه توقف عند سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م وهو تاريخ إخراج الطبعة الثانية لكتاب «حاضر العالم الإسلامى» وكان رحمه الله يحرص على أن يؤرخ للبلدان النائية التى لا يعرف عنها مسلمو الشرق الأوسط إلا النزر اليسير، فسد بذلك ـ رحمه الله ـ فراغا لم يملأه أحد قبله، وقدم لقراء العربية معلومات قيمة عن كل بلد فيه إسلام ومسلمون، غير أن الأمور قد تبدلت منذ ذلك التاريخ (تاريخ إصدار الكتاب).

وجدت حوادث لا حصر لها، وبرزت للوجود دول إسلامية عظيمة كإندونيسيا وباكستان والمغرب وتونس وليبيا ودول أخرى فى طريقها إلى الاستقلال، فمن الضرورى جدا ملء هذا الفراغ، وسد هذه الفجوة، وتسجيل أحوال كل بلد إسلامى منذ ذلك الوقت حتى الآن، وعمل ملحق لكتاب العلامة شكيب أرسلان.

«عن البعث الإسلامى»

الفهرس

In the name of God, the compassionate, The Merciful

This is the second issue of al-Azhar Review with an English supplement. It is an honest attempt to start a new era in the history of this review to satisfy the dear desires of our English readers. We most sincerely hope that this humble attempt will meet with their kind satisfaction.

All suggestions will be received with utmost warmth, and we invite our readers to write to us with their impressions and serious remarks to help keep this review constantly improving and continually progressive.

Hammudah Abd al Ati

CONTENTS

much of their despotism but ultimately awake from slumber to resist and to oppose them. These nations, however, can become resisting and their voice can be listened to and their dispute may be propagated allover the world.

Conversly, when the Russians exploit a country there is no place for resistance or uprising save the sword of the exploitors.

Their policy, then, of annhilation and extirpation will not be more merciful than their's in their own homeland. Where is Bulganin? where is Peria? Where is Malinkove? Where is Molotove? where are the hundreds and thousands of the ex-colleagues and compeers whose reckoning and resistance were feared of some day?

Such a ruler who removes those persons out of his way in the day-light can not leave in the conquered countries even a single head to be raised against him asking for reckoning and desiring for resistance; but he will paralyse their activities and make them cripples.

This is a brutal and devilish monster that besests countries in this age, and they will not be safe unless they put it to death. That will be " the liquidation of the last vestige " of the doctrine which infulunced a nation by means of terror and misleading, and desires to impose its control upon all nations! God forbid such a thing.

be exercised by a govermmental machinary based on terror and misleading by which machinary the sole ruler will be endowed wih powers which will never exist and had never been granted to the most despotic rulers as Nyron and Jankiz khan.

This is a fact exposed to us by the actions and words of the rulers in Russiaa, needless to refere to the opinions of the antagonist or the critics from other countries.

Upon the foundations of such a doctrine a whole nation, from the baby to the old man over fifty, was built. Nevertheless, its rulers are still traitors and unjust, and terror and cheating are still smoothing the way for its absolute dictator to execute souls, to discredit honour and to distribute sustenance just the way he likes.

It is abvious that misleading here depends upon terror and does not depend on the subtle tactics which may deceive those who are not abliged to accept submission or capitulation. That is bcause their assumption, the unjust and the subdued alike, is weak enough to be rejected by a listener free from fear nnd foolishness. And this is not the reality which has been unveiled by the result of the Communist rule in Russian countries only, but it is also the fact exposed in all nations influenced by Russia and considered as its satellites. A quick glance on the Russian colonies and quasi Russian colonies is sufficient to prove that Russians do not inpose their domination over a country which is seperated by a geographical barrier.

All their colonies and their semi-colonies in Asia and Europe are situated close to them to be within the reach of the armed terror, and they could not replace the armed terror or the armed spying with misleading only.

Thus Tito in Yogoslavia got out of their grasp and even criticised and mocked at their systems and teachings. He challenged them and acheived success in his challenge, thongh he holds the principles of another social ideology.

So long as these "anti imperialism and exploitation Communists," as they pretend to be, are able to subjugate a foreign country by the force of weapons, they will impoee frustrations and terror upon it in such a manner that could not be tolerated by the worst imperialists in the past centuries nor in this twentieth century.

All the nations encroached by non- Communist imperialists suffer so

His contemporary succcssor, Khrushcheve, claims that Stalin was a despotic tyrant and unjust strangler who shed the blood of innocent people and fabricated lies against the honest servants of the nation. But, paradoxical enough, this very successor to Stalin, Khrushcheve who is making these accusations against Stalin did the same as soon as he got into power.

Shortly afterwards he did with his collaborators in government what Stalin did with his own. Killing, exciling, dismissing and hurling accusations of treachery are very popular elements in Khrushceve's treatment of his colleagues and collaborators, although his compaign against Stalinism, which he accuses of the same crimes, is still going on.

Was his leader Stalin just or unjust? And is his successor Khrushcheve truthful or otherwise? Both cases are the same. If Stalin were just, there were thousands of traitors, wicked and corruptive from amongst Communist leaders. On the other hand, if he was unjust there existed a ruling government which resorted to a policy of terror, cheating and misleading. As regards Khrushcheve, truthfulness, if it ever happens, is an agony, and his dishonesty, which often happens, is a horrid calamity. And his blind imitation of Stalin, who has been severly accused and condemned by him, gives an add proof of the evil which has subterranian roots in all machinaries of the Communist government. Because his truthfulness refutes the basic principles of the Communist doctrine, it enables us to see that the Communist reign empowers the despotic ruler with such tyranny that had never been granted to the most oppressive caesars in the darkest reigns of oppression and exploitation. The worst is that Khrushcheve ejects lies against a leader to a nation and to a government without being disclosed or ashamed.

Thus, it is not difficult for him to continue, shomelessly, the very policy of all these men which he, contradicting himself and truth, disapproved.

However, it is inevitable to conclude that Communism bonkrupted thoroughly in its social policy; because it is a strange and inpractical doctrine. And because the Communists in a whole Communist nation failed to introduce, after fory years of control, a just ruler but a tyrant, a liar and a murderer whether he is in power or is deposed. And that the Communist system is, fundamentally worse than all systems ever known in the history of despotism and capitalism. This is because it is to

because the Communist Revolution declared from the very beginning a slogan:

" Whoever is not with Communism is against it", and annihilated all those who hesitated to support it although they showed no resistance to it. But whether this assumption is probable or otherwise it does not lead to any effective result. All it can lead to, however, is that the number of the heartedly opponents of Communism is limited to a few thousaands cut from all means of authority and influence among millions of men and women with strong control over all actions and opinions.

More than a hundred and fifty millions, all born in the domain of Communism and isolated from the world's doctrines, have been living in the Communist atmosphere for a period over forty years

This " ideological uniformity " is unprecedented in the whole history of nations, and this is a chance given to the Communist Revolution the similar to which chance has never been accorded to any other social or political movement. And had the Communist doctrine been validly based on the pillars of freedom and security of rights, it should have now been in an utmost state of stability and self-confidence, and all its leaders should have been effecient, capable in their leadership, sincere in carrying it out and truthful in their belief in it and in managing its affairs. Otherwise how much time would be sufficient to supply effecient, sincere and faithful leaders ? And from what ideology would Communism borrow them if it is unable to bring them up in its own land among people ranging from the age of twenty to that of sixty years ?

Yes, the Communist doctrine should have to-day a free and stable government run by effecient and sincere rulers. But is this the actual situation in the Russian countries ? Is this the real case taken from the statements of the Russian people themselves or of their rulers, not to mention the statements of their enemies and opponents ?

No, that is not the actual situation or the obsrevable reality in Russia, as has been constantly described by the Russian rulers from the Stalin reign to that of Khrushcheve the first and the last.

Stalin put to death hundreds and thousands because he accused them of treachery, sinister intentions against the people, tresspassing on their interests and violation of their constitution.

A Doctrine in BanKrupcy

Communist Materialism Incapable
of Survival

by

ABBAS MAHMOUD EL-AQQAD

Forty - two years ago, just before the end of the first World War, Communism prevailed in Russia. All Russians to - day, men and women, were born and brought up in the Communist environment and influenced by the Communnist principles and beliefs. They were isolated, from their infancy to their adulthood, from any other doctrine opposing or obstructing Communism except those who are about or over sixty years old.

Those of them who reached forty years were born two years after the declaration of the doctrine, so they did not know any doctrine other than Communism since they learnt how to speak.

And those who reached fifty years were, at the declaration of the doctrine, eight years old, so they were first educated in the Communist schools, and the first thing to hnow was how to learn the doctrine and live up to it. Likewise, thoes approaching sixty years were, at that time, eighteen years old of which they spent three years during the first World War, and when they were forty years old and then fifty and over, they were implicitly and exciplicitly Communist. They were taught and educated in such a manner as to live a Communist life and konw nothing about any doctrine different from or contradictory to Communism.

A nation with all its population, men, women, old, young and children, is in a state of absolute submission to the Commumist call and education, and hears nothing against Communism.

So if we assume that the Communist Revolution spared the lives of its non - supporters, this would be true only of some unorganized individuals of sixty years old or over, who cannot oppose the doctrine by introducing any alternative to it or by exerting any influence against it or having any effective and practical means of competition with Communism. Yet this assumption is hardly probable

guidance. Likewise, that which raises to the Most Sublime Value in existance, namely God, is the religion. And Islam is both the religion and the guidance. It is very probable that a society may advance in material civilization, yet the very society stands, from the human point of view, underdeveloped. Science may make progressive steps in the fields of physics and mathematics, while the human values of scientists and their society retrogess.

When egoism and individuality dominantly prevail, and when the social ties and belief in God weaken or disappear, there will be no qualities of any high standard of humanity. And if the material and industrial civilization leads to conflicts and clashes, to aggression, there will be no virtuous standard of humanity among the people of such civilization. And if the physio - mathematical science is used for destruction and annihilation and to originate fear and instability, then the people of this science are not of any virtuous or high standard of humanity.

Surely, man is different from the tool. Unlike the tool he is endowed with freedom and will. The tool cannot work by itself without craftsmanship, without the conductorship of man. And his conductorship becomes a good one when he comprehends values, knows good and evil, appreciates brotherhood and co-operation, and, finally, when he knows God.

Piety, which is the keeping of duty to God, is also different from the physio-mathematical science. The former consists in kindness, mutual mercy, patience, persistence in good and other valuable ideals. But the latter is useless except when it is accompanied by piety as explained just now.

Islam guides man to reach the virtuous standard of humanity wherever he happens to be : in a desert or in a city, in a materially civilized society or in an uncivilized one. Islam, as God has described it, is the mission of chasteness and purification from the domination of animality. It is the mission of wisdom represented in the conception of values and ideals. It is the mission of development from deviation to straightforwardness in the human behaviour. Islam is all that everywhere and all the time for all people, whether they are Arabs or non Arabs, lived in the past or will come to life in the future generations. " He it is Who has sent among the unlettered ones a messenger of them, to recite to them His revelations and to purify them, and to teach them the Scripture and wisdom, though heretofore they were indeed in error manifest. Along with others of them who have not yet joined them, He is the mighty, the wise" (Surah. 62, V. 2-3).

education guides man to these values, then it is Islam taking an educational formula.

And if education guides him to values other than the unity of God, it does not raise him to the highest values, and so he falls short of reaching the virtuous, perfect standard of humanity.

Besides that, Islam is not only a conductive system but is also a religion. It stimulates man first by belief in God and, secondly, by the fear of his anger and requiting. Through such fear of God, man develops in himself a conscience by which he is intrinsicly motivated to conceive values and be thoughtful of them, and to act according to this thoughtfulness, so that his action will be a good one.

Here in religion, man's heart is filled with faith, and then his mind sets off to conceive values "And observe your duty to God, and God will teach you," (S. 2, V. 282). But in education guidance is to the mind and conception, not to the heart, and rarely does it develop a heart filled and occupied by faith. So educational systems cannot be a substitute for Islam; they are insufficient.

Islam and the Civilized Society :

It may also be said, as has been frequently said, that Islam is a religion suitable only to the primitive people, for it helps them in their development to reach a comparatively high standard of humanity. And this is why it was good for the tribal communities of the desert, while the civilized society is in no need for it.

But let us ask this question : What is the civilized Society referred to here ? Is it, for example, our contemporary society of material and industrial civilizatin ?, the society of physio - mathematical science ? Truly, material and industrial civilization helps man to attain a high standard of living, but it is incapoble of elevating him to a high standard of humanity. That is because it does not exercise its influence in the sphere of values but in the range of matter and tool. Physio - mathematical science plays its role in discovering the univrsal forces and does not treat human values. It may even attract people with material power to ridicule the obstract values and make mock of them.

There is no necessary connection between the standard of material civilization and that of virtuous and revered humanity. Nor is there any necessary connection between the physio - mathematical science and the human values. That which elevates to the concception of human values is

All forms of duty and worship that Islam has enjoined aim at ascertaining these three values : Liberty, the sound conception of society and the unity of God. So if we reflect on fasting, we shall realize that it is the worship which leads to liberty and choice, because it results in freedom from the domination of the instincts and bodily desires and makes room for the will.

Likewise, giving alms and pilgrimage are two forms of worship which lead to the awakening in their performers of the sound conception of society and its survival. Prayer, on the other hand, is the worship that emphasises belief in the unity of god· The praying person's utterance: "God is the greatest" together with his spiritual and sentimental experience of what he says in both loud and silent expressisn of belief in the unity of God.

So we find that Islam guides man to all ualues and abstracts and puts in its guidance emphasis on the values of freedom and human will, the sound conception of society and finally the value of the unity of God. These three values portray the virtuous, sublime standard of humanity, and without their attainment man remains humanly immature, because he will be then either under-developed or in constant conflict and fluctuation between his instincts, egoism and animality on the one hand, and his elevation to the high standard of humanity on the other hand.

The Glorious Qur'an most eloquently describes the effects of the Islamic guidance in elevating man from a lower position to a higher and more magnificent standard. It says : " Is he who was dead and We have raised him to life, and set for him a light wherein he walks among people, as him whose similitude is in utter darkness whence he cannot emerge ? " (Surah. 6, V. 122).

Thus the person who has not been raised to the virtuous human standard is dead and has no human life, whereas the one who has been raised to such a standard is alive and active, and walks among people in the light of this standard.

Is Education Sufficient ?

It may be argued that education can replace Islam and produce the same results in elevating man to the virtuous standard of humanity and the sublime values.

But let us ask : What sublime values does education guide man to ? Does it guide him to liberty and choice ? to the sound conception of society ? to the unity of God ? If

reproduces, begets and is begotten. It exhalts the aim of his worship for above all material ends.

Islam advocates the unity of God: " And your God is One God. There is no God but He, the Beneficient, the Merciful " (Surah 2, V. 163).

" And He is God; ther is no God save Him. His is all praise in this life and Hereafter, and to Him you will be brought back " (Surah 28, V. 70).

The attitude of Islam in this point is not demonstrated only in positive terms as just mentioned, but it is demonstrated in negative terms as well. It emphatically rejects belief in more than one God as the Qur'an says : " They surely disbelieve who say : God is the third of three ; when there is no God save One God" (Surah. 5, V. 73). It also rejects the belief that He has a child : " The Originator of the heavens and the earth ! How can He have a child ? when there is for Him no consort, when He created all things and is aware, of all things ? " (Surah. 9, V. 101). "And say : ' Praise be to God, Who has not taken to Himself a son, and Who has no partner in the Sovereignty, nor has He any protecting friend through dependenc. And magnify Him with all magnificence " (Surah 17, V. 111). God, according to this point of view of Islam, is neither tangible nor is He visible. " Vision comprehends Him not, but He comprehends all Vision" (Surah 6, V. 104). The Glorious Qur'an summarizes the qualities of Goodhood in this respect as follows : " Say : He is God, the One ! God, the eternally besought of all ! He begets not nor was begotten. And there is none comparable to Him" (Surah 112, Vs. 1 - 4). Thus the unity of God the worshiped is pure and absolute, and His difference from the tangible and the visible is plain.

We have already mentioned that the distinctive quality of man is mamifested in his apility to conceive, and that this conception develops from sense perception of the tangible and ends up with the conception of values and abstracts. So if man attains by his conception to a sublime value, which is the assembling centre of all values, and believes in it as the ultimate culmination of all values and sensible objects, then his conception rises to the highest level, and then his human standard reaches the highest grade. At this stage he would have comprehnded the whole being. He would have comprehended the basis of being represented in the tangible scattered particles and also what is beyond these particles of values. Finally, he would have comprehended the most sublime value in existence represented in God, the One.

faces towards the East and the West; but righteous is he who believes in God and the Last Day and the angels and the Scripture and the prophets; and gives wealth, in spite of his love of it, to kindred and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slaves free; and observes proper worship and pays the poor-due. And (righteous are) those who keep their treaty when they make one, and the patient in distress and adversity and time of stress. Such are the dutiful" (Surah 2, V. 177).

Mutual help, therefore, in belief in God and the rest of the invisible ideals, in giving wealth, in spite of one's love of it, to those who need it and performing prayer, in paying the poor-due and keeping the treaty, in patience at times of distress and adversity, - such help leaves no place for conflict and clashing among individuals. Nay, it develops in them brotherhood, love and solidarity. Then the believers stand like the bricks of a solid structure with each one sustaining the other. And this is the farthest distance that man can reach away from the effects of his individuality and egoism to approach the sublime standard of humanity.

Conversely, man's acceptance of the prohibition of extending help in sin and aggression represents the same thing, namely, turning away from egoism and individuality and reaching the high standard of humanity. This is because rash leaning towards sin and aggression is one of the most specific features of human childhood. If somebody points to another and shouts a "thief"!, this will be sufficient to summon all the boys of the district and make them unconsciously hasten to the person pointed to as a thief and hurt him. But such boys can hardly assemble and hasten to abdicate their possessions or allow others to share these possessions with them.

(3) Islam and Godhood:

It has been clear so far that the Islamic guidandce helps man in reaching the purely human standard; as it helps him to excercise his liberty and choice, and to become a member of a co-operative society in which egoistic conflicts and individualistic clashes cease. This is even clearer and more vivid in the sphere of Divinity and belief. In this respect Islam helps man to be of pure and unstained humanity. It keeps him away from being a worshiper of any tangible object, from being a pagan or polytheist. It makes him inaccessible to wrong imaginations with regard to Divinity and the ultimate aim of worship. It keeps him safe from imagining his God as a personfied being, who eats, drinks, marries,

(2) Islam and the Conception of Society :

By now it has become clear that Islam guides man in such a manner as to draw his attention to abstract meanings and make him desirous of ideals, so that his rash leaning towards the instinctive behaviour of individuality and egoism may be mitigated. Among these abstract meanings is the conception fo society, its rise and preservation. The conception of society consists of solidarity among a group of people who mutually recognize their co-existence and jointly endeavour for common aims. The rise of society is possible only with the emergence of a vivid consciouaness of solidarity among the individuals, and with a faith deep enough to prevent conflicts and aversion. The preservation of society is dependent upon the maintenance of this faith and consciousness together.

The purpose of the Islamic society is clearly defined in the Holy Qur'an. It is a pure faith in God and devotion of one's life to Him and for His sake. " The Believers are those only who believe in God and His messenger, and they doubt not and struggle hard with their wealth and their lives in the way of God. Such are the truthful onse " (Surah. 49, V. 15).

By so defining the purpose of society and life, the Holy Qur'an does not derive its definition from any material source or base it on any tangible thing or view it with any sensible object. But it defines this purpose as the most sublime value in the whole being, namely, God, golorified be He, Who is the centre of absolute perfection in all forms represented in the highest values: in His ability and Mercy, His creativeness and kindness, His goodness and righteousness, His wisdom and powefulness, etc.

Through the Qur'anic definition of society in this manner, Islam elevates individuals to the high standard of humanity. The first step is the very making of the definition of society as such, and the second is the explanation of the conception of society in immaterial and intangible terms.

Not only does the Qur'an define the conception of society but also the means of its foundation and survival. This is explained in the words of God: " And help one another in sin and aggression, and keep your duty to God. Surely God is severe in requiting (evil) " (Surah 5, V. 2).

Moreover, the Qur'an defines righteousness as follows: It is not righteonsnss that you turn your

ease as well as in adversity and those who restrain (their) anger and pardon men . . . " (Surah. 14 V. 132 - 133).

So it calls upon the believers explicitly to be of free will and choice. And as long as the effects and domination of the instincts cease, there is free will which is the result of choice.

Thus we see that Islam's attitude towards individuality and egoism is to guide man in such a way that his human quality in its highest form masters his behaviour· This quality is the ability to conceive the invisible and the unseen, the abstract values and the human ideals represented in justice, the doing of good, and refraining from indecency, evil and wickedness. They also include the safeguarding of honour, observing the consecration of the property and respecting rights of self.

Islam with its guidance to man awakens his conscience and conducts his attention to these values, so that he may attain them by both his conceptional and perceptional qualities. And when he attains them he is no longer cofined to the sphere of sense perception but will also approach the sphere of valus and abstracts. Here man can conceive *Kind* and *Quality* in addition to his perception of *size* and *quantity* which he has already acquired, Besides that, he can comprehend the *general principle* in addition to the particles scattered in his physical environment and already in mind.

At this stage of his development man stands fluctuating and uncertain between the tangible and the intangible. And here comes the decisive moment in his life with regard to his liberty and freedom of choice: Will he be inclined to the tangible or otherwise ? If he is attracted to *kind, quality* and *the general principle,* he naturally gives them preference. And by so doing he turns his back to the sphere of human childhood, the sphere of the tangible, and marches on to approach the purely human sphere, the sphere of values.

Thus Islam, by glorifying ideals and values, guides man to them. So it enables the human adolescent to mak his humanity triumph over his instincts in the current struggle between them in this stage of his life. And if Islam helps the adolescent to emerge out of this struggle victorious, it is helping him to become a *man* of liberty and free choice, and to be no longer dominated by his instincts.

in the way of God. Such are the truthful ones" (Surah. 49, V. 15) , it strongly exhorts the believer not to submit to his individuality or egoism. This is because the one who sacrifices his wealth and life in the way of God is not the one who is dominated by his egoism or individuality. Such a sacrifice of such a man is based on liberty and choice.

When he has restrained his individuality and resisted the domintion of his instincts refusing to exert any response to them, he then becomes a free, willing man who stands against his individuality and egoism. He becomes liberal.

And so the Glorious Qur'an, when it says : " Surely God enjoins justice and kindness and the giving to the kindred, and forbids indecency and evil and wickedness" (Surah. 16, V. 90) , it urges the believer in God to be free and enjoy his liberty and choice.

This is so because man does not act gustly unless he recognizes the existence of others and regards their rights. Such recognition originates in him from his being self-controled and a master of his instincts. In this we see an impressive demonstration of liberty and choice.

Moreover, kindness mentioned above is not only giving money to others or being charitable, but it is giving money as well as extending magnanimity, knowledge and prestige from one to another without return. Kindness, therefore, is more than mere justice, and so it is based upon freedom and choice and mastering one's individuality or egoism.

Furthermore, the giving to the kindred also manifests liberty and choice; because the giving to the kindred, who are in most cases spiteful, is not only a giving without return but also a giving that there may be reasons to suspend it. Thus he who gives his kindred clearly illustrates his choice and freedom of action, and consequently shows his firm command over his egoism and individuality.

If man yields to these principles and refrains from indecency, evil and wickedness, his yielding will be expressive of his free will and choice because he, then, will be ultra egoism and not subjected to his individuality.

Islam urges the believer to restrain his anger and to pardon others in spite of his ability to retribute, and emphasises that by the verse "And hasten to forgiveness from your Lord and a garden, as wide as the heavens and the earth ; it is prepared for those who keep their duty : Those who spend (in the way of God) in

the instinct and the perception is that of adolscence or adulthood, it is the decisive phase in man's life which leads him either to maturity or continuance of the stage of childhood which is nothing but animality in human disguise.

The adolescent man is in pressing need for help to make the conception, the specific quality of man, triumph over instinct and its influence. He needs help to be trasferred:

a — From acting and being motivated by instinct to a free man having the liberty of choice.

b — From an individualistic and egoistic to a sociable man participating with others in the course of life.

c — From an incessant controversial to a co-operating and brotherly person.

e — From a pagan and polytheist to a believer and monotheist.

F — From being an adorer of world lust or self-guarding against material harms to a sacrificing man, who devotes himself and his property to God.

The Role of Islam in This Improvement:

Whatever assists the adolescent to attain this improvement is that which elevates him to the highest standard of humanity.

Thus if there is a conductive motive to stimulate him to become (a) a free man of choice; (b) a useful member of a brotherly and co-operative society; and (c) a monotheist whose God is invisible, has no associate and neither hegets nor is begotten, then and then only that motive is man's assistant in reaching a sublime level of humanity. It is the assistant that leads him to his very human and natural quality, which quality distinguishes him from animals.

Here the question arises: Is Islam that assitant? The answer to this may be found in the following pages.

The Attitude of Islam towards Freedom and Choice:

Freedom and choice, as we have mentioned earlier, are not libertinism or unrestrictedness, but they are the ability to make judgements and give preference. The evidence of such ability is not to be blindly induced by one's individual and selfish interests. When the Qur'an describes the Believers by saying: "The Believers are those only who believe in God and His Messenger, then they doubt not, and struggle hard with their wealth and their lives

or orders, and giving preference to what he chooses.

So long as the instinct prevails and since perception is limited by sense, man misses the power of conceiving the quality, not to speak about taking it in to consideration and giving preference to it. And what looks like liberty and choice in the sphere of the childish man's behaviour is nothing but the rashness of instinct taking the form of liberty and choice. And this is not liberty, and it is better to call it libertinism.

The handsome demonstration of what we mentioned is that man of the primitive tribes is mor motivated and agitated by explicit motives than by his free will which is the result of analysis, comparison and preference.

The primitive man who is a mere child does not sacrifice himself or give what he possesses unless he has been obliged and enforced to do so.

Similarly, the child in the mature society does not give what he has out of conviction because he admist no conviction as it is erected on comparison and preference, liberty, choice and free will.

"Perception," the spicific quality of man and the cause of his superiority to animal, begins in the child's life in an immature form, but it may get advanced and promoted if there is a means to help in its growth and advancement to overcome the mighty and mastering instinct. That is why the sophesticated or the civilized society interfers to make a proper atmosphere concerning the environment, home and school to cultivate quickly the perception on the one hand, and to weaken the effect of the instinct, or rather, to sublimate it on the other hand.

And when man's perception is elevated beyond the tangible entities of size and quantity, to the Abstract, Kind and Quality, then this man traverses the stage of his childhood to face a new one of conflict between instinct and perception in its highest form and that is abstraction

The transformation of man's perception from the tangible to the abstract can be judged by the answer he gives when asked "who is the father?", and if he answers by saying that the father is he who has the quality of fatherhood, then he is a mature man. But if he answers by pointing to his father, then he is still in the stage of human childhood, and if he continues keeping this behaviour he will be considered as a backward and primitive man.

The stage of conflict between

too, worshiped animal and fire, and the same was the case with ancient Greeks.

Thus the primitive man tied his belief to the tangible, and as the tangible surroundings had been multitudinous, the primtive man was polytheist. And because he deified tangible objects to gain something from them or protect himself by their aid and against harms, the primitive man's worship was pragmatic and for material aims. So when the ancient Egyptians worshiped the desert, they aimed at avoiding the harmful effects of sands carried by the hot, southerly and seasonable winds. And when they worshiped the Nile, their sole aim was to get the water flood in order that they might grow plants and breed animals.

When tying his belief to the tangible, the primitive man makes no distinction between the human and the non-human. He worships man, male and female alike, as well as animal. He approaches his human deity through desirable offerings of food and the like, and feels no embarrassment or shame of having a deity of human nature who eats and drinks, marries and reproduces children, etc.

In the sphere of art, the primitive man illustrates, through his art, only the tangible things of his environment such as human beings and animals. His art is characterised by simplicity because the scattered tangiblething which he can illustrate are not complicated, and he illustrates them as they are.

Similarly, in the sphere of language we find the names of human individuals derived from names of tangible things like flowers, trees birds, animals and the rest of such things, beyond which the primitive man's perception cannot reach.

Thus the aspects of human childhood can be abridged in two items.

1 — Prevalence and domination of instinct, egoism and individuality.

2 — The perception can be applied only to the tangible and visual entities. According to these two aspects friction and chaos increase among individuals. And the vigilance for mutual affinties comes to an end and Paganism, represented in multiplication of deity and creed, prevails. Such deity may have qualities similar to those of the man who deifies them and who may even deifies beings inferior to him.

Man in the stage of human childhood cannot excersise the liberty of the mature man, because human liberty is nothing but man's "choice" which is built upon making dstinction between many mattess or things

ability to conceive, or as the Greeks called it rationality. But, as said previously, this quality is not well-balanced with the instinct at this stage. It is something comprised in perception and feeling and is the motive of conceiving the mutual relations between man and his fellow-man, in additian to his conception of his selfishness and individuality. It is the motive that replaces, in man's life, accidental relation of animals with purpo3eful aims. It is the motive that makes man founds his relation with others according to his will and choice, not at the instance of any external force as in the case of animal aforementioned.

Perception begins to be effective in the life and behaviour of the human being from his childhood, but it is only a certain kind of perception that appears and excercises influence upon him at an early stage of his life. And that is the sense perception which is connected with sensible and substantial things.

This kind of perception transmits to the human being's mind the impressions of what is perceptible in his environment. Then he behaves according to the impressions of these perceptible surroundings, which are transmitted to his mind. And the more the perceptible thing is attractive and effective, the quicker and stronger the human being responds to it. The strong colour, the red for example is more attractive to him than the white or the grey, and so he is more attracted to it than to the others. Likwise, objects of big size are more impressive and more appealing to his perception than those of small size. Hence, he responds to the former more than he does to the latter. Unlike the perceptible objects, the abstract values play no role whatsoever in the life and behaviour of the infant human being; for he acts according to his instincts first and then in accordance with his sense perception which has less impact upon him than his instincts.

Primitive tribes represent in the human society life the infancy of man, and the primitive human being is like a child in his behaviour and perception. He behaves at the instance of his instincts, and his perception is limited to material things only. All this is manifested in the primitive man's beliefs, art and language.

In the sphere of belief, the primetive man deifies tangible, creatures, human or natural. He deifies man and animal, fire and desert, rivers and the like. Ancient Egyptians, for example, deified Isis, Ausoris, the snake, the Nile and the desert. The ancient Arians of India and Persia,

The quarrel arising then among males is good evidence of the fact that nothing but selfishness drove them to quarrel with each other.

As a result of this selfishness of the animal behaviour no ties among the individuals are conceived to be regarded, and no common objectives or joint ends to be aimed at. If afterwards an animal meets another, it is nothing done on purpose but an accident. And if the reproduction of animals contenues, it is because that a male meets a female by chance in a sexual operation. Another result of this selfishness is the continuation of quarrels and struggles among selfish individuals when they meet accidentaly, or when they are driven to meet each other by a mature human being.

In short, the animal is in possession of nothing but instincts, and its instincts are depicted in selfishness and individuality.

The beginning of Man:

Man in the very beginning, or in the starting point of his development is an animal having the potential qualities of a mature, human being. He is actually an animal but well-prepared to be distinguished from animals. Nevertheless, he cannot in fact be distinguished from animals unless his human characteristics appear gradually one after another.

In the beginning of his life man is a child, and the starting point of his maturity is the "human" infancy. The human child behaves almost like an animal. He is both selfish and individualistic. He turns to his mother only for egoistic purposes as to satisfy, for example, his hunger or his need for care. And this is why he turns to his mother more than he does to his father; because his father does not response to any of his direct needs in this period.

The human child is he who quarrels with others as a result of his egoism and individuality. If, supposedly, two toys of the same kind and size were put together before two children and you asked them to take one toy each, the two children would quarrel and each one would try to take the two toys for himself. And if a third person interfered to take a toy from the child who has taken the two and give it to the other, the one from whom the toy was taken would cry and weep, and would probably show gestures of anger, although he is not the owner of the two toys.

Because the child is by nature a human being, a certain human quality gradually manifests itself in him besides his instinctive behaviour, and that is apprehension or the

animality; because the animal is motivated only by the instincts. Thus the animals' behaviour is merely a reflection of their simple and instinctive motives; while man's behaviour is motivated by both his human and instinctive motives. The Greeks defined man as a rational being, a reasoning animal, and this definition is a clear expression of the two motivating and entangled powers in man. Thus the behaviour of man is neither a reflecion of only one of these two powers nor of the two separated from each other. But it is a reflection of both powers amalgamated together. Therefore, it is said that man is originally of a dual nature and animal is of a simple one. So the bringing up of man aims at making his dualistic nature harmonious unlike the taming of animal which takes care of only some of its instincts.

This is because the difference between savage animal and the tame is that the latter's instinct of self-defense weakens by the effect of taming and inherited qualities, and thus becomes easily controlled by man and irresistably subservient to him. Conversely, the very instinct of the former animal grows stronger and freer out of man's control and away from his observation. That is because the savage animal, unlike the tame, has not yet been taught by man or brought under his command; for man is the only tamer of the animal.

The instinct of self-defense in the savage animal is the same as that of the tame, and there is no difference between them, so far as behaviour motive are concerned, except in the instinctive sphere. And if the behaviour of the animal clearly depicts an instinctive motive, then the instinctive behaviour is the animal behaviour and vice-versa.

The most peculiar quality in the animal's behaviour is individuality or selfishness. It does not recognize kinship ties nor fatherhood nor sonhood nor the like relations, not to mention family or community bonds. And in all the animal's instinctive actions the animal nature discloses its character which is selfishness and individuality.

This character appears also in the sexual intercourse, as the male animal does not communicate the female for the sake of species preservation but for selfish ends and individual purposes. The female stimulates the male which hurries to it and then pays no attention to the intercourse they had some moment ago. Such selfishness is clearly demonstrated when the female animal agitates more than one male at the same time and in the same place.

Islam The Religion of the virtuous standard of Humanity

by

Dr. Mohammad El-Bahay

Director General of the Islamic Cnlture Department

al-Azhar University

---

(1) The Childhood of Humanity:

Man undergoes evolution in his humanity as well as in his physical growth. But his physical growth is not necessarily followed by improvement in his humanity. Often a man may be physically well-built and become a father of more than one child and a husband of more than one wife, nevertheless the same man remains, from the human point of view, under-developed.

Man's development in humanity is subject to the degree of ridding himself of his instinctive, primitive behaviour on the one hand, and his adaptation to the human characteristics on the other. The development of man's humanity represents ebb and tide at the same time. It represents ebb and shrinking in the instinctive realm, and represents tide and expansion in the sphere of human values. Development of humanity is like abstracting the human values from instincts.

Human values and instincts of the human nature are not balanced in the beginning of man's life. The human values during the childhood of man are like a seed covered by instincts of very wide expansion and very deep effect.

The development of these values is nothing but to help them in their growth and expansion. And the more these values grow in man the more his instincts subdue and cease expansion until the scale of values overweighs that of insticts.

The instincts and human characteristics of man however are not balanced in his infancy as well as in his adulthood. In the farmer stage the instincts overbalance his human characteristics, whereas these characteristics overweigh the instincts in the latter, when he reaches adulthood and maturity.

It should be borne in mind that when we speak of instincts we mean

co-operation and reciprocal exhortation to truth and endurance. It demands mutual responsibility between the individual and the community in the sense that each of these is both responsible to and for the other. In this connection the Qur'an says: "Surely God enjoins justice and the doing of good (to others)." (Surah, 17. V, 79). "Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you" (Surah 49, V.13) "And help you one another unto righteousness and pious duty" (Surah, 5. V. 2.)

As regards common responsibility the Qur'an says: "And from among you there should be a party who invite to good, enjoin the right and forbid the wrong. And these are they who are successful"[Surah.3,verse.103] In addition to that, the prophet, peace be upon him, says:"Each one of you is a guardian responsible (for his dependents) and will be questioned (by God)", and "the attitude of a believer to his fellow-believer should be helpful like the two hands of man which assist each other".

Thus we conclude by pointing to the fact that the world has been driven to destruction and misery as a result of its desertion of this honourable and divine reformation. This desertion has led the world to be strained between the hot, bloody and destructive war-which by nature annihilates everything and destroys all fruits of civilizaiton -, and the terrifying cold war which fills the heart with fear and horrors.

World leaders and statesmen have experienced all ways of reformation in various methods and constant attempts, nevertheless they have not been able to even mitigate human sufferings, fears, chaos and feelings of insecurity.

So I, in the name of faith and for the sake of humanity introduce these Islamic principles of reformation to the conscious hearts and sound minds of religious authorities, social reformers and political leaders, hoping that they will devot their efforts to the service of humanity and its deliverance from pains and terror. I am appealing to these authorities, refomers and leaders alike to renew their pledge to God, follow wholeheartedly His way and restore human relations in a good order; so that mankind may enjoy peace and security, and may joyfully lead a course of dignified life with pleasant excercise of God's blessings of free thinking, free will and free action. And in this field fair competition is strongly demanded. "I desire nothing but reform so far as I am able. And with non but God is my success. In Him I trust and to Him I turn (repentant)" (Surah, 11, V. 88).

And peace be upon those who follow the right path.

Likewise, he may replace water with pure earth when performing his ablution if he fears disease or agravation of disease. Moreover, he may do his prayer at his convenience; i.e., if he cannot stand or sit he is allowed to pray by symbolic gestures by virtue of moving his eyes, or head or heart.

Islam founds its reforms on reality as already mentioned, and reality ascertains that no knowledge is obtainable without good health, and that no noble struggle can be carried out without maintaining this health. This is because health is man's capital and the source of his happiness. And this maxim is so popular that it is often said : "Maintenance of health is preferrable to prerformance of rituals".

Since Islam commands the maintenance of good health in the material aspect, it exhorts man to exert unflagging efforts to attain property through legal means as well. This is meant to help in the establishment of civilization and consolidation of human relations, and at the same time to provide man with fair satisfaction of his wants through agriculture, commerce and industry.

Islam has a sound financial system by which, when strictly follow-ed, man can protect himself against the evils of fiscal tyranny, lavishness and extravagance. It accords man, in the meantime, to enjoy the good provisions he procured as regards diet, adornment and lodging without falling into vicious extremes. It does not escape Islam to draw man's attention to the fact that he is the vicegerent and trustee of property which is God's own and which He grants to whom He pleases, because He is the sole Sustainer.

Hence Islam ordains a portion of the rich's wealth to the benifint of fhe needy classes and common welfare. The Qur'an says in this connection. "And in whose wealth there is a destined right. For the beggar and the destitute" (Surah, 70. V, 24. 25) " And Spend in the way of God and cast not yourselves to perdiction with your own hands and do good (to others). Surely God loves the doers of good" (Surah, 2. V, 195).

Besides this harmonious combination of spiritual and material reformation of man's independent personality, Islam, as regards his social personality, ordains that right and duties should be mutual between the individual and the community, whether it is a private community like that of the famliy and workfield, or a general community, like that of the national society and the human community at large. And to achieve this aim Islam enjoins justice, eqnality,

by the tyranny of rulers and the oppression of the religious authorities. And so man has been given the liberty of thinkiug to understand himself, to appreciate life and to discover the secrets of the universe for his own interest and for the benifit of mankind.

All this is strengthened by the religious duties meant to keep man always thoughtful of God in words and deeds. The result of this is the creation, in man's heart, of mercy and kindness to the poor, the afflicted and the weak. Mercy and Kindness are essential bonds so long as they befriend man with man. Besides kindness, through the worship of God, man is taught to bear patiently the difficulties and pains of life. This patience encourages the Muslim to welcome the physical difficulties of pilgrimage for he goes on pilgrimage with a fervent desire to meet there the kind-hearted, the good doers and the virtuous. Such a convention takes place once a year in a land of glorious past and honourable history as it was the sphere of conveying God's message to His bondmen by the Divinely chosen prophets to fulfill this function. The Qur'an refers to that by saying: "Our Lord, I have settled a part of my offspring in a valley unproductive of fruit near your sacred House, our Lord, that they may keep up prayer, make the hearts of some people yearn towards them and provide them with fruits ; haply they be grateful" (Surah 14, verse 37).

These duties of worship are: (I) the five daily prayers ; (II) giving alms to the poor ; (III) fasting during the glorious month of Ramadan and (IV) making pilgrimage to the sacred Mosque of God.

Thus Islam has introduced faith and worship as a means of spiritiual reformation directed to man's heart and mind, guiding him to the straightest path. And by acheiving this goal, man is completely devoted to God in words and actions to gain His content without going astray. In regard to this point the Qur'an says: "Say: my prayer and my sacrifice and my life and my death are surely for God, the Lord of the worlds. No associate has He. And this am I commanded, and I am the first of those who submit" (Surah 6, verses 163-164).

The Material Aspect:

As for the material aspect, Islam demands the maintenance of good health and enjoins remedy and immunity. It has gone so for in this direction as to commute the religious obligations in cases of disease or disability. For example, a Muslim may break his obligatory fast of Ramadan if he feels unable to continue.

Scripture. Wherby God guides him who seeks His contentedness into paths of peace, and brings them out of darkness into light by His will, and guides them to the straight path" (Surah 5, Verses 15 - 16). "Surely. this Qur'an guides to that which is most upright, and gives good tidings to the believers who do good deeds that theirs will be a great reward" (Surah 17, V. 9).

To achieve the destined happiness of mankind, the message of Muhammad has founded its human reformation on the bases of the actual nature of man as composed of soul and body each of which is entitled to a certain share of enjoyment, and as endowed with an independent personality by which he is tasked with self-responsibility and is a solid brick in the structure of society (his own patriotic society and the human community at large), and finally as having rights and bearing duties according to the logic of his dual personality.

There is no doubt that the happiness of man, according to his nature, cannot be realized without the spiritual and bodily enjoyment, nor without the excercise of both his personal and social functions. And Islam has brought what provides man with happiness in all these aspects. All beliefs, creeds, morals and legislations, laid down by Islam, are a means of this wonderfully harmonised reformation by which Islam has overcome both pure materialism and pure spiritualism. In this point the Qur'an says: "But there are some people who say, Our God, give us in (this) life. And for such people there is no portion in the Hereafter" ;(Surah 2, V. 200).

"O you who believe, forbid not the good things which God has made lawful for you". (Surah 5, V. 87) "Say: Who has forbidden the adornment of God which He has brought forth for His bondmen and the good provisions" (Surah 7, V. 32).

The Spiritual Aspect:

Concerning the spiritual aspect, Islam calls upon man to believe in God, the Creator of life, the source of goodness and the goal that to Him, and to Him alone, man should devote his worship, and on Him, and on Him alone, man should depend for help and rescue. And by so doing man feels his dignity and rejects being submitted to none but God.

Moreover Islam asks man to follow the right way approved by God, which way leads him to happiness both in this life and the Life to come.

Islam by this attitude has freed man's mind from the fetters caused

The Reform of Humanity in Islam

by

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of al-Azhar University

People of this world have two different ways of life : One is that of pure materlalism dealing only with the explicit affairs of life such as acquiring property, power and influence regardless of the means of their attainment and use; the other is the way of pure spirituality solely concerned with solitude, cellacy, fasting, asceticism and the like with complete cutting from the material life. Each of these two different ways, if exclusively adopted, hinders humanity from reaching its aim for which it was prepared by the law of creation, the material elements which are made subservient to it and the wisdom according to which it has been chosen as the manifestation sphere of God's glory and loveliness.

Pure materialism, as we have learned, is the principal factor of tyranny, slavery, humiliation and drastic subjugation committed against souls properties and honours.Similarly, pure spiritualism, as we have experienced, comes to nothing but destruction and disintegration. It impedes the counstructive powers of man by which humanity is honoured from functioning in the fields of thought, will and action. This impediment deprives man of his natural qualities and values, and makes the secrets of the universe remain hidden in the folds of the earth and space of the sky. It causes the loss of the wisdom by which God created the world and man in the form He has chosen and for the purpose He has decided.

Hence, in order that man may not fall a prey to either pure materialism or pure spiutuality, God wisely provided him with complete, comprehensive reformation so as to preserve his prestige, achieve the goal of his creation, enjoy his freedom of thought and will and rejoice at the results of his work armed with faith, assured of justice and protected by security and stability.

The Message of Muhammad :

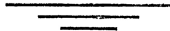
With such reformation, for which humanity had waited long and had been well-prepared, the message of Muhammad has come ; as the Qur'an says : " Indeed, there has come to you light from God and a plain

word of Arabs would have remained one, and the Califate of muslims would have continued to be unifying. Yet the realization of Arab unity was an achievement of which no one had been capable before except Muhammad, and of which no one will ever be capable except a man who follows the guidance of Muhammad : a man who is for others, not solely for himself, for his nation before his family and for humanity after his patriotism, a man on whose tongue the word " I " dies but lives in his conscience to join, in his mind, the entity of his personality to that of his people. Thus he feels the pain of his people because they are the focus of his conscience, conceives their needs because they are the manifestation of his mind, and holds their leadership because they are the expression of his wil.

Such a man with decent self and disinterested inclination is above sins of the people and dirts of the earth. He is not greedy because his aim is far beyond material life, does not hate because his goal is higher than hatred and gives no favouratism for his kindness is broader than kinship. In his shrewdness, persistent personality and high aspirations he proves greater than events and stonger than mishaps. And whenever he takes a decision he carries it out, and whatever object he aims at he attains it.

This is the man who was expected by Arabs for a long time to be for them the shephered who drives out the wolf, the thread that holds the necklace, the guide who carries the light, the leader who raises the flag, the instructor who trains them how to manufacture the needle and the cannon, how to dig the mine and plow the field and how to hormonize between public and private interests.

The man on whom God has conferred all these virtues and merits is the leader. Where, by your Lord, do you find them ? Are they in Abd al-Nasir or in Abd al-Karim ?.



religion, hostile to each other as regards life, with each group claiming to be the safe one. We are three Caliphs at the same time, one Abbaside in Bagdad, one Omayade in Gordova and a Fatimite in Cairo. Each Caliph has his own troubles and offenses supported by evil-doers against his own brother,

The tribal fanaticism which is hooting in Iraq to day, declares, according to the statments of the evil-doers: "Qasim is the only leader" and "The Republic of Abdul Karim can never be a province". By this they mean that the leader is Qasim and not Abdul-Nassir, and that Iraq is too great to be a third province in the United Arab Republic with Egypt and Syria.

The passion for power and desire for authority are the worst diseases of tribal fanaticism and the Communist in both old and modern Orient.

And if we examine the factors of disunity and conflict among Arabs in all stages of their history and all places of their countries, we shall find these factors in the natural desire for fame, autocracy and vice of envy on the part of rulers and leaders.

So if we sincerely wish to expel Communism away from our religion and out of our homeland, we had better remedy tribal fanaticism in the same way as Islam has done.

This means that we should silence in ourselves that voice of egoism, calm down in our minds the stormy caprices and renew our conception of the Islamic principles of altruism, brotherhood, sacrifice and manliness. These Islamic principles are unequivocally stated in the Qur'an and prophetic tradtions: "The believers are brothren" (Surah 29, verse 10), "And they decide their affairs by council among themselves" (Surah 42, verse 38), "And help one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression". (Surah 5, verse 2), "The believer for his fellow-believer is like a solid structure; each part sustains the other", "People are equal like comb teeth", etc. These are sublime examples of peace, order and govenment. They are desired by unhappy and exploited people who aspire to them through revolution after revolution and war after war but do not attain them because of conflicting powers and interests.

Whenever fantical kinship is gone, unity prevails as was the case in the time of the Prophet and his two successors (Abu Bakr and Umar). And had not been for Mu'awiyah who returned this fanatical kinship to strengthen his own power, the

It is nothing but evil ambitions which the devil whispered in the heart of a group of Russian adventurers who suffered Caesarian dictatorship and endured aristocratic enslavement. And as soon as these adventurers brought down the throne of their depostic dictators and destroyed the tower of their subjectors they developed an inferiority complex and were overtaken by hunger for revenge. Consequently, they shared equally the practice of Caesarian oppression and the feeling of nobles' arrogance. They moblized all kinds of production, intellectual, industrial and agricultural for military purposes in order that they might be able to enslave all God's bondmen and make all God's land a fief of their own.

A part of six million Caesars has prepared iron, fire, intranquility, horror, disturbances and chaos to put this plan into practice and attain this aim. Is it possible that benevolent powers may be defeated by this evil and that virtuous principles are overcome by this corruption ? No, our cousins in Iraq and brothers in faith in every country! Arab mentality is long-lived and imperishable.

Islamic faith is so illuminous that it admits no misleading.

The destructive doctrines, whose darkness once prevailed in Iraq were alien to Islam and extraneous to Arabs. The Arab homeland will remain, by its virtue of mentality and faith, insured against every evil and armed against every dissension.

The danger of Communism is not that it is a system or orgnization which rivals the religion of God for there is great differance between light and darkness, sight and blindness.

The danger of Communism lies in that its principal method of propagation, beyond atheism and corruption, is to mortify nationalism and revive tribal fanaticism which is the inhirted disease of Arabs and which has been throughout their eventful history the main cause of all evils, i.e., disunity, controversy and multitudinousness of states.

This same tribal fanaticism motivated the Muslims of Madina (AL ansar) to say on the day of "Saqifah": " One prince from us and one from you ".

It was the evil voice that hovored between Uthman's grave and the centre of Caliphate to instigate Muslims to say: "We are hashimites, Omayades. We are Qaysis or Yamanis, We are Alawis or Abbasids. We are Arabs and cosmopolitanists.

We are seventy two groups boycotting each other as regards

at the price of Islam ?, preferred isolation to unity ?, become subject to a layman, who is puffed up by devil and elated by authority ? and thus, following his whim, as a stubborn horse, who does not pay any attention to the respectable appeal or yield to the restraining briddle ?.

May God forbid you from being, as the Communist say about you, lewd after having been faithful since the believer does not apostatize as long as he has a sound mind. If it is possible for an individual to be foolish, this possibility cannot be applicable to the whole country.

Moreover if you are deceived by the comparison between two systems, then let us remind you, if you have forgotten, that Islam is a Divine system revealed from the Creator of the whole universe. Islam is a perfect constitution for the reform of both the individual and the community of all races, in every time and everywhere. It is a system that advocates the unity of God and ascribe no partner to Him in his creation. It sanctifies all divine revelations, does not make distinction between any of his messengers, fraternises all human beings in spirit and faith rather than in race or native place. It puts on the same level brothers in rights and duties.

Islam does not privilege a class of the society over another nor does it prefere a race or colour to another. It entitles the poor to a certain percentile right in the wealth of the rich payable willingly or otherwise to establish social justice. It adopts a consultative form of government conducted by serious people of sound judgement; so that no despot would be free to rule capriciously and no dictator would insist on his error. It liberates mind, concience and spirit and does not restrict research or restrain thinking. It rejects blind imitation, opposes slavery and enjoins upon Muslims justice and righteousness to non-Muslims who hold beliefs or opinions different from those of Muslims. It joins religion to life to give the concience the upperhand in dealings and empowers faith with the effective role in behaviour.

Islam, in an abstract, is the system that realises human unity and grants no recognition of restricted kinship or limited racialism or narrow nationalhood. It makes brotherhood in faith and gives preference to goodness and cooperation on righteousness and pity.

As for communism, it is not a belief based upon goodness, nor a method founded on truth, nor a message conveyable in a fair manner.

Our Religion in Tribulation and our Homeland in Danger

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in Chief

The Red rulers of Iraq opened wildely the eastern door of the Arab land to Communism and invited it to come in publicly, not in secret. They paved the way for Communism through dragged bodies, hoisted its flag on hanged gallows and placed it higher than the religion of God by means of: tearing the Qur'an into pieces in the streets, murdering learned Muslims (ulama) in the mosques, buying the conscience with gold and terror and fabricating lies and doubts against beliefs.

They made the word of Communism the uppermost with the aid of careless rulers, shameless judges, unsatisfied executioners, cannons sowing death, daggers ejecting poison and horror that make the heart tremble.

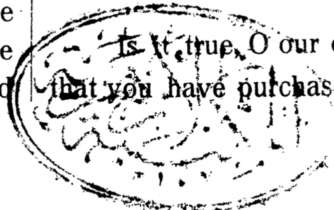
The enemies of Communism (the nationalists) whose number is estimated at nine tenths of the Iraqi people, who struggle for Arab Unity and who are loyal to Arabism, have been reached by the Communist fierce wind, which left some of them killed in the streets and others driven to prison or detained indoors or vagranted in wilderness. The Iraqi rulers aim, through these human offerings, at making the religion pure for the Communist " prophet " (Lenin) whose words to Maxim Gorki read : " We do not mind if we kill three fourths of mankind in order that the remaining fourth may become Communist".

Yes, O Red of Iraq! you have exaggeratingly made the religion pure for the gods of fire, destruction and evil.

Your deeds in Bagdad have been more terrible than those of the most subversive movements that Iraq had ever known, like that of Mazdak, Babik, al-Muqanna, Leader of the Zang, Hulakou and Ibn al-Sabbah.

Thus you are on the verge of diverting the whole country into a prison or a carnage!.

Is it true, O our cousins in Iraq! that you have purchased Communism



مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

يشترك فى التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثانى — صفر سنة ١٣٧٩ هـ — أغسطس سنة ١٩٥٩ م — المجلد الثانى والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد فضيلة فى العرب وفريضة فى الدين

بقلم : أحمد حسن الزيات

تسألنى متى يؤدى المسلم فريضة الجهاد إذا لم يؤدها اليوم ؟ دينه يتقحم عليه الكفرُ محاربيه مع الشيوعية ، ووطنه تتفجر على جوانبه الدواهى من الاستعمار ، وإخوته فى فلسطين أخرجتهم دول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب من سلائل يهوذا . وقومه فى الجزائر تتخطفهم المنايا السود والحمر على متون الجبال وفى بطون الأودية وهم يجاهدون على قلة عددهم ونقص عُددهم ثلاثة أرباع المليون من جنود مستكلبين زودهم الطبع الفرنسى بالرعونة والقسوة ، وسلحهم الميثاق الأطلسى بالصواعق والبراكين ، فهم يدكدكون بها القرى الجزائرية على من فيها من يتامى وأيامى وعجزة . وشعبه فى أقطار العروبة وديار الإسلام لا يزال فى معترك الخطوب ومشتبك المطامع يجأر بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحق ، فلا ينال من الضمير الدولى إلا ما تنال هبّة الريح من الصخر الأصم .

هذه روسيا تريد أن تتدفق فى سهول

الشرق لتنسخ بمذاهبها دياناته وفلسفاته ، وهذه أمريكا تقيم من دونها السدود لتظل مستأثرة بخيراته .

وهـــذه انجلترا تحاول بالقتل والختل والاستبداد والاضطهاد أن تخلى الجنوب العربى من أهله لتستبدل بهم عبدانا من الأفاقين يضمنون لها بقاء الاحتلال ودوام الدولة .

وهـذه فرنسا تطمع بكثرة العديد وقوة الحديد وسطوة النـار أن تفرنس الشعب الجزائرى ليستظل بغير عَلمه ، ويتكلم بغير لغته ، ويؤمن بغير دينه .

وهـذه الأرض كلها أمامك تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة فهل تجد العيون تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على هذا الجزء الذى انبثق منه النور وعرف به الله وكرم فيه الإنسان ؟ .

* * *

وجوابى أن المسلم المؤمن لايزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتاريخه فتح وحضارة ، وشرعـه دين ودنيا ، وحربه جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهـد أبداً ، لاينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره . فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ، والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الأولى أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستعباد والاستعمار إنما هى اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل . وأصـل ذلك الضعف ، والضعف يجافى طبيعة العربى ، وينافى حقيقة المسلم . فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة بلسان الأدب وإلهام الروح ووحى العقيدة إلى العمل سراً وعلنا للاستقلال الذى يحرر ، ثم إلى الألفة التى تجمع ، ثم إلى الوحـدة التى تقوى ، ثم إلى القوة التى تدافع . وهـذه المراحل الوعرة المهلكة التى تؤدى إلى الحرية والعزة لايقطعها إلا الجهاد الفدائى الذى فرضته شريعة الله واقتضته طبيعة العرب .

ذلك الجهاد الفدائى هو بذل المال والنفس فى سبيل فكرة سامية ، كإعلاء كلمة الله ، أو تكريم ذات الإنسان ، أو تحقيق حرية الوطن . وهو فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون فى خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية . والقيام به لايتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس . مثله فى ذلك مثل الأركان الخمسة للإسـلام ، ولكنه يختلف عنها فى أمر دقيق ، ذلك أن المسلم قد تضعف فى نفسه الدواعى إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها ، فيترك الصـلاة والصوم ، ويهمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أوحثه عليها خطيب ، جعل قوله

دبر أذنه ، ولعل السبب فى هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها إلا من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهى لا تزال حية فى نفسه على تراخى الزمن وشدة الترك ، كالنار فى البركان الهادئ ، تسكن ولا تنطفئ ، وتكمن ولا تظهر ؛ حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان ، أو لوطن يهاجم ، انفجرت فى نفوس المسلمين انفجار الحمم فما تذر من شىء أتت عليه إلا دمرته . بذلك نفسر تلك الصيحة الإسلامية العامة التى أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس . وبذلك نفسر هذه الغضبة العربية الشاملة لما يصيب الجزائر اليوم من بغى الاستعمار الفاجر وطغيان المحتل الواغل وعدوان الطامع المغير ، وما تبع هذه القضية من تعاون العرب على إمدادها بالمال والعتاد فى ميادين الحرب ، وتأييدها بالرأى والصوت فى مجالس الحكم . ولم يكن عطف المسلمين على مصر ولا غضب العرب للجزائر لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما كانا لتلك الحفيظة الدينية التى أوحاها الله فى الكتاب ، وبينها الرسول فى السنة ، وفصلها الفقهاء فى الفقه .

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم ، وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب فى الإسلام كسورتى التوبة والأنفال .

ومن المغازى الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ؛ لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة . « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

وللجهاد الفدائى درجة على الجهاد المطلق ؛ لأن الفدائى يبذل ولا يطمع فى العوض ، ويضحى ولا يفكر فى الثواب . وحسبه أن يشعر وهو يسبل عينيه على آخر شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه مطمئنة إلى لقاء ربه .

أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشترى من الله الجنة ، فالتضحية فى ذهنه بيع وشراء ، وعمل وأجر .

أما سر القوة فى المجاهدين فعلمه عند الإسلام وحده . كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة

ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاهم الله لأداء رسالته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت الكلمة « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر فقال لنبيه صلوات الله عليه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز بإحدى الحسنيين : النصر الذى تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للإنسان ، أو الشهادة التى يعقبها البقاء فى الدنيا بالذكر ، والخلود فى الجنة بالروح .

بهذه الروح الإلهية خرج البدريون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف فكبكبوهم قتلى فى وادى بدر ، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى .

وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق القفر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف العدة إلى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر .

وبهذه الروح الملتهبة فى دماء المجاهدين ثبتت بور سعيد بالأمس لمائة وستين ألفا من أعقاب الصليبيين ، وتثبت اليوم الجزائر لسبعمائة وخمسين ألفا من أحفاد نابوليون .

وبهذه الروح القدسية التى تشع فى قلوب المجاهدين الصبر والصدق والثبات والإقدام والإيثار والتفدية كانت قوة المجاهد ضعف قوة عدوه . « فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » .

والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لإكرام خلقه وإعزاز حقه وإصلاح أرضه . وقد سماهم الله الشهداء ، وجعل مقامهم فى الجنة مع الصديقين والأنبياء . هؤلاء هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وهم الذين فتحوا الفتوح للإسلام ، ومهدوا المهود للمدنية ، وسقوا الأراضى المفتوحة بدمائهم الزكية فأنبتت تلك الحضارة التى طهرت النفوس وعمرت الدنيا وثقفت العالم .

فما أسعد أولئك الذين ادخرهم الله ليعز بجهادهم وطنا ، ويحيى باستشهادهم أمة !

أحمد حسن الزيات

المساواة

فى الإسلام وفى المذاهب الهدامة

للأستاذ عباس محمود العقاد

المساواة خير ومصلحة إذا أريد بها أنها تعطى كل ذى حق حقه ، وأنها تحول بين كل إنسان وبين العدوان على حق غيره ، وتسوى بين جميع الناس فى حدود المعاملة .

ولكنها شر ومضرة إذا أريد بها أن تمنع المزايا والكفايات ، وتجعل الناس جميعا كأنهم فرد متكرر لا فرق بينهم فى الصفات ، ولا اختلاف بينهم فى الأعمال والأخلاق ، ولا تمييز بينهم فى التبعة والغاية .

وهذه المساواة على كونها شراً ومضرة هى استحالة تامة من جهة ، وحالة لا يتمناها العقلاء الراشدون لو جاز تحصيلها من جهة أخرى .

فهى استحالة تامة لأن عوامل الاختلاف بين الموجودات جميعا ولا سيما الموجودات المركبة - أعمق جداً من أن يحيط بها سبب واحد أو جملة أسباب محدودة ، ولا سيما تلك الأسباب التى يسمونها فى مذهب الماديين بالأسباب الاقتصادية .

وحسبنا مثل واحد من كواكب الفضاء ونجومه وأجرامه المختلفة ، فليست هناك أسباب اقتصادية كالأسباب التى تعمل فى المجتمعات الإنسانية ، ولكننا لا نرى بين ملايين الملايين من الكواكب نجمين اثنين يتساويان فى الحجم والضوء والسرعة والموقع والتركيب وسعة المدار .

فإن لم يكن هذا المثل كافيا فلننظر إلى مثل آخر من عالم النبات الذى يحسب من الكائنات العضوية .

فخذ من الغابة الواحدة شجرة واحدة ، وخذ من الشجرة الواحدة غصنا واحدا ، ومن الغصن الواحد فرعا واحدا ، ومن الفرع الواحد ورقة واحدة ، فإنك لن ترى لهذه الورقة شبيها قط فى طولها وعرضها ، وشكل استدارتها أو استطالتها وخطوط نقوشها وحوافيها ، ولن ترى ورقتين تتشابهان فى الصبغة أو فى توزيع اللون بين أجزائها .

فإذا كانت أسباب التنوع بين الكائنات بهذا العمق الذى لا يسبر غوره ، وبهذه الأصالة

التى لا يحصرها سبب واحد ، ولا جملة من الأسباب المحدودة ، فمن المسخ المشوه لتكوين الأحياء الإنسانية على الخصوص أن نقصرها على شبه واحد ، وهى على تركيبها المتشعب أحق بالاختلاف من أجرام الكواكب وأوراق الأشجار .

ولهذا تعتبر المساواة استحالة بعيدة كما تعتبر مصابا حيويا غير مرغوب فيه إن تأتى ، وما هو بالمتأتى على وجه من الوجوه .

وكل ما هو مستطاع ومرغوب فيه فإنما هومنع الاختلاف الظالم بين الناس ، وإطلاق عوامل الحياة الحرة التى تؤدى إلى تنويع مزايا الحياة وتوفير نصيبها من الكفايات والصفات ، وتوسيع مداها من الحقوق والواجبات .

وهذا ما صنعه الإسلام ، ولم يصنعه ولن يصنعه مذهب هدام .

* * *

يسوى الإسلام بين الناس جميعا فلا تمييز بينهم فى حقوق الإنصاف وحقوق المعاملة ، ولا فضل لأحد على الآخرين بغير أعماله وأخلاقه التى تجمعها كلمة التقوى ، وهى كلمة تجمع فيها كل ما ينطوى فى أداء الواجب ورعاية الحدود واجتناب المحظورات .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

[الحجرات : ١٣]

وهذا هو الإنصاف أصدق الإنصاف ، وأنفع الإنصاف .

وأما ما عدا ذلك فالمساواة فيه ظلم وبخس للحقوق .

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

[الزمر : ٩]

* * *

« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

[النساء : ٩٦]

* * *

« لا يستوى الخبيث والطيب » .

[المائدة : ٩]

* * *

وينشأ عن هذا التفاوت فى الصفات ما لابد أن ينشأ عنه من التفاوت فى الأرزاق ولكنه لا يبيح لصاحب المال أن يحسبه حكرا له ، ولا يأذن لطائفة من الناس أن تحصر الأموال بين يديها .

* * *

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء » .

[النحل : ٧١]

* * *

« كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

[الحشر : ٧]

* * *

هذه المساواة ، هى الحق الواجب ، وهى الرضا للناس آحادا وجماعات ، فما من مصلحة الإنسانية جمعاء أن يتساوى فيها العلم والجهل، والسعى والكسل، والطيبة والخبث، والفطنة والغباء . وما من أحد يرضى عن هذا التساوى ويطلبه ويجعله أساسا للمعاملة فى المجتمعات الإنسانية ، إلا أن يكون من أراذل الخلق الذين وطنوا أنفسهم على الإخلاد إلى الضعة واستراحوا إلى نصيبهم من الجهل والعجز ، وأضمروا الحسد والضغينة على من يسمو بهمته إلى نصيب فوق هذا النصيب .

* * *

والمسألة هنا ليست بمسألة الأصلح الأنفع فحسب ، ولكنها مع هذا مسألة الممكن الذى لا يتأتى غيره على طول الزمن ، وما تأتى قط ، ولو فى زمن قصير .

فالمساواة التى يدعيها أصحاب التفسير الاقتصادى للتاريخ، لا تتم فى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ولو قبض على زمامه أصحاب هذا التفسير عشرات السنين ، بل هم كلما تقدموا فى مجتمعهم سنة بعدوا به عن مساواتهم الموهومة، واضطروا على الرغم منهم إلى التسليم بالعوامل الحيوية والعوامل الكونية ، التى لا تسمح لحظة واحدة بإلغاء الفوارق والمزايا بين الأحياء .

فلم يمض جيل واحد على مجتمع من المجتمعات التى يفرضون عليها مبادئهم المادية إلا ظهرت فيه طبقات من الرؤساء والخبراء والمديرين والمدبرين يتفاوتون قبل كل شىء فى أحوال المعيشة الاقتصادية من مسكن وملبس وطعام ورياضة ونفوذ وحظوظ من المال والمتاع .

وكل ما يستفاد من تلك المساواة الموهومة أنها سلبت عشرات الملايين قدرتهم على التقدم ، لأنها قتلت فيهم عوامل الأمل والحذر التى تستحث الخاملين والكسالى إلى السعى والطموح ، إذ كان الباعث الأكبر على نفض الكسل والخمول أن يشعر الخامل الكسلان بالخوف من عاقبة الضعة ، وبالحافز إلى التقدم واستثارة ما فيه من حسن الاستعداد للعمل وطلب المزيد ، وإن الملايين من الخلق ليفقدون هذا الحافز الطبيعى إذا أيقنوا أنهم مطمئنون إلى مصيرهم ، عاملين أو غير عاملين .

وينتهى الأمر بتلك المساواة المادية إلى ظلم محيط لا تفلت الأمم ولا الآحاد من سوء عقباه . وأول المظلومين، أولئك الذين يتخيلون أنهم هم الموعودون بالإنصاف والعدل والرعاية، فإن العاجز الذى يحرمه المجتمع حوافز الهمة لهو المظلوم المسكين الذى يبلغ من ظلمه أن يجهل أنه مظلوم ويرضى عن ظالميه .

وأقبح ما فى هذا الظلم أنه نزول يأبى النازل أن يصعد باختياره ، وأنه يسوى الأعلى بالأدنى حيثما استطاع ، فاذا نظر المتساوون إلى حضيضهم الذى يسمونه المساواة لم يجدوا دونه منزلة يهبطون إليها ، فهى مساواة ليس دونها مكان يتسع للمزيد من الهبوط ، وهم يتجنبون فيها الأعلى على الدوام ولا يتجنبون ما هو أدنى .

وإنما المساواة شرف حين ترتفع بالأدنى إلى ما هو أعلى منه ، وحين تعطى الرفيع حقه وتأبى عليه أن يجور على حق غيره ، وحين تكون إنصافاً للعاجز ، لأنها تستنهضه إلى القدرة ، وإنصافاً للقادر ، لأنها تكافئه على المزية ولا تعاقبه عليها بحرمانه من جزائها . وحين تكون فى أعماقها إنصافاً للفطرة السليمة التى فطرت على التفاوت والتنوع من أجرام الفضاء إلى ذرات العناصر فى المادة الصماء ، وذلك هو إنصاف الحق والخير ، وهو إنصاف الإسلام .

ذلك هو الإنصاف الذى لا يحرم الإنسان العاقل روحه وضميره ولا يلغى فيه بواعث الهمة والطموح إلى الكمال ، ونترجمه بلغة الاقتصاد فنقول : إنه يفتح ميدان العمل العاملين ويحميه غوائل الإفراط والتفريط من جانبيه فيأبى على القادرين أن يحصروا الثروة بين أيديهم ، ويأبى العاجزين أن يفقدوا نصيبهم فيوليهم من ثروة الأمة كلها أكثر من ثلاثة فى المائة بين زكاة ومعونة وكفارة ونافلة ، محسوبة فى كل عام من الثروة كلها لا من ربحها الزائد فى ذلك العام .

نوعان من المساواة تختار بينهما الإنسانية فلا تحار فى الاختيار وفيها بقية من الخير .

عباس محمود العقاد

رأى

أعتقد مخلصاً أن العروبة إن اتحدت كانت بقوميتها أساساً لنهضة الشرق ، وأن الشرق إذا نهض كان بطبيعته أضمن للسلام من الغرب ، وأن الإسلام إذا تجدد كان بسياسته أصلح لإقرار العدل من كل نظام ، وأن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أى جامعة .

الرسالة سنة ١٩٣٩ م

الزيات

مع المذاهب الإسلامية

للأستاذ الدكتور محمد البهى

إن المذاهب الإسلامية هى ضروب من الفكر الإسلامى ونحن بحاجة إلى توضيح الفرق أولا بين الفكر الإسلامى والإسلام نفسه .

الفكر الإسلامى ليس هو الإسلام . هو صنعة المسلمين العقلية فى سبيل الإسلام ، وبمشورة مبادئه ، والإسلام هو رسالة الوحى الإلهى إلى رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . والقرآن هو كتاب هذه الرسالة . وفى حكمه ما انضم إليه من أحاديث شفاهية للرسول ، توضح بعض ما طلب توضيحه منه .

الفكر الإسلامى مستحدث ، ويخضع لقانون التطور ، ولعوامل الاضمحلال على السواء ، وكتاب الإسلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد . الفكر الإسلامى غير معصوم عن الخطأ والوهن ، والإسلام معصوم عن ذلك كله . وكتاب الإسلام (وهو القرآن) ـ لأنه معصوم عن الخطأ والوهن ـ له قداسة وله حق الطاعة المطلقة على المؤمنين به . والفكر الإسلامى لا تجب الطاعة له إلا بقدر ما فيه من تمثيل لكتاب الله ولرسالة السماء . ذلك أن هذا الفكر أصالة يخضع للنقد والمخالفة .

الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى هو الفرق بين ما لله وما للإنسان . والصلة بين الأمرين هى الصلة بين شيئين : أحدهما قام على الآخر واستند إليه فى قيامه ووجوده ، ولكن لا على أنه يصوره تماما ، ويكون معبرا عنه تعبير المثل للمثل .

هناك إذن إسلام نزل به الوحى الإلهى . وهناك إذن مسلمون آمنوا بهذا الإسلام ، وترجموا تعاليمه فى سلوكهم وحرصوا على أن يبقوا على إسلامهم فى جيلهم ، كما حرصوا ـ لأعقابهم فى الأجيال المتتابعة ـ أن تظل هذه الأعقاب على هذا الإسلام ، وعلموهم كيف يكونون مؤمنين ، كيف يترجمون إيمانهم بالصورة التى ارتضوها ، كيف

يحرصون على بقاء الإسلام فيهم ، وبقائهم هم أمة مسلمة ؟ .

وتهيئة هذه الكيفيات ، وتحديد معالمها فى عباراتها التى تورث من جيل إلى جيل فى كتبها المتداولة — هى الفكر الإسلامى .
وهذه الكيفيات فى تهيئتها وتحديد معالمها وصياغتها — تختلف حتما حسب اختلاف الأفراد ، والأجيال ، والظروف المحيطة . وربما يصل الخلاف فيما بينهم إلى درجة الفجوة أو المقابلة الواضحة . يقول ابن خلدون فى مقدمته ـ فى الحديث عن الفقه : « الفقه معرفة أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر ، والندب ، والكراهية ، والإباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة . فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : فقه ـ وكان السلف الصالح يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم . ولا بد من وقوع الاختلاف بينهم ؛ ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص ، وهى بلغة العرب . وفى اقتضاءات ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف . وأيضا فالسنة مختلفة الطرق والثبوت ، وتتعارض فى الأكثر أحكامها ، فتحتاج إلى الترجيح ، والترجيح مختلف أيضا ، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها ، وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص ، وما كان منها غير ظاهر فى المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما ، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم » .

ولهذا الاختلاف فى الفكر الإسلامى — لا يعبر رأى مفكر فى اتجاه من اتجاهاته ، ولا رأى صاحب مذهب من مذاهبه ، وكذا لا يعبر رأى المفكرين فى الاتجاهات المختلفة جميعا عن الإســلام تمام التعبير وسيظل الإسلام نعمة السماء ، وسيظل الفكر الإسلامى صنعة الإنسان المسلم على أرض المسلمين . ومن يجعل إذا من الفكر الإسلامى إسلاما كأنه يجعل فى الواقع إسلامات عديدة مختلفة لدين الله الواحد .

ولأن الفكر الإسلامى هو الصنعة العقلية للإنسان المسلم ، كان الفكر الإسلامى فى جملته مستحدثا بعد نزول القرآن والسنة النبوية الشفاهيــة ؛ دفعت إلى استحداثه عوامل ، لا تنحصر فى طبيعة نصوص القرآن ، ولا فى تقييم الحديث من جهة سنده بل تتجاوز ذلك إلى اتساع رقعة المسلمين . وسيادتهم على بلاد كانت لها مدنية ثقافية وحضارة مادية ، وكذا إلى التطلع إلى السيادة والزعامة فى الأمة . وإلى

غير ذلك من العوامل التى من شأنها أن تدعو إلى المحاولات الفكرية لتبرير أمر ما أو رفضه ، أو تدعو فى الجملة إلى الجدل العقلى والمناقشة .

دفع الإنسان المسلم إلى وضع التفسير ، ففسر القرآن أولا بالرواية ، مستندا إلى الآثار المنقولة عن السلف . وهى معرفة الناسخ من المنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى واشتمل التفسير بالرواية - كما يقول ابن خلدون على الغث والثمين ، والمقبول والمردود . وفسره ثانيا متأثرا فيه بلون معين من الحزبية المذهبية كتفسير « الكشاف » للزمخشرى ، وتفسير « الكبريت الأحمر » لمحى الدين بن عربى ويمثل رأى الكشاف مذهب الاعتزال ويمثل ، الكبريت الأحمر رأى المتصوفة المتأخرة فى التجلى والحلول ، والوحدة فى الوجود .

ودُفع الإنسان المسلم إلى وضع الفقه تحت تأثير أحداث الحياة السياسية والاجتماعية وتحت زيادة أمصار الإسلام ودخول غير المسلمين من أرباب المدنيات والحضارات السابقة على الإسلام . وانقسمت مذاهبه المعروفة بين جمهور المسلمين إلى ثلاثة مذاهب : إلى مذهب أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ؛ لأن الحديث كان قليلا بينهم فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه . ولذلك قيل فى شأنهم : أهل رأى . وهم أبو حنيفة وأصحابه .

ومذهب أهل الحديث . وهم أهل الحجاز وإمامهم مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة . ومن بعده محمد بن إدريس الشافعى الذى مزج فقه أهل المدينة بفقه العراق بعد أن ارتحل إليه .

ومذهب الظاهريين. وإمامهم داود بن على وابنه من بعده : ومذهبهم يقوم على إنكار القياس وإبطال العمل به . وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص القرآنية والسنية ، وكذا فى الإجماع . وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ؛ لأن النص على العلة - فى تقديرهم - نص على الحكم فى جميع محالها .

وبجانب هذه المذاهب الفقهية التى عرفت لجمهور المسلمين يوجد لأهل البيت - وهم الشيعة - فقه انفردوا به . وأقاموه على أساس من اعتقاد : أن أهل البيتُ نصَّ على أن تكون « الإمامة » فيهم . ولذلك سميت الشيعة بالإمامية أيضا .

ولا تختلف أصول الفقه عندهم عنها عند جمهور المسلمين فالقرآن هو القرآن ، والسنة

هى السنة . إنما الخلاف فى السنة مثلا فى ثبوت مروى أو عدم ثبوته . وهذا ليس خاصا بالسنة والشيعة . وإنما يوجد بين مذاهب السنة بعضها وبعض . فكم من مروى ثبت عند الشافعى ولم يثبت عند غيره .

وإذن إذا سميت طائفة بالسنة وطائفة أخرى بالشيعة فليس هذا إلا اصطلاحا ؛ فإن الشيعة يعملون بالسنة ، وأهل السنة يحبون آل البيت ويجلونهم .

كما وجد فقه الخوارج ، راعوا فى استنباط الأحكام من النصوص موقفهم الخاص فى الإمامة والتزامات الإمام نحو الرعية ، وواجب الرعية نحو الإمام .

ودفع الإنسان المسلم - عند ما زاحمت العقائد الأخرى العقيدة الإسلامية ، أو عند ما حاولت أن تنال منها - إلى الدفاع عن عقيدة الإسلام ، فوضع علم الكلام .

فالتفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام تصور اتجاهات الفكر الإسلامى الأصيل . وهى تمثل الفكر الإسلامى الأصيل ؛ لأنها منبثقة عن الإسلام ، باستخدام المسلم تفكيره فى تفريعها عنه . ومهما اختلف تفكير المسلم فى تفريعها عن الإسلام فإن اختلاف التفكير لم يخرج بها جميعها - قبل غزو الفكر الإغريقى الوثنى للمجتمع الإسلامى عن الاعتدال فى اتصالها بالإسلام ، ولا عن التسامح بين المختلفين فى التفكير ؛ لأن الجميع أصدروا فى تفكيرهم عن مبدأ واحد ، هو : من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . فالكل مأجور ؛ لأنه يهدف إلى الحق . وإلى حيطة فى الوصول إلى هذا الحق . الكل يهدف إلى أن يكون مسلما فى إيمانه وعمله . والاجتهاد كما يعبر عن حيوية المسلم إزاء الإسلام والحياة معا - أو كما يعبر عن طاقة الملاءمة التى يحملها المسلم ؛ ليوفق دوما بين الحياة التى يعيشها الآن وبعد الآن وبين الإسلام الذى يؤمن به - يعبر من جانب آخر عما يصاحبه من روح اليسر وروح الحرية فى التفكير ، وإن كانت حرية محدودة .

فمبدأ الاجتهاد الذى قام عليه الفكر الإسلامى الأصيل مبدأ بناء ، ومبدأ حركة ، ومبدأ حرية ، وبالتالى مبدأ تيسير ، وفى الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح ؛ إذ الخصومة النفسية إنما تقع عند ما تشتد أزمة النفس وضيقها ، وعند ما يفرض عليها الإلزام والاتباع ، وهكذا عند ما ابتدأ الفكر

الإسلامى الأصيل على أساس من الاجتهاد والاختلاف فى التفكير والنظر .

نجد طابع هذا الفكر الطابع البنائى ، السائر إلى الأمام . ولا تكاد تلمس فيه تنابزا ولا خصومة خارجة عن روح النظر السليم بين المختلفين فى التفكير فيه . ونجد المسلمين آنئذ أصحاب رأى وأصحاب حجة وأصحاب علم فيما باشروه من ضروب التفكير المختلفة .

ولكن الوقوف بالاجتهاد والركون إلى التقليد هو الذى حول ملكة الاستنباط والاستخراج إلى التأسى واتباع ما وضعه إمام المذهب . وإذا حيل بين المقلدين وبين الاختيار فى التقليد ، وبين التنقل فى التبعية ـ فالمنتظر أن تصبح المذاهب الفقهية أشبه بالديانات المختلفة ، فى التعصب لها والجدل حول قيمها بين الأتباع .

إن الخلاف فى الرأى سنة الحياة ، ولكن التعصب للرأى مصدر الفرقة والضعف ، وأساس الحقد والغل . « ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

اللهم إن دينك دين الوحدة والقوة ، دين الحياة ، دين الأخوة فى الإنسانية . اللهم هىء لنا من أمرنا رشدا ، بالرجوع إلى كتابك وسنة رسولك ، وأبعد عنا سوء الفرقة باتباع الهوى، والتمادى فى استغلال الفرقة المذهبية .

دكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

النفوس القوية

كتب عقيل بن أبى طالب إلى أخيه يسأله عن حاله فكتب إليه أمير المؤمنين يقول :

فإن تسألنى كيف كنت فإننى ... جليد على عض الزمان صليب
عزيز علىَّ أن ترى بى كآبة ... فيفرح واش أو يساء حبيب

وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

لقد عجبت منه الليالى لأنه ... صبور على عضلاء تلك البلابل
إذا نال لم يفرح وليس لنكبة ... ألمت به بالخاشع المتضائل

الأزهر ومذاهب الفقه الإسلامى
للأستاذ محمود الشرقاوى

قرأ الناس ويقرءون فى هذه الأيام الأخيرة أحاديث تطيب بها نفوس المثقفين الفاقهين من رجال الدين وغيرهم من الذين يحرصون على أن تقوم العقيدة وأن يقوم رجالها بما يجب عليها وعليهم نحو الحياة العامة للمسلمين فى هذا العصر . أحاديث تطيب بها نفوس الفاقهين المثقفين وتسعد قلوبهم لما فيها من الصدق والإيمان والإدراك العميق الشامل لمشاكل العقيدة ومشاكل المسلمين فى نواح كثيرة من حياتهم الحاضرة .

وهذه الأحاديث التى تدل على الصدق والإيمان والإدراك الصادق ليست جديدة يسمعها الناس من شيخنا الأكبر شيخ الأزهر ويتلقونها عنه لأول مرة ، فقد سمعناها وتلقيناها منه وقرأناها له منذ سنين طويلة . وهو أستاذ فى كلية الشريعة ، أو عضو فى جماعة كبار العلماء ، أو غيرها من اللجان العلمية أو الجماعات التى تعمل للتقريب بين المسلمين ومذاهبهم أو وكيل للأزهر . ولكن الجديد هو أن ما سمعناه من أستاذنا الشيخ شلتوت من قبل . نسمعه الآن منه وهو شيخ للأزهر بوصفه هذا .

وهذه ناحية أخرى يجب أن نشير إليها ونسجلها فى مطلع هذا المقال . وقد أعرف أكثر من غيرى بعضاً من العلماء الكبار يقولون هذا الذى يقوله شيخنا الأكبر ويؤمنون به ويعملون به أيضا ، ولكنهم يؤمنون ولا يعلنون . ويقولونه بينهم وبين أنفسهم، ويعملون به كذلك بينهم وبين أنفسهم ولكنهم يجدون من الحكمة أو من المداراة والتقية وإيثار السلامة ألا يظهروا بذلك على الناس ولا أن يعلنوه لهم ولا أن يعرف عنهم ذلك ويفشو .

وهذا الذى أجد أن لابد من الإشارة إليه وتسجيله فى بدء الحديث ، والإشارة أيضا لما فى تصريح الأستاذ الأكبر ، برأيه هذا وبوصفه هذا ، من دلائل الشجاعة والصدق وإيثار المصلحة العامة للمسلمين والإخلاص للرأى وحده وللعقيدة .

وأعتقد أن القارئ أدرك أنى أقصد بهذا الذى نقرأ ونسمع : التصريحات التى صرح بها شيخ الأزهر فى شأن بعض المذاهب الإسلامية وما يدعو إليه من دراستها وتمحيصها والعناية - والاعتراف بها قبل ذلك -

والأخذ بما تطمئن إليه نفوس الباحثين من آرائها وأدلتها وألا يتقيد الناس بما ألفوا أن يتقيدوا به من حدود هذه المذاهب الأربعة المعروفة .

ولم يكن حديث شيخ الأزهر فى هذا دعوة مجردة ، بل هو مصحوب بالحزم والإقدام والعمل على أن يقوم الأزهر فعلا بهذه الدراسة وما يتبعها . وهذه ناحية ثانية جديرة بأن تذكر وتسجل لشيخ الأزهر ، وأن تحمد له أيضاً .

الثقافة الإسلامية

الأزهر قوام على الثقافة الإسلامية والعربية،وعلى كفالة التوجيه الدينى للسلمين فى كل بقاع الأرض ، ولمن يريد أن يعرف الإسلام أو أن يعرف عنه من غيرهم . والثقافة الإسلامية والعربية هما ذلك الإنتاج الفكرى والعلمى والأدبى الذى يشمل ثقافة هذه الرقعة الفسيحة من الأرض التى انتشرت فيها لغة القرآن وثقافته ، من حدود الصين إلى شاطئ إفريقيا الغربى منذ عرفت هذه البلاد الإسلام — بل من قبل ذلك — إلى هذا العصر الذى نعيش فيه . وتلك الرقعة من أرض أوربا ، شرقا وغربا وجنوبا ، وقد عرفت دين الإسلام وثقافته ، أو بعضا منها ، زمنا طويلا أو غير طويل.

هذه هى الثقافة الإسلامية شاملة كاملة . وهى خضم هائل من المعرفة ، ومن الآداب يجب أن يعرفها الأزهر كلها ، وأن يحيط بها، وأن يدرسها أهله دراسة عميقة دقيقة مستوعبة بصيرة .

ولا أستطيع ، بطبيعة الحال ، أن أعدد ألوان هذه الثقافة وفنونها وآدابها ولكنى أذكر أمثلة من ذلك تكفى لتحديد ما أقصد.

ففى المذاهب الفقهية ، مثلا يدرس الأزهر « كتبا » فى مذاهب الأئمة الأربعة ولكنه لا يعرف شيئا عن مذهب الأوزاعى . وقد كان يسود فى وقت من الأوقات البلاد الإسلامية فى المغرب الإفريقى ، وفى الأندلس؛ ولا يعرف شيئا عن مذهب الزيدية ، وقد كان ولا يزال يسود بلادا إسلامية هى اليمن ، ولا يعرف شيئا عن فقه الشيعة وقد ساد قطعة عظيمة من البلاد الإسلامية ، ولا يزال . وهى بلادها عراقة فى حياة الإسلام وثقافته ولها قيمة كبرى كذلك فى مقومات الحياة العامة للسلمين . ولا يكاد الأزهر يعرف إلا شيئا قليلا من فقه المذهب الوهابى وهو يسود الآن البلاد التى هبط فيها الوحى ونزل القرآن .

ولبعض الطوائف الإسلامية الأخرى مذاهب وآراء فى الفقه والفهم الدينى لا يعرف الأزهر عنها شيئا ولا يدرس طلبته

وأساتذته منها شيئا ، أى شيء ، ناهيك بما جد من مذاهب ونحل ، سليمة أو سقيمة منحرفة أو مستقيمة ، كالبابية ، والبهائية وغيرهما .

ليس واجبا على الأزهر أن يدرس هذه المذاهب وغيرها ليدرك ألوان هذه الثقافة الفقهية وما بينها من فوارق وما تستند إليه من دليل ؛ ولكن ليجد فى كثير منها كذلك نبعاً من المعرفة والإدراك والعلم قد لا يجده فى هذه المذاهب التقليدية التى يقف نشاطه ودرسه عليها . وقد يجد فيها من الآراء المقبولة ما يعينه على وضع الحلول لمشكلات لا نهاية لها يلقاها الناس كل يوم فى حياتهم الحاضرة،ويريدون أن يعرفوا حكم الشرع فيها. وبعض هذه المذاهب ـ كما قال فضيلة الأستاذ الأكبر ـ بحق ـ يستند فى حكمه إلى القرآن الكريم والحديث الصحيح ، ويبدو للمتأمل الذى انسلخ من التعصب والتبعية المذهبية رأيا واضح الرجحان .

أما المذاهب المنحرفة فما أرى إلا أن الأزهر يفيد من درسها بيان انحرافها ودفع شرها عن الناس وعن العقيدة .

المعرفة والألفة :

ليس هذا الذى يدعو إليه شيخنا الأكبر ـ وندعو إليه معه ـ رأياً علميا مجردا ، بل هو ـ مع ذلك ـ ليس مقطوع الصلة بالحياة العامة للمسلمين جميعا ، وليس مقطوع الصلة بمستقبلهم وأهدافهم التى يحرص عليه وعليها المخلصون من حكامهم والمثقفون الفاقهون من رجالهم . فالمعرفة ـ كما يقولون ـ طريق الألفة . وهذه الشعوب الإسلامية على هذه الأرض يدعوها ـ بل يأمرها ـ دينها أن تتعارف وتتآخى وتتآزر ، وأن تكون على الدوام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر كما جاء فى بعض الحديث الشريف ، وكذلك تدعوها مصالحها العليا إلى هذا التآخى والتآزر والتساند .

والأزهر ـ وهو على ما وصفنا من القوامة على حياة المسلمين الروحية ـ من حقه أومن واجبه أن يذكر المسلمين على الدوام بهذه الوحدة التى يأمرهم بها الدين وتدعوهم لها مصالحهم العليا ، ومعرفة المذاهب الإسلامية المختلفة ـ التى يعتقدها ويعمل بها المسلمون ـ سبيل لتخفيف هذه الحدة القائمة من الخلاف بين طوائف المسلمين وبلادهم ، ودراسة هذه المذاهب دراسة نزيهة مخلصة مجردة خالية من التعصب المذهبى والتبعية الفكرية منهج لاشك فى جدواه لتخفيف هذه الحدة وإزالة هذه الجفوة ثم الانتقال منها إلى التصافى والتساند والمؤازرة والحرص على الخير المشترك .

ومصائر الأمم فى هذا العصر أصبحت رهينة بتوجيه السواد الأكبر من الناس ، أى بتوجيه الشعب ، وهذه ظاهرة لا شك فى وجودها ولا فائدة من المكابرة فيها ، وليس بد من الاعتراف بها حقيقة واقعة فى حياة الأمة العربية والشعوب الإسلامية الآن ، وحقيقة أخرى يجب التسليم بها : هى أن هذه الشعوب تهفو بقلوبها وعواطفها إلى الوحدة وتعمل فى سبيل أن تصل إليها ، وهذه الشعوب ، كما نعرف ، ما يزال للدين والعقيدة الأثر الأول والتوجيه الأقوى بين أفرادها وسوادها ومن هنا كانت أهمية الدور الذى يجب على الأزهر أن يقوم به فى توجيه هذه الشعوب عن طريق العقيدة نحو مصائرها العليا وأهدافها . وفى أحداثنا القريبة جداً أكبر شاهد على ذلك وأقوى دليل . فقد رأينا أن الشيوعية الباغية توشك أن تنقض لتقوض الإيمان الراسخ فى بلد إسلامى قريب لنا . وتحاول أن تهدم المقدس من آدابه وتقاليده ومثله ، فلما أحس أهل هذا البلد بما يحاول البغاة أن يوقعوه بدينهم ومقدساتهم ، توجه علماؤه من الشيعة إلى الأزهر يستصرخونه ، وآزرهم الأزهر وشيخه الأكبر ونصرهم بكل ما يستطيع . ولم يمنع الخلاف فى المذهب والعقيدة أن يلجأ علماء الشيعة فى العراق إلى الأزهر السنى . ولا أن يلبى الأزهر السنى دعاء النصرة من علماء الشيعة لأنهم جميعاً مسلمون ، والإسلام ، كالعلم ، رحم بين أهله . ولأن الخطر الأكبر يريد أن يقضى على العقيدة من أصولها والشر واقع ، عندئذ ، على الجميع .

لا أريد أن أتحدث فى السياسة العامة فليس هذا من شأنى اليوم ولا هذا مجالها . ولكنى أريد أن أنبه إلى أن التقارب الذهنى والمذهبى سبيل إلى المعرفة . والمعرفة سبيل إلى الألفة وما يتلوها من الأخوة . وسبيل هذا التقارب الذهنى والمذهبى هو الدرس المخلص النزيه . وهذه ، على ما أعتقد ، هى دعوة شيخ الأزهر التى يؤيده فيها المخلصون الفاقهون ونؤيده فيها بإيماننا ويقيننا وأقلامنا ، إن الحق لا يعرف بالرجال :

وهناك أحاديث أخرى أريد أن أقولها وأفيض فيها لولا خشيتى أن أطيل . ولعلى أقولها فى وقت قريب ، غير أنى لا أريد أن أخلص من هذا الحديث قبل أن أقول للذين قد لا ترضيهم هذه الدعوة أن ما يحرصون عليه من رأى أو قول قد لا يكون خير الآراء ولا أسلم الأقوال . وأن هذه الآراء والأقوال لعلها قد نالت شيئاً كثيراً من القداسة القائمة على الألفة وإدمان النظر لا غير .

كما أريد أن أذكرهم بأن هذه الدعوة لتحكيم الرأى والدليل وتسويده على النقل والمتابعة

نفحات القرآن

الفنون الجميلة فى نظر الاسلام

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) بديع السموات والأرض
(ب) صنع الله الذى أتقن كل شىء

فى القرآن الكريم آيات وآيات، يراد بها تذكير الناس بما أسبغ الله عليهم من فيضه ونعمائه .

وفى القرآن الكريم توجيهات بينة إلى ناحية الإبداع والجمال فى كل ما خلق الله من كائنات، فأسلوب الكتاب العزيز لم يقف بنا عند الامتنان بسرد النعم للاحتجاج بها فحسب ،

ليست شيئا جديدا فى الحياة الإسلامية ولا أمرا طارئا على التفكير الإسلامى والفقهى أيضا . ويكفينى أن أذكرهم بهذه الكلمة القوية المخلصة التى كتبها أبو الفرج الجوزى قبل ثمانية قرون وقد كانوا يسمون أبا الفرج واعظ العراق وعالم الآفاق « واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال ، لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل . كما قال على رضى الله عنه للحارث بن حوط وقد قال له : « أيظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل ؟ فقال يا حارث: إنه ملبوس عليك . إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » (١) .

كما أريد أن أذكرهم بأن هذه الدعوة المخلصة كانت مصر منبتا لها ومنبرا ، وكان رجال مصريون هم دعاتها وروادها والمبشرون بها حتى قال شاعرهم أبو الحكم ابن سعيد البلوطى المصرى هذا البيت الصارخ المستجير من الشعر .

عذيرى من قوم يقولون ـ كلما
طلبت دليلا ـــ : هكذا قال مالك

محمود الشرقاوى

(١) ص ٨٦ — ٨٧ من كتابه : « نقد العلم والعلماء . أو تلبيس إبليس » طبع القاهرة ص ١٣٤ الخانجى ومنير الدمشقى .

بل أهاب بنا كثيرا ، ونبهنا فى قوة إلى تقصى ما فيها من جمال قد يبلغ مبلغ الروعة فى كثير منها ، وطالبنا بالالتفات نحو إبداعها ؛ ليكون من تقديرنا لها استلهام للإيمان من سبيل جديدة غير السبيل التلقينى ، هى سبيل الوجدان والبصيرة ، والاهتداء بما لله من عجائب .

وليكون هذا التقدير غارسا لمحبة الجمال فى وعى الإنسان ، وحافزا على الأخذ بسنة الله فى خلقه ، من الإجادة فى عملنا ، والانتفاع بمواهبنا فى كل ما نتصدى له من شئون .

وفى الآيتين السابقتين - فى مطلع حديثنا - تعريج صريح بالثناء ، والمباهاة بالجانب الفنى - كما نسميه نحن - فيما صنع الله .

فالسموات والأرض آيتان من آيات الله الكبرى ، تشهدان بقدرته - لا شك - وتنبهان العقول والأذهان على عظمته .

والتعبير فى شأنهما تجاوز الإفادة والمباهاة بخلقهما إلى المباهاة بإبداعهما ، وحسن تنسيقهما على نحو ما نراهما من الروعة الباهرة .

ولذلك لم يقل : خلق ، كما قيل فى مواطن أخرى .

بل قال : « بديع السموات والأرض » .

وهذا الإبداع من صفات الله سبحانه ، وذلك مناط المباهاة والتعاظم بالنسبة للجانب الإلهى . وهو أيضا مثار الاستنهاض إلى الاقتباس من سنة الله فيما صنع ، وفيما يجب أن نحاكى صنيعه فى حدود طاقتنا البشرية — ولله المثل الأعلى .

وكأنه تعالى يزيدنا إيضاحا وتوجيها إلى هذا بقوله : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى (جبالا) أن تميد بكم » .

فإذا روعى ما يقترن بالسموات من عوالم أخرى ، وما يتصل بالأرض من كائنات ، وروعى ما قامت عليه تلك الخلائق من تنسيق ونظام رتيب ، وضح لنا من ملامح القدرة ما يزيدنا إجلالا ومهابة للذى خلق وأبدع ، وانقادت مداركنا إلى التسليم بأن هذا - حقا - هو صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وواضح أن هذا توجيه قوى إلى تذوق الفن الجميل ، وحض على الأخذ منه بما يستطاع ؛ فإن الجمال فى كل شىء من تمام النعمة به ، وليس مظهراً ثانويا فيه .

والدنيا كلها نعمة منثورة فى عوالمها ، وتمامها فى جمالها .

ومن هذا كان الامتنان بها وبكل ما فيها حقا لله على عباده ، وأمرا معترفا به فى شرعة العقول الواعية .

هذا — ومما يقال حديثا : إن الفنون الجميلة ضرورة من ضرورات الحياة المتحضرة ، ونحن نسبق غيرنا إلى تقرير هذه القضية ،

وإلى الاعتراف بما للفنون الجميلة من أثر فى إبهاج الأنفس ، ومن شأن فى ترقية الذوق ، وتنبيه المشاعر إلى التجديد فى مناهج الحياة ما استطعنا .

غير أننا نخالف غيرنا - إلى حد ما - فى تفسير هذه القضية ، وفى تطبيقها كمبدأ مسلم به ، فنحن نعتبر الفن الجميل دوحة تتجلى فيها مواهب الإنسان ، ومرآة صافية تتمثل فيها أسرار الطبيعة المكنونة ، وتنعكس عليها حضارات الشعوب الغابرة والحاضرة ونعتبرها كذلك دروسا حية يتلقنها الخلف ليتبينوا منها كيف كانت حياة أسلافهم ، وكيف قامت حضاراتهم فيما قامت عليه من آثار ومآثر ؛ ليتاح للأجيال اللاحقة أن تتخذ من ماضى الأسلاف معالم طريق تسير فى ضوئها نحو أهداف سامية فى تركيز مجدهم التالد والطريف.

هذه نظرتنا إلى الفنون الجميلة ، وبهذا الاعتبار يصح أن تكون صدى لدعوة القرآن فيما نفهم .

ولكن غيرنا ممن خالفناهم يتوسعون فى مفهوم القضية ، وفى تطبيقها ، حتى أقحموا فيها ما ليس منها ، وانحرفوا بها إلى غير أهدافها .

فتراهم يجاهرون بالدعوة إلى الرقص دون تحرج ، ويصغون إلى الغناء الماجن فى إسراف ، أو يتهافتون على الصور المثيرة حتى فى أخس أوضاعها المرذولة ، بل يتجاوزون هذا كله إلى استعراض الأجساد العارية ورسمها بالألوان المغرية ، إلى آخر ما هنالك من مخزيات فاضحة يعافها الذوق ، ولا تعتبر فنا جميلا إلا فى مقاييس الغواة .

فإذا وقفنا من غيرنا موقفا إيجابيا فى تقدير الفنون الجميلة ، واعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة ؛ فنحن نقف منهم موقفا سلبيا فيما شطحوا إليه من هذا القبيل ! ! .

نوافقهم لأننا نستقى علمنا بهذا ورأينا فيه من جانب الدين ، ومن الذوق البرئ من لوثة الهوى .

ونسير فى تطبيق المبدأ سيراً بصيرا نتوخى فيه المنافع المشروعة ، ونفصح بدعوتنا إلى الفنون الجميلة الكريمة عن رغبتنا فى استغلال المواهب ، وعن مقاصد الإسلام من إشادته بالجمال الفنى ، ومن الدعوة إلى النشاط فى ميدانه العلمى والتطبيقى جميعا ونخالف غيرنا فيما توسعوا فيه ؛ لأنهم يقلدون سوانا من ذوى النزعات المنحرفة الذين لا يتحرجون من سقطات ، ولا تحكم عليهم بيئة متزنة ، وإنما تدفعهم غرائز طائشة ، وينشطون فى تحصيل الرغبات ولو كانت فيما يعافه الحياء الإنسانى .

ثم : مادام الدين الذى شرع لنعيش فى ظلاله قد تكفل بتوجيهنا إلى أهداف صحيحة نأخذ منها حظنا ، وترقى بها حياتنا ، وتسلم عليها

أخلاقنا ومجتمعنا فلماذا نبعد عنه إلى غير ما اختار لنا فيما تمليه الغواية ، وتتهدم به قوميتنا التى نحاول شد أركانها بأوثق مايضمن لها القوة والتغلب على محاولات الماكرين بها؟؟

ولكى نفهم مكانة الفن فى نظر الإسلام أوضح مماسلف ننظر فى ثنايا الآيات بعد ـ وفيها الكفاية للتدليل .

وأول مايبدو هنا من هذه النظرة ويبهرنا من روائها أن القرآن نفسه نموذج أدبى من الفن الرائع فى نمطه كله : لفظا ، ونغما ، وفواصل

فليس هو شعراً ، ولا زجلا ، ولا سجعا ، ولا نثرا مما يعهده الناس،وإنما هو منهج علوى له طابعه الخاص فى تنسيقه ، وله موسيقاه التى يسمو بها على قدرة الإنس والجن ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا .

وليس هذا وحده ـ بل يمتزج ما فى القرآن من رواء بلاغى بحسن عرضه للآيات الكونية وتجلية ما تحتويه من بواعث الإجلال ... ولديك أمثلة : ـ

١ ـ « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم : كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج » .

٢ ـ « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين » .

٣ ـ « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .

٤ ـ « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا » .

٥ ـ « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .

٦ ـ « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » .

٧ ـ « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه » .

٨ ـ « ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، (غصون متدلية) ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » .

٩ ـ « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

فأنت ترى ما فى الآيات من تنسيق الأوصاف ، وذكر البهجة والزينة ، واختلاف ألوان الزروع والثمار والأزهار ما يشهد بتقدير الإسلام للجمال فى تلك المخلوقات ونحوها وابتعاثه لنزعة التأمل فيها من جانبنا حتى نقتبس منها منهجا ننسج على غراره .

وقد يكون التفصيل المسهب فى مثل ذلك كله مجموعا فى نحو قوله : « الذى أحسن كل شىء خلقه » ، على أن هناك توجيها ذاتيا لنا إلى تجميل أنفسنا واتخاذ الزينة فى وقت العبادة ومكانها ، « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » ، إلى آخر آية الوضوء .

وكان النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، يتجمل بترجيل شعره ،وتنسيق هندامه وكان يقول: «إن الله جميل يحب الجمال» وكان يطرب لسماع الصوت الجميل فى تلاوة القرآن ، ويحث على تجميله فى القراءة كما كان يطرب لسماع الصوت الجميل . فى أهازيج العرب من حداة الإبل أثناء السفر .

وحسبنا بمحمد قدوة لنا فى الاتجاه ، ومطاوعة الفطرة المصقولة فى التأثر بالجمال فى كل شىء ، وما يمكن للجمود أن يتغلب على الفطرة حتى نتجهم للجمال ، أو نجحد جانب الإبداع، وتفاوت المواهب فى آثارها الفنية:

ولو أن الدنيا كلها لم تكن عوالم متنوعة : من بحار ، وزروع ، وجبال ، ورمال أو : لو أن كل عالم من هذه العوالم لم يكن متفاوتا فى وحداته ، كأن تكون الجبال ذات لون واحد ، أو تكون الزروع غطاء واحدا ، فى شكله ولونه ، أو تكون الثمار كذلك : لو لم يكن هذا التفاوت لانعدم فيها الإبداع ولكانت دنيا مملولة وكانت الحياة فيها جافة مزهودا فيها ، حتى ولو كانت كلها بساتين مزهرة مثمرة وبهذا التنوع وهذا الإبداع استحقت الدنيا أن تكون مثار المباهاة بها من جانب الله ، وتهيأت لأن تكون فتنة لنا ، واقتضت أن يساق إلينا التحذير منها خشية الغرور بها ، والإسراف فى التهالك عليها .

فإذا وعينا ما تحدث به القرآن عن دنيانا ، وما احتوته تعاليم الإسلام عن الجمال فى كل موطن من مواطنه ، أدركنا أن الله يحب الجمال ، وينبهنا على قدره ، وشأنه ، والأخذ به فى كل ما نحن بسبيله .

غير أن جمال الفن ، كما أسلفنا ، ومهما أفسحنا فيه الخطى ، لا يتسع للهازل ، ولا يمتد إلى الجانب التشريعى فى الدين بتغيير أو تبديل فى أحكامه أو المساس بشىء مما تلقيناه صحيحا من تعاليمه ، وآدابه ، وما رسمه لتنظيم المجتمع فى إطار سليم .

فليكن إبداعنا الفنى فيما نضع من نظم اقتصادية ، وفيما نهيئ من أسباب القوة . وإعداد الجيش ، وفيما نبنى ونزرع،ونخترع ، ونصنع ، وفى كل ما يفتح لنا منافذ الدنيا كشفا ، وانتفاعا ، واقتباسا ، وتعاونا جديا

وليس الفن إطلاقا فى إهدار الخلق، وهتك الآداب ، وشيوع المجون ، وقتل الأنبياء وترويج الرذائل .

وإن هذا التجديد الذى نشكو منه لأخطر على مقومات الحياة ، وأنكى من حروب العدوان.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والله نسأل التوفيق والسلامة ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

المستشرقون والإسلام

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

لست أنكر أن المستشرقين حق أن يبحثوا فى الإسلام وعلومه ، فالإسلام وهو رسالة الإنسانية كلها ، ليس فهمه وتفهمه من حق فريق دون فريق ، ولا طائفة دون طائفة. ولكنى لست أجهل أن لبعض المستشرقين جهودا لا تعرف الملل ، وصبرا لا يعرف النفاد ، وفراغا هادئا طويلا عريضا ، خصصوها كلها للكيد للإسلام والنيل منه .

ولهم فى ذلك وسائل متنوعة ، منها الظهور بمظهر المسلمين وإثارة الشبه والشكوك فى نفس من يلتقون به منهم ، ومنها الكتابة المغرضة المضللة.

لقينى منذ أيام — وأنا أركب ترام الأزهر - واحد منهم ، جلس على الكرسى المقابل لى وفى يده كتاب بدأ يقلب صفحاته فى عصبية واضحة ، ويحملق فيه بعينين لا تطرفان ، وينفخ النفس ويجذبه بأنف عريض يسمع لحركة النفس فيه دوى ، وكانت صفحات الكتاب الذى فى يده مزيجا من سطور افرنجية وسطور عربية . كانت كل هذه المظاهر توحى لرائيها برغبة فى الاستطلاع ، فدفعنى الفضول إلى أن أبدأه الحديث ، ولعلى لا أجانب الصواب إذا قلت : إن ملامحه كانت تدل على رغبة منه فى أن يشترك معى فى حديث ، ولكنه كان يفضل أن أكون البادئ فنعلت . سألته عن اسم الكتاب الذى فى يده ، فمال إلى برأسه وأعطانى أذنه فى عناية واهتمام ، ولما فرغت من السؤال الذى ألقيته إليه باللغة الإنجليزية ، عقب فى لهجة عربية متكلفة وصوت جهورى تشوبه - رغم أنفه - لكنة أعجمية قائلا : نعم ! ! فقلت له : يبدو أنك تعرف العربية جيدا فنسب إلى نفسه نسبا طويلا ، كان يقرب فيه من العرب والإسلام حينا ، تطمينا لى وتأليفا لقلبى ، ويبعد عنهما فى زهو خفى ينم عن كراهية وبغض ، حينا آخر ، وأخيرا انتهى من سلسلة النسب هذه بأنه مسلم من أبوين مسلمين .

فعدت أسأله عن اسم الكتاب ، فقال : إنه « معجزات محمد » فقلت له : ما دمت تجيد العربية فلم لا تقرأ عن موضوع المعجزات كتبا عربية ؟ فارتمى فى كرسيه إلى الوراء فى زهو واعتداد ، وقال : لقد

قرأت كثيراً جداً ، ولكن يا أستاذ ـ وهنا أشار بإصبعه إشارة الاهتمام ، وجعد مواضع من وجهه علامةَ مَن أمل فى شىء فخاب رجاؤه ـ ما كل ما يقرأ يصدق ، ولقد خلق الله لنا عقولا ، ولا بد أن نستعملها ، وإن المستشرقين قد أجادوا اللغة العربية ، حتى أصبحوا فى مصاف أهلها دراية وفهما ، وهم فوق ذلك أحرار الرأى ، أقوياء الحجة ، ولابد أن ننتفع بكتبهم ، وأن نفيد من بحوثهم .

وهنا قدرت أن الكتاب الذى فى يده لا بد أن يكون لمستشرق ، فسألته عن اسم مؤلفه ، فأجاب فى اعتداد وفخر : إنه لفلان الجزائرى الذى كان مسلما وتنصر .

وعند هذا الحد كانت صورة واضحة للرجل قد ارتسمت فى نفسى ، فلم تعد بى حاجة إلى أن أطيل معه أكثر من هذا فى الحديث عن نفسه وعن كتابه ، فهو مستشرق يعلن الإسلام ويبطن الكفر ، وسواء صح ما قدرت أم لم يصح ، فما كنت لأستطيع أن أتركه يغادرنى دون أن يعلم أنه كان سيئ الحظ بلقائى هذا الصباح ، فقلت له ـ رغم أن الترام كاد يصل إلى نهاية الخط ـ إنك قوى الثقة فى المستشرقين ، فهل تظن أنهم قد فرغوا من وضع حلول لمشاكل دينهم الذى يدينون به ، قبل أن يتبرعوا بوضع حلول لمشاكل دين لا يؤمنون به ؟ هل تظن أنهم وضعوا حلا لمشكلة التثليث ؟ وهنا هب الرجل واقفا ، ووضع يده على كتفى ، وأولانى نصف نظرة بينما النصف الآخر كان يتحسس بها باب الترام تأهبا للانصراف ، وقد استولى عليه من الفزع والرعب ما جعله يظهر فى صورة المتعجل ، وقال وهو على هذه الحال : ونحن أيضا نقول بالتثليث ، ألسنا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يريد أن كلمات « الله » و « الرحمن » و « الرحيم » تدل أيضا على آلهة ثلاثة ، وأراد أن يولنى ظهره لينصرف ، فانتهضت واقفا أشعره أننى نازل معه ، وأننا ينبغى أن نظل معا بعض الوقت حتى نفرغ من الحديث الذى بدأناه ، وهنا نزلنا من الترام .

فقلت له : إن « الله » و « الرحمن » و « الرحيم » ألفاظ ثلاثة : اسم وصفتان لمسمى واحد ، مثل ما إذا كان يقال لى أولك فى البيت « زوزو » ولكن الاسم المكتوب فى شهادة الميلاد هو « زكريا » فكان تعليقه : وكذلك الحال عندهم ، فقلت له : فهل الأب والابن وروح القدس أسماء ثلاثة لمسمى واحد ؟ قال : نعم ، قلت فهم إذن يقولون بالتوحيد المطلق ؟ قال نعم : قلت خير .

ثم قلت له : فما شأن هذا الإله الواحد عندهم ؟ هل صلب حقيقة ؟ فمد يديه معاً إلى

الأمام فى صورة تخاذل واستسلام ، وقال فى صوت متهدج خافت : أتريدنى أن أتكلم فى هذا الأمر فى الطريق العام ؟ فقلت له لنشرب معا فنجانا من القهوة هنا ، وأشرت إلى أحد المقاهى بالعتبة ، فتخلف عنى بعض خطوة ، وربت على كتفى وقال : كلها ثلاثون أو أربعون سنة ، ونلقى الله أنا وأنت ونعرف أينا على حق ، ومع ذلك فإنى أسأل الله لك الجنة ، ثم انفصل عنى مهرولا فى شارع الجيش ، فقلت له مع السلامة ، وما أدرى أسمع تحيتى ، أم كان قد سبقها .

* * *

هذه صورة من صور دعايات المستشرقين ضد الإسلام ، وليست هى أول الصور ولا آخرها ولكنها أحدثها ، أكتفى بذكرها هنا ، لأنتقل إلى لون آخر من ألوان دعايتهم الكتابية ، ومن صور هذا اللون ما كتبه المستشرق « ولفرد كانتول سميث » الأستاذ فى جامعة « ماكجل » فى مجلة جمعية المستشرقين الأمريكيين يقول : « إن الدين الإسلامى آلى جامد » .

وإنى لأسائله : ماذا فى الإسلام من جمود ؟ .

هل الإسلام جامد فى عقيدته ؟ عقيدته التى تقرر أن الإله واحد ، له وحده الكمال المطلق ، ليس به حاجة إلى خلقه ، ولكن الخلق كلهم هم المحتاجون إليه ، والناس لديه سواسية لا يتفاضلون من جهة الحسب ولا من جهة النسب ، ولا المال ولا المنصب ، إنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، لا وسطاء بين عامة الخلق وبينه ، بل الكل يتصل به ويناجيه ويطلب منه العون والمساعدة « ادعونى أستجب لكم » ، « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ، أمور الخلق كلها بيده ، فهو الذى يغفر الذنوب ويستر العيوب ويقيل من العثرة ، فى سرية تحفظ الكرامة ولا يقف معها أحد على زلة أحد أو جريرته ، ولا ثمن للمغفرة فى الإسلام أكثر من أن يستشعر المذنب الندم ويثوب إلى رشده ويعقد العزم على الاستقامة .

فماذا يا ترى فى هذه العقيدة من جمود ؟ .

هل تصور الأستاذ « سميث » عقيدة الإسلام تصوراً صحيحا ، كما جاء بها الإسلام وكما يعرفها المسلمون ، ثم لم ترقه ورآها جامدة غير طيعة ولا مسايرة لما تقضى به الفطر السليمة ؟ إذن فليحدثنا عن العقيدة التى يراها غير جامدة وغير آلية . أهى التى تنزل بمستوى الإله إلى مستوى البشرية ؟ أم التى تجعل من بعض الناس طائفة ممتازة تتحكم فى بقيتهم ، وتملك من السلطة ما يخولها غفران الذنوب والوقوف على أسرار العباد ؟ فليرشدنا الأستاذ « سميث »

إلى العقيدة التي اختارها لنفسه والتي رآها طيعة غير جامدة ، تساير العقول وتلائم الفطر ، وليطمئن إلى أننا على استعداد لأن نشاركه إياها متى كشف لنا عن لياقتها للقبول ؛ فإن دين الإسلام يحتم على أهله طلب الحقيقة ويأمرهم باتباع الحق متى ظهر وأين ظهر ، أليس يقول نبي الإسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » .

* * *

أم الإسلام جامد في شريعته ؟ شريعته التي اعتبرت العرف ، والعادة ، وجعلت لهما دخلا في تقدير الأحكام ، كما اعتبرت البواعث والدوافع وجعلت لها دخلا في تحديد المسئولية .

خذ مثلا قطع يد السارق ، فبينا ينص القرآن نفسه على هذه العقوبة ؛ لما لجريمة السرقة من خطر على كيان المجتمع يزعزع أمنه ويسلب طمأنينته ، والأمن والطمأنينة هما كل شيء في حياة الجماعة ، لذلك سن الإسلام هذه العقوبة لتكون كفيلة بالقضاء على الجريمة وتحقيق الأمن والطمأنينة (١) للمجتمع أقول بينا ينص القرآن على قطع يد السارق نصا صريحا ، إذا بالقوامين على تطبيق شريعة الإسلام ، وتنفيذها يحددون السرقة بالعمل العدواني الذي من شأنه أن يسلب الجماعة أمنها وطمأنينتها ، ولذلك لم يحكم عمر على سارق عام المجاعة بالقطع ؛ لأن زعزعة أمن الجماعة لم يكن هو الباعث له على السرقة ، وإنما الحاجة الملحة والضرورة القاسية هي التي دفعت به إليها .

كذلك لما سرق بعض الخدم بعيرا وذبحوه وعلم الحاكم الإسلامي أن الخدم لم يفعلوا ما فعلوا ، إلا لأن سادتهم يجيعونهم ، لم يحكم عليهم بالقطع ؛ لأن باعث السرقة ، الذي من أجله قضى القرآن بقطع اليد ، منتف هنا ، فقد تتبع الحاكم الإسلامي باعث هذه السرقة ، فوجده في إجاعة السادة لخدمهم ، فأعفى الخدم من المسئولية ، وأنزل بالسادة عقوبة فادحة ، هي دفع أضعاف ثمن البعير لصاحبه ، حتى لا يتسببوا بإجاعة الخدم في إحداث مثل هذه الجريمة مرة أخرى .

فانظر يا أستاذ « سميث » كيف أن الإسلام لا يجمد على الظواهر ولكنه يغوص وراء النوايا والسرائر ، ويوقع الجزاء على المتسبب في الجريمة ، لا على من ظهرت على يديه الجريمة .

---

(١) وإذا أراد الأستاذ « سميث » أن يعرف المزيد من فضل هذه العقوبة على المجتمع ، فليقرأ رسالتنا « الدين والعقل » ليرى أن هذه العقوبة التي هول من أمرها المستشرقون تشنيعا على الإسلام هي مفخرة من مفاخر الإسلام .

وأزيدك من أمر عقوبة السرقة فى الإسلام بيانا فأقول : إن فقهاء الإسلام قرروا « أنه ليس على الأجير ولا على الرجل يكونان مع القوم يخدمانهم ـ إن سرقاهم ـ قطع ؛ لأن حالها ليست بحال السارق ، وإنما حالها حال الخائن ، وليس على الخائن قطع (١) لأن الخيانة لا تستتبع من زعزعة أمن الجماعة ما تستتبعه السرقة ؛ لذلك لم يكن جزاؤها القطع .

ولولا خشية الإطالة يا أستاذ « سميث » لأريتك ألوانا أخرى من التشريعات الإسلامية تتبين منها أن الإسلام مرن طيع لا جمود فيه ولا آلية ، ومع ذلك فمبدؤنا ـ كما قلنا سابقا ـ « أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » فدلنا ـ إن كان لديك ـ على شريعة أكثر طواعية من الإسلام ومرونة ، ونحن على استعداد لأن نأخذها منك ، بشرط أن تلاحظ أن مبدأ الإسلام فى بناء المجتمعات أن يقيمها على أسس غير مائعة ولا منهارة ؛ فإن فى الإسلام جدية تأبى الهزل ، وصرامة تجافى الميوعة فإن كانت جدية الإسلام التى تباعد بينه وبين الهزل ، وصرامته التى تجافى التخاذل والميوعة هما مثار شبهتك التى من أجلها قلت عن الإسلام : إنه جامد ، فنحن لا نخالفك فى أن التخاذل والميوعة ليسا من طبيعة الإسلام فى شىء ، ولكن هذه من الآن نقطة خلاف بيننا ؛ فإن الهزل والتخاذل والميوعة ليست من الحكمة التى قال فيها رسول الإسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » .

* * *

أم الإسلام جامد فى سلوكيته ؟ وكيف وقد بنى الإسلام السلوكية الأخلاقية على أساس من الفطرة السليمة ، والضمير الإنسانى المتيقظ المتحرر المتفهم الواعى ، ولم يقم للسلطات الخارجية كبير وزن فقال رسول الإسلام : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

فهل بعد هذا يحق للأستاذ « سميث » أن يقول عن الإسلام : إنه آلى جامد ؟ ليقل لنا الأستاذ « سميث » أين يكون التحرر فى السلوك إن لم يكن فى القاعدة التى أقام عليها الإسلام سلوكيته ؟ اللهم إلا أن يعنى الأستاذ « سميث » بالتحرر ، الانطلاق الحيوانى ، فنحن لا نخالف فى أن الإسلام ليس فيه تحرر بهذا المعنى ، ولا يخجلنا أن نعلن أن الإسلام حرب على هـــذا النوع من التحرر ؛ فإن الإسلام حريص على أن يقيم مجتمعا إنسانيا لا مجتمعا حيوانيا ، وليست هذه الحيوانية من الحكمة التى قال عنها رسـول الإسلام

---

(١) الموطأ ص ١٧٦ ج ٦ .

« الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » فليعذرنا الأستاذ « سميث » إذا كنا لا نوافق على أن فى الإسلام حرية حيوانية بل فيه حرية إنسانية فقط .

ثم إن الإسلام يجعل باعث السلوكية وهدفها روحيا صرفا هو حب الله تارة ، وحب الخلق تارة أخرى . يقول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « ما تقرب عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ثم لا يزال يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وليس المراد الحب المجرد ولكن ما صحبه العمل ، والمقصود بالأخ فى الحديث — كما يرى رجالات الإسلام الذين نال منهم الأستاذ « سميث » فى مقاله نيلا غير كريم — ليس هو الأخ فى النسب ، ولا الأخ فى الإسلام ، ولكنه الأخ فى الإنسانية ، فبمقتضى هذا الحديث يصبح حقا على كل مسلم أن يحب لكل إنسان — مهما تكن جنسيته ونحلته ووطنه — مثل الذى يحبه لنفسه من الخير . ويتوقف على هذه المحبة صدق إيمانه وسلامة عقيدته فأى جود فى دين يرى بلوغ كل فرد من أهله سعادته مشروطا بأن يعمل لسعادة الآخرين بمثل ما يعمل لسعادة نفسه ؟ وعلى أساس من هذا المبدأ يحرص المسلمون على أن يبلغوا دعوة دينهم إلى غيرهم تحقيقا لمبدأ المحبة الذى أكده دينهم وجعله شرطا ضروريا لبلوغ مرتبة الخير الأعلى . فالمسلمون إذ يبلغون الناس دعوة دينهم إنما يريدون أن تبلغ الإنسانية كمالها ورشدها . وهم يفعلون ذلك بوازع من حب الخير للغير بنفس المقدار الذى يحبونه لأنفسهم . فأين يا أستاذ « سميث » هذا الاتجاه الإنسانى الكريم من الاتجاهات الاستغلالية الأنانية التى تدفع بالقوى إلى أن يمتلك الضعيف ويستذله ويعتصره ، ويستنزف دماءه وأمواله ؟ قل لنا أى الاتجاهات هو الآلى الجامد ، وأيها هو الروحى الخالد ؟ .

عجبا لأمثال هذه المحاسن كيف تجحد ويساق القول جزافا فى ذمها ، ممن يقولون : إنهم درسوا وعرفوا وقدروا وفكروا ووازنوا ؟ أين هى الدراسة وأين المعرفة ؟ وأين التقدير والتفكير والموازنة ؟ .

هل عرف أولئك الدارسون أن الإسلام قد جاوز نطاق عطفه ورحمته حدود الإنسانية ، فجعل للحيوان الأعجم حقوقا ، وجعل التفريط فى هذه الحقوق جريمة تستوجب العذاب ، يقول رسول الإسلام : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ، ولا

هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ثم يرسلها قاعدة كلية يقول : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أهذا هو الجمود الذى يعاب على الإسلام ؟ أهذه الأحكام هى نتيجة الدراسة والتفكير والتقدير والموازنة ؟ تالله للجهل أكرم للنفس من معرفة ضالة مضلة .

* * *

أم الإسلام جامد فى نظر الأستاذ «سميث» لأنه لا روحانية فيه ؟ إذا كان هذا هو المقصود من قوله : « إن الإسلام آلى جامد» فليفسح لنا الأستاذ « سميث » صدره لنرفع إليه شكوى الإسلام من الماديين الذى يعيبون على الإسلام أنه روحانى مسرف فى الروحانية حيث يجعل متاع الدنيا المادى تافها بالقياس إلى متاع الآخرة الروحى . وليفسح لنا الماديون - بدورهم - صدورهم لنرفع إليهم شكوى الإسلام من الأستاذ « سميث » حيث يرميه بتهمة الجمود والمادية .

إن الذى يقف بين تهمة الماديين للإسلام بأنه روحانى ، وتهمة الأستاذ « سميث » له بأنه جامد لا روحانية فيه ، ربما يتسرع فيحكم بأن إحدى التهمتين كاذبة لا محالة ، وفى الحق أن فى الإسلام جانبا روحيا هو وحده الذى كان موضع اهتمام الماديين ؛ لأنه الذى يختلفون معه فيه ، فعابوا الإسلام بأنه روحانى ، وفيه جانب مادى ، هو وحده الذى وقف عنده الأستاذ « سميث » ليعيبه على الإسلام .

والإسلام يعلن فى صراحة تامة أنه مادى روحانى معا ؛ لأنه شرع الله للإنسان المكون من عنصرى المادة والروح . والملاءمة بين الشريعة والمشرع له تقتضى أنه مادام الإنسان روحا ومادة فلا بد أن يعنى الإسلام به من حيث هو روح ومادة معا ؛ لأن تحقيق بعض ما تتطلبه طبيعة الكائن الحى ، دون البعض الآخر ، تحيف من حقوق هذه الطبيعة ، وعلى هذا الأساس جاء الإسلام ماديا وروحيا معا ؛ بمعنى أنه يوفر للإنسان ما يتطلبه وجوده المادى ، ويوفر له ما يتطلبه وجوده الروحى .

ومما جاء فى هذا المعنى قول رسول الإسلام: « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » فماذا بعد أن يوصى الرسول بأن يعيش المرء للدنيا عيش من يخلد فيها لا يموت أبدا ، وأن يعيش للآخرة عيش من يتأهب لقائها غدا ، من اعتراف بأن الإنسان مادة وروح ، وأن السعادة روح ومادة .

ثم إن فى التكليف بالأمرين معا دليلا على أن العناية بالدنيا لا تتعارض فى نظر الإسلام مع العناية بالآخرة ، وأن العناية بالآخرة لا تتعارض مع العناية بالدنيا ، وذلك لأن الدنيا ليست تعنى حياة الفرد ولا حياة

الأنانية ، وإنما الحياة التي يأمرنا الرسول بأن نعيش لها عيش من لا يفارقها أبدا . تعني حياة الجماعة الإنسانية الكاملة المهذبة وإذن يكون الوفاق بين التكليفين واضحا : التكليف بالعمل للدنيا كأنما هي باقية لا تزول ، والتكليف بالعمل للآخرة كأنما بدايتها الغد القريب ، لأن العمل للدنيا باعتبارها حياة الجماعة كلها تعيشها عيشة كاملة مهذبة لا يقوم إلا على أساس من تمكين العدل والرحمة والإخاء والمحبة بين الجميع . والعمل لتمكين مبادئ العدل والرحمة والإخاء والمحبة هو نفسه عمل من صميم أعمال الآخرة ، لأنه تسام عن الأنانية الفردية البغيضة . وفي عمل الفرد لتثبيت مبادئ العدل والرحمة والإخاء والمحبة بين الجماعة البشرية إقامة لدنيا الجماعة كلها ولدنيا الفرد أيضا الذي لا بد أن يغمره فيض هذه المبادئ وإن كان هو بازر بذورها ، وفي هذا العمل إلى جانب الأعمال الأخروية الصرفة ، تمكين لإقامة الحياة الآخرة ، وبذلك يصبح الجمع متأتيا بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة في حياة الفرد الواحد .

والنظرة الفاحصة في هذا التوجيه النبوي الكريم تكشف عن أن نصيب الآخرة - من غير إجحاف بحق الدنيا - هو الأوفر ، فيبدو الإسلام أشبه شيء بروحانية صرفة . فأين إذن من الحق قول الأستاذ « سميث » : إن الإسلام مادي لا روحانية فيه .

* * *

وبعد : فبأي معنى من المعاني يرمي الأستاذ « سميث » الإسلام بأنه آلي جامد ؟ لقد بان لكل ذي عينين أن الإسلام ليس جامدا بأي معنى من المعاني .

يالله ما أصدق قولك : « إن الإنسان لظلوم كفار » ، أي يظلم نفسه ويكفر نعم الله عليه .

هـذا وإني أقول للأستاذ « سميث » ما علمنا الله قوله في هذا المقام :

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

الدكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
في كلية أصول الدين

حاجتنا إلى التشريع الإسلامي والاحتكام إليه

للأستاذ محمد سلام مدكور
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ – التشريع هو سن القوانين : سواء أكانت هذه القوانين آتية عن طريق الأديان ويسمى تشريعاً سماويا أم كانت من وضع البشر وتفكيرهم ويسمى تشريعاً وضعياً .

والتشريع السماوي : هو مجموعة الأوامر والنواهي والإرشادات والقواعد التي يشرعها الله تعالى للأمة على يد رسول منها ليعملوا بها ، ويهتدوا بهديها ، وهو تشريع لجميع من وجه إليهم ، من نوى منهم إطاعته ، ومن نوى معصيته دون إكراه في اتباعه ، ومن خالفه تعرض للجزاء في الدنيا والآخرة وغضب الله ، ومن اتبعه نجا من ذلك واستحق الثواب الأخروي ورضا الله .

أما التشريع الوضعي : فهو مجموعة الأوامر والنواهي والقواعد التي يضعها فرد أو جماعة وتختارها الأمة بواسطة من له السلطان لتحتكم إليها وتسير على ضوئها في الحياة ، وهي تهدف إلى إقامة التوازن بين عديد الحريات المتعارضة ومختلف المصالح المتضاربة .

وإن كان كل تشريع – سماوياً كان أو وضعياً – يقصد به تنظيم الروابط بين الناس إلا أن التشريع السماوي تشريع إلهي بمصادره وأحكامه الأولى ، بينما التشريع الوضعي يستمد أحكامه من سلطة الدولة .

حاجة الناس إلى تشريع يحتكمون إليه :

٢ – الناس بطبيعتهم في حاجة إلى تشريع يحدد لهم علاقاتهم ، ويبين لهم حقوقهم وواجباتهم ، ويحد من أنانيتهم ، وينظم صلاتهم والتزاماتهم ، وإلا لكان الأمر فوضى بين الناس يأخذ القوي كل ما يريد بقوته ، ويفقد الضعيف كل ما يحتاج إليه بضعفه ، خصوصا أن النفوس قد جبلت على الأثرة وحب الذات ، واندفعت تحت تأثير ميول غرائزها المختلفة ، ولذا فإن حقوق الفرد وحرياته تتأثر تأثراً واسعا بهذه الدوافع مما يجعله ميالا بطبعه إلى الرغبة في إيجاد نظام يحدد له الحدود ، من أجل هذا قال علماء الاجتماع : « إن الإنسان اجتماعي بطبعه ، إن الحياة الجماعية لازمة له ، وهذا يستتبع ضرورة وجوب الشرائع في المجتمع لتحكم

العلاقات بين الناس ، وتدفعهم إلى القيام بالواجب ، وإذاً فصلاح المجتمع منوط بحكم قائم على نظام واجب الاحترام .

٣ — والقصد من وضع الشرائع إخراج المرء المكلف بأحكامها من داعية هواه وبعده عن الأنانية ، فاتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة ، عمل مذموم تهدف الشرائع إلى محاربته فى النفس ، وقد جعل الله تعالى اتباع الهوى مضادا للحق قسيما له وفى القرآن . . . « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (١) » وفيه « وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى (٢) » ، وفيه « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن (٣) » وفيه « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (٤) » .

وما ذكر الهوى فى القرآن إلا فى معرض الذم ومقابلته بالحق الواجب الاتباع ، وهو شرع الله ولذا فإن السلف قالوا (٥) : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته دنياه .

٤ — والمفروض فى المشرع ألا يتأثر عند وضع تشريعه بالهوى ، وألا يقصد الوصول إلى غرض فردى ، أو مصلحة خاصة وإنما القصد منه حماية المجتمع، وحماية الأفراد من الهوى الجامح والأثرة ، وحب الذات ، وهذا متحقق واضح فى التشريع السماوى ؛ لأنه من عند الله المنزه عن الخطأ والغرض والهوى، بينما التشريع الوضعى يستمد أحكامه من سلطة الدولة التى تسنه وتعدله وتلغيه حسب الظروف وكثيرا ما يتحكم فى هذا الغرض والهوى وتراعى حالات فردية يكون قد تأثر بها رجال التشريع ، سواء أكانت مادية بإيحاء من يملكون التوجيه ، أم بدوافع نفسية خاصة .

مميزات التشريع السماوى :

٥ — القول بوجود إله قوى قادر على خلق كل الأحياء والأشياء فكرة اشتركت فيها كل الأمم القديمة التى بلغت غاية رفيعة من الحضارة ، والعلم الحديث فى الواقع لا ينفى أن هناك قوة خارقة فوق طاقة المخلوقات تهيمن على هذا الكون ، فتشريع يأتينا عن هذا الطريق لا شك فى أن الناس فى أشد الحاجة إليه ؛ لأنه من عند عالم الغيب والشهادة الذى يعلم ما توسوس به النفس يعلم خائنة الأعين ،

(١) سورة ص الآية ٢٦ .
(٢) سورة النجم الآية ٣ ، ٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٧١ .
(٤) سورة محمد الآية ١٤ .
(٥) إعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص١٣٦ .

وما تخفى الصدور . ولذا فإننا نستطيع أن نقارن بين التشريع السماوى والتشريع الوضعى ونخرج ببعض مميزات التشريع السماوى التى تجعله أحق بالاتباع .

أولا : التشريع السماوى يحيط بكل شىء ؛ لأن المشرع مطلع على كل شىء أما التشريع الوضعى فلا يمكن أن يرقى إلى هذا أو بعضه مهما قوى سلطان واضعه فالإنسان لا يعرف شيئا عن سوأة أخيه إلا إذا كانت ظاهرة أو قام عليها الدليل .

ثانياً : تشريع من الحكيم الخبير المنزه عن الخطأ الذى لا يضل ولا ينسى يستحيل أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما الإنسان فمهما قوى شأنه فهو قاصر فى تفكيره محدود فى إدراكه ، ولذا فإن ما يصنعه من تشاريع سرعان ما يظهر قصورها وخطؤها ويأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها .

ثالثا : التشريع السماوى منزه عن الغرض والهوى بعيد عن المؤثرات ، والانفعالات ، أما التشريع الوضعى فقد يلاحظ عند وضعه أغراض معينة ، ومصلحة أشخاص معينين .

رابعاً : التشريع السماوى فوق ذلك يربى فى النفس طهارة القلب ويقظة الضمير ورقة الشعور ، وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة . فهو يعمل على تكوين المرء على مثال حسن ويعنى بتوثيق العلاقة بين المرء وأخيه وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين ربه ، ولذا فقد نص على أحكام للعبادات كما نص على أحكام للمعاملات وغيرها ، أما القوانين الوضعية فإنها قاصرة على علاقة الفرد بالآخرين أو علاقته بنفسه بقدر ما يعود على المجتمع فقــط .

خامساً : التشريع السماوى سن لكل عمل من أعمال الإنسان حكمين ، حكما فى الدنيا يتعلق بمظهر العمل وأثره بين الناس ، وحكما فى الآخرة يتعلق بالقصد الحقيق والباعث عليه ، وأثره المترتب عليه فى الآخرة من ناحية الحل والحرمة ، أو بمعنى آخر حكما ينظم الصلة بين الإنسان وغيره من البشر ، وحكما فى نفس المسألة ينظم صلته بربه وهذا ينظر فيه إلى حقيقة قصده ونواياه . فالتشريع السماوى يحاسب على الأعمال الداخلية حتى التحضيرية كما يحاسب على الأعمال الخارجية بخلاف الوضعى فإنه قاصر على بعض الأعمــال الخارجية .

سادساً : التشريع السماوى ، فيه ناحية إيجابية وناحية سلبية ، فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أى : أنه يعمل على جلب المصالح ودرء المفاسد فكلاهما مقصود فى

التشريع بذاته ، وبالجملة فهو متفق فى أحكامه مع قانون الأخلاق ومتصل بالضمير الإنسانى اتصالا وثيقا ، أما التشريع الوضعى فيغلب على طابعه الناحية السلبية فقط إذ يعنى فى الغالب بدرء المفاسد والنهى عن الأذى .

سابعا : التشريع السماوى فوق ذلك تشريع رادع له من القوة والبطش ما لا يمكن أن يكون لغيره ، إذ أن كل من يؤمن بالأديان السماوية يؤمن بالبعث والحساب ، وهذا حق لا شك فيه ، وقد اهتدى تفكير البشر إلى الحياة الآخرة من قديم الزمن ، وكان المصريون القدماء هم أسبق الأمم إلى معرفة هذا والتنبؤ به ، فمن نحو ستة آلاف سنة تقريبا كان أساس العبادة أن كل إنسان مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا أمام محكمة إلهية ، ثم بعد ذلك بأكثر من ألف سنة عرف الكلدانيون شيئا عن الآخرة ، ومن بعدهم الفرس والإغريق والرومان ، حتى الهندوكيون والبوذيون فإنهم يؤمنون بأن الروح تنتهى أخيرا إلى وجود آخر .

والعقل يقبل هذا ويستسيغه ، فالفرد يقضى فترة فى الدنيا يعمل فيها ما توجهه إليه مواهبه ورغباته ، ثم يمضى من الحياة تاركا وراءه أعمالا وآمالا وخلطاء فيهم المحب ، وفيهم المبغض ، ويزول الإنسان من الوجود وتبقى ذكراه وأعماله ، ومنها ما هو ظاهر معروف ، ومنها ما هو سردفين ، ومنها ماهو خير ، ومنها ما هو شر ، والناس فى كل هذا متفاوتون ، فهل ينتهى كل شىء بوفاة الإنسان وينمحى أثره فلا حساب ولا عقاب ، يستوى المصلح والمفسد ، والعامل على إحياء الرذيلة مع الخيِّر المتمسك بأهداب الفضيلة؟ هل يستوى الحاكم الظالم المنغمس فى شهواته وملاذه ، المستهتر بأرزاق الناس وأعراضهم وحرياتهم لا يعنيه إلا أن يكون السيد المطاع ، سواء أكانت الطاعة خوفا من جوره ، أو اتقاء لبطشه وظلمه أم انقيادا له وحبا لعدله ، هل يستوى هذا وذاك مع الصالحين أعمالا المتفانين فى أداء الواجب ، وإعطاء كل ذى حق حقه ؟ وهل بانتهاء حياة الفرد انتهى كل شىء وزال حق المظلوم وفاز الظالم بما اقترفت يداه ؟ ! .

وهل يقبل العقل أن يكون مصير الجنس البشرى الذى عمر الأرض واكتشف بعض ما فيها من نعم وما فى الكون من أسرار ، زائلا إلى الأبد دون رجعة أو جزاء ؟ هل يقبل العقل هذا أم يرى أنه لا بد من عالم آخر توفى فيه كل نفس ما كسبت « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء . . . » لا شك أن العقل يتجه إلى أن الموت يخفى من ورائه شيئا آخر ، وأن الروح إنما تنتقل من وجود إلى وجود . « فمن يعمل

مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فالإنسان مع هذا إن استطاع أن يتنكر لجريمته ويتنصل من عقاب الدنيا فلن يستطيع ذلك فى الآخرة . « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وبذا تكون أحكام الشرائع السماوية رادعة قوية يخشاها الإنسان فى السر والعلانية ، ولا يستطيع أن يتهرب منها أو يحتال عليها ، ولا مفر للمؤمن بالله من طاعتها . « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ! » .

بقى أن نقول : إن التشريع السماوى شجع على الطاعة وبشر الصالحين أعمالا ووعدهم بالثواب « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وفى هذا من الحث على الطاعة والتحذير من الآثام ما فيه ، لأن المطيع سوف لا يتخلص من عقاب العصيان فقط ، بل سيأخذ أجرا على طاعته . . . فتشريع يكافئ المطيع أولى بالاتباع من تشريع يقول للمحسن : لا فضل ولا أجر على ما أديت من واجب .

ينتج من هذه الموازنة والمقابلة : أن التشريع الوضعى له اتجاه إلى هدف واحد هو تنظيم الروابط الاجتماعية بين الناس ، أما الشرائع السماوية فهى توقظ فى الإنسان الضمير وتتدخل بين الإنسان ونفسه وبينه وبين خالقه ، وتوجهه فى مجموعها توجيها محموداً فى صلاته بالناس ، فهذا التشريع الإسلامى وهو خاتم الشرائع السماوية يهدف إلى أمرين : —

تنظيم رابطة الإنسان بربه ، وتنظيم رابطة الناس بعضهم ببعض ، وهذا مبنى على أن كمال ربط مصالح الناس ببعض يكون بتنظيم علاقاتهم بالرب ، وأن القوانين التى تنظم أمور الناس لا توصل إلى كمال المقصود إلا إذا سايرتها قوانين تنظم رابطة الإنسان بربه كما أنه مبنى أيضا على أن للإنسان حياة فى الدنيا وحياة فى الآخـــرة . ولذا فإنه سن أحكاما تتعلق بالعبادات ولا نظير لها فى التشريع الوضعى ، وأنه وضع لكل منها حكما على الصورة الظاهرة وهو ما يحكم به القاضى نتيجة إقرار أو بينة أو قرائن ، وحكما آخر من جهة وصف الشرع للمسألة تبعا لنية الشخص التى يعلمها الله وهو حكم أخروى .

وفوق ذلك فالتشريع السماوى تشريع إلهى بمصادره وأحكامه الأولى ، بينما التشريع الوضعى يستمد أحكامه من سلطة الدولة التى تسنه وتعدله وتلغيه حسب الظروف وقد يتحكم فى هذا الغرض والهوى .

ما قدمناه هو عرض موجز سريع لمميزات الشرائع السماوية ووجوب اتباعها والاحتكام إليها ، وأحق هذه الشرائع بالاتباع هو الإسلام ؛ لأنه خاتم الشرائع وأعمها ، وهو فوق كونه دينا يتعبد به فقد جاء وافيا بحاجة الناس أفرادا وجماعات ، عادلا سهلا من غير إفراط ولا تفريط ، لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق ، فكل مسلم فى أطراف الأرض ، وفى لجاج البحر يستطيع بمفرده أن يتصل بالله ، وهو فوق هذا أبدى صالح لكل زمان ومكان يقول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » . «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا» ، « تبارك الذى نزل الفرقان على بعده ليكون للعالمين نذيرا » ، ويقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» ويقول عليه السلام : « بعثت إلى الناس كافة إلى الأحمر والأسود » ، وقد أرسل فعلا دعوته إلى امبراطور الروم وملك الفرس وحاكم مصر ، وملك الحيرة وملك اليمن ونجاشى الحبشة ، لقد كان الرسول حكيما فى مسلكه ؛ لأن الحاكم أو الزعيم إذا قبل الدعوة لنفسه فإنها ستجد رواجا فى منطقة نفوذه لأنها تأمن مصادرة السلطان ، فوق سهولة أخذ الناس بها من بعده وما دفع الرسول إلى هذا إلا ثقته من قوة رسالته ، وأنها دعوة الحق ، وأنه يبلغ ما انزل إليه من ربه .

والإسلام لم يفصل بين الدين والدنيا ، وإنما جمع بين الروحانيات والماديات وجعل الأولى طريقا للثانية . فما كانت العبادات فى الإسلام بمجرد شعائر وطقوس آلية ، وإنما جاءت لنتقرب بها إلى الله ، ولتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، واعتبر الإسلام كل عمل من أعمال الخير فيه عبادة ، فقد ربط الإسلام بين الدين والدنيا وبين العبادات والمعاملات « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض .. » ومن منا أصدق فهما لطبيعة الإسلام من محمد بن عبد الله الذى قال : (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار) ، ويقول فى الحث على العمل : (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه) وقال : (طلب الكسب بعد الصلاة المكتوبة هى الفريضة بعد الفريضة) .

ولقد قال عمر بن الخطاب : أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، والقليل فى رفق خير من كثير فى عنف ، من له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها ، ولا تؤخروا عمل اليوم إلى الغد فإنكم إن فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدءون ولا بأيها تأخذون .

وقد مر عمر على قوم من القراء فرآهم جلوساً ناكسى رءوسهم فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا له هم المتوكلون . فقال كذبوا هم المتآكلون يأكلون أموال الناس . إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى التراب وتوكل على رب الأرباب ثم قال : يا معشر القراء ارفعوا رءوسكم واكتسبوا لأنفسكم . وقال : لأن أموت وأنا أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله أحب إلى من أقتل مجاهدا فى سبيل الله، يقول الله : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » من هذا يبين أن الإسلام يدعو إلى العمل والكفاح ويحارب البطالة والكسل ، ويهدف إلى التسامح والمساواة والحرية ، جاء يخاطب العقل ، ويعلن عدم الواسطة بين الخلق والخالق ، قد أحاط العقيدة بالأخلاق الفاضلة المهذبة للنفس ، وآخى بين الدين والدنيا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر جاعلا الشورى أساس الحكم فى الإسلام والمشاهد الذى لا ينكره حتى الجاحد المغرض أن التشريع الإسلامى إذا حسنت الدعوة إليه جذب الناس إليه بسرعة خاطفة ، وتقبله الناس باطمئنان ويسر ، وما ذلك إلا لأنه قائم على دعائم وأسس متينة فقد يسر على الناس ونفى الحرج عنهم . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وروعى فيه قلة التكاليف كى لا يرهق كاهل الناس ، ويسهل عليهم امتثالها يقول عليه السلام : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ولعل هذا يفيد أن الأصل فى الأشياء الإباحة ولا يحرم إلا ما ورد نص بتحريمه .

كما روعى فى التشريع الإسلامى مسايرته لصالح الناس فقد شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها ، لما اقتضت المصلحة هذا التبديل ، ولما كانت مراعاة مصالح الناس فى أمور معاملاتهم المالية أساساً فى التشريع الإسلامى بدليل توسع الشارع فى بيان عللها ليدور بالحكم مع علته وجوداً وعدما ، وليبنهنا إلى أن نسلك هذا الطريق ، ونسير بمعاملتنا فى وادى المصالح ولا نجمد على ماقد يكون روعى فيه مصلحة خاصة وطائفة خاصة وإقليم خاص .

ولما كان المسلمون فى كل فجاج الأرض مخاطبين بالشريعة لزم أن يكون التشريع قد راعى مصالحهم رغم اختلاف أجناسهم ، فإن تضاربت هذه المصالح ، وكان أساس تحقق بعض المصالح الإضرار بالغير لوحظ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ودفع الضرر الأكبر بالضرر الأدنى .

من أجل هذا نجد القرآن وإن فصل أحكام العبادات وما يتعلق بنظام الأسرة فإنه لم يتناول بالتفصيل أحكام المعاملات المالية والجنايات وما يتعلق بالقضاء وعلاقات

الدولة الإسلامية بغيرها فى السلم والحرب ، وما شابه ذلك مما يتغير بتطور البيئة ، وإنما دل عليها بوجه عام حتى يكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن من غير اصطدام بحكم جزئى .

والتشريع الإسلامى وإن كان لم يتناول أكثر الأحكام العملية بالتفصيل وإنما أشار إليها وبين أسسها وقواعدها إلا أنه لم يترك ناحية من النواحى التى تهم البشر وتنظم حياتهم إلا وجاء بها فقد تناول الأحكام الاعتقادية وجاء بمبدأ التوحيد: «قل هو الله أحد ...» كما تناول الأحكام الخلقية فحارب الفوارق بين الناس إلا فى طاعة الله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وبعث محمداً ليتمم مكارم الأخلاق ، كما تناول أحكام العبادات وأحاط بكل الأقسام فى القانونين العام الخارجى والداخلى والخاص بنوعيه أيضا .

وقد انعقد إجماع الفقهاء رغم اختلاف مذاهبهم على أن للشريعة الإسلامية حكما فى كل فعل يصدر من الإنسان وهذه الأحكام بعضها بينتها نصوص القرآن والسنة لحوادث وخصوصات اقتضت بيان أحكامها حين وقوعها وبعضها لم تبينه تلك النصوص ، وإنما قامت عليها الدلائل لتظهر أحكامها وتبينها حين الحاجة فيهتدى بها أهل الذكر من العلماء ، ويسترشدون بها لتعرف حكم كل ما يقع ويحدث .

ومع هذا فتشريعنا بحمد الله غنى بمصادره المرنة ، ومنها الإجماع والقياس وهما ينبوع القوة التى تجعل الفقه الإسلامى يتحرك ويتطور بكل حرية ،ومنه اعتبار ما تعارف عليه الناس إذا أعوزنا النص من الكتاب والسنة ، ولا ضير من اختلاف الحكم الذى يبتنى على العرف تبعا لاختلاف العرف فى البيئات المتباينة بل فيه ما يدل على قوة التشريع واتساع أفقه وصلاحيته للتطبيق دائما ، كما أن هناك الاستحسان والمصالح المرسلة وكلاهما فيه يسر ورحمة .

من كل هذا يبين لنا مقدار حاجة البشرية إلى الشرائع السماوية ،وأن التشريع الإسلامى خاتم الشرائع وأعمها وأقدرها على رعاية مصالح الناس ومسايرة أحوالهم ،وأنه أفضل قانون ينظم حياة المجتمع الإنسانى بما فى أحكامه من قوة وبطش ، وسعة ويسر . وقد كانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم وأرقاها حينما كانت أحكام الإسلام هى السائدة ، وحينما أخلص المسلمون لدينهم وتعلقوا به .

وإنا لنسأل الله أن يرشدنا إلى فهم الإسلام الفهم الحق ، ويوفقنا للإخلاص له والدعوة إليه ، اللهم جنبنا الزلل واهدنا إلى طريقك الحق المستقيم .

محمد سلام مدكور
أستاذ الشريعة بكلية حقوق القاهرة

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٢ —

حدث مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « خرج عبد الله ، وعبيد الله ، ابنا عمر ابن الخطاب ، فى جيش إلى العراق ، فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى ، وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهل ، ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت ، ثم قال : بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون الربح لكما ، فقالا : وددنا ذلك ! ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال ، فلما قدما باعا فأربحا ، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا ، فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ! أديا المال وربحه ! فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيد الله فقال : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ! ، لو نقص المال أو هلك لضمناه ، فقال عمر : أدياه ! فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله ، فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا ، فقال عمر : قد جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب نصف ربح المال » .

* * *

اتصلت هذه القصة بفقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ لما ورد فى آخرها من قضائه بأن يكون مال الدولة الذى حمله إليه ولداه : عبد الله ، وعبيد الله قراضا : للدولة نصف ربحه ، ولهما النصف .

وفى هذه القصة جوانب من الفقه :

الأول : أن أبا موسى أمير البصرة أراد أن يكرم عبد الله وعبيد الله ، ففكر فى الوسيلة التى يتوسل بها إلى هذا الإكرام . فرأى أن ينفعهما نفعا ماليا .

وإنما اتجه إلى إكرامهما لمعنى شريف يصح أن يقصده ولى الأمر ، ذلك هو أن عبد الله وعبيد الله كانا فى أمر متصل بصلاح المسلمين ، إذ كانا جنديين فى جيش بالعراق ، فلما انتهى عملهما وقفلا راجعين ؛ كان من

الطبيعي أن ينظر إليهما الأمير نظرة الرضا والإعجاب بما قاما به من خدمة عامة للمسلمين، فإذا انضم إلى ذلك أنهما شخصيتان لامعتان بمالهما من العلم والفضل والتبريز ؛ ظهر المعنى النفسي الذي سيطر على الأمير ووجهه إلى الترحيب بهما والتفكير في تكريمهما، وتدبير الوسيلة إلى تحقيق هذا التكريم .

وهذا الصنيع من أبي موسى لا ينبغي أن يحمل على الرغبة في إيثارهما بالنفع ؛ تقربا لهما أو لأبيهما ، فما كان أبو موسى بالذي يقصد إلى ذلك وهو الصحابي الجليل ولكنه أمير تصرف في بساطة وسماحة ، لأنه لا يعاني أية عقدة نفسية تجعله يتردد فيما فعل ، أو يخشى أن يؤول صنيعه تأويلا سيئا ، ومما يدل على ذلك ، وعلى أن الأمر قد أخذ بروح السماحة واليسر أن عبد الله وعبيد الله لم يترددا في قبول ما عرض عليهما أبو موسى بل قالا في صراحة وددنا ذلك ، فإذا عرفنا سيرتهما ، وأنهما كانا من الورع والتقوى بمكان عظيم ، وأن كلا منهما كان من المثل القوية للشباب العف النزيه المجاهد المضحي في عهد الإسلام الأول ؛ كان لنا أن ننظر إلى الأمر من ناحيته السهلة الفطرية : أمير أراد أن يكرم شابين أبليا بلاء حسناً في خدمة المسلمين ، فعرض عليهما أمراً لا يضر بالصالح العام ، وفيه نفع لهما ، فقبلاه بالروح الذي أملاه ، ولم يجدا في ذلك العرض ولا في هذا القبول ما ينافي المصلحة العامة أو يكون شبهة عليهما .

وهذا يعطينا فكرة صالحة في السياسة الحكمية ، وهي أنه لا مانع عند حسن القصد ونبل الغاية من أن يكرم من يستحق التكريم بما لا ضرر فيه على الصالح العام .

هذا هو التحليل الصحيح لموقف أبي موسى وموقف عبد الله وعبيد الله .

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد نظر إلى الأمر من زاوية أخرى فوقف موقف المتشدد المتحفظ ، وهو حقيق بهذا الموقف كرئيس عام للدولة ، يرى من واجبه أن ينأى بنفسه وبولديه عن كل شبهة ، ويترفع بسمعته وسمعتهما عن كل مقال ، ولقد كان صريحا في الإعراب عن ذلك ، إذ قال لابنيه مقررا إياهما بما يعرف : « أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ » فلما أجاباه بالنفي قال : « ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ! أديا المال وربحه ! » . وإنما أراد بذلك أن يبين لابنيه مظهر المحاباة في فعل أبي موسى كما لعله يرد على خواطر من يريدون النقد ، ولا يحسنون الظن ، وهو في الواقع يعرف حسن نية أبي موسى ، وحسن نية ابنيه ، غير أنه كان شديد التورع في كل ما يتصل بنفسه

أو أهله ، لمكانه من رياسة الدولة ، ولذلك كان يقسم لعبد الله بن عمر أقل مما يقسم لغيره من المهاجرين الأولين ، وكان يعطى حفصة ابنته مما يصلح أزواج النبى صلى الله عليه وسلم آخر من يعطى ، فإن كان نقصان ففى حصتها ، وما عرف عنه أنه خص نفسه أو أحداً من أهل بيته أو ممن ينتمى إليه بمنفعة من مال الله .

وبهذا يتبين أن موقف عمر كخليفة ورئيس عام للدولة يحمد له ، كما أن موقف أبى موسى وصاحبيه موقف لا يذم .

وقد كان لكل من هذين الولدين الصالحين موقف من أبيه عند ما طالبهما بالمال وربحه فأما عبد الله فسكت وأمسك عن مراجعة أبيه برأيه وانقيادا له ، واتباعا لمراده ، وقد جرى فى ذلك على طبيعته وخلقه المعروف عنه من عدم المشاحة ، ومن إيثار التى هى أقرب إلى المودة والسلام ، وأما عبيد الله فراجع أباه طلبا لحقه ، واحتج عليه بأن قال: هذا مال قد ضمناه ولو دخله نقص لجبرناه .

وكلاهما موقف مقبول من صاحبه ، فعبد الله يمدح لأدبه وبره ، وعبيد الله لا يذم على استمساكه بحقه ، ودفاعه بالحجة عما استباحه لنفسه ، بل لعله أولى بالمدح من أخيه ، لأنه جمع الشجاعة والأدب والاستمساك بالحق .

هذا هو ما يستخلص من تلك القصة ، أو بعض ما يستخلص منها ، من «فقه الأدب» أو من « أدب الفقه » .

ويبقى بعد ذلك ما يستخلص منها من فقه الأحكام ، وذلك هو الجانب الثانى من الجوانب الفقهية فى هذه القصة :

فمن ذلك أن يقال : ماهو التكييف الفقهى لصنيع أبى موسى مع عبد الله وعبيد الله ؟ هل أراد بذلك إحراز المال فى ذمتهما على أنه وديعة وأمانة ؟ أو أراد منفعتهما بالسلف ؟ .

فإذا قلنا بالأول كان من مقتضاه أنه لو ضاع المال وهلك لما كانا ضامنين ، لأن المودع أمين فلا ضمان عليه .

وإذا قلنا بالثانى كان من مقتضاه أنهما ضامنان .

والواقع أن الصورة القانونية أو الفقهية لهذا الصنيع إنما هى صورة سلف أريد به منفعة المتسلف ، وقد صرحت الرواية بذلك حيث يقول لهما أبو موسى : « فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا . . الخ » . وقواعد الشريعة تفرق بين السلف الذى يقصد به منفعة المسلف ، والسلف الذى يقصد به منفعة المتسلف ، فالأول غير جائز ، والثانى جائز .

ويتصل بهذا مسألة تعرف عند الفقهاء ، بمسألة « السفاتج » لها شبه بمعاملات تقع فى عصرنا :

والسفاتج جمع « سفتجة » وهى أن تعطى مالا لرجل فيعطيك صكا يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له ، أو منه هو ، فى مكان آخر ، وهى تشبه ما تدفعه لتاجر فى القاهرة لتأخذه منه أو من عميل له فى سوريا أو فى لندن مثلا .

وقد نظر المالكية فى هذا اللون من التعامل فقالوا : إن كان قد أسلفه المال قاصداً الانتفاع من ذلك لنفسه بإحراز المال فى ذمة المتسلف إلى بلد القضاء ، فالمشهور من المذهب أن ذلك غير جائز ، وروى أبو الفرج جواز السفاتج ، قال الباجى فى شرح الموطأ : ولعله أراد ما لم يقصد المسلف منفعة نفسه ، والأظهر منعها إذا قصد ذلك .

والذى أراه أن مجرد قصد المسلف أن يحرز ماله إلى بلد القضاء ليس هو السر فى تحريم هذه المعاملة ، لأن مجرد هذا القصد ليس منافياً لأصل فى الشريعة ، بل هو موافق لما تقرر فيها من أن للإنسان أن يعمل على المحافظة على ماله ، فإذا كنت فى بلد ما ، ومعى مال ، وقد خشيت أن يضيع منى هذا المال إذا سافرت به ، فلى أن أعطيه لشخص ثم آخذه منه أو من عميله فى بلد آخر ، ولا أكون بذلك قد ظلمت أحداً فإنما هى وديعة أودعتها أميناً .

إنما السر فى هذا التحريم هو ما يصحب هذه المعاملة من خصم شىء من هذا المال فى نظير الضمان ، فهو من باب الضمان بأجر ويسميه الفقهاء « الضمان بجعل » والشريعة لا تأذن به ؛ لأنه من باب أكل أموال الناس بالباطل ، وهو يؤدى إلى قيام فريق من الناس لا كسب له إلا عن طريق جاهه أو قوته أو حيلته أو قدرته على التهريب أو نحو ذلك .

ولهذا ينبغى أن يكون التعليل لما رواه أبو الفرج من جواز « السفاتج » عكس ما قاله الباجى، فيقال : لعله أراد ما لم يقصد المتسلف منفعة نفسه بإسقاط بعض ما تسلفه عند القضاء لأنه حينئذ غير متسلف فى الحقيقة ، بل هو ضامن بجعل .

وبعض الفقهاء يكيف صنيع أبى موسى على وجه آخر فيقول : إن أبا موسى إما أن يعتبر فى هذا الصنيع أميرا رأى أن ينفع بشىء من مال الدولة بعض أبناء الدولة أو أبناء الشعب، وحينئذ يكون متصرفا فى هذا المال بحكم الولاية عليه ، فلو فقد المال ولم يكن عند عبد الله وعبيد الله ما يوفى به لما ضمنه أبو موسى ، وإما أن يكون أبو موسى قد تصرف

هذا التصرف باعتباره الشخصى فتسلف المال ثم أسلفهما إياه ، وحينئذ يكون متضامنا معهما فيما لو هلك .

ونظرة عمر تدل على أنه خرج صنيع أبى موسى على التكييف الأول ، لا على الثانى ، لأنه تعقب فعله على أساس أن هذا المال بقيت له صفة أنه مال للدولة ، فطالب به وبربحه ، فكأنه قال لابنيه : إن هذا المال على وصفه الأول : « مال الله » ، فلم يتغير عنه هذا الوصف ، وإذن فربحه لا حق به كالشجرة تلحق بها ثمرتها ، أو كالشاة يلحق بها سخلها ، وإذن فعليكما أن ترداه إلى مع ربحه .

أما نظرة ابنه عبيد الله فليس فيها إقرار لنظرة عمر ، ولذلك يقول له : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص المال أو هلك لضمناه ، وهو يقصد لضمنته أنا وأخى ولكان أبو موسى ضامنا لنا ، فليس للدولة إذن إلا أصل المال ، وليس لها حق فى ربحه ، وإنما الربح تابع للمخاطرة ، والمضمون لا مخاطرة فيه ، أو كما يقول الفقهاء « الخراج بالضمان » .

ويتبين من هذا كله أن المسألة كانت ذات وجهين ، أو تحتمل احتمالين .

ولذلك لم يستمسك عمر برأيه فى أخذ المال كله ، ولم يرض بما طالبه به ابنه من ترك الربح كله له ولأخيه ، ولكنه قبل الرأى الذى أشار به أحد جلسائه فجعله « قراضا » ، وهو نوع من الشركة يكون المال فيه لأحد الشريكين والعمل من الثانى .

وبذلك توسط عمر ، كأنما استقر نظره على أن ابنيه عملا فى هذا المال بوجه مشروع ، وعلى وجه يعتقدان فيه الصحة دون أن يبطلا بذلك مقصودا لمن يملكه ، فلم يجز أن يبطل عليهما عملهما ، فردهما إلى قراض المثل بالنصف وهو أن يكون الربح بين صاحب المال ، وصاحب العمل نصفين .

ومن المعروف عن عمر أنه كان يقضى بمشاطرة عماله فى أموالهم ، ونظرته فى ذلك قريبة من نظرته هنا ، ولذلك كان الحكم واحدا ، فإن أمرهم دائر بين أن يكونوا قد ثمروا أموالهم بجهودهم الشخصية ، فكانت لهم إبل أو غنم أو أفراس نتجت مثلا ، أو يكونوا قد ثمروا هذه الأموال معتمدين على جاههم فى العمل والولاية ، فلم يحكم بتجريدهم من جميع المال ، ولم يتركه كله لهم ، ولكن توسط فترك لهم نصفه ، وأخذ للدولة نصفه .

وينبغى أن يفهم أن هذا إنجاز لرئيس الدولة ، فإنما يجوز له إيثارا للمصلحة العامة عند الإشتباه ، ولو أن عمر كان شخصا عاديا

ليس له صلة بالدولة لما كان له أن يشاطر أو يقاسم ، أو يحكم له بذلك ، لأنه حينئذ يكون إيثارا له بحال لم يقم دليل على استحقاقه إياه ، وإنما قامت شبهة على ذلك فقط ، والأموال لا تنزع من أيدى أصحابها وتعطى لغيرهم بمجرد الاشتباه .

* * *

وقد بقى بعد ذلك جانب من الجوانب الفقهية التى تثيرها هذه القصة :

ذلك أنها تضمنت إباحة « القراض » وهو : تلك المعاملة التى تقوم على أساس المشاركة بين رأس المال والعمل ، وأهل العراق يسمونها المضاربة أما تسميتها بالقراض فهو لغة أهل الحجاز ، وسر التسمية بهذا وذاك مذكورة فى كتب الفقه .

والذى يهمنا ذكره هنا هو أن العلماء مجمعون على أن تلك المعاملة لا تستند إلى نص مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما أجيزت ، لأنها كانت معاملة معروفة فتعامل بها الصحابة فكان ذلك إجماعا منهم على صحة التعامل بها .

وفى ذلك يقول الشوكانى فى كتابه « نيل الأوطار » (١) :

« هذه الآثار تدل على أن المضاربة كان الصحابة يتعاملون بها من غير نكير ، فكان ذلك إجماعا منهم على الجواز ، وليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا ما أخرجه ابن ماجة من حديث صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فيهن البركة : البيع إلى أجل ، والمقارضة ، وإخلاط البر بالشعير للبيت لا للبيع » . لكن فى إسناده نصر بن القاسم عن عبد الرحيم بن داود ، وهما مجهولان » ، « وقال ابن حزم فى مراتب الإجماع ، كل أبواب الفقه فلها أصل من الكتاب والسنة حاشا القراض ، فما وجدنا له أصلا فيهما البتة ، ولكنه إجماع صحيح محرر . وهذا مثل لما قلناه فى بحث سابق من أن المعاملة يكفى فى جوازها عدم ورود النص بالتحريم لها ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

---

[١] ص ٢٦٧ ج ٥ طبعة المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥٧ هـ .

ذو القرنين في القرآن والتاريخ

للأستاذ نور الحق تنوير

دار نقاش على صفحات جريدة الأخبار الغراء بين الأستاذين العقاد والغزالى . فنفى الأستاذ العقاد الرأى الذى ذهب إليه عامة المفسرين من أن يكون الإسكندر المقدونى هو المقصود بذى القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف . وتابع الأستاذ الغزالى رأى المفسرين . (أخبار اليوم الصادر فى ٢٠ فبراير و ٢ مارس سنة ١٩٥٩ م) .

لقد استهل القرآن المجيد الحديث عن ذى القرنين بقوله : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ...) ويتضح من ذلك أن السؤال كان موجها إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وأجمعت المصادر المختلفة أن أصحاب السؤال كانوا من اليهود ، ومن البديهى ألا يكون سؤالهم إلا عن رجل له أثر عظيم فى تاريخهم .

ولكى يمكن القطع برأى فى شخصية ذى القرنين يجدر بنا أن نتدبر أولا ـ الأوصاف التى نعته بها القرآن الكريم ، ومدى انطباقها على أى من الشخصيات التاريخية التى يهم اليهود أمرها .

وصف القرآن المجيد ذا القرنين بالصفات التالية :

١ ــ كان ملهما من الله تعالى ويحظى بالرؤيا الصادقة .

٢ ــ كان فاتحا عظيما إذ خرج من وطنه وغزا الأراضى غربا حتى وصل إلى عين حمئة حيث كانت الشمس تغرب من ورائها .

٣ ــ اتجه شرقا وفتح بعض البلدان .

٤ ــ ثم ركز سيره إلى المنطقة التى كانت معرضة لهجمات وأقام سداً تلبية لطلب الأهالى ليصد عنهم هجمات المغيرين «يأجوج ومأجوج» .

فهل هذه الصفات كلها تنطبق على الإسكندر المقدونى وبخاصة صفة الإلهام من الله تعالى أو الرؤيا الصادقة ، والقبولية عند الله ، طبعا لا ، كما قرر ذلك الأستاذ عباس العقاد .

فمن هو إذن ذو القرنين ؟ ! ! ثم إذا أنعمنا النظر فى التاريخ نجد أن هذه الأوصاف تنطبق على أحد ملوك فارس ـ واسمه بالفارسية : «خورس» وبالعربية «قورش» أو «كورش» (Cyrus) .

هذا ويساعدنا سفر دانيال من التوراة فى تعيين هذه الشخصية إلى حد كبير . إذ جاء فى الإصحاح الثامن الفقرة ٣ - ٥ . « ورأيت فى الرؤيا وأنا عند نهر أولاى فرفعت عينى ورأيت ، وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان ، والواحد أعلى من الآخر . . وللأعلى طالع أخيرا . رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ، ولا منقذ من يده ، وفعل كمرضاته وعظم ، ثم يفسر دانيال هذه الرؤيا فى الفقرة العشرين من نفس الإصحاح حيث يقول : « أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى وفارس » .

ومن هذا نفهم أن المراد من ذى القرنين أحدملوك « مادى» أى: « مبديا »و « فارس» حسبما ذكر فى رؤيا دانيال .

وبقى علينا أن نبحث عمن ينطبق عليه الوصف القرآنى من بين هؤلاء الملوك !! .

أولا : نجد أن أول وصف فى القرآن ينطبق على « قورش » (٥٥٣ - ٥٢٨ قبل الميلاد) إذ أنه كان يحظى بالإلهام ويتمتع بسمعة طيبة وكان متمسكا بالورع والتقوى كما روى عن بعض الأنبياء فقد جاء فى سفر أشعيا «هكذا يقول الرب لمسيحه ، لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما ، وأحقاء ملوك وأحل ، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق ، أنا أسير قدامك والهضاب أمهد ، أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد أقصف ، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابى لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك إله اسرائيل لأجل عبدى يعقوب . وإسرائيل مختارى، دعوتك باسمك ، لقبتك وأنت لست تعرفنى » (إصحاح ٤٥ الفقرة من ١ إلى ٥) .

ومن هذا يتجلى بوضوح أن قورش كان قد بورك من الله تعالى ولذا سمى بالمسيح ثم نجد أن ما أوتى من الملك والسلطان كان من فضل الله فحسب . وهذا الوصف ينطبق على ما جاء بالقرآن الكريم فى حق ذى القرنين . « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » . كذلك ورد فى سفر أشعيا : أنا أسير قدامك والهضاب أمهد « مما يشير إلى أسفاره الطويلة ، وهو ما يؤكده القرآن الكريم ، ثم نقرأ فى إلهام أشعيا « أنى أنا الرب الذى يدعوك ، باسمك إله إسرائيل وهذا يطابق عبارة القرآن الكريم « قلنا ياذا القرنين » ثم جاء فى هذا الإلهام « لقبتك وأنت لست تعرفنى » وفى ذلك إشارة إلى أن ذا القرنين .ما كان يعبد الله حسب أسمائه وصفاته التى وردت فى التوراة ، بل كان يعبده بأسماء أخرى وهذا ثابت من التاريخ إذ أن

قورش كان من متبعى زرادشت ، ومن المعلوم أن الديانة الزرادشتية أقرب إلى الإسلام من الديانات الأخرى فيما يتعلق بالإيمان بالبعث ويوم القيامة .

ومن الناحية التاريخية نجد ذكر قورش مشفوعا بالخير والمعرفة ، وأنه كان محبوبا من رعاياه وأعدائه على السواء ، وكان عندما يغزو أى بلد من البلاد فإن أهل ذلك البلد كانوا يفتحون له الأبواب لسمعته الطيبة وتمسكه بالعدل ، فإلى جانب ما سبق من بيان مقامه فى التوراة نلخص ما رأى التاريخ فيه وما ذكره عن أخلاقه الحسنة وسيرته الطيبة نقلا عن كتاب :

(Historians history of the world)

قال أجزنوفون : « لقد فكرت ذات مرة . وخطر لى أن من السهل السيطرة على أى نوع من المخلوقات عدا الإنسان ، ولكن عند ما تدبرت أمر قورش الذى جعل كثيرا من الناس والمدائن والشعوب يدينون له بالطاعة اضطررت عندئذ إلى أن أعدل عن وجهة نظرى ، وأن أرى أن حكم الناس ليس من الأمور المستحيلة بل وليس من الأمور الصعبة إذا ما مارس الإنسان الحكم بتفهم ومهارة فأنا أعلم أن من الناس من أطاعوا قورش عن طيب خاطر مع أنه يبعد عنهم مسيرة أيام عديدة ، بل منهم من كان يبعد عنه عدة شهور ومن هؤلاء الناس من لم يروه . بل ومنهم من كانوا على يقين من أنهم لن يروه ، ومع ذلك فقد كانوا يسارعون إلى الخضوع لسلطانه وذلك لأنه بز جميع الملوك الآخرين ، كما بز أولئك الذين ورثوا السلطان عن آبائهم ، أو نالوه بجهودهم .

وبعد ما عدد أجزنوفون البلاد التى سيطر عليها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا قال : « لقد كان بمقدوره أن يبث فى الآخرين شدة الرغبة فى إرضائه ، حتى أنهم ليبغون أن يظلوا محكومين بأفكاره ... » (صفحة ٥٩٦-٥٩٧ ، من المجلد الثانى من كتابه المذكور) .

هذا وقد ساق نفس المرجع الآراء الحديثة عن قورش . والتى نجملها فيما يلى :

« إذا عد قورش عظيما فذلك لأنه أحرز انتصارات لم يسمع بها من قبل بواسطة وسائل لا يؤبه لها ، ولقد كان عظيما أيضاً إذا ما قدرنا أن الحرب فى سبيل العدالة تعد من العظمة حتى لو أدت إلى الهزيمة . . . وفضلا عن ذلك فقد علا إلى أوج مدارج الإنسانية إذ لم يلطخ درعه بقطرة دماء سفكت بوحشية أو أريقت لدافع الانتقام المخيف أو القسوة كشأن فمال ابن أوليمب - الإسكندر - المشينة كما عفا عن أعدائه المهزومين ووهب لهم

حياتهم - وبذل لهم من عطاياه ... أنه لم يقتل بخسة أهل بلده كما فعل الإسكندر - الإله المجنون . . . وفوق هذا كله فقد حيته جماعة اليهود الصغيرة ورحبت به عند مياه بابل بما لم يفعلوه لأى مخلوق آخر من قبل ومن بعد ولقبوه بالمنتصر والمنقذ والمحرر والمخلص وحبيب الله وسيد الأرضين . . . (راجع الصفحات من ٥٩٧ إلى ٦٠٠ من المرجع المشار إليه آنفا) .

أما أن قورش كان يتلقى الإلهام فقد ورد بصفحة (٥٩٤ - ٥٩٥) من نفس المرجع أنه رأى فى الرؤيا أن أكبر أبناء هيستابس - ابن أخيه - قد امتدله جناحان على كتفيه أحدهما يظل آسيا والآخر أوروبا . وقد أول قورش هذه الرؤيا على أنها تشير إلى أن ذلك الولد - أى داريوس - يدبر مؤامرة ضده . ومع أن هذا التأويل كان خاطئا إلا أن تعبير الرؤيا الصحيح ظهر فيما بعد عندما تسنم داريوس الملك وشملت فتوحاته آسيا وأوروبا .

هذا وتشير التوراة أيضا إلى أن قورش كان ملهما إذ جاء فى سفر عزراء « وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم أرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا ، هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض - دفعها لى الرب إله السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا » - راجع الإصحاح الأول ، الفقرة من ١ إلى ٣) .

ويتجلى من هذا بوضوح أن الله تعالى ميزه وكرمه وأعطاه كثيراً من البلدان ومكنه منها وأخبره عن طريق الإلهام أن يطلق سراح اليهود الذين أسروا زمن نبوخذ نصر ويسمح لهم بالعودة إلى أورشليم ، وقد نفذ قورش ذلك فعلا .

الثانى — والوصف الثانى الذى نعرفه من القرآن الكريم فى شأن ذى القرنين هو امتداد فتوحاته نحو الغرب إذ قال الله تعالى : (فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) ... أى أنه اتجه غربا إلى أن بلغ منطقة مياه ذات لون أسود ، أى ماء ممتزج بالطين وهذا الوصف ينطبق على البحر الأسود Black Sea .

وبالفعل حدث ذلك لقورش ، حينما قوى بفضل الله تعالى وبسط سلطانه على بلاد ميديا وازداد نفوذه حتى أثار حقد الأعداء ثم هاجمته بعض البلاد الغربية فاضطر قورش للدفاع عن وطنه ومعاقبة المعتدين وهكذا خرج فاتحا واستولى على بابل ونينوا وبعض

المستعمرات اليونانية التى كانت فى آسيا الصغرى . الممتدة إلى بحر مرمرة . إلى أن وصل إلى البحر الأسود (عين حمئة) وهذه الفتوحات كلها ثابتة من التاريخ . (راجع المرجع السابق ذكره . وصفحة ٤٠٣ من المجلد الرابع من دائرة المعارف اليهودية) .

الثالث : أما الوصف الثالث الذى جاء فى القرآن الكريم . . . فهو أنه حينما استولى ذو القرنين على البلاد الغربية اتجه نحو الشرق كما قال الله : (ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) . والتاريخ يؤيد ذلك أيضا إذ أن قورش بعد أن أنهى فتوحاته فى الغرب واصل غزوه فى الشرق حتى استولى على بخارى وسمرقند وأفغانستان وبلوخستان وضمها إلى مملكته ، وجدير بالإشارة أن هذه الجهات وعلى الأخص بلوخستان الصحراوية تعد من المناطق التى تلحفها الشمس ويتعرض أهلها لقسوة لهيبها دون حجاب من مزروعات أو غابات . وهو ما يشير إليه القرآن (لم نجعل لهم من دونها سترا).

(راجع كتاب Historians History of the werld) صفحة ٥٩٣ من المجلد الثانى .

الرابع : ـ والصفة الرابعة التى وصف بها ذو القرنين فى القرآن الكريم هى أنه بعد أن واصل فتوحاته غربا وشرقا اتجه اتجاها آخر حيث أقام سداً منيعاً حسب طلب أهالى تلك المنطقة للدفاع عن هجمات يأجوج ومأجوج (ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما . . .)

وفى هذا الصدد يشير التاريخ والعهد القديم إلى الأمور التالية .

١ ـ أن قورش حارب يأجوج ومأجوج ودافع عن بعض مناطق مملكته من غاراتهم .

ويجدر بنا بادئ ذى بدء أن نعين أولا القبائل أو الأقوام التى سميت يأجوج ومأجوج ، وتساعدنا التوراة فى تعيين يأجوج ومأجوج إلى حد ما حيث جاء فى سفر حزقيال : « يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه » . (الإصحاح ٣٨ الفقرة الثانية) .

ويفهم من هذا أن يأجوج ومأجوج كانوا من سكان المناطق الشمالية وأن موطنهم روس وما شك وتوبال. كذلك يفهم من التوراة أن أحد ملوك الفرس يحاربهم كما ورد فى حزقيال (الإصحاح ٣٨ الفقرة الخامسة) ويستنتج من ذلك أيضا أن فى وقت هذا النبأ كانت منطقة من مناطق أرض فارس تحت سيطرة يأجوج .

أما من الناحية التاريخية فنجد أن يوسفيوس

وهو من المؤرخين القدماء يقول بأن يأجوج ومأجوج من قبائل سيثين (Siythien) كما أن التوراة أيضاً تؤيد هذا القول إذ جاء فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين فى الفقرة الثانية « بنو يافث جومر ويأجوج وما داى وياران وتوبال وماشك وتيراس » ولفظ جومر يعبر عن السومريين (Cimmerions) والذين كانوا يقطنون شرق آسيا الصغرى ، وما داى يقصد به الميديون والمنطقة بين جومر وميديا تسمى بالسومريين .(Cimm-erions)

هذا ويقول جيروم المؤرخ العظيم أن قبائل مأجوج تسكن فوق جبال قوقاز وبحيرة قزوين وهذه المنطقة الشمالية التى كان يقطنها السيثيون (Siythiens) . راجع صفحة ١٩ من المجلد السادس من دائرة المعارف اليهودية) .

وبعد تعيين يأجوج ومأجوج يجدر بنا أن نبحث عما إذا كانت هذه القبائل قد غلبت الفرس فى عصر من العصور كما ذكرت التوراة أم لا !.

إن التاريخ أيضا يؤيد احتلال السيثيين لمنطقة الميديين . فقد جاء فى صفحة ٥٨٠ من المجلد الثانى من كتاب Historians History of the world .

« كما وأننا بينا قبل ذلك أن فارس وقعت فى أيدى السيثيين أو بعبارة أخرى استولى عليها ملك ميديا (والميدية كانت تحت سيطرة السيثيين) وعاصمة ذلك الملك كانت اكبتانا (Ecbatana) ثم حررها قورش الأعظم من أيدى السيثيين .

ويتجلى من هذا بوضوح أن جزءى فارس وقعا تحت أيدى يأجوج ومأجوج ويثبت أيضا أن قورش هزم يأجوج ومأجوج وحرر ما كان فى أيديهم من أرض فارس ، وثابت من التاريخ أيضا أن هجمات هذه القبائل تكررت على الأقوام الجنوبية إذ يقول هيرودوت أن قبائل السيثيين كانت تهاجم البلاد الجنوبية من الشمال بعد اختراق المنطقة ما بين جبال القوقاز وبحر قزوين .

٢ - بقى بعد ذلك ما جاء فى القرآن الكريم من أن ذا القرنين أقام سدا منيعا لصد هجمات يأجوج ومأجوج وهنا يجدر بنا أن نبحث أولا عما إذا كان بهذه المنطقة سد أم لا ! فنجد أن التاريخ يؤيد وجود سد فى المنطقة التى عينها هيرودوت كطريق لهجمات يأجوج ومأجوج (أى السيثيين) وهو ما عرف لدى المؤرخين باسم (دربند) كما أن هناك مدينة بهذا الاسم فى داغستان على ساحل بحر قزوين ومعنى هذا الاسم بالفارسية يشير إلى ما اشتهرت به من الأسوار التى كانت تسد

الممر بين الجبل وبحر قزوين . ولعل تسمية هذه المنطقة « بدربند » يرجع إلى وجود الحاجز أو السد الذى كان يمنع السيثيين عن الهجمات .

هذا وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « دربند » لقد كان هناك سد علوه تسعة وعشرين قدما وعرضه عشرة أقدام وطوله خمسين ميلا وكانت تتخلله بعض الأبواب الحديدية كما كانت توجد فيه أبراج للمراقبة على مسافات قصيرة ؛ للإشراف منها على المنطقة وكان هذا السد ممتدا (بين جبال قوقاز وبحر قزوين) . . واشتهر هذا الجدار باسم سد الإسكندر ثم إن « قياد » أحد ملوك الساسان أجرى فيه بعض الإصلاحات .

من هذه التفاصيل كلها يتضح أنه كان هناك سد بين بحر قزوين وجبل القوقاز الذى أقيم لمنع السيثيين (قبائل يأجوج ومأجوج) من الإغارة على الأقوام الجنوبية إلا أننا لا نعرف بالضبط من الذى أقام هذا السد بيد أن القول بأنه بنى فى عصر الإسكندر المقدونى يعد بعيدا عن المعقول إذ أننا نعرف من التاريخ أن الإسكندر هزم دارا - ملك الفرس وقتله فى صيف عام ٣٣٠ قبل الميلاد ومع ذلك لم يستول على إيران كلها ، بل كانت هناك بعض المقاطعات الأخرى التى قاومته بجيوشها وقد واصل الإسكندر تقدمه دون أى توقف ولكن ما أن تقدم فى تلك المناطق حتى بدأت بعض الاضطرابات فى بعض الجهات المقهورة . فاضطر إلى العودة لإخمادها .

ولما تم له قمع هـــذه الحركات تقدم نحو « كابل » لإخماد الاضطرابات التى حدثت فى جيوشه هناك . ثم واصل سيره فى شتاء عام ٣٢٩ قبل الميلاد نحو الهند حسبما يقوله المؤرخون (راجع صفحة ٥٩٦ من المجلد الأول من دائرة المعارف البريطانية) .

على كل فهو قد قطع هذه المسافات كلها بغاية السرعة . حتى إن بعض المؤرخين ليتشككون من ذلك ، ومهما يكن من أمر فإن الإسكندر لم يمكث فى أية منطقة أثناء غزواته ، بل واصل سيره إلى أن بلغ الهند ثم رجع عن طريق البحر ووصل إلى إيران عام ٣٢٤ قبل الميلاد ومكث هناك فترة قصيرة كما أنه اضطر إلى إخماد الثورة التى حدثت فى جيوشه ثم واصل عودته إلى بلاده غير أن الأجل وافاه فى الطريق فى ١٣ يونيو من سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .

ومن هذا نفهم أنه ما كان بوسع الإسكندر أن يبنى مثل هـــذا السد العظيم وربما اختلط هـــذا الأمر على بعض المؤرخين الغربيين فنسبوا هذا السد إليه ، متأثرين بما ذهب إليه المفسرون المسلمون من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى .

وبالطبع لا يكفينا ما ثبت من أن الإسكندر لم يقم هذا السد ، بل إننا نحتاج أيضا إلى بعض الأدلة الأخرى التي وإن كانت لا تثبت بصورة قاطعة قيام هذا السد في عصر قورش إلا أنها تدل على أنه هو الذي أقام هذا البناء وترجح ذلك بما يقرب من اليقين.

أولا — نعرف من التاريخ أن داريوس الأول تولى زمام ملك فارس بعد ابن قورش الذي كان قد رآه قورش في الرؤيا مسيطرا على الغرب والشرق على السواء ، كما نعرف أيضا أن الامبراطورية الإيرانية قويت فعلا في عصر داريوس الأول، وأنه حدث مرة أن هاجم داريوس قبائل السيثيين لإضعافهم وإخماد ثوراتهم واختار طريق الهجوم من الناحية الأوروبية . أي أنه اخترق منطقة اليونان ، ثم أغار عليهم ولا نجد هناك أي مبرر معقول لاختيار هذا الطريق الطويل لتأديب السيثيين مع أنهم كانوا يقطنون بالقرب من بلاده نحو الشمال . ومن الممكن أن نستنتج من هذا الحدث بسهولة أنه لما أقام قورش سدا بين الجبل وبحر قزوين ، كان من الصعب على داريوس الهجوم عن طريق بعض الأبواب الصغيرة في السد، وبخاصة حينما كانت ترافقه جيوش كبيرة إذ أن مثل هذا الهجوم ما كان ليخلو عن الخطر كما وأن تحطيم السد كان أخطر ، ولذا سلك داريوس ذلك الطريق الطويل بعد أن تحمل كثيرا من الصعوبات والعوائق في هذا السبيل لكي يهاجم السيثيين من ناحية ويحصرهم خلف السد من ناحية أخرى .

الثاني : ـ والأمر الثاني الذي يمكن استنباطه في هذا الصدد هو أنه إذا كان السد غير قائم في عصر داريوس الأول فإننا لا نتوقع من ملك عظيم مثله اشتهر بالعقل والحكمة أن يترك الطريق السهل بين الجبل وبحر قزوين مفتوحا للأعداء ويختار الطريق الطويل الذي يبلغ حوالي ألف ميل لمعاقبة هذه القبائل . ويعرض بلاده لغارة هؤلاء الناس .

فمن الواضح إذن أنه لابد وأن السد كان قائما وإلا لهاجم السيثيون بلاد الفرس أثناء مسير داريوس في ذلك الطريق الطويل . . . ثم حينئذ ما كان بمقدوره أن يحافظ على دولته لبعده عنها كما أن الدولة ما كانت تقدر أن ترسل بعض النجدات إليه ، فاختيار داريوس الأول هذا الطريق الطويل من جهة أوروبا بكل اطمئنان يدل على أنه ما كان يخاف من منطقة « دربند » (أي ما بين جبل قوقاز وبحر قزوين) لأنه كان يعرف أن قبائل السيثيين لا تقدر أن تهاجم بلاده ؛ لوجود السد في طريقهم .

إن الأوصاف الأربعة التي ذكرها القرآن

الكريم فى شأن ذى القرنين تنطبق بجلاء على قورش الملك العظيم ، وإذا كان التاريخ لم يتضمن نصا صريحا على أن قورش هو الذى بنى سد « دربند » إلا أن نسبة بناء السد إلى هذا الملك تبلغ حد اليقين عن طريق الاستنباط ، وعلى الرغم من قلة الأنباء التى وصلت إلينا عن ذلك العصر فقد ثبت من التاريخ قطعا أن السيثيين احتلوا بلاد قورش قبل توليه زمام الملك ، وأن هجماتهم كانت متوالية ومتعاقبة على الفرس والبلاد الجنوبية من تلك المنطقة ، ثم يدلنا التاريخ بالأدلة القاطعة على أن هجمات السيثيين عن طريق « دربند » (الطريق ما بين جبل قوقاز وبحر قزوين) انقطعت تماما بعد عصر قورش .

والنتيجة التى نصل إليها من هذا البحث الطويل هى أن المراد من ذى القرنين الذى ذكر فى القرآن الكريم هو قورش (٥٥٣ - ٥٢٨ قبل الميلاد) مؤسس الامبراطورية الفارسية والذى استولى على بلاد ميديا وآسيا الصغرى وبابل والذى امتدت رقعة ملكه شرقا وغربا على السواء .

ومما يعزز هذا الرأى أننا لا نجد فى التاريخ من تنطبق على سيرة حياته تلك الأوصاف التى ذكرت فى القرآن الكريم بمثل ما تنطبق على قورش .

نور الحق تنوير

هذا ظلم ... !

أعلنت محاكمة الزعيم ناظم الطبقجلى عن براءة الجمهورية العربية المتحدة من افتراءات المهداوى ، بقدر ما أبانت عن شجاعة زعيم حر من أبطال ثورة ١٤ تموز العراقية العربية .

فأمام سفاح لا يرحم ، ومحكمة لا تعدل ، نفى الزعيم ناظم الطبقجلى كل ما قيل عن تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى ثورة الموصل - وأضاف فى حدة وانفعال :

إن اتهام الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل ظلم صارخ وافتراء محض ... ثم شرح الأسباب الحقيقية للثورة .

أحفاد القرامطة

للأستاذ على العمارى

ليست هذه أول مرة ينزل فيها الوباء الشيوعى أرض الرافدين ؛ فقد اكتوى العراق فى فترة من فترات التاريخ بنار الإباحية ، وأوشكت هذه النار أن تنتشر لولا أن صدتها مصر ، وحالت دونها ودون الوصول إلى معقل الإسلام ، ولولا أن نشطت الخلافة العباسية وتنبهت للأخطار المحدقة بها وبالإسلام فقضت على القائمين بها بعد أن بذلت كثيراً من الرجال والأموال .

وإذا كانت الأمم والأفراد ، تأخذ العبر من الماضى ، وتهتدى فى حاضرها بما جرى فى تاريخها القديم فإن علينا أن نتمعن فى الأحداث والمخاطر التى حاولت أن تقضى على كل جميل فى تاريخ ديننا وأمتنا .

وقد يعييك أن تقنع صاحبك بخطورة مبدأ من المبادئ إذا اعتمدت فى محاجته على النظريات والجدل ، ومهما بلغت من ذلك فلن تصل فى إقناعه - إن كان على استعداد لأن يقتنع - إلى ما تصل إليه حين تضع يده على حادثة واحدة يتأملها ، ويرى فيها التطبيق العملى لهذا المبدأ .

وربما كان من الإسراف فى حسن الظن أن يعتقد عاقل أن أصحاب العقائد الذين يدخلون فى دين جديد رهبة أو رغبة يتخلون كلهم عن عقائدهم القديمة .

بل الحقيقة الكبرى التى تؤيدها طبائع النفوس ، وتؤكدها أحداث التاريخ أن هذه العقائد تظل عميقة الجذور فى بعض النفوس ، تراودها من حين إلى حين ، وتدفعها أحيانا إلى الثورة على الدين الجديد - إن استطاعت - فإذا خافت تلمست الوسائل للإعلان عن هذه العقائد ، وإبرازها بصورة أو بأخرى على مسرح الحياة .

وقد يخدع باحث أو مؤلف فيدافع عن أعمال واضحة صدرت عن أصحاب العقائد المدخولة يخدع بمواقف محمودة ظهرت منهم فى تأييد الدين الجديد ، ولكن الذى لاشك فيه أن من يدخل دينا راهبا من سلطان أهله أو طامعا فيما عندهم لايبالى أن يقوم بأعمال تخدم هذا الدين ، وهو يقوم بها كارها ، ولكنها المجاراة ، والمبالغة فى البعد عن الشبهات .

وأخص بالذكر أولئك الفارسيين الذين دخلوا فى الإسلام ، فلا أشك فى أن جمهرتهم تقبلت الدين الجديد ، وأحبته ، وبذلت أعز ماتملك فى سبيل نصرته ، ولكن بعضا منهم - كثروا أو قلوا - ظلوا خاضعين لعقيدتهم الأولى واقعين تحت سيطرتها حتى لتظهر على فلتات ألسنتهم أو تبدو فى أعمالهم ، وإننا لنجد كثيرا من الشواهد حين نقلب صفحات التاريخ أو نطالع تراجم الرجال .

ولقد روى أن بعضا ممن دخل فى الإسلام منهم احتال على إعادة عبادة النار فقالوا للمسلمين ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن يكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها السند والعود أبدا ، وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة عليها للعود فعلم الرشيد أنهم يقصدون من ذلك أن تكون الكعبة بيت نار ، فكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى القبض عليهم وقتلهم(١)

ومما لا ينكره مطلع على التاريخ أن جماعة من الفرس - ومن غيرهم - حاولوا فى أزمنة متطاولة أن يكيدوا للإسلام ، وهم فى الظاهر مسلمون ، وأن طرقا شتى سلكوها لهذا الغرض ، فكان وضع أحاديث لم ترد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أساطير جازت على بعض المفسرين فأدخلوها فى كتب التفاسير ، وكانت فتن بين المسلمين أوقد نارها وحضأها أعداء للإسلام ممن دخل فيه بنية سيئة ، وعقيدة فاسدة ، وحيناكان يتخذ التدين ، أو التشيع لأهل البيت وسيلة سهلة للغض من الإسلام ، بل للقضاء عليه .

ومن أبرز العقائد التى عملت على هدم الإسلام وتدمير معالمه ، وأرادت أن تحل محله المجوسية ، ولهذه العقيدة أصول حاولت أن تسيطر على العالم الإسلامى فى فترة من فترات التاريخ .

وكان سدنة هذه العقيدة ، والصادوون عنها طائفة اتخذوا من الإسلام شعارا ، وعرفوا فى التاريخ باسم (القرامطة) وكان من أبرز تعاليمهم (لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح) . وقول أحدهم : « إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها » .

وقد كانت فكرة التساوى فى الأموال راودت بعض الكتاب المسرحيين فى عهد قديم ولكن الكاتب ما لبث أن طردها من خياله وأعلن طردها فقد ورد أن أرستوفاش كتب منذ ٢٣٠٠ سنة مسرحية جاء على لسان بطلتها : « أريد أن يكون للجميع نصيب فى كل شىء فلا يكون غنى يملك الأراضى الواسعة ، وفقير لا يملك شبرا من الأرض يدفن فيه ، ولا بد أن يستظل جميع الناس بحالة واحدة فى الحياة لا يعتريها التفاوت » .

(١) كتاب الفرق بين الفرق لعبدالقاهر التميمى ص ٢٧٠ .

غير أن شخصية أخرى فى المسرحية تسأل البطلة قائلة: « ولكن من سوف يؤدى الأعمال الحقيرة فى الدولة ؟ » فتجيب البطلة : أوه . ينبغى أن يكون لنا عبيد ! .

ثم جاء (مزدك) ، فتأثر بمذهب (مانى) أحد أنبياء الفرس، ولكنه خالفه فى الناحية الاجتماعية ، كان مانى يرى أن التخلص من الشر مستحيل ، وأن استمرار العالم فى الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هى تدمير هذا العالم ، فلما جاء مزدك حوالى نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، رأى أن القضاء على الشر ممكن ، وأن الوسيلة لذلك هى (الشيوعية) قال : إن الحقد الذى يأكل قلوب بنى الإنسان، والحرب التى تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لا مصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فإذا ألغيت الملكية ، وأبيح الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ، ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود (١) .

وقضى أنو شروان على مزدك ، ولكن تعاليمه بقيت حتى ظهرت فى إبان قوة الدولة الإسلامية ، فأعلنها بابك الخرمى فى أول القرن الثالث فى عهد المأمون العباسى، وكانت نحلة الخرمية نسخة من المزدكية ، يتناولون اللذات ، ويعكفون على الشهوات ، ولهم مشاركة فى الحرم والأهل لا يمنع واحد منهم الآخر عن شىء ، وإذا استضاف أحدهم صديق لم يمنعه من شىء يريد حتى زوجته ، وكان للبابكية فى جبلهم (جبل بدين بناحية أذربيجان) ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، ويختلط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم أخذ كل من يقدر عليه .

وهم ينكحون المحارم ، ثم قضى عليهم الخليفة المعتصم بعد جهادهم عشرين سنة ، ولكن الكارثة الكبرى التى حلت بالإسلام والمسلمين هى الكارثة التى جاءت على يد القرامطة .

وينسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط (٢) ، وكان فى ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة ، والقرامطة طائفة من الباطنية ظهرت دعوتهم فى خلافة المأمون ، وانتشرت فى خلافة المعتصم ، وأول من أسس الباطنية ميمون بن ديصان

---

(١) انظر كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب جـ ١ ديانات الفرس

(٢) لأنه كان قصيرا ، يقارب بين خطواته ، وقيل لأنه كان أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت فى لغة الروم الآجر فعرب إلى قرمد ثم الى قرمط .

المعروف بالقداح ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق ، انتقل من أصبهان إلى الأهواز ثم إلى البصرة ، وأظهر دعوته فتبعه جماعة من أكراد الجبل ، ثم رحل إلى المغرب ، وانتسب أولا إلى عقيل بن أبى طالب ، ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مع أن ثقات النسابين مجمعون على أن محمد بن اسماعيل مات ولم يعقب .

ومن مشهورى القرامطة أبو سعيد الجنابى ، ملك البحرين واليمامة والأحساء ، ومنهم ابنه أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد ، وهو الذى اقتلع الحجر الأسود من الكعبة فى سنة ٣١٧ هـ فقد حدث فى تلك السنة - على ما جاء فى النجوم الزاهرة - أن سير المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمى فوصلوا إلى مكة سالمين ، فوافاهم يوم التروية عدو الله أبو طاهر القرمطى ، فقتل الحجيج قتلا ذريعا فى فجاج مكة وفى داخل البيت الحرام - لعنه الله - وقتل ابن محارب أمير مكة وعرى البيت ، وقلع بابه ، واقتلع الحجر الأسود وأخذه ، وطرح القتلى فى بئر زمزم وفعل أفعالا لا يفعلها النصارى ولا اليهود بمكة ، ثم عاد إلى هجر ومعه الحجر الأسود فدام الحجر الأسود عندهم إلى أن رد إلى مكانه فى خلافة المطيع ، وجلس أبو طاهر على باب الكعبة والرجال تصرع حوله فى المسجد الحرام يوم التروية الذى هو من أشرق الأيام وهو يقول :

أنا لله ، وبالله أنا
يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ودخل رجل من القرامطة إلى حاشية الطواف وهو راكب سكران فبال فرسه عند البيت ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره ثم اقتلعه ، وكانت إقامة القرمطى بمكة أحد عشر يوما ، فلما عاد القرمطى إلى بلاده رماه الله تعالى فى جسده حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وتناثر الدود من لحمه ، قلت هذا ما عذب به فى الدنيا ، وأما الأخرى فأشد إن شاء الله - وأدوم عليه [١] .

ثم قال هذا المؤرخ فى وصف أبى طاهر هذا : وكان زنديقا ملحدا لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، مع أنه كان يظهر الإسلام ، ويزعم أنه داعية المهدى عبد الله .

وبعض المؤرخين يذكر أن الذى قلع الحجر الأسود أبو سعيد الجنابى وينسبون إليه شعرا قاله فى هذه المناسبة وهو :

ولو كان هذا البيت لله ربنا
لصب علينا النار من فوقنا صبا

«١» جـ ٣ ص ٢٢٤ . ط . دار الكتب .

لأنا حججنا حجة جاهليـــة
مجللة لم نبق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا
جنائز لاتبغى سوى ربها ربا

وكان عدد الذين قتلوا فى هذه الحادثة ثلاثه عشر ألفا .

ومنهم على بن فضل الجدنى ، بنى مسجدا وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائما وليله قائما فأحبه الناس وافتتنوا به وقلدوه أمرهم فلما قويت شوكته وأجابه مالا يحصى عدده من قبائل اليمن ، وظفر على أعدائه الذين نهضوا لقتاله ، لما بلغ ذلك ادعى النبوة، بل زاد عليها ، فكان عنوان كتبه إلى أتباعه كما رواه البهاء الجندى ، « من باسط الأرض وداحيها ، ومزلزل الجبال ومرسيها على بن فضل إلى عبده فلان » ثم إنه أحل البنات والأخوات ، وهى نحلة عامة عندهم ، وأقوى حجة فى ذلك ماجاء فى رسالة (١) عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن سعيد الجنانى القرمطى ، فكان من قوله : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى » وفى ذلك يقول شاعرهم :

خذى الدف ياهذه والعبى
وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم
وهذا نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمهات
ت ، ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى
وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين
من الأقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهذا الغريب
وصرت محرمة للأب
أليس الفراش لمن ربه
ورواه فى الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء
حلالا فقدست من مذهب

ولا غرابة فى هذه التعاليم ، ولا داعى لتكذيب هذه الروايات بحجة أنها أمور شنيعة لا تتفق وطبائع البشر ، والمنكرون

---

(١) هذه الرسالة من الوثائق الخطيرة ففيها جماع نحلة القرامطة ، وقد أوردها صاحب الفرق بين الفرق وناهيك به .

لهذه ونحوها إنما أتوا من قلة الخبرة بأحوال المجتمعات الإنسانية ، وربما كانت رحلة قصيرة إلى بعض الأقطار المتخلفة أخلاقيا كافية لردهم عن أفكارهم ، وإنى لأعلم أن فى بعض أقطارنا الإسلامية ما لا يقل شناعة عن أقبح ما ورد فى هذا الشعر ، ولا حاجة بى إلى ضرب المثل .

ودعوة هؤلاء تترقى فى درجات ، وفى الدرجة الخامسة يصل المدعو إلى هذه النحلة ، إلى أن يباح له أن يبيت مع زوجة الداعى فى بيته ، فإذا كان الصباح جاء الداعى إلى الضيف وأنبأه أن هذا من فضل مولاهم أمير المؤمنين ، وعليهم أن يشكروه ولا يكفروه على ما أطلق من وثاقهم ووضع عنهم من أوزارهم ، وأحل لهم بعض الذى حرمه عليهم جهالهم ، ثم قال : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ولقد ذكرنى فعل هؤلاء الدعاة بزوجاتهم بهذه القصة التى تدل على مدى فعل الإسلام بالنفوس ، ومدى إحساس هذه النفوس بحرمة الزوجة ، وحرصها على كرامتها .

حضر مجلس القاضى موسى بن إسحاق قاضى الرى - فى سنة ٢٨٦ هـ - وكيل امرأة ادعى على زوجها صداقها بخمسمائة دينار فأنكر الزوج ، فقال القاضى : البينة . فأحضرها الوكيل فى الوقت ، فقالوا : لا بد أن ننظر المرأة ، وهى مسفرة لتصح معرفتها فتتحقق الشهادة ، فقال الزوج : ولا بد ؟ فقالوا : ولا بد ، فقال الزوج : أيها القاضى ، عندى الخمسمائة دينار . ولا ينظر هؤلاء إلى امرأتى ، فأخبرت المرأة بما كان من زوجها ، فقالت إنى أشهد القاضى أننى قد وهبت له ذلك وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة ، فقال القاضى تكتب هذه الواقعة فى مكارم الأخلاق .

قلت : وهذا هو الفرق الكبير بين تعاليم الإسلام الذى كرم بنى آدم ، وبين تعاليم الذين يدوسون الكرامة الإنسانية تحت أقدامهم .

وقد اتفق الكاتبون فى هذا الموضوع على أن النحلة القرمطية تمت بصلة قوية إلى المجوسية ومن أوثق الصلات بين النحلتين هذا الأمر من تزوج البنات ، وهو إحدى الدعائم فى المجوسية ، ولا غرو ، فمبدأ الكون على ما ترويه دياناتهم كان عن هذه الطريق ، ذكروا أن البرهمية الأولى زعمت أن الإله (براجاباتى) أحس يوما بشغف شديد نحو ابنته (أوشاس) آلهة الفجر الجميلة ، فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعا شديداً وفرت من وجهه مذعورة ، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها ، فكلما تشكلت بأنثى كائن من

الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن ، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ، ونال منها بغيته فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود .

ونلمع إلى بعض تعاليم القرامطة الأخرى لنرى مدى خطرهم ـ كان ـ على الإسلام والمسلمين ، وهم دعاة أول شيوعية فى بلاد الإسلام ، فمن تعاليمهم تشكيك الناس فى القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ليصلوا من ذلك إلى إبطال الشرائع كلها ، وهم يسخرون من أهل الشرائع من أمثال قولهم : إن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ، ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم ، وأن الأنبياء يحرمون عليهم الطيباب ويخوفونهم بغائب لا يعقل ، وهم ـ أى الأنبياء فى زعمهم ـ يستعبدون أتباعهم ، ويستبيحون أموالهم ، ويبيعونهم الجنة ، وهى أمل لا يكون بأرواحهم وأموالهم ، فكان أمرهم معهم نقداً فى حين أن ما يوعدون به نسيئة .

ومن أصولهم التأويل ، وهو باب واسع عندهم ، أولوا كل الآيات ، وكل الفرائض ، فالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة ، والطهارة طهارة القلب ، والجنابة الجهل ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا . وهكذا .

والأنبياء ـ عندهم ـ أصحاب مخاريق ومناقضات ، وأنهم قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة ، ومحمد بن عبد الله ـ عندهم ـ هو صاحب الأمة المنكوسة ، وأنه حين سئل عن الروح قال الروح من أمر ربى لما لم يحضره جواب المسألة .

وكان التحمس لهذه المبادئ يختلف من مضل إلى آخر ، فيبالغ بعضهم ، ويكتفى آخر بمجرد إحلال المحرمات ، فمثلا أبو زكريا القرمطى الذى غلب على البحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسين كان يوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد الفجور به ، فى حين اكتفى على بن فضل المار ذكره بمجرد الإحلال وقد أمر هذا القرمطى أبو زكريا بقطع يد من أطفأ نارا بيده ، وبقطع لسان من أطفأها بنفخة .

والجنة ـ عندهم ـ هى هذه الدنيا ونعيمها ، أما النار وعذابها فليس إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج .

أما ناحيتهم السياسية فقد ذكرت طرفا منها عند الكلام على الجنابى الذى فعل ما فعل بالمسلمين يوم التروية ، وكتب التاريخ حافلة بما ارتكبوه من جرائم ، وما كان على أيديهم من تذبيح الرجال والأطفال والنساء ، وهدم

المساجد وتحريقها ، وتبريرهم هذه الأعمال الوحشية ، ولهم مع حجاج بيت الله فظائع تقشعر منها الأبدان ، حتى لقد امتنع الناس عن الحج ما بين سنتى ٣١٧ هـ و٣٢٦ هـ خوفا منهم .

وجماع القول فيهم ما قاله ابن خلكان: وعلى الجملة فالذى فعلوه فى الإسلام لم يفعله أحد قبلهم ولا بعدهم من المسلمين .

وربما توهم من لا بصيرة له أن دعوة القرامطة لآل البيت ، وتشيعهم لهم جعل آل البيت يغضون العين على مخازيهم ، ولكن الحقيقة أن آل البيت كانوا من أشد المسلمين تبرما بأفعالهم ، وقد كتب الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله ، وهو ثانى خليفة فاطمى إلى داعية القرامطة يقول له : « والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ، ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

(وبعد) : فهذه أول تجربة شيوعية اكتوى بنارها المسلمون ، واليوم يعيد التاريخ نفسه ويدنس أرض العراق أحفاد هؤلاء القرامطة ، وعلى المسلمين أن يأخذوا العبرة من التاريخ ، ولقد صدت مصر القرامطة حين هاجموها وبلغ عسكرهم إلى عين شمس ، وهى القاضية على أحفادهم ، إن شاء الله ؟

علي العماري

المثابرة على الدرس

كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه فعزم على تركه ، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر فيها . فقال : الماء على لطافته قد أثر فى صخرة على كثافتها ، والله لأطلبن . فطلب فأدرك .

معارك دمياط والمنصورة فى العصر الصليبى وأثرها فى الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى

قلم صلاح الدين أظافر الصليبيين، ولم يدع لهم قبل موته إلا شريطا ضيقا على الساحل، كان بوده أن يجليهم عنه، وأن يطهر البلاد منهم، ولكن كثرة المعارك أتعبت جنده، فآثر أن يريحهم إلى حين، ثم يعود إلى نزال العدو ليلقى به إلى البحر، لولا أن المنية عاجلته، فلم تبلغه مأربه.

واتخذ الصليبيون هذا الجزء الضيق موطئ قدم لهم، وأقبلوا يريدون أن يستعيدوا ما فقدوه من أرض الشام، وأن يستخلصوا بيت المقدس، وكان الملك العادل قد حمل العبء بعد صلاح الدين، فتجنب لقاءهم فى معركة حاسمة، حتى يجمع جيشه المتفرق فى أجزاء امبراطوريته، ورأى الصليبيون أنهم لم يظفروا من حربهم معه بشىء ذى قيمة، ورأوا أن أفضل طريق للتغلب عليه هو أن يضربوه فى مكان حيوى، وكانت مصر هى ذلك المكان الحيوى، فقد طمعوا فى امتلاكها حتى يأمنوا جانبها، ويستطيعوا الاستيلاء على الشام، من غير أن تمد مصر يدا إلى معونة أهله: فيصفو لهم الجو، وتثبت أقدامهم فى الأرض؛ فما إن قوى الصليبيون بأسطول وأمداد جديدة، حتى وجدوا فى أنفسهم الشجاعة للنزول على دمياط فى صفر سنة ٦١٥ﻫ وهم فى جيش لجب.

* * *

كانت مدينة دمياط محصنة تحصيناً قويا؛ ففضلا عن المزايا التى منحتها إياها الطبيعة، فجعلتها شبه جزيرة يحيط بها الماء من الشرق والغرب والشمال، عنى حكام مصر بتحصينها، ووضع حامية قوية فيها تدفع عنها غارات الفرنج الذين هاجموها مرارا عدة فى عهد صلاح الدين فردهم على أعقابهم، وعنى بأمر تقويتها، وزارها ليتفقد أمورها مع ولديه سنة ٥٧٢ﻫ وكانت إحدى موانئ الأسطول المصرى فى عهده، وبنى ابنه الملك العزيز لها سوراً، وكان لها برج ضخم على النيل بالقرب من شاطئ البحر فى غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، تمتد فى النيل؛ لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل إلى برج

آخر حصين مقام فى وسط النيل ، وكانا مشحونين بالمقاتلة والعدد .

نزل الصليبيون بالبر الغربى للنيل ، وجعلوا هدفهم الأول الاستيلاء على البرج المقام فى وسط النيل ، فأقاموا لذلك أبراجا على سفنهم ، ولكن نيران الحامية معززة بجيش الكامل بن العادل على الشاطئ الشرقى ردت هجماتهم الأولى ، ولم يستطع الصليبيون امتلاك هذا البرج ، وظلوا كذلك أربعة أشهر جمع فيها الفرنج مراكب بعضها إلى بعض ، وأقاموا عليها قلعة كبيرة أسندوها إلى البرج وقاتلوا من فيه ، حتى اضطروهم إلى التسليم . وكانت الحسرة على سقوط هذا البرج سبباً كافياً لموت العادل كمدا .

لم ييئس الملك الكامل ، بل نصب عوض السلاسل جسراً عظيما امتنع به الفرنج من سلوك النيل ، وقاتلوا عليه قتالا شديداً متتابعا حتى قطعوه ، فأخذ الكامل عدة مراكب كبار ، وملأها وغرقها فى النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا كان النيل يجرى فيه قديما ، فحفروا ذلك الخليج وعمقوه ، وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح ، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى مكان يقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ، وكان قد جمع جيوشه ، ونزل إلى جنوب دمياط فى مكان لا يزال يعرف باسم « العادلية » ، وهاجموا الكامل غير مرة ، ولم يظفروا منه بشىء ، واجتمع عنده من الجند ما لا يكاد ينحصر عدده .

غير أن أمراً حدث غير اتجاه الحرب ، ذلك أن مؤامرة دبرت للملك الكامل ، كان يراد بها خلعه عن العرش ، فاضطر الكامل إلى ترك ميدان الحرب ليلا ، وأصبح الجند فلم يجدوا سلطانهم ، فمضوا لا يلوون على شىء ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله ، وتركوا الباقى بحاله من مسيرة وسلاح ودواب وغير ذلك ، ولما لم ير الفرنج أحدا عبروا النيل إلى بر دمياط آمنين فى ٢٠ ذى القعدة سنة ٦٢٥ هـ ، وغنموا ما فى عسكر الكامل ، فكان عظيما يعجز العادين ، ومضوا إلى دمياط وأحدقوا بها ، وحاصروها براً وبحرا ، وأقاموا عليهم خندقا ، وبنوا عليه سورا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين ، وألحوا على أهل دمياط بالقتال ، ومنعوا عنهم الأقوات فقلت ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح

والشعير ؛ ومع هـذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله . وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى فكتب هـذه الأبيات ليرسلها إلى الملك الكامل ، وهى :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت
شرفاته ، كادت تجث أصــوله
يغريك من أزكى السلام تحية
كالمسك : طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع
حتى كأنك جاره ونزيله :
يأيها الملك الذى ما إن يرى
بين الملوك شبيهه وعـديله
هـذا كتاب موضح من حالتى
ما ليس يمكننى لديك أقوله

ويمضى الكتاب فى وصف الحالة السيئة لدمياط ، فيقول :

أشكو إليك عدو سوء أحدقت
بجميعه فرسانه وخيــوله
فالبر قد منعت إليه طريقه
والبحر عز لنصره أسطوله
تخضــوعه باد على أبراجه
وحنينه ، وبكاؤه ، وعويله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت
علاته ، ونحا عليك نحوله
وبقى له رمق يسـير ، يرتجى
أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها
داء بمثلك يرتجى تعليـله
فالله أعطاك الكثير بفضله
ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعـذر فى نصر الإله ودينه
ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق
ما إن يمل من الدموع هموله
لئن قعدت عن القيام بنصره
جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت
صلبانه ، وتلى به إنجيـله
هذا وحقك وصف صورة حاله
حقا ، وجملته ، وذا تفصيله

وكان لهذه الرسالة من الشعر أثرها فى نفس الكامل ، فنادى بالجهاد العام فى مصر والقاهرة ، وأرسل الى إخوته بالشام أن يقبلوا للدفاع عن دمياط ، ولعـل تأثره بالشعر قد أوحى إليه ،وهو يكتب إلى أخيه الملك الأشرف ، يستنجد به ، ويحثه على الحضور — أن يصدر رسالته إليه بهذه الأبيات :

يامسعدى ، إن كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف

واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها، وتعسف(١)
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف (٢)
وإذا وصلت إلى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف :
إن تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراض الموقف

وأثر الخطاب أثره ، إذ أقبل الأشرف موسى على عجل ، وقوى بقدومه أمر الملك الكامل ، كما قدم الملك المعظم من دمشق أيضا ، واشتد به ساعد أخيه الكامل ؛ ويقال : إن بنى أيوب لم يلتئم شملهم منذ صلاح الدين ، ولم تتحد كلمتهم مثلما كانوا فى معركة دمياط .

وأخذ الكامل يهاجم الصليبيين ، ويحرق جسورهم ، ويتلف آلات حصارهم ، ولكن برغم كل هذه الجهود ظل الحصار مضروبا على المدينة ، وبدأ الجوع يفعل فعله فى أهلها فلم يبق من حاميتها التى كان يقدر عددها بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف ، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين .

لم يستطع أهل دمياط الجياع المنهوكو القوى ، ولا حساسيتهم الضعيفة قتالا ، فسلم البلد إلى الفرنج فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ ، ودخل الفرنج دمياط بروح كهذه الروح التى دخل بها أجدادهم بيت المقدس ، فوضعوا السيف بدون رحمة فى بقية الحامية البائسة ، وفى الناس ؛ حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم ؛ ومضى الصليبيون يحصنون أنفسهم بدمياط ، ويجعلونها معقلا منيعا ، وأقبل الفرنج يهرعون إليها من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم .

كان لسقوط دمياط أثر بالغ فى نفس المسلمين ، ولا سيما أن الإسلام يومئذ كان يمر بفترة حرجة ضاق لها صدور أهله ، ذلك أن التتار كانوا قد قاموا فى ذلك الحين بجموعهم الجارفة يقوضون بلاد الإسلام فى المشرق ، حتى وصلوا إلى نواحى العراق وأذربيجان ، وهاهم أولاء الفرنج من الغرب يملكون دمياط ، ويعدون العدة لامتلاك مصر والشام.

(١) القلوص من الإبل : الطويلة القوائم . والمرقل : المسرع . ووجف الفرس : عدا مسرعا وتجشم الأمر : تكلفه على مشقة ، وتعسف الأعلى: ركبه بلا روية .

(٢) تشوف إلى الشىء : تطلع إليه .

أعلن الكامل فى مصر الجهاد العام، وعسكر على البر الشرقى أمام طلخا فى المنزلة التى عرفت بالمنصورة، وشرع فى بناء الدور والفنادق، والحمامات والأسواق، واجتمع بها من المسلمين عالم لا يقع تحت حصر.

ظل الفرنج عاما ونصف عام فى دمياط يتنازعون أمرهم بينهم، ولم يحاربوا المسلمين إلا فى معركة «البرلس» التى التقوا فيها بالكامل فى شهر رجب سنة ٦١٧ هـ، وانهزموا فيها هزيمة منكرة، حتى ليقال: إنه قتل منهم عشرة آلاف، وغنم المصريون خيولهم وسلاحهم، وعادوا إلى دمياط مهزومين، فلما قدمت عليهم الإمدادات خرجوا للحرب، وظلوا يتقدمون حتى وقفوا أمام عقبة المنصورة، وحدثت بعض مناوشات انتصر فيها المسلمون، فاستبشروا وتفاءلوا، وقويت روحهم المعنوية، وانتشرت فرق الجيش المصرى خلف العدو وحوله، وقطعوا سداً للنيل، فانفجر الماء وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة، ووجد الصليبيون أنفسهم فى شبه جزيرة يحيط بهم الماء والأعداء، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر. وفى ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط فحال المسلمون دون ذلك، وملكوا الطريق الوحيد الذى يمكن أن يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وحاولوا الزحف والقتال فلم يستطيعوا، فأرسلوا إلى الملك الكامل وإخوته يسألون الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط، ورأى الكامل إجابتهم، ورأى غيره من إخوته مناهضتهم واجتثاث أصلهم البتة؛ فخاف الملك الكامل - وهو رجل سياسى كأبيه - إن فعل ذلك، أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها، ويحتاج الأمر إلى منازلتها مدة، فإنها كانت ذات أسوار منيعة، وزاد الفرنج عندما استولوا عليها فى تحصينها، ولا يؤمن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها، وطلبا لثأر من قتل من أكابرهم؛ هذا، وقد ضجرت عساكر المسلمين، وملت من طول الحرب، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهراً.

تم الصلح، وتسلم المسلمون دمياط فى يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ، فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وعشرين يوما. وفى أسبوع كانت الحملة الصليبية التى عسكرت منذ أربعين شهرا يملؤها الأمل فى النجاح قد غادرت الشواطئ المصرية يجللها الخزى والعار، ودخل الملك الكامل إلى دمياط بجنده وأهله.

كان الاستيلاء على دمياط يهدد العالم الإسلامى كله ، فلا غرابة إن احتفل الأدب احتفالا قويا بعودتها إلى الإسلام . ولعل من خير الشعر الذى يمثل شعور المسلمين فى هذه الوقعة خير تمثيل قصيدة البهاء زهير التى أهداها إلى الملك الكامل ، وقد بدأها مشيداً بفضله فى حفظ الدين ، ورد المعتدين من الفرنج ، إذ يقول :

بل اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت ، والحمد لله ، نعمة
يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شىء من النذر

وهذان البيتان يدلان على مقدار ماكان يشعر به المسلمون من نعمة فى جلاء الفرنج عن المدينة .

ويمضى البهاء فى مدح الكامل ، ثم يتحدث عن الموقعة ، فيذكر أن النصر الذى ظفر به المصريون لم يخص مصر وحدها ، بل سعد به العالم الإسلامى كله ، ولولا هذا الفوز لسرى الذعر فى أرجائه ونواحيه ، وفى ذلك يقول البهاء :

وما فرحت مصر بذلك وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم تقم لله حق قيامه
لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية
لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله : إن سميه
حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

ونلمس فى هذه الأبيات الوحدة العاطفية التى كانت تربط العالم العربى والإسلامى ، وتجاوب الشعور فى أرجاء هذا العالم بما كان يحدث فى جزء من أجزائه .

ويصف الشاعر طول المعركة ، وما أجراه الكامل فيها من الثبات والصبر ، وكيف انتهى ذلك بحصار العدو فى البر والبحر حصاراً دفعه إلى الاستسلام ، وإن كنت آخذ على الشاعر إغفاله لمن أعانوا الكامل فى هذا الجهاد ونسبته الفضل كله للكامل ؛ وإذا كان من الحق أن للقائد أثره الكبير فى نفوس الجند وفى بث الروح المعنوية فى صدور جيشه ، فمن الحق كذلك ألا يغفل الشاعر ماكان لمساعدى الكامل من أثر كبير فى هذا النصر ؛ بل إن الشاعر ، إذا كان قد أشاد بذلك ، لأظهر التضامن الإسلامى بمظهر رائع إزاء ماكان هناك من تضامن بين ملوك مصر والشام فى رد الخطر عن جزء من الوطن

العربى الكبير . ولذلك لا أجد البيت الأول مصوراً للحقيقة إذ يقول :

ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا
تجاهد فيهم ، لا بزيد ولا عمرو
صبرت إلى أن أنزل الله نصره
لذاك قد استحققت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها
لا غرو إن سميتها ليلة القدر

ثم يصور الشاعر المعركة التى دارت ، وكيف حوصر العدو من البر والبحر ، فلم يستطع الإفلات ، وكيف هاجمه جيش المصريين فى قوة وعنف ، حتى طلب الفرنج الأمان أذلاء صاغرين ، وذلك فى قوله :

سددت سبيل البر والبحر عنهم
بسابحة دهم ، وسابحة غر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى
بكل غراب [١] راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل : هولا ، وهيبة
وإن زانه ما فيه : من أنجم زهر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

(١) الغراب : اسم نوع من السفن فى ذلك العصر.

فرويت منهم ظامئ البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعا
تجرجر أذيال المهانة والصغر
فمن عليهم بالأمان تكرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر

ويتحدث البهاء عن تقدير المسلمين لدمياط ، فيدعو لها ألا تحس بسوء ، ويعلل لعذوبة النيل تعليلا رقيقا ، إذ يقول :

كفى الله دمياط المكاره ؛ إنها
لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الثغر

وأما اليوم الذى دخل فيه الكامل والجيش المصرى دمياط بعد خروج الفرنج منها ، فيصفه الشاعر بقوله :

فلله يوم الفتح ، يوم دخولها
وقد صارت الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها
وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر
ويا سعد قوم أدركوا فيه حظهم
لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر

ويمضى بعدئذ يحدثنا عن شوقه إلى سماع أحاديث هذا الفتح ، وفرحه بهذه الأحاديث ، وهو بذلك يعبر عن شعور المسلمين فى أرجاء العالم العربى ، وشوقهم إلى سماع أنباء هذا النصر المبين إذ يقول :

وإنى لمرتاح إلى كل قادم
إذا كان من تلك الفتوح على ذكر
فيطربنى ذاك الحديث وطيبه
ويفعل بى ما ليس فى قدرة الخمر
وأصغى إليه مستعيدا حديثه
كأنى ذو وقر ، ولست بذى وقر
يقوم مقام البارد العذب فى الظما
ويغنى عن الأنواء فى البلد القفر

ثم يعود مثنيا على الكامل ، متخيلا المصير المشئوم لهذا البلد الأمين ، إذا كان قد قدر للفرنج أن ينتصروا ، فيقول مخاطبا الكامل :

لك الله ، من أثنى عليك فإنما
من القتل قد أنجيته : ومن الأسر

وتحدث ابن عنين شاعر الشام عن معركة دمياط أيضا ، وعنى فى قصائده بالحديث عن جيش الفرنج ، وكيف أقبل كثيفاً كثير العدد والعدة ، ولكنه لم يلبث أن انهار تحت ضربات جيش المسلمين ، وتنبه ابن عنين إلى الموازنة بين ما يفعله المسلمون عند ما ينتصرون من الرفق فى المعاملة ، والصفح ، والعفو ، وبين ما كان الفرنج المغيرون يأتون : من سفك الدماء ، والإسراف فى القتل .

وهذه إحدى قصائد ابن عنين ، بدأها بفخر قوى يقول فيه :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آياتنا ، والقنـا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا
من الروم ، لا يحصى يقينا ، ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة
ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأقبلوا
إلينا سراعا بالجياد ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
بأطرافها ، حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا
طويلا ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا
فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية
توارثها عن صيد آبائنا الابنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا
ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا (١)
فكم من مليك قد شددنا إساره
وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قداع سيوفنا
لما ركبوا قيدا ، ولا سكنوا سجنا

---

(١) أسجح : أحسن العفو .

وقد تحدث فى هذه القصيدة عن أحد قواد هذه المعركة ، وهو المعظم عيسى ، وعن أثر فتح دمياط فى قلوب المسلمين ، وقد امتلأت بهجة ، ثم ختمها مهددا بقوله :

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
مواقعها فيها ، فإن عاودوا عدنا

أما ابن النبيه فبعد تغنيه بيوم دمياط يراه مقدمة تدفع إلى اقتلاع بقايا الفرنج من الشام ، فيقول مخاطبا الأشرف موسى :

عكا ، وصور إلى رؤياك عاطشة
فانهض ، فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها ، إذ تسيره
إليك ، فهو سلام أو تحيات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم
تتلى ، وتنسى من القرآن آيات
وأن يخور على القرآن عجلهم
جهرا ، ويخفى أذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها
ووافقت سعيه فيها سعادات

وقد كان الملك الكامل حريصا على تسجيل هذه المعركة فى النصر ، حتى تضم إلى هذه المعارك الخالدة فى تاريخ هذه الحروب الطويلة.

روى صاحب النجوم الزاهرة : أن الملك الكامل جلس مجلسا عظيما ، فى خيمة كبيرة عالية ، وقد مد سماطا عظيما ، وأحضر ملوك الفرنج والخيالة ، ووقف المعظم والأشرف (أخو الكامل) والملوك فى خدمته ، وقام الحلى الشاعر ، فأنشد :

هنيئا ، فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا
مبينا ، وإنعاما ، وعزا مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشر بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الطغـ
ـاة وأضحى بالمراكب مزبداً
أقام لهذا الدين من سل سيفه
صقيلا ، كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو (١) مجدل
ثوى منهم ، أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
عقيرته فى الخافقين ، ومنشدا :
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا يخدمون محمدا

وفى البيت الأخير تورية فى المعظم عيسى ، والأشرف موسى لما وقفا فى خدمة الكامل محمد

وكان المعظم عيسى والأشرف موسى حريصين من ناحيتهما كذلك على أن يسجلا دورهما فى هذه المعركة ، فلما رحل الفرنج إلى ديارهم ، حبس الكامل بقصره فى المنصورة وبين يديه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف

---

(١) الشلو : العضو .

موسى ، وغيرهما من أهله وخواصه ، فأمر الملك الأشرف جاريته ، فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه
وجاء إلى مصر ؛ ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى ، وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف ؛ ثم أمر الكامل جاريته ، فأخذت العود ، وغنت :

أيا أهل دين الكفر ، قوموا ، لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا ، وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمداً

فأعجب ذلك الملك الكامل ، وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار .

ولا بد أن يكون كلا الملكين قد أعد جاريته لتتغنى بما يرفع من شأنه وبما يسجل بلاءه فى هذه المعركة ، وقد نهض شعراؤهم بهذه المهمة ، وأشبعوا رغبتهم فيها . وهوجمت دمياط من جديد .

وكان الصالح أيوب بالشام مريضا عندما جاءته أنباء حركة الفرنج قاصدين دمياط ، فى حملة يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، فقدم الصالح أيوب من دمشق وهو مريض ، فى محفة ، فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ ، وجمع فى مدينة دمياط من الأقوات والأزواد والأسلحة وآلات القتال شيئا كثيراً ، خوفا أن يجرى على دمياط ما جرى فى أيام أبيه الكامل ، وأمر أن يجهز الأسطول بالرجال والسلاح ، استعدادا للمعركة المقبلة ، وأرسل إلى دمياط جيشاً ضخما نزل فى مقابل دمياط فى البر الغربى وصار النيل بينه وبينها .

وفى يوم الجمعة ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هـ وردت سفن الصليبيين تحمل جموعهم الضخمة وقد انضم إليهم فرنج الساحل ، وأرسوا بإزاء المسلمين ، وأرسل مليكهم إلى السلطان كتابا جاء فيه : أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس ، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل الرجال ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فإما أن تكون البلاد لى ، فيا هدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة على ، فيدك التمنى ممتدة إلى ، وقد عرفتك وعرفت ما قلت لك ، وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء .

وكانت هذه الرسالة ترمى إلى تحطيم القوة المعنوية فى نفوس المسلمين وبث الرعب والخوف فى قلوبهم ، بوضع صورة شوهاء لمسلمى الأندلس أمام أعين المصريين ، تحذر هؤلاء مصيراً مشئوما كمصير أولئك، وبوصف ضخامة الجيش الغازى الذى يملأ السهل والجبل؛

فلما قرئ الكتاب على السلطان ، وقد اشتد به المرض ، بكى واسترجع ، ولكنه رد تهديدا بتهديد ، وكتب إليه البهاء زهير جواب هذه الرسالة قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء الظنون « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله ، فلا تستعجلوه » ، وتكون أيضا على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وقول الحكماء : (إن الباغى له مصرع) ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك والسلام .

وهو كتاب يدل على أن الصالح كان كبير الأمل فى النصر ، ومع ضخامة أمله كان ينبوع قوته اعتماده على ربه الذى يهزم الفئة الكثيرة بالطائفة القليلة . وكما وضع كتاب ملك فرنسا أمام الصالح صورة مسلمى الأندلس، وضع الصالح أمام ملك فرنسا صورة المعارك التى هزم فيها الفرنج بالشام ، ودمرت حصونهم ، وفتحت بلادهم ، ويستشهد له بآى القرآن ، ليؤكد له صلابة إيمانه ، وقوة يقينه ، وليوحى إليه بأن الكتاب الذى يعتقد صحته يكفل له النصر ، ويضمن له النجاح ، وهو لذلك يتقدم إلى المعركة ثابت الجنان مطمئن القلب ، كله ثقة ويقين .

ولما نزل الفرنج وحطوا خيامهم ناوشهم المسلمون القتال ، ولكن لم يكد الليل يرخى سدوله حتى رحل أمير جيش الصالح أيوب وسار إلى حيث يقيم سيده ، فلما رأى أهل دمياط رحيل الجند خرجوا بأطفالهم ونسائهم ؛ وعد هذا العمل من القائد من أقبح الأعمال ؛ فقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل عند ما هاجمها الفرنج أقل ذخائر وعددا منها فى هذه المرة، ومع ذلك لم يأخذها

الفرنج إلا بعد أن كاد أهلها يفنيهم الوباء والجوع .

ولما أصبح الفرنج ساروا إلى مدينة دمياط ، فرأوا أبوابها مفتوحة ، فخشوا أن يكون ثمة مكيدة ، فتريثوا حتى تبينوا ، فعبروا على الجسر الذى حال الإسراع فى الهرب بين المسلمين وبين تدميره ، ودخلوا مدينة دمياط بلا مشقة ، واستولوا على جميع ما بها من آلات حربية وأسلحة عظيمة ، وعدد كثيرة ، وأقوات وأزواد وذخائر وأموال وأمتعة ، وسرى الخبر فى أرجاء المملكة ، فعم الفزع النفوس ، ولا سيما أن المرض كان يشتد بالسلطان ، الذى رحل إلى المنصورة ، وشرع الجند فى تجديد الأبنية للسكنى بها ، ونصبت فيها الأسواق ، وأصلح سورها ، وقدم الأسطول المصرى ، وجاء المتطوعون للجهاد من كل الانحاء .

أما الفرنج فقد حصنوا أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة ، وظلوا بدمياط ستة أشهر ينتظرون قدوم إمدادات ، فلما تلقوها قر رأيهم على المسير إلى القاهرة ، ومات الصالح أيوب والصليبيون لا يزالون بدمياط .

ومن الممكن أن الصليبيين علموا موت السلطان فخرجوا من دمياط ، ونزلوا بفارسكور ، وأسطولهم فى نهر النيل يحاذيهم ، وورد إلى القاهرة من المعسكر كتاب يحض الناس على الجهاد ، وكان كتابا بليغا فيه مواعظ جمة ، فقرئ فوق منبر جامع القاهرة وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف وخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ، والتقى المصريون بالفرنج وأظهروا من ضروب البطولة فى اشتباكهم مع الأعداء برا وبحرا طوال شهرين كاملين .

ومن أشد ما استخدمه المصريون للفتك بأعدائهم فى هذه المعركة النار اليونانية ، وقد كتب عنها الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه : « مواقف حاسمة » حديثا طويلا عن نشأتها وتطورها ، ونقل قول مؤرخ شاهد عيان فى تلك المعركة من الفرنج هو : « دى جوانفيل » الذى وصف هذه النار بأنها تثب مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جدا من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء ، حتى إنك ترى كل ما فى المعسكر كما ترى فى ضوء النهار ، ويصف هذا المؤرخ ما أحدثته هذه النار من تدمير فى معسكرهم ، ورعب فى قلوبهم ، ولم يستطع الصليبيون فى ذلك الحين معرفة سر تركيب هذه النيران .

ولكن حدث أن عرف الفرنج مخاضة فى بحر أشموم ، فلما كان يوم الثلاثاء خامس

ذي القعدة خاض الفرنج هذه المخاضة ، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر ، وقتلوا قائد جيش المصريين ، وانتشر الفرنج فى الفرق المبعثرة للجيش الإسلامى ، واندفعوا لا يبصرون ما وراء اندفاعهم ، وخاطروا حتى رغبوا فى الاستيلاء على قصر السلطان ، على شاطىء النيل بالمنصورة .

غير أن الجيش المصرى لم يكن من السهل هزيمته بمثل هذه السرعة ، فتجمع الجند حول القصر ، وثبتوا ، وهجموا على الفرنج ، فانهزم هؤلاء إلى شوارع المنصورة ، وكانت مليئة بالسدود . فاستقبلهم بها رماة السهام ، وكانوا يملئون النوافذ وأسقف المنازل ، وتناثر الجيش الفرنسى قطعا ، ولم ينج منه إلا القليل ، وكان انتصار المسلمين مثارا للإعجاب ؛ لأنه لم يكن على رأسهم ملك يقودهم ، وإنما كانت شجرة الدر تنظم الشئون باسم السلطان ، حتى إذا حضر المعظم توران شاه أدار المعركة فى مهارة ، وكان أول ما عمله نقل أجزاء سفن على ظهور الجمال ، حتى وصل بها إلى فرع دمياط جنوبى الأسطول الفرنسى ، ثم ضم بعضها إلى بعض هناك . وكانت نتيجة هذه المكيدة أن أسرت ثنتان وثلاثون سفينة فرنسية ، وأن حرم جيش الصليبيين كل مئونة وذخيرة ، وأصبح موقف لويس موقفا حرجا لا أمل فيه ؛ فلم تكن لديه قوة يستطيع بها أن يشق طريقه إلى القاهرة ، كما كان مقطوعا من جميع الإمدادات ، فبدأ الجيش يشعر بقلة التغذية . يضاف إلى هذا ما انتشر فى المعسكر من الحمى .

بدأت المفاوضات بين الطرفين ، وعرض الصليبيون أن يسلموا دمياط على أن يأخذوا بدلها مملكة بيت المقدس ، فلم يقبل المصريون ذلك ، ورأى الفرنج أن لا مناص من التقهقر إلى دمياط ؛ ففى ليلة الأربعاء ثالث المحرم سنة ٦٤٨ هـ رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم ، يريدون مدينة دمياط ، فمضى المصريون خلفهم ، واتبعوهم ، فما أصبح الصباح ، حتى أحاطوا بالفرنج ، وأعملوا فيهم السيوف ، واستولوا عليهم قتلا وأسرا ، وكان معظم الحرب فى « فارسكور » . ويبالغ المؤرخون فى عدد القتلى والأسرى وما غنمه المسلمون من أدوات القتال والأموال ، والتجأ ملك فرنسا وعدة من أكابر قومه إلى قرية « منية عبد الله » القريبة من « شرماح » ، وطلبوا الأمان ، فبذل لهم ، وأخذوا إلى « المنصورة » ، وقيد الملك بقيد من حديد واعتقل فى دار القاضى « ابن لقمان » كاتب الإنشاء التى كان ينزل بها فى المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى : « صبيح » ؛ وأمر الملك المعظم بقتل الأسرى ، فضربت أعناقهم ، وأرسل إلى دمشق رسالة يبشر نائبه بها بهذا

الفتح المبين ، ورحل من المنصورة ، ونزل بفارسكور ، ولكنه لم يعش حتى يستمتع بثمرة هذا النصر ، وصعدت على العرش شجرة الدر . وفى عهدها تم الاتفاق على أن يسلم الفرنج دمياط ، وأن يخلى عن الملك الفرنسى ليذهب إلى بلاده بعد أن يؤدى نصف ما عليه من المال الذى قرر عليه ، وأفرج عنه بعد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، وأفرج كذلك عن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه ، وسلمت دمياط فى يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٦٤٨ ﻫ فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرا وتسعة أيام . وركب الملك البحر فى اليوم التالى يجر أذيال العار والهزيمة .

وإذا كانت المعركة الأولى قد تركت صدى كبيراً فى الشعر كما رأينا ، فإن هذه المعركة الثانية لم تجد من عناية الشعر ما لقيته المعركة الأولى ، وربما كان مرجع ذلك إلى ما حدث فى المعركة وبعدها : من اضطرابات ؛ فقد مات الصالح فى أثنائها ، ولم يعش ابنه المعظم « توران شاه » ، وجلس على العرش شجرة الدر من غير سابقة عهد بأن تجلس امرأة على العرش فكانت هـذه الأحداث ، سببا فى الانصراف إليها دون العناية بالتغنى بالمعركة وتمجيد أبطالها .

ولكن يظهر أنه بعد هذه المعركة الثانية ، وتحطيم جيش الصليبيين تحطيما كاملا ، وأسر ملكه وأمرائه ، وحبسهم فى بيت « ابن لقمان » خضدت شوكة هؤلاء الفرنج ، وأفل نجمهم ، وأصبح المسلمون ينظرون إليهم نظرتهم إلى عدو ضعيف المنة من المستطاع التغلب عليه فى يسر وسهولة ، فانتقل المسلمون إلى التهديد والوعيد ويمتاز هذا التهديد بالسخرية والتهكم ، يبدو ذلك فى شعر « ابن مطروح » ، وقد قيل إن ملك فرنسا يتهيأ لغزو مصر ، فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته
مقال صدق من قئول فصيح :
أجرك الله على ما مضى
من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغى أخذها
تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح[1]
رحت ، وأصحابك أودعتهم
بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم
إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها
لعل عيسى منهم يستريح

(١) الحين : الهلاك ، ويريد بالادهم : القيد .

وقل لهم ، إن أضمروا عودة
لأخذ ثأر أو لقصد صحيح :
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشى صبيح

وهى قطعة مليئة بالتهكم والسخرية والتهديد معا ؛ فهو يدعو الله له أن يجزيه خير جزاء عما أسدى من قتل جنده ، ويتهكم بسوء ما تعرض له من نتيجة ما كان ينتظرها حين قدم إلى مصر ، ظانا أنها قريبة المنال سهلة الأخذ ، ولم يكن يدرى أن خاتمة ذلك قيد من حديد يمسكه ، فلا يستطيع الانطلاق . فتضيق الدنيا فى عينه ، ولم يكن يعلم أنه سيعود منهزما وحيدا ، قد خلف أصحابه فى القبور تحت ثرى مصر . أما جيشه الضخم اللجب ذو الخمسين ألفا فلم يفلت منه أحد ، ومضى بين قتيل وأسير أثخن بالجراح . والشاعر يدعو أن يعود الملك إلى حرب أخرى ، عسى أن يصيبه ما أصابه فى الأولى ، والبيتان الأخيران فيهما تهديد الواثق المطمئن الذى لا يخاف .

وقد ألم بهذا المعنى شاعر آخر إذ قال :

قل للفرنسيس : إن كلا
له من المسلمين شاكر
لأنه محسن إلينا
بقوده نحونا العساكر
ساق إلى مصر ما اقتنته
أمة عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب
مصدره بالمنون آخر
أوردهم أدهما خضما
ورابح الشر فهو خاسر
وأذهل القوم هول حرب
تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ، ولكن
قد عميت منهم البصائر
فإن يعد طالبا لثأر
من أرض دمياط فليبادر
فذلك البحر تعرفوه
والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب
لمثلها ، إنه لقادر

وهى قطعة لا تقل فى السخرية والتهكم والتهديد عن سابقتها ، وتكاد تنهج نهجها ، مما نرجح معه أن واحدة منهما قد أخذت عن صاحبتها .

أحمد أحمد بدوى
وكيل كلية دار العلوم

المطالع والمقاطع
في شعر شوقي
للأستاذ علي الجندي

— ٢ —

وكثيراً ما يرتبط المطلع بجملة أبيات، فيؤلف معها صورة جميلة فاتنة متكاملة كأنما هي منظر مرئي، أو قطعة موسيقية منسجمة، كقوله في لبنان:

السحر من سود العيون لقيته
والبابلي بلحظهن سقيته
الفاترات وما فترن رماية
بمسدد بين الضلوع مبيته
الناعسات الموقظات للهوى
المغريات به وكنت سليته
القاتلات بعابث في جفنه
ثمل الغرار معربد أصليته
الشارعات الهدب أمثال القنا
يحيي الطعين بنظرة ويميته
الناسجات على سواء سطوره
سقماً على منوالهن كسيته

وكقوله في توت عنخ آمون:

درجت على الكنز القرون
وأتت على الدن السنون
خير السيوف مضى الزما
ن عليه في خير الجفون
في منزل كمحجب الغيب
استسرّ عن الظنون
حتى أتى العلم الجسور
ففض خاتمه المصون
والعلم بدري أحل
لأهله ما يصنعون
هتك الحجاب على الحضارة
والخدور على الفنون
واندسّ كالمصباح في
حفر من الأجداث جون
حجر ممردة المعا
قل في الثرى شم الحصون
لا تهتدي الريح الهبو
ب لها والا الغيث الهتون
خانت أمانة جارها
والقبر كالدنيا يخون

وقد تمتد الصورة إلى أكثر من ذلك كما

فى قصيدته النيل فقد ارتبط مطلعها بخمسة عشر بيتاً سادتها الوحدة والانسجام ، حتى كأنها صورة شمسية لا قطعة منظومة .

٦ - سار فى أكثر مطالعه على النهج السوى الذى يجب أن يسلك فى هذا الشأن ، وهو أن يكون المطلع دالا فى جملته على الغرض المقصود من القصيدة ، مشيراً إلى مغزاها الكلى ، كأنه عنوان مختصر لها ، كما يلمح منه الجو الذى أحاط بالشاعر حينما أخذ فى نظمها وهو ما يسمى عند البلغاء فى معناه الضيق : ببراعة الاستهلال .

يقول فى بدء قصيدته « كبار الحوادث » التى ألقيت فى المؤتمر الشرقى بجنيف عام ١٨٩٤ .

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

فنعلم منه أن السفينة كانت أكبر وسيلة إلى المؤتمر ، ونستطيع أن نلمح من هذا الذى يحدو من تقله إشفاق الشاعر من ركوب البحر الذى لم يكن موطأ الأكناف ، لبنات البحار فى هذه الأيام .

هذا إلى ما عرف عن شوقى من حب الحياة ، وكراهية الموت ، حتى لقد ملأ أشعاره بالسؤال عن حقيقته وما يكمن وراءه ، سؤال الخائف المترقب ، لا المطمئن المستسلم .

ويقول فى ذكرى كارنارفون :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرئ رهن بطى كتابه

وفى هذا يشير إلى ما أشيع من أن لعنة الفراعنة حلت عليه لكشفه قبر توت عنخ آمون ، فلدغته بعوضة سامة وثبت إليه من القبر ، ثم يقرر أن الموت وأسبابه مما يدق فهمه على العقول ويلطف عن تناول الأفكار ، وكل ما نعرفه أن لكل نفس أجلا ، وأن لكل أجل كتابا ! !

ويقول فى حفلة مبايعته وكانت فى أوائل فصل الربيع :

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه

وليس هناك مطلع أنسب من هذا المطلع فى هذا الموقف ، فربيع الفصول يقابله ربيع الشعر . والشعر ربيع ، والشعراء بلابلة ، والقصائد ألحانه وأزهاره وأنواره ، فشوقى حين قال : مرحبا بربيع الطبيعة كان يقول أيضا : مرحبا بربيع الفن ! ! ويقول فى وصف مرقص :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وهل تفتتح قصيدة فى مرقص بأليق من هذا المطلع الخزى النواسى الراقص المرقص معا ، وهل يتصور رقص بدون شراب يكلله حباب ! !

ويقول فى وصف النفس :

ضمى قناعك يا سعاد أو ارفعى
تلك المحاسن ما خلقن لبرقع

والبيت يمثل لنا اللهفة الإنسانية الحارة المتوثبة إلى معرفة هذه اللطيفة العلوية المخبوءة فى تجاليدنا ، تلك هى الروح التى أعيا كشفها الفلاسفة والعلماء من قديم الزمان ، وفيها يقول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

ويقول فى زلزال اليابان :

قف بطوكيو وطف على يوكهامه
واسأل القريتين كيف القيامه

ولو أنك اكتفيت بهذا البيت عن سائر القصيدة ، لوجدت فيه التصوير الشامل لما نزل بالبلدتين من الفواجع والمواجع ! كيف القيامة ، ليست القيامة إلا أن تزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج أثقالها ، وتبرز الجحيم ـ ويحيط سرادقها بالناس ، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وهذه الصورة المفزعة ، نستجليها من هذا البيت الذى زاد فى قسوته ، جمعه بين أربع أدوات طلبية ! قف ـ طف ـ اسأل ـ كيف .

فإذا وصلنا إلى مراثيه ، ظهرت المناسبة أدق وأعمق ، وبراعة الاستهلال أدل وأوضح ، يقول فى رثاء المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك فى عصف الرياح الناعى

فنعرف أن حادثا جللا وقع يوم وفاته ، أذهل الناس عن المصاب به . وصغر لجيعتهم فيه، وشغلهم عن تشييعه إلى مقره الأخير ، وقد كان ذلك ، فقد لحق المنفلوطى بالرفيق الأعلى فى اليوم الذى حاول شاب مفتون أن يغتال الزعيم سعد زغلول بإطلاق الرصاص عليه ، وهو فى طريقه إلى انجلترا للمفاوضة ، وقد فصل ذلك شوقى بقوله:

هتف النعاة ضحىً فأوصد دونهم
جرح الرئيس منافذ الأسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساع

ثم يعقب بهذه الأبيات التى تكمل ذلك الإطار الإنسانى البديع ، الذى يجمع بين الأسى والتأسى :

ما ضر لو وقفت ركابك ساعة
كيف الوقوف إذا أهاب الداعى
خل الجنائز عنك لا تحفل بها
ليس الغرور لميت بمتاع
واصعد سماء الذكر من أسبابها
واظهر بفضل كالنهار مذاع

ويقول فى رثاء ثروت :

يموت فى الغاب أو فى غيره الأسد
كل البقاع وساد حين تتسد

فما الذى نفهم منه ؟ نفهم أن ثروت مات مغتربا ، وهذا ما حدث ، فقد وافاه الأجل المحتوم فى باريس بعيداً عن وطنه . وهناك

شىء آخر أهم من هذا يجب أن نفهمه ، فقد كان ثروت من زعماء الساسة وله أعداء فى القصر ، وفى الأحزاب المختلفة ، فأراد شوقى بهذا المطلع الرائع المنطوى على حكمتين أن يصوره فى أروع صوره ، صورة الأسد الذى لا يزرى به أن يقضى فى غيله أو فى غيره ، بل ربما كان موته فى غيره أشرف وأكرم ، وأنه لا تفاضل بين بقعة أمام الموت ، فالأرض جميعاً لأبنائها مهاد ووساد ، « منها خلقناكم وفيها نعيدكم » ، فجد الميت من جهة ، وكبت خصومه من جهة أخرى ، وقد أفصح عن ذلك بقوله بعد ذلك :

لم يبق للضاحكين الموت ما وجدوا
ولم يرد على الباكين ما فقدوا
وراء ريب الليالى أو فجاءتها
دمع لكل شمات ضاحك رصد

ويقول فى رثاء عاطف بركات :

خفضت لعزة الموت اليرعا
وجد جلال منطقه وراعا

وقد كان عاطف رجلا صارما جاداً مر الحفاظ ، قوى الشكيمة ، شديد المراس ، كثير الاعتداد بنفسه والحرص على كرامته ، فكان من المناسب وصف الموت بهذه العزة والجلال والروعة ، ليتمثل فى النفوس أن الذى قهر عاطفاً هو قاهر كل حى ، وغالب كل غلاب ! .

ويقول فى رثاء عبده الحمولى :

طوى البساط وجفت الأقداح
وغدت عواطل بعدك الأفراح

فلو لم يعرف أن الميت عبده الحمولى المغنى لعرف على كل حال أنه مغن مرموق المكانة ، سنى المنزلة ، وإلا فهل يطوى بساط الراح ، وتجف الأقداح وتعطل الأفراح ، لغير بلبل صداح ! ! .

على الجندى

اعتــــذار

تعتذر إدارة المجلة إلى السادة القراء من تأخير هذا العدد ، فإن الورق الصالح للطبع قد نفد من السوق فلم نستطع الحصول على هذا النوع الوسط إلا بعد وقت ومشقة .

والرجاء فى الله أن تزول أمامنا العقبات فتصدر المجلة دائماً فى موعدها المقرر .

مناقشة

الدين

هل أدى دوره وانحسر مده ؟

للأستاذ محمد فتحى عثمان

قالوا . . . وهم يتظاهرون بالحياد والإنصاف : الدين شيء جليل حقا ، من ينكر أثره فى التطور التاريخى ؟ من يتجاهل فضله على التقدم الإنسانى ؟ ؟ . .

ما أبلغ آثار المسيحية فى تاريخ أوربا ؟ !

ما أروع فضل الإسلام على تاريخ العرب ؟!

هل يتسنى لمخلوق أن يدير ظهره لدور الدين التاريخى ، إلا أن يغمض عينيه عن الدلالات القاطعة لعلم الاجتماع ولتاريخ الفن ، تلك الدلالات التى تشهد للدين بأنه كان الوقاية الأولى للمجتمع بما يؤله وما يرمز Totem ، وما يحل وما يحرم Tabou ، وبأنه كان الدافع والحافز لكثير من الآثار الفنية الأولى من نقوش ورسوم ، ثم من تماثيل ومعابد ومقابر .

ثم . . . ماذا ؟ ؟ .

ومن هنا تظهر الغاية من الحياد ومن الإنصاف .

ثم . . تحكم الإنسان فى الطبيعة ، وأصبح يقى نفسه بعلمه وفكره ، وأصبح يستلهم نفسه فى أدبه وفنه . . ومعنى هذا الأسلوب الرقيق المهذب . المحايد المنصف ، أن الدين قد أدى دوره المشكور ، ومكانه الآن أن يعرض فى المتاحف أو يؤرخ فى السطور ! !

* * *

ومناقشة هذه الدعوى العريضة تقتضى أن نتعرف على حضارتنا العصرية : على مدى كمالها ، ومدى استغنائها بذاتها عن الدين وعن غير الدين . .

ثم نتعرف على (الدين) : على مهمته الإنسانية ، لنتبين : هل تراه حقا قد أدى رسالته واستنفد أغراضه ؟ ؟ .

ونحن ننبه أولا إلى خطر النبوءات المطلقة والأحكام العامة الشاملة فى حقل الدراسات الإنسانية والدينية . . . إن الذين ينادون بالمنهج العلمى ، ويريدون تطبيقه على هذا

النوع من الدراسات ، ينبغى ألا يندفعوا فى إصدار الأحكام واصطناع النظريات بغير روية ، ظانين أن شيئا من الحدس والتخمين ، بجانب بعض الملاحظات الجزئية القاصرة ، مع كثير من التحمس والتعصب للرأى - كل أولئك كفلاء بحل معضلات السلوك الإنسانى . . أمثال هؤلاء الجهابذة يرفضون فى الدين معنى الإيمان بالغيب، بينما هم يعرضون قضايا خطيرة من مغيبات المستقبل كل سندهم فيها مجرد إيمانهم الشخصى . . . وشتان بين الإيمان بالله واليوم الآخر فى سلامته وعمقه ، وبين إيمانهم الذى يريدون أن يجعلوه العوض والبديل ، باسم العلم والبحث الرصين !.

يقول بول ڤالرى (١٨٧١ : ١٩٤٥ م) :

« . . . إنى لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ مما وقع فعلا منذ ذلك العام ؟ .

لاحظوا أننا فى خير الظروف للتجربة التاريخية ، فلدينا كمية هائلة ، لعلها أكثر مما يجب ، من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين ، والتاريخ لا يبنى عادة بهذا القدر الوفير من المواد .

إذن ماذا كان يمكن توقعه . . .

فى سنة ١٨٨٧ هذه كان الجو مخصصا للطيور وحدها دون سواها ، ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها ، والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة ، ونيوتن وجاليليو يحكمان فى سلام ، وعلم الفزياء هانئ وقواعده مطلقة ، والزمان يجرى بأيامه الهادئة ، والساعات كلها كانت سواسية أمام الكون ، وتمتع المكان باللانهاية والتجانس لا يتأثر أبداً بشىء مما يجرى فى داخل أحضانه العظيمة . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئا مهما يكن ضئيلا حتى فقدت فى هذه الهوة من التجزؤ فكرة القانون نفسها .

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلما ودخانا ، لقد تغير هذا كله كما تغيرت خريطة أوربا وكما تغير مظهر الشوارع . . .

إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين سنة ١٨٨٧ ، هل كان فى وسعه أن يحلم - مجرد حلم - بما نراه اليوم ؟ إنه ليس من الممكن مجرد تصور ماهى العمليات العقلية التى ببحثها فى كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ ، كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضى - أيا كان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها - فكرة ولو تقريبية جدا عما عليه الآن . . . !!!

ولهذا فإنى أتحاشى التنبؤ . . . إن التاريخ هو العلم بالأشياء التى لا تتكرر أبداً . فالأشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب

التى يمكن إعادتها ، والملاحظات التى يعلو بعضها بعضا - كل أولئك من شأن علم الفيزياء وإلى حد ما علم الأحياء .

لكن لا تخالوا أن تأمل الماضى بما فيه من غابر لن يعود أمر لا غناء فيه . إنه يبين لنا خصوصا إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقا متواصلا ، وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر الذى يسمح للإنسان بالعمل فى وقت مبكر ضد المتوقع - دون أن يدعى خلق الأحداث أو تحديها لأنها دائما مفاجآت ، أو تنطوى على نتائج تثير الدهشة والذهول ....» . (المجلة التاريخية ١٩٥٦) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف الكبير أرنولد توينبى :

« إن الحقبة التى نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم (العصر الحديث المتأخر) ومدته قرنان ، ونصف ، مبدؤه حوالى سنة ١٧٠٠ وهو عصر السيطرة الأوربية على العالم ، وعصر سيطرة الطبقة الوسطى على أوربا ، ومن ثم على شعوب العالم . ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدّل المفكرون ...... وبصفة خاصة مفكرو القرن الثامن عشر - النظرية العامة للتاريخ العام ، وهى نظرية الأديان السماوية وقوامها حصر ذلك التاريخ بين بداية هى خلق الله العالم ونهاية هى قيام الساعة ... حاول فلاسفة القرن الثامن عشر أن يحذفوا الخلق والساعة وأوجدوا للتاريخ العـام صورة أخرى - صورة حركة تجرى فى خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو أسبانيا أو انجلترا أو الأمة التى ينتسب إليها الكاتب !! ... وهى صورة لا يستطيع أن يدبر أصحابها مكانا لهند أو لصين ، أو حتى لروسيا أو أمريكا !!

والواقع أننا لا نستطيع أن نقبل حركة تاريخية تجرى فى خط واحد . إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ففى التاريخ تتعاصر الحضارات إما فعلا وإما فلسفيا فى تفكير المؤرخ ، هذا والعلوم الإنسانية تتبادل المعلومات وتستخدمها فى عرض الظواهر الاجتماعية عرضا معقولا .

ومع هذا فللسير بالمنهج العلمى حدود ، فإنى أومن مثلا بأن اصطداما يقع بين شخصيتين إنسانيتين لا يمكن أبدا التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج فهو لا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعرا أو إلهام أنبياء لا يخضع أيضا لأى قانون فهى ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التى رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنسانى ... لقد أصبح (للدين) المكانة الأولى فى تصويرى التاريخ العالمى ، وليس هذا الدين هو الدين المسيحى

الذى نشئت عليه بل أصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها فى المكانة التى أتصورها للدين فى المستقبل ، على إنى أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آبائه وأجداده » (المجلة التاريخية سنة ١٩٥٧) .

هذا تنبيه أساسى لا بد منه . . . لمن يريد أن يسير خطوات فى دراسة الدين ودوره وتاريخه ، وفى كل دراسة إنسانية ودينية على وجه العموم .

* * *

هل الحضارة الغربية حقاً قد اهتدت إلى تحقيق طمأنينة النفس واستقرار المجتمع بغير دين ؟ ؟ .

ما أكثر ما كتب الغربيون فى نقد حضارتهم . . . وهذا هارولد لاسكى المفكر البريطانى الاشتراكى المعروف يقول :

« إن عالم اليوم يعانى من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور فى أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا فقد قيمته لقد حل الشك السافر محل اليقين ، وحل اليأس محل الأمل ، ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقى لا تعترف بالتراث الذى أبدع روائع الماضى . . . والحرب قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياسا دائما للسلوك ، ويبدو أن الكنائس أصبحت وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلا من التأثير على معتقدات الناس .

إن رغباتنا تتسم كلها بطابع السرعة المحمومة وبطابع التهور والافتقار إلى الطمأنينة . لقد انتصرت روح الإنكار على روح اليقين . . إننا عدمنا فى كل مكان - تلك السكينة أو الثقة بالنفس التى تجعل الأفراد يختارون حلا من الحلول ليجعلوه موضع عبادة .

إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار ، وتحولت العلوم - سواء علوم الطبيعة أو علوم الأحياء - إلى معلومات ميتافيزيقية ، وإذا ما كانت قد صارت فى يد إدنجتون وجينز مثلا جزءا من رد الفعل شبه التلقائى ، إلا أنها تفتقر إلى الهدف . فهى لا تقدم لنا شيئا غير تلك القيم التى تشيع الفوضى فى كل جزء من أجزائها . وفى مقدور هذا العلم أن يتيح الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحى ، وعلى الشرق العريق فى الوقت الحالى أن يتحدى هؤلاء الذين يسعون إلى الاحتفاظ بظروف الوصاية . . لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ولكن يبدو أنها لم تستفد سوى درس الاستعمار ! لقد اكتشفت سر المهارة

فى لندن وبرلين ، فى باريس ونيويورك ، ولكن يبدو أنها تفتقر إلى الهدف الكبير الذى تهب له هذه المهارة !! » .

(Democracy In Crisis)

هذه كلمات دقيقة فى وصف سيكلوجية المجتمع الغربى . . .

وصاحب هذا الوصف ليس من دعاة الدين - ومن أجل هذا أوردنا تقريره - إنه يقول « ومنذ قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى ، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل !! ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الطاقة الصناعية الجديدة ، والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا - دون أن يساندها مبدأ ما - لن يصبح لها أى معنى ، إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف ! » .

وأخذت الحضارة الغربية تحاول أن تسد الثغرات فى بنيانها الشائخ .

والتمست فى بعض المذاهب الشاملة الكاملة totalisme شيئًا يكون دينا أو كالدين . . . ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد فى قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع القلوب والعقول من قرون وقرون !!

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها فى ميدان علم النفس .. تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية ، ونجح علم النفس حين تواضع ، وأخفق حين جمح ينشد (فلسفة نفسية كاملة) أو دينا جديدا ، وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب إلى الدين !! .

وحسبت الحضارة الغربية أنها عثرت على الضالة المنشودة والعلاج الشافى الذى يليق بالمتحضرين ، فأقبلت تستمد غذاء الروح وشفاء النفس من إلهامات الفنون : فنون القول والتعبير والتشكيل كلها .

وانطلقت الأرواح الهائمة تعربد فى الواقعية والسريالية وماإليهما . ولكن هذا التجديف هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوى الهادية حين يقول : « الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من فهم للحياة فى أى عصر من العصور ، وفى أى مجتمع من المجتمعات ؛ ولذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير العواطف الإنسانية ، فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من المثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاوبه ولا تناقضه فهى مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه

فهى مشاعر رديئة . . . لقد اتجه الفن إلى طلب المتعة فى أوربا بضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد إحياء العلوم ، وهذا الاتجاه حرم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله ينزع إلى إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس وهم الطبقة الارستقراطية . وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور وغلب عليه الغموض والتكلف وصار فناً متكلفاً غير طبيعى وإعراض الفن عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة فى حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود . . . والإدراك الدينى يتجدد كلما تجددت علاقاتنا بالعالم من حولنا ، وهو لذلك يقدم للفن مشاعر طريفة ترجح المشاعر المنبعثة عن حب المتعة المحدودة القديمة . وقد لحظ تولستوى أن أكثر الروايات والقصص من عهد بوكاشيو حتى عهد مارسل بريفو تدور حول مشاعر الكبرياء والشموخ والأحاسيس الجنسية ومشاعر الملل من الحياة والتبرم بها » (على أدهم — مقال بالمجلة ديسمبر سنة ١٩٥٨) .

حضارة الغرب إذن ليست راضية عن نفسها وليس أعلامها راضين عنها . . .

وحضارة الغرب ليست كما يتصورها أهل الشرق المتطلع للنهوض ، بناء كاملا ليس به ثغرات ، جنة خالدة على الأرض لا يمس المرء فيها نصب ولا لغوب ! ! والإنسان فى هذه الحضارة العصرية لم يعد ذلك (الإله) الذى توهمه عصر النهضة : يقوم وحده ، ويستغنى عن غيره ، ويسخر الطبيعة بعقله ، ويفجر ينابيع الحكمة من نفسه وفكره .

لقد انكشف القناع ، فإذا به إنسان الأمراض والعقد النفسية والاضطرابات العصبية والضعف البشرى بكل صوره الروحية والجسدية الفردية والجماعية !! .

والحضارة الغربية مع ذلك قد أفادت الإنسانية فوائد جليلة ، والذين ينقدون اليوم هذه الحضارة إنما ينقدونها بما أخذوه عنها من علم وما تعلموه من نهج وما اكتسبوه من منطق ! .

والحضارة الغربية هى التى أحسنت إطلاق قوى الإنسان كما أحسنت الكشف عن نقط الضعف فيه ! ! ونحن نريد - فى هذه الفترة الدقيقة من تاريخنا - أن نتعرف على الحضارة الغربية تعرفا صحيحا ، وأن نتبين خيرها وشرها قفزاتها ومآزقها ، وأن نجتهد كى نتوقى رد الفعل الذى وقع فيه القوم يوم شدهتهم النهضة والكشوف والتجارب والآلات .

ولدينا من دروع الوقاية وأسباب التوازن

دين يختلف تاريخه معنا عن تاريخ الدين مع الغرب .

ثم لدينا تجربة كاملة قدمها الغرب بين أيدينا حيث أسمعنا أول الأمر تسبيحات التقديس للحضارة الإنسانية المادية الجديدة حيث لا مكان لإله أو لعالم آخر مغيب ، وما لبث أن أطلق بعد ذلك صرخات البلبلة والشكاية من الحضارة القائمة . . . ثم فى آخر الأمر باح الغرب بأشواقه المكبوتة وهفا إلى الإيمان من جديد .

وعلى الجيل الواعى قبل أن يسلم نفسه تماما إلى معابد الحضارة الغربية فى شرقنا ، أن يراجع عنها تقارير اشبنجلر وتوينبى ، ورسل ولاسكى ، وبرجسون ولوبون . . . وغيرهم فإنها أقوم وأوثق لبيان الحقيقة فى هذا الباب .

فإذا استقام لنا الطريق . . . وعرفنا أن الحضارة الغربية تشكو الثغرات والشقوق .

فهل ما زال الدين صالحا لممارسة معجزة أخرى تبرئ الفرد والجماعة ؟ ؟ .

هذا ما نناقشه فى العدد القادم ؟

فتحى عثمان

العلم

فى (نهج البلاغة) : الناس ثلاثة : عالم ، ومتعلم ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . المال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق !

العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الخير فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته .

النابغة الشيبانى : مسلم لا نصرانى

للأستاذ محمد رجب البيومى

لا أدرى لماذا خمل ذكر النابغة الشيبانى ونبه سواه : مع أن شعره يشير إلى موهبة عالية ، وقريحة صافية ، وطبع أصيل ، فقد كان الرجل فذا بين الشعراء فى اتجاهه الأدبى والاجتماعى معا ، فقد نشأ فى عصر النقائض والمهاجاة حيث دارت رحى العراك واللجاج فلم يشأ أن يخوض معركة تعود على سمعته الطيبة بالظنة والإرجاف ، وما كان ذلك عن عجز فى القول ، أو قصور فى الإفصاح ، فقصائده المئوية فى مختلف الأغراض الشعرية تشهد بمهارة حصيفة ، وقدرة ممتازة ، ولعل نكوله عن هذا الميدان الصاخب قد ساعد على ركود شعره ، وقلة رواته ، حتى جاءت دار الكتب المصرية منذ ربع قرن فقدمت ديوانه الشعرى للقراء ، فعرفوا مكانته ، وأنزلوه بين معاصريه أطيب منزل وأرضاه ، واستطاع أساتذة النقد أن يزنوا الرجل بميزان منصف أمين ، والحق أن المتتبع لقصائده الرائعة يرى فيه مثالا كريما لحكيم الجاهلية زهير بن أبى سلمى ، فقد أولع الحكمة الفطرية التى تنضجها التجربة وتصوغها التؤدة والاعتبار ، كما رزق خبرة دقيقة - تكاد تكون عجيبة من مثله - بطوايا النفوس ، وخبايا الصدور ، فهو يعلم لحن القول من كل كاشح ، ويقرأ ما وراء البسمات من شجون وأحزان ، ويستكشف الكذب المقنع خلف الصدق المصطنع ، والسذاجة المزعومة ، وهو فوق ذلك ناقد أدبى يفصل محاسن الشعر فى قصائده فيتحدث عن مزايا الشعر الجيد وتأثيره ويشن الحملة على الشتامين والهجائين من النظامين ، ويوازن بين الحرون الذى لا يمضى فى حومة ، أو يكر فى ميدان ، وبين السابق المجلى تحت العجاج ، كما يستطيع أن يطيل ويطيل فى غير إسفاف حتى لتتجاوز القصيدة الواحدة مائة بيت ! ! وشاعر هذه بعض سماته لا بد أن يجد من يقدره قدره الرفيع !! ولكن الحظ العاثر قد رماه بكوارث دامية ، فمع ما ناله من الخمول فى الأجيال السالفة قبل طبع الديوان ، نجد أن أكثر شعره ينسب زورا وبهتانا إلى غيره ، ويزيد القدر فى مداعبته فيوجه النسبة إلى أناس لا يعقل أن تصدر عنهم هذه الأبيات ، لبعدها عما

اشتهر عنهم من صفات ! فأنت مثلا تجد رواة الأدب ينسبون إلى الحطيئة قول النابغة الشيبانى :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد منه سوف يأتى ... ولكن الذى يمضى بعيد

فإذا قلت لبعض هؤلاء : إن روحا خبيثا كروح الحطيئة الشره الشحيح لا يمكن أن يرشح بهذا النمير المستطاب ، وجدت من يتكلف الرد فيفرق بين القول والعمل تارة . ويتمحل التعليل النفسى تارة أخرى . فيزعم أن النفس البشرية فى ساعة ندمها المفرط تطمح إلى سلوك مضاد، ينأى بها عما ارتطمت فيه ، ولذلك جاء الزهد من أبى نواس الخليع !! ونحن بهذه المناسبة نقول لهؤلاء : خففوا من الفروض العقلية والتأويلات النفسية بعض الشىء !! فبين الفرض العقلى والواقع العملى آماد ، وآماد !! .

وأعنف كارثة نزلت بالرجل فوق ما تقدم هى بدون شك نسبته إلى غير دينه فقد تضافر كثير من الكتاب على عده نصرانيا لا مسلما ، وأول من أرجف بهذا الحدث الهائل أبو الفرج الأصبهانى فى أغانيه ، وآخر هؤلاء هو الأب لويس شنجو اليسوعى صاحب شعراء النصرانية ! ومع اعترافنا بأن نصرانية الشاعر أو إسلامه لا يغيران شيئا من مكانته الأدبية ، فإننا نجد من الإنصاف للرجل أن نضعه فى مكانه الصحيح ، فلا يعرف عنه غير الواقع الأكيد !!

وأبادر فأقول : إن اكتشافى هذا الخطأ كان مصادفة محضة ، فقد قرأت قديما قول أبى الفرج فى ترجمته للنابغة بالأغانى - وقد نقلت فى مقدمة الديوان - « وكان فيما أرى نصرانيا ، لأنى وجدته فى شعره يحلف بالإنجيل والرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى » اه ثم بدا لى بعد عشر سنوات أن أقرأ ترجمة النابغة فى الجزء الثالث من مهذب الأغانى فوجدت أستاذنا الخضرى - رحمه الله - يقول تعقيباً على قول أبى الفرج المتقدم ، وقد وضعه فى الأصل بين قوسين : « يقول محمد الخضرى : قرأت على ديوانه بخط أستاذنا الشنقيطى - رحمه الله - هذا ديوان النابغة الشيبانى عبد الله بن المخارق بن سليم رحمه الله تعالى ورضى عنه » اه . . . فقلت فى نفسى كأن الشيخ الخضرى يتشكك فى نصرانية الشاعر مستندا إلى عبارة العلامة الشنقيطى إذ خص النابغة بالرحمة والرضوان !! فلا بد إذن من فحص هذه المسألة لنحسم الشك باليقين.

ولم أشأ أن أتعقب مؤرخى الأدب ممن

ترجموا للنابغة فذلك عناء مديد يزيد الشك ولا يحسمه !! فقصدت إلى الديوان أقرؤه قراءة التأمل الفاحص ، لأجد ما قد يزيل الظنة من شعره الصريح ، وكانت دهشتى عجيبة حين وجدت نصوصا متعددة تنطق بإسلامه نطقا لا يحتمل أدنى خلاف أو تشكك . فعجبت جدا لمن قام فى دار الكتب بشرح الديوان وتفسيره ! كيف ترك عبارة أبى الفرج فى المقدمة المنقولة دون تعقيب ! مع أنه شرح من أبيات الشاعر ما يقلبها رأسا على عقب!! ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد نسيم ـ رحمه الله ـ مع دقته الممتازة فى الشرح وجهوده المضنية فى الإيضاح ، قد كلف بذلك فقط دون كتابة دراسة تاريخية محققة !! فلم يعمد إلى أبى الفرج بشىء !! ولكن السكوت عن الباطل مزلة نكراء .

لقد وجدت الشاعر مثلا يقول فى ص ١٧ :

وتعجبنى اللذات ثم يعوجنى
ويسترنى عنها من الله ساتر
ويزجرنى الإسلام والشيب والتقى
وفى الشيب والإسلام للمرء زاجر
ألا أيها الإنسان هل أنت عامل
فإنك بعد الموت لا شك ناشر
ألم تر أن الخير والشر فتنة
ذخائر مجزى بهن ذخائر

فقلت هذا اعتراف صريح بالإسلام ، ثم يليه تضمين بليغ لبعض آيات القرآن ، فهو دليل أول بلا جدال .

ثم وجدت الشاعر يهنئ الوليد بن عبد الملك بفتح مدينة « طرندة » وتضييق كنيستها ، وبناء مسجد بها ، إذ يقول ص ٥٢ :

أخزى طرندة منه وابل برد
وعسكر لم تقده العزل الجوف
حتى علوا سورها من كل ناحية
وحان من كان فيها فهو ملهوف
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية
والله يعلم ما تخفى الشراسيف
قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا
فصخرها عن حديد الأرض منسوف
كانت إذا قام أهل الدين وابتهلوا
باتت تجاوبنا فيها الأساقيف
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة
وصادق من كتاب الله معروف
فيه المثانى وآيات مفصلة
فيهن من ربنا وعد وتخويف

فقلت : إن الشاعر الذى يهنئ بتضييق الكنيسة ، ثم يقول : تدعو النصارى لنا ، ويتبع ذلك بقوله عن جوف مسجدنا ، ثم يصف صلاة المسلمين بصلاة الحق ، ويشيد بالمثانى والآيات القرآنية . إن شاعراً يقول : ذلك لهو مسلم لا مراء فهذا دليل ثان .

ثم وجدت الشاعر يقول ص ٢٢ :

ولولا الله ليس له شريك
إله الناس ذو ملك وعرش
لبـا كرنى من الخرطوم كأس
تكاد سئور نفحتها تنشى

فقلت : لو كان الشاعر نصرانياً كالأخطل مثلا ما حرم على نفسه الخمر وقد أباحتها النصرانية فهذا دليل ثالث .

ثم وجدت الشاعر يقول فى مدح الخليفة الأموى ص ٢٨ :

دانت له عرب الآفاق خشيته
والروم دانت له جمعاء والفرس
هم الذين سمعت الله أوعدهم
المشركون ومن لم يهوكم نجس

فقلت فى نفسى : إن الروم نصارى ، والشاعر النصرانى لا يرضى أن يجعلهم نجسا كالمشركين ! ! فالشاعر مسلم إذن ، كما أنه يستدل بنص صريح من القرآن لا يعتقده غير مسلم صريح فهذا دليل رابع .

وفوق ما تقدم من الأبيات فقد قرأت للرجل حكما قرآنية نظمت فى ثنايا شعره ، مما يشير إلى ثقافة إسلامية عريقة لا تتاح لغير متعمق دارس فضلا عن شاعر حالم ، ولولا أن المقام لا يسمح بالاستشهاد لضربت الأمثال . . .

بقى أن نناقش دليل أبى الفرج على نصرانية النابغة فقد زعم أنه فيما يرى نصرانى لأنه يحلف بالرهبان والإنجيل ، والأيمان التى يحلف بها النصارى ! ! وهذا الحلف وحده لا يخرج الشاعر عن إسلامه ، لأن النصارى أهل كتاب يؤمنون بالله ، وفيهم من ترهب خشية وتقوى ، فإذا حلف بما يحلفون به شاعر مسلم يؤمن بالله كما يؤمنون فلا يخرجه حلفه هذا عن الإسلام ! ! ونحن فى هذا العصر نرى شوقيا المسلم يكثر من مديح عيسى ، ومطران المسيحى يحيى مولد محمد وهجرته فهل سيجىء بعد عشرات السنين أبو فرج آخر فيزعم أن شوقيا مسيحى ومطران مسلم ! ! لو كان ذلك لا حتاج الأمر إلى تصحيح ! ! وأظن أن النابغة قد اتجه هذا الاتجاه بتأثير عدى بن زيد ، فقد قرأ شعره وعارض بعض قصائده ، فأثر فى كلامه تأثيراً ظهر فى بعض الصور والمعانى والقوافى . . . والحلف أيضا . . ! ! وذلك مما يجوز .

هذا ويجب أن أشير إلى حادثة رواها أبو الفرج ، وقد تكون دليلا على ترجيح نصرانيته فى رأيه ! ! فقد حدث أن النابغة دخل على عبد الملك بن مروان فمدحه بقصيدة صرح فيها بتفضيل نجله الوليد فى ولاية العهد على شقيقه عبد العزيز بن مروان ، فلما علم بذلك عبد العزيز غضب غضباً شديداً ، وقال : « لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقا فأوردها مورداً خطراً ، والله لئن ظفرت به لأخضبن قدمه بدمه » .

ونحن نقول إن قول عبد العزيز : « لقد أدخل ابن النصرانية » لا يؤخذ منه أن الرجل نصرانى ، لأنه فى هذه القصيدة قد حلف براهب يظل يقرأ الإنجيل ! ! مع أن المحلوف عليه هو تفضيل الوليد على عبد العزيز فى البيعة ، فكان طبيعياً أن يتضايق عبد العزيز من القسم والمقسم به معا ، ثم يتهكم بما يريد .

على أننا نجيز — من باب الفرض الجدلى فقط — أن تكون أم الشاعر نصرانية ، عربية أو أعجمية ، حرة أو مولاة ، فلن يضير ذلك إسلام النابغة فى شىء ، فقد كانت أم الأمير خالد بن عبد الله القسرى حاكم العراق والمدينة فى العصر الأموى نصرانية صليبية ، وقد بنى لها كنيسة خاصة بها ، ولم يقل أحد : إن نجلها خالدا نصرانى تبعاً لأمه ... وإنى لأحفظ بعض أبيات يقولها شاعر فى أم خالد : ومنها :

يقولون نصرانية أم خالد
فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد
فقد صورت فى صورة لا تشينها
أحبك أن قالوا بعينك زرقة
كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ولعل من سماحة الإسلام أن تبنى كنيسة شاهقة فى مدينة عامرة ، لامرأة واحدة ! ! دون اعتراض ، ولكننا لا نجد من السماحة لدى أبى الفرج ومن لف لفه أن يستنبطوا أوهاما خاطئة تنتقل بالشاعر من دين إلى دين دون دراسة فاحصة أو نظر بصير .

محمد رجب البيومى
(المدرس بالمنصورة الثانوية)

السجن الشريف [مهداة لأحرار العراق]

قالوا : حبست . فقلت : ليس بضائرى حبس وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله كبرا ، وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه السرار فتنجلى أيامه وكأنه متجدد
والحبس مالم تغشه لدنية شنعاء ، نعم المنزل المتودد
بيت يجدد للكريم كرامة ويزار فيه ، ولا يزور ، ويحمد

هل تعلم شيئاً عنا ؟

للأستاذ محمد بن سالم البيحانى

رئيس الجمعية الإسلامية للتربية والتعليم بعدن

يزور القاهرة فى هذه الأيام الأستاذ الشيخ محمد سالم البيحانى مؤسس المعهد العلمى بعدن ، وهو رجل مثقف الفكر واللسان ، مخلص القلب للإسلام والعروبة . جاء يظهر بنى قومه فى الجمهورية العربية المتحدة ، على ما يكابد إخوتهم فى عدن من سوء الحال وطغيان الاحتلال ، عسى أن يمدوه بالعون المادى والأدبى ليستطيع أن يجعل للدين واللغة مكانا فى بلد كاد المستعمر يسلخه من قوميته ويفتنه عن دينه ، وهو خليق بأن يسمع له (المؤتمر الإسلامى) وأن يعينه على أداء رسالته .

« المحـــرر »

يا سيدى القارئ الكريم : نحن إخوانك فى العروبة والإسلام ، إخوانك فى الدم واللغة والعادة والتقاليد ، نحن فى جنوب الجزيرة العربية ، فى عدن المحتلة التى دخلها الاستعمار الانجليزى فى سنة ١٨٣٩ ، واتخذها قاعدة حربية ، ومركزاً لتموين البواخر الآتية من الهند والذاهبة إليها ، وذلك قبل أن تكون قناة السويس ، وكان يرى فيها المركز الحربى والسوق التجارية لملتقى طرفى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ويستمد منها لغزو اليمن ، ويفكر أن يجعل منها الهند الثانية ، وحالت الأقدار بين الانجليز وبين ما يشتهون ، وبقى الاحتلال قاصراً على منطقة لا تزيد على ثمانية عشر ميلا ، ولكنهم أخذوا يعقدون الصداقة والأحلاف مع جماعة من رؤساء القبائل وأمراء الجنوب ، ويدفعون لهم مرتبات شهرية يزعمون أنها لحفظ الطرقات ، ولصد غارات البدو المجاورين لعدن ، وأكثر أولئك المتعاقدين مع المستعمر كانوا فقراء جهالا ، لا يدرون ولا يعرفون ماذا يراد بهم ، يملئون بطونهم بتلك المنح المالية ، ويأخذون السلاح ليقتل بعضهم بعضا ، ولكى يتغلب الضعيف المستسلم على القوى المتمنع .

وكان معظم أصدقاء الانجليز غير محببين إلى شعوبهم ، وليست لهم شوكة قوية ، ولا يعبأ بهم رؤساء العشائر المعترف لهم بالرياسة والإمارة . وأنا لا أتحدث فى الناحية السياسية بأكثر من هذا ، فالتاريخ كفيل بكل شىء ،

والأحداث كل يوم تملأ العيون والآذان، والمختصون لايحتاجون إلى زيادة بيان، والعامة لا يهتمون بهذا الشأن، ولكنه على فرض لازم أن أذكر القريب والبعيد، والصديق والعدو، ما نحن عليه من سوء الحال فى اليمن المحتلة: من الجهل والفقر والمرض، والظلم واختلال الأمن، ومزاحمة الجاليات الأجنبية فى جميع مرافق الحياة، ووسائل العيش، فهم الذين يديرون الحركة الاقتصادية، ويتقلدون المناصب العالية، وتوظفهم الجهات المختصة فى دوائر الحكومة، ومكاتب الشركات التجارية.

ولمواليد عدن ولرعية المملكة المتحدة من أبناء «الكومنولث» حق التصويت والانتخاب، وترشيح أنفسهم لعضوية المجالس البلدية والتشريعية، وليس لليمنى شىء من ذلك؛ لأنه أجنبى فى نظر المستعمر، والفارسى، والهندى الوثنى، واليهودى الصهيونى أحق بالخيرات ومصالح البلاد من أبنائها الشرعيين المرتبطين بالحكومة المتوكلية باليمن، يا لله! وفى المدارس لاحق لهم، ولا توجد لهم مقاعد إلا ما فضل وبقى بعد أبناء «الكومنولث».

ثم لأحدثك ياسيدى عن السكان وأحوالهم العامة فهناك نحو ثلاثمائة ألف فى مدينة عدن والمدن التابعة لها: المعلا، التواهى، الشيخ عثمان، والبريقة. ودينهم الإسلام، ولغتهم العربية. والأجانب لايزيدون عن ثلاثين ألفا. والمساجد فى هذه المدن ما بين ستين وسبعين، وتقام الجمعة فى المساجد الكبيرة، ويؤم الناس فيها جماعة من علماء حضرموت واليمن، أما المدارس الأهلية والحكومية للبنين والبنات فأظنها خمساً وعشرين، وهى: ابتدائية وثانوية متوسطة، وعند نهاية التعليم فيها يقف معظم الطلاب ويخرجون لطلب العيش، وتوضع الأشواك فى طريق الوصول إلى الأقسام العالية ولا شىء منها إلا كلية عدن ولا يزيد طلابها فى جميع أقسامها على أربعمائة وخمسين شخصا، مع ملاحظة أن عدد التلاميذ فى جميع المدارس يقاربون تسعة عشر ألفاً.

والمعهد العلمى الإسلامى الذى فتح أبوابه فى آخر سبتمبر سنة ١٩٥٧ يتسع بحمد الله لألف وخمسمائة طالب، وفيه الآن نحو خمسمائة، وفى السنة الدراسية القادمة سيكونون أكثر من سبعمائة، وقد اجتمع لبناية المعهد وتأثيثه وشراء عمارتين موقوفتين عليه من تبرعات المحسنين مائة وخمسة وعشرون ألف جنيه استرلينى، وذلك من أهالى عدن، وإمام اليمن، والمملكة العربية السعودية، والكويت، والبحرين، وقطر، والحبشة، وأريتريا والصومال الفرنسى، وهو يحتاج إلى المعلمين

والأساتذة الأكفاء من حملة الشهادات للتدريس فيه باللغتين العربية والانجليزية ، وإلى معلمين متخرجين من المعاهد الدينية .

والحكومة الانجليزية لا تسمح بدخول واحد من أبناء الجمهورية العربية المتحدة ، لأنها تخاف منهم وتحسب أنهم يأتون غزاة فاتحين ، وفى هذه الجولة التى أقوم بها فى الأقطار العربية أرجو مساعدة المؤتمر الإسلامى والوزارات المختلفة للتربية والتعليم ، والأوقاف حتى يتم هذا المشروع ويؤدى رسالته العلمية فى جميع مراحل التعليم ، وذلك بالمال والكتب والأدوات المدرسية وتدبير المعلمين اللازمين .

ولابد قريباً من تحسن العلاقات بين الانجليز والجمهورية العربية المتحدة فتأتى البعوث لمعرفة الأوضاع ولدارسة الأحوال عندنا ، وعلى رجال الأزهر الشريف وعلمائه الأفاضل أن يولوا قضيتنا مزيد اهتمامهم ، فما نحن بأضعف حق ولا بأتعس حظ من البلاد الأخرى ، حيث يصل إليها الأزهريون ويقومون فيها بواجب العلم والعلماء .

وعودة إلى الموضوع أقول : إنها توجد فى عدن خمسة مستشفيات وليس لها طبيب عربى واحد إلا الممرضون ، وإلا شاب تخرج فى لندن منذ أربعة أشهر .

والمحامون والمهندسون والصناعيون والفنيون لا يوجد منهم إلا الأجانب من الطليان والهنادكة ، والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه ، ولا شك أن الناس قد استيقظوا من نومهم ودبت فيهم الحياة ، وأخذوا يفكرون فى الأمر ويرون أنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالعلم وقوة الربط بينهم وبين إخوانهم العرب فى كل مكان .

وهم الآن بمثابة الفريق المستنجد أو الهالك المستغيث يمدون أيديهم ويقولون . كما قال يونس عليه السلام : « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » .

محمد بن سالم البيحانى

إمام وخطيب جامع العسقلانى ومؤسس المعهد العلمى الإسلامى بعدن ـ بلاد العرب

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتاب الإسلام والعرب « Islam and The Arabs » تأليف الأستاذ روم لاندو Rom Landau واحد من هذه الكتب التى تصدر فى اللغات الأوربية بالعشرات عن الإسلام والعرب منذ الحرب العالمية الثانية ، ويسلك مؤلفوها فى الوصف والتعليق مسلكا يخالف المسلك الذى درج عليه سماسرة التبشير والمطامع السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ولن تزال له بقية تتردد من خير إلى خير فى بعض الكتب « الرسمية » والشبيهة بالرسمية .

فكتب التبشير والسياسة وغيرها تتعمد التشهير والبحث عن المساوئ فى روايتها عن أحوال الأمم الإسلامية والعربية ، وقراؤها يتطلبون منها هذا التشهير ويستريحون إليه على سنة التقليد التى توارثوها من القرون الوسطى .

وعلى غير هذا النمط يكتب الرحالون والمعلقون من المحدثين الذين نلمح فى مصنفاتهم نزوعا إلى الإنصاف وإعراضا عن التلفيق ، فإنهم يحاسبون أنفسهم ويشعرون بمحاسبة قرائهم الذين نشئوا بعد الحرب العالمية متشككين فى كل تقليد قديم ، ومنه تقليد الطعن فى الأمم الأخرى ، وبخاصة أبناء الأمم الشرقية والغرباء عن أوربة على التعميم .

ويعزى هذا التحول إلى أسباب منوعة كما ذكرنا فى مقال سابق : منها نشوء تلك الطبقة الحديثة من القراء المتحررين من سلطان زعمائهم الأقدمين ، والمتشككين فى كل عرف موروث يمليه أولئك الزعماء .

ومن أسباب التحول غلبة الأسلوب العلمى وما يلازمه من مناهج التقرير والتحقيق فى عقول الكتاب والقراء على السواء . فإن هذه المناهج بطبيعتها تفضح من يصطنعها ولا يتحرى الأمانة فى اتباعها ، وقد يحرص الناشرون كما يحرص الكتاب على سمعة

بضاعتهم بين جمهرة القراء العصريين ، وهم يطلبون غير ما يطلبه قراء التبشير وسماسرة الاستعمار .

ومن أهم أسباب التحول سهولة الانتقال بين الأقطار والاختلاط بين الأمم ، وصعوبة الإصرار على الأكاذيب فى عالم تتردد عليه أخبار الإذاعة والصحافة من كل طرف وعلى كل صبغة ، ويوجد فيه المروجون والمفندون لكل دعوة يتنازعها الأضداد المخلصون وغير المخلصين ، ومثل هذا العالم يفرض على رواته ومؤرخيه أسلوبا لم يكن بالمفروض على الرواة والمؤرخين فى العصور الغابرة ، إذ كان الراوية يلقى الخبر وتمضى عليه الشهور والأعوام قبل أن يتبعه من يؤيده أو ينفيه ، وربما قيل يومئذ عند تكذيب الخبر أن الأمور خليقة أن تتبدل فى مدى الشهور والأعوام فلا يشهد المؤرخ فى هذه السنة ما كان يشهده سابقوه قبل بضع سنوات .

وأهم أسباب التحول فى أسلوب الرواة والمعلقين على أبناء الشرق والإسلام أن الأمم الشرقية والإسلامية قد أصبحت فى عداد القوى العالمية التى يحسب لها حسابها ويتحرج المسئولون وأصحاب الآراء من إغضابها والإساءة إليها . وقد يكون الإنصاف تمحيصا عليا ومصلحة سياسية فى وقت واحد ، فلا يعدم من الناشرين والقراء من يقبلون عليه ، ولا يعدم من الساسة وذوى الآراء من يشجعونه ويميلون إليه .

إلا أن هذا التحول يوشك أن يخدعنا عن الحقيقة كلها إن لم نعرف دلالته بغير مبالغة فى قيمته وأثره .

فليس قراء الغرب جميعا منصفين ، وليس كل المنصفين منهم مشغولين بأمور الشرق والإسلام ، وقد يكون فى عالم النشر والتأليف عندهم من يغضبهم إنصاف المسلمين والعرب على التخصيص دون أبناء الأمم الشرقية الأخرى ، الذين يدينون بغير الإسلام ويتكلمون بغير العربية ، وقد يعمد هؤلاء المغرضون إلى الإنكار الصامت إذا أنسوا بين القراء نفوراً من الإنكار الصريح والافتراء المكشوف .

وينبغى أن نذكر جيداً أن الصهيونية بالمرصاد ، وأنها فى ميادين النشر والإعلان أخطبوط لا تسلم من أيديه الظاهرة والخفية شعبة من شعب الثقافة ، أو الدعوة فى القارات الأوربية والآسيوية والإفريقية ، ولا نخال أن هذا العدو اللئيم يرى خبراً واحداً مرضيا عن العرب والإسلام ثم يتركه للنشر والإذاعة إذا تمكن من طمسه وإخفاء معالمه ، وهذا هو الإنكار الصامت الذى نعنيه ونحسبه ميسراً للصهيونية العالمية وأذنابها فى دور النشر والإعلان ، إذ هو ولا ريب أيسر عليها

من الحملة الصريحة التى لا تتيسر فى جميع الأوقات حيث تقضى السياسة أحيانا بمجاملة العرب وأصدقائهم فى المعاملات الدولية .

وبين أيدينا مراجع شتى نلمس فيها أصابع هذا العدو اللئيم بينة واضحة تنم على أصحابها ، ولا يعقل أن تحدث عفوا ولا أن تنسب إلى مصدر غير المصادر الصهيونية .

فمن المراجع التى ظهرت حديثاً موسوعة شاملة لأصول الأدب والبلاغة فى اللغة الفرنسية ، تتوسع فى الكلام عن حركات الثقافة ومدارس الشعر بين القرن الخامس للميلاد ومنتصف هذا القرن العشرين ، ولكنها تقتضب القول فجأة كلما انتهى بها البحث إلى فضل الأدب الأندلسى على مدارس الشعر والغناء فى أقاليم فرنسا الجنوبية ، فتسكت عن كل إشارة إلى هذا الفضل ولو من قبيل الإلمام بمختلف الأقاويل، وتذكر كل أثر مظنون أو مفهوم إلا ما كان فيه اعتراف بوجود العرب الأندلسيين ، أو المشابهة بين منظوماتهم وأغانيهم وبين منظومات الفرنسيين الجنوبيين ، وقد اتفقت الآراء مع هذا على تأثير الأدب العربى فى الأوزان والموضوعات ، بل فى الأزياء والشارات التى شاعت بين طائفة « التروبادور » المشهورين ، ولم تكن لهم شهرة قبل ظهور الآداب الأندلسية ، وشيوع طرائقها فى الغزل والتشبيب .

ويشعر القارئ بمثل هذا الاقتضاب ، كلما وصل البحث إلى أثر الفلسفة أو الفقه أو مقتبسات الحضارة وفنونها ، مع إقحام أسماء اليهود لغير مناسبة هنا وهناك كما تقحم الرقعة المستعارة ، وربما كان منهم تلاميذ معترفون بتلمذتهم لأساتذتهم الأندلسيين المسلمين .

وإذا احتاجت هذه العداوة المدسوسة وأمثالها من العداوات الصامتة إلى كشف وتنبيه فلا حاجة بالحملات الصريحة إلى من يكشفها وينبه إليها ، وكل ما يصح أن يقال عنها فى هذا الصدد : إنها اليوم أقل وأهون من نظائرها قبل الجيل الحاضر ، وإنها عرضة للاتهام والريبة بين خيرة القراء .

* * *

ولا يخفى أن معرفتنا بالعالم لا تغنينا عن معرفة العالم بنا ، وأننا كلما أحسسنا بأعباتنا فى مشتبك العلاقات العالمية وجب علينا أن نتثبت من مكاننا بين الأمم على أساس الفهم والإنصاف ، وبخاصة فى تلك المسائل التى يرتبط بها كيان الأمة كمسائل العقيدة والثقافة ، ومسائل التراث السلفى والغاية التى ننساق إليها على هدايته فى سعينا إلى المصير المنظور .

فإذا نظرنا إلى كتابات الأقوام الغريبة عنا فقصارى ما نفهمه من نزعة الإنصاف

عند بعضهم أن هنالك استعدادا لقبول صورة صحيحة عن الإسلام نؤديها نحن ولا يملك أحد غيرنا أن يحسن أداءها ، وأننا لا نزال مطالبين بالعمل الحثيث لندفع مكائد الصامتين والناطقين من أعدائنا ، وقد صنعوا كثيراً ولم نكد نحن نصنع شيئا يحبط مكائدهم ، كأنما نلقى العبء كله على أولئك الكتاب الغرباء الذين نزعوا منزع الإنصاف .

* * *

ونعود إلى الكتاب موضوع هذا المقال ، فنوفيه كل حقه من التقريظ من وجهة النظر الإسلامية إذ نقول : إنه على مثال الكتب التى يؤلفها الغرباء عن الإسلام وتنوب عن كتابة أهله فى إبراز محاسنه وتصفية تاريخه من شوائب المسخ والتشويه ، لوجاز للمسلمين أن يقنعوا بالإنابة دون الأصالة فى هذا المقصد على التخصيص ، وهو مما لا يجوز ولا ترتضيه لنفسها أمة تأنف أن تكون عالة على الغرباء فى أمر من الأمور ، وندع منها أمر الدفاع عن العقيدة والتاريخ .

فالأستاذ «روم لاندو» مثل صالح للمستشرقين الذين يقيمون فى البلاد الإسلامية ويذكرون لها عهد الوفاء بحقوق الصحبة والضيافة ، وهو فى هذه الخصلة على نقيض أولئك الطراق المسخرين للاستعمار والتبشير الذين يزورون بلادنا ويعيشون فيها وكأنهم يطيلون الإقامة فيها ليبحثوا عن شىء واحد : وهو أسباب التشهير والانتقاص وخفايا العيوب والمثالب ، يبالغون فيما يجدونه منها ويختلقون ما لم يجدوه ، ومهما تكن من حسنة لهذه البلاد فهى مستترة عنهم أو هم يسترونها بأيديهم ، ولا يذكرونها ـ إن ذكروها ـ إلا ليجعلوها سبيلا للذمه وحجة مموهة ، لدعوى الإنصاف والاستقلال .

والأستاذ « لاندو » جوالة رحالة يطوف حول جوانب الأرض ويجعل الله قبلة له فى مطافه ، كما قال فى كتابه الذى أودعه خلاصة رحلاته وزياراته وسماه « الله وجهة مطافى » God is my Adventure ولم يدع فيه معتقدا من معتقدات الأمم يوصل إلى الله إلا اتبعه ومضى معه ليبلغ به غاية مداه .

وهذا الكتاب عن الإسلام والعرب ثمرة السنوات التى قضاها زائرا أو مقيما فى البلاد الإفريقية الإسلامية وأخصها بلاد المغرب الأقصى حيث أطال المقام وكافأه ملكها بوسام العلويين تنويها بموقفه من التاريخ الإسلامى والقضايا الإسلامية ، وأوجز ما يقال عن هذا الموقف : إنه شمل الماضى والحاضر فى عرض القضايا والمشكلات ، وإنه يعرض منها وجهة النظر الإسلامية على أوفاها فإن لم تكن وجهة نظره بتفصيلاتها

فهو يبدى تلك التفصيلات ولا يخفى شيئا منها .

ولقد ألم فى هذا الكتاب بعجالة حسنة عن نشأة الإسلام وسيرة النبى وبلاغة القرآن ووسائل نشر الإسلام ومشكلات العالم الإسلامى السياسية والفكرية ، ومنها مشكلة الفلسفة اليونانية والفرق الدينية وحروب الدول ، ثم حروب الصليبيين وغزوات الاستعمار والصهيونية ، وقد ندل على منهج الكتاب بنقل طائفة من آرائه نكتفى بترجمتها عن التعليق عليها ؛ لأنها تكاد أن تكون تردادا لآراء المسلمين فى مناقشة خصوم الإسلام وقل فيها ما يلجىء القارىء المسلم إلى تصحيح أو استدراك .

* * *

قال عن إخلاص النبى عليه السلام فى دعوته : « كان محمد مفطوراً على التدين مستعداً بطبيعته لرسالة الإصلاح التى تلقاها فى رؤاه ومشاهداته الخفية ، وكان مع هذه الفطرة الروحانية رجلا عمليا يفطن ببديهته لما انطوى عليه المزاج العربى من قوة وضعف ، ويدرك أن الأناة واجبة فى تلقينهم آداب الإصلاح سواء منهم أهل المدر والوبر من الحاضرة والبادية ، وقد تأصل فى روعه إيمان بالتوحيد لا يتقبل الهوادة ولا المصانعة ، وعزيمة صادقة على استئصال كل أثر للوثنية التى فشت فى الأمة العربية ، وقد كانت رسالة محمد مهمة هائلة جسيمة لا يقدم عليها إنسان يصدر فى أعماله عن بواعث المنفعة والأنانية ويرجو أن يحققها بمجهوداته أو بمساعيه الذاتية ، ولا شك البتة فى بطلان تلك الأكاذيب التى تزعم أن الآيات الموحاة إليه وليدة نوبات من الصرع كانت تنتابه بين آونة وأخرى . إذ ليس فى وسع المصاب بتلك النوبات أن يتلقى فيها نسقا من الكلام له ما للقرآن من العمق وانتظام التركيب . وإن الإخلاص الذى أدى به رسالته ، واليقين الراسخ فى نفوس أتباعه بصدقه ، والامتحان الذى اختبرت به رسالته مدى السنين والأجيال ، لهى من الدلائل على أن محمدا ـ عليه السلام ـ براء من شبهة الخداع والادعاء ، فما حدث قط أن خادعا مدعيا ـ ولو كان من أصحاب العبقرية ـ بقيت له رسالة بعد ذهابه ، وهذا هو الإسلام باق بعد ثلاثة عشر قرنا يجذب إليه المؤمنين عاما بعد عام ، وقد خلا التاريخ من مثل واحد على دعوى من دعاوى الخداع أفلحت فى إقامة دولة شامخة وحضارة من أنبل الحضارات الإنسانية » .

* * *

وقال المؤلف يعلل للقراء الغربيين حيرتهم فى فهم بلاغة القرآن وسر ذلك السلطان

العجيب الذى يملك به قلوب المسلمين ، فكانت خلاصة تعليله : « أن الغربيين يجهلون مناسبات النزول ، وأن ترتيب الآيات على حسب مواقعها سبب من أسباب حيرة القارئ الغربى عند تلاوة القرآن . . . وأن السور المطولة تنزلت فى أخريات أيام النبى وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدبير الشئون العامة ، بما يتتبعه القارئ الغريب فلا ينشط لقراءته وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتاب فى قصار السور التى تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير » .

* * *

وقال عن الحروب الصليبية : « إن أوربة كانت بحاجة إلى منفس لما أصابها من الفقر والمرض ، وجاءتها الدفعة إلى الهجرة من المغرب إلى المشرق من قبل شعوب النورمان والفرنجة ، ويبدو أن الوحدة الأوربية إنما كانت حركة من حركات الاستعمار تمضى فيها البواعث الاقتصادية إلى جانب البواعث الدينية ، وإذا قيل : إن الحروب الصليبية كان لها أثرها فى ترويج التجارة بين المشرق والمغرب فالتجارة قد كانت خليقة أن تروج بغير هذه الوسيلة .

إن الصليبيين وجدوا فى الشرق حضارة مادية وثقافية أرفع جداً مما كانوا يعهدونه فى معيشتهم . وعادوا إلى بلادهم بثمرات شتى من الحضارة المادية كالسكر والحرير والعطور والأبازير والأصباغ ، كما أخذوا من الشرق تأسيس نظام العملة الذهبية ، ومعاملات المصارف ، واستفاد الغرب والشرق معا من تبادل الخطط فى المسائل الحربية .

على أن العرب لم يستفيدوا كثيراً من اتصالهم بالصليبيين ، وكل ما عرفوه من معاملتهم أنهم جشعون متعصبون متهوسون بجنون القتال والتدمير » .

* * *

وقال عن فضل المسلمين فى إحياء الفلسفة :

« إن قصة كشف المسلمين عن الفلسفة اليونانية ونقلها إلى الغرب لهى فصل من أجمل فصول التقدم الإنسانى من الجهالة إلى المعرفة ، وما كانت المخطوطات اليونانية بالشىء النادر فى أرجاء القارة الأوربية قبل ذلك ، ولكن تلك المخطوطات كانت ـ أو معظمها ـ مدفونة منسية يجللها الغبار فى الأديرة ، ويقول لنا روجر باكون : إن حفاظ تلك الودائع بلغ بهم الجهل وقلة الاكتراث ألا يلتفتوا إليها ولم تكن لها ترجمات لاتينية ، وقد امتازت القسطنطينية على رومة بوفرة هذه المخطوطات ومنها ـ ومن بلاد فارس ـ عرف العرب ما عرفوه عن الإغريق » .

* * *

وقال عن مسألة العرب واليهود : « إن العرب ـ وهم ساميون ـ قد عاشوا فى سلام مع اليهود الساميين عطفوا عليهم لما ابتلوا به من مظالم النازية ، ولكنهم لا يفهمون لماذا يقضى عليهم وهم شعب فقير أن يحملوا وحدهم أعباء الغيرة الإنسانية التى يصطنعها الغرب لرعاية اليهود » .

* * *

هذه أمثلة من نظرة الكاتب إلى العالم الإسلامى فى مسائل متعددة تبتدئ من تاريخه منذ صدر الإسلام إلى تاريخه الحاضر عند منتصف القرن العشرين ، ولسنا نوليها قيمة فوق قيمتها حين نقول : إنها دليل من أدلة الاستعداد لاستماع القوم عن الإسلام من مصادر غير مصادر التبشير والاستعمار ، وإن أحق المصادر أن يستمع إليه العالم شرقا وغربا لهو المصدر الإسلامى بكفالة أهله وذويه ، فليس من إنصاف المسلمين لأنفسهم أن يجىء إنصافهم كله عند القوم مجاملة من الغرباء .

عباس محمود العقاد

سل التـاريخ . . . !

سل التاريخ عن رحمة العرب وعدلهم ، وروح التسامح التى كانت تسودهم . . . !

سله ينبئك أن العرب لم يستذلوا شعوب العالم إبان قوتهم وبأسهم ، ولكنهم نشروا رسالة المحبة والتعاون والإخاء ، وقضوا على التفرقة العنصرية ، والاستبداد الطبقى ، وحققوا الديمقراطية الصحيحة .

فالعرب ـ بحق ـ هم الذين ضربوا للعالم المثل فى كيفية سياسة الشعوب والأمم ، عن طريق المساواة ، وكفالة الحريات ، وسيادة العدل ، وتأكيد الطمأنينة والأمن ، وتحكيم الاشتراكية العادلة .

مختار من الشعر القديم والحديث

ذكرى تأميم القناة

نحن العرب !

للأستاذ ابراهيم محمد نجا
المتخرج فى كلية اللغة العربية

أيها السائلُ عنا ، إننا وحْدةٌ تجمعُ شملَ العربِ
كلُّنا فى حومةِ المجدِ يدٌ تجعلُ النجمَ قريبَ المطْلبِ
والذى يطمعُ أنْ يرهبنا سوفَ يمضى ، وهوَ عبدُ الرهبِ
كمْ تحدَّينا فجاءات الردَى وثبتْنا فى وجُوهِ النوْبِ
فى طريقِ المجدِ نمضى موكباً تخشع الدُّنيا لسير الموكبِ
نطأ النارَ لهيباً عاتياً لا تذودُ النار بأس اللهبِ
ونحيلُ الجدْبَ روضاً مزهراً حينَ نمشى كالرَّبيع المخصبِ
فملكنا الأرضَ منْ مشرقِها وازدهتْ راياتنا فى المغربِ
وجعلنا الدينَ نوراً لمْ يزَل ساطِعاً يمحو ظلامَ الريبِ
وجعلنا العِلْمَ نهراً صافيا سائغَ الموردِ ، عذبَ المشربِ
وجعلنا الحب زهرًا ناضراً يشتهيهِ كلُّ قلبٍ مجدبِ
وجعلنا الحكم عدلا شاملاً وإخاءً كإخاءِ النسبِ
عاشَ فيهِ كلُّ شعبٍ هانئاً عِيشةَ الأبناءِ فى ظِلِّ الأبِ
هكذا كنا ، وهذا مجدُنا قمَّةٌ قدْ توجَّتْ بالشهبِ
سطرَ التاريخُ مِنْ أيامهِ عجباً يأسر قلبَ العجَبِ

ثم مرت ليلة مظلمة عصبت أنظارَنا بالحجب
وخضعنا للكَرَى عن غفلة وسعى الغدْرُ خفىَّ المأرب
فإذا الأغلال فى أعناقنا سمة العار على الحر الأبى
وإذا الفرقةُ تمشى بيننا رأس أفعى ، وذنابى عقرب
فاطمأنَّ الغدر إذ لاح له أننا عن جِدّنا فى لعب
نحسب الباطل حقاً خالصاً حين يبدو فى إطار الكذب
ونرى الأغلال أبهى حليـة حينما تطلى بماء الذهب
ثم جاء الصبح خفاق السنا مثلما تخفق رايات النبى
بعث القوة فى أرواحنا فسرت مسرى السنا فى الغيهب
فانتَفضْنَا مرة واحدة وهتفنا : يا لمجد العرب
ومضينا موكبا ، فى خطوه عزة النصر ، ومجد الغلب
نطرد الغاصب عن أرض الحمى كيف تعنو أرضنا للأجنبى ؟
هذه الليلة كانت عظة وعظتنا ببليغ الخطب
علمتنا أن فى وحدتنا قوة الجيش الكثيف اللَّجِب

* * *

يا رعاه الله يوما خالداً لم نُطَالِعْ مثله فى الحُقَبِ
يوم نادينا على سمع الدنى أيها التاريخ سجل واكتب :
نحن أممنا قناة شقها عزم أجدادٍ كرامٍ نُجُبِ
بذلوا أرواحهم فى حفرها بعد ماجادوا لها بالنشب
أرعد الأحلاف لما راعهم منطق الحق القوى الأغلب
زعموا أنا اغتصبنا حقهم ليس بانى الدار بالمغتصب
وتنادوا وأعدوا جمعهم وبدا أسطولهم عن كثب
حسبوا أنا نَخْشَى بأسهم كيف تخشى النارُ بأسَ الحطبِ ؟

فرأوا تصميمنا لا يَنْثَنِي دون أن يحظى بنيل الأرَبِ
ورأونا أمة واحدة وقفت فى يقظة المرتقب
تحمل الغصن لمن سالَمها وتصافيه بقلب طيب
وتثيرُ الحرب فى وجه العِدى وتوافيهم ببأس مغضب
هكذا نحن ، وهذا مجدنا قمة قد توجت بالشهب
أيها السائل عنا ، إننا وحدة تجمع شمل العرب

ابراهيم محمد نجا

وَحِدة فى سَبِيل الحَق

لشاعر عدن الأستاذ عبد المجيد محمد الأصنج

وحدة المخلصين فى الإنشاء هزت النجم فى الربا والسماء
وحدة شد ذو الجلال عراها بجليلين من بنى العرباء
وحدة قام صرحها شامخ الأركان فيه دنيا السنى والسناء
وحدة كان نبعها من ضمير العرب لا من وساوس الدخلاء
وحدة تخلق السلام سليما طاهراً من جرائم الأدواء
وحدة ظلها المديد يضم العرب شعباً موحد الأهواء
وحدة لا ضمان للعرب إلا فى حماها ذى العزة الشماء
وحدة تطبع الزمان على الإيمان بالمخلصين فى الزعماء
وحدة شأنها القضاء على البغى على عصبة الوحوش الضراء

في حماها دنيا العروبة نشوى | بحُمَيَّا الجهاد لا الصهباء
وحدت صف أمة الضاد من بعد | عناء ومحنة وبلاء
ولدت في دمشق في مصر غراء | كما شاء عصر غزو الفضاء
وحدة رن في السماء وفي الأرض | صداها في عزة وإباء
يلفت الدهر نحوها باسم الثغر | فخوراً في نشوة وولاء
فهي بالحق بغية الوحي والإلها | م والأنبياء والحكماء
وهي شمس منيرة تتعالى | عن مساس النواظر العمياء
عانق النيل في ضحاها أخاه | بردى صادق الوفا والإخاء
وحدة في جبينها كتب التا | ريخ — عدلا — براءة الرؤساء
تنشر الفضل والعدالة دستو | راً على دفتيه رسم الوفاء
فسلام من كل لب عليها | في سلام الخلود والعلياء
وسلام على الذين بنوها | عزة للأحفاد والأبناء
فهي أنشودة البواسل والأبطال | قد حرمت على الجبناء
وهي طود الحياد قام على | الإيجاب رغم العواصف الهوجاء
وحدة كبرياؤها في سبيل الحق | نصل في أكبد السفهاء
في يديها القويتين أضاءت | شعلة الحق منهج الأصفياء
فهي تتلي في النابهين كتاباً | نوره في صحائف الشهداء
وهي سيل من شاهق المجد يجري | جريان الحياة في البسلاء
فهلموا نمجد الوحدة الكبرى | بآي الإخلاص للأولياء
وهلموا نسدد الصعدة السمراء | في قلب ناشر الفحشاء
وهلموا نجدد فيها جنوداً | بنفوس معدة للفداء

عبد المجيد محمد الأصنج

الكتب

كارثة فلسطين

للكولونيل عبد الله التل قائد معركة القدس

نقد وتعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان

هذا كتاب ضخم هو أشبه ما يكون بالسجل، أودع الكولونيل عبد الله التل بين دفتيه الجزء الأكبر من مذكراته عن كارثة فلسطين.

والمؤلف من خيرة الشباب المؤمن الغيور على دينه ووطنه، وقد لعب خلال معركة فلسطين دوراً مهما خطيراً، وهو ضابط فى صفوف الجيوش العربية، ثم وهو قائد لمعركة القدس حيث أبلى بلاء حسناً للاحتفاظ بالشرف العربى، وبالمقدسات الإسلامية والمسيحية. ثم بعد ذلك وهو حاكم عام لمنطقة القدس، حيث شهدت هذه المنطقة حكما ديمقراطيا صحيحاً تمثلت فيه قيم العدالة والمساواة وحرية الرأى.

ولا يخيل إلى القارئ وهو يقرأ هذه الصفحات العديدة، أن المؤلف قد سجل مذكراته ليتحدث عن نفسه، شأنه شأن كل من لعب دوراً فى معارك سياسية كانت أم عسكرية، بل سيتأكد لديه. أنه هدف إلى إزاحة الستار، وإماطة اللثام عن جانب من الخيانة فى كارثة فلسطين، هذه الخيانة التى لم يشهد التاريخ منذ بدء الخليقة أخس ولا أدنأ منها، فالمؤلف فى مقدمة كتابه يقول:

«.. وحين انتهت المعارك فى فلسطين عينت لوظيفة مدنية هى حاكم منطقة القدس، فأتيح لى ـ بحكم عملى السابق فى الجيش وعملى اللاحق فى الحكومة ـ أن أطلع على خفايا السياسة التى سيرت الحرب الفلسطينية. وكنت منذ ابتداء الحرب متمرداً على قائدى جلوب فى ظروف قاسية مريرة، يعرفها من له علم بأحوال شرق الأردن والجيش العربى فى ذلك الحين. وحين أمسكت بطرف الخيانة، أخذت أجمع الأدلة، وأسجل الجوانب السرية من تاريخ الكارثة...»

فأنت ترى أن الدافع إلى تسجيل المذكرات

هو فضح هـذه الخيانة ، وما أضاع فلسطين وسفك دماءها العصابات الصهيونية وما تدفق عليها من عتاد وسلاح ورجال ، وإنما الخيانة المتعمدة من بعض حكام العرب أنفسهم ، أولئك الذين أعمتهم المطامع فأسلموا جزءاً من أنفسهم لأعدى أعدائهم ، بل أعداء الإنسانية بأسرها .

لقد قسم المؤلف مذكراته إلى تسعة عشر فصلا . فبدأ بالأحداث العسكرية والسياسية التى وقعت بعـــد قرار التقسيم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وقبل نهاية الانتداب ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وكشف عن المؤامرات التى دبرها الانجليز ، وكان حكام الأردن مطاياها ، ثم عقد فصلا عن دخول الجيوش العربية فلسطين تحوطها الدسائس والمهازل ، ثم فصلا عن معركة القـدس والهزيمة التى حاقت باليهود فجرحت كبرياءهم ، ثم فصـلا عن الهدنة الأولى وكيف كانت عاملا مهماً فى الـكارثة ، ثم فصـلا عن الحرب الثانية بعد الهدنة ، وكيف غدر بعض الجيوش العربية بالجيش المصرى ، ثم فصـلا واسعا عن الاتصالات السرية بين الملك عبد الله واليهود للتعاون معا فى نسج خيوط المؤامرة على فلسطين ، ثم فصلا أخيراً عن التفـكير فى التخلص من الملك عبد الله ، وهجرة المؤلف إلى مصر للإقامة بها .

وفى هذه الفصول وغـيرها رسم المؤلف صورة واضحة المعالم لـكارثة فلسطين ، وسرد قصتها سردا جعلها أشبه ما تـكون بالمسرحية ، وأبرز أبطالها بطلان : أحدهما « جـلوب » ممثل الانجليز فى الـكارثة ، و « الملك عبد الله » ممثل المطامع والتخاذل أمام الممثل الانجليزى « جلوب » ، والمؤلف سـلط معظم الأضواء على هـذين البطلين ، وبقية الأضواء سلطها على بطانة الملك ، التى دفعها حرصها على مناصبها إلى تنفيذ الرغبات الملـكية بكل دقـة وإخلاص ، على رغم علمها أنها إنما تسهم فى الخيانة وطعن الشرف العربى فى الصميم ؛ لأن مناصبها كانت أعز لديها من العروبة والإسلام وفلسطين والشرف العربى نفسه ، هذه البطانة الهزيلة كانت تنفـــذ الرغبات الملـكية لأنها كانت تعلم ، أن الملك « المبجل » كان أمينا على تنفيـذ الرغبات الانجليزية ، متوهما أنه إنما يعمل من أجل مطامعه ، ولم يكن يدور بخـلده أن الانجليز إذا تصدقت عليه بلقمة من فلسـطين فإنها ستمنح اليهود ألف لقمة منها .

واستوعبت المـذكرات جانبا من الخلق اليهودى ، وجانبا من الخلق العربى ، فالخلق العربى ، لا يتخلى عن قيم العـدل والشهامة والمروءة ، فحين يستسلم اليهود فى القـدس القديمة ، يؤخذ المحاربون منهم أسرى حرب ،

حيث يلقون ما تقتضيه قوانين الحروب النظامية ، ويسلم الباقون دون أن يمسهم ذرة من الأذى ، وحين تقع معركة اللد والرملة، ومعركة ديرياسين،لا يستطيع القلم أن يصف ما لقيه العرب من صنوف الوحشية ، مذابح لا تفرق بين الأطفال والنساء والرجال ، وهمجية تتنزه عنها الوحوش الضارية .

والقارئ للمذكرات ربما ساءل نفسه : أما وقد تكشف للكولونيل عبد الله التل خيوط المؤامرة على فلسطين ، وأحد طرفيها الانجليز ، والطرف الآخر الهاشميون فى الأردن والعراق ، فلم لم يقم بأى عمل إيجابى للقضاء عليها ، أو الانسحاب من مهمته ، ليتولى فضح المؤامرة فى المحيط العربى ، ولم قبل أن يشهد الاجتماعات السرية بين الملك عبد الله ، واليهود ، ويمهد لها بنفسه ويعين عليها ؟؟ .

ويجيب صاحب المذكرات : « وفى تلك الأيام العصيبة التى تكشفت لى فيها الخيانة ، لم أغدر بالملك أو بحكومته ، بل كان دأبى إبداء النصح والمعارضة الصريحة الشريفة وتبصيرهم بعواقب السياسة التى كانوا يسيرون عليها .... » .

ولعل القارئ لا يقنعه مثل هذا القول ، فلو أن الكولونيل عبد الله التل ، انسحب معلنا فضح المؤامرة الدنيئة لاغتصاب فلسطين، ولو بعد انتصاره فى معركة القدس ، لتغير وجه التاريخ فى فلسطين ، ولكنه ظل فى خدمة حكومة الأردن إلى ما بعد انتهاء المعركة، وقد رأى بعينيه وشهد بنفسه تارة اجتماعات الملك عبد الله مع اليهود .

ويظهر أن القائد العربى كان يبيت أمرا لينتقم لفلسطين الشهيدة ، وقد ذكر فى نهاية مذكراته إشرافه على تدبير انقلاب عسكرى فى شرق الأردن ، ولكن الرياح أتت بما لم تشته السفن كما يقول الشاعر العربى .

وقد يلمس قارئ آخر أن المذكرات ـ وإن كانت قد جاءت تسجيلا لكارثة فلسطين إلا أن بها بعض الفجوات التى تتمثل فى أحداث تركت وهى أضخم من أن تترك ، ولن يغفر هذا القارئ لصاحب المذكرات أن كل ما فى الجعبة لم تسمح الظروف بإخراجه ، إذ أن الأمانة التاريخية تقتضى تسجيل التاريخ بدون فجوات ،وفى الظروف التى يتوفر فيه كل الإمكانيات لنشره كاملا .

والكولونيل عبد الله التل يعترف فى مذكراته أنه إنما عنى بالحوادث التى أحاطت بمنصبه كضابط فى الجيش الأردنى ، وكقائد للمعركة ، ثم كحاكم لمنطقة القدس ، وإن كان الواجب التاريخى كان يحتم عليه الإلمام بكل ظروف الكارثة حتى يأتى تصويره لها كاملا ،فالخيانة لم يقم بها الملك عبد الله وحده،

ولا الانجليز ممثلين فى « جلوب » وإنما أسهم فيها كثير من حكام العرب ، وبعض من الجيوش العربية وقيادتها .

والجيوش العربية لم تقم بالمعركة وحدها ، وإنما سبقها إلى فلسطين آلاف من الشباب العربى المؤمن متطوعا ، لا يبغى من الحرب إلا إحدى الحسنيين : الشهادة فى سبيل الله .. أو النصر .

وبعد :

فإن كارثة فلسطين لتمس كل إحساساتنا ومشاعرنا نحن العرب والمسلمين ، وحين أهدى إلى الصديق الوفى كتابه « كارثة فلسطين » ورأيت لزاما على أن أقرأه قراءة تدبر وإمعان ، كنت أحسب لقراءته ألف حساب ، لقد كنت واثقا من أنى سأقضى أياما ثلاثة على الأقل فى خضم الكارثة ، أعيش معها بقلبى وبدون أعصابى ، وأشهد أنى لم أستطع قراءة فصلين معا ، فالخيانة التى صنعت الكارثة من خيوطها كان شبحها يتراقص أمام عينى فيعتريهما الجمود ، ولم أكد أنتهى من قراءة المذكرات حتى تنفست الصعداء ، وأخذت أمر بمرحلة عصيبة أسترد خلالها أعصابى .

فالقائد العربى : عبد الله التل لم يدون مذكراته ليصف معارك ، وإنما دونها ليسجل تاريخا للجيل المعاصر والأجيال القادمة ، ليرى الجميع ، أن كارثة فلسطين لم يكن فى استطاعة أمريكا وانجلترا أن تخلقها لو لم تشمّا رائحة الغدر والخيانة من بعض الحكام العرب وفى مقدمتهم : المنتسبون إلى سلالة الرسول .

وبعد مرة أخرى :

فإن أبرز مواضع العبرة من الكارثة انتقام الله من الخونة حيث أصبحوا - كما يقول - صاحب المذكرات : « فى عالم آخر تلفهم صفحات سود من تاريخ الكارثة ، فملك الأردن قضى صريع رصاصة على عتبات المسجد الأقصى ، ورئيس حكومته « أبو الهدى » شنق نفسه ، وملك مصر ومن ورائه أكداس من الأوزار والآثام قد اندثرت معه بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وطغاة العراق الذين ساعدوا على خلق الكارثة قد مزقتهم ثورة ١٤ يوليو عام ١٩٥٨ . . . . » .

وإن ربك لبالمرصاد - وحسبنا الله وحده .

محمد عبد الله السمان

آراء وأحاديث

بين السنة والشيعة :

كانت الخطوة التى خطاها الأزهر نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية ذات أثر بعيد المدى . لقد صححت أخطاء قديمة ومهدت لمستقبل طيب ، ومحت ما بذره الشيطان من شرور الفرقة ، وسدت على أعداء الإسلام منافذ طالما تسربوا منها لتمزيق أمته وتفريق كلمته .

والحقيقة أن الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، بتوصياته الأخيرة فى دراسة فقه الشيعة ، والاعتراف بأن أتباع أهل البيت جزء له حرمته من الأمة الإسلامية الواحدة ، قد أصبح من بناة التاريخ الإسلامى ومن رجاله المرموقين .

ونحن ننشر فيما يلى تصريحات الأستاذ الأكبر فى هذا الموضوع الخطير مقرونة بما حفها من استقبال نبيل هنا وهناك .
قالت جريدة الحياة تحت عنوان « الدين واحد »
كان فضيلة شيخ الأزهر محمود شلتوت قد أدلى منذ بضعة أشهر بحديث عن عزمه على التقريب بين المذاهب ، والمباشرة بتدريس الفقه الشيعى فى كلية الشريعة ضمن برامجها الجديدة .

وقد حان الآن وقت إعداد البرامج الجديدة فى كليات الأزهر ، ولهذه المناسبة أدلى أمس فضيلته إلى السيد محمود سليمة مندوب جريدة (الشعب) بحديث قال فيه : لقد أدخلنا على كلية الشريعة منهجا جديدا قوامه دراسة الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية على الأسس الآتية :

أولا : تكون الدراسة على مختلف المذاهب لا فرق بين سنة وشيعة ، ويعنى بوجه خاص ببيان وجهة النظر الفقهى حكما ودليلا لكل من مذاهب السنة وهى الأربعة المعروفة والإمامية الاثنا عشرية والزيدية .

ثانياً : يستخلص الحكم الذى يرشد إليه الدليل دون التفات إلى كونه موافقا أو مخالفا لمذهب الأستاذ أو الطالب ، حتى يتحقق الفائدة من المقارنة ، وهى وضوح الرأى الراجح من بين الآراء المتعددة وتبطل العصبيات المذهبية المذمومة .

وفى أصول الفقه ـ يعنى بوجه خاص ببيان

المواضع الأصولية التى وقع الاختلاف فيها بين المذاهب الستة السابقة الذكر مع بيان أسباب الخلاف .

وفى علم مصطلح الحديث ورجاله تشمل الدراسة ما اصطلح عليه السنة وما اصطلح عليه الإمامية والزيدية ، كما تشمل دراسة الرجال المشهورين وأصحاب المسانيد ومسانيدهم فى كل من الفريقين .

هذا بالإضافة إلى التوسع فى هذه الدراسة تفصيلا فى الدراسات العليا بكلية الشريعة وهناك قلت لفضيلته :

إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه ، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مثلا ؟

فأجاب فضيلته : أولا : يجوز لمن ليس من أهل الاجتهاد والنظر أن يقلد أى مذهب من مذاهب العلماء الموثوق بعلمهم وصلاحهم ، يشترط أن يصل إليه ذلك المذهب من طريق منضبط يطمئن إليه سماعا أو نقلا .

ولا عبرة بما يكتب فى بعض الكتب من انحصار المذاهب التى يجوز تقليدها فى الأربعة المشهورة ، ولا بما يقال من أن من قلد مذهبا ، فليس له أن ينتقل إلى غيره .

وفى ذلك يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق ، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من ذوى الألباب .

ثانيا : أن لفظ الشيعة الذى اشتهر به أتباع (على) وآل بيته خاصة ، هو فى الأصل مأخوذ من المشايعة بمعنى المتابعة ، فشيعة الرجل أصحابه وأتباعه ، وقد أطلق هذا الاسم على طوائف كثيرة تخالف الإسلام فى كثير من العقائد الأساسية والأحكام ، وهذه لا يباح تقليدها لخروجها عن دائرة الإسلام .

ثالثا : أن هناك فرقا أخرى تنسب إلى (على) وهم شيعته المهتدون الذين يبرءون من هذه الفرق الضالة ويحكمون بكفرهم ويلعنونهم . ومن هؤلاء الشيعة الصالحين الطائفة المعروفة (بالجعفرية) أو (الإمامية الاثنا عشرية) .

رابعا : أن لهذه الطائفة المعروفة أصولها المستندة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله

المروية عن أئمتهم ، فى العقيدة والشريعة وليس الخلاف بينهم وبين مذاهب السنة إلا كالخلاف بين مذاهب السنة بعضها وبعض

فهم يدينون بأصول الدين ، كما وردت فى القرآن الكريم ، والسنة المتواترة ، كما يؤمنون بكل مايجب الإيمان به ويبطل الإسلام بالخروج عنه ، من الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

خامسا : أن مذهبهم الفقهى مدون محرر له كتبه وأسانيده وأدلته ، وأن موظفى هذه الكتب ومن استمدوا منهم معروفون محفوظة سيرتهم العلمية ومكانتهم الفقهية بين العلماء ومن هذا البيان يتضح جليا :

١ — أن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين ، بل يقرر أن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ، ولمن يقلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أى مذهب كان ـ ولا حرج عليه فى شىء من ذلك .

٢ — أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثناعشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا ، كسائر مذاهب أهل السنة .

فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية لغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله ، ولا كانت شريعته تابعين لمذهب ، أو مقصورين على مذهب . فالكل مجتهدون مأجورون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم لا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات .

ولقد رحب الكثيرون من علماء ومشايخ السنة فى لبنان بقرار الأستاذ الأكبر حول تخصيص كرسى فى الجامعة الأزهرية لتدريس الفقه الشيعى وعدم الاعتراف بالفوارق بين المذهبين السنى والشيعى .

ووصف الشيخ محمد جواد شرى رئيس المراكز الدينية بأمريكا هذا القرار بأنه يعيد إلى المسلمين وحدتهم ، ويبدد مخاوف الشيعة ويجعلهم يشعرون بأنهم انصفوا .

وصرح الشيخ محمد علايا مفتى السنة فى لبنان أن المتعمق فى دراسة الشريعة الإسلامية لا يرى من الفوارق بين السنة والشيعة إلا كما يرى الفرق بين مذاهب السنة الأربعة .

وقال الشيخ محمد الصادق المرجع الدينى للشيعة فى لبنان : إن الإسلام وحدة متكاملة لا مكان لتجزئتها ، والمذاهب ما هى إلا اجتهادات علمية للوصول إلى الحقيقة ـ

ثم أضاف قائلا : إن قرار علامة مصر شيخ الأزهر استمد قوته وجرأته ومضاءه من قائد

العروبة وحامل لوائها الرئيس جمال عبد الناصر.

وأكد الشيخ شفيق يمور رئيس المحكمة السنية العليا ببيروت أن قرار شيخ الأزهر قضى على التعصب المذهبي وأزال الفوارق بين السنة والشيعة التي لا تستند حقيقتها إلا على خلافات سياسية قديمة زالت أسبابها .

وقال الشيخ مصطفى الرافعي رئيس محكمة بيروت الشرعية السنية : إن القرار أزال الجفاء القائم بين مذهبي السنة والشيعة .

وقال الشيخ حسين الخطيب رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية : إن القرار استحق شكر الطوائف الإسلامية جميعها لأنه دعوة إلى وحدة الصفوف وإزالة الفوارق التي خلفتها لنا العصور القديمة .

أما الشيخ عبد الله نعمه رئيس محكمة بيروت الشرعية الجعفرية فقد وصف القرار بأنه سيؤدي إلى إشاعة روح الثقة بين الطوائف الإسلامية ، وسيكون له صدى كريم في النجف الأشرف بالعراق ، كما سيسوء الاستعمار والمستعمرين ، الذين يعيشون على حساب الطائفية ، وبث الكراهية والبغضاء بين المسلمين .

وقد علق العلامة اللبناني الشيخ عبد الله العلايلي على القرار قائلا : « إن القرار جاء ونحن في حاجة إليه » .

رأى الأستاذ محمد المدنى :

أدلى الشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية بحديث لوكالة أنباء الشرق الأوسط بمناسبة احتفال الجمهورية العربية المتحدة بذكرى استشهاد الإمام الحسين قال فيه : إن العلاقة بين السنة والشيعة هي علاقة الأخوة وأن الشيعة والسنة مذهبان من مذاهب الإسلام التي تستمد من كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، والخلاف بينهما ليس خلافا في الأصول التي يجب الإيمان بها، وإنما هو خلاف في بعض المعارف الكلامية والفلسفية .

ولا يوجد من بين أهل السنة من ينكر فضل آل البيت عليهم السلام ، ولا يعترف بما لهم من أثر جليل في خدمة الإسلام ، بل إن أهل مصر خاصة وهي بلاد الأزهر ومصدر إشعاعه للعالم كله مشهورة بحب آل البيت والتردد على مزاراتهم . واستطرد فضيلة الشيخ يقول : إن الحاذقين من أهل التاريخ والسياسة العارفين بأساليب الاستعمار يجمعون على أن أسباب القطيعة بين السنة والشيعة ليست دينية وإنما هي تطبيق بارع لسياسة فرق تسد . فهم يقولون للشيعة : إن السنة تنكر استحقاق على الخلافة قبل أبي بكر

ويقولون للسنة: إن الشيعة تفضل عليا على أبى بكر وعمر، ثم يقولون للشيعة: إن أبا بكر منع ميراث السيدة فاطمة من أبيها ويؤلفون فى ذلك كتبا كالكتاب الذى ألفه أحد المستشرقين وكان عضوا بمجمع اللغة العربية بعنوان - فدك - وهو اسم الضيعة التى كانت تطالب بها فاطمة ومنعها أبو بكر منها كأنهم يغارون على فاطمة أكثر من المؤمنين. وما يريدون إلا استغلال العاطفة وإحياء عوامل البغضاء؛ ولكن إخواننا المحققين من الشيعة لا يعبئون بذلك. وإذا كان أبو بكر وفاطمة قد وقع بينهما خلاف فهو خلاف طبيعى فى كل عهد وليس له ضرر على المبادئ الرئيسية والأصول المشتركة التى يؤمن بها الجميع.

وختم فضيلته الحديث بقوله: إن الأزهر قد مد يده وما زال يرحب بالأخوة الخالصة من العصبية المذهبية. وإن إخواننا الشيعة الإمامية والزيدية أيضا قد مدوا أيديهم وما زالوا يرحبون بهذه الأخوة وبهذا التعاون.

ثم علق مندوب الوكالة على هذا الحديث بقوله:

عن القاهرة تصدر القرارات الحاسمة فى تاريخ العروبة والإسلام؛ فالقاهرة هى قبلة القومية العربية اليوم — وهى التى تصنع التاريخ فى ظل الرئيس العظيم جمال عبد الناصر، وبالتعاون مع العواصم العربية المتحررة الأخرى.

وعن القاهرة صدر قرار التأميم فأصبحت القناة عربية مائة بالمائة.. أليس هذا حدثا من أعظم أحداث القرن العشرين؟.

وعن القاهرة صدرت الدعوة العارمة إلى القومية العربية بشكل غير مسبوق من حيث القوة والحماسة والتركيز المتين.

وعن القاهرة ودمشق انبثقت الجمهورية العربية المتحدة فكتب عبد الناصر أعظم صفحة من تاريخ الوثبة العربية الكبرى حين بدأ بقطرين تفصل بينهما اسرائيل ووحدهما غير مكترث بالمصاعب الجغرافية.

وعن القاهرة صدرت أعظم خطوة دينية لتوحيد الصف الإسلامى حين أعلن شيخ الأزهر وعميد كلية الشريعة أن لا فرق بين الشيعة والسنة، فأصبح المذهب الجعفرى يدرس رسميا فى الأزهر ويحق لكل مسلم أن يعتنقه.

قال شيخ الأزهر: إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل يقرر أن لكل مسلم الحق فى أن يقلد أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحاً والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره أى - مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء من ذلك.

وجاء أيضاً من بيروت :

كان حديث شيخ الأزهر عن الشيعة موضوع خطبة الجمعة فى جميع مساجد لبنان وقد أذيع من محطة إذاعة لبنان . وكان قد نشر حديث شيخ الأزهر فى معظم الصحف اللبنانية منها الكفاح وبيروت المساء والسياسة والحياة والصحافة والحوادث .

كان للحديث أثر طيب فى أوساط الشيعة حتى وصفه البعض بأنه أعظم حدث فى تاريخ الإسلام بعد الخلفاء الراشدين :

وتلقى مكتب الأستاذ الأكبر البرقية التالية من رئيس مجلس نواب بيروت :

فضيلة الشيخ محموت شلتوت المحترم شيخ الجامع الأزهر ـ القاهرة .

الحق الذى جاهرتم به حول جواز التعبد شرعا بالمذهب الجعفرى كسائر مذاهب أهل السنة ، والفتوى الحكيمة التى أصدرتموها مؤيدة بالرأى السديد والمنطق الرشيد ، والقرار الحصيف الذى اتخذتموه بتجديد مناهج تدريس الشريعة والفقه المقارن ، كلها أحداث اغتبطت بها قلوب المسلمين لأنها تؤذن بحسم الفوارق ومحو العصبيات المذهبية وتبشر بقيام وحدة نفسية وروحية شاملة راسخة يحصد العرب منها الخير والمنفعة ، إننا نكبر موقفكم الحميد ، وندعو لكم بدوام العزة والتوفيق .

رئيس مجلس النواب ـ عادل عسيران .

كما تلقى فضيلته البرقية الآتية من السيد محمد جواد شرى :

فضيلة الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

صلوات الله وسلامه عليكم ، إن الفتوى التاريخية التى أعلنتم فيها للعالم صحة المذهب الجعفرى ومساواته للمذاهب الأربعة ، قد أدخلت العالم الإسلامى فى تاريخ جديد ، ودفعته ألف سنة إلى الأمام ، وسيبقى أثر هذه الفتوى إلى الأبد ، لقد سجلتم بهذه الفتوى وجودكم وبرزتم شامخين فى سجل الخالدين .

* * *

ذلك . وقد عقب الأستاذ الأكبر على استقبال علماء المسلمين لسعيه فى التقريب بين المذاهب بهذه الكلمة :

محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر يحي جميع إخوانه علماء لبنان على اختلاف مذاهبهم ، ويشكر لهم تلك الروح الطيبة التى استقبلوا بها دعوة الوحدة التى يحققون بها قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

(البقية على صفحة ٢٥٦)

بريد المجلة

يلقى إلينا البريد كل يوم طائفة من الرسائل الكريمة يحي بها كاتبوها هذه المجلة ويثنون على القائمين بها والعاملين فيها وسنقتصر فى النشر منها على ما يشتمل على اقتراح أو توجيه .

هذه المجلة !..

لم أقرأها منذ أمد طويل .. ثم وقع بين يدى العدد الأخير ! .. أخذت أعد صفحاته بنظرة وئيدة على موضوعاته ! .. وكان أن قرأتها « مجلة الأزهر » فى جلسة واحدة ! ..

هذه المجلة .. ! يجب أن تدخل إلى كل بيت ، وإلى كل مدرسة ، وإلى كل مكان .. !

هذه المجلة .. ! يجب أن تكون بين يدى كل إنسان ! ..

نريد جيلا جديداً على علم ، وعلى أدب ، وعلى خلق .. وهذه المجلة هى الوسيلة ، وهى الكتاب الذى تقرأ صفحاته ، فتجد العلم والأدب والأخلاق ! ..

لا يوجد سواها ، وليس غيرها من يحمل الرسالة ، ويؤدى الأمانة نحو جيل جديد ، نريد أن ينشأ قوياً فى علم ، وفى أدب ، وفى خلق ! ..

سلوها الزمام ، وسترون كيف يكون بناء الجيل على أساس من علم وأدب وخلق ! ..

إنى أفكر كقارئ ، كيف تصل هذه المجلة إلى الأسماع ، فى مصر ، وفى الشرق ، بل فى العالم أجمع ؟ ..

وليسمح لى رئيس التحرير أن أتقدم بما أرى :

الغلاف بألوان براقة ، أو بصورة من فنان ، لا ريب سيجد القارئ فى الانتظار !.

وهذا القارئ ، نريد أن نلقى عليه شبكة ، فماذا نفعل ؟ .. وأرى أن تكون الشبكة على هيئة مسابقة بين القراء فى أدب وعلم !

ولن نبخل على الفائزين ببعض المال ، أو بتكريم ! ..

وباب أسئلة القراء ..

وباب للتربية ، من أجل الأمهات والآباء والأبناء ...

وباب للمرأة ، وهى نصف المجتمع ..

وباب من الخارج .. نعرض فيه أدب الغرب ، وعلم الغرب ، وأخلاق الغرب ! ..

والغرب لديه صور خالدة من أدب وعلم وخلق ! . .

هذه أفكار عرضت بها ، ومرت بالخاطر ، وأسجلها على القرطاس ، لأنى أحببت المجلة ، وأود أن تكون المجلة الأولى فى التداول بين الناس ، وفى الذيوع والانتشار ، فى كل بلد ، وفى كل قطر وعلى كل لسان ! . .

والآن . . تحية تقدير إلى السادة المحررين الأعلام ، وإلى السيد رئيس التحرير الأديب الفنان ، وإلى العقل المفكر الأستاذ العقاد .

محمد فريد طاهر
٢٧ شارع منصور باشا بمحرم بك باسكندرية

(المجلة) نشكر للسيد الفاضل تقديره وتوجيهه ونعده أن ننفذ من اقتراحاته ما يلائم روح المجلة .

نحو ندوات على مستوى أعلى :

عشرات الندوات السياسية والاجتماعية والأدبية تعقد فى القاهرة بين ليلة وأخرى ، وأتلفت يمينا وشمالا فلا أجد ندوة إسلامية على مستوى أعلى تناقش المعانى الإسلامية التى تشغل الأذهان .

وأقول : ندوة إسلامية على مستوى أعلى ؛ لأن هناك ندوات إسلامية تقام فعلا : فى مجلة لواء الإسلام ، وفى الشبان المسلمين ، وفى مجلة الإسلام والتصوف ، ولكن يخيل إلىّ أن مثل هذه الندوات إنما يغلب عليها الطابع الخطابى والأساليب الإنشائية ، مع احترامى لبعض من العلماء لهم أقدارهم يحضرون هذه الندوات ويدلون بآراء لها قدرها ، إلا أنها آراء تكاد تختفى وسط خضم من آراء الكثرة الساحقة التى هى أشبه ما تكون بالخطب المنبرية ، ولا سيما أن جل الموضوعات التى تناقشها هذه الندوات مكرر معاد ، ولا يتجاوب كثيرا مع حاجات العصر الذى نعيش فيه .

ولا ريب أن الأزهر نفسه يشغل هذه الندوات بعدد وفير من علمائه ، ولكن لم لا تعقد ندوات شهرية فى إحدى قاعاته ، تناقش المعانى الجديدة والأفكار الحديثة وصلة الإسلام على مستوى أعلى ، ويدعى العلماء من الجامعات على اختلافها مع مراعاة التخصص فى المعانى التى تناقش ، ثم تعم الفائدة حين تنشر المناقشة على صفحات مجلة الأزهر التى هى المرجع الوحيد المعتمد لدى المسلمين فى الآفاق الإسلامية الدانية والقاصية .

إن هناك عشرات من المعانى الجديدة نحن فى حاجة إلى دراستها على ضوء الإسلام ، لنقطع الطريق على كثير من الألسنة التى تتناولها على المنابر ، وكثير من الأقلام التى تعرضها على صفحات المجلات الإسلامية المتواضعة ، وهذه الألسنة والأقلام تخبط

ذات اليمين وذات الشمال دون أن تعنى بدراستها لأن كل همها أن تسد فراغا . وكفى . إنه مجرد اقتراح . . أرجو أن يكون موضع دراسة وعناية أستاذنا الدكتور محمد البهى مدير الثقافة بالأزهر . . . !

محمد عبد الله السمان

الى الدكتور على عبد الواحد :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد . .

١ — قرأت فى مقالكم ـ موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة ـ عبارتين يحتاج الأمر فيهما إلى إيضاح يزيل ماشعرت به من لبس قد يشعر به غيرى ، فأرجو التكرم بالإفادة على صفحة المجلة حيث إنى بالريف بعيدا عن القاهرة ولا أستطيع القيام بهذا نيابة عنكم .

٢ — العبارة الأولى قولكم فى صفحة ٣٢ : والقديس يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) ونحن لا نقر أن يحيى بن زكريا هو يوحنا المعمدان ، بل نعرفه رسولا ابن رسول وقد قال الله فيه « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » ، وقال الله ليحيى نفسه « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » .

٣ — العبارة الثانية قول الأستاذ : وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى الخ . ونحن نعرف أن مريم البتول أم عيسى وهى من آل عمران وتعتبر أختا لموسى فى النسبة إلى عمران فقط ، لا أختا شقيقة لموسى كما هو الظاهر من كلام الدكتور ، وبين مريم وموسى أحقاب .

٤ — وكذلك عبارة ثالثة فى صدر المقال صفحة ٣٠ خاصة بإسماعيل عليه السلام تفيد أن إسماعيل كانت تدعيه لنفسها سارة زوجة إبراهيم ، وهو ولده من الجارية هاجر ، حيث كان نظام البيئة كذلك ، والذى نعرفه أن إسماعيل كان مع أمه هاجر ، ولم ينسب إلى سارة ، وأنه لم يفارق أمه حتى بعد أن ضاقت به وبأمه الزوجة الأصيلة سارة ، فاقترحت إبعاده مع أمه وقد استجاب إبراهيم تنفيذاً لرغبتها ظاهرا ، ومطاوعة لوحى الله واقعيا ، فإذا كان الأستاذ الدكتور يتكرم بإزالة الشبهة أكون شاكرا له فضله .

عبد اللطيف السبكى

بيان من الشئون العامة للأزهر :

نشرت بعض الصحف أن لجان تعديل المناهج فى الأزهر اقترحت تدريس الحقوق والطب والهندسة والكيمياء والعلوم السياسية ، وعقب على ذلك أحد السادة المحررين بأنه يرجو من الأزهر أن يتدبر مثل هذه التيارات ، لأن دراسة هذه العلوم تقتضى ثقافة خاصة .

وإدارة الشئون العامة تعلن أن هذا الخبر نشأ في دار الصحيفة لا في إدارة الأزهر ، وأن هذا الاتجاه العجيب لم يخطر لأحد من رجال اللجان على بال .

موقف بعض الصحف من الأزهر ومجمع اللغة:

السيد الأستاذ مدير مجلة الأزهر :

دأبت صحف معينة وكتاب معينون على اختراع الأخبار الهازلة حول المجمع اللغوى معقل اللغة ، والجامع الأزهر حصن الدين فتقول مثلا : إن المجمع اللغوى قضى أسبوعا يبحث ويناقش فى اسم يضعه للظلات الهابطة ثم انتهى بعد المجادلة العنيفة إلى أن يسميها (القفف) ثم نشرت منذ أيام أن المجمع سمى البواب أمين العمارة ، والشيال مساعد مسافر ، وبائع البليلة تاجر قمح مبلول (وهى نكتة قديمة للمرحوم الريحانى) ، مع أن المجمع فى عطلته السنوية منذ ثلاثة أشهر . وكلمتا البواب والحمال من الكلمات الأصيلة فى العربية فلا داعى لتغييرهما .

ثم نشرت أخيرا أن الأزهر قد قرر تدريس الطب والهندسة وعلوم الذرة ، نشرت ذلك كله وهى تعلم يقينا أنه كذب واختلاق ، ولكنها تريد إثارة القارىء وإضحاكه على حساب جامعة جليلة يكن لها العالم كله عواطف القداسة والاحترام .

واقتراء الأحاديث على الناس أصبح أمراً مألوناً فى جميع الصحف له أبواب وله محررون ، لأنهم علموا بحكم اتصالهم بالجمهور أنه يستريح للشائعات ويطرب للنكت ، فهى تمعن فى هذا الباب اجتذابا له واستفادة منه ، وهى بذلك تسىء إلى نفسها لأنها تحمل القارىء على أن يعتقد أن ما تنشره من الأخبار هو من هذا النوع . والصحافة مادة التاريخ ومنبر الهداية ومعلم الشعب فهى جديرة بأن ترفع الجمهور لا أن تنزل إليه ، وأن تطالعه بالحقائق لا أن تزورها عليه .

وفق الله العاملين إلى خدمة الأمة العربية من طريق الحق والخير والصدق .

عبد المولى محمد السيد

تصويب فى الجزء السابق

فى الصفحة رقم	٩٦	السطر ١٤	من العمود الثانى	ـ لإصلاح تلف	صوابها : لإصلاح تلك .
« « «	٩٧	« ٢٤	« الأول	ـ من الفكر	« : منها الفكر .
« « «	١٠٠	« ٧	« «	ـ خارجان فى	« : خارجان من .

وفود رجال الإسلام على الأستاذ الأكبر

يفد إلى إدارة الجامع الأزهر وفود غفيرة من أنحاء العالم الإسلامى لتحية الأستاذ الأكبر والتحدث إليه فى شئون المسلمين وتلقى ما يسديه فضيلته من نصائح وتوجيهات.

وفد سيلان :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيدين الدكتور الحاج جويا عضو مجلس النواب فى سيلان وزعيم المسلمين بها .

فقال لفضيلة الأستاذ الأكبر : إن تعداد المسلمين فى سيلان نصف مليون مسلم وعدد السكان ثمانية ملايين ومع ذلك فهم ذوو قوة وإيمان وإخلاص لأنهم لا يعتزون إلا بالله ولا يثقون إلا فى الله .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر ليفرح كثيراً بزيارة زعماء المسلمين له ؛ لأن هذا التزاور محبة ومودة وتعاهد فى الله وكل ذلك أقوى رباط فى الإنسانية ؛ فالروابط بين الناس لها أسباب شتى فقد يكون سببه القوة أو الصناعة أو أى لون من ألوان الاختراعات ، ولكن أقواها إنما هو الإيمان بالله ، وإذ يوجد الإيمان توجد المحبة والتعاون والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وأفضل الدرجات عند الله خشيته وتقواه » .

والله يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والإسلام لا يعرف لوناً ولا جنسا ولا دولة ولا قطراً فإنه بمبادئه يتخطى كل هذه الاعتبارات ، ومن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وواجب المسلمين جميعاً فى أنحاء الأرض أن يلتفوا حول كتاب الله الذى حمل لهم مبادئ الخير والسعادة ، ولذا فإننى أسارع فأهدى إليكم كتاب الله ، أقدم إليكم هدايته ومثله العليا وقيمه التى تحيا بها الإنسانية :

وقد قال السيد الدكتور : هذه القوة فى سيلان تتبع أخبار الأزهر فإنها تعتبره العماد الأول الآن فى الإسلام وتعتبره المنارة التى تحمل الهداية للناس ، وقد استمعنا فى كلمة لكم أنكم قلتم أن رسالة الأزهر هى رسالة محمد بن عبد الله ، فالأزهر حينئذ حصن هذه الرسالة ولذا فإننا نرجو أن يعاوننا الأزهر فى تقويتنا :

وجئنا إلى وزارة التربية والتعليم نطلب

منها بعض المدرسين ونحن حريصون أن نأخذ المدرسين من الأزهر فإننا نطمئن إليهم دينا وخلقا وعملا .

فقال لهم الأستاذ الأكبر : إننى حريص على أن ألبى جميع طلبات المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ لذلك عقدنا اختبارا فى اللغة الانجليزية لنختار أوائل الناجحين فنرسلهم إليكم وإلى غيركم فى البلاد التى لا تتكلم اللغة العربية وها أنتم أولاء ترون أننا نفكر فى المسلمين جميعا.

مع زعيم مسلمى السنغال :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر اليوم السيد/ الشريف مكى زعيم المسلمين فى السنغال ، وقد قال لفضيلته « إننا جميعا فى السنغال نحب علمك ونحب فيك القوة والصراحة والإخلاص ؛ ونحن نعتقد أن هذه من أسس الإيمان الصحيح والعقيدة الحقة والإيمان القوى ؛ لذلك جئت لأروى نفسى وأشبع نهمى بالالتقاء بكم والاستماع إليكم حتى أعقد بينى وبينكم الصلة الوثيقة ، وإننى إذ جئت إليكم الآن فإننى أنتهز فرصة أقدم فيها شكر السنغاليين الذين يدرسون فى الجامعة الأزهرية ، فقد حدثونى أن فضيلتكم ترعاهم رعاية خاصة وتعنى بهم عناية الأب بأبنائه ، وقد قالوا لى : إن الوحشة قد زالت عنهم فى الأزهر منذ وليت أمره ، وإننى أطلب التكرم بالالتفات إليهم من حيث التعليم والنصح وحسن التوجيه والتربية الدينية .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر وهو يشد على يد ضيفه ، هذه هى تحية الإسلام ، التحية التى تجمع وتوحد وتؤلف وتجعل من الناس قوة واحدة لا يعتريها ضعف ، وليس فيها ثغرة يصل منها الفساد ، ولا تدخل منها يد الإثم والطغيان . إننى أحييكم أيها المسلمون جميعا فى السنغال وفى سائر أنحاء الأرض ، وأتمنى أن يجمعنا الله على محبة دينه وعلى الاتجاه إليه والسير فى طريقه المستقيم ، وأن نكون أمة واحدة ونحن جديرون بها إذ نعبد ربا واحدا ونصلى إلى قبلة واحدة ونقف فى صف واحد متراصين ، وتلك كلها أسس الوحدة ودعائم القوة ، فلنتجه جميعا إلى الله أن ينصرنا ويشد أزرنا ويعلى كلمته وينصر دينه .

وإن الرجل القوى الذى يمد يده إلى العالم أجمع فيأخذ بيده إلى بر الحرية والأمان السيد الرئيس جمال عبد الناصر يفتح للأمة الإسلامية هذا الباب واسعا ، ليدخل منه الجميع

وقد أهدى إليه فضيلة الأستاذ الأكبر مصحفا ليكون العهد بينه وبين المسلمين جميعا .

ومع البحرين :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ علماء البحرين السيد عبد اللطيف بن محمد

السعدي وقال لفضيلته « إن للمسلمين آمالا كبارا فيكم ، وإن الأنظار لطامحة إليكم وإننا لنرجو أن يكون شكرك هو العمل الإيجابى لخير الإسلام والمسلمين ، رزقنا الله وإياكم الشكر على هذه النعم . فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننى أدعو الله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين ،وأن يجعل من الأزهر المصباح المنير لهذه الأمم الإسلامية ، والضوء الذى لا يخبو شعاعه ، والحصن الذى يحمى للأمة الإسلامية مبادئها وقيمها وجوانب السلم منها ، وأرجو كل عالم من علماء المسلمين أن يعمل على ذلك وأن يبصر الناس بمواطن القوة فى الدين حتى لا يجد المستعمر ولا صاحب المبدأ الهدام ثغرة ينفذ منها إلينا .

مع سفير إيران :

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد سفير إيران فقال فضيلته : « إن الإسلام لا يعرف أمكنة ولا يفصل بين دولة ودولة ، إنما المعمورة كلها رقعته ومكان دعوته فى وحدة شاملة وقوة متينة وأمة واحدة وهو لا يعرف الفرقة ولا يدعو إليها ولا يحبها ؛ لأن المبادئ القويمة لا تحملها الشيع والأحزاب إنما تحملها اليد القوية . لقد ظن الجاهلون أن المذاهب الإسلامية لون من ألوان الفرقة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إنه الاجتهاد الذى يغترف من منبع لا ينضب معينه ولا يظمأ وارده ، فلتنتشر الألفة بيننا والوحدة بين أمتنا ، فإنى كما قلت وأقول غير مرة : إننا نتجه إلى رب واحد ونعبد ربنا متجهين إلى قبلة واحدة فى صف واحد ، غير أن بعض العوائق إلى التفاهم الحقيقى قد أوجدها الاستعمار الذى أراد أن يفصم عرى الألفة والمحبة بين الأمة الإسلامية فدخل عن طريق تفكيك اللغات وطغى على اللغة العربية لغة القرآن لغة الدعوة الإسلامية فلم يعد التفاهم موجودا بين بعض المسلمين وبعض .

أذكر أننى عندما أديت فريضة الحج كان يجتمع بى كثير من إخواننا الإيرانيين والأفغانيين والأندونيسيين وغيرهم وما كان يتم التفاهم بيننا إلا عن طريق الوسطاء من الذين يجيدون لغتين اثنتين، وذلك كله لون من ألوان الضعف ، ولذا فإننى أدعو دعوة المؤمن إلى إزالة هذه العوائق بأن تقبل الدول الإسلامية على نشر اللغة العربية بين أبنائها ، وأنا من طريقى قد عملت فعلا على إزالة هذه العوائق بإدخال لغات ست تدرس فى الأزهر على مستوى عال من الدراسات هى اللغة الأندونيسية ، والأردية ، والسواحلية والانجليزية، والألمانية ، والفرنسية، حتى لا يجد رجل الأزهر فى دعوته أى عائق يعوقه بل يبث دعوة الإسلام فى كل مكان، وها هو المعهد يخرج

دفعته الأولى فى أول الشهر ، وأنا أدعو الله أن يوفقنا . وبهذا الطريق الذى يرعاه السيد الرئيس جمال عبدالناصر ويحيطه بعنايته نعمل على إزالة الفوارق فأنا أقول دائما كما قال الرسول : (لا عصبية فى الإسلام) ولا جنسية ولا إقليمية ؛ فإن خصوم الإسلام والمسلمين قد استغلوا جهل المسلمين فى فترة الضعف وراحوا يفرقون بين بعضهم وبعض فى كل قطر إسلامى ؛ فما لم نتحد ونتعلم لغة واحدة فسيظل المسلمون فرقا يضرب بعضهم رقاب بعض ، « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، ونحن فى طريقنا إلى جمع كلمة المسلمين فى أنحاء العالم بإزالة الشوائب وتقريب وجهات النظر ، وعلى العلماء جميعا أن يقبلوا على هذا الاتجاه لنحيا حياة سعيدة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وأنا يا أخى : أريد أن نتجه بالأمة الإسلامية إلى الخلق القويم وأريد أن أجعل من الصحف والإذاعة أداة لذلك ، ولا يستقيم هذا الأمر ولا يصلح إلا بما صلح به أول هذه الأمة من اتجاه إلى الخلق القويم والعقيدة الصحيحة والإيمان السليم ، إننى أطالب الصحف والإذاعة بأن يتجها إلى الخير والفضيلة وأن تكون وجهتهما معنا تربية جيل صحيح نظيف لا يعرف ضعف الخلق ولا الاستعانة بالمثل ولا الانحدار فى مهاوى الرذيلة . . ذلك واجب على كل مسلم فإن الرسول يقول : « المسلم أخو المسلم » والأخوة تقتضى حسن الرعاية وسلامة التوجيه وإن الصلة بين المؤمنين بعضهم وبعض لأقوى جانبا من صلة الأنساب .

وقال السيد السفير : « أنا معتز وفخور بمقابلة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، كما إننى فخور بما سمعت من كلمات تجمع القلوب وتدعو إلى الاتحاد وتمنع الفرقة وقد عرفت ذلك فى آرائكم وعلمكم وفى مقالاتكم ، ولقد استنار قلبى بهذه المقابلة ـ والحمد لله ـ فرأيت أن أهرع مسرعا إلى شكركم إن سرورى يزداد حين أجدكم دائما تتجهون إلى الطريق الإيجابى الفعلى ، والمسلمون اليوم أحوج إلى رجل فعال منهم إلى رجل قوال .

وهكذا انتهت المقابلة وودع السيد السفير بمثل ما استقبل به من حفاوة وترحيب .

مع أمير الكويت والشارقة

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر سمو الأمير عبد الله الجابر الصباح وبصحبته سمو الأمير صقر بن سلطان أمير الشارقة والشيخ عبد العزيز حمادة شيخ علماء الكويت .

وقد قال سمو الأمير لفضيلة الأستاذ الأكبر

إننا نحييكم لأن صوتكم الذى يحمل إلينا العلم والهدى والنور ، يجمع بين قلوبنا ويؤلف بيننا .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر: إنكم عرب ، وإنكم لبنات قوية فى الوحدة العربية ، وإن الإسلام إنما انتشر عن طريق العروبة ، فالقرآن عربى والرسول محمد صلى الله عليه وسلم عربى ، فالعروبة والإسلام كل منهما يتصل ببعض اتصالا وثيقا ويشد بعضه أزر بعض ، والإسلام اليوم يطلب من الناس جميعا أن يكونوا أمة واحدة متراصة البناء قوية العمد والأطراف، ومن أولى بهذا منكم ؟. قواكم الله وجعلكم فى خدمة الإسلام والمسلمين، وإن الأزهر اليوم لا يضن على أحد من المسلمين فى أنحاء المعمورة بعون ولا مساعدة ، وإنما يقدم للعرب والمسلمين جميعا كل ما يحتاجون إليه من مدد علمى وثقافى سواء أكان عن طريق رجاله أم عن طريق كتبه . وإنه لمن حسن الحظ أن يكون مع سموكم مدير المعارف عندكم وهو أحد الأزهريين الأستاذ عبد العزيز حسين . إننا إخوة فى الله فلنخدم دين الله فقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين ينصرون دينه بالنصر والقوة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

واعتبروا أننى واحد منكم أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى .

فرد سمو الأمير قائلا : لا ، أنت إمامنا ونحن جند نعمل معك .

وقد أهدى فضيلة الأستاذ الأكبر سمو الأمير والمرافقين له المصحف ليكون عهد الله بين الجميع يهتدون بهديه وينهجون منهاجه ويسيرون على طريقه .

من لبنان :

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الأستاذ أسعد المقدم سكرتير تحرير جريدة السياسة اللبنانية ، وقد حمل إلى فضيلته تحية السيد عبد الله اليافى رئيس الوزارة اللبنانية الأسبق وتحية جميع اللبنانيين وقال : يا فضيلة الأستاذ الأكبر لقد جمعت الناس على كلمة واحدة وقد فرحوا جميعاً لأن فضيلتكم تعمل لتوحيد الكلمة بين المسلمين ، فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننا نعمل على ألا يكون للعصبية أثر فى المسلمين فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا عصبية فى الإسلام » ، كما نحرص على ألا يكون للهوى ولا للشهوة ولا للغرض أى أثر فى نفوسنا ، وإنما نكون أمة واحدة تستمد كيانها ومبادئها وعقائدها من كتاب الله ومن سنة رسول الله ، وأن نطرح الخلافات وراءنا ظهرياً فنصبح أمة

واحـــدة متناسقة قوية لا ثغرة فى بنائنا ولا فرقة بيننا ، أقول هذا ولساننا يقرأ قوله تعالى : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » قلت هـــذا ونادينا به فاستجاب لها من استجاب وند عنها من ند ونرجو أن يتدبر الذين لم يستجيبوا إلى آثار هـــذه الدعوة ونتائجها من وحدة شاملة وقوة تترتب عليها ، ليفيئوا إلى أمر الله .

مع قائد الجيش الأول :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد الفريق جمال فيصل قائد الجيش الأول بالجمهورية العربية المتحدة .

وقد قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الحق والقوة حينما يجتمعان يحقق الله بهما الخير ويؤكد بهما النصر ويعلى بهما الشأن وها أنذا أرى معنى القوة ماثلا فيكم مجتمعا لكم ، وقـــد لمست ذلك فى ضباطكم ورجالكم وهذه القوة العتيدة هى التى تدفع دائما الحق إلى الأمام ، وأنا أعتبر أن الأمة لابد لها من شحنتين قويتين ، شحنة معنوية تتمثل فى الهدى والحق والإيمان ، وأخرى مادية وكلتاهما مذكورة فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقد اجتمعت الشحنتان اليوم فى الجيش وفى الأزهر .

وإن أمة تجتمع فيها هذه القوة لتعلو قيمة وتعز جانباً ، والأزهر والجيش هما القوتان اللتان تسعد بهما الجمهورية العربية المتحدة ، بارك لنا الله فى جمال القائد والرائد ورئيس الجمهورية ، وفى جمال قائد الجيش الأول قواكم الله وشد عضدكم وبارك فيكم ، وأرجو أن تبلغوا ذلك إلى إخوانكم وأبنائكم من جند هذه الأمة .

فقال السيد الفريق جمال فيصل : إننا نقدر رسالة الأزهر وفضل الأزهر وقوته فى التوجيه وأنا سعيد جـــدا بزيارته وإننى أحس حين أسعى إلى الأزهر بكل المعنوية التى أحس بها عند ما أسعى إلى الحرم المقدس ، فإننا نعرف جميعا أن الأزهر هو حصن هذه الشريعة ، وعماد هذه اللغة وهو النبراس الذى نهتدى بهديه ونسير على ضوئه ، ويمدنا بقبسه ، وجزاكم الله خيرا حينما تعملون جاهدين على إيقاظ هـــذه المعانى حتى يعود إليه مجده ، وإن إهداءكم كتاب الله للجيش لعهد نقطعه على أنفسنا بأن نرعى أمانة الله وأن نصون حدود جمهوريتنا ، ونحفظ المثل العليا وذلك عن طريق الإيمان ، القويم ، لأن الإيمان هو كل شىء . وإن زيارتى للأزهر

أعتبرها شرفا سعدت به فى حياتى ؛ لأنه الجامعة التى حافظت على العروبة والإسلام ولقد أصبحتم يا فضيلة الأستاذ الأكبر فى كل قلب من قلوب المسلمين ؛ بما تمدونهم من علم ، وتبصرونهم فى شئون دينهم ولذا فأكون سعيدا حين أتقدم إليكم مكررا دعوتى لكم ولمن تختارونه من السادة العلماء لتكونوا ضيوفا على الجيش الأول ، ويسعدنى أن أقول لكم : إننى تتلمذت فى الأزهر بصورة غير مباشرة فلقد درست القرآن والشريعة وأصول اللغة العربية على شيخى وأستاذى الشيخ ناجى أديب من كبار علماء الإقليم الشمالى، وإننى مهما جلست مع فضيلتكم فلن أروى الظمأ ولن أشفى الغلة ولذا فإننى أستأذن منكم راجيا لكم دوام التوفيق للنهوض بالأزهر الذى نحبه ونخلص له .

وقد قدم لسيادته فضيلة الأستاذ الأكبر مصحفا أهداه إلى المتحف الحربى وكتب له إهداء خاصا نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لابد للقوة من حق يوجهها ويرسم لها طريق حياتها وعزتها ـ ولابد للحق من قوة ترفعه وتعمل على نشره واستقراره . وقوة الشعب فى جيشه وجنوده ، ولا شىء يهدى إلى الحق الذى تعتمد عليه القوة بعد كتاب الله . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، وقد دفعنا هذا وذاك إلى أن نتقدم بكتاب الله منبع الحق والفضيلة هدية للمتحف الحربى للجيش الأول بالجمهورية العربية المتحدة ؛ ليكون بمثابة عهد بين القوة والحق ـ ضارعين إلى الله أن يوفق رجال الجيش إلى قيادته والسير به على مقتضى ما رسم الله فى كتابه العزيز ـ وفق الله الجميع إلى رفع شأن العروبة وإعلاء راية الإسلام ، وأدام توفيق قادة الأمة المصلحين بإرشاد قائدها الأول ناصر الإسلام والعروبة ، الشاب المؤمن القوى جمال عبد الناصر ـ إنه سميع مجيب الدعاء .

ثم أهدى فضيلته السيد الفريق جمال فيصل مصحفا خاصا به كتب له إهداء هذا نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لى عظيم الشرف أن أقدم كتاب الله لقائد الجيش الأول للجمهورية العربية المتحدة الفريق جمال فيصل ـ وهو بمثابة عهد يتضامن على تنفيذ ما فيه من أحكام ـ الأزهر منبع الدين والهداية، ـ والجيش منهج القوة والجلاد ـ وفقنا الله وإياكم للعمل بما يرضيه والسلام عليكم ورحمة الله .

وفد غانا :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر وفدا من مسلمى غانة ، وقد تحدث إليهم فقال : إن خير ما يقوى المسلمين هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله والالتفاف حول مبادىء الدين الإسلامى والوقوف على قيمه ، وبذلك

يكون المسلمون كتلة واحدة متراصة فلا تعمل فيهم معاول الاستعمار ولا مبادئه الفاسدة ولا تجد المذاهب الهدامة مكانا تنبت فيه فإن أراضى الإسلام أراض تلفظ السموم ولا تبقى عليها.

وقد قرأ أعضاء الوفد كثيرا من آيات القرآن الكريم قراءة صحيحة أمام فضيلته فقال لهم:

« إنكم وأنتم لا تعرفون اللغة العربية ولا تتكلمون بها، فإن حفظكم للقرآن إنما هو جذب الدين لكم بمبادئه وقيمه ومثله العليا.

وحين قال لفضيلته بعض أعضاء الوفد: إننا نرجو أن يعاون الأزهر المسلمين فى غانة. قال لهم: إن الأزهر لن يألو جهدا فى سبيل معونتكم ومعونة كل مسلم، وخاصة فى عهد نهضتنا الحديثة التى يرعاها ويرفع لواءها ويدفعها قدما إلى الأمام السيد الرئيس.

وقد قدم إليهم فضيلته المصحف هدية وقال لهم: ليست هذه هدية فردية، إنما هو عهد الله بينى وبينكم، وبين المسلمين جميعا نسأل الله تعالى أن يؤلف بيننا وأن يوحد بين قلوبنا وأن يجعلنا على كلمة الحق وأن يسلك بنا الطريق المستقيم.

بقية المنشور على صفحة ٢٤٤

وكنتم على (شفا حفرة) باختلافكم وتفرقكم وتعصبكم ونظرتكم الشخصية الأنانية، (فأنقذكم منها) بالاستجابة إلى دعوة التوحيد وإلى الرجوع إلى أصل رسالتكم الإلهية: كتاب الله وسنة رسوله.

ويحمل السيد الأستاذ أسعد المقدم سكرتير تحرير جريدة السياسة تحياته إليكم جميعا، وذلكم عندما زارنا فى القاهرة وتلكم تحيتنا لكم جميعا ولكل من ينتمى إلى الإسلام ويؤمن بالله ورسوله.

وهذه يدى أبسطها إليكم أبايعكم بها على تلك الدعوة.

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ».

وفقنا الله إلى الخير والسير على الطريق المستقيم « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ».

Immigrants especially and to two only of the Supporters of Medina (al - Madinah). His purpose was to establish a kind of approximate equality between the properties of the Immigrants and those of the Supporters, and achieve a sort of equilibrium in the ownership of property among those two groups of which was formed the frist Islamic society. To this effect God, may He be exalted, says : " That which God gives as spoil to His Messenger from the people of the townships, it is for God and His Messenger, i.e., for the State, and for the near of kin and the orphans and the needy and the wayfarer, that it become not a commodity between the rich among you " (59, V. 7).

This means that the aim was to avoid the accumulation of properties in the hands of the rich only to exchange them among themselves, and the rich in this reference means the Supporters. Right after this verse the Qur'an goes on to say : " And whatsoever the Messenger gives you, take it. And whatsoever he forbids you, abstain (from it). And keep your dupy to God. Surely God is stern in reprisal. And (The spoil is) for the poor fugitives who have been driven out from their homes and their belongings, who seek bounty from God and help God and His Messenger. They are the loyal" (Ibid, Vs. 7-8).

8 — The Eighth Means is represented in the exhortation of Islam which made it desirable for the rich to give alms to the poor and considered this giving one of the best and most rewarding deeds that bring man close to God. On the other hand, it considers the hoarding up of wealth and not spending it in the way of God one of the worst sins. It warns such hoarders of the severest punishment on the Day of Judgement.

The Qur'anic verses concerning this matter are countless and found almost in every chapter of the Qur'an. Read, for exmple, the verse which says : " And they who hoard up gold and silver and spend it not in the way of God, to them give tidings (O Muhammad) of painful doom. On the day when it will (all) be heated in the fire of hell, and their foreheads and their flanks and their backs will be branded therewith (and it will be said to them) : Here is that which you hoarded for yourselves. Now taste of what you used to hoard " (S, 9, Vs. 34-35).

Moreover, Islam has made this kind of spending a right due to the poor. In His description of the true believers God says : " And those in whose wealth there is a right acknowledged. For the beggar and the destitute " (S. 70 , V s . 24 — 25).

(To be Continued)

the contented helps the needy to satisfy his needs. Islam has gone in this direction to such an extent that Ibn Hazm, the great jurist, and his followers held the opinion that if a dweller of any city or town dies of hunger, the whole people of that city or town are responsible for his death, and have to pay jointly his blood-money (diyah) as if they were party in the cause of his death. In this connection, the Messenger, may the mercy and peace of God be upon him, says: " Whenever the people of any district pass a night with a hungry person among them, they will have no claim to the mercy and honour of God and His Messenger ".

In many verses of the Qur'an and many traditions of the Messenger the Muslim is emphatically recommended to be kind to his neighbours, relatives and non relatives. Islam tasks the Treasury with the expenses of people who are unable to earn their living or very advanced in age and of women who have no relatives to take care of them. In this kind treatment Islam makes no distinction between Muslims and non - Muslims. It is reported that Umar, the Second Calif may God be pleased with him, was passing one day by a door of some people. He saw a begger who was a blind old man, and who seemed a non - Muslim. Umar came to him, held his upper arm and asked him to what people of the Scripture he belonged. The man said that he was a Jew. Then Umar tenderly took him to his home and gave him of what he found there. Soon afterwards Umar sent to the Treasurer and said to him : " Look after this and the like people. By God, said Umar, we have not been fair to him. We took tribute from him when he was young and left him pauper when he got old. The alms, continued Umar, are only for the poor and the needy, and this is one of the needy belonging to the people of the Scripture". Then Umar ordered a regular salary for him from the Treasury.

7 — The Seventh Means is represented in the authorization granted by Islam to the Head of State to distribute the common wealth in such a manner as to establish economical equilibrium among the various classes of society even though it may result in giving properties to some classes and depriving some other ones. This wise rule was introduced and put into practice by the Messenger of God, peace be upon him, after it had been revealed to him from God in the Glorious Qur'an. As a practical application of this wise principle, the Messenger of God, peace be upon him, gave all the spoils gained from the antagonistic tribe of al - Nadir to the

the magistrate of Bahrayn and Amr Ibn al-As the magistrate of Egypt.

3 — The third means : Is represented in the various kinds of taxes and alms ordained by Islam. It demands that these kinds of taxes and alms are to be taken from the different sorts of properties and from the revenue of the economic enterprise in order to guarantee the realization of social justice, and satisfy the needs of paupers and prevent the immense accumulation of wealth.

Alms is distinguished in that it is not only imposed on the products of capitals but imposed on mobile capitals as well. So if the movable capital becomes unproductive it will be gradually consumed as alms within a course of forty years ; and this is true of properties whose alms is estimated at one-fortieth per year, and such properties include gold, silver and merchandise. Even if the capital remains productive, the successive taking of the decided alms will make it shrink and prevent it from developing to a big wealth in the hand of its owner.

4 — The fourth means : is represented in seasonal charity ordained by Islam which demands the rich Muslims to distribute, out of their properties, alms to the paupers on certain occasions every year such as the Small Feast " Eid al-Fitr ", the offerings slautered on the occasion of the Corban Bairam " Eid El Adha " and the offerings which the pilgrimes offer and from which they are to eat and feed their people, and most of which is to be distributed among the poor and needy.

5 — The fifith means: is represented in retaliations imposed by Islam on the doers of sins and transgressions. Islam stipulated that sins and transgressions frequently happen should be amended by gifts to be given to the poor and the needy. Such gifts retaliate perjury, the most cases of breaking fast during the month of Ramadan, the divorce of " *Zihar* i. e., when a man says to his wife " You are sexually forbidden for me like my mother ", which means separation between him and his wife. Also they retaliate some violations of the rituals of pilgrimage as explained in detail in the books of jurisprodence.

6 — The sixth means is represented in what Islam has ordained as regards social solidarity. It has enjoined upon the rich to undertake the expenses of their poor and unable relatives according to the detailed explanation in the juristic books. It has also ordered the residents of every district to live with one another in a manner of social solidarity where the rich treats the poor kindly and

prohibited all ways that lead to the accumulation of capitals by usurbing people, or decieving them, or monopolizing the necessities of their lives, or exploiting their poverty and needs or by the abuse of influence and authority. Islam has taken this attitude because these ways are the major causes that create wide differences among properties of individuals, and by forbidding these ways the economical equilibrium can be realized in the best form.

Islam has forbidden unequivocally all operations of usury and made them amongst the most heinous sins, and threatened their committers by war from God and His Messenger. It has also forbidden all dealings which imply deception, or bribe, or taking unjustly the properties of others or cheating men when taking the measures.

Similarly, it has taken the same attitude towards the monopolization of the necessities of people; in this connection the Prophet, peace be upon him, says: " Whoever monopolizes food for forty days he will break off association with God and God will break off association with him ". Islam has forbidden the misuse of authority and influence for gaining wealth, and allowed the confiscation of properties acquired through such ways, and authorised the Treasury to take this wealth to be utilised for the common interest of Muslims and their needy. The Prophet himself has laid down this perfect principle. It is said that a man of Al-Azd Tribe, who was employed to administer alms, some day came to the Prophet with alms and divided the alms into two parts and said to him : " This is for Muslims and this was presented to me ". The gestures of anger appeared on the Prophet's face and being disappointed he stood up and made a speech in which he said : " I employ men from among you to run some affairs with which God has tasked me, then some one of you comes to say this is yours and this was presented to me; would he confine himself to his father's or mother's house and see whether he would be presented to or not ? ". The man, then left untouched what was, allegedly presented to him and the Prophet, peace be upon him, added it to the Treasury of Muslims.

This principle was applied on a larger scale by Umar Ibn al Khattab during his caliphate. He Confiscated what the magistrates had gained through improper means for them such as commerce and the like, and also what they had attained in the form of presents or properties resulting from the exploitation of their influance and their offices. Umar did so with his magistrate of Basra as well as with Abu Hurayrah

Prophet, peace be upon him, "Special will is unlawful", nor did it allow him to excell one-third of his property when making " will " to none of his heirs. By doing so Islamic law aims at safeguarding the principles of the perfect socialism which it has introduced for inheritence, and at protecting them from the abuse and caprices of bequeathers.

How wide is the gap between this wise social institution of inheritence laid down and fortified by Islam with strong protection, and the modern systems of the West some of which make all the property of the deceased a primogeniture while others authorise the owner with complete freedom to bequeath all his property to whom he pleases ! !.

As a result of this system, large properties were gathered in the hands of a limited group of persons, such a result aroused the hatred of the poor and implanted in their hearts the spite against the Community and its institutions. Thus destructive and extremist doctrines as well as corrupt and Communist trends developed from these systems and disturbed chaoticly the economic life, and led to the most violent revolutions and rebellions which Europe has been facing in modern times.

Islam has differentiated between male and female in inheritence ; it often gives the male a share equal to that of two females who stand with him on the same level of kinship. This distinction is based on classification of life responsibilities shouldered on both male and female. From the Islamic point of view, man's financial responsibilities in this life are so much heavier than those of the woman.

Man, sooner or later, married or unmarried, is the guardian responsible and sustainer of his family. He is tasked with satisfying all needs of all his relatives. Unlike that, woman is released from all financial responsibilities even her own expenses.

Therefore, it was only fair that man should take a share larger than that of the woman to enable him to bear these heavy burdens enjoined by Islam upon his shoulders, wheras woman is exempt by Islam from these burdens to show its mercy and care for her, and to secure the happiness of family. Nay, Islam is too genrous and kind to woman as it gives her one half of man's share in inheritence when exempting her from the burdens of life and putting all these burdens on man's shoulders.

2 — The second means : Islam forbade the aquirement of wealth through illegal means. It has absolutely

disobeys God and His Messenger and goes beyond His limits, He will make him enter fire to abide in it and for him is an abasing chastisement" (Surah 4, Verses 13 - 14).

Hence many of the muslim jurists hold the opinion of forbidding " the personal mortmain " which means that the owner confines the outcome of his property to a certain group of his relatives or non-relatives according to conditions and shares made by him just the way he pleases. Such kind of mortmain is forbidden because it constitutes the detention of property from being used and utilised normally, and also because it infringes the rules of inheritence. Ibn Abbas was one of those jurists who forbade this kind of mortmain. He said that when the Surah (chapter) of Women was revealed regulating the legal shares of heirs, the Prophet, peace be upon him, said " There should be no detention from the injunctions of God ", i.e., the prevention of the property of the deceased from being distributed among due heirs is forbidden. Likewise, Justice Shurayh of Kufa adopted the same opinion of Ibn Abbas. (Justice Shurayh was one of the great Followers, of the most well known amongst Muslim jurists and the judge appointed by Umar to Kufa for a long period). He forbade that Kind of mortmain and stated that the Islamic law eradicated this system. The text of his statement reads: " Surely Muhammad has permitted the sale of mortmain ". This is a narration ascribed to the traditions of the prophet, peace be upon him, permitting the sale of mortmain. There is also Ismail Idn El Kendi the Judge of Egypt on behalf of Caliph Al Mahdi, who adopted the same opinion of Ibn Shurayh.

There is also Abu Hanifah al-Numan the great jurist who forbade the personal mortmain in all its familiar forms. He decided that when the testator conditions the mortmain on his death (as by saying: when I die my house, for instance, goes to such and such), then it will become a "will" not a mortmain, and should be taken from one-third of his property. Conversely, when the testator does not condition mortmain on his death, it should be distributed among heirs after his death according to every one's share. The Egyptian law number 180 of 1952 has depended on all these bases when it repealed all sorts of personal mortmain and forbade its proceedings, and stipulated that any personal mortmain would be considered invalid.

For all this, Islam did not allow the owner to give by will any one of his heirs more than his legal share in conformity with the saying of the

Islamic Socialism, The Best

Safeguard Against Communism

By

Dr. Aly Abdul Wahid Wafi

Islamic law restricted the rights of owner in his property by many restrictions, and in return for his ownership it tasked the owner with many obligations in order to preserve, by these restrictions and obligations, the rights of the Community and to mitigate the influence of capitalism. Through this, Islamic law means to obstruct the growth of any influence or despotism of capitalism, to realize the equality of chances among people, to tighten the differences between social classes and bring them near each other, to prevent the accumulation and centeralization of properties in the hands of the few and, finally, to constitute a kind of moderate socialism in the best form possible.

The most important means which Islam has adopted to achieve these noble aims read as follows :

1 — The first mean : Islam has codified wise rules regarding inheritance and its connections. It has introduced a wonderful social system of inheritance by which it secures the fair distribution of properties among individuals, prevents the accumulation of properties in the hands of the few and break big capitals into mall properties. This is done by dividing the legacy of the deceased among a large number of his relatives in order to enlarge the sphere of use of this property on the one hand, and to prevent the accumulation of big properties in the hands of a limited group of people, on the other hond.

By virtue of this wise system, the big properties which happen to be in the hands of some individuals will be divided within a few generations among many individuals and will be transferred into small ones. This is the best method for reducing social differences between classes and realizing the fair socialism in a most harmonious form. And because Islam is so earnest to achieve these purposes it prohibits all actions that lead to the violation of those rules of inheritance. After having laid down these rules God Says " These are God's limits. And whoever obeys God and His Messenger, He will admit him to gardens wherin flow rivers, to abide in them. And this is the great achievement. And whoever

Easterners nor Westerners ; we are just muslims. We are advocates of belief in God alone and of virtuous human values. We are mobilized at the instance of our religion to resist tyranny and replace it with justice and peace.

Islam does not recognize social classes with its structure. It is alien to the society which is based on the aristocracy of wealth and nobility as it is alien to the society which is based only on bodily labour. It recognizes distinction among its followers only in their adherence to its guidance. " Surely the noblest of you with God are the most dutiful of you. " (Surah. 49. V. 13). So it does not tolerate the subjugation of a certain class to another as is allows no social classes.

Islam trusts the conscience of man ; it does not resort to terror in stimulating its followers. It relies on man's thoughtfulness of God, and therefore no tyranny of a group over another is feared of. The imported ideologies from the East and the Weast have sparkling appearances. But Islam is the religion of genuinely brilliant ideology, which needs only to be purified from accretions and innovations.

When it is so purified, it will satisfy our needs and make us independent and self-sufficient. Then, it will be easy to popularize it among out-siders and even export its principles which will find warm reception. When we rightly deserve the description of us by God in His Book, " The believers are those only who believe in God and His Messenger, then they doubt not, and struggle hard with their wealth and their lives in the way of God. Such are the truthful ones " (Surah 49, V. 15), then we really become self-sufficient,

With Islam, we are the best nation raised up for men. Our allies are God, His Messenger and those who believe : " Only God is your friend and His Messenger and those who believe, those who keep up prayer and pay the poor-rate, and they bow down. And whoever takes Cod and His Messenger and those who believe for friend-surely the party of God, they shall triumph " (Surah. 5, Vs. 55-56). " You will not find a people who believe in God and the Latter Day loving those who oppose God and His Messenger, even though they be their fathers, or their sons, or their brothers, or their kinsfolk. These are they into whose hearts He has impressed faith and strengthened with a spirit from Himself, and He will cause them to enter Gardens wherein flow rivers, abiding therein. God is well-pleased with them and they are well-pleased with Him. These are God's party, Now surly it is God's party who are the successful ! " (Surah. 58, V. 22).

the earth. So, it is suitable and good for all people.

Islam is not mere knowledge but is faith and piety. It is faith in God, observance of duty and thoughtfulness of Him. And this faith is the source of self-security in man, of his awareness of society and of his contribution to the stability and survival of that society.

Islam is a Divine grant. " That is the grace of God ; He grants it to whom He pleases. And God is the Lord of mighty grace " (Surah 62, V. 4).

This is Islam as a system of life. It is a system of virtuous, stable and humane life for the individual and society alike. Its foundation is based on the fact that man has a desiring nature but endowed with leadership. It realizes that this nature responds to egoistic motives, though it inclines to association and sociability.

The guidance of Islam is meant to develop the will of the individual to give him the power of mastership in order that he may not behave like the machine or the animal. It is also meant to awaken the social conseience in order that society may survive protected from disintegration, deterioration and weakness, to remain a virtuous and strong society.

Having laid down these principles, Islam is not responsible for the weakness of the Muslim and for his submission to passions. Nor is it responsible for the weakness of the bonds of the Muslim society or for the dissolution of that society. What is responsible for that, however, is the misunderstanding of Islam and misapplication of its principles. Thus the Scripture of God is not to blame for the ideas from the east and west imported supposedly for guidance.

The responsibility for misunderstanding and misapplying the principles of Islam is not to be shouldered on certain Muslims. But as long as the Muslim embraces Islam, he has first to believe whole - heartedly in God to know the right path to Him. " And keep your duty to God. And God teaches you. And God is Knower of all things " (Surah 2, V. 282).

The imported ideologies of the East advocate atheism and disbelief in humanity and its values. Similarly the ideologies imported from the West call for the tyranny of *matter* over human values, the tyranny of war and material power over the rights of peoples in liberty and survival.

The principles of Islam are distinguished from the ideologies of the East and the West. This is so because Islam is based on belief in God, honouring human values and on the resistence of tyranny in all its forms. Consequently we are niether

Here we find that the message of Islam is the framework of the active man and the strong society. It is the framework of the resolute individual and of the befriended, kind and fratermized society which does not accept humiliation and subjugation.

The Muslim has a mission in this life which mission is to be of will. Likewise, the Islamic society has a mission which is to establish Justice and peace, and to prevent harm and aggression. This mission of the individual Muslim is a prerequisite to the mission of the Islamic society. This is because no justice and peace can be achieved, and no harm and aggression can be prevented In any given society unless its individuals have strong wills, experience in struggling and belief in ideals.

The mission of the Muslim, from the Islamic point of view, is not to live for food and reproduction only, but to make these a means of power and sovereignty. " I am afraid," the Prophet said, " that nations will exhort one another to encroach upon you just like the eaters call one another to food. Is it because we shall be small in number O Messenger of God," the Prophet was asked ? He said : nay, you will be enormous, but your enormity will be effectless". Similarly, the Islamic mission of society is not just for fun or amusement but to struggle for values, establish justice and prevent injury and aggression.

It is to struggle for association and brotherhood; because the kinship of Islam is surperior to that of tribalism, and its brotherhood is above that of blood relationship. The kinship of Islam, firsr of all, is that of principles, of joint aims and common ends.

Surely the message of Islam is not a social planning laid down by man nor is it an educational method drawn by any human being. If it were as such, it would not have been so suitable for all people, but it might have been good only for a certain environment in which that particular social planner or educationalist lived. This is so because man is what we know, affected by inherited qualities and environmental circumstances. Thus man's thinking reflects his limitedness, and his goodness, if he be good, is for his environment and those who live with him.

Islam is the revelation of God, the Aware of everything. It is the teachings of God, the Creator of every being and the Supreme above all. " And He is the Supreme, above His servants " (Surah 6, V. 18). It is coming from Him whose knowledge extends over the heavens and

O mankind, surely I am the messenger of God to you all" (Surah, 7, V, 158). Likewise, its worship was meant to provide the individuals first with security and then with peace in their relations to one another.

After Islam had awakened the social spirit in individuals through worship and formed of them the Islamic society, it strengthened it with formidable protection to make it survive. Islam consolidated its society by firmly prohibiting it from aggression. "And help you one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression" (Surah 5, V. 2).

To prevent contemplation of, not to mention aggression itself, Islam enjoins justice and the doing of good to others and the giving to the kindred, and forbids indecency, evil and rebellion. It enjoins justice in every way : in bearing witness and giving narration, in judgement and decesion. It enjoins the doing of good to others in all its forms : through wealth and health, through knowledge and authority. It forbids oppression in its forms which can be defined by whatever hurts the soul or the body, ownership or personal consecration. It forbids indecency and evil in all their forms which are disliked by good selves and spited according to the standards of society and usage. The Glorious Qur'an emphasizes these principles by saying "Surely God enjoins justice and the doing of good (to others) and the giving to the kindred, and He forbids indecency and evil and rebellion" (Surah 16 V. 90).

The Islamic society, therefore, is one of peace, justice and kindness. It is a society which distastes indecencies, vices and aggression. It is a virtuous and moral society. Yet it is not an aggressive society nor is it a passive one which tolerates humiliation. On the contrary, it is an active society which meets aggression with a like retaliation. "Whoever then acts aggressively against you inflict injury on him according to the injury he has inflicted on you" (Surah 2, V. 194).

The Islamic society is not of the aggresive type which is tempted by victory to encroach on the human principles. "God forbids you not respecting those who fight you not for religion, nor drive you forth from your homes, that you show them kindness and deal with them justly. Surely God loves the doers of justice" (Surah 60, V. 8). "O you who believe, be upright for God, bearers of witness with justice and let not hatred of a people incite you not to act equitably. Be just; that is nearer to observance of duty.' (Surah. 5. V. 8.)

annual Feasts of Islam. Both these two forms of alms and pilgrimage include this social spirit and increase its force and certainty by means of endeavour and work.

Thus, the forms of worship laid down by Islam and enjoined upon Muslims in the periods and places aforementioned are meant to train the human self to attain what it is naturally prepared for of the power of will and the means of choice, on the one hand, and of what it has of tbe sociable spirit, on the other. By this, the self can master the passions of the stomach and sex and protect itself from the dangers of indulgence in and subjugation to these passions. The self will also be able to recognize the existence of others, observe their rights and fraternize them instead of being in conflict and antagonism with them.

Worship, as defined by Islam, is to elevate the standard of humanity in man and protect him from his own evils. It is to prevent agression either from him against others or from others against him. It is to moralize the individual, establish society and guarantee its survival.

It may not seem clear that *society* is established as a second stage precedented by the existence of individuals, and that the very establishment of society depends upon the awakening of the social spirit and consolidating the inclination in individuals to sociability. As long as social spirit is not awakened in individuals, they will remain as an unorganized group of people to whom the term society is inapplicable. And for this reason the existence of society is a proof of the civilization of its individuals, and demonstration of the awakening of their social conscience. Moreover, it means that the joint feeling of common aims and mutual interests has manifested itself in the practical life. The ulimate end of pure humanity is to found a society not on tribalism and cosmopolitanism, but on the true qualities of humanity represented in peace, in the course of common relations, and in tranquility and stability in the private life.

Islam, as we have observed, endeavours through its guidance to build the human society, to remove aggression from common relations, and to ascertain stability in the private life. This is why it treats all people in an equitable manner. " O mankind, surely we have created yon from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you " (Surah. 49, V. 13). And for the same its message has been sent to all people. " Say :

in greatening God and extolling Him, in bowing and prostration, he will undoubtedly restrain his desires and passions. And when he commands his desires and passions, he will be in a position to choose his diet and sexual intercourse in the most upright manner. Then, he becomes a man of choice and limtis, a man who knows the beneficial and the harmful. And this is the result of prayer which "keeps (one) away from indecency and evil".

As for fasting, which occupies a full month of the year starting from dawn upto sun - set and which absolutely deprives the stomach and sex of having their satisfaction, it is the direct means of worship to develop the faculty of choice and will, the power of struggle and resistence. Fasting is a struggle between the pressing passions of the stomach and sex, on the one hand, and the endeavour of man to overcome these passions, on the other hand. So, if man fasts the whole month of Ramadan every year, he will emerge from his struggle triumphant, and his will will also triumph over the passions of his stomach and sex. Similarly, his resolution and determination will overcome hesitation, weakness and dependence. Here we can appreciate the meaning of the Divine Revelation in the Messenger's words: "All man's deeds are his except fasting which is Mine. It is purely for me, and I only reward him for it".

Having examined these two forms of worship in Islam, we find that they are meant to improve the personality of the individual and to strengthen his will and ability of resistence and struggling.

Concerning alms, it is the extraction of a certain percentage of the alms-giver's wealth out of his conviction to be distributed to the needy. Pilgrimage, on the other hand, is the gathering of tens of thousands of muslims in one place and one time on the Mount of Arafat, at the sun - set of the nineth day of the month of Dhi Al-Hijjah. At this annual convention all pilgrims stand in uniform thoughtless of their distinguishing appearances of wealth, ranks and positions. They ask One God in one petition with one heart and one faith. When they descend from Arafat and go round the *Kaabah* they face their *Qiblah (prayer-niche)* - wherein differences of east and west, north and south, disappear in place and direction.

If we reflect on the worships of alms and pilgrimage in the manner we have described, we shall find them a practical application of the social spirit, already awakened by congregation prayers performed five times every day and especially urged for on Fridays, and more especially demanded on the two

because the existence of theirs with him is an undeniable fact. consequently, there will be a violation of mutual rights. He will violate the rights of others and they will in turn violate his own.

The result of leaving man unguided and of leaving his private and social life undisciplined is the loss of will and human personality, resistence and the spirit of strife, the ability to make distinction and choice. Besides all this, animosity, conflict and constant transgression will prevail.

Because man is prepared by nature to be of personality and will, on thé one hand, and of sociable inclinations, on the other hand, the message of Islam has come with the purpose of helping this nature and improving its will and sacial inclination. The message of Islam has come to lay down the solid foundations of the right way which elevates man to be of will, power, ability to resist and struggle, and social reciprocity. It has come to awaken the conscience of one's own personality and of his society as well; because all harms inflicted upon humanity originate from the absence of the individual will and social conscience.

Islam, then, has come to prevent these human harms whose prevention, as we have already mentioned, is in the improvement of the individual will and in the ascertainment of the social bonds among individuals. Thus it is a guiding message of two sides: one is for the individual and one for the society. And here we may ask: How does Islam drive man through guidance? And how does it make the individual of will and effective participation in the social course of his society?

To answer these questions, let us examine the forms of worship in Islam. Let us examine fasting, prayer, alms and pilgrimage.

In prayer, the Muslim faces God five times a day during which he confers in private with God. Prayer, in fact, delivers the heart from the temptations and adornments of life, because the presence of the true worshipper before God is such a happiness that is incomparable to any other pleasure of this world in which there is only the passion of stomach and sex. Here we can appreciate the wisdom of God's words: "Surely prayer keeps (one) away from indecency and evil" (Surah. 29, V. 45),

And there are no indecency and evil except that which the stomach and sex desire. When the worshipper sacrifies the ejnoyment of this life for the sake of his presence before God in petition and prayes,

that the guidance of Islam is a necessity to man agreeable to his human nature.

Man is passionate, yet he is prepared to have control over himself and creatures other than himself. Man is a nature with egoistic motives, althongh he is inclined to sociability. He has passions to satisfy the needs of his stomach and his sexual desires. He is capable of leadership the centre of which is his mind which is the essence and cause of his distinction. So, if man were left free to seek his pleasures, his endeavours would have been restricted to the demands of his stomach and sexual passions, and the quality of leadership in him would have been subjugated to the aforementioned demands. Then, man would be of passions only trying to sate his stomach and satisfy his sexual desires with whatever he finds.

And the impulsive man who has no power of choice destroys himself not because he has lost the quality of choice between the useful and the harmful, but because he cannot control his passion. He impulsively wanders on every path straight or otherwise, and compulsorily uses every means beneficial or malicious. Such a man knows no destination to his wandering, and does not care whether his diet is nourishing or not, and is interested only in having his sexual entercourse with any body he meets. He may see his destruction in what he does, though he cannot resist his inclinations. He may be sure, out of his own experience, that a certain diet is harmful to him, yet he cannot refrain from it. Likewise, he may be certain that a particular sexual entercourse is disasterous, nevertheless he cannot restrict his indulgence. He humiliatingly yields to his passions, and submits to his stomach and sexual desires. As a result, his will weakens, and his command over passions gets loose, and instead of being, as he should be, the master of his passions he becomes in thinking as well as in doing enslaved to these passions. He is a dead person even though he may appear in a disguise of an alive man, and morbid in the form of a wholesome person, and weak in the shape of a strong man.

On the other hand, man has a nature motivated by egoism though it is inclined to sociability which is the prerogative of man excepted from among other beings that are instigated by instincts alone, namely, the animals. And if man surrenders his behaviour to the egoistic motives only, he is a man who does not recognize the existence of beings other than himself. Then, he will not only lose his rights upon those others but also will be in conflict with them. This is

things ; therefore serve Him, and He has charge of all things. Vision comprehends Him not, and He comprehends [all] visions; and He is the Subtle, the Aware " (Surah 6, Vs. 103 - 104). "And certainly We raised in every nation a messenger, saying : serve God and shun the devil " (Surah 16, V. 36).

VI. Finally, Islam extends its guidance to elevate man to the most supreme standard of humanity; it is the standard at which man is not enslaved by his passion for wealth or sex. And he who is not enslaved to wealth and sex is the man who observes his duty to God, believes in His reckoning, worships Him incessantly, gives the poor without being asked, honours the consecrations of others in public as well as in secret, keeps his covenant when he has made a covenant, maintains trusts to which he is intrusted, and above all bears witness honestly. " Surely man is created impatient — fretful when evil afflicts him, niggardly when good befalls him — Except those who pray, Who are constant at their prayer, And in hose wealth there is a known right for the beggar and the destitute, And those who accept the truth of the Day of Judgement; And those who are fearful of the chastisement of their Lord — Surely the chastisement of their Lord is (a thing) not to be felt secure from — And those who restrain their sexual passions, Except in the presence of their mates or those whom their right hands possess — for such surely are not to be blame, But he who seeks to go beyond this, these are the transgressors. And those who are upright in their testimonies, And those who keep a guard on their prayer, These are in Gardens, honoured " (Surah 70, Vs. 19 - 35).

It is clear from what we have mentioned that Islam is concerned with the life of man in its individual aspects as well as its social ones. It prohibits him from doing certain things. It deals with his cleanliness, his dressing, his diet, his enjoyment, his dealings with others and his service to God.

The life of man wherever and whenever he happens to be is that life of enormous aspects. Why then does Islam pay attention to man to such a great extent ? Would it have been dangerous for man if Islam had entirely deserted him or left him guideless ? Why did Islam not let him do, for example, what he pleases as regards his cleanliness, his diet, his dressing and his amusements ? Would there be any harm to him or to him along with others if Islam left him without guidance in his private life ? All these questions are answerable when it is made clear

Likewise, if the man has relatives Islam calls upon him to offer his help to his kinsmen even though this help may be against his will; "But righteous is the one who believes in God and gives away wealth in spite o its love to the near of kin ... " (Ibid. 177).

To the neighbour Islam pays a great attention. It urges man to assure his neighbour's happiness and distress, or at least, to assure him his security from his side · It is reported, on the authority of Ibn Ali Shuragh, that the Prophet, peace be upon him said : " By God he is a disbeliever! by God he is a disbeliever! by God he is a disbelieer! Then it was asked : whom do you mean ? O messenger of God! He replied : The one whose neighbour is not safe from his injuries and evils". It is also narrated that the Prophet, Peace be upon him, said : the angel Gabreil recommended the neighbour to such an extent that I thought he would give him a share in heritage".

If man is a ruler or in charge, Islam takes him with the responsibilities of leadership. The prophet said : " Everyone of you is a guardian responsible and will be questioned for his dependents".

When man makes a covenant or takes a pledge, Islam orders him to keep his covenant and be faithful to his pledge. "And fulfill the covenant of God, when you have made a covenant, and break not the oaths after making them fast, and you have indeed made God your surety " (Surah. 16, V. 91).

Concerning the merchant, Islam commands him to be just and fair in dealing. " And, O my people, give full a measure and weight justly and defraud not men of their things" (Surah. 11, V. 85). Similarly, if man acts as a wittness or a judge Islam orders him to establish justice with whatever motives he has and in whatever circumstances he may be "And when yon speak, be just, though it be [against] a relative " (Surah. 6, V. 153). " O you who believe, be upright for God, bearers of witness with justice ; and let not hatred of a people incite you not to act equitably. Be just ; that is nearer to abseruants of duty. And keep your duty to God. Surely God is Aware of what you do" (Surah. 5, V. 8).

V. Islam inteferes to guide man and correct his worship. It guides him to worship One God Who has no associate him with " Say : God I serve, being sincere to Him in my obedience " [Surah 39, V. 14].

" That is God, your Lord. There is no God but He ; Creator of all

and to display of their adornment only that which is apparent, and to draw their viels over their bosoms, and not to reveal their adornment save to their own husbands or fathers or husbands' fathers, or their sons or their husbands' sons, or their brothers or their brother's sons or their sisters' sons, or their women, or their slaves, or male attendants who lack vigour, or children who know not of women nakedness. And let them not stamp their feet so as to reveal what they hide of their adornment" (Surah 24, V. 31).

IV. Even the amusements and funs of man are dealt with by Islam. It prohibits all that which aggravates his nerves or inactivates them like gambling in all its forms. (See above, Surah 5, V. 90). Yet it exhorts man to refresh his mind and body, and remove his aversion and dullness by good sports like running and the shooting of arrows. Once the Prophet, Peace be upon him, was passing by a group of people shooting arrows for sports. He said to them : " Shoot O sons of Ismail (Ishmael) ! Your father was a good shooter. On another occasion he said that all funs and amusements of man are no good except playing with his family and sublimating his horse. The Prophet himself competed in running with his wife Aishah. Sometimes he surpassed her and sometimes she did him.

V. Regarding the treatment of man to his fellow man Islam has a lot to do and say. It teaches the parents not to be wrongly tempted by the love of their children, and teaches the children to be good and grateful to their parents and to refrain from whatever action or thing likely to hurt their feelings in any way. " Your wealth and children are only a temptation, whereas God ! with Him an immense reward " (Surah 64, V. 15). " And Serve God. Ascribe nothing as partner to Him. (Show) kindness to parents. (Surah 4, V. 36). "Say not 'Fie' to them (parents) nor repulse them, but speak to them a gracious word. And lower to them the wing of submission through mercy, and say: My Lord ! Have mercy on them both as they did care for me when I was little " (Surah 17, V. 23 - 24).

If the man is a husband Islam ordains him to treat his wife gently and kindly whether they maintain their marriage life or disperse by divorce "Divorce may be (Pronounced) twice; then keep (them) in good fellowship or let (them) go with kindness" (Surah 2, V. 229).

As for the wife it commands her to carry out her responsibilities and duties in return for the rights she enjoys. "And women have rights equal to the duties burdened upon them in a just manner" (Ibid. 224).

Islam in its guidance of man, then, is by necessity harmonious with the very qualities of the human nature. It accepts it as a human nature and endeavours to maintain it as such without making any attempt to change it to an angelic nature. It takes all measures to prevent the human nature from turning to an animalist one. From the viewpoint of Islam man is a human being and by Islam he can reach the highest standard of humanity.

This is why Islam is a sound system of life for man who should not degrade himself from his natural position, by which he is distinguished from other beings, and who cannot attain the degree of Divinity even if he be a Divinely chosen messenger. " Say (O Muhammad) : I am only a mortal like you. My Lord inspires me that your God is only One God " (Surah 18, V. 110). " Say (O Muhammad) : My Lord be glorified. Am I aught save a mortal messenger " (Surah 17, V. 94).

Here we find that Islam embraces with its guidance all aspects of human life and includes rules to organize man's life.

I. It deals with cleanliness and enjoins upon man the ablution of some parts of his body a few times a day and the washing of all his body in certain circumstances. It urges him to keep clean his dress, his body and mouth especially in gatherings like that of the Friday cogregations.

II. In regard to food and drinks Islam forbids man from having certain kinds of food and drink. " Forbidden unto you (for food) are carrion and blood and swineflesh, and that which has been dedicated unto any other than God " (Surah 5, V. 3). "O you who believe ! Strong drink and games of chance and idols and divining arrows are only an infamy of Satan's handiwork. Leave it aside in order that you may succeed " (Ibid., V. 90). Moreover, Islam exhorts man not to eat or drink unless he really feels a need for food or drink, and advises him to be moderate as to satisfy his needs with the minimum quantities of food and drinks. " Eat and drink, but be not prodigal. Surely He loves not the prodigals " (Surah 7, V. 31). Furthermore, the Prophet says : ' We are people who do not eat unless we feel hungry, and when we eat do not sate. "

III. In view of man's dressing Islam prohibits him from wearing clothes made of gold. Similarly, it forbids woman from instigating man's sexual temptation by her dresses and adornments and make up. " And tell the believing women to lower their graze and be modest,

Islam as a System of Life

by

Dr. Mohammmed El-Bahay

Diretor General of the Islamic Culture Adminstration

al-Azhar University

Islam is the message of God to all mankind as He says in the Glorious Qur'an: "He it is who has sent among the unletterad ones a messenger of them, to recite to them His revelations and to purify them and to teach them the Scripture and wisdom, though heretofore they were indeed in error manifest" (Surah 62, V. 2). "Now has come to you light from God and a plain Scripture. Whereby God guides him who seeks His good pleasure to paths of peace. He brings them out of darkness to light by His decree, and guides them to a straight path" (Surah 5, V. 15 - 16).

Islam is the message of God to Arabs and non - Arabs alike whether they were contemporaries of the Messenger of God, peace be upon him, or came or will come in subsequent generations until the Day of Judgement. "And along with others of them (the unletterd ones) who have not yet joined them. He is the Mighty, the Wise" (Surah 62, V, 3. See above, Surah 62, V. 2).

It is the message of God which He sent to guide man whom He created as a nature of certain characters and made him superior to His other creatures. "Verily we have honoured the children of Adam. We carry them on the land and the sea, and have made provision of good things for them, and have preferred them above many of those whom we created with a marked preferment" (Surah 17, V. 70). It is just the right message for human nature be that nature in the desert or on the tops of mountains, on the banks of rivers or in coastal regions, in the east or in the west, in the north or in the south. This message is the message of human nature whenever and wherever it happens to be. It was sent to guide that natur to the straight path and protect it from illusions and superstitions in what it intends to do. "He it is who has sent His Messenger with the guidance and the Religion of Truth, that He may cause it to prevail over all religion..." (Surah 9, V, 33).

The Speech of the Reverend Robert Avary Lee

HEAD OF THE DELEGATION OF AMERICAN GLERGY WHO CALLED ON HIS EMINENCE SHEIKH MAHMOUD SHALTUT RECTOR OF AL-AZHAR UNIVERSITY, ON SATURDAY JULY 4, 1959.

Your Eminence, Gentlemen:

May we express to you our pleasure and gratitude for the welcome and hospitality you have exteneded to us in this great University, which is unique in its history, in the position it holds in the world and the influence it has on Muslims and the Muslim Faith.

We agree with you in our belief in the unity of God, and, as Christians, we stand by your side, in preaching God's message. We believe in Jesus Christ and we strive to carry out His teachings, as we possibly can. If we see tyranny or oppression our conscience inspires us to act according to our creed and faith. Our civic traditions are founded on individual freedom. We claim freedom of conscience and of opinion for all men. We pledge ourselves to spare no effort and to do everything we can to establish the principles of religion and of human freedom wherever we are.

If you are to come to America we shall endeavour to show you how grateful we are for your hospitality. we promise to offer you as good coffee as yours and we shall express to you our pleasure with equal oratory and fluency,

we extend our hands to you and vow to you we shall work together in the name of friendship and faith in God for the good of humanity and of world peace.

The speech of his Eminence the Rector

OF AL-AZHAR UNIVERSITY TO THE GROUP OF AMERICAN CLERGY WHO VISITED HIM ON SATURDAY JULY 4, 1959.

The University of Al-Azhar, which is more than ten centuries old, welcomes you in its precincts and prays the Almighty Lord to make this visit of yours the beginning of a new era, in which men of religion all over the world cooperate, each on his part seeking to plant the tree of faith and of God's unity deep in the hearts of all men so that humanity may be purified of paganism, of the false conception that God is not one, of tyranny and oppression and so that it may achieve inward peace and outward happiness.

Al-Azhar fully appreciates your visit as men of religion meeting with Azharites in one place, aiming at the same objectives and working to save the weak from the tentacles of the strong, to relieve those who have been expelled from their mother-country and restore them to their homeland, where they grew whose water they drank and whose crops they ate.

The Holy Kor'an has esteemed men of the church for their kindness of heart and their tenderness of feeling. This is expressed in the following words addressed by the Lord to his prophet.

" Thou wilst find that those who are closest to the faithful as friends are those that proclaim they are Christians. Of these are priests and monks for they are not haughty and when they listen to what has been revealed to the Messenger their eyes overflow with tears as they realise the truth thereof. They say: " Our God; We now believe in Thee and may You include us among those who have given testimony ".

happiness of the individual and of the society in this life and in the Hereafter. All elements of good and success, elements of decent life and everlasting happiness are demanded, propagated and urged for by Islam. Similarly, all elements of evil and corruption, elements of indignant life and constant unhappiness are forbidden and warned against by Islam.

To this general principle God refers by these verses: " Surely this Qur'an guides to that which is straightest, and gives good tidings to the believers who do good works that theirs will be a great reward. And that those who disbelieve in the Hereafter for them we have prepared a painful doom " (Surah 17, Vs. 9-10). " O you who believe! Obey God, and the messenger when He calls you to that which quickens you . . . " (Surah 8, V. 24). " And if they had observed the Torah and the Gospel and that which was revealed to them from their Lord, they would surely have been nourished from above and from beneath their feet " (Surah 5, V. 66). " Whosoever does right, wether male or female, and is a believer, him verily we shall quicken with good life, and we shall pay them a recompense in proportion to the best of what they used to do " (Surah 16, V. 97). " We verily sent Our messengers with clear proofs, and revealed with them the Scripture and the Balance, that mankind may observe right measure . , . " (Surah 58, V. 25).

The Bases of Islam for the Reform of Humanity:

This is being so because Islam has established its order of the world on actual considerations. It is aware of the fact that man is composed of soul and body each of which is entitled to a certain share of enjoyment, and that he has a dual personality of two aspects: one is individual by which he is independent of his people, and one is social on the basis of which he is a solid brick in the structure of his community and of the human society at large. This dual personality or, in other words, each of these two aspects endows man with certain rights and tasks him with certain duties,

And the happiness of man cannot be fully realized unless both his body and soul enjoy their moderate share of enjoyment without going to extremes, and unless he adjusts his rights and duties in the light of his relation to God, his compatriots and mankind in a balanced manner without going to extrems.

Should we go through all that which Islam has brought of beliefs and morals, worships and laws, we shall find that they all lay within this sphere, the sphere of care for the body and the soul of man as an individual and as a member of society.

wise, the Knower, the Aware of what is in the hearts of men, the Master of the selves and the Designer of good and happiness, would reveal contradictory and conflicting religions which no mind can possibly harmonize or reconcile neither as regards their truth nor as regards the behaviour of people under their rules. In connection with the story of Creation and Formation God has told us that whatever comes from Him to His bondmen is guidance and mercy. And there can be no mercy in contradictory and conflicting revelations. Mercy generates from propagating the truth and giving its right picture. But truth does not oppose or contradict truth. What contradicts truth and opposes it, however, is falsehood. In this respsct and after giving the account of Adam and his repentance, God said: "Go down hence, both of you and the devil hostile one to the other. But when there comes to you from me a guidance, then whoso follows My guidance, he will not go astray nor come to grief. But he who turns away from remembrance of Me, his will be a difficult life, and I shall bring him blind to the assembly on the Day of Resurrection" (Surah 20, Vrs. 123 - 124).

The Immortality of Islam

So far it has been established that Islam is the religion of God and His guidance to His creatures designed for their sake from the very beginning of the creation and sent to them with His messengers to call the people to it and warn them against opposing it or turning away from it. It is also established that God is *the* Alive and *the* Eternal, and that eternity and intrinsic mercy belong to Him. So Islam, regarding its source and ordainer, namely, God, Who sent His messengers with it when it was first revealed and when it was finally perfected, is as everlasting as the mercy of God upon His people. And since the mercy of God upon His people is everlasting and incessant, it is only natural that Islam which is the manifestation of God's mercy cannot be but everlasting and incessant. This is the first conceivable thing in search for the element of immortality in Islam.

Islam Guarantees Personal and Social happiness:

So if we believe in this conclusion and are convinced of it as an element in the immortality of Islam, as emanting from God, *the* Merciful, *the* Eternal and Everlasting, we are to reflect upon the teachings of Islam and find out the extent of thier relation to the happiness of man. Thus if we take this view and examine the teachings of Islam in general or in detail, we shall see that Islam is the best system to guarantee the

It is appropriate for us to consider these verses in the light of the other ones in which God says: "O you who believe! Observe your duty to God with right observance, and die not save as those who have chosen to be muslims" (Surah 3, V. 102). This contrast is to show us that the word of the early messengers of God is the same as that of the later of them and that their way is the same, and *the* religion is Islam. "say: O people of the Scripture (Jews and christians)! come to an agreement between us and you: that we shall worship none but God, and that we shall, ascribe no partner to Him, and that none of us shall take others for lords besides God. And if they turn away, then say: Bear witness that we are they who have chosen Islam" (Surah 3, V. 64).

In addition to these verses we may mention others by which God makes reference as to how Judaism and Christianity were invented and how the religious bond of unity between them was dissolved. He says: "Abraham was not a Jew, nor was he a Christian; but he was an upright man, a Muslim, who had surrendered (to God), and he was not of the idolaters" (Surah V. 67). "And they say: Be Jews or Christians, then you will be rightly guided. Say (to them O Muhammad): Nay, but (we follow) the religion of Abraham, the upright, and he was not of the idolaters. Say (O Muslims): We believe in God and that which was revealed to us and that which was revealed to Abraham, and Ishmael, and Isac, and Jacob, and the tribes, and that which Moses and Jesus received, and that which the prophets received from their Lord. We make no distinction between any of them, and to Him we have surrendered (become Muslims). And if they believe in the like of that which you believe, then they are rightly guided. But if they turn away, then they are in Schism, and God will suffice you (for defence) against them. He is the Hearer, the Knower. (We follow) the way of God, and who is better than God at guiding to the right way? We are His worshippers" (Surah 2, Vrs. 135 - 138).

These verses and many like in the Glorious Qur'an unequivocally explain to us that the religion with God is Islam which was advocated by the first messenger of God and the last one alike. In the beginning it was voiced by the first messenger and later was perfected by the last one "This day have I perfected your religion for you and completed my favour unto you, and have chosen for you as religion Islam" (Surah 5, Vrs. 3).

It is inconceivable that God, the

wondered saying: had it not been for the place of that particular brick, (the house would have been perfect). I am the missing brick, and I am the last prophet".

In the Qur'an there are many arguments to prove the sameness of religion. God made a covenant with every prophet to support his successors as well as his predecessors by virtue of confirming their messages as true and the same as his own message, so that every prophet could do his share in the advocation of the same call. The Qur'an says: When God made (His) covenant with the Prophets, (He Said): Behold that which I have given you of the Scripture and knowledge. And afterward there will come to you a messenger, confirming that you possess. You shall believe in him and you shall help him, He Said: Do you agree, and will you take up My burden (which I lay upon you) in this (matter) ? They answered: We agree. He Said: Then bear you witness and I will be a witness with you. Then whosoever after this shall return away they will be miscreants. How do they seek other than the religion of God, when to Him submitts whosoever is in the heavens and the earth, willingly or unwillingly, and to Him they will be returned. Say (O Muhammad): We believe in God and that which is revealed to us and that which was revealed to Abraham and Ishamel and Isac and Jacob and the tribes, and that which was vouchsafed to Moses and Jesus and the prophets from their Lord. We make no distinction between any of them, and to Him we have submitted. And whoso seeks as religion other than Islám it will not be accepted from him, and he will be a loser in the Hereafter (Surah 3 Verses 81 - 85).

It is clear from this very vers that the religion of God is one and the same, and that the religion of God is Islam. " Surely the religion with God is Islam. And those who formerly received the Scripture differed only after knowledge came to them through transgression among themselves. (Surah 3, V. 19).

" And who forsakes the religion of Abraham save him who befools himself ? Verily We chose him in the world, and surely in the Hereafter he is among the righteous. When his Lord said to him: Surrender (be a Muslim) ! he said: I have surrendered to the Lord of the Worlds. The same did Abraham enjoin upon his sons, and also Jacob, (saying): O my sons ! Surely God has chosen for you the (true) religion; therefore die not save as men who have surrendered (to Him ", viz., been Muslims. Surah 2, Vrs. 130 - 132).

understood and how its course is to be conducted has made the people lose their personality and miss their prestige. Likewise, the difference of opinions concerning the understanding of religion as regards its truth, its purpose and its source has dissociated the people. Nay, it has created antagonism and caused war as well as spite among all mankind. Hence they have broken off the human, common kinship and turned the one guidance of God, which He revealed to rightly guide His creatures, into different trends and conflicting religions. To create these different trends and conflictfng religions they arbitrarily subjugated the one guidance of God to traditions which they fabricated or nationalities to which they fanaticaly adhered or to policies which they adopted. The inescapable product of this was the emergence in the minds of people of Judaism, Christianity and Islam which God revealed to Moses, Jesus and Muhammad respectively. Each of these three faiths have certain teachings adhered to by zealous followers who have faught for it and antagonized others for its sake.

As a result there have existed various religions on earth and the one guidance of God has been given by man disharmonious forms, in spite of the fact that the Divine religion of God is one with no specific Judaism or particluar Christianity in it. It is one religion and one guidance with one system derived from one source which is God, the Master of the heavens and the earth and the Lord of all mankind.

Islam is the Religion in the Sight of God

Contray to what many people think, Islam is not a new religion. According to the Glorious Qur'an it is the religion of God which He successively revealed to all His messengers from the very first to the very last to awaken the people of different mentalities and organize their communities in the light of their various circumstances.

When humanity was mentally and intelligently prepared, God sent Muhammad to renew the call of his previous brother-messengers, to confirm its truth and perfect it with what human adulthood and mental maturity required. Thus the messengers of God were, as Muhammad attested, like masons of one house, seekers of the same kind of happiness and advocates of the same call. Muhammad said: "My position compared to that of the prophets before me is like the position of a man who built a house; completed it and gave it the final touch except a place of one brick which was left untouched. Then people came in and

The Source of Immortality in Islam

by

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of al-Azhar University

It is indispensable for the nation to have a moral personality to maintain its moral entity just as it is to have a tangible personality to preserve its tangible existence. The latter personality derives from the fact that the natives of the nation settle on its territories, utilize its land and air and bear its name; whereas the former personality goes back to the feeling of the natives concerning their position and rule in life and to their attitude toward this rule.

There is no doubt that when the moral personality of the nation weakens or ceases to exist the very moral entity of that nation also weakens or ceases to exist. Consequently the nation falls down to humiliation even in its own territories, suffers from poverty even if the *manna* and *quails* be sent down on it, and gives a little impression even if its inhabitants be enormous. Such a nation, as the Messenger of God rightly said, will be too weak to stand any encroachment and will be an easy temptation to other nations of moral personality.

How to maintain the Personality of the Nation:

The danger of disunity of opinions and dissociation of hearts, when inflicted upon nations, make the people lose their personality and lead them to utter destruction, even though they may be going and coming, moving and standing. And there can be no protection against such a danger unless the wise leaders and intelligentsia of the nation hasten to harmonize the opinions of the people and endeavour to make them unanimous in such a manner as to feel genuine participants in one kinship which they jointly admit its rights and willingly undertake its duties. As a result of this the feelings and opinions of the people will become united and their hearts will be closely associated. Also their goal, which is the dignity and strength of the nation and maintenance of its personality and for which they all endeavour, will become concrete and clear.

In our present age the difference of opinions as to how life should be

the form ot the Islamic principles which stand opposite to the heinous actions and prevailing traditions of the Pre-Islamic era. It is the parallel of war justifiably ordained after the declaration of Islam. It is equivalent to greatening God as most Magnificent at the opening of prayers. The combination by Islam of greatening God, which is the symbol of power, and saying peace, which is the symbol of mercy, is good evidence that this kind of power which Islam demands is the power of wisdom and justice, not of insanity and injustice. It is a dual power or a power inclusive of two implicit sub-powers of which one combats tyranny and aggsession while the other resists egoism and injustice.

Thus the Muslim opens his prayers with greatening God which means devotion and submission to Him, and ends them with a declaration of peace which means security and mercy. After all, " peace be upon you ", is the greeting of the Muslim to his Prophet in prayers and to his co-religionists whenever he meets them. He utters this greeting to assure them of security from his side and make them, through his affection, have confidence in him.

So you see that the sane and useful power, which produces dignity and manliness as well as liberty and justice, is the nature and course of Islam. The concept of Islam in Muhammad and his successors Abu Bakr and Umar was based on this principle, and the concept of Arabism in Khalid, Saad and Amr (all were Muslim commandors) was consistent with this rule. Arabs and Muslims of that time bore the Qur'an for the sake of truth and carried the sword for the sake of right. Their califs were leaders of prayers as well as commandors in battle-fields. In the sphere of power they reached a high degree that made them respectable and counted for and made the Letter of Haroun al-Rashid to Nechfour more effective than a formidable army. Conversely, in the sphere of manliness they reached such a standard that obliged al-Mutasim, the Abbasid Calif, to send an army especially for the rescue of a frightened woman in a remote place.

So whoever is not strong in his will and his self, not well-prepared to meet the enemy not, a firm believer in unity, and not careful about his society and nationalism, is a nominal Muslim without Islam and an artificial Arab without Arabism.

bodily cleanliness by ablution, a spiritual purification through the remembrance of God and a physical exercise by motion. Likewise, alms-giving strengthens the weak through charity, increases the wealth by its purification and consolidates the community by virtue of co-operation. Moreover, pilgrimage is a social force originating from getting acquainted and being friendly with other pilgrims. It is a political force based on making consultations and alliances. It is also an economical foree built on purchasing and marketing. Had Islam not been empowered with spiritual force in prayers, with economical force in olms - giving, with soeial force in pilgrimage and with material force in war, Muslims would not have been able to conquer most parts of the Antient World and become sovereign in the major areas of Africa and Asia, and in the frontiers of West and East Europe.

The second slogan, " There is no deity but God ", is the expression of monotheism which is a substantial principle in Islam and one of its major beliefs. It is originally meant to declare the unity of God and then, by necessity, establish the unity of Muslims and their *Qiblah* (prayer niche), their aims and their language, their government and their constitution, and finally to combine life and religion. It is one of the most comprehensive expressions which maintain the substance of reform and the secret of success of societies and nations; because the most effective means of power and conformity is unity and association which are the essence of the Islamic call.

Unity is the foundation on which solid societies are built. So the policy of Islam wss drawn in such a way as to preserve power through unity and be keen on keeping the survival of society. Hence the individual who disbelieves in the unity of faith and of the nation is to be killed, and the group which transgresses against the Muslim society is to be faught, and the ruler who misleads his people is to be deposed. And because of this conception of unity and association, prayer is best and most rewarding when performed in groups which are summoned five times every day, and which grow larger on the Friday's congregations and become still much larger on the occasion of the two annual feasts of Islam. These groups devotedly gather in services throughout the year on the mentioned occasions and reach the utmost possible enormity in the season of pilgrimage which takes place once a year and which every able Muslim should make one time, at least, in his life.

Let us now consider the third slogan, " peace be upon you". It is

These scattered forms of power gather and centralize in three formulas with three slogans: The power of the individual through faith the slogan of which is " God is Most Great", the power of community by means of solidarity the slogan of which is " there is no deity but God " and the power of the world through affection the slogan of which is " peace be upon you ". The utterance fo glorifying God as Most Great and of extending peace is the appeal of the Muslim in his prayers as well as in his calls for prayers (al - adhan). It is his principle in actions and dealings. And one does not find a short representation of the meanings and aims of Islam better than these three slogans.

The sentence " God is Most Great " implies the secrets of belief, of holy and justifiable war (al-jihad), of sacrifice and of victory. And because it implies all these secrets it has been a fundamental pillar of prayers with which the Muslim opens his worship and which he repeats in his bowing (ruku') and prostration (sugud), in his standing and sitting. It is also a cry of enthusiasm which the warrior in the way of God utters when he launches an attack to make him aspire to victory and disdain danger. The cry has often been as follows: " God is Most Great ! He helped in conquest and gave victory". But when victory is attained and conquest is achieved, this cry turns to be a national anthem uttered by warriors in every mosque and recited by worshippers on every feast as they chant: " God is Most Great. Much praise be to Him. There is no deity but God only. He has fulfilled His promise and given victory to His bondmen, and only He has defeated the clans ".

The Power in this statement is derived from the Muslim's belief that God is most great, most powerful and most sublime. So, in custody of this belief the Muslim attacks formidable armies and undertakes dangerous tasks without fear, — and how can he be afraid of harm or perplexed by danger while God, who has utmost power and authority, defends him from behind and guards him from before ?

The declaration that God is Most Great is in reality an expression of what is in the mind of glorifying the highest ideal and admiring the most perfect action. Thus we glorify God when our hearts are filled with His greatness and when we are deeply impressed by His creation we glorify God everyday when we call for prayers and when we pray; because Islam with its five pillars is based on power or on what produces power. Hence prayer is a means o

THE THREE POWERS OF ISLAM

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in - Chief

Islam is the religion of "power". It cannot be otherwise; because its promulgator is the Almighty God, and its conveyer is Muhammad, the determined and faithful patient messenger, and its Scripture is the inimitatable Qur'an which stands as an undefeatable challenge to everybody, and its tongue is the Arabic tongue which eloquently silences every other tongue, and its courageous commandors, who took after Khalid Ibn al-Walid the ever triumphant commandor, defeated with their sword the Roman and Persian emperors, and its caliphs, who followed the example of Umar Ibn al-Khattab, built their thrones on the sumits of the East and the West.

Islam is power in the mind, power in the tongue, power in the hand and, finally, power in the spirit. It is power in the mind because it enjoins upon it to hold monotheism by proof, to correct the law with evidence, to broaden textual meanings with sound judgement and to deepen faith through meditation.

It is power in the tongue because eloquence is its miracle as well as its instrument, and eloquence itself gives power to ideas, sentiments and expressions.

It is power in the hand because its Revealer is the Wise and the Aware, who knows that the mind with its intrinsic power and the tongue with its spontaneous eloquence cannot substitute for truth, if the perception be vague and the self be arbitrary and the sight be blind. So He has rendered material power a safeguard to His word, a summoner to His truth, a realization of His verdict and a supporter to His law. He commands Muslims to fight in the way of His and their religion, to prepare force and frighten His and their enemy, and to meet aggression with a like action.

Besides all that, Islam is power in the spirit because it purifies its essence by virtue of fasting, prayers, training in self - denial and solitude for worship and meditation.

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث — ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ — سبتمبر سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادى والثلاثون

الفهرس

ذكرى مولد الرسول

من المهود المظلمة أشرق نور الله

بقلم: أحمد حسن الزيات

ولد الكليم موسى بن عمران فى مهد قلق يساوره الخوف والترقب ، ثم أخفته أمه عن عيون فرعون فى تنور ، ثم ألقته فى الماء وتركته للأقدار فى صندوق ، ثم نجاه الله من الحرق والغرق والتيه ؛ ليتلقى الألواح منه على جبل الطور .

وولد المسيح عيسى بن مريم فى العراء تحت جذع النخلة على الثرى المرمل ، ثم وضعته أمه الهاربة فى مهد خشن من مذود بهيم ، ثم آتاه الله الكتاب والنبوة والبركة فنشرها فى المشرقين من فوق جبل الزيتون ! .

وولد المصطفى محمد بن عبد الله فى مهد اليتم والعدم لا يجد الدفء كمن له أم ، ولا العطف كمن له أب ، ولا اللبن كمن له مال ، ثم رعى على بعض أهله ، وسعى بمال زوجه ، ودعا إلى سبيل ربه ، ثم نزل عليه الروح الأمين بالرسالة الخالدة فى غار حراء من جبل النور ! .

* * *

تبارك الله ما أجل شأنه وأعز حكمه ! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا من هذه المهود المتواضعة ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذه النفوس الوادعة ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع فى العقول ، وكلمته أعلق بالأفئدة ، ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة ، والتبس على الناس فعل القدرة .

من المهود الفقيرة النابية اختار الله - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - أنبياءه ورسله ، ثم أيدهم بالمعجزات إيجابا للحق ، وأمدهم بالآيات إرهابا للباطل ، فجاهدوا الشرك ، وحاربوا الفساد ، وهيئوا الأرض لغراس الخير ووجهوا الإنسان إلى طريق الكمال ، وأعدوا الأذهان لتقبل الرسالة الأخيرة والدعوة العامة : رسالة الحقائق والبراهين ، لا رسالة الخوارق والقرابين . ودعوة العالم المعمور والزمان المؤبد ، لا دعوة المكان المحصور والزمان المحدد .

والمعجزات إنما كانت الدليل على الحق والسبيل إلى الله أيام كان الحس أقوى من العقل ، والسذاجة أغلب على الفكر ، فلما

انجابت عن البصائر أغشية الجهل من طول ما وعظ الأنبياء وعلم الحكماء ومحصت العبر، أصبح الوحي علما والإلهام حكما والبينات فهما والدعوة منطقا والرسالة شريعة ، وأصبح محمد اليتيم العديم الأمي مثلا للإنسانية الصاعدة في طورها المفكر المعبر، يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة والمجادلة اللينة ، ولا برهان إلا كتاب ربه ، ولا سلطان إلا إيمان قلبه : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ » .

والواقع المأثور أنك تقرأ سير الأنبياء وتواريخ الرسل فلا يروعك فيها إلا سلسلة من المعجزات والآيات تؤيد النبي أو تصدق الرسول في مواقف إقناعه أو دفاعه أو شدته ؛ إلا محمدا صلوات الله عليه فقد آتاه الله مواهب الكمال الإنساني فميزه بالخلق العظيم والرجولة الكاملة والشخصية المهيمنة ، فكان في ذاته معجزة وفي صفاته آية . تألبت عليه عناصر الشرك فأصيب في بدنه ، واتهم في عقله ، وأوذي في أهله ، وعذب في صحبه ، وحورب في دعوته ، فما قابل ذلك العدوان الباغي إلا بعزمة الإنسان الأعلى ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأي ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ؛ وكل هذه الأمور إنما تصدر عن براعة الذهن وإعجاز البطولة . وتلك مزيته الظاهرة على أصحاب الرسالات ؛ إذ كان كل نبي وكل رسول إنما يبين شأوه على قومه في بعض المزايا إلا الرسول العربي فقد تم فيه ما نقص في غيره من كمال العبقرية ، فكان رسولا في الدين ، وعلما في البلاغة ، ودستورا في السياسة ، وإماما في التشريع ، وقائدا في الحرب .

ثم كان في غار حراء ، وفي دار الأرقم ، وفي جبل ثور ، وفي دار أبي أيوب ، وفي المسجد الجامع ، مظهرا صحيحا لروح الله ، وإعلانا صريحا لسر الدين ، ومثالا عاليا لصدق الجهاد ، واحتمالا ساميا لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس .

* * *

إن حياة الرسول قانون إلهي خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا ، وإن وسائل الجهاد التي جدد عليها أسلوب العيش ، وأقام بها ميزان المجتمع ، لا تزال عناوين ضخمة في صفحات العلم والسياسة والخلق .

كانت حياته صلوات الله عليه قائمة على الزهد والجهد ، وزعامته دائرة على التضامن والتعاون . ملك الحجاز ونجدا واليمن ، وجبي

الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالى طاوين لا يجدون العشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون نارا ، إن هو إلا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم فى الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، وإذا أقبل على أصحابه فقاموا اله إجلالا قال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

وكان ذات مرة فى سفر ، فأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : علىّ ذبحها ، وقال ثان : علىّ سلخها ، وقال ثالث : علىّ طبخها ، فقال الرسول عليه صلاة ربه وسلامه : وعلىّ جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله ، إنا نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفوننى إياه ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم . ولما استعز دين الله بقاسم الفىء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن إنما هى سر الخالق العظيم . استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ، ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

أما شخصيته فكانت أبلغ ما فى رجولته . خضعت لها الرءوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ من صناديد العرب ، فكانوا يسمتون سمته فى الخلال ، وينهجون نهجه فى العيش ، ويأخذون إخذه فى المعاملة ، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعا لا يخرقه إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، وأحكامه أقضية تنفذ .

لذلك نذكره فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . نذكر اسمه مع اسم الله لا تعبداً به ، فإن الشرك معاذ الله لا يكون غير هذا . إنما نذكر الله ونذكر بعده محمداً كما تذكر القاعدة ومعها المثل ، أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحى والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويشرع وهو يطبق . فذكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هى القدرة . وذكر الرسول استحضار لأقواله وأفعاله وتلك هى القدوة .

* * *

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة .

احمد حسن الزيات

تحدى الإله ومعناه

للأستاذ عباس محمود العقاد

من أنباء الملاحدة الماركسيين أن أحدهم وقف فى إحدى محطات الإذاعة فنادى «الله» ، إنه ليتحداه إن كان موجوداً لينسفن هذا البلد وليمحون تلك الدولة ، أو فليعلم الناس جميعاً أنه خرافة ليس لها وجود .

إن هذا الملحد المتحدى لا يفهم ما يفهمه الناس من كلامه بغير حاجة إلى التأويل الطويل .

إنهم يفهمون منه مبلغ ما يدركه الملحد الماركسى من معنى الربوبية ومعنى القدرة ومعنى « السلطة » على التعميم .

فهو لا يفهم من تحديه الإله على هذا الوجه إلا أن الإلهية سلطة غاشمة يثيرها التحدى فلا يسعها إلا أن تظهر قدرتها أو تنزل عن كل حق فى إثبات وجودها .

فهذا الملحد الماركسى لا يعقل أن يوجد الإله ويقدر على كل شىء ثم يترك من يتحداه سليما بعد ذلك طرفة عين ، دون أن ينكل به ويعجل برد تحديه إليه .

وما الذى يمنع السلطة الغاشمة أن تبطش بمن ينكرها ؟ .

لا يمنعها عنده إلا مانع واحد، وهو أنها كما قال ذلك الملحد الماركسى خرافة ، ليس لها وجود .

هذا الفهم الوحيد الذى يفهمه لمعنى الإلهية من يفوه بذلك التحدى على مسمع من العالم ، وهو يحسب أنه قد أفحم به من يؤمنون بالله .

وإلا فكيف يفوه بذلك التحدى عاقل يفهم أن الإلهية « سلطة » لها نظام ولها حكمة ولها مشيئة تتبعها ولا تنحرف عنها لاستثارة أو استرضاء ؟ .

من كان يؤمن بأن الإلهية سلطة لها نظامها وحكمتها فمن اليسير عليه أن يعلم أنه لا يهزها بتحديه فيخرجها من ذلك النظام ويذهلها عن تلك الحكمة .

وقد يسع الطفل الصغير أن يكف عن مثل هذا التحدى لأبيه إذا عرف له صفة من صفات العقل والحكمة ، فليس بالطفل الذكى من يقول لأبيه : إن كان لك قدرة فاضرب فلاناً حتى يهلك أو انهض بهذا الحمل حتى آذن لك بإلقائه . !

فمن اليسير على الطفل الذكى أن يدرك أن أباه خليق ألا يجيب هذا التحدى على هواه ، ولا ينفى ذلك عنه أنه ذو قدرة وأنه يستطيع أن يهلك بها فلاناً وأن ينهض بالحمل المقصود إذا أراد .

فالملحد الماركسى أسخف من الطفل حين يخطر له أن يتحدى إلها حكيما يضع الأشياء فى مواضعها كما يقدرها فيزعم أنه «غير موجود»، لأنه لو كان موجوداً لأبطل تلك الحكمة وأوقع الخلل فى ملكه؛ خوفاً من الريب فى وجوده، وفراراً من الملحدين أو المؤمنين أن يظنوا به الظنون.

ومن كان يفهم الإلاهية على أنها سلطة رشيدة فلن يتحداها أن تفعل غير ما أرادت أن تفعله منذ الأزل، وغير ما تريد أن تفعله إلى آخر الزمان؛ لأنه إذا استطاع بكلمة من كلمات التحدى والاستثارة أن يغير ما تأبى تغييره فذلك هو البرهان الذى ينفى وجودها أو ينفى حكمتها على أقرب الفروض.

فلو شاء الله أن ينكشف وجوده للفكر والضمير كما تنكشف الأشياء لجميع الأبصار لفعل ذلك بإرادته منذ وجدت الأفكار والضمائر والأبصار ولم ينتظر حتى يفعله منقاداً للخوف من الاتهام أو طمعاً فى التمليق والثناء.

ولقد يحق للملحد الماركسى أن يسأل فى هذا المقام: ولم لا يشاء؟ ولم يترك الناس ينكرون ويثبتون أو يبحثون ويرتابون؟ ولم لا يكشف لنا جميعاً حقيقة وجوده على نحو يبطل فيه الخلاف وتزول الفوارق ويمتنع الشك والضلال؟.

إن هذه الأسئلة أقرب إلى العقل من ذلك التحدى الأحمق الذى يثبت حماقة صاحبه ولا ينفى حكمة الإله.

ولكنها أسئلة لا تحتمل اللجاجة فيها بعد قليل من التبصر والروية، بل بعد قليل من التصور إذا استطاع السائلون أن يتصوروا كيف يكون هذا الإيمان، وكيف تكون الضمائر التى تهتدى إليه.

إنها لا تكون إلا كما تكون الآلات أوكما تكون العجماوات.

إن العلم بوجود الله كما نعلم بوجود المنظورات بالعين يلغى الضمائر والعقول، ويبطل جهود النفس الإنسانية فى امتحان الخير والشر والهداية والضلال.

والمعرفة بحاسة البصر معرفة يتساوى فيها الإدراك كما يتساوى إدراك الآلة وإدراك الحيوان، فهل هذه هى المعرفة التى تليق بالإنسان المسئول عن ضميره، الباحث عن هدايته المترقى بسعيه واجتهاده؟ وهل يطلبون أن يتساوى الناس فى مدركات الضمير وحدها أو يطلبون أن يتساووا فى مدركات الحواس وملكات الأجسام والأفهام ومقادير الأعمار والأيام؟ وهل هذا العالم الإنسانى الذى يتألف من نسخة واحدة متكررة هو عندهم عالم المثال المنشود، وهو العالم الذى تثبت به حكمة الله ووجوده ويستقيم عليه أمر الوجود؟

إن أهون ذرة من التراب لا تعطينا حقيقتها

الكاملة فى لمحة عين ، ولا نستغنى فى عرفانها والانتفاع بها عن جهود العمل والتفكير والتحليل لندرك منها بعض مايدرك ولا نقول كل ما يدرك ، لأننا نجهل كنه الذرة الترابية وغير الترابية حتى الآن ، ولعلنا سنجهل هذا الكنه فى قراره ومداه إلى أن يشاء الله .

ويحدث هذا ولا يرى فيه الملحدون الماركسيون عجبا منكرا ولاشذوذا عن الوضع الصحيح والرأى السديد ، بل يقيسون التقدم الذى يدعونه بمقدار ما حصلوه ويحصلونه من هذه الحقائق ولو كانت معلقة بأهون الأشياء .

وإن الشمس على جلائها لتخفى عليهم الآن بعد أن خفيت على الأقدمين دهورا بعد دهور ، ولقد كانوا يحسبونها كقرص الغربال فأصبحوا يعرفون اليوم أنها أكبر من الأرض والقمر والسيارات ، وكانوا يحسبونها تدور فأصبحوا يعلمون أن الأرض هى التى تدور ، وكانوا يجهلون سرعتها ومسافاتها فأصبحوا يعلمون الآن كم هى بالدقائق وكم هى بالأميال .

إلا أنهم لا يزالون يجهلون منها أضعاف ما عرفوه ، ولا يزالون يبحثون عن مصدر حرارتها فيخلطون بين النقيضين ويزعمون مرة أنه من تكوين العناصر ومرة أخرى أنه من تفتيت العناصر وانشقاقها ، ولايدرون على التحقيق هل يندفع اللهب من باطنها إلى ظاهرها أو يرتد من ظاهرها إلى جوفها ، ولا يستغربون من نظام الكون أن تكون شمسه الساطعة بهذا الخفاء وأن تحار فيها العقول هذه الحيرة ، وهى أم الضياء .

فما بالهم يريدون من الحقيقة الإلاهية أن تكون أقرب منالا من حقائق هذه الكائنات التى لا يدعون لها عظمة الربوبية ولا جلالة الأبدية !.

وما بالهم ينتظرون من حقيقة الحقائق أن تحيط بها لمحة عين ، ويستكثرون السعى إلى غاية الحقائق ولا يستكثرون السعى إلى أقرب الحقائق من متناول الأسماع والأبصار ! .

إن العلم بوجود الله مطلوب ، ولكنه علم لا قيمة له إذا كان يلغى العقول ويعطل الضمائر ويبذل لمخلوق لا فضل له فى إدراك أقرب الحقائق وأبعدها على الآلة والحيوان .

وقبل أن ينتقد الناقد ما ينتقد من هذه العظائم الجلى عليه أن يتعلم كيف يقترح وكيف يصحح ما ينقده ولا يرتضيه .

إن بحث العقول والضمائر عن الله منتقد عندهم وغير مفهوم .

فلننقل ما يقولون هنيهة لنسألهم : وما هو المفهوم المنزه عن الانتقاد ؟ أهو إدراك الله بغير بحث ؟ أهو الاستغناء عن البحث فى أمر الله وحده أو فى جميع الأمور ؟ وهل عندهم أن الإله الموجود الحكيم هو الإله الذى تقاد

مخلوقاته إلى الحقائق الكبرى أو الصغرى بحبال الغريزة على غير فهم ، ولا محاولة ولا تمييز بين مايظهر ومايخفى ، وبين ما يكبر وما يصغر ، وبين ما تتصرف فيه المدارك وما يسلبها التصرف والاختيار ؟ .

أهذا عندهم هو الإله الموجود الحكيم ؟

تعالى الله عما يصفون ! .

فما من شيء هو أثبت لوجود الله من تنزيه مخلوقاته عن هذا العطل فى العقول والضمائر ، وما نتحداهم أن يؤمنوا وهم غير أهل للإيمان ، وإنما نتحداهم أن يتصوروا إلها حقيقا بالعبادة على الصورة المرتضاة لديهم . فإنهم ليعلمون إذا راغمين أن الإله الذى لا يستحق البحث هو الإله الذى يأباه العقل السليم ، وأن الإله الذى نبحث عنه لهو هو الإله الموجود ؟

عباس محمود العقاد

العرب قبل مبعث الرسول

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ، وأحياء من غير غرض . فاغتمت فى نفوسهم الحياة ، وزخرت فى صدورهم القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لاينقطع وصراع لا يفتر . فحمل إليهم وحده رسالة الله لايسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا يمهد له مال ، فنفروا منها نفور الوحش المروع ؛ ثم رأوا فيها سيادة لأسرة ، وخضوعا لقانون ، وخروجا على عرف ، فقابلوها بالفساد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالكيد ، آذوا الرسول فى أهله وفى صحبه وفى نفسه فما وهن عزمه ولا لانت قناته ، وإنما قابل الأذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة باللين ، وهذا هو الخلق . ثم قارع الجدال بالتحدى ، والمكابرة بالسيف ، وهذه هى الرجولة .

وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب . وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم .

ا . ح . الزيات

الدين في حياة الإنسان

للأستاذ الدكتور محمد البهى

١ — تطور الإنسان من حياة الغابة والغاب ، إلى حياة القانون أوحياة المدنية ؛ تطور من حياة القوة المادية ، وتحكيمها فى فض الخصومات واستقرار الأوضاع ، إلى الالتجاء إلى القانون فى الفصل فى النزاع وتحديد العلاقات .

فالنقطة الأولى التى منها بداية الحياة الإنسانية كانت الغلبة عن طريق العصبية فى الأسرة والقبيلة والكثرة العددية فى الجماعة. والنقطة التى تسود حياة اليوم هى موازين العدل الإنسانى التى تمثلها فكرة القانون البشرى. وبين هاتين النقطتين فى تطور الحياة الإنسانية كان الدين ، وكانت الفلسفة ، كل منهما مثل الدور الأول فى فترة معينة فى تاريخ الإنسانية ، ولم يزل يمثل دوراً ما للآن.

انتهت مرحلة الغاب بسيطرة الدين ، ثم نازعت الفلسفة سيادة الدين ، ثم قيض للقانون أن يشترك فى الصراع بين الدين والفلسفة فى توجيه الإنسان ، وأصبحت فى حياة الإنسان المعاصر ثلاثة اتجاهات ، تتنازع أولا البقاء بينها ، ثم يحاول بالتالى كل واحد منها أن يسود فى تقرير مصير الإنسان . أصبح الدين ، والفلسفة ، والقانون ثلاثتهم جميعاً هى المصادر التى يحارب بعضها بعضاً من أجل البقاء والسيادة . والفرق بينها يتركز : فى أن الدين ينسب إلى الله المعبود ، بينما الفلسفة والقانون كلاهما يعد من صنعة الإنسان .

أما غاية كل واحد من الثلاثة فلا تكاد تختلف عن غاية الآخر : فالدين يهدف إلى توضيح الطريق الذى يرى فيه سلامة البشرية فى التعايش معاً . والفلسفة تحاول ذلك ، والقانون بدوره يقوم على حفظ الحال التى تراها الجماعة الخاصة ، أو المجموعة الدولية، كفيلة بصيانة التعايش المشترك ، والتعاون المثمر .

ولكل مصدر من هذه المصادر التوجيهية نفر خصص وقته وحياته لتوضيح القيمة الذاتية للمصدر الذى ينتسب إليه ، على اعتبار أنه وحده كفيل بالتوجيه السليم ، وبتحقيق الغاية المرجوة فى حياة الجماعة الإنسانية : للدين طائفة تبين مزاياه ، وللفلسفة طائفة توضح مزاياها ، وللقانون

طائفة تحرص على بيان مزاياه فى التوجيه العام .

الدين قد يصبح فلسفة ، وقد يصبح قانونا وتشريعا :

الدين قد يصبح فلسفة إذا حاول العقل الإنسانى أن يبرر ويعلل مبادئه من الوجهة النظرية العقلية . فليست الفلسفة إلا التعليل العقلى للموجود . فإذا علل الموجود من مبادئ الدين ، فقد دخلت هذه المبادئ فى نطاق العمل الفلسفى .

وقد يصبح الدين أيضا قانونا إذا أخذ فى تطبيق مبادئه على أحداث الحياة ،وسلوك الإنسان ، ووصفت الأحداث ، أو وصف السلوك الإنسانى بأنه يطابق تلك المبادئ . وعندما يؤخذ فى تطبيق مبادئ الدين على أحداث الحياة وسلوك الإنسان ، لا يكتفى فى التطبيق بحكم مجرد عن التعليل . بل لابد من التفقه ، وشرح المبادئ نفسها ، ثم شرح النوع الملائم وغير الملائم لها من أحداث الحياة وسلوك الإنسان . فهذا التفقه أو هذا الشرح هو القانون الذى ينتزع من الدين . أو صار الدين إليه .

والدين إذا أصبح فلسفة أرضى رجال العقل والفلسفة ، وإذا أصبح قانونا جذب إليه رجال الفقه والقانون . ومع أنه يمكن أن يصبح فلسفة ، فإنه لا يتحول إلى فلسفة كتلك التى أنشأها الإنسان بصنعته العقلية بادئ ذى بدء . ومع أنه أيضاً يمكن أن يصبح قانونا فإنه لا يتحول إلى قانون كهذا الذى شرعه الإنسان ووضعه بتقديره الخاص منذ البداية . بل تبقى لفلسفة الدين ، وقانون الدين ، خصائص الدين أو طابعه العام . وخصائص الدين أو طابعه العام أنه موحى به من الله ،وأن على الإنسان أن يؤمن به ، وأن يطيعه فى غير تردد ، وفى غير شك . عليه أن يرضى به رضاء نفسياً ، وإن لم يدرك كل أسراره وعلله ، لأنه من الله الذى يختلف عن الإنسان ، وفوق الإنسان ، هو من صاحب الأمر ، وصاحب الرعاية العامة ، والذى لا يستطيع الإنسان أن يحدده ويدرك حقيقة ذاته عند ما يتصوره .

والفلسفة قد تصبح عقيدة ، وقد يصبح القانون عقيدة أيضاً ، ولكن إذا أصبحت الفلسفة أو القانون عقيدة ، فإنه لا يصير إلى طبيعة الدين السابقة ، وإنما يصير إلى طبيعة التقليد أو « العرف » فى الجماعة ، لا يصير أحدهما إلى طبيعة الدين لأنه صنعة الإنسان وسيبقى كونه من فعل البشر مصاحبا له فى صيرورته . وإنما يصير فقط إلى طبيعة

التقليد ، أو طبيعة العرف فى الجماعة من حيث إنه واجب الاتباع . فقد أصبح عندئذ من المتوارث والمألوف فى الجماعة .

وإذن هناك فرق جوهرى بين الدين من جانب ، والفلسفة والقانون من جانب آخر . هناك فى جانب الدين كونه من الله ، وهنا فى جانب الفلسفة أو القانون كون كل واحد منهما من الإنسان . وإذا طلب الدين من الإنسان أن يفعل الخير ، وناشدت الفلسفة ، أو هدف القانون فى تطبيقه إلى الخير فى فعل الإنسان ، فالفرق مع ذلك باق بين الدين من جانب ، وبين الفلسفة والقانون من جانب آخر ، إذ مطلوب الدين ـ وهو فعل الخير ـ قائم على أنه من هداية الله ، بينما مطلوب الفلسفة أو القانون يرجع إلى أنه من تأمل الإنسان .

وهنا تنحصر الموازنة بين الله والإنسان فى تحديد الخير ، ورسم طريقه ، وتحديد الجزاء الذى يناط بفعله أو تركه : والله باعتبار أنه رب الجميع ، ومستغن عن الجميع ، ومستعل على الجميع ـ يحدد الخير بما فيه مصلحة الجميع ، ويرسم طريقه ، بما يكون ميسراً للجميع ، ويحدد الجزاء على فعله وتركه ، بما يناسب أثر هذا الخير فى صالح الناس جميعا ، ويلتئم مع طبيعة أنفسهم الغالبة .

وليس لله غرض ، وليست له حاجة قريبة أو بعيدة فى تحديد الخير الذى ينصح باتباعه . وكذلك لم يتأثر بأى مؤثر فى هذا التحديد . ولأنه يعلم طبيعة البشر حق العلم ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . يكون فيما يرسمه لطريق الخير ، متفقا تمام الاتفاق مع إمكانيات هذه الطبيعة ، كما يكون تحديده الجزاء ملائما كل الملاءمة لنفع هذه الطبيعة من فعل الخير ، ونفعها أيضاً من تجنب الضرر الذى نهى عنه .

أما الإنسان فى فلسفته وتقنينه فهو محدود بالبيئة ، ومحدود بالوراثة ، وبنوع الثقافة ونوع المعرفة ، فإنسان القرية غير إنسان المدينة فى إدراكه للحياة وتعبيره عنها . وإنسان الأسرة الصالحة غير إنسان الأسرة التى عاشت فى الانحراف أو الإجرام فى تصور القيم الأخلاقية والروابط الاجتماعية . والإنسان الجاهل فى تصوره واعتقاده غير المستنير فى إدراكه وفى إيمانه . وإنسان المعرفة من نوع خاص غير إنسان المعرفة من

نوع آخر : فالطبيب غير المهندس ، وكلاهما غير صاحب الثقافة الزراعية ، وجميعهم غير رجل المحاسبة . وهلم جرا . . .

وإذا كان محدودا بهذه المصادر فهو منفعل بها ، وتنعكس هي بالتالى فى سلوكه ، وفى تفكيره ، وفى تحديده للحياة وأهدافها . هو وليد هذه العوامل الثلاثة . فما يصدر عنه فى أى جانب ، فى التصرف والسلوك ، أو التفكير والحكم ، يكون تبلورا لهذه العوامل الثلاثة . وعليه : فالإنسان صاحب الفكر الفلسفى فى تحديد الخير : ما هو ؟ يتأثر بحياته الخاصة والعامة . وكذلك الشأن فى رسم الطريق لتحصيل الخير ، ومن هنا نجد بين الفلاسفة تحديدات متنوعة للخير ، وكثير منها يناقض بعضه بعضا ، كما نجد رسمهم لطريق تحصيل الخير ، لا يقل اختلافا فى التحديد ، عن تحديدهم الخير نفسه .

نجد من بين الفلاسفة من يفهم الخير على أنه ما لاءم المصلحة الشخصية . وتبعا لذلك : الإنسان نفسه مقياس الخير . هذا الإنسان يرى الخير فى تحصيل المتعة البدنية ، وإن صاحبها اغتصاب لما يملكه غيره ، أو ترتب على تحصيلها انتهاك حرمة عرض غيره .

وذاك الإنسان الآخر يرى أن الخير فى عزلة الناس والبعد عنهم ، وفى عزلة هذه الحياة عامة ، والاعتكاف عن ملذاتها وعما يتنافس فيه الناس من متعها .

فبمقدار ما يندفع الأول إلى تحصيل متع هذه الحياة ، التى يراها متعا من زاوية وجوده الشخصى ، بمقدار ما يقف الثانى موقفا سلبيا من هذه المتع ، والإنسان الأول هو الإنسان الشخصى أو الوجودى ، والثانى هو الزاهد البرهمى (أو الصوفى) .

وبينما نجد بين الفلاسفة أيضاً من يحدد الخير ، بأنه ما أصابت منفعته أكبر عدد ممكن من الناس ، وهو الفيلسوف المثالى ، إذا بنا نجد فيلسوفا آخر يحدد الخير ، بأنه : ما أصابت منفعته الجماعة الخاصة به أو بأمته وهو الفيلسوف الواقعى .

نجد من بين الفلاسفة من يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن توقف تحصيل المنفعة على الوشاية والمؤامرة ، أو على القتل جزافا وجملة ، أو انتهاك العرض ، فالوسيلة مشروعة : فحرب الإبادة فى الجزائر مثلا مشروع فى نظر المستعمر الفرنسى لأنه سيوصل إلى تمكين استعماره

هناك من استغلال ثروة البلاد الجزائرية الاقتصادية والبشرية . فتمكن الاستعمار غاية ، وهى غاية مشروعة لمصالح الاستعمار الفرنسى فالوسيلة لهذا التمكن الاستعمارى مشروعة كذلك بالتالى . وتأخذ مشروعيتها من النفع المترقب . إذ نجد مثل هذا الميكيافيللى ، نجد فيلسوفا آخر ينصح بعمل الواجب لذات الواجب ، بعمل ما يجب على الإنسان لصالح نفسه وصالح جماعته وصالح الإنسانية ، دون ترقب جزاء عليه ، ودون ترقب ثناء أدبى أو مكافأة مادية ، وهذا هو الفيلسوف الواجبى .

ترى من الفلاسفة من ينصح بإفناء الفرد فى الجماعة فتكبت حرية الفرد ، ويصادر ملكه ، ويجبر على تصرفه لصالح الجماعة التى هى الأمة . فالحياة إذاً للجماعة لا للأفراد . ثم نرى فى مقابل هذا فيلسوفا آخر يرى أن الجماعة يجب أن تكون فى خدمة الفرد ، وأن تعمل فى سبيل سعادة الفرد . فللفرد حريته فى التجارة ، وفى الاقتناء وفى إبداء الرأى وفى العقيدة وفى التمذهب بالمذهب الذى يراه فى حياته. له أن يعيش فى ظل عرف المجتمع وعاداته وله أن يخرج عن هذا العرف ، وهذه العادات. وسيان ، بعد ذلك فقر غيره ، أو شقوته ، أو جرح عواطفه ، وإحساساته . والرأى الأول يعرف بالمذهب الاجتماعى أو الاشتراكى ، والثانى يعرف بمذهب الحرية الفردية .

هذه أمثلة لاختلاف الفكر الفلسفى ، واختلاف المذاهب الفلسفية . ويرجع هذا الاختلاف إلى كون المفكر محدودا ، بحياته الخاصة والعامة .

وفى القانون لا يختلف الأمر عنه فى الفلسفة. لأن التقنين يقوم على أسس وفكر فلسفية . يقوم على نظرة المشرع (والمشرع هو الدولة فى العصر الحديث) إلى الحياة . ونظرة الدولة إلى الحياة تختلف باختلاف نظام الدولة نفسها:

هذه دولة شيوعية لها قانون يحفظ الوضع الشيوعى بين أفراد الأمة . وهذه دولة رأسمالية لها قانون يصون الحرية الفردية إلى أبعد حد فى استخدام رأس المال . وهذه دولة اشتراكية اجتماعية لها قانون ودستور يحدد علاقة الأفراد بالدولة والدولة بالأفراد ، على أساس من الفكرة الاشتراكية الاجتماعية ، وهى رعاية العدالة الاجتماعية بين الطبقات . وهذه دولة ملكية ، يقوم قانونها على صيانة العرش وتقديسه . وهذه دولة جمهورية يقوم قانونها على تأكيد حقوق الأفراد فى الوصول إلى رياسة الجمهورية .

هذه الجماعة يهودية يقوم قانونها على رعاية

التقاليد والعادات والمعتقدات اليهودية فى الأحوال الشخصية وتحديد العطلات السنوية وأنواع المأكول والمشروب ، والطريقة التى يتناول بها الأكل والشرب ، إلى غير ذلك فى الحياة العملية .

وهذه الجماعة مسيحية ، أو بوذية ، أو وثنية ، أو إسلامية ، لا بد أن يتضمن قانون كل منها تقاليدها الخاصة وعاداتها ، ومعتقداتها ، التى لها وحدها .

وإذن سبب هذا الاختلاف فى الدساتير والقوانين هو كون الإنسان « محدوداً » كذلك . ومن هنا نشأ فى القانون ما يسمى بالقانون الخاص ، وما يسمى بالقانون الدولى العام . والقانون الدولى مع ذلك يغلب عليه طابع التحيز للدولة القوية وعاداتها وغاياتها ، وأهدافها فى الحياة .

وكذلك المؤسسات الدولية ، كعصبة الأمم سابقا ، والأمم المتحدة فى حاضرنا ، فإن قوانينها وإن اتسمت بالطابع الدولى العام ، فإنها تقوم وتهدف إلى تحقيق غايات الدول الكبرى ، وهى الدولة القوية . فعصبة الأمم كانت وسيلة مشروعة من الوجهة القانونية لتحقيق استعمار الدول الضعيفة أو الصغيرة عن طريق الأمم الكبرى . وما جاء به قانونها مما عرف بـ « الانتداب » أو « الوصاية » على بلد ما لدولة كبرى هو نموذج عملى على تحقيق غايات الدول العظمى باسم القانون العام ، وهذه الغايات هى استذلال واستغلال الدول الصغرى لحساب الدول الكبرى ؛ هى انتقاص لحياة الشعوب الضعيفة لرفع مستوى حياة الشعوب القوية .

وهيئة الأمم المتحدة القائمة ليست إلا صورة مكررة لعصبة الأمم السابقة فى قانونها ، وفى أهدافها ، ولذلك يوم أن رأت بعض الدول الكبرى فى الماضى القريب ، أن مصالحها الاستعمارية لم تتحقق ـ لأن أغلبية الدول الأعضاء فى هذه الهيئة عارضت هذا الجشع الاستعمارى ـ أعلنت أنها لم تعد صالحة للفصل فى القضايا الدولية ، والمشاكل بين الشعوب . ويتجلى هذا فى مشكلة قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

ولأن الفلسفة نشأت عن محدودية الإنسان ، ولأن القانون نشأ على هذا النحو أيضا ـــ كانت الخصومة المذهبية طابعا

للفلسفة ، وكانت المفارقات الواضحة فى القوانين الخاصة ، والتفسيرات المتباينة للقانون الدولى العام ، ظاهرة مصاحبة للقانون الوضعى .

يضم إلى هذه النتيجة ـ وهى أن الله غير محدد وغير محدود فيما يوحى به لصالح البشرية وأن الإنسان على عكس ذلك ـ شىء رئيسى آخر يلحق الفلسفة ، ويلحق القانون . وهو أن من يتبع المذهب الفلسفى ، أو من يجب عليه أن يطيع القانون ، يسير فى اتباعه ، وفى طاعته ، على أساس أن مايتبع ومايطاع هنا ليس إلا صنعة البشر . ومعنى ذلك ليس فيهاعصمة . وليس فيهاتوكيد للحق أوللعدل . إن هو إلا ظن إنسان ، قد أخلص فيما أتى به من صنعة فلسفية ، أو قانونية ، وهذا الشعور لدى التابع أو المطيع يؤدى إلى عدم التحمس فى التزام التبعية ووجوب الطاعة ، أو يؤدى إلى توقيت التبعية ، وتوقيت الطاعة ، ومن شأن هذا التوقيت التراخى فى السير نحو هدف المذهب الفلسفى ، ونحو غاية القانون . وبما أن هدف الفلسفة ، وغاية القانون ، هى الحرص على فعل الخير ، ففعل الخير سيصير حتما إلى التوقف ، كلما كثر التراخى فى التبعية والطاعة ، إما للمذهب الفلسفى أو القانون :

١ ـ فمحدودية الإنسان إذن عيب فى الفلسفة والقانون .

٢ ـ وصنعة الإنسان فى الفلسفة والقانون أيضا سبيل إلى عدم العصمة . وعدم العصمة سبيل إلى التراخى فى التبعية والطاعة .

والنتيجة أن قوة الفلسفة ليست فى ذاتها ، بل فى تكرار الدعوة إليها .

وقوة القانون ليست فى ذاته ، وإنما فى السلطة القائمة على تنفيذه .

* * *

أما الدين فقد خلا من هذين العيبين ، فالله بعيد عن المحدودية ، وبعيد عن الخطأ ، فقيمة الدين إذن ، بالنسبة إلى الفلسفة والقانون ، قيمة ذاتية .

ويوم يستحيل الدين إلى فلسفة أو قانون ، فهناك إمكان لعودته إلى دين مجرد عن الفلسفة والقانون ، طالما مصدره الأصيل مصون عن التحريف والتبديل . وعندئذ تبقى له قيمته الذاتية ، كدين ، ومعنى ذلك أن الخطر الذى يلحق الدين بصنعة الإنسان ، يمكن أن يبعد عنه ، بإبعاد تلك الصنعة عن أن تأخذ قداسته ، وعصمة أصوله .

وهناك شيء آخر ، وراء عصمة الوحى فى الدين ، ووراء عدم محدودية الله فى رسالته للبشر ، مما يتميز به الدين عن الفلسفة والقانون.

هناك فى الدين أيضاً ضمير الإنسان الذى ينشأ عن الخشية من الله ، وهو بمثابة السلطة التنفيذية للقانون ولكنها سلطة تنفيذية ذاتية ، وليست خارجة عن ذات الإنسان صاحب الضمير الدينى .

أما المتبع للقانون فإنه يتبعه لسلطان الدولة المشرفة على تنفيذه . وعندئذ إذا خفت رقابة الدولة زال أثر القانون ، وانكمش وجوده بالتالى . وهنا فى دائرة القانون يحتاج الأمر إلى شيئين معاً : إلى نص القانون ، والسلطة التنفيذية ، بينما فى دائرة الدين يتوقف الأمر كله على الإنسان المعتقد وحده .

أما الفلسفة ، فلأنها لا تصحب برقابة خارجية ، ولا تكون ضميراً أو رقابة داخلية فشأنها فى الحياة العملية أهون من القانون وأخف . ومن ثم تكون أشد هوانا فى مواجهة الدين .

هــذا حديث عن الدين ، والفلسفة ، والقانون فى حياة الإنسان بوجه عام ، ومنه يتبين أن الدين له مكانته الأولى فى حياة الإنسان ، وفى توجيهه . إنه مصدر توجيه لا يخضع لنقص « التحديد » ولا لاحتمال « الخطأ » ، ولا إلى وجود السلطة التنفيذية .

ورقابتها المباشرة ، ولذلك يقول الشيخ محمد عبده : « فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم ، وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل فيهم ، من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة ، وإن كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص ، أو الشامل له ولمن يتصل به ، وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم ، وسجيتهم ومناشئهم ، وجميع ما يكتنف بهم . فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه : إنما يطلب نافعا ! فالعقل البشرى وحــده . ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة (١) » .

ويقول أيضا :

---

(١) رسالة التوحيد ص ٤٨ .

« لهذا كله كان العقل البشرى محتاجا فى قيادة القوى الإدراكية ، والبدنيـة ، إلى ما هو خير له فى الحياتين ؛ إلى معين . . وذلك المعين هو النبى (١) » .

ويقول كذلك فى شأن الأمم :

« العقل وحده ـ فى القانون ـ لا يستقل بالوصول إلى ما فيـه سعادة الأمم ، بدون مرشد إلهى . كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ! بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا . كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات . والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة ، وتصريفها فيما منحت لأجله ، والإذعان لما تكشف له من معتقدات ، وحدوث أعمال (٢) » .

فضل الإسلام كدين:

فإذا انتقل الحديث بعد ذلك من الدين عامة إلى الإسلام ، فضرورة الدين فى حياة الإنسان ستكون أشد وأقوى .

[١] رسالة التوحيد ص ٥١ .

[٢] رسالة التوحيد ص ٨٢ .

إذ الإسلام ـ كما يعرف من القرآن والسنة الصحيحة ـ يتضمن العقيدة والإيمان ، كما يتضمن التشريع ، للتهذيب والمعاملات .

وكل هذه الأنواع ليس بعضها متولدا عن بعض ، بصنعة الإنسان ، وإنما كلها وحى منزل ، وكلها مجتمعة تهدف إلى غاية واحدة : إلى « التوازن » ؛ إلى الاستقامة : إلى « الاعتدال » .

فى العقيدة :

١ ـ فعقيدة التوحيد هى المثل للتوازن ، والاستقامة ، والاعتدال : إذ كون المعبود واحداً ، كعقيدة ، يوحى بأن الوحـدة منشودة ، وهى الغاية الأخيرة فى الإسلام ، وفى هـذا يقول الشيخ محمد عبده : « أما اعتقاد الجميع بإله واحد فهو توحيد لمنازع النفوس إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه . وفى ذلك نظام أخوتهم ، وقاعدة سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما اعتقدوا وإن طال الزمن (١) » .

(١) وهى بدورها توحى بالوحـدة فى ذات الإنسان .

[١] رسالة التوحيد ص ٥١ .

(ب) وبالوحدة فى علاقة الإنسان بالإنسان : فى الأسرة ، والمجتمع ، وفى مجتمع إسلامى مع مجتمع آخر .

والوحدة فى ذات الإنسان منهج مرسوم . وتشريع التهذيب أو العبادات هو سبيل وحدة الإنسان . والوحدة فى العلاقات بين الأفراد والمجتمعات منهج مرسوم كذلك . وتشريع المعاملات هو سبيل وحدة العلاقات:

يقول الله لرسوله الكريم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . ومعنى ذلك : الله المعبود واحد، وهو الرب والسيد ، ووحدته وحدة خالصة ، فلم يأت عن طريق غيره (فلم يولد) ولم يكن غير عنه يشبهه ، (فلم يلد) ولذا فليس هناك معادل له فى الوجود (فلم يكن له كفوا أحد) .

وبهذه السورة القصيرة تحددت وحدانية الله ، بالواحدانية الخالصة عن المثل والشبيه ، ثم لأن المعبود هو من يتجه إليه الإنسان فى حياته ـ كانت هذه الوحدة الخالصة هى غاية الإنسان فى سعيه فى الحياة وفى سلوكه فيها .

على الإنسان إذن أن يحمل نفسه على الوحدة ، وعليه أن يسلك طبقاً لهذه الوحدة التى تحققت بسعيه . فإن لم يسع نحو هذه الوحدة ، لم يدرك فى عبادته وحدة الله جل شأنه . وإن سلك سلوكا متضاربا فى حياته ، كان تضاربه فى سلوكه أمارة على أ: يحقق الوحدة فى نفسه .

وكذلك الشأن فى علاقته بغيره . عليه أن يسعى لتقريب الاثنينية بين نفسه وغيره ، إلى وحدة ، أو إلى ما يقرب إلى الوحدة على سبيل الحقيقة . وكذلك سلوكه مع غيره يجب أن ينبئ عن هذا التقريب بين اثنينية نفسه مع غيره .

فإن لم يسع فى دائرة العلاقات مع غيره ، نحو تقريب هذه العلاقات نحو الوحدة ، لم يدرك فى سعيه فى هذه الدائرة وحدة الله تعالى . وإن سلك سلوكا متضاربا فيها ، كان تضاربه فى هذا السلوك أمارة على أنه لم يصل إلى ما يقرب من الوحدة فى علاقته بغيره .

وإذن هدف العبادات فى الإسلام تحصيل الوحدة فى ذات الإنسان ، وجعل السلوك طبقا لها . وهدف المعاملات فى الإسلام محاولة تقريب العلاقات بين « الاثنين » إلى وحدة ، وتكوين السلوك وفقا لهذا التقريب.

٢ - فى العبادات :

والإنسان بحكم تكوينه موزع بين أمرين متقابلين . وهو لذلك له اتجاهان فى الحياة : أحد هذين الاتجاهين يصدر عن النفس الأمارة بالسوء ، والاتجاه الثانى يصدر عن النفس المطمئنة . أما النفس الأمارة بالسوء فهى التى تميل بالإنسان إلى أن يكون صاحب غرض وهوى ، وصاحب شهوة خاصة . وأما النفس الأخرى المطمئنة فهى التى تميل بالإنسان إلى أن يكون صاحب « عدل » وتوازن ، واستقامة . وجاء الإسلام بالعبادات : جاء بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، كى يكون الإنسان صاحب اتجاه واحد ؛ كى يكون صاحب نفس مطمئنة راضية ؛ كى يكون صاحب توازن ، وعدل ، واستقامة .

* * *

جاء الإسلام بالصلاة - وهى أن يتجه الإنسان فى خشوع نحو الله ونحو جلاله ، وأن يناجى هذا الجلال بقوله : الله أكبر - ليحصل فى الإنسان قيمة الوجود كله . وقيمته عندئذ : أن شيئا واحدا فيه كله له العظمة والجلال ، وأن ما عداه تضمحل قيمته وتتضاءل ، فإذا ثبتت هذه القيمة فى نفس المصلى كانت نفسه نفسا مطمئنة ، لأنه يستبعد من المصلى ، بعد أن يدرك هذه القيمة ، أن تميل نفسه وتحرضه على تحصيل شىء فى الوجود دون الله ، وليست النفس الأمارة بالسوء إلا تلك النفس التى تخضع الإنسان إلى غـــير الله فى الوجود ، وهى لا تفترق عندئذ عن الشيطان فى الهدف والغاية .

وإذن الصلاة عبادة قصد بها أن تكون نفس المصلى نفسا مطمئنة ، قصد بها أن يكون الإنسان صاحب اتجاه واحد ، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان ، ويرتفع فوق التردد بين النفسين .

* * *

وجاء الإسلام بالزكاة ليسعى المزكى عن طريق زكاته ، كعبادة فيها قربى إلى الله ، نحو اتجاه واحد فى سلوكه ، وهو اتجاه المعطى المانح ، وبذلك يكبت الاتجاه الآخر فى الإنسان وهو اتجاه الاستيلاء ، والطمع ، والجشع . وهنا أيضا تكون الزكاة عبادة لتحصيل وحدة الإنسان . بدلا من توزيعه وتردده ، أو بدلا من أن يتردى فى ذلك الاتجاه الآخر ، الذى يبعده عن السمو والتشبه بالله فى منحه وعطائه وهو اتجاه التردى فى الطمع والجشع .

وجاء الإسلام بالصوم . والصوم ليس فقط تقرير الجلال لله وقيمته فى الوجود وليس فقط متضمنا أيضا عدم الحرص على

الاستيلاء والأخذ ، لأنه يقوم على الإمساك والترك ـ هو ليس فقط هذا وذاك ، وإنما هو كبت لذات الإنسان ، وحرمان لهذه الذات ، طواعية لامتثال أمر الله ، والحرمان فيه أكثر من المنح والعطاء ، كما فى الزكاة ؛ لأن المانح والمعطى لا يستلزم أن يحرم ذاته ، ولكن إذا حرم ذاته تجاوز عندئذ حد المانح المعطى .

* * *

وإذن عبادة الصوم فيها امتثال لله ، وذلك إقرار بوجوده وبقيمته فى الوجود ، وفيها أكثر من المنح والإعطاء ؛ فيها المقابل للاستيلاء وهو الحرمان . والاستيلاء أخذ ، والحرمان ترك . والصوم لذلك خطوة أخرى فى طريق توجيه الإنسان وسعيه نحو وحدة ذاته ؛ نحو تحصيل النفس المطمئنة ، التى لا تخضع لما عدا السمو ، والتشبه بالله .

* * *

وجاء الإسلام بالحج ، وفى الحج عود بالإنسان إلى حالته الطبيعية ، فيه ترك ، ومنح معا ، فيه ترك للمظاهر الزائدة على الطبيعة الإنسانية . وفيه منح عن طريق الأضحية . وبذلك تصب عبادة الحج فى نفس الغاية التى تهدف إليها عبادات : الصلاة والزكاة والصوم .

* * *

فإذا تحقق للإنسان اتجاه واحد ، كان سلوكه سلوكا متزنا مستقيما ، معتدلا لأنه لا يتأرجح عندئذ بين شيئين متقابلين . لا يلبس اليوم وجها ، وغدا وجها آخر ، فهو مستقيم إذن . ولا يفعل اليوم هذا ، ويفعل نقيضه غدا ، فهو متزن إذن ؛ ولا يخضع الآن يمنة ثم فى آونة أخرى يجنح يسرة ، فهو معتدل إذن ؛ واعتداله واتزانه واستقامته ، تدل على أنه أصبح واحدا ، وبذلك تأثر فى حياته بعبادته لله الواحد . وأمارة الاعتدال ، والاتزان ، والاستقامة فى السلوك والتصرف أن يكون مصداقا لقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

* * *

فإذا سار الإنسان فى سلوكه وفق وصايا هذه الآية القرآنية ـ فإنه لا شك يكون معتدلا ، ومتزنا ، ومستقيما .

* * *

فإذا سعى الإنسان فى حياته لأخذ نصيبه من الدنيا ـ لا لأخذ الدنيا كلها ـ وفى الوقت نفسه قصد وجه الله فيما حصله من الدنيا ، فأحسن إلى غيره كما أحسن الله إليه ، ولم يقصد إلى العبث والفساد فيما تفضل الله به عليه ، كان معتدلا ، ومتزنا ، ومستقيما : لم

يتواكل ؛ لحصل حظه من نعم الحياة ، ولم يغتر ويفرح بما حصله من هذه النعم ؛ فلم يتخذ هذه النعم وسيلة للعبث فى حياته الخاصة وحياة جماعته العامة ؛ لم يرتكب إثما ولا محرما ، لم ينتهك عرضا ولا حرمة لغيره عن طريق هذه النعم ، ثم مع ذلك لم يحرم من هذه النعم مستحقا آخر فيها ؛ لم يحرم ذا قرابة ، وذا جوار ، وذا متربة ، وصاحب حاجة - إنه عندئذ متزن فى تصرفه ، ومعتدل فى سلوكه ، ومستقيم فى اتباعه طريق الله ووصاياه .

٣ - فى المعاملات :

والإنسان مع إنسان آخر، بمثابة الإنسان الفرد المردد بين اتجاهين متقابلين : اتجاه النفس المطمئنة واتجاه النفس الأمارة بالسوء. فكذلك الإنسان مع الإنسان. هذا له اتجاه ، وذاك له اتجاه آخر . هذا له عادات وآمال ، وذاك له عادات وآمال . هذا نشأ تنشئة خاصة وذاك نشأ تنشئة مغايرة . فإذا كثر عدد أفراد الناس تعددت وجوه المغايرة بينها ، وكثرت ضروب المفارقة والمقابلة .

الجماعة العامة :

وعلى نحو ما أراد الإسلام للإنسان الفرد من وحدة اتجاه فى سعيه وسلوكه - أراد للكثرة العديدة من الناس ، وهى الجماعة ، نفس الغاية ، ونفس السبيل ؛ أراد لها أن تكون أمة واحدة ، وأن يكون سعيها لذات الهدف أو الغاية ، وهى أن تكون أمة واحدة ، وما شرع باسم المعاملات هو السبيل لتحقيق هذا الهدف

* * *

إن وحدة الجماعة والأمة لا تتوقف - فحسب - على الأسباب التى تحيط بأفرادها بحكم البيئة ، أو الموطن . أو إمكانيات العيش ، بل لابد فى تحقق وجود أية جماعة ، وجوداً قوياً ظاهراً ، من وحدة الغاية والهدف . لأن وحدة الغاية والهدف هى المركز الذى يتجمع الأفراد حوله . ويتكتلون من أجله ، وتشتد الروابط بينهم بسببه ، وتصير هذه الروابط إلى أخوة فى النفس والروح ، بعد التقاء على الفكرة والمبدأ .

والقرآن الكريم ، فيما أوصى به من أخلاق للجماعة ، لم يوص إلا بعد أن حدد الغاية للجماعة التى يريدها ، والتى عمل على تكوينها ، ووصاياه هنا بعد ذلك هى وصايا لحفظ توازن هذه الجماعة ، وبالتالى لحفظ علاقات الأفراد فيها من التفكك والتلاشى .

والغاية التى حددها القرآن لجماعته هى عبادة

الله وحده ، يقول الله جل شأنه فى كتابه الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » ويقول : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » . ويقول : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . ويقول : « إن هـــذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

والإسلام إذ يحدد غاية الجماعة بعبادة الله وحده ، يدفع أفرادها إلى الشعور بالكرامة والسير فى الحياة دون عائق من أوهام الوثنية فى أية صورة من صورها ، والشعور بالكرامة والانطلاق فى الحياة من قيود الخرافة والشعوذة ، واقتحام الصعاب فيها ، دون انتظار لوضع خاص لكوكب من الكواكب كما كانت عادة العرب قبل الإسلام ، ودون إذن وصى أو سيد ، كما هى عادة العبيد والأرقاء ، كل هذا مظهر لعبادة الله وحده .

وأصحاب هـذا الشعور ، أولئك الذين انطلقت نفوسهم من قيود الخرافة والشعوذة والوثنية فى صورها المختلفة — من عبادة الأحجار إلى عبادة الأشخاص — يضيفون إلى قوتهم ، كأصحاب سعى وحركة ، قوة توجيه ويقظة . وهم ، لهذا وذاك ، لا بد أن ينجحوا إذا كافحوا ، ولا بد أن ينتصروا إذا خاصموا .

* * *

ولكى لا يدخل عامل يضعف علاقات هذه الأفراد فى الجماعة ، فتتجه نظرتهم إلى هذه العلاقات ، بعد أن ارتفعت نظرتهم جميعا إلى الله وحده سبحانه ، وكذلك يتجه كفاحهم إلى صلات بعضهم ببعض ، بعد أن تركزت فيما وراء أشخاصهم وذواتهم — لأجل هذا أوصى القرآن الكريم بما يحفظ قوة هذه العلاقات ، وبما يديم نظرة الأفراد إلى الله وبما يوجه كفاحهم لصالح أنفسهم ، كجماعة تريد السيادة لأجيالها المتتابعة جيلا بعد جيل

١ — أولا : أوصى القرآن باحتفاظ الجماعة بسيادتها . وذلك بأن لا يكون لأفرادها ولاء لغير بعضهم بعضا ، أى لا يكون للدخيل بينهم طاعة عليهم ، ولا يرقى هذا الدخيل فى نفوسهم درجة أن تكون له وصاية ، أو إلى أن يعد مرجعا فى إبرام شئونهم . يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

فعلل الله سبحانه وتعالى تفضيل ولاية المؤمنين بعضهم على بعض وبالتالى إبعاد ولاية الأجنبي عليهم - بالاشتراك فى خصائص وصفات ؛ هى مقومات الجماعة الإسلامية : بالاشتراك فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله . وولاية أجنبي عليهم ستذهب بهذه الخصائص ، وبالتالى ستذهب بشخصية الجماعة الإسلامية ، فيومئذ لا يكون لها وجود ، كجماعة إسلامية . لأن هذا الأجنبي الذى يتولى أمرها لا يشاركهم فى هذه الخصائص ، ولذا لا يقررها ، وربما يعاديها ويعمل على إفنائها .

* * *

يوصى القرآن بذلك لأنه إن قبلت ولاية الأجنبي ووصايته ، ابتعدت الجماعة عن الهدف والغاية التى اجتمعت حولها من قبل ، وأصبحت أفراداً فقط مختلفى النزعة والغرض ، لا جامع يجمعهم ولا رابط يؤكد الصلات بينهم.

٢ — ثانيا : أوصى القرآن كذلك - بعد إحاطة الجماعة الإسلامية بهذا السور الخارجي ، وهو إبعاد ولاية الأجنبي عليهم - باتباع سبيل «العدل» فى الحكم بين الناس ، فيقول : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

يوصى القرآن بالعدل فى القضاء والفصل بين الناس ، لأن أساس الاطمئنان بين الأفراد على أنهم سواء فى ظل الجماعة . وأن الجماعة لذلك ليست حزبا تفصل بين فريق موال وفريق مخاصم ؛ بل هى رعاية عامة . وهذا الاطمئنان بالمساواة فى العدل يوحى بدوره إلى تمسك الأفراد بجماعتهم ، وإلى الكفاح فى سبيل بقائها ، وإلى مؤازرتها ضد عدوها الخارجى .

* * *

٣ — ثالثا : أوصى القرآن بالتريث فى قبول الأخبار المغرضة ، وفحص شائعات السوء . يقول الله تعالى : « يا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

أوصى القرآن بذلك للإبقاء على العلاقات سليمة صافية . فإن سرعة التصديق للأخبار والشائعات المغرضة ، سواء فيما يتصل بفرد وفرد ، أو بأسرة وأسرة ، أو فيما يتصل بالأفراد والحكومة ، لا تقف عند حد تمزيق وحدة الجماعة ، بل من شأن هذه السرعة أن تثير فتنة قد تنتهى بخصومة عنيفة بين أبناء الجماعة . وبذلك تتحول الجماعة إلى طوائف متباينة القصد والسعى ؛ وعندئذ تصير إلى فنائها ، كجماعة .

٤ — رابعاً : أوصى بعدم استغلال الضعيف : أوصى بعدم استغلال اليتيم ، ومن على شاكلته ، كالأجير ، والخادم ممن عليه رياسة بوجه ما . يقول الله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً » .

* * *

ولفظ الآية وإن كان نصا فى طلب تسليم أموال اليتامى — وهم القصر — إليهم بعد بلوغ الرشد ، بدون مماطلة . . لكنه يتجاوز ذلك إلى طلب تسليم الحقوق إلى أصحابها ، الذين لهم وضع يشبه وضع اليتيم من الوصى عليه . فصاحب الرياسة مطالب بتسليم حقوق عماله إليهم ، ورب الأسرة مطالب بتسليم حقوق زوجته وأولاده إليهم . وهكذا . ثم يصف سبحانه وتعالى إمساك تسليم الحقوق إلى أصحابها الضعاف باستبدال الخبيث بالطيب أى بترك الطيب وأخذ الخبيث بدلا منه ، ثم يصفه كذلك بأنه أكل ، ثم بأنه ظلم ، ثم بأنه ظلم غير عادى ، بل هو ظلم كبير .

* * *

أوصى القرآن بذلك ، لأن استغلال القوى الضعيف يدل على أن الجماعة التى جمعتهما ، جمعت القوى والضعيف على هذا الوضع ، ليست إلا وسيلة لتحقيق الأغراض الخاصة وليست رعاية عامة لحقوق كل فرد منها . وإنما وجدت الجماعة للترابط فى وحدة واحدة ، والتعلق بهدف واحد ، والاحتكام إلى ميزان واحد ، هو العدل والتوازن .

٥ — خامسا : أوصى الإسلام بتقريب الفروق بين الأفراد ، حتى لا يشعر الفقير بحرمانه ولا المريض بعجزه ، ولا الجاهل بحمقه وسوء تصرفه ، ولا الصغير بضعفه وحداثة عهده ، ولا الشيخ بوهن شيخوخته .

* * *

فأوصى صاحب الثروة بالإنفاق ، وصاحب الصحة بالمعاونة ، وصاحب المعرفة بالتوجيه ، والكبير برحمة الصغير ، والصغير بتوقير الكبير . أوصى بذلك وبمثله . ولكنه شدد كثيراً فى طلب بذل المال والإحسان لصاحب الحاجة من ذوى اليسار . وذلك لأن المال ، من جانب ، من شأنه أن يغرى صاحبه على عدم الإنفاق ، كما أن الحرمان من المال . من جانب آخر ، من شأنه أن يثير القلق النفسى ، والحسد والبغضاء فى نفوس المحرومين ضد غيرهم من الموسرين . يقول الله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » ويقول : أولئك يؤتون أجرهم

مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون » .

والإنفاق هنا ليس الزكاة . وإنما هو إعطاء ، وراء فريضة الزكاة ، سرا أو علانية . وقد ربط الله سبحانه هنا بين الصفات التى تدعو إلى التحمل من صاحبها ، فى سبيل استقامة الأمور ، وعلاج المشكلات فالصبر فى المحنة والأزمات . وإقامة الصلاة التى من شأنها أن تمسك المصلى عن الفحشاء والمنكر ، والإنفاق فى سبيل الخير وسبيل الله ، وإبعاد السيئة عن طريق الحسنة ـ كلها خصائص تبعد الأزمات وتسد طريق الشر ، ولكنها تتطلب الاحتمال وضبط النفس .

أوصى القرآن بهذا كله ، وبغيره مما يتصل بشأن الجماعة العامة، هى الأمة ، قاصداً أن يبقى على التكتل والتجمع ، وأن يحول دون العوامل المخربة . والعوامل المخربة ترجع جميعها إلى اختلال العدل ، أو اختلال التعادل والتوازن فى الجماعة .

فالولاء للأجنبى ، والتحيز فى الفصل بين الناس ، والمسارعة فى قبول الوشايات ، واستغلال القوى للضعيف ، وعدم تقرب الغنى لصاحب الحاجة : صاحب المال من الفقير ، وصاحب المعرفة من الجاهل ، والسليم من المريض . إلى غير ذلك ـ كل هذه أمور تؤدى إلى اختلال فى توازن الجماعة . لا محالة . فرسالة القرآن للجماعة العامة هى رسالة توازن وتعادل ، كرسالته للفرد نفسه التى هى توازن وتعادل بين القوتين اللتين من شأنهما السيطرة عليه .

الأسرة :

تلك هى وصايا القرآن الكريم للجماعة العامة . فإذا انتقلنا فى نطاق هذه الجماعة إلى الأسرة الصغيرة ـ وجدنا وصايا القرآن نفسه إلى هذه الأسرة لا تخرج عن الهدف والغاية التى حددها للجماعة العامة ، كما حددها من قبل للفرد الواحد ، وهى رسالة العدل ، والتوازن ، والاستقامة .

بين الزوجين :

فأخلاق القرآن للزوجين فى الأسرة هى مجموع :

(ا) أخلاق القرآن للفرد نحو نفسه .

(ب) وأخلاقه للفرد نحو مجتمعه .

(ج) وأخلاقه للفرد ، كزوج أو كزوجة ، بالنسبة للطرف الآخر .

إذ الزواج اجتماع بين فردين ؛ هو تزاوج يجب أن يكون هدفه الانسجام ، حتى يبدو أن تصرف كل واحد من الزوجين نحو الآخر تصرف ناشئ عن فرد واحـــد ، ولغاية واحدة ، وفى طريق واحدة .

وهذه الحال درجة فى السلوك والمعاملة ، فوق درجة سلوك الفرد نحو مجتمعه على العموم يقول الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ؛ وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » .

فجعلت هاتان الآيتان غاية الزواج : أن يسكن كل من الزوجين إلى الآخر ويطمئن إليه ، ويستريح لوجوده معه . ولا تكون حالة السكن هذه ، وحالة الاطمئنان والراحة فى اجتماع فرد بآخر ، إلا إذا كان هناك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بسلوكه وطريقه فى الحياة .

والطريق إلى هذا الانسجام أمران :

الأول : أن يحفظ الرجل على المرأة حياءها وخفرها . وبالتالى يحفظ عليها كرامتها كأنثى ويتجلى ذلك فى أن يعبر الرجل عن تقديره للمرأة بمنحة يتقدم بها إليها حين الرغبة فى إتمام الزواج بها . وذلك هو ما يؤخذ من قول الله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » . وتوكيداً لأن لهذه المنحة أثرها فى معنوية المرأة ، وفى وضعها بعد ذلك من الزوج ، جعل القرآن الكريم هذه النحلة — وهذه المنحة — حقا للمرأة لا يسترد الرجل شيئا منه إلا عن طيب نفس من المرأة ورضاء خالص منها .

هذه المنحة ، وهى التى تعرف بالمهر — مهما قلت فى قيمتها ، تشعر الزوجة فى حياتها مع الزوج بأن الزوج هو الذى سعى إليها . ولذلك تشعر بالتالى بأنها موفورة الكرامة ، وليس لأنوثتها عندئذ دخل فى النقص من قيمتها كإنسان ، كما كان الحال قبل الإسلام . وهى تعيش الآن فى وضع متساو مع زوجها فى الإنسانية .

وإذا استقر شعور المساواة فى الإنسانية بين الزوجين سارت حياتهما إلى الانسجام ، وأثمرت الزيجة المحبة وعدم الفرقة ، ونتج عنها خلف صالح ترعاه محبة الاثنين ، ويعيش هذا الخلف فى ظل وئامهما ووفاقهما .

الأمر الثانى فى الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين : أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما :

للزوج حقوق وواجبات ، وللزوجة حقوق وواجبات . وكل واحد من النوعين ،

من هـذه الحقوق والواجبات ، متكافئ ومتعادل مع الآخر. ومعنى التكافؤ والتعادل هنا أن الحياة الزوجية ـ كى تصل إلى غايتها . وهى السكن والاطمئنان ، والانسجام ـ لابد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء . ولابد من إفادة كل منهما معا بهذه العلاقة : لا يضار الرجل بالعلاقة الزوجية فيؤدى ما عليه دون مساهمة من المرأة فى هذه العلاقة ، ولا تضار المرأة فتؤدى ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ فى الحقوق والواجبات هو الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما أنفقوا من أموالهم » . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

والمراد بالتماثل فى الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما . وليس بلازم أن تكون كل حقوق الرجل وواجباته هى ذات حقوق المرأة وواجباتها بالشخص . فالرجل عليه الإنفاق مثلا ، بينما دور المرأة فى مقابل هذا فى رعاية ولدها . وهكذا .

أما درجة الرجال على النساء فى الآية الثانية وهى القوامة والقيادة فى الآية الأولى ـ فنسبتها إلى الرجل لا تخرج دوره فى الحياة الزوجية عن أن يكون بها مسهما لتعادل هذه الحياة وانسجامها . وهى لذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجية ، وليست مظهرا عارضا على حسابها ، وفى سبيل تقويضها .

إذ لم يقصد القرآن مطلقا ، فيما أوصى به فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض ، إلى هدم السكن والاطمئنان ، الذى جعل غاية الزواج وإلا كان غير منطقى مع مبادئه ، وكان غير مستقيم بعد ذلك أن يحث على عدم الإضرار ، وعلى الصبر والتؤدة إذا ما تعرضت الحياة الزوجية لأزمة طارئة ، على نحو ما يوصى به فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . فمطالبة الإسلام الرجال بعدم الإضرار فى العشرة ، وبالصبر عند الضيق بالزوجات ينبئ عن حرصه على بقاء السكن بين الزوجين .

والقرآن الكريم بعد ذلك ، فيما يتصل بالزواج وإن هدف إلى الانسجام ، لكنه لم يقصد إلى إلغاء أحد الطرفين فى صلة الزوجية ، بل أبقى على فردية الاثنين ، ونظم الحياة بينهما ، بحيث تكون حياة مثمرة لصالحهما وصالح الإنسانية . ومن أجل إبقائه على فردية الاثنين لا يسلب من أحدهما كفرد حقوقه الشخصية بعد الزواج . ولهذا كانت للفرد حقوق شخصية وحقوق أخرى زوجية بعد الزواج ، وعليه واجبات متنوعة

كذلك . فالزوجة مع يسارها نفقتها فى مال زوجها . ومع ارتباطها فى عقد الزوجية بزوجها فلها وحدها حق استثمار مالها الخاص بالطريقة التى تراها ، ولها حق ممارسة عقيدتها الخاصة ، واتجاهها السياسى الخاص ، وحق التعبير عما ترى .

ولكن كفالة هذه الحرية ، لها أو لزوجها ، فى حدود عدم الإضرار بأحد الطرفين فى الزوجية .

وإذن رسالة القرآن فى علاقة الزوجين ، بعضهما ببعض ، هى التوازن ، والتعادل ، والانسجام ، على نحو رسالته فى سلوك الفرد مع نفسه ، ونحو مجتمعه .

أما الإضرار فى المعاشرة فالنهى عنه ليس وقفا على العلاقة الزوجية ، بل هو منهى عنه فى أية علاقة أخرى بين إنسان وإنسان . ولكنه هنا أشد وألزم ؛ لأنه يتنافى تماما مع الزواج وهدفه .

صلة الأولاد بالوالدين :

والقرآن الكريم فى صلة الأولاد بالوالدين هدف أيضاً إلى التعادل ، والتوازن ، والانسجام . نظر إلى هذه الصلة فى صورتها الواقعية : نظر إليها على أنها صلة مرجوحة من جانب وراجحة من جانب آخر . نظر إليها على أن الطرفين فى علاقة أحدهما بالآخر ليسا فى درجة متساوية ، ولا فى وضع واحد : علاقة الوالدين بأولادهما أشد وأقوى من علاقة الأولاد بوالديهم . فالوالدان ، حسب الفطرة السليمة ، يتفوقان فى ميلهما ومحبتهما لأولادهما أكثر من هؤلاء فى ميلهم ومحبتهم لوالديهم .

والصلة بين الأولاد والوالدين فى دائرة الميل والحب إذن صلة غير متكافئة ، وتعلق أحد الجانبين بالآخر تعلق غير متعادل .

ويشير إلى عدم التكافؤ والتعادل هذا أن القرآن فى مخاطبة الآباء لم يذكر أولادهم - فى آية من الآيات التى ذكرهم فيها - إلا على أنهم زينة ومتعة فى حياة والديهم .

ومن أجل أنهم زينة ، أى زينة ، ومتعة أى متعة جعلهم بالنسبة لوالديهم فتنة وموضع إغراء . ثم مع ذلك فيما ذكرهم لم يذكرهم إلا مقترنين بالمال ، الذى هو أيضاً زينة ومتعة ، وموضع فتنة وإغراء . بل فى بعض الآيات كاد يقصر القرآن الكريم الدنيا وزينتها على الأولاد والمال : يقول الله تعالى فى سورة الكهف :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . ويقول فى سورة التغابن : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . ويقول فى سورة الحديد : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد » .

ومنطق التعبير عن الأولاد بأنهم زينة الحياة ، أو فتنة الدنيا ، أو موضع التفاخر فيها - أن تعلق الوالدين بأولادهم تعلقا شديداً ، بحيث يجعلهما لا يريان فى الحياة الدنيا - سواء فى مظهرها أو مخبرها - إلا الأولاد إما بجانب المال أو فى منزلة بعده .

بينما القرآن نفسه - فى ذكره للوالدين لم يعبر عنهما بأنهما فى حياة الأولاد زينة ، أو موضع فتنة وتفاخر لهم ، بل فى ذكره لهما ذكرهما على أنه يجب أن يكونا موضع رعاية من أولادهم : فقال فى سورة النساء : « وبالوالدين إحسانا » . وفى سورة البقرة يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين . . . » وفى سورة لقمان « ووصينا الإنسان بوالديه » . وفى سورة العنكبوت : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا » . وفى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » .

وهذا الفرق فى تعبير القرآن الكريم عن الأولاد والوالدين يدل على أن الصلة فى سيرها العادى بين الطرفين ليست متماثلة ، وأنها فى جانب الوالدين أقوى منها فى جانب الأولاد .

ورسالة القرآن فى هذه الصلة تهدف إلى أن تبلغ الطرفين إلى مستوى التكافؤ والتعادل فى سلوك كل واحد منهما نحو الآخر : تهدف إذن إلى أن تغير مجرى سيرها العادى حتى تصل إلى نقطة التقاء بين الاثنين ، بحيث لا يمل أحدهما الآخر ولا يزهد فى لقائه .

وبما أن الدافع إلى هذا الالتقاء الوسط متوفر لدى الوالدين بحكم الطبيعة والفطرة أو بحكم الإلف والعادة ، أكثر من توفره عند الأولاد - كانت وصايا القرآن فى الصلة بين الطرفين تكاد تكون موجهة إلى الأولاد وحدهم ، وفى صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التى لا يغتفر التخلف فيها بحال . ومظهر ذلك فى تعبير القرآن الكريم ، أنه يقرن طلب الإحسان من الأولاد إلى الوالدين بطلب عدم الشرك فى العبادة ، يقول الله تعالى « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا . . . » ويقول فى سورة الإسراء : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا » . ويقول فى سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا » .

ثم إن القرآن بينما لم يحدد تفصيل السلوك والتصرف الذى يتصرفه الوالدان نحو أولادهم اعتمادا على الدافع الطبيعى الفطرى القوى عندهم - يعنى بتحديد المطلوب من الأولاد نحو والديهم : يقول تعالى فى تكملة آية الإسراء السابقة ، وفى آية أخرى بعدها : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وهو إذ يطلب من الأولاد هذه المعاملة الرقيقة المهذبة فى صلاتهم بوالديهم ، فطلبه منهم رعايتهما بالإنفاق والسكنى أوجب وأشد ضرورة .

وقد يضيف القرآن إلى اقتران طلب الإحسان إلى الوالدين بطلب عدم الشرك فى العبادة ، الأسباب والدوافع التى من شأنها أن تدفع الأولاد أصحاب الفطرة السليمة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ لأن هذه الأسباب منتزعة من تطور الأولاد أنفسهم ؛ يقول الله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » . ويقول : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه كرها ، ووضعته كرها » . ويقول : « وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

بينما لم يطلب القرآن من الوالدين فى صلاتهما بأولادهما إلا عدم الافتتان بهم ، إذ الافتتان بالأولاد من شأنه أن يلهى الوالدين عن ذكر الله ، وتنفيذ تعاليمه فى حياة الإنسان ؛ يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم عن ذكر الله » ، وإذا تلهى الوالدان بالأولاد عن ذكر الله ساء تقديرهما للحياة . وعاقبة ذلك الانحراف فى توجيه الأولاد ، وبالتالى الانحراف فى الاستمتاع بهم . فتكون حياة الطرفين حياة خالية من الاستقرار النفسى ، مليئة بالأحداث المفاجئة المزعجة .

هذا ما يطلبه القرآن فى صلة الوالدين بالأولاد ، سواء من جهة الوالدين أو من جهة الأولاد أنفسهم . وما يطلبه هنا وهناك قائم على اعتبار الفطرة الإنسانية ، التى لم يلحقها شذوذ ولا تخلف فى نموها وتطورها وتلك هى حال الإنسان السائدة ، وهذه الحال هى دائما الأساس فى فهم توجيه القرآن لصلة الوالدين بالأولاد ، والأولاد بالوالدين .

أما نهى القرآن الآباء عن قتل أولادهم خشية الفقر ؛ كما فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا » ، وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم » . وكذلك حديث القرآن عن عداوة بعض الأولاد لوالديهم . أما هذا وذاك فإنه لا يقوم على الطبيعة الإنسانية السائدة ، ولا يرسم منهجا لطريقها العادى ، إنما هو علاج لحالة

طارئة ، علاج لانحراف غير شائع فى طبيعة الآباء أو طبيعة الأولاد ، هو علاج لانحراف تخلقه البيئة المنحرفة إذا طال انحرافها .

فالإحسان من جانب الأولاد إلى الآباء ، وعدم افتتان الآباء بالأولاد هو الطريق الأمثل إلى التكافؤ والتعادل فى العلاقات بين الطرفين . وهذه سنة القرآن فى كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

صلة الأقارب بعضهم ببعض :

وعلى نحو ما سبق فى صلة الفرد بنفسه ، وصلته بمجتمعه العام ، وصلته بأحد طرفى الزوجية ، وصلته بأحد طرفى الأبوة والبنوة يعالج القرآن الكريم صلة الأقارب بعضهم ببعض، وما ابتغاه هناك يقصده هنا . والذى ابتغاه هناك : التعادل، والتكافؤ ، والانسجام وذلك هو الهدف هنا أيضا .

فأقارب الإنسان مصدر قوة للإنسان إن هم أخلصوا له . لأنهم عندئذ بالنسبة له أكثر من الإنسان العادى ، هم شركاء له فى الدم ، وفى الطبائع الموروثة ، وفى العادات المألوفة ، وفى الميول والاتجاهات ، هم عصبته عندئذ ، وعدته ، وقومه بالمعنى الخاص .

ولكن هم أنفسهم قد يكونون مصدر ضعف وقلق له ، إن هم حقدوا عليه ؛ لأن السبب الذى كانوا له قوة ؛ هو بعينه السبب الذى يكونون من أجله مصدر ضعف له .

تلك هى سنة الإنسان مع أقربائه : إما أن يقوى بهم ؛ أو يضعف بسببهم ؛ والقرآن الكريم أفصح عن هذين الجانبين فى صلة الإنسان بأقاربه فى الدم والنسب : يقول الله تعالى فى بيان الجانب الأول : على لسان موسى عليه السلام مناجيا ربه : « وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون . قال: سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون » . فطلب موسى أخاه هارون عليهما السلام ؛ من مولاهما جل شأنه ليكون فى صحبته وليعينه ويحميه فى رسالته .

وقد أجابه المولى سبحانه وتعالى إلى ما طلبه وشد عضده بأخيه وقوى به سلطانه وأمره، ووعدهما بعد ذلك بالغلبة والنصر هما ومن يستجيب لدعوتهما . فالقرابة هنا كانت قوة ؛ لأنها بقيت فى صون من الانحراف : لازمها الإخلاص، ونقاء السريرة، ووحدة الاتجاه .

أما الجانب الآخر فتمثله قصة يوسف عليه السلام مع إخوته . انحرفت علاقة القرابة بينه وبينهم ، فحقدوا عليه ، وحاولوا أن يكيدوا له فى أبشع صور الكيد ، وهى العمل على قتله ، والتخلص منه لتخلو لهم الحياة

مع أبيهم . وينفردوا بصحبته ، يقول الله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عُصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ، يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين » . نعم هم قد ندموا بعد ذلك على ما عقدوا عليه العزم وحاولوا تنفيذه ، كما يدل عليه قوله تعالى : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » . وقوله : « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين » . ولكن مع ذلك موقفهم كإخوة من أخ لهم أول الأمر قبل ذلك ، يعطى أن الأقارب قد يدفعهم الحقد والانحراف فى علاقة بعضهم ببعض إلى أن يكونوا مصدر ضعف وإزعاج وقلق ، بدلا من أن يكونوا ، مصدر قوة ، وعون ، وجاه .

إذا كانت هذه سنة الإنسان فى علاقته مع أقاربه ، وكانت قوته بهم أو ضعفه عن طريقهم ، أمراً غير عادى ـ كان من السلامة فى توجيه الإنسان نحو أقاربه أن تزداد علاقته بهم ، كما تقضى طبيعة صلتهم به . وأن يكون هناك تعادل وتكافؤ بين أساس هذه الصلة ورعاية شأنها ، وهذا التوجيه هو ما يوحى به القرآن الكريم فى هذا الجانب . فالقرآن يعنى بهذه الصلة من الجهة النفسية والزوجية ، ثم من الجهة المادية :

يقول الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » . ويقول : « ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل : لا أسألكم عليه أجرا ، إلا المودة فى القربى » .

فى هاتين الآيتين الكريمتين أبرز القرآن : مدى حرصه على أن يعنى الأقارب بعضهم ببعض فى صلاتهم . فعبر فى الآية الأولى بأن كون الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض فى رعاية العلاقات والترابط ـ أمر مسطور فى كتاب الله ، ولم تخْلُ عنه رسالة من رسالات السماء ، حتى القرآن الكريم . ودلالة هذا التسجيل زيادة الحرص من قبل الله تعالى على أن يعنى الناس بعلاقة القربى عناية شاملة ، لا تقل فيها العناية بترضية النفوس والإبقاء على صفائها ، العناية بمساعدة المعوزين ، عند القدرة ، من الأقوياء مساعدة مادية ، تقيهم شر الحقد على الأغنياء فيهم ؛ وشر الذل للحاجة نفسها .

ثم بجانب هاتين الآيتين اللتين تدلان على طلب الرعاية فى صورها المتنوعة لعلاقة القرابة ـ نجد آيات أخرى تطلب إلى الموسرين أن يعنوا بأقربائهم ويسهموا

فى سد حاجاتهم ، لا بعنوان أنهم فقراء أو مساكين ؛ بل بعنوان أنهم أقرباء ، يقول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب . » .

ويدل على زيادة اهتمام القرآن بطلب العناية بعلاقة الأقرباء بعضهم ببعض ، حتى تتكافأ مع منزلة هذه العلاقة فى أصل وضعها ، وفى آثارها الطيبة إذا استقام أمرها ـ تقديمه الأقرباء فى استحقاق الحصول على أموال البذل والعطاء ـ الذين ليس لهم يسار وبهم حاجة ، على غيرهم ممن هم خارج الأسرة : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين » . « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى » . « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى » . وسئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصدقة على القريب فقال : « له أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة » . ولفظ الحديث فى رواية النسائى والترمذى : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة » .

هذا هو الدين فى حياة الإنسان ، إن قورن بالقانون والفلسفة .

وهذا هو الإسلام على الخصوص فى حياة الإنسانية بعد ذلك ! وحدة فى المعبود . وانسجام فى سلوك الإنسان .

وتعادل فى الأسرة بين الزوجين ، وتكافؤ فى علاقة الأبناء بالآباء ، وتوازن فى علاقة الأقارب بعضهم ببعض ، إنه رسالة الله ، لتوجيه الإنسان . وطريقه هو الطريق المستقيم . اللهم اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ؟

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات فى فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

— ٣ —

قال الله تعالى فى سورة الأنفال :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

وللمفسرين عدة روايات فى سبب نزول هذه الآيات ، وكلها ذات صلة بموقف وقفه عمر رضى الله عنه ، فيما تروى هذه الروايات .

فمن ذلك ما رواه ابن أبى شيبة ، والترمذى وابن المنذر ، والطبرانى ، والحاكم وغيرهم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما كان يومُ بدر جيء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول قومُك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله ، كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك ! قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمك ؟ فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ برأى عمر ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » .

مَثَلك يا أبا بكر مثَلُ إبراهيم عليه السلام قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام : قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

ومثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » . ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » أنتم عالة فلا يَنْفلتنّ أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

فقال عبد الله : يا رسول الله : إلا سهيل ابن بيضاء ، فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىَّ الحجارة منى فى ذلك اليوم : حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلا سهيل بن بيضاء » ، فأنزل الله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » إلى آخر الآيتين .

وروى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنه - والتفصيل لأحمد - قال : لما أسروا الأسارى - يعنى يوم بدر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماترى يابن الخطاب ؟ فقال : لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل - أى أخيه - فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان - قرابته - فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، قال عمر : فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت يا رسول الله : أخبرنى ، من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى للذى عَرض علىَّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة منه - وأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .

هذه هى القصة التى ذكرتها الروايات فى سبب نزول هذه الآية والتى تأثروا بها فى شرح معناها ، وقد اتصلت بها بحوث كثيرة ومشكلات عويصة ، وصار المفسرون يجتهدون فى تتبع هذه البحوث ، وحل هذه المشكلات .

فمن هذه البحوث : الموازنة بين ما أشار به أبو بكر من سياسة الترفق واللين ، وما أشار به عمر من سياسة العنف والشدة : أيهما خير وأجدى على المسلمين ؟ فمن الناس من رأى موقف أبى بكر أصلح وأرشد بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم مال إليه وارتضاه وعمل به ، وأن القرآن مع نقده له قد أقره بعد وقوعه ولم يأمر بنقضه ، ومن الناس من رأى موقف عمر أصلح ، وقال : لو أن المسلمين أخذوا به يومئذ لكسروا شوكة الشرك نهائيا ولما قامت للشركين قائمة بعد ذلك اليوم ، ولكنهم لم يأخذوا برأى عمر فلم يمض عام واحد حتى قام المشركون بحربهم فى يوم أحد وهزموهم

يومئذ شر هزيمة ، ويؤيدون ذلك بأن القرآن نقد موقف المسلمين فى قبول الفداء ، ولوح لهم بأن القتل كان أولى حيث ذكر الإثخان فى الأرض ، وقرر أنه لولا قضاء من الله سبق بالرحمة لمسهم فيما أخذوا من الفداء عذاب عظيم .

ومن المشكلات التى أثيرت فى هذا المقام : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مال إلى رأى أبى بكر وأصحابه وكانوا هم الكثرة . فكيف يميل الرسول إلى رأى خاطىء وهو المعصوم المؤيد من ربه ؟ لئن كان قد تصرف فى ذلك بدون وحى من الله وكان عليه انتظار الوحى فإنه يكون مذنباً ـ وحاشاه ـ ولئن كان قد اجتهد بعد المشاورة والتدبر فاختار جانبا رأى فيه المصلحة بحسب رأيه ؛ فهو لا يعدو أن يكون مجتهدا أخطأ ، وقواعد الإسلام المُسَلمة عند جميع العلماء تقضى بأن المجتهد المخطىء غير ملوم ، فكيف يلوم الله تعالى رسوله والمؤمنين هذا اللوم الشديد حتى يقول لهم وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى » ـ أى ما كان ينبغى ذلك وما يليق ، وحتى يقول لهم وفيهم رسول الله ـ : « تريدون عَرَض الدنيا والله يريد الآخرة » ، وحتى يقول لهم وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . وحتى يجلس الرسول وأبو بكر ـ من أجل ذلك ـ مجلس الباكين النادمين على النحو الذى تذكره الروايات .

وتفرعت على ذلك بحوث فى جواز الخطأ على الرسول أو عدم جوازه ، وفى إقرار الله لهذا الخطأ أو عدم إقراره .. إلى غير ذلك .

وقد عدّ ذلك فى موافقات عمر وهى المواضع التى نزل القرآن فيها مؤيدا لرأيه .

ومما يلاحظ أن البخارىّ لم يورد فى صحيحه شيئا من هذه الروايات وإن كانت قد وردت من طرق أخرى من رجال السنة والشيعة .

ولبعض العلماء المعاصرين من إخواننا الإمامية ـ وهو المغفور له البحاثة العلامة الشيخ شرف الدين الموسوى من علماء لبنان ـ رأىٌ فى معنى هذه الآيات يخالف ما رواه الشيعة والسنة من سبب نزولها ، وهو رأى يستحق النظر ، ذكره فى كتابه « النص والاجتهاد » ص ١٨٢ .

وخلاصته أن المسلمين كانوا حين ندبوا لغزوة بدر مترددين ، وكان كثير منهم قد أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع بعد أن فاتتهم عير أبى سفيان ، فقد صح فيما رواه أصحاب السير ، أن النبى صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه فقال لهم : إن القوم قد خرجوا على كل صعب وذلول فما تقولون ؟ العير أحب إليكم أم النفير ؟ قالوا :

بل العير أحب إلينا من لقاء العدوّ ! وقال بعضهم حين رآه صلى الله عليه وسلم مصرا على القتال : هلا ذكرت لنا القتال لنتأهب له ؟ إنا خرجنا للعير لا للقتال ! فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . وحيث أراد الله عز وجل أن يقنعهم بمعذرة النبى صلى الله عليه وسلم فى إصراره على القتال وعدم مبالاته بالعير وأصحابه قال عز من قائل : « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . أى تلك سنة الأنبياء والمرسلين قبل نبيكم محمد ، فهو على سنة إخوانه ولذلك لم يبال إذ فاته أسر أبى سفيان وأصحابه حين هربوا بعيرهم إلى مكة ، لكنكم أنتم تريدون - إذ تودُّون أخذ العير وأسر أصحابه - عرض الدنيا والله يريد الآخرة باستئصال ذات الشوكة من أعدائه، والله عزيز حكيم ، والعزةُ والحكمة تقتضيان يومئذ اجتثاث عز العدو ، وإطفاء جمرته ،

وهذا هو المعنى الذى يتفق مع قوله تعالى قبل هذه الآيات : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين » - أى طائفتى العير أو النفير - « أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » - والمراد بها العير وأصحابها ، « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . فهناك شبه واضح بين قوله تعالى : « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، وقوله تعالى : « تريدون عرض الدنيا » ، كما أن هناك شبها واضحا بين قوله جل شأنه : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » ، وقوله جل ذكره : «والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم» ثم قال الله تعالى تنديداً بهؤلاء « لولا كتاب من الله سبق » فى علمه الأزلى بأن يمنعكم من أخذ العير وأسر أصحابه ؛ لأسرتم القوم وأخذتم عيرهم يومئذ ، ولو أنكم فعلتم ذلك « لمسكم فيما أخذتم » قبل أن تثخنوا فى الأرض « عذاب عظيم » - ويصح أن يكون المراد بهذا العذاب العظيم : هو ما يصير إليه حالهم من الضعف والتخاذل والذل والخنوع والعار بعد أن يصبحوا فى المدينة ولا هم لهم إلا سلب أعدائهم ما يمرون به عليهم من تجارة وأموال ، فإن ذلك سيجعلهم يركنون إلى الاستمساك بالأموال والمكاسب من طريق الأسر والغنيمة ، بدون حرب وإثخان فى الأرض فيكون لهم وضع أشبه بوضع قطاع الطرق ، وسيدفع ذلك أعداءهم إلى أن يعتقدوا فيهم أنهم أصحاب أغراض وأعراض دنيوية لا أصحاب مبادئ ورسالة إصلاحية ، ومن ثم يقوون عليهم وتضيع هيبتهم من صدورهم - هذا هو معنى قوله تعالى: « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض» الخ .

ولا يصح حمل الكلام على غير ذلك ، وأخطأ من زعم أن رسول الله اتخذ الأسرى وأخذ منهم الفداء قبل أن يثخن فى الأرض ، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما فعل ذلك بعد أن قتل صناديد قريش وطواغيتها كأبى جهل ابن هشام ، وعتبة ، وشيبة بن أبى ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والعاص بن سعيد ، والأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وأمية ابن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وعقيل ابن الأسود ، ونبيه ، ومنبه ، وأبى البخترى ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وطعيمة بن عدى ابن نوفل ، ونوفل بن خويلد ، والحارث ابن زمعة ، والنضر بن الحارث بن عبد الدار ، وعمير بن عثمان التيمى ، وعثمان ومالك أخوى طلحة ، ومسعود بن أمية بن المغيرة ، وقيس ابن الفاكه بن المغيرة ، وحذيفة بن أبى حذيفة ابن المغيرة ، وأبى قيس بن الوليد بن المغيرة وعمر بن مخزوم ، وأبى المنذر بن أبى رفاعة ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وأوس ابن المغيرة بن لوزان ، وزيد بن مليص ، وعاصم بن أبى عوف ، وسعيد بن وهب حليف بنى عامر ، ومعاوية بن عبد القيس ، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث ابن أسد ، والسائب بن مالك ، وأبى الحكم ابن الأخنس ، وهشام بن أبى أمية بن المغيرة .

إلى سبعين من رءوس الكفر وزعماء الشرك كما هو معلوم ، فكيف يمكن بعد هذا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ الفداء قبل أن يثخن فى الأرض ؟ وأى إثخان بعد هذا الإثخان ؟ وكيف يتناوله هذا اللوم الإلهى بعد إثخانه إلى هذا الحد ؟ تنزه رسول الله ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وبهذا يتبين أن قوله تعالى: « ما كان لنبى » . إلخ ... مرتبط بما كان من المؤمنين قبل الغزوة ، من رغبتهم فى العير دون النفير ، لا بما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من التشاور فى الأسرى بعد انتهاء الغزوة بنصر المؤمنين ، وإذن فلا يشمل الكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تثريب عليه ، إذ لا خطأ منه . وإذا صحت واقعة التشاور فى أمر الأسرى هذه فلا ضير من صحتها فى هذا الإطار ، ولا ضير من اعتبارها اجتهاداً من الرسول والمسلمين ، أخذ الرسول فيه بما هو أشبه بخلقه من الصفح والترفق والرحمة ، واتجه عمر فيه إلى ما رآه مصلحة أصدر فيها عن طبيعته الراغبة فى حسم الفساد ودرئه بالقوة ، احتياطا من أن يستفحل الخطر على المسلمين ، ولم يتصل بهذا الشأن الشورى المصلحى قرآن بالتخطئة والتصويب . والله أعلم ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

نفحات القرآن

ذكرى ميلاد الرسول

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) إن الله وملائكته يصلون على النبى !!.

(ب) يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.

(ا) بلغ من تكريم الله لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يحفه بالصلاة عليه من جانبه تعالى ومن جانب الملائكة، وأن يأمر عباده المؤمنين أمر تكليف بالصلاة وبالتسليم عليه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ومعنى الصلاة من الله على رسوله: رضوان يزداد، ورحمات تتجدد، ومعناها من الملائكة استغفار له، وطلب المزيد من الرفعة، وكذلك من المؤمنين: معناها الضراعة إلى الله أن يضاعف تكريمه لمحمد، وأن يزيده طمأنينة، وسلامنا عليه معناه: التحية له، وطلب الأمان له من جانب ربه ليظل مقامه فى صعود، وليظل آمنا على أمته أن تكون خير أمة، وأن تكون شفاعته مستجابة لها.

ومتى بلغ الكمال بمحمد أن يصلى عليه ربه والملائكة فقد يمر بالخاطر أنه لم يعد بحاجة إلى صلاة أو تسليم من جانب الناس !!.

ولكن درجات الكمال تتصاعد عند الله إلى حد لا يعلمه غيره سبحانه.

ومحمد يستحق عند ربه أن يصعد فى الكمال أقصى مما تقدره عقولنا، فالله - تعالى - يمنحه ذلك الفضل، ويفرض علينا أن ننشد له بكثرة الصلاة والتسليم تحقيق ما هيأه له؛ لنكون - نحن - مأجورين على ذلك، ولتكون ذكريات الرسول عامرة لقلوبنا، وجارية على ألستنا، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى حديثه - ما من كامل إلا وعند أكمل منه -.

وإذا كان تكريم الله لمحمد يأخذ صفة التشريع بالنسبة لنا، فمن الحق علينا أن نستجيب لأمر الله ما استطعنا.

فاللهم صل وسلم على رسولك محمد ما دام فضلك ممدوداً ، ونعمتك سابغة ، واجعل حبه فى كل قلب ، وذكره على كل لسان ، حتى نبرأ من عهدة التكليف ، ونكون أهلا لشفاعته يوم لقائك .

وبعد : ـ

فنى ذكريات الميلاد للأبناء إحياء وتمجيد لتاريخ استقبلناهم فيه ، وتجديد لفرحة غمرتنا بمولدهم واستجابة لعاطفة مشبوبة دائما بحب الولدان وبالحدب عليهم ، والتماس الخير لهم ، وارتقاب الأمل فيهم .

فإذا شب الوليد ، وبلغ مبلغ الرجولة لم يعد حسابنا معه حسابا عاطفيا ، فقد تخطينا به عهد الترفق ، وتجاوزنا معه زمن التدليل .

بل أصبح موقفنا منه موقف المقاصة .

فإذا صدق أملنا فيه ، وكان لأهله وقومه ، أعطيناه من تقديرنا له كفاء ماله من فضل فى أهله وبين قومه . وحق علينا تكريمه ، والإشادة بمآثره ليكون قدوة متبوعة ، ولتكون ذكراه منار الاهتداء ، ومثار الاستلهام فيظل نفعه موصولا ، وحياته خالدة حتى بعد مماته ـ والذكر للإنسان عمر ثان . . . ـ

وقد كانت الذكرى قديما أمنية إبراهيم عليه السلام « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » ، بذلك شأننا مع أبنائنا فى ذكريات الميلاد ، وما يحف بها ، أو يعقبها من خواطر وآمال ، ونتائج .

فأين من هذا كله ما لقيه محمد من حفاوة قومه بمولده ـ أولا ـ ومن تقديرهم له ـ أخيرا ـ ؟ ؟ .

كان مؤسفا لقريش ولعبد المطلب خاصة ، أن يفقده ولده عبد الله فى سفره إلى المدينة ، إذ لم يكن هذا الشاب أثيرا على إخوته عند والده فقط ، بل كان شابا مرجو الخير بين شباب مكة ، وكان مرموقا أكثر من سواه . ولكنه عوجل بالموت مأسوفا عليه . . . وترك زوجته ـ آمنة بنت وهب ـ حاملا فى أول أيامها . . فتعلق أمل الجد وأمل بيته أن يجىء الحمل غلاما ، ليكون عوضا عن أبيه ، وسلوة لأهله .

وما كادت البشرى ـ بعد ـ تطرق مسامع عبد المطلب بمولد الغلام ، حتى هاجه الفرح وانتعش فيه الأمل ، واقترح أن يكون اسم المولود ـ محمدا ـ .

وكانت هذه تسمية مفاجئة غريبة عند قريش ؛ لأنه اسم جديد عليهم ، لم يعهدوه فيما مر بهم ، فاعترضوا على عبد المطلب لاختياره اسما يخالف ما تعارفوه عن أسلافهم

فأجابهم عبد المطلب : سميته محمدا ، راجيا أن يكون على صفات يحمدها الناس له .

وكأن عبد المطلب كان ملهما فى اختياره ، أو كأنه كان مقتنعا بصدق منام رأته آمنة أنها ستلد مولودا يكون محمدا .

وقد صدقت الأيام إلهام عبد المطلب ، أو منام آمنة ، أوهما جميعا : إذ أن محمدا أخذ يتدرج فى طفولته وشبابه على نمط من سمو الخلق لم يألفوه ، ولم يعهدوه فى غيره .

وأخذت حياته تتبلور فى إيهاب من الكمال يثير العجب من وقت إلى وقت عند شيوخ مكة وشبابها ، إذ كانوا يجتمعون للسمر أو يشربون ، ويمرحون ، ويأخذون من اللهو بضروب غير محدودة ، ومحمد وحده بنجوة من هذا كله .

وكلما مرت به الأيام تبينوا من محمد فى كلامه وتفكيره ونزعاته ، ومعاملته : ما يشعرهم أن لهذا الفتى شأنا فوق ما يظنون ويقدرون . حتى كان من جنوحه إلى العزلة أن يذهب حينا بعد حين إلى الجبل ليخلو بنفسه ، ويفكر فيما حوله أو فيما يشهد من مظاهر الكون : فهذا نهار وليل يتعاقبان ، وشمس وقمر يختلفان ، وهذه نجوم تبدو ثم تغيب ، ورياح تهب وتسكن وأمطار تنهمر وتكف ، وكل هاتيك المشاهد ونحوها آيات مسطورة ، وعجائب منثورة : ومحمد يتابعها بنظراته ، وتأملاته ويدرك من أمرها أن هذا الوجود صادر عن قدرة جبارة قاهرة ، وأن تصريف هذا الكون عن إرادة باهرة ، ولا يستسيغ عقل أن يكون لهذا الإبداع إله معبود غير خالقه الذى أحكم تدبيره ، وسيره .

فما هذه الأصنام التى تحتفى بها قريش وهى أحجار منحوتة ، وما هذا الضلال الجاثم على عقول خلقت للتمييز وحسن الإدراك ، ولكن ما السبيل إلى التخلص من هذه الورطة وترك هذه الأباطل ، والاتجاه إلى الحق من طريقه المأمونة ، هذه سورة عارمة تثور فى نفس محمد ، وتستبد بخواطره فى صبحه ومسائه وفى غدوه ورواحه ، وفى وحدته واجتماعه وهو يود لو تكشفت له تلك الأسرار ليعرف ما لا يعرفه وليشفى نفسه من هذا القلق اللاعج ؟

وفى ليل ساج أو ظلمة موحشة ، وخلوة رهيبة فى رأس الجبل ، وبينما محمد تغمره خواطره تلك ، ويستفزه الألم ، ويخامره الأمل بين جدران الغار - غار حراء - إذ يهبط عليه الملك أمين الوحى - جبريل عليه السلام ويبلغه أمر ربه أن يقرأ .

وماذا يقرأ محمد ، وكيف ، وهو لم يجلس إلى معلم ، ولم يتعود أن يمسك قلما ، ولا يستطيع أن يقرأ كلمة ؟ .

ولكنه بمعونة الله - الذى اختاره أميا - يتابع جبريل ، فيردد ما أوحى إليه « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

وإن تكن الأمية مانعا من القراءة فقدرة الله تغلب كل مانع ... وإن تكن الأمية نقيصة أدبية فهى بالنسبة لمحمد وحده كمال ، وتزكية ... إذ هى سياج له من تشكيك المكذبين ـ بعد ـ فيما يوحى به إليه .

وهى الحجة الدامغة على أن علمه كله من عند ربه ، لا من علم الناس ، ولا من طريق الناس « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

ومنذ ليلة الوحى بالقرآن خرج محمد عن عزلته ، وجاهر بدعوته ، وثابر على جهاده واستهان بكل ما لقى من عناء وصعاب حتى نهض فى الدنيا دين حق تقوم عليه الحياة ، وتوافر فيها علم يهتدى بنوره الأحياء ، وارتسم للعالم نهج خلق صحيح يسمو بالناس إلى مشارف الإنسانية الكريمة .

وإنه لعجب : أن تكون القراءة والكتابة والإشارة بالقلم ، وبالعلم هى التوجيهات الأولى فى رسالة هذا النبى الأمى ! وأن تكون دعوته قائمة على امتداح العلم والترغيب فيه ، وتمجيد أهله حتى كانت مكانتهم فوق مستوى الناس من غير أهل العلم ولو كانوا ملوكا « قل : هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ؟ » .

ثم إذ كانت رسالة محمد بهذه المثابة فى إصلاح بيئته ، وإنقاذ البشرية من ضلالتها .

وإذ كانت ـ ثانيا ـ بعثة محمد فخرا ذاتيا لقريش وللعروبة كلها ! فهل تلفت قومه إلى ما ينبغى من تقديرهم له : كما يقتضى الوفاء ، وكما هو المظنون فى وفاء العرب خاصة ؟ كان محمد بارا بقومه ، وبالناس جميعاً ، وكان قدوة الدنيا بأسرها فى هداه وإصلاحه .

فلماذا انحرف عنه أكثر أهله ، وطرحوا عصبيتهم له ، ووفاءهم نحوه ، ولم يحفلوا بذكرى ميلاده بعد ـ كما نحتفل نحن بذكريات الميلاد لأبنائنا على ما بين المقامات من بعد سحيق ؟ ؟ .

تحكمت فيهم الضلالة ، واستبد بهم الحقد ، وتغلغلت الأنانية وحب السيادة ، فكانت جفوتهم لمحمد فوق كل جفوة ، وكان إسرافهم فى النكال به ، حتى اعتزموا قتله ليطفئوا نور الله الذى انبثق فى دنياهم برسالة محمد ، ولكن الله أحبط كيدهم ، وأخزى وجوههم ، وأبدله منهم قوما آخرين عاهدوه على النصرة ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، والله متم نوره ولو كره المشركون .

نعم ! لم تكن من قريش حفاوة بمولد محمد ـ لا : أولا ـ ولا : أخيرا ـ .

ولكن الله تكفل لمحمد بأبلغ حفاوة

فنصره عليهم ، وجعل قدره فوق الأقدار وكرمه على الناس جميعاً . وأوجب علينا الحفاوة به فى مداومة الصلاة عليه والتسليم ، وأن خير ما يرضى محمدا من تكريمنا له أن تكون أخلاقنا من أخلاقه ، وسيرتنا على هداه ، ومعاملاتنا وحياتنا كلها مستمدة من توجيهاته . وحينذلك نكون كرمنا نبينا تكريماً عملياً مشكوراً عنده وعند الله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » .

هذا - وقد أوجزنا القول فى حدوده المقبولة ... ولكننا نلحظ فى ملامح الأحداث التى لها بروز فى حياة الرسول أن أكثرها وقع فى يوم الاثنين ، ولابد لهذا من حكمة ونحن نذكرها ، ولعل فى اتجاه القراء إليها ما يحفز بعضهم على بيان ما لم نعرفه من حكمة هذا التوافق :

١ — ولد - صلى الله عليه وسلم - ليلة الاثنين ١٢ من ربيع الأول عام الفيل سنة ٥٧١ م .

٢ — أول منام رآه من منامات النبوة ليلة الاثنين من ربيع الأول سنة ٦١١ م .

٣ — نزل عليه القرآن ليلة الاثنين من رمضان سنة ٦١١ م .

٤ — خرج من غار حراء يوم الاثنين من ربيع الأول سنة ٦٢٤ م سنة ١٣ من الرسالة .

٥ — وصل إلى قباء يوم الاثنين من ربيع الأول سنة ٦٢٤ م سنة ١٣ من الرسالة .

٦ — خرج لغزوة بدر يوم الاثنين ثامن رمضان سنة ٢ هـ وكانت الموقعة فى ١٧ .

٧ — كان الإسراء والمعراج ليلة الاثنين - على الأرجح - قبل الهجرة بسنة .

٨ — كانت وفاته صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ١٠ من الهجرة هذا وفوق كل ذى علم عليم ؟ .

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

محاولات شيوعية فاشلة
في العصر القديم

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

لم يخل العصر القديم من محاولات لتطبيق النظام الشيوعي ومن مذاهب فلسفية اجتماعية تقوم على أساس هذا النظام . ولكن هذه المحاولات جميعاً قد كتب عليها الإخفاق ، سواء في ذلك العملي منها والنظري ، وذلك لما ينطوي عليه النظام نفسه في جوهره من فساد ذاتي ، ولتعارضه مع اتجاهات النزعات الفردية . ومع السنن التي يقوم عليها العمران الإنساني ، وتعتمد عليها العلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض . وكانت الدوافع لهذه المحاولات ترجع دائماً إلى اضطراب الحياة الاقتصادية ، واختلال توازنها ، وسوء توزيع الثروة ،واتساع الفروق بين الطبقات، واستعلاء بعضها على بعض ، وشدة الفقر والعوز في الطبقات الدنيا ، وهي التي تتألف منها في العادة الأغلبية الساحقة من الشعب .

ومن أشهر هذه المحاولات محاولة «الحسديين» في بني إسرائيل ، ومحاولة « ليسكورغوس » و « أفلاطون » عند قدامى اليونان .

* * *

أما فيما يتعلق ببني إسرائيل ، فقد أتيحت لهم في العصر القديم فرص كثيرة للإثراء واستثمار الأموال . وقد أفاد من هذه الفرص أكبر إفادة بعض طبقات وبعض أفراد من بني إسرائيل ، فملكوا الضياع والقصور ، وغرقوا هم ونساؤهم وأولادهم في الترف والنعيم ، وظهرت الفروق واسعة صارخة بينهم وبين سائر أفراد الشعب في مآكلهم ومشاربهم وزينتهم ومساكنهم وسائر شئون حياتهم ، واستعلوا على غيرهم استعلاءاً كبيراً [١] . وكان لابد لهم ، لكي يبقوا على مستواهم المعيشي والاقتصادي ، أن يمعنوا في ابتزاز الطبقات الدنيا وتجريدها من كل شيء . ولم يكونوا ليخشوا من جراء ذلك جزاء ولا حساباً . فقد كانوا هم الصفوة المختارة ، الذين يراقبون الناس ولا يراقبون، ويحاسبونهم ولا يحاسبون ، وكانوا قادة الشعب وحكامه ، بيدهم الحل والعقد ، وعن طريقهم تساس الأمور . وكانوا لا يتورعون في سبيل الإثراء

---

(١) انظر أوصاف طبقة المترفين في معظم أسفار « الأنبياء » من العهد القديم ، وخاصة في الإصحاح الثالث من « أشعياء » Essaïe , Isaïe حيث يصف الترف في نساء هذه الطبقة في فقرات ١٦ ـ ٢٤ .

عن الالتجاء إلى أخس الوسائل . فكانوا يأكلون السحت ، ويمدون أيديهم للرشوة ، ويسلبون أموال الضعفاء واليتامى والأرامل، ويقرضون المعوزين من بنى إسرائيل وغيرهم بربا فاحش (١) ثم يستولون على أراضيهم سداداً لديونهم أو يبيعونهم ويبيعون أولادهم وزوجاتهم بيع الرقيق .

فاستحالت من جراء ذلك معظم الأراضى إلى إقطاعيات كبيرة يملكها عدد محدود من الأفراد والطبقات ، وتكدست كذلك معظم الثروات الأخرى فى أيدى هؤلاء ، حتى لقد ضاقت بها بيوتهم ، ولم يقـــو البشر على حراستها ، فلجئوا إلى بيت الله ، إلى المسجد الأقصى ، واتخذوا فيه أنفاقا ومغارات وخزانات يحفظون فيها نقودهم وتحفهم وأحجارهم الكريمة والثمين من أموالهم ، حتى تكون فى حراسة الإله نفسه ورعايته . فاستحال بذلك المعبد إلى « بنك » يهودى لحفظ ودائع بنى إسرائيل ، وكان من نتائج ذلك أن اختفت الملكيات الصغيرة أو كادت وأن هوت دهماء الشعب إلى أحط منزلة فى البؤس والشقاء. وقد وصف ذلك النبى أشعياء فى أبلغ عبارة إذ يقول : « ألا تعسا لأولائك الذين يمدون ملكياتهم من منزل إلى منزل ، ومن حقل إلى حقل ، حتى لا يكون ثمة موضع قدم لغيرهم ، وحتى يستأثروا وحدهم بسكنى هذه البلاد » (١) .

وقد أدت هذه الأوضاع الاقتصادية الفاسدة إلى ظهور اتجاهات شيوعية حمل لواء طلائعها فى القرن الثانى ق م جماعة الإيسينين أو الآزيين أو الحسديين Esseniens (٢) .

فقد نددت هذه الجماعة بنظام الملكية الفردية وما يجره هذا النظام على المجتمع من نتائج وخيمة ، ونادت بالملكية الجماعية ، ووجوب المساواة بين الناس ، وأن يعيش العالم فى سلام دائم ، وحاربت البذخ والترف والحياة الناعمة التى كان يحياها الأغنياء ، ودعت إلى الزهد والتقشف ، وطبقت مبادئها على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت . فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ،

---

(١) مع إن الربا كان بحسب شريعتهم محرما التعامل به بين الإسرائيليين بعضهم مع بعض : « لك أن تحصل على فائدة من الأجنبى ؛ ولكن لا يحل لك أن تفعل ذلك مع أخيك . . » . (التثنية ، إصحاح ٢٣ ، فقرة ٢٠ وإصحاح ١٥ ، فقرة ٣).

(١) أشعياء Essaïe الإصحاح الخامس ، فقرات ٨ ــ ١٠ .

(٢) انظر التعليق الاول بصفحة ٣١ من عدد المحرم سنة ١٣٧٩ من مجلة الأزهر فى مقالنا عن « موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة » فقد ذكرنا فى هــذا التعليق ترجمــة موجزة لهذه الجماعة .

وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعيا شائعا يحفظ ما يزيد منه على الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، ويشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه . وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعيا ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل « رفيق » من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم قادما من خارجها .

وكما ألغوا نظام الملكية الفردية فيما بينهم ألغوا كذلك نظام الرق . فجميع أفراد جماعاتهم كانوا أحرارا متساوين . وقد حرموا على أنفسهم الاشتغال بالتجارة ، لما تبعثه فى النفوس من جشع ، وحرص على جمع المال ، وجنوح لابتزاز الناس ؛ كما حرموا الاشتغال بصناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب ، لتنافر الغاية التى تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم ، وهى أن يعيش العالم فى سلام دائم . ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه ويتصل بهما من الصناعات . واقتضت مبادئهم فى التقشف والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءهما والتعامل بهما . وبالغ معظمهم فى تطبيق هذه المبادئ فحرموا على أنفسهم الزواج .

ولم يكن لهذه النظم الإسينية المتطرفة أثر ما فى حياة بنى إسرائيل . فلم تطبق إلا فى نطاق جماعة الإسينيين أنفسهم ، وفى مواطن منعزلة عن الناس . وهكذا يكون مصير كل نظام يحاول علاج أمر فاسد بما هو أشد منه فسادا .

* * *

وأما فيما يتعلق بقدامى اليونان فقد حدث لديهم فى هذا الصدد ما حدث لدى بنى إسرائيل سواء بسواء . فقد أتيحت لهم كذلك فرص كثيرة للإثراء واستثمار الأموال ، وأفاد من هذه الفرص أكبر إفادة بعض طبقات وبعض أفراد ، حتى ظهرت الفروق واسعة صارخة بينهم وبين بقية طبقات الشعب وأفراده . وكان لا بد لهم . لكى يحافظوا على مستواهم أن يمعنوا فى ابتزاز الطبقات الدنيا وتجريدها من كل شىء . وكانوا لا يتورعون فى سبيل الإثراء عن الالتجاء إلى أخس الوسائل . فكانوا يأكلون السحت ، وينهبون أموال الضعفاء ، ويقرضون المعوزين بربا فاحش ، ثم يستولون على أراضيهم سدادا لديونهم أو يبيعونهم ويبيعون أولادهم وزوجاتهم بيع الرقيق . وبالجملة أصبحوا كما وصفهم

أرسطو ، يحرصون على جمع المال أكثر من حرصهم على الشرف . فاستحالت من جراء ذلك معظم الأراضى إلى إقطاعيات كبيرة يملكها عدد محدود من الأفراد والطبقات ، وتكدست كذلك معظم الثروات الأخرى المنقولة فى أيدى هؤلاء ، حتى إن أراضى لاكونيا Laconie التى كانت عاصمتها إسبرطة كانت فى عهد الملك أجيس الثالث Ajis III. ملكا لنحوا مائة شخص فحسب ، وبجانبهم عشرات الألوف لا يجدون الكفاف من العيش . وفى أثينا ، كما يقول أرسطو نفسه ، تكدست الثروات فى يد عدد محدود من الأفراد ، بينما كان السواد الأعظم من الشعب يتجرع كئوس البؤس والشقاء ، ويعيش أحراره فى منزلة لا تزيد كثيرا على منزلة الرقيق ، بل لقد كان كثير منهم يحسد جماعة الرقيق على ماهم فيه .

وقد أدت هذه الأوضاع الاقتصاديه الفاسدة إلى ظهور اتجاهات شيوعية يرجع أهمها إلى اتجاهين : أحدهما نظام عملى حاول المشرع الشهير ليكورغوس تطبيقه فى إسبرطة ؛ والآخر مذهب فلسفى نادى به فى أثينا كبير فلاسفتهم أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » .

أما ليكورغوس (القرن التاسع ق - م) فقد حقق فى إسبرطة نظاما شيوعيا مبتكرا لم يسبق إليه . وذلك أنه ألغى نظام الملكية الفردية للأرض وأعاد تقسيم أرض لاكونيا إلى ثلاثين ألف قطعة متساوية القيمة بعدد الأسرات الإسبرطية حينئذ ، وأعطى كل أسرة قطعة منها . فأصبحت ملكية الأرض جماعية وأصبح جميع الأسرات سواسية كأسنان المشط . وجعل للدولة نفسها ، أى للمجتمع العام ، نصيبا كبيرا من غلة الأرض ودخل الناس فى مختلف مظاهر الإنتاج . وفى مقابل ذلك تنفق الدولة على جميع الشئون العامة وأعمال الحرب وتأخذ على عاتقها تربية جميع الأطفال الذكور وتنشئهم تنشئة عسكرية على نفقتها وفى دورها الخاصة . وكان كل وليد من الذكور تختبر بنيته وقواه الجسمية على يد أمه أولا وعلى يد رؤساء عشيرته ثانيا ، ولا يسمح ببقائه إلا إذا ثبت من هذين الاختبارين خلوه من جميع مظاهر المرض والضعف والعاهات . فلكى تتأكد الأم من صلاحية ولدها للحياة فى نظر مجتمعه كانت تغمسه عقب ولادته فى دن من النبيذ وتتركه مغموسا وقتا ما : فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه التربية ؛ وإن مات أدت الأم واجبها نحو المجتمع بأن خلصته من كائن ضعيف لا يستحق الحياة فى نظره . وكان الولد الذى تبقى عليه أمه يعرض على مجمع شيوخ القبيلة ورءوسها : فإن وجدوا أنه سليم معافى أقروا بقاءه نهائيا ؛ وإلا حكموا

بقذفه فى خارج الحدود . والوليد الذى يجتاز بنجاح هذين الاختبارين كان يعهد بحضانته إلى أمـه تحت إشراف الدولة نفسها حتى إذا تجاوز سن الحضانة تسلمته الدولة وقامت بتربيته تربية عسكرية وإعداده لشئون الحرب فى معسكرات عامة وعن طريق مربيين ومعلمين ومدربين من الجيش . فإذا بلغ سن الجندية التحق بالجيش العامل ، وظل به حتى بلغ السن التى لا يقوى فيها على مباشرة أعمال الحروب . وهكذا كانت دولة إسبرطة كلها أشبه شىء بمعسكر محارب أو متأهب للحرب . ومن ثم خضعت جميع نظمها الاجتماعية ومختلف شئون حياتها لمقتضيات الحروب . فكان نظامها الاقتصادى أدنى إلى ما نسميه الآن بالنظام الشيوعى : تملك الدولة بمقتضاها قسما كبيرا من ثروات البلد ومنتجاته ودخله ؛ وتقوم هى نفسها بتربية قسم كبير من أهله وتسخيرهم فى شئونها العامة.

وأنشأ ليكورغوس بجانب ذلك نظام « الموائد الجماعية » . ويقوم هذا النظام على تناول الرجال الأطعمة فى جماعات صغيرة تتألف كل جماعة منها من خمسة عشر شخصا على نظام العشائر ، ولكل جماعة ردهة خاصة تتناول فيها طعامها . وكان يجب على كل إسبرطى الاشتراك فى هذه الموائد وحضورها . فما كان يسمح لأحد ، كما يقول بلوطارخوس Plutarque « أن يسمن وحده خفية وفى الظلام كما تفعل البهائم الجشعة » .

وعلى الرغم من أن إسبرطة لم تكن مجتمعا طبيعياً مستقراً ، بل كانت أشبه شىء بمعسكر فى حالة حرب بالفعل أو فى حالة تأهب للحرب ، ومع أن هذا النوع من المجتمعات غير المستقرة يمكن أن يحكم وقتاً ما بنظم تختلف عن قوانين الاجتماع المستقر العادى ، على الرغم من هذا كله فإن نظم ليكورغوس الشيوعية قد أخفقت إخفاقاً مبيناً ، حتى لقد اضطر هو نفسه إلى تعديلها وإعادة توزيع الأرض أكثر من مرة . وقد اختل التوازن كذلك من بعده عدة مرات ، وكان كلما اختل التوازن يفكر ولاة الأمور فى إعادة تقسيم الأرض أو يشرعوا فعلا فى إعادة تقسيمها على النحو الذى فعله ليكورغوس .

* * *

وأما أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٨ ق . م) فقد ود لو أصبحت أثينا « مدينة فاضلة » تسير على نظام شيوعى قريب من النظام الذى طبقه ليكورغوس فى إسبرطة . وقد رسم فى كتابه « الجمهورية » ما ينبغى أن تكون عليه الحياة ونظم الحكم وشئون التربية وسائر فروع الاجتماع فى هذه المدينة الفاضلة . فذهب إلى أن المجتمع ينقسم ثلاث طبقات : طبقة الزراع والصناع ، وهؤلاء قد خلقهم الله للعمل الجسمى فحسب فلا يصلحون لأى عمل آخر ؛ وطبقة المحاربين وهؤلاء

يضطلعون بشئون الدفاع عن الأوطان ؛ وطبقة الفلاسفة ، وهؤلاء يتولون شئون الحكم ويديرون سياسة البلاد .

وتقسيم الناس إلى هذه الطبقات بحسب استعداد كل منهم ووفق نظام معقد فصله فى كتاب « الجمهورية » ولا يتسع المقام لبيانه الآن ، والقيام بتربيتهم وإعدادهم لوظائفهم المستقبلة ، كل هذا تقوم به الدولة نفسها وعلى نفقتها ، وبدون تفرقة بين الذكور والإناث . فالنساء - كل واحدة منهن حسب استعدادها - يشاركن الذكور فى جميع شئون الحياة . فتكون منهن الصانعات ، ومنهن المحاربات ، ومنهن المتخرجات فى مدارس الفلسفة العالية اللائى يضطلعن بشئون الحكم .

وغنى عن البيان أن نظاما كهذا يقتضى أن تكون الدولة نفسها هى المالكة لمعظم الثروات ومصادر الإنتاج فى البلاد ، وأن تجرى الحياة على نظام شيوعى تنمحى فيه الملكية الفردية أو لا يكون لها فيه شأن ذو بال . وقد رأى أفلاطون أن يطبق هذا النظام الشيوعى فى أدق معانيه على طبقة المحاربين . وأما طبقة المزارعين والصناع فيبدو أنه يسمح لهم بشىء من الملكية الفردية وبشىء من حرية التصرف فى ثروتهم ، على أن يدفعوا للدولة ضرائب تستعين بها فى شئونهم وشئون الطبقات الأخرى . ولكنه لم يعطهم حق توارث الملكية ، فملكية كل واحد منهم تئول إلى الدولة بعد وفاته .

ولم تحاول أثينا تطبيق نظام أفلاطون ولا الأخذ بأية ناحية منه ؛ بل كان موضوع سخرية مفكريها وشعرائها . ففى قطعة تمثيلية لشاعر الملهاة (الكوميديا) الشهير أريستوفان Aristophane (قصصى كوميدى فى القرن الخامس ق - م) عنوانها « جماعة النساء » L'assemblée des Femmes يصور الشاعر ما يكون عليه الحال فى هذا المجتمع الشيوعى الغريب ، فيظهر مواطنا يونانيا يخفى جميع أمواله ولا يقدم اشتراكه فى الموائد الجمعية ، ولكنه يتسلل إلى هذه الموائد يأكل منها حتى يبشم ثم يدلف إلى منزله ساخرا من حمق بعض المواطنين وسفههم إذ يقدمون أموالهم وكدح أياديهم إلى ما يسمونه « مخازن الموائد العامة » .

وقد تبين لأفلاطون نفسه فى أواخر حياته أن نظام جمهوريته هذه متعذر التطبيق فى بلاده بل فى أى بلد آخر كذلك ، نظرا لما ركب فى طبيعة الناس من نوازع وشهوات . فعدل فى كتابه « القوانين » عن معظم آرائه هذه ، وأقر الملكية الفردية فى حدود أوسع من الحدود التى أقرها فى كتابه الأول « الجمهورية » ورأى أن ينال أفراد الشعب جميعا - بما فى ذلك طبقة الزراع والصناع - قدرا مشتركا من التعليم العام .

على عبد الواحد وافى

خواطر من الحجاز

كنوزنا في طريق الضّياع

للأستاذ سعيد الأفغاني

الأستاذ بجامعة دمشق

بلغت دمشق بعد غياب أربعين يوماً فى الحجاز ، وحططت عن كاهلى من مشاق الحياة هناك وتكاليف الإجـراءات وعنتها فى الإدارات والشركات ما كان أشد على النفس من حر الهواجر ولهيب الصخور المتوهجة ، وعانى غيرى من الحجاج أكثر مما عانيت بكثير .

وواجب على كل عائد أن يلفت النظر إلى بواعث الشكوى وما ينبغى بذله لإزالتها ، فإن الداء لا يذهب بالسكوت عليه ، بل برفع العقيرة وهز المسئولين حتى يقوموا ببعض ما عليهم من الإصلاح - وهم عليه جد قادرين - فيعالجوا قضايا الحل والترحال وإقامة الحجاج بمكة ومنى وعرفات ، ببعض الرفق بالإنسان الذى تشتد حاجته هناك إلى ظل وماء غير مغلى وهواء غير ملوث كما يحسن أن نشعره أحياناً - ولو قليلة - بأنه شىء آخر غير كونه مستغلا للمطوفين والموظفين والباعة والشركات .

وودت لو تفرغ بعض القادرين لعلاج هذه القضايا وأمثالها وبسط شكاوى مئات الألوف وعرض الحل . . . فإن للناس فى المسئولين هنالك آمالا عراضاً فى حسن الاستماع وسلوك الجادة متى وضحت لهم . ولقد بلغنى أن مهرجانات دولية تقام فى المدن الأوروبية فيبلغ زوارها فى بعض الأحيان الملايين لا يضام منهم أحد فى إقامة ولا تنقل ولا حصول على ما يجب له من غـذاء ورعاية صحية ومسكن صالح وما إلى ذلك . . . ولولا أملى باستعداد العربية السعودية للخير لشايعت ظريفاً : مذهبه ألا يحج حتى يدخل الألمـان فى الإسلام فينسقوا لنـا شئون الحج بمـا عرفوا به من عقلية منظمة لا يستعصى عليها شىء . وقد - والله - بالغ هذا الظريف فى تشاؤمه ونسى أن النظام والنظـافة والرفق بالنـاس معان إسلامية تحققت فى المجتمع الإسلامى يوم كان الإسلام يحكم ، يعرف هذا كل منصف ألم بالتاريخ الإلمام الواعى .

وبعـد : فليس حديثى اليوم متعلقا بشىء من هذا ، لكنها كلمة على الهامش كما يقولون ،

ولعل لى إليه رجعة ؛ فلآخذ الآن فيما أنا بسبيله ؟ .

* * *

فى الحجاز كنوز نادرة من تراثنا المجهول ، عليك لكى تتصوره أن تطرح عنك فكرة خاطئة تجعل الحجاز قطرا كهذه الأقطار التى تعرف : إقليما محليا يضطلع بالتبعة فيه مسئولون محليون .

إنك اليوم تدرك أن عصبة الأمم لما كانت فى (جنيف) جعلت من هذا البلد عاصمة للعالم كله وخرجت به عن بلد إقليمى من سويسرا إلى محط للأنظار من كل الأقطار ، إليه يتجه زعماء العالم لحل مشاكلهم وحوله تحوم أمانى الشعوب قاطبة ، وذهبت عصبة الأمم ، وخلفتها هيئة الأمم المتحدة فنقلت هذا الاعتبار مضخما مفخما إلى نيويورك ، وأنت تذكر أفرادا ومؤسسات قدمت لهذه الهيئة ولتلك القديمة تبرعات سخية جدا .

تصور الآن أن الحجاز لبث أربعة عشر قرناً مهوى أفئدة العالم الإسلامى كله من الصين إلى المحيط الأطلسى ، وأن قدسيته فى النفوس فوق ما لعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة بكثير ، وأن هبات الأمراء والسلاطين والملوك والأثرياء تدفقت عليه من كل صوب لتنشأ فيه المدارس والمساجد والربط والزوايا والمكتبات العامة ، وتصلح الطرق وتسيل فيه المياه العذبة ، ثم حبّست الأوقاف الدارة على هذه المؤسسات الخيريه والعلمية ، وأن أمنية المتمنى أن يجاور فى مكة أو المدينة فيختم حياته بالخير والصلاح فى ديار مقدسة ، الحسنة فيها تفوق مثلها فى غيرها أضعافاً مضاعفة فإن حظى بالدفن فى البقيع فقد استوفى أمانيه كلها .

ثمة أمر آخر هام ، ذلك أن اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية الأولى يكاد يكون ميدانها هذه البقاع التى كانت مجال الخطباء والشعراء والحكماء فى الجاهلية ، ثم شهدت حياة الرسول وأصحابه ودولة الراشدين والأمويين والعباسيين . منها صدر القواد والفاتحون والعلماء والقضاة والقراء والمحدثون والأمراء ، ثم حرص كل ذى سلطان فيما بعد أن يكون الحجاز فى حوزته ليرضى طموحه ويستحق التبجيل فى قلوب الناس ، والتاريخ يشهد أن سلاطين بنى عثمان على سعة امبراطوريتهم لم يرض طموحهم أن ينعتوا : (ملك البرين والبحرين) حتى يضيفوا (وخادم الحرمين الشريفين) !! وليس فى الحجاز بقعة إلا خلدها شاعر أو أديب أو خطيب أو إخبارى ، أو شهدت حدثا من أحداث التاريخ المشهورة ؛ فكان كل مسلم بل كل مثقف حريصا على زيارتها ليستكمل استيعابه وفهمه لما قرأ .

هذه العالمية الموغلة فى القدم المتفردة

بالاستمرار تشرك دول العالم الإسلامى كله فى التبعة ولا تجعل العربية السعودية وحدها المسئولة عما حصل مما أقص عليك :

* * *

حرص المحسنون فى أقطار العالم الإسلامى على أن يهدوا أثمن مايقدرون عليه من تحف إلى المدينة وحرمها ، وكان من ذلك نفائس الكتب: مخطوطهاومطبوعها . وقدسيةالمدينة وساكنها عليه الصلاة والسلام فى نفوس الأمراء والعلماء والأثرياء حدتهم على أن يؤسسوا فيها دور العلم والعبادة ، وينشئوا المكتبات الفخمة ويزودونها بالنفائس من كتب العلم والمصاحف ، وبقيت المدينةعاصمة من عواصم العلم قرونا متطاولة ، يرحل إليها المتخصصون ليزيدوا علمهم ويتلقوا عن علمائها والعلماء المجاورين فيها وهم كثيرون من جميع الأقطار .

وحدثنى خبير من أهل العلم بالمدينة أنه «كان فيها نحو (١٢٤) مكتبة موقوفة على القراء ، وأن الظاهر منها اليوم نحو (٨٠) فقط ، وفيها من النوادر ما لا يعرف خبره أحد لضن أصحابها أو أمنائها بها على أنظار الناس ، بل لضنهم أحيانا بأخبارها على الأسماع .

فالمكتبة المحمودية كان فيها ـ على ما قال ـ نحو (٢٢) ألف مخطوط ، فلما نقلت قبل هدم المدرسة المحمودية فى مشروع توسيع الحرم وتفريغ ما حوله وكانت فى الساحة الغربية منه ، لما نقلت إلى الحرم كانت دون (١٥) ألف كتاب .

ومكتبة الشيخ أحمد عارف حكمة ،فيها اليوم نحو (١١) ألف كتاب ، وكان فيها عشرون ألفا ، ومكتبة عادل (العرفانية) فيها اليوم نحو (٨٠٠) كتاب وكان فيها (١٢٠٠) ، ومكتبة الحرم ليس فيها اليوم أكثر من (١٠) آلاف ، ومكتبة مظهر فى رباط مظهر ، كان فيها أكثر من (٢٠) ألفا أكثرها مخطوط وزعت على ثلاث غرف كبيرة والموجود منها اليوم لا يملأ الغرفة الواحدة وهلم جرا . . .

هذا فى مكتبات الوقف العام ، فأما مكتبات الوقف الخاص والمكتبات التى هى ملك خالص لأصحابها فلا تسل عما تسرب منها إلى خارج البلاد فذلك شىء يستعصى على الحصر» .

قد يكون فى تقدير الشيخ المحدث شىء من المبالغة ومهما حذفت فإن ما يبقى كاف لأن يكون نذير الخطر على ثروة هى مفخرة تاريخنا وحضارتنا .

ولقد زرت بعض هذه المكتبات ولبثت فيها أياما وأفدت منها :

فمكتبة شيخ الإسلام : أحمد عارف حكمة ، رحمه الله ، هى خيرها وأحفلها بالنفائس وأنظفها ، ولقيّمها اليوم عناية بها مشكورة ،

ولها فهارس منظمة على الفنون ، ولقد جلب لها واقفها - عليه رضوان الله - أجود ما قدر عليه من النسخ . وأذكر أنى طبعت العام الماضى (توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب[1]) عن نسخة - زعموا - فريدة فى باريس معزواً للرمانى ، ولم أعثر فى فهارس المخطوطات المطبوعة على نسخة له ثانية ، ثم أخبرت بوجود نسخة فى دار الكتب المصرية أجود من الباريسية دلت على أن اسم الكتاب (شرح الأبيات المشكلة الإعراب للحسن ابن أسد الفارقى) فبادرت بإلحاق بيان بنسخ الكتاب يصحح اسمه ونسبته ؛ فلما عرضت فهارس هذه المكتبة : مكتبة شيخ الإسلام وجدت له نسخة أصيلة جيدة مشكولة كتبت سنة (٦٠٢ هـ) ، فلو كان لها ذكر فى فهرس من الفهارس المطبوعة لوفرت عناء كثيراً وصانت من الخطأ وأغنت عن التصحيح . فهذا مثال واحد مما يضيع على الباحثين من إبقاء هذه المكتبات فى عالم المجهول .

ومزية مخطوطات مكتبة (أحمد عارف حكمة) على أمثالها مما رأيت فى مكتبات انجلترا وفرنسا وأسبانيا وتونس أن النسخة التى بها تفوق أمثالها فى غيرها من المكتبات فى الجودة والنفاسة والصحة غالباً . والظاهر أن صاحبها - وهو شيخ إسلام - تحرى أن يجعل فيها من كل كتاب أعلى نسخة ضبطاً وأناقة وأصالة ، وبذل فى ذلك ما قدر عليه ، فجاءت مكتبة منتقاة تشبه فى ندرة نسخها المتاحف . وقد رفق - رحمه الله - بالمطالعين فبنى المكتبة فى رباط قبالة دار أبى أيوب الأنصارى ، ليس بينها وبين قبلة الحرم المدنى غير الشارع ، جعلها فى قاعة فسيحة تعلوها قبة جميلة على الطراز التركى البديع .

ورباط مظهر الذى قال محدثى (كان فيه أكثر من عشرين ألف كتاب أغلبها مخطوط) يقع فى ناصية شارع حديث أوله شرقى الحرم وآخره قرب البقيع حيث بنى الرباط واسعاً جميلا يشرح الصدر ويقر العين ، تدخل إليه من دهليز يؤديك إلى صحن كبير تتوسطه حديقة فيها مجلس وقد حفت غرف المجاورين بالصحن من جهاته الأربع ، وفوقها طابقان يطل ممشى كل منهما على الصحن والحديقة ، والغرف تحف الممشى من خلفه . وفى الرباط نحو ستين غرفة ، أما المكتبة فحوتها غرفة كبيرة والكتب مكدسة فى الخزائن يعلوها الغبار وتعيث فيها الإرضة لقلة من يطلب كتابا فى العام كله ولذا قل أن تفتح المكتبة . ولها فهرس على الفنون ، وفهرس للإعارة الخارجية التى أرادها الواقف رحمه الله نشراً للعلم وإعانة لطلابه .

---

(١) طبعته الجامعة السورية فى مطبعتها سنة ١٩٥٨ م .

أسس هذا الرباط أحمد مظهر المجددى من أسرة المجددى المعروفة فى الأفغان (١) والهند ونسبها يتصل بعمر بن الخطاب (ويعرف أهل القاهرة منها الأستاذ محمد صادق المجددى سفير الأفغان فى مصر سابقاً وهو اليوم مجاور فى المدينة المنورة عاكف على العلم وعمل الخير). وقد رتب الواقف رحمه الله للرباط والمكتبة أوقافا واسعة وحال الرباط اليوم صالحة فى الجملة.

دخلت المكتبة أتصفح فهرسها المرقم وقد أعجبنى أن الكتب مرتبة على هذه الأرقام بحيث كان استخراج المطلوب سهلا على كل أحد، وقد أحصيت ما فى فهرسها فإذا هو لا يبلغ الألفين، ولعلك لم تنس أن محدثى جاوز بمضمونها العشرين ألفا وهاك بيان ما أحصيته:

٩٦	المصاحف.
٢٢٩	التفاسير.
٤٥٣	الحديث.
١٥	الفقه.
٤١٢	أصول الفقه.
٣٣٣	التصوف.
٢٢٥	السيرة.
١٧٢	النحو والصرف
١٩٣٥	المجموع

جلب انتباهى بقوة ودهشة فى فهرسها هذه الجملة (تاريخ ابن شبة بخط مؤلفه - رقم ٤٥ سيرة). فصحت أطلبه بلهفة عَجَّبَتْ منى رفيقى الشيخ الوقور صلاح الدين الزعيم، إذ كانت وفاة ابن شبة فى المائة الثالثة (٢٦٦هـ). فأى كنز هذا إذا كان جميعه بخط مؤلفه !؟. فتش حفيد القيم وفتشت معه فوجدنا الأرقام التى قبله والتى بعده وأعجزنا هذا الرقم أن نجد له أثراً، فلا تسل عن حسرتنا وأسفنا، ثم رجوت الشاب النابه حفيد القيم أن يعيد التحرى ويوسع دائرته ولو نبش المكتبة ورقة ورقة فوعد وكان لطيفاً أريحيا ولا عجب، فهو حفيد من طابت نفسه للأمة بهذا الرباط المعجب وتلك المكتبة الحافلة الثمينة.

وحدثت عشية اليوم نفسه صاحبى الخبير بما وقع لى فقال: «ارسلوا إلى القيم لا يتعب نفسه بالعبث فلن يجد الكتاب، لقد أتلف عمداً». فأنسانا والله بكلمته هذه ألم الحسرة وغصة الأسف وقلنا «ما الخبر؟» فقال: «اطلع على هذه النسخة فلان قاضى القضاة (وسماه) وقد ذهب إلى ربه يحاسبه، فرأى فى أخبار الكتاب ما ظن أنه يخالف مذهبه الخاص فى العقيدة، فاستعار النسخة فأتلفها،

(١) عرفت بالعلم والصلاح منها العلامة المشهور شاه ولى الله الدهلوى صاحب التصانيف المشهورة والذى أحيا الله به وبأولاده السنة بالهند.

ولما أبطأت العارية على القيم ذهب يطالبه المرة تلو المرة وهو يتعلل ثم ادعى ضياعها وكان القيم رجلا كل الرجل - وهو اليوم جليس فراشه فى المائة والعشرين من سنه - عافاه الله - فشكاه إلى الملك الراحل عبد العزيز بن سعود رحمه الله فأرسل إلى القاضى لحضر فعاتبه على المطل وسأله عن الكتاب فأقر بإتلافه وأنه تقرب بذلك إلى الله !!» .

ثم قص صاحبى قصصاً عن مخطوطات نفيسة تسربت إلى الهند ولندن وغيرهما على يد سماسرة أو أجانب يدعون الإسلام ، وآخر ما عرف خبره (مسند عمر بن عبد العزيز) كان فى إحدى مكتبات المدينة وكان يتردد عليها هندى عليه سيما الصالحين يطالع فيها ويستعير منها ويرد ما استعار حتى ألفوا ذلك منه ثم خفى عن الأنظار ، وبعد مدة عرف أن المسند مفقود . قال الشيخ : «وقبل أشهر كنت أستمع إلى برنامج إذاعة لندن فكان إحدى مواده . حديث لفلان : كيف وصلت مخطوطة مسند عمر بن عبد العزيز إلى المتحف البريطانى بطريقة عجيبة !! » .

هذا فى المكتبات العامة الموقوفة وقفا حراً فأما ما اشترط فيه أن يكون القيم من ذرية الواقف وما كان ملكا خالصاً فخبره أعجب والأمر فيه أدهى وأمر . وقد زرت إحدى هذه المكتبات الخاصة وهى المكتبة العلمية البساطية لآل البساطى ، فذكر لى قيمها أن فيها ثمانية آلاف كتاب ٩٠٪ منها مخطوط . ولعله ظن بادى الرأى أننا من شراة النفائس فذكر لنا أن عنده نوادر ثمينة جدا منها تذكرة الصلاح الصفدى بخطه ، فلما دهشنا متسائلين : « بخطه ؟! » قال : « نعم » ثم أرانا بعض النفائس الشكلية وتبادلنا حديثاً عرف منه أننا طلاب علم هواة لا شراة ، فلما طلبنا رؤية تذكرة الصلاح الصفدى تعلل بصعوبة الوصول إليه الآن ولم نظفر برؤيته . والحال فيما لم نطلع عليه من المكتبات العامة والخاصة كحال ما اطلعنا عليه .

أعود الآن بعد هذا السرد إلى حيث بدأت ، فإذا كان فى المدينة (١٢٤) مكتبة لا يظهر منها اليوم إلا نحو (٨٠) على ما قال محدثى ، وكان ما تحتويه آخذاً فى التسرب والضياع فما الواجب علينا نحو تراثنا وحضارتنا وثقافتنا ؟ ولا أقول نحو ديننا .

إن ما رأيته بعينى فى المكتبات التى أتيح لى زيارتها فى مكة والمدينة يعصر العين ويملأ القلب أسى وحسرة ، فالدود والإرضة من من تحت التراب المتراكم تعيث فى هذه الكنوز ، وما كان منها بمنجاة من ذلك كمكتبة أحمد عارف حكمة فإلى حد ، والكثرة الكاثرة من المخطوطات تتآكل وتبلى ،

ولينظر من شاء على سبيل المثال فى مستودعات المكتبة فى الحرم المكى وفى رباط مظهر .

أعتقد أن الداء الآن وضح للعيان ، فتراثنا فى الحجاز عرضة لعدوين لدودين لا يألوان فيه فتكا بالليل والنهار على مر السنين وهما الدود والتهريب .

أما العلاج فسهل يسير ينحصر فى أمرين أيضاً :

أولهما : ضم هذه المكتباب كلها فى دار واحدة ، والحكومة العربية السعودية التى لها بكل ريع آية ، لا تعجز عن إقامة مبنى مستقل لائق يتسع لضم هذه المكتبات الثمانين الباقية والتعويض على أصحاب المكتبات الخاصة منها ، ثم العهد بإدارة هذه المصلحة إلى عالم حازم بصير غيور ، وعندها منهم عدد غير قليل بحمد الله وتستطيع أن تستعين ببعض ذوى الخبرة على تدريب شباب الحجاز المثقفين وإرسال نفر منهم إلى حيث يتلقون فن المكتبات فى الغرب أو الشرق (١) . وقد دللت على مبنى يقام الآن قبلى الحرم المدنى ، قالوا : إن النية أن يكون بعضه مكتبة وبعضه محكمة وبعضه دار ! وهذا تضييع للمصالح الثلاث ، فالمبنى كله بطوابقه لا يكاد يتسع للمكتبة العامة كما أتصورها إذ تحتاج إلى بقعة أبسط (١) تدور بها الشوارع وتخصص فيها قاعات، فساح للخزائن ، وقاعة للفهارس المختلفة ، ثم قاعات لمختلف طبقات المطالعين ، وقاعة للإدارة ، وأخرى لأجهزة التصوير ، وقاعة للنسخ ، وأخرى للعرض . . . الخ .

وأمرهام لايفطن إليه إلا الأقلون وهو أن محتويات هذه الدار - متى نشرت فى فهرس واف على دور العلم والجامعات والعلماء - ستكون فريدة فى العالم ، وستتكاثر عليها طلبات النسخ والتصوير ، وزيارات البعثات من الدراسين والباحثين بحيث تصبح كعبة علمية للقصاد من كل ملة ونحلة ، وتكون مركزاً من مراكز الإشعاع العلمى فى العالم كله .

أما ثانيهما فالحزم يقضى بالإسراع فيه منذ هذه اللحظة بأن تقوم الحكومة بإحصاء

---

(١) لم أجد فيما دخلت من مكتبات عامة فى أوربة وشمالى إفريقية مكتبة افتن مديرها بتنظيم فهارسها أفانين، كدار الكتب العامة فى تونس فإن اجتماعا واحدا بمديرها الأستاذ الجليل العالم السيد عثمان الكعاك وجولة معه فى دار الكتب يشرح لك تنظيماتها تجعلك فى هذا الفن - إن كان لديك استعداد - كأحسن مايتخرج عليه متخرج من معاهد هذا = الشأن من الناحية العملية على الأقل . ونحن فى دمشق أنفقنا أموالا طائلة فأرسلنا موفدين لذلك إلى فرنسا فلم نحصل إلا على شهاداتهم وذهبت الأموال بددا ، ولو كانت الجامعة العربية تسن قانونا بمصادرة النافعين لاقترحت عليها أن تصادر السيد عثمان الكعاك سنة فى كل قطر عربى وعشر سنين فى الحجاز.

(١) لا تقل عن مساحة قصر من القصور الملكية بحدائقه وتوابعه .

ما فى المكتبات الخاصة والعامة دون استثناء مع وصف واف لكل نسخة ، ومتى استنفرت معلمى المدينة مثلا فوزعتهم على المكتبات الخاصة أولا فأحصوا ما فيها من كل مخطوط ذاكرين اسم الكتاب وفنه ومؤلفه وعدد أوراقه وتاريخ نسخه ثم صفة المجلد عامة ، رجونا أن ينتهى الإحصاء فى شهرين ثم يطبع الفهرس طبعة موقتة إلى أن ينتهى ضم المكتبات فى دار عامة فيشرع حينئذ فى تنظيم فهرس مفصل واف مصور لها .

والإسراع بالإحصاء والطبع الموقت يضع حدا للتهريب على الأقل ، فإن فقدت نسخة من كتاب فيما بعد كان القيم أو المالك مسئولا عنها لأن إثباتها فى فهرس مطبوع منشور على الناس داع إلى طلبها ومعرفة موطنها . ولو أن هذا أخذ به قبل مائة عام ما تسرب من الحجاز ما تسرب ولبقى هذا الذخر المبعثر اليوم فى المتاحف والمكاتب الأوروبية والأمريكية والهندية مصونا فى موطنه مفخر الأجيال ومثلا من تراث حضارة ما رأى الناس مثلها .

هذه كلمة عجلى أرسلها على صفحات مجلة (الأزهر) ذات الصبغة العالمية ليضع المسئولون حدا لجرائم شنيعة مثلت على أقدس حرم سنين طوالا ، وهى مستمرة حتى الآن فى الخفاء . ومع أن التاريخ لا يعرف حضارة أمجد من حضارة الإسلام ولا سلفا أنبل إنسانية من سلفنا ، فإنه أيضا لا يعرف خلفا فرط بمقدساته وعبث بها تفريطنا وعبثنا .

ومن التناقض البين والمفارقة الصارخة أن تكون قصور المسئولين المبعثرة فى كل بقعة ، فى اتساعها وفخامة بنيانها ونضرة حدائقها الفيح وأناقة أثاثها ورياشها وما ينفق عليها ، أن يكون كل ذلك على ما تعجز عن النفقة على مثله حكومات أوروبة وأمريكا اليوم بل بعد عشرات السنين ، ثم يعيش تراثنا العلمى فى خانات متخلفة من مئات السنين تحت الغبار يعيث فيها الدود وينهبها جياع النفوس . إنه ظلم ما بعده ظلم أن يحيا المسئولون (فى القرن الحادى والعشرين) (العشرين) تكاد تنقلاتهم لأتفه الأسباب تكون بالصواريخ سرعة بيذخهم وتعانى المكتبات الموت الحثيث فى عصور الظلمات ، فإن فكر فى بصيص من الإصلاح كان أبطأ من سير السلاحف فى عصر لا ينعم بخيره متوان .

إن هذه الكنوز المشرفة على البوار أبقى لكم - إن عنيم بها العناية الكافية - من ثروات البترول ومناجم الذهب التى لم تفد البلاد شيئا مع سوء التصرف ، وربحها على كل حال إلى نفاد . أما ربح تلك فيزداد على كثرة الإنفاق باطراد فيا أيها المسئولون هذه نفثة نذير وإنى قد بلغت . اللهم اشهد .

سعيد الأفغانى

١ - وجود الله يتحدى الشيوعيين
٢ - إلى الصحافة المصرية

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

— ١ —

نشرت الأهرام الصادرة فى ١٦ من يولية سنة ١٩٥٩ تحت عنوان بالخط العريض فى واجهتها الأولى ، الخبر التالى :

« تحدى راديو موسكو الله أن يأتى بمعجزة يثبت بها وجوده » . قال الراديو - فى إذاعة محلية التقطتها أجهزة الاستماع فى لندن ليلة أمس - : « أى إله هذا الذى يعبده الناس ويصلون له إذا لم يستطع حتى إثبات وجوده ؟ إذا كان هذا الإله موجوداً حقاً فلماذا لا يأتى بمعجزة حقيقية واحدة على الأقل ، حتى لا يشك أحد فى حقيقة وجوده ؟ » .

والشيوعيون إذ يقولون هذا القول إنما يضحكون على أنفسهم ، ويظنون أنه لو شاركهم الناس فى هذيانهم لانقلب هزلهم جدا وباطلهم حقا . ولكن أنى للعقلاء من الناس أن يتورطوا فيما يتورط فيه المخمورون.

إن النقطة الفاصلة بين المؤلهين (الذين يؤمنون بوجود الإله) وبين الملاحدة (المنكرين لوجود الإله) هى تفسير طريقة وجود هذا الكون ، فقد ثبت لدى المؤلهين عدم إمكان أن تكون المادة هى المصدر الحقيقى الأول والأخير لجميع أصناف الموجودات : أحيائها وغير أحيائها ، عاقلها وغير عاقلها ، وحيث صح ذلك، كان من الضرورى الاعتراف بوجود قوة وراء المادة ، يعزى إليها وجود ما لم يمكن عزوه إلى المادة الجامدة .

ومن البديهى أن منكرى وجود الإله لا مناص لهم من أن يفسروا كل كائن فى هذا الوجود تفسيراً ماديا بحتا ، فإذا تم لهم إمكان أن تكون المادة هى مصدر إيجاد الكائنات بجميع أنواعها ، لم يكن ذلك كافيا فى أن يرفع الهدامون عقيرتهم معلنين انتصارهم . ففى مثل هذه الحال يقول العقلاء: إن الأدلة متعارضة : أدلة المؤلهين ، وأدلة غير المؤلهين . وحين تتعارض الأدلة

يكون الأمر متوقفا على جولة أخرى وأخيرة تفحص فيها الأدلة ، ليتبين الجيد من الردىء ، وعند ذلك يقال : إن هذا الرأى قد انتصر على ذاك ، وإن هذا الرأى حق وذلك باطل .

والشيء الذى ينبغى النظر إليه بجد واهتمام هو أن الشيوعيين لم يعلنوا أنهم اهتدوا إلى تفسير وجود جميع الكائنات تفسيراً ماديا لأنهم لم يهتدوا إلى ذلك التفسير . ومن بين الأمور التى أعجزهم تفسيرها تفسيراً ماديا ، الحياة ، والمعرفة . وما دامت الحياة والمعرفة أموراً يعترف الشيوعيون بوجودها ، وما داموا لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً ماديا ، فلا بد لهم — على الأقل إلى أن يهتدوا إلى تفسيرهما تفسيراً ماديا — أن يعترفوا بالتفسير غير المادى لها وهذا التفسير يقتضيهم إثبات وجود الإله . فما دام الشيوعيون لم يهتدوا حتى الآن إلى تفسير مادى للحياة والمعرفة ، يلزمهم أن يعترفوا بمصدر آخر غير المادة يفسرون به الحياة والمعرفة .

فإنكار الشيوعيين لوجود كائن غير مادى ، فى نفس الوقت الذى يعلنون فيه عجزهم عن تفسير الحياة والمعرفة تفسيراً ماديا ، هو مكابرة محضة وعناد يسلكهم فى عداد المتعجرفين الذين لا ينشدون الحق ولكن يريدون إحداث جلبة وضوضاء فقط .

ومطالبة الشيوعيين للمؤلهين بأدلة على وجود الله — مع قيام الحياة والمعرفة ، وتكرار حدوث أحياء جدد ومعارف جديدة فى اليوم الواحد بما يبلغ ألوف المرات ، وكل حدث من هذه الأحداث هو وحده دليل على وجود الإله . ما دام تفسير ذلك تفسيراً ماديا لم يزل غير ممكن حتى الآن — تعتبر لونا من هذيان المغلوب الذى يعز عليه أن يستخذى ويستسلم أمام خصمه الغالب .

وما دامت أدلة الحياة والمعرفة أدلة قوية تفيد — على الأقل إلى أن يتم تفسيرهما تفسيرا ماديا — وجود قوة غير مادية ، ومع ذلك ينكر الشيوعيون معها الاعتراف بوجود الإله ، فليس هناك ما يدعو إلى أن ينزل الله تعالى وتقدس ، عند إرادة هؤلاء المهاترين ويخرق لهم سنن الوجود ويختصهم بإحداث أدلة خاصة مع أن الأدلة القائمة قد هدت من أخلص فى طلب الحق .

ثم إن الله سبحانه وتعالى أجل وأعظم من أن ينزل عند إرادة مكابرين معاندين ، فيدللهم بفنون من الأدلة يعلم جل شأنه أنهم سوف يلتمسون الوسائل لردها بمثل ما ردوا به غيرها ، فإن المكابر المعاند لا يعجزه أن يلتمس قولا يصيح به فى وجه الحق . حكوا أن اثنين اختلفا فى عد عشرة من الأوز فقال أحدهما : إنها عشرة ، وقال الآخر :

بل هى تسعة ، ولما طال خلافهما احتكم أحدهما إلى طريقة وافقه عليها خصمه. تلك الطريقة أن يستحضرا عشرة رجال، ويأمراهم بأن يأخذ كل واحد منهم أوزة . فإن وفت الأوز بالرجال العشرة ، وأخذ كل واحد واحدة ،كانت الأوز عشرة كاملة . وإن أخذ تسعة من الرجال أوزا ، ونفدت الأوز قبل أن يأخذ العاشر، كانت تسعة فقط . فكان أن أخذ تسعة رجال فقط ، ولم يبق للعاشر شىء يأخذه ، فقال المحق للمبطل ها هى ذى تسعة لأن العاشر لم يجد ما يأخذه ، فقال المبطل للمحق ، ما منعه أن يأخذ وقد كان أمامه ما يستطيع أخذه ؟ .

فالله سبحانه وتعالى الذى يعلم طبائع البشر ويعلم ما عاناه أنبياؤه ورسله من سلف أولئك الشيوعيين الذين لم يكفهم ما أقام الله لرسله وأنبيائه من أدلة تثبت صدق ادعائهم أنهم رسل من قبل الله ، بل طالبوا بسواها عنادا ومكابرة ، قد وضع حدا لهذه المهازل التى يريد دعاتها كسب الوقت وإطالة مدة الجدل والمكابرة وتشكيك من آمنوا واطمأنوا ، وأخذوا يضعون أسس حياتهم الجديدة ، فى الإصلاح والهداية والإرشاد، فقطع جل شأنه الرجاء فيهم وصرف أحباءه وأصفياءه عن التعلق بهم وعن المضى معهم إلى نهاية الطريق ، وعن الرغبة فى الاستجابة لمطالبهم أملا فى أن يؤمنوا قائلا : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » وقائلا : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » ثم شرح لأحبائه وأصفيائه سبب تيئيسهم من التعلق بهؤلاء المصرين على ضرورة إنزال أدلة جديدة قائلا : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت ، أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ». فالذين يبلغ بهم الإصرار على العناد إلى هذا الحد ، يكون من العبث مطاولتهم وملاطفتهم وملاينتهم .

وحسبهم ما كفى غيرهم من الأدلة إن أرادوا الهدايه لأنفسهم ، وعساهم يظنون أن الأدلة أمور تنزل من السماء كما تنزل الصواعق فتأخذ الناس كرها إلى حيث تريد ، إن كانوا يظنون ذلك فهم معذورون فى انصرافهم عما أقام الله على وجوده من أدلة فى الأنفس والآفاق ؛ فإن واحدا من هذه الأدلة لم يبلغ مبلغ الصاعقة التى تهلك وتدمر من يقف فى طريق سيرها . إن حكمة الله جلت قدرته قد اقتضت أن تكون الأدلة مرشدات وموجهات لمن وجد عنده أصل الاتجاه إلى الحق .

إن مثلها مثل الصوى التى تنصبها البلدية فى الطرقات ترشد بها السائرين فتكتب عليها مثلا هذا هو الطريق إلى القناطر الخيرية ، وذاك إلى قليوب ، فمن حرص على أن يصل اجتهد وسأل وسار ، ومن تحجر تفكيره ،

وقال لن أنتقل حتى يحضر إلىَّ وزير البلدية نفسه ويقنعنى بأن هـذا الاتجاه هو الطريق إلى قليوب ، وذاك هو الطريق إلى القناطر ، بقى فى مكانه ، وتخلف عن القافلة . إن إرادة الله اقتضت أن تـكون الأدلة توجيها وإرشاداً ، لا إلجاء وإكراها ، ليتحقق معنى الاختيار ، وتتحقق الحكمة فى المسئولية والجزاء . فالله موجود رغم أنف كل مكابر . وأحـداث الـكون كلها شواهـد على وجوده ، ولـكن لا إلجاء ولا إكراه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليـكفر .

— ٢ —

نشرت جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ من يولية سنة ١٩٥٩ فى واجهتها الأولى وبالخط العريض الـكلمة التى عزتها أجهزة الالتقاط فى « لندن » إلى إذاعة « موسكو » ، ومنذ قرأتها وقر فى نفسى إحساس قوى بضرورة أن يتعرض لها باحث بنقد . ولم أشك فى أن حقنا فى الرد ثابت يطوق عنق جريدة الأهرام التى غزت بنشر هذه الـكلمة أهم مقدسات العرب جميعا بين مسلمين ومسيحيين ، وآذت شعـورهم فأولى عقائد المسلمين والمسيحيين على السواء وجود الإله الواحد الـكامل ، فأى طعن فى هذه العقيدة هو افتيات على مقدساتنا خصوصا إذا كان هذا الطعن غير نابع من بيئتنا ولا ناتج من ظروفنا المحلية ، ولـكنه وافد علينا من بيئة خارجية ليس من الضرورى أن نستوفد منها عقائدهـا .

ولقد تساءل الـكثيرون منا عن مبررات إقدام جريدة الأهرام على نشر خـبر كهذا بين العرب ، وهى للعرب تنشر ومن أجلهم تصدر . وكل ما استطعنا أن ندافع به عنها هو اللجوء إلى حرية الرأى ؛ مع التوسع فى فهم هـذه الحرية ؛ فإن الشأن فى الحرية التى تمنح للفرد أو للجماعة أن لا تسىء إلى الآخرين .

وأيا ماكان الحال ؛ وسواء وجد لجريدة الأهرام العربية مبرر لنشر خـبر يسىء إلى العرب جميعا أم لم يوجـد ؛ فإن حق العرب فى الرد على ما نشرته جريدة الأهرام فى نفس جريدة الأهرام أمر تقره حرية الرأى التى تذرعت بها الأهرام لنشر مايضر ولا يفيد ؛ مع أن من شأن حرية الرأى أن لا تسىء إلى الغير ، ويقره أيضا حق الدفاع المشروع ضد العدوان الواقع على المرء أو على ما يتصل به من معتقدات وممتلكات .

وفى حماس مزيج من التبرم بالرأى المنشور الذى لم يكن من الضرورى أن تعمل له الأهرام « بروباجندا » على نطاق واسع ؛ ومن الشعور بالحق الواضح فى الرد الذى هو دفاع مشروع ، تقدمت إلى المسئولين فى جـريدة الأهرام بكلمة موجزة ، ناقشت فيها هذا الرأى الذى لا يحوج لـكثير من الجهد لتوهينه وتزييفه

فلقيت منهم استعدادا ظاهريا للنشر، وضربوا لذلك موعدا أقصاه يوم الجمعة التالى ؛ فكان أن طلعت علينا أهرام الجمعة خلوا من الرد ، وفيها فضلا عن ذلك كلمة لقارئ غيور وجهها إلى العلماء عاتبا عليهم أن يغضوا عن طعن على عقيدتنا كهذا ، ولا ينشروا على الملأ من قراء الأهرام التى نشرت الطعن ردا قويا يكشف عن زيفه وبطلانه .

فكان لهذا التصرف الغريب من الأهرام وقع أليم فى نفسى ، وشعور بأن أداة هامة من أدوات النهوض والتقدم - أعنى الصحافة - تنحرف عن غايتها ، وتسير فى طريق ملتوية لا يستبين الشعب معالمها ولا أهدافها . خصوصا أن محرراً من محررى « أخبار اليوم » زارنى على غير معرفة وتناول معى بالحديث الطعن الذى نشرته الأهرام على عقيدة الألوهية ، وأظهر تبرمه من أن تقف الأهرام هذا الموقف العدائى من العرب جميعا ، وأبدى استعداد صحيفة « أخبار اليوم » لنشر رد على هذا الطعن . وبالمصادفة البحتة كان معى صورة من الكلمة التى أعطيتها للمسئولين فى جريدة الأهرام - وعللت نفسى بأنه إذا فات الأهرام نشر الرد ، ففى نشر أخبار اليوم له تدارك لما فات وتصحيح للوضع - رغم أن لكل جريدة قراءها - وكان من الضرورى فى نظرى أن من قرأ الطعن ينبغى أن يقرأ الرد ، ولقد كانت مفاجأة أليمة - بعد طول انتظار وتكرار ووعود - أن يعاد المقال إلى بحجة أن « الرقابة » منعت نشره ، مع أنه ليس فى المقال ما يمكن أن يكون سببا فى منع نشره .

فبربك يا أخى فى الوطن قل لى : لحساب من تعمل صحافة مصر بخاصة وصحافة العرب بعامة هذا العمل الذى من شأنه أن يقوض دعائم الروح المعنوية العربية من أساسها ؟ .

إن سياسة زعيم العروبة الرئيس جمال عبد الناصر ، سياسة واضحة كل الوضوح ، ظاهرة كل الظهور لا لبس فيها ولا خفاء ولا غموض وهى تقوم فى أساسها على بناء الفرد والجماعة بناء قويا سليما ، ماديا ومعنويا . وسيادته يعلم كل العلم أن النفوس المنهارة المتخاذلة المترددة المتشككة هى نفوس لا غناء فيها ولا جدوى معها ، فالروح والجسد جزءان فى الإنسان متكاملان ، يؤدى ضعف أحدهما إلى ضعف الآخر ، وقوته إلى قوته والتاريخ شاهد عدل على أن قوة الإيمان ورسوخ العقيدة الدينية من أهم عوامل النصر ، ولولا أن عصرنا الحاضر قد مكن لبعض الأمم من أن تسبق غيرها بالعدد والآلات ، لظل الحال فى الحاضر كما كان فى الماضى ، واحد صادق الإيمان أقوى من عشرة مزعزعى الإيمان فاقدى الثقة بأنفسهم وبربهم . ويوم تتساوى الأمم فى العدد والآلات ، يصبح

النصر للمؤمنين على الكافرين، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.

وصدق الله إذ يقول: «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون». فالله جل شأنه يجعل الواحد المؤمن فى مقابل عشرة ممن استبد بهم القلق، وطوحت بهم الشكوك فى مهاوى الحيرة والضلال. وإنه حين يستكمل المؤمنون عدتهم ويصبح لهم من القنابل وسواها مثل ما لغيرهم يعود لهم تفوقهم وتظهر ثمرة إيمانهم واضحة جلية إن شاء الله.

وما أظن إلا أن سيادة القائد العام المشير عبد الحكيم عامر حين قال — وهو يتفقد وحدات الجيش بالقيادة الشرقية —: «إننا واثقون من أنفسنا وإننا نعد الجندى العربى ليكون الجندى بعشرة جنود» — الشعب ١١ / ٨ / ١٩٥٩ — قد عنى هذا الذى عناه الله سبحانه حين قال: «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين»، فالعدد والآلات حين تتساوى بين الطرفين المتقابلين، لا يبقى للتفاضل مجال إلا فى القوى الروحية والمعنوية، وتلك هى الإيمان بالمثل العليا: الإيمان بالوطن، وحب الوطن من الإيمان. والإيمان بالفضيلة التى تكسب النفوس جلدا وصبرا وقوة احتمال. والصبر نصف الإيمان.

والإيمان بالجزاء على الفدائية التى تريق الدم وتزهق الروح دفاعا عن الوطن، ومن أقدر على توصيل الجزاء للمستشهدين بعد استشهادهم ممن خلق الإنسان من العدم، وأبقاه إلى أجله المقدر له، وخلق له ما لابد لحياته منه، من الأجهزة الكثيرة التنفسية والبصريه وغيرها، التى لو اجتمع العلماء من أولهم إلى آخرهم ما استطاعوا أن يخلقوا واحداً منها، أو أن يصلحوه إذا فسد، ثم يحييه بعد موته ويوفيه الجزاء الأوفى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقا».

فمن لا يؤمن بإله قادر على كل هذه الأمور، لا يؤمن بوقوع هذه الأمور، ومن ثم يشعر أن بذل دمه وروحه دفاعا عن غيره، هو بذل من غير عوض، فتتقاعس همته، وتتضاءل عزيمته، أما المؤمن بالله وبكل هذه الأمور فهو صلب الإرادة قوى العزيمة كبير الأمل فى الله وفى لقائه وجزائه.

فالإيمان الصحيح بالله هو الذى يعلم حب الوطن، وهو الذى يعلم الصبر وقوة الاحتمال وهو الذى يشجع على الفدائية والتضحية والاستشهاد.

فالصحافة التى تدأب على توهين شأن الإيمان فى نفوس الشعب، إنما توهن من حب الوطن، الذى هو من الإيمان، وتوهن من شأن الصبر وقوة الاحتمال، وهما من الإيمان، وتوهن من شأن بذل الأرواح والجهاد والاستشهاد التى يشجع عليها الإيمان.

والذى يوهن من شأن حب الوطن بيننا، ومن شأن الصبر وقوة الاحتمال فينا، ومن شأن الجهاد والاستشهاد دفاعا عنا، هو عدو لدود لنا ولوطننا، وعدود لدود لسياسة رسمها لنا زعيمنا؛ لأن سيادة الرئيس جمال عبد الناصر يحرص كل الحرص على سلامة البناء الروحى للفرد والجماعة، بنفس الدرجة التى يحرص بها على سلامة أجسادهم.

وحكومته حكومة رشيدة تقوم على تنفيذ سياسته بعناية ودقة وحزم، فلا يعقل أن يبلغ بالرقابة المصرية على الصحف ـ وهى جزء من حكومة الرئيس جمال ـ احترام حرية الرأى حداً يبيح لها أن تنشرا رأيا يتحدى العرب فى أهم معتقداتهم ثم يبلغ بها ـ فى نفس الوقت ـ الاستبداد حداً يمنع من نشر رد عليه، إن هذه إلا فرية ضالة كاذبة، وستار يتستر به المغرضون الذين تأبى عليهم طبائعهم المنحرفة أن يوافوا الشعب بحاجته فى الوقت المناسب. فلوثوقهم من أن الكتاب لن يذهبوا إلى الرقابة يسألونها عن كلماتهم هل عرضت عليها أم لا، يمسحون عارهم فيها، وهى من رجسهم وعارهم براء.

ثم ياالله من هذا العمل الذى تورطت فيه جريدة الأهرام:

فهى أولا: نشرت خبراً كان أولى بها أن لا تنشره ـ لأنه هجوم لا مبرر له ضد أعز مقدسات العرب ـ ثم نشرته بصورة توحى بأن لها فى نشره غرضا، فهو فى واجهة الجريدة وهو على عمودين، رغم أنه بضع كلمات. فهل إذا تقدم واحد منا إلى أوسع جرائد الاتحاد السوفيتى شيوعا، وأكثرها نفوذا، بخبر يهاجم فيه المذهب الشيوعى، ينشر له؟ الجواب معروف لنا جميعا هو النفى القاطع، فلماذا ـ إذن ـ نهاجم فى عقر دارنا بأيدينا؟ ونسخر أنفسنا لعون خصومنا ـ فى الرأى ـ علينا؟ هل معنى ذلك أننا مفككون لا يأبه بعضنا بمصلحة بعض؟ أم أننا مأجورون نخون وطننا نظير مغنم مالى؟ إن كل واحد من هذين الأمرين جد خطير، ينبغى أن يحسب له ألف حساب وحساب.

وهى ثانيا: تسلت فى الوقت المناسب ردا على هذا الخبر فأهملته، وفى هذا الإهمال افتيات على حرية الرأى التى ـ إن أحسنا الظن بجريدة الأهرام ـ لا نجد لها عذراً

مظاهرُ إسلاميّة كريمة في إندونسيا

للأستاذ محمد محمود رضوان

كنت أعرف - قبل أن يسعدنى الحظ بزيارة أندونيسيا - أنها أكبر بلد إسلامى فى عالمنا الحاضر مساحة وسكانا ، وكنت قد لقيت فى مستهل حياتى بعضا من إخواننا الأندونيسيين المسلمين ؛ منهم من سعدت بالتعرف عليه زميلا فى كلية دار العلوم بالقاهرة ، ومنهم من قابلت فى مكة والمدينة فى خلال زيارتى للحج فى سنة ١٩٤٢ م .

وكنت دائما تواقا إلى معرفة المزيد من حال المسلمين فى أندونيسيا ، كيف يعيشون ؟. كيف يؤدون شعائر الدين وأغلبهم لا يعرف العربية ؟ كيف يتفقهون فى الدين والثقافة الإسلامية ؟ كيف تصل أحكام العقيدة وتعاليمها إلى المواطنين فى أطراف الجزر النائية ؟ العقيدة الدينية راسخة فى قلوب مسلمى هذه البلاد أم أنهم مسلمون بالاسم فقط كما هو الحال فى بلاد أخرى هل استطاع الاستعمار الطويل بجبروته وسطوته أن ينال من عقيدتهم على مر القرون أو أنهم صمدوا له ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التى تدور فى ذهن كل مسلم تجاه إخوانه المسلمين فى مشارق الأرض أو فى مغاربها ؟

وأحمد الله ... لقد أسعدنى الحظ فجئت إلى أندونيسيا بنفسى ، ومع أننى لم أقض

سواه فى نشر الخبر . وليس فى هذا العمل من الأهرام افتيات على حرية الرأى فقط ، بل فيه حرمان الشعب من حاجاته الضرورية . وقد اعترفت الأهرام نفسها بأن نشر رد على هذا الخبر هو حاجة من حاجات الشعب بما نشرت من عتاب بعض القراء على العلماء أن يدعوا خبرا كهذا يفلت دون أن يعقبوا عليه بنقد .

وهى ثالثا : بمنعها نشر رد العلماء على هذا الخبر قد أظهرتهم أمام الشعب - الذى بعث لها يستنجدها فى حث العلماء على نشر رد على هذا الخبر - بمظهر المقصر فى أداء واجبه ، وهو تزوير على العلماء وتدليس على الشعب .

* * *

أيتها الصحافة : رفقا بالشعب ! ! كونى له ولا تكونى عليه ! ! ! إنك رائد رشيد ، لا طاغية مستبد ؟

الدكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
فى كلية أصول الدين

بها إلا شهورا قلائل ، ومع أننى لم أشهد إلا مناطق معدودة منها ، ومع أننى لا أزال أدرس وأستطلع وأرى فى كل يوم جديدا — مع كل أولئك أستطيع أن أقرر الجواب عن معظم ما كان يحيك فى صدرى من الأسئلة ، وأستطيع أن أقول فى عبارة قصيرة : إن الإسلام بخير فى أندونيسيا . .

نعم . . إن الإسلام بخير فى أندونيسيا . . بل إننى أستطيع أن أقول متنبئا : إن أندونيسيا — بقليل من الصبر والجهد — ستحمل لواء الإسلام يوما ما ، وستكون مصدر إشعاع له فى هذا الجزء من العالم — أعنى الشرق الأقصى — كما أن القاهرة كانت ولا تزال — مصدر الإشعاع فى الشرق الأوسط ، ومنها سينبثق نور الإسلام ليضىء بتعاليمه السمحة التى تدعو إلى سلام العالم أجمع إن شاء الله .

ولست أستطيع فى هذه العجالة الموجزة أن أعدد المظاهر التى جعلتنى أنتهى إلى هذه النتيجة ، ولكننى سأكتفى ببعض ما شاهدت فى أندونيسيا فى هذه الفترة القصيرة من مظاهر إسلامية أثلجت قلبى ، وجعلتنى أهتف مرارا بالآية الكريمة : «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» .

وأول هذه المظاهر ما تلقاه واضحا كل الوضوح من رسوخ العقيدة الدينية وتأصلها فى قلوب المثقفين من أهل أندونيسيا ، وربما لا يكون مستغربا أن تلمس هذه الظاهرة فيمن تثقفوا بالثقافة الدينية فذلك أمر متوقع مألوف . وإنما المستغرب الذى يجعلك تهتز طربا أنك تقابل الشاب الأندونيسى الذى تعلم فى المدارس المدنية أو الفنية ، ثم تراه قوى العقيدة ، صادق الإيمان ، يرى الله فى كل عمل يؤديه ، ويذكره أينما حل ، ويحرص على أداء الفريضة أينما كان . .

كان أول من صادفته فى طريقى إلى أندونيسيا شاب يعمل مضيفا فى الطائرة التى أقلتنى من (ميدان) إلى (جاكرتا) ، ولما عرف أننى عربى مسلم تهللت أساريره ، وأخذ يحدثنى — باللغة الانجليزية — عن الإسلام وتعاليمه حديث العارف المتيقن ، ثم أخرج من جيبه مصحفا صغيرا وأخذ يتلو من سورة (ياسين) تلاوة جيدة ، وناقشته فى بعض المعانى فأجاب إجابات صحيحة ، ثم ذهب وعاد بعد قليل وفى يده قطعة قماش صغيرة أخبرنى أنها من كساء الكعبة الشريفة ، وأنه اقتناها حينما كان فى الحج ، وأنه يحملها — مع المصحف — وهو فى الطائرة تبركا واستبشارا . ولقد لقيت فيما بعد مئات ومئات من أمثال هذا الشاب . . مهندسين وأطباء ومعلمين وتجارا ، وكلهم ممن تثقفوا بالثقافة المدنية ، ومع هذا فإن إلمامهم بدينهم كبير ، مع صعوبة الوسيلة ، ووعورة الطريق . .

والظاهرة الثانية التى تسترعى انتباه المسلم

الزائر لأندونيسيا هى احتفال إخواننا الأندونيسيين بالقرآن الكريم ـ وخاصة بتلاوته وتجويده ـ احتفالا قل أن تجد مثله فى بلد إسلامى آخر ، هذا بالرغم من صعوبة اللغة العربية عليهم ، وتعقد الأساليب المستخدمة فى دراستها . وقل أن تجد مسلما فى أندونيسيا إلا ويحفظ آيات من القرآن الكريم يستعين بها فى أداء صلواته ، أما إذا قرئ القرآن فثمت اللهفة والرغبة والخشوع وحسن الإنصات ولا يزال الناس يتحدثون هنا عن الحفاوة التى قوبل بها المقرئان المصريان اللذان زارا أندونيسيا فى العام الماضى ، وكيف كانت الجماهير تتسابق آلافا مؤلفة إلى المكان الذى يتلوان فيه — ثم يتبعونهما من حى إلى حى ومن بلد إلى بلد .

ومنذ شهور دعيت مع السيد السفير لحضور مسابقة فى قراءة القرآن الكريم ، أقامتها رابطة القراء فى جاكرتا ، وذهبنا إلى مكان المسابقة فاذا نحو ثلاثة آلاف مستمع ومستمعة — شبابا وشيوخا وأطفالا ـ قد حضروا لهذه المناسبة ، ولم يتسع المكان لجلوسهم جميعاً فوقف عدد كبير منهم ، وظل الجميع الجالسون منهم والواقفون فى أماكنهم لا يبرحونها ، من الساعة الثامنة مساء إلى الثانية صباحا ، يستمتعون بالقرآن الكريم أكثر مما يستمتع شباب اليوم بأغانى المغنين والمغنيات ، ولو قد امتد الحفل إلى الصباح لأقاموا ، هذا وقد استمعنا ليلتئذ إلى نحو أربعين قارئا وقارئة ، (ومنهم أطفال فى السادسة والسابعة) يتلون القرآن كأحسن ما تكون التلاوة ، والحق أنه كان مظهراً اهتزت له نفسى طربا ورددت الآية الكريمة « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

هذا وقد حدثنى أحد الناشرين أن الناس يتخطفون المصاحف تخطفاً ، وأنه كلما طبع مليون نسخة منها وأخرجها إلى السوق نفدت فى أيام قلائل ، وتستأنف المطبعة العمل فلا تستطيع أن تسد حاجة الناس إلى كتاب الله .

وذات مرة كان الدكتور على فهمى العمروسى سفيرنا فى أندونيسيا يزور منطقة من المناطق ، ونزل ضيفا عند أسرة مسلمة ولما حانت ساعة الرحيل سأل أطفال الأسرة ماذا تودون أن أحضر لكم على سبيل الهدية حينما أزوركم فى المرة القادمة ؟ فكان جواب الأطفال : نريد مصاحف القرآن الكريم .

ومن المظاهر الإسلامية الرائعة فى أندونيسيا حرص المسلم العارف على أداء الصلاة ، وصحيح أن المساجد قليلة ، ومن أجل هذا يصلى أغلبية الناس فى بيوتهم ، ومن التقاليد الجميلة فيها تحبيب الأطفال فى فريضة الصلاة وهم فى سن مبكرة فآباؤهم

يصطحبونهم إلى المساجد وخاصة فى يوم الجمعة ، وحينما يصل الإمام فى قراءته إلى كلمة « ولا الضالين » ترتفع أصوات الأطفال فوق أصوات المصلين جميعا هاتفين (آمين) ؛ كأنما يجدون فى ترديدها لذة لا تعادلها لذة ، ومن عادات الأندونيسيين المألوفة أن يحمل كل مصل سجادته معه إلى المسجد - ولو كان مفروشا - ليصلى عليها ، بل إنه يحملها معه فى حقيبته إذا سافر من بلد إلى بلد باعتبار أنها لازمة من لوازم السفر كالمنشفة أو الفرجون مثلا ، وقد سافرت مرة لحضور مؤتمر فى بلد آخر ونزلت مع رفقاء من أعضاء المؤتمر فى حجرة واحدة ، فكان كل منهم يخرج سجادته من حقيبته ليؤدى الصلاة أينما كان .

على أن هذا الغرام لا يقف عند الصلاة وحدها ، وإنما هو غرام بشعائر الدين جميعا تلقاه واضحا فى مناسبات عدة ، فالقوم هنا يحتفلون بالحج احتفالا ، وكلمة (حاج) تقرن بأسماء الناس كأنها جزء من الاسم يعتز به المسمى ويزيده تشريفا ، ويبعث الناس على احترامه وتقديره ، ويذكر اللقب فى الأوراق الرسمية كما تذكر كلمة (الدكتور) مثلا . . . ولقد كنت أرى اسم (محمد الياس) وزير الشئون الدينية مقرونا بلقب (حاج) فى قرارات مجلس الوزراء .

وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية الخانقة التى تعانيها أندونيسيا فى الوقت الحاضر ويقاسى منها أفراد الشعب ، ترى تلهف كل مسلم ومسلمة على أداء فريضة الحج ، وتتقدم ألوف مؤلفة كل عام لأداء الفريضة ، ومن تتحقق منهم أمنيته فهو أسعد السعداء ، وقد زرت مرة مع القائم بأعمال المفوضية السعودية سفينة تحمل فوجا من حجاج الجزر قبل إبحارها من ميناء جاكرتا ، فرأيت نحو ألف وخمسمائة أغلبهم من الفقراء السعداء ، انتشروا على ظهر السفينة والتقوى تملأ قلوبهم ، واللهفة إلى بيت الله تفيض فى وجوههم ، وعلمت أن كلا منهم دفع نحو ثمانية وعشرين ألف روبية رسوما للحج ، وهو مبلغ ضخم لا ريب أنهم قضوا سنوات طوالا يدخرونه من قوتهم ، حتى حقق الله أخيرا أمل الحياة كلها فى زيارة بيته الكريم ، وأشهد لقد وقفت على سطح السفينة أتجه بناظرى عبر البحر الطويل ، وأسبح فى فكر عميق . . أى سر يكمن فى هذا النداء الربانى فيسارع إلى تلبيته هؤلاء المسلمون من جزرهم النائية ، على فقرهم وإملاقهم ، وبعد الشقة ووحشة الطريق ؟ .

ومن المظاهر الإسلامية فى أندونيسيا اتجاه الناس إلى الله فى أمور معاشهم ، والالتجاء إليه فيما يعزمون من أمر ، أو ينوون من سفر ، وحينما ذهبت إلى المطار لتوديع الوفد الأندونيسى الذى زار الجمهورية العربية المتحدة وعلى رأسه السيد أدهم خالد نائب رئيس الوزراء - كان هناك آلاف من المودعين ارتفعت عقائرهم بالتسبيح والتكبير ، ولما

حانت ساعة قيام الطائرة إذا بصوت يرتفع بالأذان ثم يقرأ الجميع الفاتحة . . وقد تكرر هذا المظهر فى مناسبات أخرى شهدتها عند توديع بعض كبار المسافرين .

وعند عقد القران ينقلب الحفل إلى حلقة دينية رائعة ، يذكر فيها اسم الله كثيراً ويتوجه المأذون بالوعظ والإرشاد والتفقيه والتفسير ويقدم المصحف الشريف مع المهر تبركا .

وليست هذه الظواهر قاصرة على الرجال وحدهم ، فإن النساء يشاركن فيها مشاركة كاملة وفى مسابقة القرآن الكريم التى ذكرتها آنفا كان نحو نصف الحاضرين من النساء ، وقد يتوقع المرء أن يكن من العجائز ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقد كانت أغلبيتهن من الفتيات والبنات الصغيرات ، وحضرت الحفل طائفة من سيدات المجتمع على رأسهن السيدة فاطمة واتى حرم الرئيس سوكارنو .

وكان بين المتسابقين كثير من الفتيات . . بل إن الجوائز الثلاث الأولى كانت من نصيب ثلاث فتيات ، ولست أنسى الطفلة (فتحية) ـ وعمرها ست سنوات ـ وقد وقفت تتلو فى صوت جميل التجويد آيات من سورة (لقمان) لم تلحن فيها لحنا واحد .

وفى يوم عيد الأضحى كان عشرات الألوف من المصلين قد اصطفوا لصلاة العيد فى أحد ميادين جاكرتا الفسيحة ، وكان ثمت بضعة آلاف من السيدات يحتللن الصفوف الخلفية ويلبسن البياض كأنهن الملائك الأطهار ، أو كأنما يلبسن الإحرام فى عرفات . . وكان المنظر رائعا دمعت له عيناى رهبة وخشوعا .

ومنذ أيام كنت أجلس فى شرفة منزلى مساء ، فإذا بى أسمع صوت ترتيل ينبعث من المطبخ ، فتسللت لأجد الخادمة تمسك المصحف وتقرأ فى سورة (المزمل) فى صوت، غنائى جميل ، ومع أنها لم تدرس العربية فهى تستطيع قراءة الآيات بالنظر أو بصورتها الكلية العامة . وقد أسفت حينما عرفت أنها تقرأ لمجرد التبرك ، وأنها لا تدرك من المعانى إلا قليلا . وبديهى أنها حضرت سنوات فى إحدي المدارس الدينية التى تشرف عليها الجمعيات ، وثمت أكثر من ثلاث عشرة ألف مدرسة من هذا القبيل فى ربوع أندونيسيا تقوم بخدمات جليلة للإسلام وإن كان ينقصها المدرسون الأكفاء ، والكتب المناسبة .

ومع أن الجمهورية الأندونيسية قد نالت من المدنية الحديثة قسطاً كبيراً ، ومع أن الحياة الاجتماعية فيها قد تأثرت إلى حد كبير بمظاهر هذه المدنية ـ إلا أن الأندونيسيين يعتزون بتقاليدهم الأصيلة الاعتزاز كله ، ويحاربون كل دخيل ممجوج ، ويثورون ثورة عنيفة على كل تقليد زائف . ولست أنسى ثورة الصحافة والجمعيات المختلفة على رقصة (هولاهوب) و (روك أندرول)

وغيرهما مما دعا السلطات فى كثير من المقاطعات إلى تحريمهما . ومنذ أسابيع ظهرت دعوة إلى إقامة مسابقة لاختيار ملكة للجمال فى أندونيسيا فهبت الهيئات المختلفة - وعلى رأسها الهيئات الإسلامية - تحارب هذه الدعوة الغربية وتحتج عليها بما أنها تتعارض مع دين البلاد وتقاليدها ، وكان لهذه الاحتجاجات أثرها فماتت الفكرة قبل أن تولد . ومن أمثلة ذلك أيضاً تلك التقاليد المنافية للدين والفضيلة والتى خلفها الاستعمار بين طلبة الجامعات الأندونيسية إبان الاحتفال بأول العام الدراسى ، وقد هبت الطوائف والهيئات تنعى هذه العادة الخرقاء ، وعابتها وزارة التربية والثقافة ، ووزارة الشئون الدينية ، والآباء والأمهات ، بل والطلبة أنفسهم ، وفى شهر يونيو الماضى اجتمع اتحاد الطلبة بجامعة أندونيسيا وقرر إلغاءها ، وأن تستبدل بها عادات وتقاليد قومية .

والإسلام دين التسامح ، ودين التعايش السلمى مع سائر الأديان . وظاهرة التسامح الدينى يضرب بها المثل فى أندونيسيا ؛ فالمسلمون - وهم الأغلبية العظمى - يعيشون مع إخوانهم أصحاب الأديان الأخرى معيشة مودة وإخاء ، وإنك لتجد القبيلة فى بعض المقاطعات وأغلبها مسلمون ، وفيها أقلية نصرانية ويعيش هؤلاء وأولئك إخوانا متحابين ، إذا احتفل النصارى بعيد لهم كان المسلمون أول المهنئين ، والعكس صحيح ، وإذا تزاورت الطائفتان امتنع المضيف عن تقديم الطعام المحظور فى ملة الضيف احتراما لمشاعره وعقيدته ، وإذا بنى المسلمون مسجداً فى قرية هب أهل الأديان الأخرى يعاونون فى البناء بأموالهم وبأيديهم ، وهكذا يفعل المسلمون حينما تبنى الأقلية المسيحية كنيسة أو معبداً . وفى شهر أبريل الماضى قررت جمعية الشباب المسيحى فى جاكرتا أن يتطوع أعضاؤها فى أوقات فراغهم للمعاونة فى بناء مسجد الاستقلال الذى سيشيد فى مكان قلعة هولاندية قديمة ، وبلغ عدد المتطوعين أكثر من ستمائة مسيحى ، يحملون أنقاض القلعة القديمة ، ويمهدون الأرض للبناء الجديد .

وبعد : فهذه بعض المظاهر الكريمة التى اجتذبت انتباهى واستحوذت على إعجابى كمسلم يطأ أرض أندونيسيا لأول مرة ، سقتها على سبيل المثال لا الحصر ولا الاستقصاء .

بيد أن أندونيسا بلاد فسيحة ، تشتمل على بضعة آلاف من الجزر المتباعدة ، ولها تاريخ طويل زحفت إليه كثير من الثقافات والعادات والتقاليد المتباينة ، فلم يكن هناك

مفر من أن تقتحم المسلمين فى كثير من المناطق بعض العادات التى قد تتنافى مع العقيدة الإسلامية ، فقد سمعت مثلا – أن بعضاً من المسلمين فى مناطق معينة يأكلون لحم الخنزير ، وأن بعض النساء فى مناطق أخرى لا يرين فى الزواج من غير المسلم غضاضة أو حرجا ، وأن آخرين يكتنزون دماء الذبائح ويستخدمونها فى طعامهم وأغلب الظن أن الاستمرار فى تبنى مثل هذه العادات يرجع إلى جهل بأحكام الدين وتعاليمه ، لا إلى استهتار به أو عدم مبالاة باتباعه .

ومن هنا كانت المسئولية الملقاة على عواتق المسلمين المثقفين – أندونيسيين كانوا أم غير أندونيسيين – مسئولية جسيمة حقا ، ووزارة الشئون الدينية الأندونيسية تبذل جهودا طيبة فى هذا المضمار ، ولكننى أعتقد أن على الهيئات الإسلامية الأخرى كالأزهر الشريف والمؤتمر الإسلامى والجمعيات – أن توفد المبعوثين والأساتذة لتفقيه الناس فى عقيدتهم ، وتنقيتها من الشوائب الدخيلة ، وشرح دقائق الشريعة الإسلامية السمحة ، وإمداد المواطنين فى أندونيسيا بالكتب والمراجع والصحف الدينية باللغتين الأندونيسية والعربية ، وبين يدى آلاف الرسائل يلح أصحابها إلحاحا فى طلب هذه المراجع حيث انقطع استيرادها من البلاد العربية لأسباب اقتصادية منذ عهد بعيد .

هذا ويقع معظم عبء التربية الدينية فى الوقت الحاضر على أكتاف المواطنين الأندونيسيين الذين درسوا فى الأزهر أو فى الحجاز ، وعلى تلاميذهم الذين تخرجوا فى المعاهد الدينية فى أندونيسيا ، ولكنه عبء باهظ ثقيل نظرا لاتساع البلاد وتنائى جزرها من ناحية ، ولتيار المدنية الحديثة الجارف من ناحية أخرى . وحبذا أن يقتدى كل بلد إسلامى بالجمهورية العربية المتحدة فيوفد عددا من الوعاظ والأساتذة إلى أندونيسيا ، ويستقبل عددا من الطلاب الأندونيسيين كل عام يدرسون فى معاهده ليفقهوا قومهم إذا رجعوا إليهم .

أما اللغة العربية فى أندونيسيا ، باعتبار أنها لغة القرآن الكريم ، ولغة الثقافة الإسلامية العريقة – فإن لها حديثا آخر أرجو أن يكون فى المستقبل القريب إن شاء الله ؟

محمد محمود رضوان
الملحق الثقافى للجمهورية العربية المتحدة بجاكرتا

التوازن بين العقل والقلب

للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومى

التصوف الأصيل فلسفة روحية تجمع إلى إلهام القلب ، نور العقل ، وحركة اليد . وبهذا كانت فلسفة مشرقة ، وعاقلة ، وقوية !!.

قالت السيدة عائشة : كان عمر خير الزاهدين ، ولكنه كان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ! .

وليس معنى هذا أن هذه العناصر الثلاثة تسير جنباً إلى جنب بقوة واحدة ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع . فتلك طاقة لا يستطيعها إلا المصطفون الأخيار ! .

إنما الذى نريده أن لا يقوى العقل جداً ويضعف القلب جداً ، أو يقوى القلب كثيراً ويضعف العقل كثيراً .

فإن هناك أزمة حادة بين علماء الكلام ، والصوفية منذ القرن الثالث الهجرى ، والتاسع الميلادى ، لا زلنا نعانى منها الآثار السيئة ، والفجوة الكبيرة .

لقد سار العقل والقلب فى صدر الإسلام ، صديقين حميمين ، يتعانقان وجه النهار وآخره ! فكان زهد بلال وجهاده ، وكانت رحمة أبى بكر وشدته ، وكانت عقلية عمر وكراماته ، وكان فقه على وتصوفه ، وكان غنى عثمان وسخاؤه ، وكلٌ يجد فى القرآن مبتغاه معناه ، ويلتقى فى النبى شخصية متكاملة أبرز ما فيها اعتدال جميع العناصر البشرية سواء كانت نباتية أو حيوانية أو عقلية أو روحية ! ! .

فهو يبكى فى المحراب ، ويخوض المعركة ويقودها ، ويأكل ويشرب ، ويرسم السياسة العامة والخاصة ، بأعظم كياسة ، ويعطى للبيت حقه أعظم عطاء ! ! وإلى ذلك كله اجتمعت فيه القوة الإلهامية والذكائية والروحية على أتم ما يكون وأصفاه ، حتى كان صلوات الله وتسليماته عليه فى كل هذا سماء ما طاولتها سماء ! ! .

ونهج المسلمون الأولون هذا النهج القويم ، فكانت الفروسية وكان الفتح بالنهار ، وكان الخشوع والبكاء ، والضراعة إلى الله ، إذا جن الليل . وكانت سوق المعاملات فى هدوئها وصخبها ، خالية من الاستغلال والاحتكار

مطعمة بالروحانية التى تذهب بجفافها فى كثير من الأحايين . . . ولما كان هذا التوازن بين القوى المادية والروحية ، دقيقا وصعبا ، لم يكن من السهل أن يفهمه المستشرق العالم جولد تسيهر . . . فإنه يرى أن فكرة الفتح الإسلامى دعا إليها أول ما دعا ، التحول عن الزهد والرغبة الجامحة فى الدنيا ، وفى هذا يقول عندما تكلم عن الزهد والتصوف فى كتابه « العقيدة والشريعة » : بل قبل أن يغمض النبى عينيه ، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرة ، تحول المبدأ السائد إذن إلى مبدأ آخر ، ففكرة الزهد فى العالم ، حلت محلها فكرة فتح العالم . . . ولم يكن هذا الفتح موجها نحو المثل الأعلى وحده ؛ لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف . . . وكانت البواعث الغالبة التى دفعت بالعرب إلى القيام بالفتوحات هى الحاجة المادية والطمع كما فصل ذلك فى دقة عظيمة ، ليونى كايتانى فى عدة فقرات من كتابه عن الإسلام وقد هش العرب للدين الجديد ورحبوا به على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه التى كانت تدعو إليها الضرورات الاقتصادية الخ الخ . . .

ولست هنا فى مجال مناقشة مستشرقنا أو الرد عليه ... فنشأته فى حضارة مادية منحرفة وبيئة متعصبة حاقدة ، جعلته كالرجل الذى نشأ فى مملكة عميان وكان بصيرا . . فحدثهم عن السماء وجمالها فكذبوه ، وحدثهم عن النجوم وضيائها فاستثقلوه ، وحدثهم عن القمر وبهجته فاسترذلوه وهددوه ، فإما أن يقيم معهم فى مملكتهم التى تحدها الجبال الأربع ولا سماء ولا نجوم ولا قمر ، وإما أن يخلعوا من وجهه هاتين العينين اللتين تجلبان عليه الجنون والخبال . . . أقول : صعب على المستشرق العالم أن يدرك التوازن الذى كانت تسير عليه الدعوة الإسلامية أول أمرها ، فذهب إلى ما ذهب إليه . ومن الذى قال : إن الإسلام زهد فى الدنيا أو فى العالم زهادة كلية .. وقرآنه يأمر : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . ورسول الله يستجوب عبد الله بن عمرو ابن العاص استجوابا صريحا قاسيا ، حينما اتهمه أهله بالعزوف عن الدنيا . . يا عبد الله ابن عمرو : بلغنى عنك أنك لا تنام ! قال : أردت بذلك الأمن من الفزع الأكبر ، قال : وبلغنى أنك لا تفطر ، قال : أردت بذلك ما هو خير منه فى الجنة ، قال : وبلغنى أنك لا تؤدى إلى أهلك حقهم . قال : أردت بذلك نساء خيرا منهن . . فقال النبى صلى الله عليه

وسلم : يا عبد الله : إن لك فى رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ، ويؤدى إلى أهله حقوقهم ، يا عبد الله : إن لله عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا » .

إن الإسلام دين الإنسان ، والإنسان مادة وروح ، وعقل وقلب ، وفكر وعاطفة ، وذكاء وإلهام ! فكيف يستغنى الإسلام عن الدنيا ...

انطلقت الدعوة الإسلامية قوية ، حين ساندها العقل والقلب والذراع أو الإسلام والإيمان والإحسان .

فلما كان القرن الثالث الهجرى ساد الجدل بين العقل والقلب ، بين علماء الكلام والفقهاء من ناحية ، والصوفية من ناحية أخرى .

ويكون الجدل العقيم دائما عند ما تفرغ العقول من الأفكار الجيلة ، وعند ما تخلو القلوب من العواطف والمشاعر الراقية .

ولقد تعقدت العقلية الفقهية والفلسفة الكلامية فى هذا القرن ، فأركان الصلاة تدرس تدريسا جافا ، والأمور الفقهية تملى إملاء ميتا ، والبحوث الكلامية تنحصر فى زيادة الإيمان ونقصه ، ورؤية الله وعدم رؤيته ، والجنة والنار ، هل وجدتا أم لا ، وهل هما فى السماء أم فى الأرض ، أم فى الفضاء ، وهل فى العالم الأعلى دواب أم لا .. وهل صفات الله عشرون أم ثلاثة عشر .. وهكذا .. لا تنتهى من جدل إلا إلى جدل ، ولا من كلام إلا إلى كلام .. المعتزلة لهم رأى ، والأشاعرة لهم رأى ، وأهل الحديث لهم رأى والمتأولون لهم رأى .. والآراء تنبع من العقل ، ولذلك فهى وإن كانت علمية ، إلا أن فيها جفافا ملحوظا ، وفتورا كثيرا .

وهنا انفصل عن الدعوة الإسلامية عنصر القلب . فأصبحت فلسفة كلامية بحتة لا روح فيها ولا حياة . ولعل الذى أفقد العقلية الإسلامية أو الروح الإسلامية توازنها ، ما قابلها من عوامل أجنبية متنوعة ، كحضارة النصارى واليهود والفرس ، وكالفلسفة اليونانية والأفلاطونية والهندية . فتكونت فلسفة أخرى ، هى فلسفة القلب ، وهى فلسفة التصوف . وأصبح للفلسفة الكلامية أنصار ، وللفلسفة الصوفية أنصار . والدين الإسلامى يسع الفلسفتين فى بساطة واتزان . فهو يقر أن هناك عالما للغيب فيه نبوة ورسالة وولاية وملائكة ، ووحى وإلهام وكشف ، وبعث وحساب ونشور ، وجنة ونار . وإذا كانت هناك مجموعة ضوئية على رأسها الشمس ويليها القمر فالكواكب ، فعالم الغيب على رأسه النبوة ثم إلهام الأولياء ، وكشف الصالحين ، وهناك عالم الشهادة ، ويشمل المادة بجميع أجزائها ، من حبة

الرمل إلى خلية المخ ، ومن تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وغير ذلك .

ولذلك كم كان غريبا على الإسلام انفصال الفلسفة الكلامية عن الفلسفة القلبية . . ومناصبة هذه العداء لتلك . لقد كان الخلاف بينهم فى كل شيء ، الكلاميون تكلموا عن الإلهيات من زاوية علمية بحتة ، والصوفيون تكلموا عنها من زاوية عاطفية بحتـــة ، وأطلقوا على نتاج العقل « علما » . وعلى نتاج القلب « معرفة » .

وفى الحق أننا كسبنا من وراء هذا الخلاف عقليات ناضجة فى العلم ، وبحوثا ضافية فيه ، واستنتاجات واستنباطات وقياسات كنا فى أشد الحاجة إليها كما اكتسبنا أدبا عاطفيا رقيقا ، وإلهامات صوفية صادقة ، وفيوضات ربانية قيمة ، وإشارات رمزية عالية .

ولكن انفصال العقل عن القلب أوجد لنا جدلا فقهيا ، وصورا كلامية حشيت بها الكتب أضرت العقلية المسلمة ضررا بالغا ، وانفصال القلب عن العقل أوجد لنا شطحات وهيامات صوفية ، أخرت المسلمين قرونا من الزمان . فالدعوة إلى البتولة والعزوف عن الزواج دعوة دخيلة على الإسلام ، والدعوة إلى الفناء أو الحلول أو الاتحاد دعوة دخيلة على الإسلام . وسواء كان الفناء بإفناء ميول النفس ورغباتها جميعا ، أو بإفناء العقل عن المدركات والأفكار والأفعال والأحاسيس ، أو إبطال جميع قوى الفكر الواعى ، فإن المستشرق الفاضل نيكلسون قد أرجع هذه النظرية إما إلى النرفانا البوذية ، أو المسيحية أو التنويم الذاتى . . . وأنا لا أسوق هذا الكلام لإيمانى به أنه صادق كل الصدق ، فنيكلسون عندى فى قفص الاتهام ، بالنسبة لما نسبه إلى الإسلام . وإنما لأنى أرى أن ذلك فعلا دخيل على الإسلام والاعتقاد بأن جميع الأديان من بوذية ووثنية وكتابية طرق موصلة إلى الله . دعوة دخيلة على الإسلام... وهكذا .

فلو كان عمق الفكر مطعما بروحانية القلب ، لوصل إلينا نتاج أضخم وعلم أجسم ، وشطحات أعقل ، وأدب أجمل .

إن العلم اليوم تقدم ووصل إلى قانون الذبذبة والجاذبية ووصل إلى أحـــدث الاختراعات والاستكشافات ، وكذلك عندنا فى مصر وفى غيرها عقول علمية جبارة . ولكننا نشكو مع ذلك فراغا روحيا كبيرا . وما قيمة العالم إذا كان قلبه أفرغ من فؤاد أم موسى .

ولقد قرأت قصة هندية تقول : إن الإيمان والرجاء والحب تشكلوا بشكل حمامات ثلاث ، فلما نزلت إلى الأرض لم يعجبها أهلها ،

فطلبت من ربها الرجوع إلى السماء ، فقال المولى : للإيمان والرجاء : لا مكان لكما فى السماء ، أما أنت يا حمامة الحب . فما شئت تنقلى بين الأرض والسماء . وأنا آمل الآن أن تنتقل حمامة الحب بين عقولنا وقلوبنا ، أى بين فقهائنا وفلاسفتنا ، وعلماء الصوفية أى بين الشريعة والحقيقة ! ! .

إن الحب إذا عشش فى القلوب أذاب الأحقاد بناره ، وصهر الحزازات بلهبه .

ما أحوج أمتنا ودعوتنا الآن إلى أن يتعاون القلب والعقل واليد على العمل والفكر والكشف .

ولقد ذكروا أن ابن سينا العالم تقابل مع أبى سعيد الصوفى . . وتناقشا فسئل ابن سينا فقال : ما أعلمه يراه ... وسئل أبو سعيد فقال : ما أراه يعلمه .

ويسرنى أن أختم المقال بفيضة من الأدب الصوفى ، قال جلال الدين الرومى :

مجهول أنا عند نفسى
بربك خبرنى ما العمل ؟
لا الهلال ولا الصليب معبودى
ولا أنا كافر أو يهودى
ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى
ولا لى قريب من ملاك ولا جن
ولا طينتى من تراب ولا طل
ولا صورتى من ماء ولا زبد
ولا بالصين ولا سقسين
ولا ببلغار مولدى
ولا بالعراق ولا خراسان
ولا الهند ذات الخمسة أنهار منبتى
ولا بهذا الكون ولا ذاك
ولا فى الجنة والنار موطنى
ولا طردى من عدن ولا يزدان
ولا من آدم أخذت نسبتى
بل من مقام ما أبعده من مقام
وطريق خفى المعالم
تجردت عن بدنى وروحى
فمن جديد أحيا فى روح محبوبى...

ولقد نفر العلم الحديث من الشطحات الصوفية أول أمره ، ولكنه فى الأيام الأخيرة أخذ يصطلح مع علم التصوف ، خصوصاً بعد أن آمن « بالتليباتى » . والتليباتى كلمة يونانية تقابل تقريباً ما يسمى بالكشف عند الصوفية ، ومعناها الحرفى : انفعال من بعيد ... ولا زلنا ننتظر من العلم الحديث تلاقيا أوسع مع الصوفية ، كما لازلنا نرجو وجود غزالى للقرن الرابع عشر الهجرى يقوم مقام غزالى القرن الخامس فى التوفيق بين الصوفية وعلماء الفقه والكلام .

اللهم املأ عقولنا علما ، وقلوبنا حبا ، وأيدينا حركة ، إنك على كل شىء قدير .

أحمد عبد الجواد الدومى

مع الشيوعيين فى سجونهم

للأستاذ أحمد الشرباصى

يتعرض المجتمع العربى فى هذه الآونة الفاصلة الحاسمة من تاريخه المعاصر لمحنة شديدة قاسية ، تتطلب من الأساة الطب والعلاج ، وهى محنة اندلاع لهب الشيوعية الحمراء فى رجا من أرجائه ، وناحية من نواحيه ، وما يحسب عاقل أن تقنع الشيوعية بما نالت أو تنال ، فإن لها من أطماعها الأشعبية وأحلامها الثورية ما يقض المضاجع ويقلق الخواطر ؛ ولعل الشيوعية هى أكبر خطر يهدد عقائدنا الدينية ، ومواريثنا الروحيــة ، وقوميتنا العربية ، ونزعتنا التحررية ، وجهادنا لجمع الكلمة ووحدة الصف ، وتطلعنا إلى إقامة مجتمع فاضل على أساس الاشتراكية التعاونية الديمقراطية فى ظل العقيدة السمحة والعروبة الأصيلة . . .

وإنما كانت الشيوعية أكبر الأخطار على هذه المواريث والمقدسات ؛ لأنها ترى أن الكون والحياة والإنسان مادة ، وأن القيم الروحية والأخلاقية خيال أو افتعال ، وأن الدين خرافة ، وهو أفيون للشعوب ومخدر للجماهير ، وأن الله لا وجود له ؛ وهى تثير حرب الطبقات وتبتعث الأحقاد والضغائن فى صدور الأفراد والجماعات ، وتلغى الملكية الفردية ، وتزهق الحرية الشخصية ، وتتخذ من الشعب هرما ضخما تتربع على قمته الدولة فى استبداد مقنع واستعباد مستور ، وقد يكون لها من البريق الظاهر ، أو الزخرف الخارجى ، ما يخـدع القابلين الخداع عن حقائق فى الداخل تذهل وتروع .

ومن هذا التركيز المضغوط لمبادئ الشيوعية نستطيع أن ندرك بسهولة مسافة الخلف ومدى البعد بينها وبين دين نؤمن به ، وبين قومية نصطبغ بها ، ولا أحب أن أستشهد هنا بكلام لرجل دين ، بل بعبارة صريحة واضحة قالها الرئيس جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٥٤ ، وصدر بها كتاب « حقيقة الشيوعية » ، وفيها يقول عن الشيوعيين :

« قد كفروا بالدين ؛ لأن الدين فى عرف الشيوعية خرافة . وكفروا بالفرد ؛ لأن الفرد فى دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده ، وإنما الكيان للدولة . وكفروا بالحرية ؛ لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته ، وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا إرادة . وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة ؛ لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم يتربع على قمته فرد »

ويعتقد ملايين الشعب فى القاعدة . . . ألا ما أبعد واقع الشيوعية عن دعوة دعاتها . .

ونحن المصريين . . نحن العرب . . نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم ، نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كيانا فى ذاته ، وكيانا فى أهله ، وكيانا فى قوميته العامة وفى بلده . . . » ! .

والأحداث الدامية الموجعة التى شهدتها أرض العراق على يد الشيوعية فيها عبرة للمعتبرين وعظة للدارسين ، ومن العجب أن كتابا كبيراً صدر فى العراق منذ عام ، وقبيل ثورة ١٤ يوليو بقليل ، يسجل جوانب من مآسى الشيوعية ومكائدها فى بلاد الرافدين ، وهذا الكتاب بعنوان « مع الشيوعيين فى سجونهم » ، كتبه ضابط عراقى كبير ، هو الأستاذ عبد الجبار أيوب الذى كان مديراً لسجون بغداد والموصل ونقرة السلمان « بلدة فى البادية الجنوبية من العراق » والحلة وكركوك . . وظل يقوم بهذه المهمة عهداً طويلا حتى اعتزل الخدمة ، وأصدر هذا الكتاب بعد اعتزاله الخدمة ، فليس هناك مؤثر فيه أو مطمع يرتجيه ، ولذلك يلوح من كتابته الصدق والاعتدال ، وقد نشره قبيل قيام ثورة العراق ، فكأنه كان النذير العريان بما سيقع فى هذا الجزء العزيز من أرض العروبة المؤمنة ، ولذلك ينص على أنه قام بهذا المجهود ليحذر به أمته ، « وخاصة هذه النبتة الزكية من رجالات البلد العاملين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم لخدمة هذا الكيان القائم ودعمه والذب عن حياضه ، والدفاع عن المبادئ والعقائد السماوية التى تعتنقها هذه الأمة وتقدسها ، وتبذل حياتها ودماءها وأموالها فى سبيلها ، كما يسعون فى دأب واستمرار إلى الارتفاع بها إلى المكانة التى تليق بها وبتاريخها وبشرفها بين الأمم الحرة العزيزة المستنيرة » ! . . .

ولقد كان هذا الضابط مختصاً بسجون الشيوعيين ومراقبتهم داخل سجونهم وحل مشكلاتهم ، ولذلك تكونت عنده خبرة بأساليبهم ووسائلهم لنشر مبادئهم وتحقيق مآربهم ؛ فهم يعمدون إلى التخفى والاحتيال المستور فى بث آرائهم فهذا مثلا رجل يسمى « بطرس » ينزل بغداد على أنه خياط ماهر ويعلم الناس من حوله فنون الخياطة والتطريز وفى طيات ذلك يتحدث بلباقة وتلميح مع من يجتمعون به حول أساليب الحكم والإقطاع وجهل الفلاح وانتشار الأمراض بين الطبقات الفقيرة ويشير فى حذر وبراعة إلى ما قامت به روسيا من تحقيق المساواة والرخاء ، وهو يصطفى أصدقاءه عادة من العمال والطبقات الفقيرة ، ويتفنن فى الحديث فلديه معلومات كثيرة وعنده ثقافة واسعة ، وتحوم الشبهات بعد حين طويل حول « بطرس » وبعد أن نفث الكثير من سمومه

وتكشف للقوم حقيقة أمره فإذا هو « رجل عسكرى برتبة رئيس فى الجيش الروسى ، أجاد التنكر والاحتيال والاستغلال !!.

ويستبين لنا من مساعى الشيوعية المبكرة فى العراق أن دعاتها السريين كانوا يستغلون فى محاولاتهم الآثمة طائفة العمال والفلاحين الأميين ، والطلاب المبتسرين ، كما كانوا يستغلون مآثم الاستعمار التركى والغربى فى هذه البلاد فيحدثون البله من هؤلاء عن النعيم الخيالى العجيب إذا صار للشيوعية دولة وكيان !...

ويقول الكاتب الذى صاحب الشيوعيين فى سجونهم : « إن الحزب الشيوعى العراقى السرى الذى يدعى أنه يبنى نظرياته على الواقع المادى كرس كثيراً من نشاطه لتغذية وإنعاش الروح الطائفية فى العراق ، فقام بطبع ونشر الكثير من الكراريس والكتب والنشرات لتحقيق هذا الغرض الوضيع وبصورة خاصة بين الطوائف الإسلامية كما عمد إلى تجسيم العداء بين السكان فى جنوب العراق وشماله ، فتبنى نظرية استقلال كردستان لعزل الأكراد عن إخوانهم العرب والأدهى من هذا أنه تبنى نظرية تقسيم فلسطين لمجرد أن موسكو هى التى قالت بالتقسيم وأيدته .

ويضيف : « أما الشيوعيون فيريدون بمطالبهم أن يحرروا مزاولة النشاط الشيوعى فى العراق ، وتنفيذ الأوامر والخطط التى ترسمها وتحددها لهم موسكو ، وهم يريدون الحريات البربرية والفوضوية الجنسية الحقيرة التى شاع أمرها عنهم فى السجون ، يريدون حرية المظاهرات لصرف الطلاب عن دروسهم ، والعمال عن مكاسبهم وعيشهم يريدون حرية الإضراب عن العمل لخلق البلبلة والتذمر وشل الحياة الاقتصادية العامة ، يريدون حرية الفوضى للقضاء على نظام الحكم القائم ، إنهم يريدون تحقيق قيادة شيوعية فى هذه البلاد ، تقود الشعب وتسيره إلى تحقيق أغراض سادة موسكو ، فى حين أن قيام مبدأ شيوعى فى هذا البلد الإسلامى يعد من أحلام الفاشلين فى الحياة ، والشيوعية فى هذا البلد معناها التصيد بالماء العكر للوصول إلى كراسى الحكم والقبض على مقاليد الأمور » !!.

هذا الكلام قد كتبه كاتبه ونشره على الناس منذ عام ، فتأمل فيه ثم تطلع إلى الأحداث الجارية الآن !!.

* * *

وعلى الرغم من أن نظام الحكم العراقى قبل ثورة ١٤ تموز كان يرى فى الشيوعية المرعب الأكبر له ، نجد أن الشيوعيين فى سجونهم كانوا يتمتعون بميزات كثيرة لا يتمتع بها غيرهم فى بلادهم وسوى بلادهم ، فالماء متوافر عندهم ، والموظف الصحى يزورهم يوميا ، والأطباء المختصون يترددون عليهم ، كما تزورهم كل أسبوعين لجنة طبية للفحص العام ، والمصابيح متوافرة ، والأطعمة ملائمة وتوزع بوساطة لجنة من المسجونين أنفسهم ،

والصحف تأتيهم ، ومكتبة السجن مفتوحة لهم ، ومع ذلك لا يقنعون ولا يرتدعون ، حتى يتمثل فى شأنهم بقول الشاعر :

إصلاحهم أعيا العقول لأنهم
خلقت مفاسدهم لغير صلاح
من كل مرتكب الشنيع ولم يكد
يثنيه عنه إذا لحاه اللاحى
أهدى بطرق المخزيات من القطا
وأضل ممن آمنوا بسجاح !

فهم ينتهزون الفرص لتنظيم الإضراب داخل السجن ، وهم يتجمعون ويقومون بالتخريب والتحطيم واستعمال قنابل مولوتوف وغيرها من وسائل العدوان والهدم ، وفى سنة ١٩٥٣ قاموا بحركة تمردية عنيفة فى سجن بغداد ، واعتدوا على الشرطة والضباط ، وكان من جراء ذلك أن صدرت الأوامر باستعمال القوة ضدهم فسالت دماء وأزهقت أرواح !!.

وبينما كان الشيوعيون داخل السجون يحاولون بهذه الحركات التمردية أن يشغلوا الدولة فى بغداد ، حدثت كارثة الفيضان سنة ١٩٥٤ ، وتعرضت بغداد دار السلام للغرق وهم أهلوها بمغادرتها لولا حزم وزير الداخلية الذى قدر العواقب الوخيمة للجلاء عن بغداد وبينما الدولة مشغولة بكل أجهزتها لإنقاذ العراق من الكارثة ، كان الشيوعيون يدسون السفلة الأوغاد ليحدثوا ثغرات فى ضفاف دجلة لكى يتسرب منها الماء ويزداد الخطر وتغرق بغداد بمن فيها وما فيها : وقد قبضت الدولة على هؤلاء وأنالتهم جزاء خياتهم وغدرهم بوطنهم ومواطنيهم .

والصلة وثيقة بين الشيوعية والصهيونية ، وكل عربى وكل مسلم يدرك ماصنعته الصهيونية بأبناء العروبة والإسلام ، والكاتب الذى يحدثنا عن الشيوعيين فى سجونهم يذكرنا بأن « كارل ماركس » مؤسس الشيوعية وفيلسوفها من أصل يهودى .

ثم يحدثنا عن كثير من اليهود والصهاينة الذين اندسوا فى صفوف الشيوعيين السريين بالعراق ، ويعلل نشاط اليهود فى حقل الشيوعية الخطير بقوله : « فى الحق إن اليهود كان لهم القدح المعلى فى هـذا الميدان ، لأنهم كانوا يريدون من وراء نشر هذا المبدأ الخطر صرف الأنظار عن إنشاء الوطن القومى الذى كانت تعمل له إسرائيل ، وتسعى لإقامة هذه الدولة التى يريدون أن تكون لهم ملجأ يستظلون بظلالها ، ويعيشون فى حدودها التى يتخيلونها لها من أنها ستتحدد فيما بين الفرات والنيل ، وبناء على هذا فقد نشطوا نشاطاً عظيما فى الترويج لهذا المبدأ الذى يخدم قضيتهم التى لا تتعدى إنشاء وطن قومى لإسرائيل . لذلك وجدناهم يتبنون الفكرة الشيوعية فى العراق ، ويقدمون لها الأموال لتغذيتها ، ويبذلون فى سبيلها دماءهم وأولادهم

ونساءهم وكل ما يستطيعون أو يملكون من قوى . »

وهذه أسماء يهودية كثيرة تنضم إلى الحزب الشيوعى العراقى السرى ، وتتفنن فى محاربة العروبة والإسلام ، وفى خدمة الصهيونية وإسرائيل ، وفى تحطيم المقومات الروحية والأدبية والوطنية فى نفوس الشباب والعمال. ولقد أقام الشيوعيون فى سجنهم ذات ليلة حفلة رقص وغناء... أتدرى أية ليلة كانت ؟ إنها ليلة الذكرى لتأسيس « دولة إسرائيل » !! . . .

ومن أخطر الأسلحة الفتاكة التى تستخدمها الشيوعية بالتعاون مع حليفتها الصهيونية سلاح « المرأة » فهاتان امرأتان حسناوان على غاية من الفتنة والجاذبية ، تحاولان بإغرائهما ووسائلهما التأثير فى المشرف على السجن حتى لايمانع فى نقل بعض الشيوعيين المسجونين من مكان إلى مكان ، ثم يصور الكاتب خطورة سلاح المرأة فى هذا المجال فيقول عن هؤلاء الشيوعيين : « وقد ضحوا فى سبيل هذه الحركة تضحيات كثيرة ولم يتركوا سلاحا إلا استخدموه فى سبيل إنجاحها ، وقد كان أمضى سلاح استخدموه هو المرأة ، فقد لعبت المرأة فى هذه الحركة دورا من أبرع الأدوار وأشدها فتكا وأكثرها تنوعا ، فقد استعملت المرأة فى هذه الحركة سلاح الإغراء الذى أغوى الكثيرين من شباب هذا الوطن فمضوا يشدون أزر الشيوعية فى جميع آرابها ومقاصدها ، مندفعين لا يلوون على شىء ، فقد تذامروا على الجهاد فى سبيلها والذب عن حياضها ، ولم تمنعهم مطاردات الشرطة وتنكيلاتها ولا الحبوس وغلاظ العيش فيها ، وكانوا كلما دب إليهم بعض الفتور برزت لهم غوانى اسرائيل وغاداتهم الفاتنات فدفعنهم فى السبيل المرسوم ، وأعدن إليهم نشاطهم ، وأحيين فيهم بالكلام المعسول ميت الآمال» .

وأما الشذوذ الجنسى فى حقول الشيوعية فله حديث أليم ، فالشيوعية لا تقيم ميزانا للعرض والعفه والفضيلة ، وهى ترى أن الاتصال الجنسى عملية جسدية يراد بها الترفيه والتنفيس ولا عيب فيها إذا أتاها أهلوها بأية صورة وبلا قيد من القيود ، ومؤلف « مع الشيوعيين فى سجونهم » يقص مخازى فظيعة فى هذا الباب ، فالشيوعيون يأتون من صور الشذوذ الجنسى ما لا يقره دين أو عقل أو إنسانية ، وهم لا يخجلون من التصريح بهذا الشذوذ والمعالنة به ، ويعتبر الحياء من الحديث عن هذه الشئون بقية من بقايا الرجعية والتأخر ، وهم يصدرون أوامرهم الحزبية الشيوعية فى كثير من الأحيان إلى بعض الشبان الذين لهم وسامة

وقسامة كى يقوموا « بالترفيه » عن زملائهم ويعتبرون هذا قياما بالواجب !! . . . وقد ذكر المؤلف طائفة من الوقائع المخزية المخجلة ذكرها بأماكنها وتواريخها وأشخاصها ، ونتائجها . . .

والشيوعيون فى سجونهم يطالبون أن يكون الرجال والنساء فى مكان واحد ، لأن الرجل لا يستغنى عن المرأة ، والمرأة لا تستغنى عن الرجل ، وحديث الأفاعى فى هذا الباب طويل المدى !! . .

ولقد فزع العالم الإسلامى أخيراً لما تردد فى الأنباء من أن الشيوعيين فى العراق قد أهانوا القرآن وأحرقوا المصحف ، وهذه المأساة قد حدثت على أيدى الشيوعيين من قبل ، فهذا شيوعى تائب ، يدلى بشهادة له عن مآسى زملائه الشيوعيين (سابقا) ، فيقول ضمن شهادته فى سنة ١٩٥٤ ببغداد .

إن هذا القرآن الكريم الذى حلفت به قد أهين أبلغ الإهانة من هؤلاء الشيوعيين ، فقد استعملوا أوراقه (للتمسح بها) أثناء قضاء حاجتهم بالمراحيض ، وكثيراً ما كانوا يدوسونه بأرجلهم تحقيراً وازدراء ، وأنا ياسيدى رجل متدين خدعونى للدخول فى زمرتهم وزينوا لى وجهة نظرهم ، فلم أشعر إلا وأنا معهم أنفذ أغراض الحزب وأنا فى السجن ، وقد ضقت يا سيدى ذرعا بهم وبأوامرهم التى لا يفتأون يصدرونها باسم القيادة فى السجن ، وأخرى باسم القيادة الخارجية » .

ويمضى الشيوعى التائب فى تفاصيله فيذكر كيف كان هؤلاء الشيوعيون يشتمون الأنبياء والرسل ويسخرون من الدين ، ويتطاولون على مقام الرسول محمد والصحابة الكرام ، ويمنعون المتدينين من القيام بالصلاة ، ويغلقون أجهزة الإذاعة إذا بدأت تلاوة القرآن ، ويأتون الفواحش جهاراً بلا استحياء !! . .

ولو أردت أن أعرض ولو بالتلخيص ، والتركيز كل المآسى التى يأتيها الشيوعيون فى سجونهم وخارجها لامتد سبب الحديث وطال ولكن حسبنا ما تقدم ليعطينا فكرة عن أهداف الشيوعية ووسائلها ، وليقفنا على الخطر الأكبر الذى نتعرض له الآن بسبب الاستعمار الشيوعى الذى يتلاقى فى أكثر من ميدان مع الاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى ، ونحن قوم قد كفرنا بكل استعمار ؛ لأننا نؤمن بالله واهب الحياة والحرية ، فإذا كنا نبذل مجهوداً ضخماً لكيلا نقع فريسة للاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى فيجب أن تكون جهودنا أضخم لكيلا نقع فريسة للاستعمار الشيوعى ؛ لأنه احتلال وإلحاد ، وبلاد العروبة المؤمنة قد آلت على نفسها وعاهدت ربها أن تحيا حياة كريمة متوائمة مع هدى الإسلام لائقة بمواريث العروبة !! . . .

احمد الشرباصى

صوتية الأدب

للدكتور تمام حسان

الحواس أبواب المعرفة ما فى ذلك شك . فنحن نتصل بالعالم الخارجى بواسطتها ، ونتعلم عن طريقها ، بل نحيا حياتنا كلها بفضل هذه الحواس .

ولو تصورنا إنسانا لا سمع له ولا بصر ، ولا قدرة له على الشم والذوق واللمس ، لتصورنا مسخا أقرب ما يكون إلى الجثة لا إلى الإنسان الحى ، وإن مجرد الحركة لا يمكن أن يقوم دليلا على الحياة ؛ لأن الحركة صفة الآلة ، وصفة الأجرام السماوية ، ولا يمكن أن ندعى الحياة للآلة ولا للأجرام .

وكل حاسة من هذه الحواس تصلح طريقا للمعرفة ، فنحن نكتسب المعرفة برؤية الأشياء وسماعها وشمها وذوقها ولمسها . وقد يقول قائل : إننا نتعلم كذلك عن طريق التفكير المنطقى المجرد ؛ وذلك قول صحيح لا غبار عليه ولكنه لا يصلح للطعن فى صحة دعوى التعلم عن طريق الحواس ؛ لأن التفكير المنطقى إن كان استقرائيا ، فالحواس عماد الاستقراء : وإن كان قياسيا فشأنه أن يقيس المعقول على المحسوس ، والمحسوس مجال الإدراك بالحواس ، ومن هنا يمكن القول : إن الحواس عماد القياس أيضا .

ولكل حاسة من هذه الحواس لغتها ، فلغة السمع الكلام ، ونقرات التلغراف وأبواق الجيش وصفارات الإنذار ، وطبول القبائل البدائية فى الغابات والأحراج وما يشبه ذلك .

* * *

ولغة البصر الكتابة والإشارات المرئية كأضواء المرور والتلويح بالرايات فى سلاح الإشارة ، وإشارات المليو والألوان المختلفة على الخرائط وألوان الفرح والحداد وأعلام الدول وهلم جرا . . . وأشهر مثال للغة اللمس كتابة بريل للمكفوفين . فهم يقرءونها باللمس ، وكثيراً ما يصطلح الناس على مذاق خاص أو رائحة خاصة ، فيكون ذلك لغة للذوق أو الشم . على أن استخدام كلمة «لغة» هنا فيه شىء من التوسع من وجهة نظر الدراسات اللغوية ؛ لأن هذه الدراسات لا تطلق تلك الكلمة إلا على اللغة بالمعنى الأخص أى بمعنى الكلام والكتابة .

وأهم هذه الحواس فى التعلم السمع والبصر :
أما الأول فلأنه طريق إدراك الكلام ، وأما الثانى فلأنه طريق إدراك الكتابة والموضوعات المعلومة . ولقد فطن العلماء من قديم إلى أهمية هاتين الحاستين بالنسبة لتقدم الإنسان وقدرته على معرفة الظواهر والموضوعات فصرفوا كل همهم إلى العناية بهما . فهم وجدوا أن للسمع مدى لا يصل الصوت من ورائه إلى الأذن ، وأن للبصر مدى لا تصل المرئيات من ورائه إلى العين ، فحاولوا أن يطيلوا مدى السمع ومدى البصر بالطرق العلمية وانصرف همهم إلى هذه المحاولة منذ زمن طويل .

فأما إطالة مدى السمع فقد اخترعوا لها التليفون ومكبر الصوت والأسطوانة المسجلة والشريط المسجل ، وهذه الوسائل جميعاً لا تعترف بحدود المكان وبعضها لا يعترف حتى بحدود الزمان . وإما إطالة مدى البصر فقد وجد العلماء أن الأشياء التى تتعذر رؤيتها بعضها لا يرى لأنه بعيد وإن كان ضخماً فاخترعوا له التلسكوب ، وبعضها لا يرى لأنه دقيق وإن كان قريبا فاخترعوا له الميكرسكوب .

وهكذا وجدنا السمع والبصر يحتلان المكان الأول فى عناية العلماء ؛ لأنهما يعتبران أهم الحواس الإنسانية من حيث اكتساب المعارف .

وحتى اللغة الإنسانية لم تخل من إعطاء عناية خاصة للسمع والبصر ، فوجدناها تنقسم بحسب هاتين الحاستين إلى قسمين : أولهما الكلام ويتجه إلى السمع ، والثانى الكتابة وتتجه إلى البصر .

وإن كل لغة من لغات العالم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا ، إما أن تكون قد قصرت اهتمامها على السمع فظلت لغة الكلام فحسب ، وإما أن تكون قد دخلت فى مسالك المدنية فشملت باهتمامها البصر وأصبحت لغة كتابة كذلك .

والذى نلحظه الآن أن اللغات المكتوبة ، فى العالم هى فى مجموعها لغات مشتركة قومية . فأما اللهجات المحلية الداخلة تحت كل لغة من هذه اللغات فلم يتح لها من الانتشار والتقدم ما يحتم أن تصبح مكتوبة برغم ضخامة عددها ! إذا قيست إلى اللغات المكتوبة .

ولا شك أن التاريخ البشرى يكشف دون مراء عن أن لغة السمع وهى الكلام قد سبقت لغة البصر وهى الكتابة . بل إن عمر لغة الكتابة إذا قيس إلى عمر لغة الكلام لا يمكن أن يبدو شيئاً مذكوراً ، فعمر الكتابة عمر التاريخ ، ولكن عمر الكلام عمر البشر

وعمر التاريخ قد يبلغ حوالى خمسة آلاف عام ، فأما عمر البشر فلا يعرف مبدؤه على وجه التحديد . وإن كل لغة فى العالم نعرفها أو لا نعرفها ، لا بد أن تكون قد مرت بمرحلة الكلام قبل أن تصبح لغة كتابة . وهـذا صادق على كل اللغات المعاصرة والمنقرضة . وليست اللغة العربية بدعا بين هذه اللغات . فعمر الكتابة العربية لا يكاد يذكر إلى جانب عمر اللغة العربية . وإن الرواة ليختلفون فى تحديد أصول هذه الكتابة العربية ولكنهم يكادون جميعاً يتفقون على أن هذه الأصول لا تضرب جذورها فى القدم إلى ما يزيد على حوالى قرنين من الزمان قبل ظهور الإسلام .

على أن الكتابة العربية لم يكن مجالها تقييد الثقافة العربية ، وإنما انصرفت إلى تقييد التجارة العربية والمعاهدات والوثائق ، فأما الأدب فلم يكن حتى وقت متأخر موضوعا من موضوعات التدوين ، حتى إن رواية كتابة المعلقات وتعليقها على أستار الكعبة لتلقى معارضة شديدة من بعض الباحثين . وكان لا بد والحالة هذه أن يتسم الأدب العربى بسمات النص المنطوق ، أكثر مما يتسم بسمات النص المكتوب . وقد اصطلحنا فى عنوان هذا المقال على أن نسمى سمات النص المنطوق « صوتية الأدب » .

قلنا : إن الأدب العربى اتسم بسمات النص المنطوق ولم يتسم بسمات النص المكتوب .

ومرجع ذلك إلى أن هذا الأدب كان أدب إلقاء ورواية ومشافهة . وهذا الإلقاء وتلك الرواية يظهران فى خطب العرب وأشعارهم وأرجازهم وحكمهم وسجعهم ووصاياهم فكان الإلقاء فى هذه النواحى نتيجة الارتجال حينا ونتيجة التعمل أحيانا ، ومن أشهر التعبيرات العربية قولهم : إن فلانا يقول الشعر ، وقال الشاعر ، والأقوال عندهم الحكم والأمثال ، ولأحد شعرائهم :

وقصيدة تأتى الملوك رصينة
قد قلتها ليقال من ذا قالها

فالأدب عندهم فى عمومه أدب قول لا كتابة . ومن مظاهر التأثر بهذه القولية فى الأدب أننا نفضل عند الاقتباس من نصوص القرآن أن نقول : « قال الله تعالى » لا أن نقول : « أوحى الله تعالى » برغم ما يحمل التعبير بالقول من دلالات لا تتمشى كثيراً مع الاعتبارات الإلهية .

ولقد استتبعت هذه الظاهرة وجود نظام الرواية وشخصية الراوية ، فأما نظام الرواية فلم يكن يكتفى بالاطمئنان إلى أن رغبة الناس فى الأدب واحتفالهم به ستدفعهم إلى تناقله بالمشافهة ، بل كان يتعدى ذلك إلى أن يكون لكل شاعر راوية ولكل ناحية

من النواحي الثقافية راوية كالأساطير والأخبار المتصلة بالغابرين وكأنساب العرب وأيامهم، وكالحكم والأمثال وغير ذلك من التراث الثقافي المتواتر .

ولقد جاء الإسلام فانتفع بهذا النظام أكبر انتفاع وأشمله ، فجعل للقرآن حفاظا وللحديث رواة ، وزاد في توسيع نظام الرواية وأصوله حتى نشأ لرواية الحديث علم خاص يتناول السند والرجال ، فجعل الإسلام صدور الرجال مستودع أمانة الله ولم يأنف النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وإذا كان راوية القرآن حافظا وراوية الحديث محدثاً فإن الراوية الذي استقل بهذا اللقب هو راوية الأدب حتى إن بعض رواة الأدب قد جعل هذا اللقب في اسمه الذي يدعى به كحماد الراوية .

فلما جاء عصر التدوين قضى على نظام الرواية فلم يعد الناس يتناقلون الأدب ولا الحديث ولا غيرهما بالمشافهة ، ولكن كل كتاب يدون خبراً أو حديثاً كان يأتي بسند هذا الخبر أو الحديث إلى الوقت الذي تم فيه التدوين ، وكان معنى ذلك أن التدوين إن كان قد ألغى الرواية في المستقبل ، فقد احتفظ بها في الماضي ، وكان معناه أيضاً أن رجال عصر التدوين كانوا من الثقة بالرواية والارتباط بنظامها بدرجة لم تمكنهم من تجاهلها فيما كانوا يدونون ، ومن ثم كان المثل الأعلى للكتاب في نظرهم أن يكون كل شيء فيه مشفوعا بسند صحيح يذهب به موغلا في القدم إلى مصدره الأصيل .

نعود فنكرر أن الأدب العربي كان يتسم بسمات النص المنطوق ، ونضيف هنا أنه لا يزال كذلك يرمي إلى أن يلذ اللسان حين النطق ، ويهدف إلى أن يلذ الأذن حين الاستماع ؛ لأنه ورث ذلك من تاريخه الحافل الطويل .

ومن مظاهر صوتية الأدب هذه انتقاء الألفاظ بحيث تتوافر لها شروط معينة تهيئ لها القبول في النطق والخفة على اللسان . فمن ذلك أن الكلمة يجب أن تكون سلسلة . ومعنى سلاستها ألا يكون فيها صوتان متجاوران من مخرج واحد ، أو مخرجين شديدي القرب كالخاء والقاف وكل منهما مع العين ، وكالصاد والسين وكل منهما مع الشين ؛ لأن اتحاد مخرج الصوتين المتجاورين أو قرب مخرجيهما قربا شديدا يجعل الكلمة ثقيلة على النطق .

فالسلاسة إذاً اصطلاح نطقي يتصل بحلاوة النطق لا بلذاذة السماع ، أي أن السلاسة صفة الصوت حين نطقه ، وقبل أن يصل إلى الأذن . فلم يكن الواضع العربي يحب أن

يضحى بسهولة الكلمة على اللسان عند وضعها ومن ثم لم يجعل الأصوات فى الكلمة الواحدة بعيدة عن السلاسة . فأما حين تلحق بهذه الكلمة ملحقات صرفية كأداة التعريف والضمائر المتصلة ونحوها ، فللنطق العربى فى ذلك مسالك جميلة حقا .

وذلك كأن يلجأ النطق العربى عند تقارب مخرج لام التعريف مع ما يليها من الأصوات أن يجعل اللام شمسية تتحد مع ما بعدها فى صورة التشديد ، ويتفادى العربى بذلك انعدام السلاسة . وللنطق العربى فى الضمائر المتصلة الملحقة بالكلمة بل وفى بداية كل كلمة لاحقة حين تقارب نهاية الكلمة السابقة وسيلة لضمان السلاسة هى المماثلة بين النطقين كنطق الدال فى صورة التاء فى قولنا « عاندت » أو « اجتهد تنجح » .

فسلاسة الكلمة عدم استعصائها على النطق كما أن الرجل يكون سلس القياد إذا كان طيعا سهلا .

ومن ذلك أيضا أنهم يقسمون هذه الكلمة السلسة إلى كلمات شعرية وأخرى غير شعرية ، وهذا التقسيم الأخير قد يقتضى وجود السلاسة ، أى سهولة النطق باعتبارها شرطا أساسيا له إلا أنه ينبنى دون شك على اعتبارات سمعية تتوخى لذة الكلمة فى السمع ، فالكلمة الشعرية سلسة لذيذة فى الأذن ، والكلمة غير الشعرية قد تكون سلسة ولكنها لا تفضلها الأذن على غيرها فى الشعر .

وستجرنا الإشارة إلى هذه الكلمات الشعرية إلى الكلام فى مذهب الرمزية فى نهاية هذا المقال .

ولا شك أن كون الكلمة شعرية أو غير شعرية متروك فى كثير من الأحيان لاختيار الشاعر نفسه ، وما أكثر ما ينبنى هذا الاختيار على اعتبارات ذاتية بحتة تتصل بتقدير الشاعر لما فى الكلمة من جمال وحلاوة .

ولكن النقاد إلى جانب ذلك حاولوا أن يحددوا حدود الكلمة الشعرية بمعايير موضوعية كوجوب توفر السلاسة لها ، وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل ، ثم قالوا : إن هذه الكلمة يجب ألا تكون غريبة على الاستعمال العام ، وألا تكون سوقية مسفة ، فإن الكلمة السوقية ترتبط دلالتها بشئون الحياة اليومية فتفقد طاقتها على تحمل الدلالات الشعرية الطاغية غير المحدودة ، التى تستعين العاطفة فى التحليق بعيداً عن قيود الزمان والمكان .

وإلى جانب الاعتبارات الصوتية التى فى اللفظ يحرص الأدب العربى على اعتبارات صوتية فى الجملة كالفقرات القصار ، وكالسجع والمزاوجة ، وما يسمونه تصاقب الألفاظ وهلم جرا . . .

وإذا صح أن تكون الجملة المكتوبة طويلة الفقرات ، لأن القارئ يستطيع أن يعود إليها من أولها إذا فاته أن ينشئ العلاقة الصحيحة بين هذه الفقرات فى الذهن ، فإن الجملة المنطوقة يلزم فيها أن تكون قصيرة الفقرات ، ليفهمها السامع بمجرد النطق ، ويلم بالعلاقة الصحيحة بين فقرات هذه الجملة . وظاهرة قصر الفقرات هذه ظاهرة جداً فى الأدب الجاهلى وأدب ما قبل التدوين .

انظر مثلا إلى سجع الكهان وخطب الجاهليين فى عكاظ وغيرها ، ثم إلى سور القرآن وخصوصاً ما نزل منها بمكة .

وإن محسناً بديعياً كالسجع ليتجه أولا وآخراً إلى مخاطبة الأذن ، وهذه الناحية الصوتية واضحة فى الأدب العربى فى عصوره المختلفة وفى أشهر نصوص هذا الأدب ، بل إن المحسنات البديعية كلها تتجه هذا الاتجاه ، وإن واحداً منها كالجناس لا يمكن أن يتصور الإنسان اتجاهه إلى العين ، لأن الكلمتين تتجانسان فى الأذن وتتباينان فى الكتابة ، كما يبدو مثلا فى قول القائل :

كلكم قد أخذ الـ ... جام ولا جام لنا
ما الذى ضر مدير الـ ... جام لو جا ملنا

فلا جناس للعين فى هذا النص ، وإنما الجناس هنا للأذن ، ويظهر أنه حين يوجد الجناس لهما معا يلحق الغموض بالنص كما فى الألغاز نحو :

أى شىء تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله
فإذا ما قبلته وأخذت الثلا ... ث منه يكون لى ثلثاه

فليس المقصود بلفظ « لى » هنا أن تكون اللام حرف جر وبعدها ياء المتكلم ، وإنما المقصود أن اللام والياء يمثلان ثلثى حروف كلمة « ليف » التى هى مقلوب كلمة « فيل » ، وهو الحل المطلوب للغز . ونحن نرى أن الجناس هنا للعين والأذن معاً ، ومن هنا يلحق الغموض بالنص فيصير لغزاً . ومثل ذلك نلحظه فى كلمة « القلب » فى البيتين الآتيين :

يأيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قل فى سومك
تراه بالعينين فى يقظة ... كما يرى بالقلب فى نومك

فليس المقصود بالقلب هنا ما يتبادر إلى ذهن القارئ وهو قلب الإنسان الذى فى صدره وإنما المراد أن تقلب كلمة « نومك » فتصير « كمون » ، وإنما نبيح لأنفسنا هنا أن نسمى ذلك جناسا لوجود خاطر مخطئ وحل مصيب ، فالجناس هنا بينهما لا بين كلمتين فى النص .

وإن الناظر فيما كان العرب يطلقون عليه « عمود الشعر » ليجده أيضا يتجه إلى الأذن، فالوزن والقافية وهما أشهر عنصرين من عناصر مفهوم هـذا الاصطلاح أمران صوتيان .

أما الوزن فهو إيقاع والإيقاع جوهر الموسيقى والموسيقى للسماع لا للقراءة ، وأما القافية فهى وحدة صوتية بين أجزاء القصيدة لولاها ما ارتبطت أجزاؤها هـذا الارتباط الذى لها فى النفس حتى إن الشاعر لو جعل الشركة فى القافية بين كل بيتين منها على حدة لخرج العمل الشعرى ، وكل بيتين منه وحدة بعينها من الناحية النفسية ؛ ولهـذا أثر على إدراك الناحية الجمالية فى القصيدة باعتبارها نصا مسموعا .

نخرج من هـذا جميعه بأن الأدب العربى أدب يعنى أشد العناية بالناحية الصوتية المسموعة وأن ذلك يرجع إلى تاريخه وتاريخ الأمة العربية نفسها ، فلم تكن الأمة العربية أمة قارئة ولا كاتبة ، وإنما كانت أمة ناطقة فصيحة، ولا يزال العرب يتسمون بهذه السمة إلى يومنا الحاضر فلا يكاد الناس فى أية أمة من أمم الأرض إلا العرب يجتمعون فى قاعة ويقيمون بها ثلاث ساعات أو أربع بقصد الاستماع إلى عدد من القصائد . ثم إنهم حين يستمعون إليها يتحمسون للجيد منها ، فيصفقون عن انفعال وإعجاب صادقين، وهم بذلك يروحون عن النفس ويستمتعون بمنبع من منابع الجمال

تلك خاصة من خواص العرب وميزة من ميزات أدب العرب لا يكاد يشاركه فيها أدب من الآداب .

قلنا : إن ذكر الكلمات الشعرية يقودنا إلى الكلام عن الأدب الرمزى الذى هو أدب صوتى أيضا ، ولكن على طريقته الخاصة. ولقد كان الإغريق القدماء يتناولون بالدراسة ظاهرة سموها Onomatopea ، ويقصدون بها دلالة الكلمة بصوتها على معناها العرفى الذى فى المعجم، وتبعهم العرب فى الكلام عن هـذه الظاهرة وكانوا يمثلون لها بكلمات مثل فحيح وحفيف وخرير وزئير، تدل بما لها من جرس فى الأذن على معناها المشروح فى المعجم .

وكانت دراسة اليونان لهـذه الظاهرة أول التفات إلى الرابطة الطبيعية بين صوت الكلمة وبين مدلولها فى مقابل الرابطة العرفية بينها وبينه .

فالكلمة حين تدل بصوتها على المعنى تلعب نفس الدور الذى تلعبه النغمة الموسيقية حين يفسرها سامعها بمعنى خاص ، ولكن الظاهرة المذكورة عثرت على عدد من الكلمات رأت أن دلالتها الطبيعية تنطبق انطباقا تاما على دلالتها العرفية ، فاعتبرت ذلك شيئا يلفت النظر ؛ ولكن اللغويين لم يستطيعوا أن

يقيموا منه حجة على أى شىء بعينه ، وبقيت جمهرة كلمات اللغة بعد ذلك لا تتفق دلالتها الطبيعية التى بالصوت على دلالتها العرفية التى بالوضع ، إلى أن جاء الرمزيون فقالوا : إن خير ما تعامل به الكلمات الشعرية أن تدل دلالة طبيعية بصوتها لا دلالة عرفية بوضعها ، وعاملوا الكلمة معاملة النغمة الموسيقية حتى إن معناها فى القاموس قد يكون قوة ومعناها فى النغمة قد يكون ضعفا ، والأهم عندهم معنى النغمة .

وهذه الصوتية فى الأدب الرمزى تختلف عن صوتية الأدب العربى التى شرحناها من قبل من نواح هامة :

أولها : أن صوتية الأدب العربى تقليدية ؛ أما صوتية الرمزية فثورة على التقاليد الأدبية ، ثم إن صوتية الأدب العربى هدفها الجمال ، وصوتية الأدب الرمزى الإحساس الغامض ولا تؤثر صوتية الأدب العربى على وضوح الفكرة . أما صوتية الرمزية فهدفها الغموض وعدم التحديد فى الفكرة أى أن هدفها خلق إحساس غامض عند سماع الكلمة شبيه بما تحدثه النغمة الموسيقية .

وبعد : فإن الأدب العربى يسر الأذن بما فيه من جرس محبب ، وبما فيه من إيقاع وقافية واختيار كلمات ، وتوافق مخارج ، وهو أدب يسر النفس بما فيه من تجارب وجدانية إنسانية لا تقصر دون الاستحواذ على النفس . ثم هو أدب يسر العقل بما فيه من جمال الفكرة وسرعة البديهة النادرة ، وهو بكونه متعة النفس والعقل أدب يقرأ ، وبكونه متعة للأذن أدب يسمع ؟

دكتور تمام حسان

أستاذ مساعد فى كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

صونوا أخلاقكم

وفد أهل العراق على معاوية وفيهم زياد والأحنف فقال لهم .

مرحبا بكم (معشر العرب) إن الله اختاركم من الناس ، وصفاكم من الأمم كما تُصفَّى الفضة البيضاء من خبثها ؛ فصونوا أخلاقكم ، ولا تدنسوا أعراضكم ؛ فإن الحسن منكم أحسن لقربكم منه ، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه .

لغويات

الأستاذ محمد على النجار

وصف الجمع والخبر عنه

المعروف فى وصف الجمع أو الخبر عنه أن يكون جمعاً أو مفردا مؤنثا . تقول : عندى كتب نافعات ونافعة . وفى الكتاب العزيز : «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة » . ويتبع هذا الحكم فى ضمير الجمع . تقول : الكتب اشتريتها ، واشتريتهن .

وقد جاء فى العربية ما خرج عن هذا الحكم . وهو عماد هذا الحديث .

١ — جاء قوله تعالى فى سورة النحل : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين » . وترى فيه ضمير الأنعام مذكراً فى (بطونه) ، وكان المكان لبطونها أو لبطونهن .

وقد يكون أول من تنبه إلى هذا سيبويه ، وقد رأى فى الجواب أن ما وازن أفعالا من الجموع يجوز أن يعامل فى العربية معاملة المفرد ، فجاء تذكير ضمير الأنعام على هذا الوجه . وهو يقول فى الكتاب ٢/١٧ : « وأما أفعال فقد يقع للواحد . من العرب من يقول : هو الأنعام . وقال الله ـ عز وجل ـ : « نسقيكم مما فى بطونه » . وقال أبو الخطاب : سمعت العرب يقولون : هذا ثوب أكياش » . والثوب الأكياش : الذى أعيد غزله ، أو هو الردىء ، كما فى القاموس .

وقد عرض للكلام فى الآية الكريمة الفراء فى كتابه معانى القرآن ١/١٣٠ . وقد ذهب فى الجواب مذاهب غير ماذهب إليه سيبويه . فهو يذكر أنه ذهب بالأنعام مذهب النعم ، والنعم مذكر ، فلذا ذكر الضمير فى « بطونه » فكأنه قيل : وإن لكم فى النعم لعبرة نسقيكم مما فى بطونه ، واستدل على تذكير النعم بقوله .

فى كل عام نعم تحوونه
يلقحه قوم وتنتجونه

وقد بحث فى هذا بأن النعم غير الأنعام . فالنعم عند العرب الإبل فقط . والأنعام

الإبل والبقر والغنم ، فهما مختلفان ، فأنى يذهب بأحدهما إلى الآخر ! وقد أجيب عن هذا بأن تخصيص النعم بالإبل غير راجع إلى الوضع بل إلى الاستعمال ، وخير من هذا أن يقال : إن أكثر ما يشرب العرب وتقوم عليه حياتهم هو ألبان الإبل لغزرها، فكانت الإبل من هذه الناحية موطن المنة الكثيرة ، فروعى فى الأنعام عند الحديث عن اللبن النعم وهى الإبل تنبيها على هذه النكتة ، ويشبه هذا الاستخدام عند البديعيين ، كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا

ذكر السماء يريد المطر ، وأعاد الضمير عليها فى معنى ما ينبت عن المطر فيرعى ، وهو الكلأ .

وذكر الفراء وجها آخر فى الجواب ، وهو أن جمع التكسير يصح أن يعامل معاملة المفرد المذكر ، وهو يعبر عن جمع التكسير بالجمع الذى لم يبن على واحده ، أى لم تبق فيه بنية واحدة ، وهو يقابل جمعى التصحيح ، ومما ذكره فى الاحتجاج لهذا قوله : « مثل الفراخ نتقت حواصله » (١) وهو يقول : « ولم يقل : حواصلها ، وإنما ذكر لأن الفراخ جمع لم يبن على واحده ، فجاز أن يذهب بالجمع إلى الواحد . قال الفراء : أنشدنى المفضل .

ألا إن جيرانى العشية رائح
دعتهم دواع من هوى ومنازح

فقال : رائح ، ولم يقل رائحون ؛ لأن الجيران قد أخرج مخرج الواحد من الجمع إذ لم يبن جمعه على واحدة . فلو قلت : الصالحون فإن ذلك لم يجز ؛ لأن الجمع منه قد بنى على صورة واحدة ، وكذلك الصالحات تقول ، ذلك غير جائز ؛ لأن صورة الواحد فى الجمع قد ذهب عنه توهم الواحدة » .

٢ — وجاء قوله تعالى فى سورة يس : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم » فأخبر عن ضمير العظام برميم وهو مفرد مذكر ، والمكان لأن يقال : رميمة أو رميمات . وللعلماء آراء مختلفة فى تخريج الآية . فيرى بعضهم أن الرميم بمعنى مفعول من رمت الإبل الكلأ : أكلته ، وإذا أكلته فقد أبلته وأحالته عما هو عليه ، فالرميم المحال والمغير عن أصله ، وذلك فى العظام بلاؤها ، وفعيل فى معنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كما هو معروف . ويذهب الأزهرى اللغوى مذهبا آخر ، وهو أن الجمع إذا كان على بناء الواحد ساغ معاملته معاملة الواحد ، ويذكر من شواهد هذا قوله :

يا عمر جيرانكم باكر
فالقلب لا لاه ولا صابر

فلما كان جيران بمنزلة حرمان ونسيان أخبر عنه بباكر المفرد ، وكذلك العظام لما كان فى زنة كتاب أخبر عنه برميم المفرد المذكر . وهذا الرأى كأنه أخذه من رأى الفراء

---

(١) نتقت : سمنت

وقيده ، فقــد سلف أن الفراء يسوغ أن يعامل جمع التكسير معاملة الواحــد ، وأطلق فى جمع التـكسير ، والأزهرى يقيده بمـا كان على زنة الواحد ليخرج ما كان على صيغة أقصى الجمع كمساجــد ومصابيح . ويقول الشهاب الخفاجى فى كتابته على البيضاوى ٧/٢٠٤ : وقال الأزهرى : « إن (عظاما) لـكونه بوزن المفرد كـكتاب وقراب عومـل معاملته ، وذكر له شواهد . وهو غريب » وإذا عرفت أن الفراء قال بأكثر من قول الأزهرى لم يكن رأيه غريبا ، لا سيما وقد ساق شواهد .

٣ ـــ وجاء وصف الجمع بالمفرد فى كثير من شعر العرب ، فمن ذلك قول زهير :

فأصبح يحـدى فيهم من تلادكم
مغانم شتى من إفال مزنم

الإفال : جمع أفيل وهو الفصيل ، والمزنم الموسوم بعلامة خاصـة عندهم ، وترى فيه وصف الإفال به وهو مفرد مذكر . ويقول الزوزنى فى شرحــه للمعلقات : ولم يقل : المزنمة وإن كان صفة لإفال حملا على اللفظ ؛ لأن فِعالا من الأبنية التى يشترك فيها الآحاد والجموع ، وكل بناء انخرط فى هــذا السلك ساغ تذكيره حملا على اللفظ ، وتراه فى هذا يقفو أثر الأزهرى ، وقد نحا ابن سيده ـ كما فى اللسان ـ هذا النحو ، هــذا وقد روى : من إفال المزنم ، وهذه الرواية هى التى جاءت فى الديوان بشرح ثعلب المطبوع فى دار الـكتب وفى الشرح ١٧ : « وقال أبو عبيدة : المزنم: فحل معروف نسبها إليه » .

وقال الفرزدق [١] :

إذا القنبضات السود طوّفن بالضحى
رقـــدن عليهن الحجال المسجف

القنبضات : القصار من النساء . وترى فيه وصف الحجال بالمسجف ، والحجال جمع حجلة وقد ذكر الوصف لأن الموصوف على زنة المفرد ، كما سبق .

وجاء قول المتنخل (٢) الهزلى .

ذلك ما دينك إذ جنبت
أحمالها كالبكر المبتل

دينك أى دأبك وعادتك . يقـول : إنه عادته البكاء عند فراق الأحبـة واستعدادهم للسفر وتهيئة الأحمـال والأمتعة وتجنيبها ووضعها على الإبل ، وهى فى هــذه الحالة تشبه النخيل وهى البكر ، والبـكر جمع بكور وهى التى تدرك أول النخل والمبتلة من النخيل: النخلة تنشق منها فسيلة فتستغنى عنها ، فترى فيه وصف البـكر بالمبتل ، والوجه : المبتلة وإنمـا جاز هذا أن البُكُر على زنة العُنُق المفرد فجاء الوصف مفردا على هذا .

والقارئ يخرج من هــذا البحث بجواز وصف الجمع بالمفرد المذكر فى الاختيار من الـكلام ، ويدرك بحق سعة العربية وشجاعتها وكثرة مذاهب القول فيها فى حكمة ونظام ؟

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

---

(١) انظر ديوانه ٥٥٢ .

(٢) انظر ديوان الهزليين ٢ ـ ٣ .

ما يقال عن الإسلام

العالم الإسلامي والجغرافيا الدينية

للأستاذ عباس محمود العقاد

تتفرع من العلوم العصرية مباحث مستقلة ، يطلق عليها بعضهم اسم العلوم لاستقلالها بموضوعاتها الخاصة ، ولكنها أحرى أن تسمى بالمباحث كما سميناها ، أو تسمى بالدراسات العلمية ، لأنها أقرب إلى التطبيقات التى تبنى على العلوم المتفرقة منها إلى العلم المنفرد بقواعده وتجاربه وأصوله .

وعلى سبيل المثال نذكر فى هذه الدراسات ما يسمونه بعلم السياسة الجغرافية وهو غير الجغرافية السياسية ، وقد شاع شيوعا كبيراً بعد الحرب العالمية الأولى لأن هذه الحرب قد أظهرت بالأمثلة الجلية فعل الموقع الجغرافى فى توجيه السياسة الدولية وتوحيد خططها وإن تبدلت حكوماتها بين امبراطورية وجمهورية أو بين حكومة مطلقة وحكومة دستورية .

ولا يلتبس موضوع الجغرافية السياسية وموضوع السياسة الجغرافية geopolitics فإن الجغرافية السياسية مبحث قديم يعلم الناس موضوعه المفصل منذ زمن بعيد ، وينتظرون منه ما هو من بابه بغير التباس بين أبواب المباحث المتعددة ، وكل ما ينتظره الناس من مباحث الجغرافية السياسية أن تزودهم بالمعلومات عن بقاع الأرض من جانب أحوال الدولة ونظم الحكم وعلاقات البلد بما حوله وبسائر بلدان العالم المعمور .

أما السياسة الجغرافية فالذين يدرسونها يهتمون قبل كل شيء بموقع البلد وما يفرض هذا الموقع على سكانه من خطط الدفاع والهجوم ومن أساليب الإدارة والحكومة ، ويريدون أن يثبتوا بدراسة هذا الموقع الجغرافى أنه هو الذى يملى على الدولة سياستها فى جميع أطوارها . فلا تستطيع ألمانيا - مثلا - أن تغير قواعد سياستها ما دامت فى موقعها من أوربة الوسطى وما دامت محدودة فى البر والبحر بحدودها المعروفة ، ولا تستطيع روسيا من عهد الخانات إلى عهد بطرس الأكبر إلى عهد الثورة الشيوعية أن تسلك

فى علاقاتها بالشرق والغرب مسلكا يخالف مسلكها المرسوم فى جوهره ، وإن اختلفت الذرائع والأسماء .

وقياسا على هذا المبحث الذى نسوقه على سبيل المثال نشأ فى العهد الأخير مبحث طريف خطير يسمونه بالجغرافية الدينية أو بجغرافية الدين geografhy of religion ويدل اسمه على موضوعه بغير حاجة إلى الإسهاب فى شرحه . فإن هذا الاسم يوحى بالعلاقة بين الدين ومواقع البلاد ويدل على اعتقاد الباحثين فى هذا الموضوع أن للموقع شأنا فى انتشار دين من الأديان أو فى إعراض السكان عنه ، أو حاجتهم إلى وسائل الإقناع أو وسائل الإكراه فى قبوله ، وأن للموقع شأنا فى تقديم بعض هذه الوسائل على بعضها وتغليب الإقناع أحيانا على الإكراه أو تغليب الإكراه أحيانا أخرى على الإقناع .

وقد تأخر ظهور هذا المبحث إلى الفترة الأخيرة من القرن العشرين ولم يكن من المستطاع أن يتقدم بالظهور قبل ذلك ولو بزمن قصير ، إذ كان من اللازم قبل ظهوره أن تستوفى المعلومات الجغرافية عن بقاع الأرض وعن سكانها وعن عقائدهم من قديم عصورهم إلى حديثها ، وكان من اللازم أن تنعقد المقارنات المفصلة على حسب الإحصاءات الدقيقة بين أدوار التاريخ وأطوار العقائد ودرجات الزيادة والنقص فى عدد المتدينين بالدين الواحد مع تقلب الأدوار والأطوار .

ولم يكن علم ذلك كله ميسورا قبل هذا القرن العشرين ، وإن كان بعض هذا العلم قد عرف فى العهود الماضية ، وقيل على أساسه ما قيل من أن أديان التوحيد تناسب البلاد التى يقل فيها اختلاط العناصر الطبيعية ، وأن قوى الطبيعة إذا تعددت فى بعض الأقاليم كان لها أثرها فى اعتقاد أهلها أن القوى الإلهية متعددة من ورائها .

بل على أساس البحث فى الجغرافية الدينية جرى الحوار - بين السيد جمال الدين وأرنست رينان - فى أثر الإسلام وأثر المسيحية بين الصحراء وبلاد الخصب والعمران .

إلا أن المعروف من هذا البحث قبل القرن العشرين لم يكن ليزيد على المعروف يومئذ من تفاصيل الجغرافية والتاريخ وإحصاءات الحوادث والسكان ، فلم يكن على أوسعه وأعمه كافياً لاستقلال المبحث بموضوعه ذلك الاستقلال الذى سوغ لبعضهم أن يحسبه علما بين سائر العلوم .

ولا نرى أن المعارف والإحصاءات التى تعتمد عليها دراسات الجغرافية الدينية قد ختمت اليوم أو آذنت بالختام ، ولكنها قد وصلت - ولا ريب - إلى الحد الذى يقنعنا بقيام موضوع البحث وارتقاب النتائج

الصحيحة من تطبيقه ، ولو لم تثبت هـذه النتائج حتى الآن كل الثبوت .

وقد توسع الباحثون فى تطبيق هذه الدراسة على الديانات الكبرى وفى مقدمتها الديانة الإسلامية ، فكتب علماء الفرنسيين والألمان والأسبان والانجليز وغيرهم كتبا منوعة عن الإسلام والحياة المدنية ، وعن خصائص الإسلام وطبائع البلدان ، وعن الإدارة الإسلامية فى القارات المختلفة ، وعن أثر الإسلام فى الثروة والحكومة ، وعن الإسلام والبيت والحاضرة ، وعن الإسلام وتثمير التربة والزراعة وعن علاقة المواقع الجغرافية بكثرة الحجاج وقلتهم وأثر هذه الفريضة فى الشعوب التى ينتسبون إليها ... إلى أشباه ذلك من مطارح البحث وزواياها المتشعبة ، ومن أسمائها فى ذيل كل كتاب يلم بها نتبين أنها مكتبة ضافية ، لم يصل إلينا فى لغتنا العربية غير القليل منها .

* * *

وآخر ما اطلعنا عليه من هذه الدراسة كتاب ألفه الأستاذ إكسافييه بلانهول xavier de planhol بالفرنسية منذ سنتين وترجم إلى الانجليزية فى هذه السنة فظهر فيها باسم عالم الإسلام : The world islam ودار البحث فيه على موضوعين من أهم موضوعات هذه الدراسة الحديثة : أحدهما عن التجمع وأحوال المعيشة المستمدة من الدين فى الأقطار الإسلامية ، والآخر عن العوامل الجغرافية التى ساعدت على انتشار الإسلام .

* * *

ونحن لا نكتب هذا المقال عن هذا الكتاب لنبسط القول فى آرائه وتقديراته فإنها (أولا) أكثر من أن يشملها مقال واحد مع ارتباطها بقواعد البحث فى جغرافية الدين كما وردت فى الكتب الأخرى وهى (ثانيا) لا تحسب من العلوم المقررة التى بلغت نضجها وسرت بين الباحثين سريان المبادئ المتفق عليها ، ومعظمها لا يزال فى الواقع أقرب إلى التخمينات المحتملة التى قد يعدل عنها أصحابها ويعيدون تخمينها على وجه آخر فى مناسبات أخرى .

وإنما نذكر الكتاب لنورد مثلا من آرائه أو نظرياته ، ومثلا من أخطائه ومغالطاته ، ومثلا من عيوب هذه الدراسة الجديدة كيفما كان تطبيقها على الإسلام أو على غيره من الأديان .

فمن أمثلة آرائه التى تستند إلى أصل صحيح فى أحكام الإسلام : أن الإسلام يناسب الأمصار ويطلبها ويبحث عنها لأنه يقيم فيها الأحكام ويتمم فيها فريضة الصلاة الجامعة ومراسم الدين التى يتولاها الأئمة ، فهو أدنى

إلى طبيعة المدن وإن كان منبته فى الصحراء .

ومن أمثلة آرائه عن الدين الإسلامى خاصة بين الأديان أنه ينتشر حيث تتوازن العوامل السياسية والعوامل الطبيعية ولا يحتاج الأمر إلى مجهود صناعى لتغليب إحداهما على الأخرى ، وقد ينتشر بالوسائل السلمية فى الأقاليم التى تتصل فيها المدن والمزارع والغابات كما حدث فى الجزر الأندنيسية .

ولنا أن نتقبل هذه الآراء على أنها ملاحظات تاريخية تصف الواقع فيما مضى ولا تتعرض للأسباب والتعليلات ، ولكن مؤلف هذا الكتاب ومن يجارونه من الباحثين فى هذه الدراسة الجديدة يخطئون كثيراً كلما انتقلوا من وصف الواقع إلى تعليله وتفسيره ، ثم ينقادون للخطأ طواعية على الرغم من قدرتهم على كشفه وتصحيحه لو كلفوا أنفسهم بعض الجهد فى المقارنة ، والمقابلة بين نظائر هذه الأحوال فى ظل الديانات الأخرى .

يقولون مثلا : إن الإسلام قد احتل فى عصر من العصور شواطئ البحر الأبيض حول البحر كله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولكنه تراجع عن الشواطئ الأوربية لسبب يتعلق بطبيعة الدين الإسلامى ولا ينحصر فى أسباب السياسة ولا فى المقاومة من جانب الأمم الأوربية .

وهذا السبب الذى يتعلق فى رأيهم بطبيعة الدين الإسلامى هو أن الإسلام ينظر إلى الزراعة نظرة الترفع والإهمال وينكر حق الزارع فى بعض مذاهبه إلى جانب حق المالك أو حق الدولة ، وأن النبى عليه السلام نشأ فى بيئة تجارية بين علية قومه من التجار ورويت عنه أحاديث ينذر فيها بالذل من يشتغلون بالسكة والمحراث .

قالوا : وهذا هو سبب الفشل الذى منى به المسلمون فى الشواطئ الأوربية لأنها لا تستغنى عن الزراعة ، ونجوا منه فى الشواطئ الإفريقية لأن الزراعة فيها لا تحتاج إلى مجهود ولا تزال الصحراء من ورائها تعتمد على المطر والمرعى .

والعجيب فى هذا الرأى أن يتفق عليه جملة من الباحثين فى الجغرافية الدينية مع سهولة الاهتداء إلى وجه الصواب فيه لو أنهم يشاءون أن يلتفتوا إليه .

فالإسلام قد بقى فى وادى النيل وهو أرض زراعية يعمل فيها الفلاحون عملا مجهدا يشق على الفلاحين فى غيرها ، ولهذا عرف عن زراعها أنهم أقوياء الجماجم لطول تعرضهم لأشعة الشمس التى لا يقوى غيرهم على إطالة المكث تحتها ، وروى هيرودوت فيما رواه أنه زار ميدان المعركة بين الفرس والمصريين فوجد بقية الجماجم الفارسية تتفتت من اللمس

اليسير ، ولا يتفتت شيء من الجماجم المصرية وإن اشتد الضغط عليها .

وقد اختلت الزراعة فى الشواطئ الأوربية بعد جلاء المسلمين عنها ، وكانت فى عهدهم أصلح حالا مما صارت إليه بعد ذلك فى عهد أمراء الإقطاع ، ثم انقضى هـذا العهد كله لاختلال أمور الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية فى أيامه ، ثم صلحت شئون الفلاحين بعد ظهور الآلات الحديثة وتقدم الفنون الزراعية وانتظام الثروة على أسس الصناعة وتبادل الواردات والصادرات إلى البلاد الشرقية والغربية ، وقد زال أمراء الإقطاع وزالت دولة الإقطاع كله بعد مقاومة من أبناء وطنهم تهون جداً إلى جانب المقاومة التى لقيها المسلمون لأسبابها الدينية والوطنية والسياسية.

وشبيه بهذا الخطأ عن الإسلام والزراعة خطأ آخر من أخطاء هؤلاء الباحثين عن الإسلام والحضارة أو الإسلام وتنظيم المدنية.

فعندهم أن المدنية الإسلامية فى العصور الماضية ، قبل اتصال المسلمين بالحضارة الأوربية ، قد خلت من « الإدارة البلدية » municipal وكان خلوها هذا دليلا على الخلو من الشعور بالبنية الواحدة والتركيب الاجتماعى ، ولم تخل المدن الأوربية قط من المجالس البلدية وما يقوم بوظيفتها من الهيئات المعنية بأمر الحكومة أو الهيئات المنتخبة وهم لا يعرفون لذلك علة غير قيام المدن الإسلامية برعاية الوالى دون غيره وقلة الشعور فى نفوس السكان بالرابطة « المدنية » التى تربط أبناء المسكن الواحد كما يرتبط الأعضاء فى « شخصية حية » مشتركة .

والعجب فى هـذا الخطأ أيضا أنه من الأخطاء التى يسهل تصحيحها لولا اتجاه الرغبة إلى الاتهام وانصرافها عن الإنصاف .

فالمدنية الأوربية وجدت فيها « الإدارة البلدية » إلى جانب السلطة الدينية التى كانت تتولاها الكنيسة وتفرض بها مشيئتها على المجتمع فى شئون الأعراس والمآتم والرقابة على المدارس والحفلات وشعائر « التطويب » عند عقد الزواج وعند الإذن بالدفن وعند الاعتراف وسماع المواعظ وإعطاء البركة وما إليها من مراسم السلطة الدينية التى لا وجود لها فى الإسلام .

وفيما عدا هذا الإشراف من السلطة الدينية لم يخل البلد الإسلامى قط من التنظيم الذى يدل على الشعور بالرابطة المدنية فى أضيق نطاق وأوسعه على السواء ، ومن العجب أن يتحدث الجغرافيون الدينيون عن زوال الرابطة المدنية فى حواضر الإسلام وهم يذكرون من خصائص هذه الحواضر أنها تقيم لكل صناعة حيا مستقلا تأوى إليه ،

إن أحياء الحاضرة تتعدد على حسب الروابط الدينية والعنصرية كما تتعدد على حسب الصناعات والنقابات ، وما كان لقوم يفقدون شعورهم بروابط المسكن أن يشعروا بروابط الحرفة أو يشعروا بروابط « الحى » الواحد حيث يقيمون .

وقد حفلت كتب الأدب العربي بمفاخر المدن وعيوبها حتى بين الفلاسفة والحكماء فضلا عن الهجائين من الشعراء والأدباء ، وحتى بين أبناء المدن الأندلسية التى يحسبها الجغرافيون الدينيون حجة من حجج الفشل فى حضارة الإسلام وزراعة الإسلام ، وقد تفاخر ابن رشد وابن زهر يوما بمدينتيهما فى حضرة المنصور بن عبد المؤمن من خلفاء الموحدين فقال ابن رشد لزميله الفيلسوف : « ما أدرى ما تقول . غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى أشبيلية » .

ولا يقع هذا الفخر بالمدن بين فيلسوفين طبيعيين ثم يقال : إن الشعور « بالشخصية المحلية » مفقود فى تلك المدن بين عامة الناس الذين تشغلهم هذه العصبيات .

بل نحن لانحتاج إلى أكثر من نظرة سريعة فى الأسماء المشهورة لنعلم أن النسبة إلى البلدة سابقة لكل نسبة محلية فى ديارنا الإسلامية ، فلم يمض زمن بعيد على اقتران كل علم من أعلام الناس بعلم من أعلام المدن ، ولا تزال بقية من تلك الأعلام تذكر ثم تذكر بعدها نسبتها إلى الإسكندرية أوطنطا أو المنصورة أو أسيوط أو جرجا أو قنا أو أسوان ، وغيرها وغيرها من القرى والبلدان ، ولم ينس الناس عندنا هذه النسبة إلا فى العصر الذى اتصلوا فيه بالأوربيين والغربيين خلافا لما يزعمه الجغرافيون الدينيون .

* * *

والخطأ الذى نختم به هذا المقال خطأ عام يتعرض له الباحثون فى هذه الدراسة حيثما كان موضع البحث وكيفما كان تصويره للعلل العامة التى لايختصون بها الإسلام والمسلمين .

وذلك الخطأ العام أنهم يبالغون فى الرجوع بالخصائص الروحية إلى أصول مزعومة من الخصائص الجغرافيه وخصائص المدنية والبادية فكثيرا ماتكون الظاهرة الروحانية مناسبة للإقليمين النقيضين فى جميع الأوضاع وفى الأوضاع الجغرافية والسياسية على الخصوص .

إن اعتقاد « التوحيد » مثلا يناسب أبناء البادية لأنهم يطمئنون إلى الإله الواحد الذى يعتصمون به فى كل مكان رحلوا إليه ، ولا يلقون كل اعتمادهم على إله محدود فى بقعة

(البقية على صفحة ٣٥٨)

مولد رسول وأمة

للأستاذ الشاعر محمود غنيم

سائل الكون هل عرفت الوليدا   هزّ فى مهده الصغير الوجودا !
الوليد الذى استهلّ فأمسى   يومُهُ فى السماء والأرض عيدا
أىْ بشرى إلى السموات زُفّت   ردّدتها أملاكها ترديدا
غرّدى فى الجنان ياحور نشوى   واجرِ يا نجم فى السماء سُعودا
يالواء التوحيد فى الأرض رفرف   لقى الشركُ يومَهُ الموعودا
وُلد المُصطفى سلام عليه   ماحبا أو مشى، أو اشتدّ عُودا
هتفت باسمه «حليمة» طفلاً   فغدا فى فم الزمان نشيداً
لم تلد أمّهُ غلاماً سواه   قيمة الدُّر أن يكون فريداً
هل درت يوم وضعه بنتُ وهبٍ   أنها أطلعت صباحاً جديداً ؟
هل درتْ أىّ دولة وسرير   آذنا يومَ وضعه أن يميداً ؟
هل درت أنها على هامة التاريخ   شادت للعُرْبُ مُلْكا وطيدا ؟
صاحَ فى مهده الوليدُ فهل كا   نَ هزيجاً صياحه أم رعودا ؟
صيحةً زلزل الضلالَ صداها   ووعتها أذنُ الهدى تغريداً

* * *

وُلد الصادقُ الأمين فيا شمـ   ـس أطلّى وباركى المولودا
واقرئى فى جبينه سُورة الخلـ   ـد إذا كنتِ تبتغين الخُلودا
وخذى عنه كيف تحيين فى الأر   ض مواتاً وتوقظين رقوداً

واسلكى إن ضللت فى الأفق يوما ... نهجه تسلكين نهجاً رشيدا
واقبسى النور والهداية منه ... إن من يهتدى به لن يحيدا
نور طه من وجه رب البرايا ... وحده جل وجهه معبودا

* * *

الوليد الذى ترقى يتيما ... علم العرب كلها أن تسودا
شاحذاً عزمهم وكان كهاماً ... جامعاً شملهم وكان بديداً
لابساً للأذى من الصبر درعا ... ومن الصبر ما يفل الحديدا
ساحراً لا بجنبله وعصاه ... بل بخلق سمح يروض الأسودا
وبيان من ذاق حلو جناه ... عاف بنت العنقود والعنقودا
النبى الأمى جاء بآى ... تركت سادة البيان جمودا
أخرست كل ناطق تركت كل ... لسان من عيه معقودا
حرك الصم إذ تلاها عليهم ... وتغالى فحرك الجلمودا
وألان القلوب وهى غلاظ ... يشبه الصخر طبعها والبيدا
فإذا عابدو التماثيل ؛ لله ... يخرون ركعاً وسجودا
النبى الأمى لم يدرك العلـ ... ـم قراراً لبحره أو حدودا
كم تحدت عقلا تعاليمه السمـ ... ـحة فارتد حائراً مكدوداً
شرعة ظللت بأدواحها من ... حل بيداً أو حل قصراً مشيدا
كلما مرت العهود عليها ... أثبتت أنها تجارى العهودا
الحضارات منذ قمن على الأر ... ض تفيأت ظلها الممدودا
كان فى الشرق روضها يانع الزهـ ... ـر ، وفى الغرب حوضها مورودا
سائل الغرب عن كنوز من الفكـ ... ـر بجيد الزمان كانت عقودا
قدمتها « غرناطة » ، وهى تبكى ... بدل الفحم للحريق وقودا
شرعة تكفل الحياة تين فى كل (م) ... زمان جديدة لن تبيدا
باسمها صار قائداً كل من يحـ ... ـلب شاة وصار كسرى مقودا

باسمها ثـلـَّت العروشَ « قريشٌ » وغدا أهلها ملوكا صيدا
قسم العالـَمَ « الرشيدُ » فنصفٌ في يديه ، والنصف يخشى الرشيدا

* * *

دين « طه » كانت مبادئه السَّمـْـحَـةُ في الحرب شِـكـَّةً وجنودا
إنْ مَنْ يفتح القلوب ابتداء لم يُصادفْ حواجزاً وسُدُودَا
لن ترى في الحروب كالمُـثُـل العُـلْـيَـا جُيوشاً وعُدَّةً وبُنودا
فتقلد إن رُمت في الحرب نصراً : مبدءاً سامياً ورأياً سـديدا
أيها الشرق قد ركدت طويلا يأسَنُ الماءُ إن أطال الركودا
لك عند النجوم إرثٌ مُضَاعٌ لا تقلْ كيف أستطيع الصعودا ؟
لك ماضٍ زاهٍ فما ضرَّ لو تِلْـتَ طريفاً من العلا وتليداً ؟
لك في سـيرة النبيِّ عظاتٌ بالغاتٌ ، هل تريد مزيداً ؟
قل لأبناء «يعرُب» وحّدوا الشَّمْـلَ كما وحَّد النبيُّ الجهودا
إن أولى الورى بتوحيد شَمْـلٍ أمةٌ كان دينها التوحيـدا

محمود غنيم

(بقية المنشور على ص ٣٥٥)

من البقاع ينقلونه معهم إذا استطاعوا ، وهم لا يستطيعون .

ولدولة الامبراطورية أبعد شيء عن بادية الصحراء ، لأنها مجموعة من مدن عامرة وأقطار متداخلة وشعوب متعددة ، ولكنها تنتهي آخر الأمر إلى الإيمان بإله واحد كما تدين بسلطان واحد يحيط بشعاب الحكم في جميع الشعوب .

وإذا تساوى الموقع ونقيضه في قبول العقيدة فليس المرجع كله إذن إلى الخصائص الجغرافية ولا إلى هذا المكان وذاك المكان وإنما المرجع وراء المراجع جميعا إلى مكان مكنون لا تراه العيون .

المرجع إلى أعماق الصدور ؟

عباس محمود العقاد

آراء وأحاديث

حكم الله فى حكم قاسم

أصدر الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بيانا للناس بحكم الله فيما يصدر عن حكام العراق من المظالم والمآثم هذا نصه :

من المعلوم أن حكم الشرع الشريف فى مثل تلكم المذابح التى يقوم بها حكام العراق أنها قتل للنفس بغير حق ، واعتداء صارخ بغير ما جرم ، وأن هذه الأعمال تزعزع الثقة بين الناس بعضهم وبعض ، وأنا لا أشك أن هؤلاء الذين يقومون بهذه المذابح هم فى مقدمة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، ولو كانت هناك سلطة شرعية عليا تطبق حكم الله عليهم لطبقت عليهم ونفذت فيهم ذلك العقاب الذى تضمنته آية : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزى فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وقد سبق لنا أن نادينا باسم الإسلام وباسم الأخوة الدينية والعربية أولئك الذين يعيشون فى الأرض فسادا أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يمدوا يد السلم والتعاون والتعارف وأن ينضووا تحت لواء واحد هو لواء الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وإننى مرة أخرى أعود اليوم فأكرر ذلكم النداء نفسه راجيا أن تكون هناك بقية من إيمان فادفعوا حكام العراق إلى أن يعودوا إلى عقل يمنعهم من ارتكاب هذه الجرائم ، وإلى إنسانية تحفظ إخوانهم من أيديهم وبطشهم ، وليتذكروا قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وفقنى الله وإياكم وجميع المسلمين إلى ما يرضى الله وإلى ما يكف عنا أعداءنا وإلى ما يصلح شأننا فى الدنيا والآخرة « يا قومنا أجيبوا داعى الله » ؟ .

شيخ الأزهر يقول :

* الزكاة فريضة الإسلام ولا بأس من جبايتها بقوة القانون .
* سنطبق مذهب الشيعة فيما لا يخالف الكتاب والسنة .
* لقد بدأنا ثورة فى برامج الأزهر وستظهر نتائجها قريبا .
* انتشار الوعى الدينى يحل مشكلة الزواج .

نشرت مجلة المجتمع العربى فى عددها الثانى والثلاثين هذا الحديث المستفيض للأستاذ الأكبر ، بعد أن قدمت له بهذه الكلمات ...

التحول الهائل الذى طرأ على حياتنا حمل معه قضايا جديدة لم تكن معروفة من قبل .. وآثار قضايا قديمة لم يكن يعنى بها أحد .

وبين القديم والجديد يندفع زحفنا المقدس نحو غاياتنا العليا وأهدافنا الاجتماعية ... فأين نحن الآن من الطريق ؟ .

ما هو موقفنا من مشاكلنا القديمة التى خلقها الاستعمار ليفتت مجتمعنا ويهدر طاقتنا ؟.

وما هو موقفنا من مشاكلنا الجديدة التى خلقتها الحركة ومحاولة الوصول إلى الكمال .

كيف نجند كل إمكانياتنا الاجتماعية لخلق مجتمع سليم أساسه الدين والأخلاق والأسرة الفاضلة ؟ .

أسئلة كثيرة تتردد هذه الأيام وتحتاج الإجابة عليها إلى عقل كبير وعلم غزير ، وإلى صاحب العقل الكبير والعلم الغزير ذهبت أحمل الأسئلة الكبيرة : إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

تطوير برامج الأزهر :

قلت للأستاذ الأكبر :

ـ إن برامج الأزهر معروفة بالغزارة والتركيز ، وقد نشرت بعض الصحف أن النية متجهة إلى تطوير هذه البرامج . فما هو الهدف من هذا التطوير ؟ وهل سيترتب عليه دخول دراسات جديدة إلى الأزهر .. وما نوع هذه الدراسات ؟ .

وبدأ شيخ الأزهر يجيب فى صوت هادئ متزن وعبارات محددة مستقيمة قال :

إن رسالة الأزهر رسالة ضخمة ، فهى ليست رسالة محلية وليست وقفا على تنشيط الدراسة فى بعض نواحى المعرفة الإنسانية العامة ، التى يتناولها الناس جميعا والتى لا تكون شخصية معينة ، وإنما هى رسالة تتجاوز ظاهر الحياة

إلى باطنها، وتتجاوز مجرد توصيل المعرفة إلى الفرد والجماعة إلى تنمية العلاقات بين الشعوب العربية والأمم الإسلامية عن طريق القلب والإيمان، وعن طريق اللغة العربية وتاريخها المشترك .

فإذا كانت هذه هي رسالة الأزهر في ضخامتها وسموها، فإن من الواجب أن يعمل الأزهر ويعاونه المخلصون على تخريج العالم الكفء الذى يستطيع حمل هذه الرسالة، وليست العبرة في كثرة ما يدرس ولا في مقدار ما يحصل، ولا في الارتباط بكتب معينة، ولكن العبرة بالطريقة التي تمكن من تخريج أئمة في الفقه وأصوله واللغة وفروعها ؛ فقد وطدت العزم إن شاء الله على أن يكون التخريج في الأزهر أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمي، الذى يكون الشخصية الفقهية الممتازة والشخصية الدينية التي تزدان بالعقيدة السليمة الخالية من شوائب البدع وآفات المجتمع، وكذا الشخصية اللغوية العربية الرصينة الممتازة.

إنني لست مؤمنا بالتخريج الذى نلتزم فيه مخلفات الماضي من آراء ومذاهب، بل أومن بضرورة الاجتهاد فإن حاجة الناس اليوم في الفقه واللغة غيرها بالأمس، كما أن فضل الله الذى أنعم به على سلفنا لم يكن وقفا عليهم، وليس صحيحا ما يقال : إن السابقين حللوا المصادر وقعدوا القواعد وطبقوها على كل ما يمكن أن يجيء به الزمن ويحدث للناس من أقضية وحاجات !.

وهذا هو القصد من تطوير الدراسة في الأزهر تطويراً يتعمق فيه الأستاذ في بحثه، والطالب في فهمه، فيخرج الأزهرى صالحا لأن يلتقى مع الأفكار السليمة، محققا لآمال الناس فيه، وسواء في بلاد عربية تنطق بالعربية أو بغيرها ؛ وتحقيقا لذلك أدخلنا اللغات الأجنبية وجعلناها إجبارية، وتلك خطوة جديدة على الأزهر نرجو من ورائها الخير للإسلام والمسلمين، وهي رباط قوى بين علماء الأزهر الذين يحملون دعوة الحق إلى جميع بقاع الأرض، ولم نقتصر على ذلك بل فتحنا معهداً للإعداد والتوجيه على مستوى عال يدرس فيه المتخرجون من أبناء الأزهر ـ المجيدون للغات والناجحون في مسابقات تعقد لهم ـ دراسات خاصة تزيد في ثقافتهم اللغوية وصلتهم بالعالم الإسلامي أجمع على اختلاف دوله ؛ لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، كما ألفت لجان المناهج التي انتهى بعضها من إعداد المناهج التي تناسب هذا التقدم أو التطور، ولتسميه ما شئت، فإننا إنما نعنى دائما بالنتائج، والبعض الآخر ما زال يبحث ويجد في البحث ليحقق الغاية التي نرجوها ويرجوها المسلمون ويأملها المصلحون . وقد يلزم لهذا التطوير إدخال بعض العلوم التي تفيد ؛ فذلك لا مانع منه

ما دام القصد الإصلاح وتحقيق الأهداف .

إنها ثورة فى المناهج نريد منها الإبقاء على الماضى العظيم، والتطلع إلى مستقبل باسم يصل لأمة الإسلامية بعضها ببعض عن طريق حصن الدين واللغة ، الأزهر ذى المجد والرسوخ العالى. أريدها ثورة توحد الروابط العقلية واللسانية والعاطفية فيما بين الشعوب العربية، ويتحقق بذلك امتثالهم لقوله تعالى: « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وقوله تعالى: « كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . أريدها ثورة تصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الإسلامى الأصيل يوم أن كان خالصا فى موقفه من القرآن، وفى تعبيره عن تعاليم القرآن وهو فى الوقت نفسه يربط العقلية الأزهرية أو الفكرة الإسلامية السليمة بالحياة الواقعية التى يعيش فيها العالم اليوم ، ويتطور فى مراحلها والتى تتحرك بسرعة قوية، والتى تتجاذبها تيارات فكرية متعارضة يجب أن يقف العقل الأزهرى أمامها ليقى الجماعة الإسلامية شرها ، وليحفظها من الانحلال والذوبان فى غيرها . « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه »، « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » والله المستعان.

الأزهر ومذهب الشيعة :

وعلى ذكر التطور فى برامج الأزهر سألت فضيلة الأستاذ شلتوت :

ـ هل يعنى تدريس مذهب الشيعة فى الأزهر أنه جائز التطبيق أم أنه يدرس لمجرد العلم والتحصيل وزيادة معارف رجل الدين ؟ .

وأجابنى العالم الكبير والأستاذ المحقق :

ـ لسنا حريصين على أن تكون دراستنا فى الأزهر لمجرد العلم والتحصيل إنما نحن ندرس للاستيعاب والفهم ثم للتطبيق والعمل بكل ما يمكن العمل به ، وفقه الشيعة مأخوذ ببعض أحكامه فى كثير من القانون عندنا ، وكثير من علمائنا عمل ببعض أحكام العبادات عندهم ، ونحن إنما نرجع إلى القرآن والسنة، فمتى لم يخالف الرأى أصلا من الأصول الإسلامية الصحيحة ولم يتعارض مع نص شرعى فلا بأس من تطبيقه والأخذ به ، وذلك هو التقريب المنشود والتيسير المرجو ، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والسداد فى ديننا ودنيانا ، وهذا هو رأينا فى كل مذهب من المذاهب الإسلامية ، ومتى خالف المذهب هذه الأصول فى مسألة ما ، فلا نبالى به، وكل الأئمة أثر عنهم « إذا صح الحديث فهو مذهبى » . وليس فى كتاب الله ولا سنة الرسول ما يوجب على المسلم التزام مذهب

معين ، وقد تكلم على المسألة وحققها علماء الأصول فى الكتب المتداولة بين الطلاب والأساتذة فليرجع إليها من شاء وليرجع من شاء كذلك إلى مقدمة كتاب المقارنة ، فى كتابنا الذى بأيدى طلاب كلية الشريعة الإسلامية ، فقد أفضنا فى الكلام فى هذا الموضوع عند الكلام عن فائدة دراسة المقارنة .

الأزهر والمجتمع الجديد :

وعدت أسأل الأستاذ الأكبر الذى يحمل أمانة الأزهر الحديث :

ـ لقد تتلمذت على الأزهر القديم ورأيت رجاله وهم يقودون معارك الحرية . وحملت أمانة الأزهر الحديث بعد أن حصلنا على حريتنا الكاملة ، والآن ونحن نتجه إلى بناء مجتمع قوى سداه الدين ولحمته الأخلاق وأساسه الأسرة الفاضلة هل لدى الأزهر « خطة » للمساهمة فى تحقيق الأمل الجديد ؟. وما هى ؟

وصمت الأستاذ الأكبر بضع لحظات ولمحت نظراته القوية وهى تتجه إلى بعيد كأنما تستعرض ميادين الكفاح التى اشترك فيها ضد جحافل الظلم والاستعباد ، ولم يلبث أن أقبل على ليقول فى صوت شاب وعبارات واثقة :

إن الجمهورية العربية أصبحت بفضل الله مركز التوجيه السياسى والدين الإسلامى فى وقتنا الحاضر ، ثم نرجو أن تصل باتجاهها الصناعى إلى مركز الزعامة الاقتصادية ، وهى ذات ماض عظيم فى الزعامة الثقافية الإسلامية والعربية . والسبيل إلى حفظ هذه الزعامة إنما هو الإعداد القوى لمكافحة كل فكرة وافدة إلينا عن طريق الاستشراق والإلحاد التى من شأنها أن تزعزع القيم الإسلامية فى النفوس ، وتهبط بمستوى الأمة وتفكك أواصر الصلة بين أفرادها وجماعاتها ، ثم هى معول هادم لكيان الأسرة فى شتى نواحيها ، وما الخلل الذى تراه من مجون كامل ونفور بين الزوج وزوجه والوالد وولده والأخ وأخيه ، إلا لأن مجتمعنا يأخذ بكل ما يفد إليه من نواح لا تتفق معنا ولا تناسب مبادئنا ، وقد تكفل كتابنا : « منهج القرآن فى بناء المجتمع » ببيان كثير من أصول هذا البناء من المصادر الأولى للتشريع الإسلامى : كتاب الله وسنة رسوله . فإن أردنا الإصلاح وصدقنا فيه وأخلصنا النية من أجله ، فإن أنجع دواء وأهدى سبيل إليه هو أن نعود بأبنائنا وبناتنا ، شبابنا وشيبنا إلى قواعد ديننا الحنيف ، نغرسها فى النفوس ونجمل بها العقول فيعرف كل مكانه فى مجتمعه فيقف عنده لا يطغى ولا يستبد ولا يعتدى ولا يظلم ، فتستقر أمور الأسرة وتهدأ وتطمئن إليها ، لقد عاهدنا الله فى عهد

هذه النهضة الإصلاحية على أن نأخذ بيد مجتمعنا إلى الطريق السوى . وعاهدنا أخى فى الله السيد وزير التربية والتعليم المركزى كمال الدين حسين على ذلك، وأسأل الله أن يهيئ لنا السبل ، وأن نأخذ كل سبيل للإصلاح من كتاب الله العزيز الحميد « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

مهمة إمام المسجد :

وتطرق حديث المجتمع إلى إمام المسجد ودوره الخطير الذى ينبغى أن يقوم به ، فقلت لرائد المسلمين :

ـ هناك إحساس عام بضرورة التوسع فى واجبات إمام المسجد بحيث يقوم بدور الرائد الاجتماعى ولا يقتصر على الأمور التعبدية فما هى فى رأى فضيلتكم الوسيلة لتحقيق ذلك ؟. وهل تقترحون نوعا من التنسيق فى العمل بين الأزهر ووزارة الأوقاف ؟ .

أجاب فضيلته :

ـ تحدثت كثيرا عن وجوب توحيد منبع الإرشاد والتوجيه ، فإمام المسجد والواعظ والرائد الاجتماعى يجب أن يتقاربوا فى المنهج وخطط العمل الذى يقومون به فى القرية والمدينة والمجتمع بجميع ألوانه واستعداداته . ثم من قال: إن امام المسجد مهمته مهمة تعبدية فقط إن مهمته هى مهمة القائد والرائد والموجه والداعى والمرشد وهذه المهام كلها تحتاج إلى علم ومعرفة: علم بأحوال الناس وأمراض المجتمع والدواء الذى يقدم إليه ليكون شافيا لأمراضه، آخذا بيده ولذا فإننا نرى ـ أنه مع تطوير برامج الأزهر وإنشاء معهد الدعوة الذى أحرص على إنشائه بإذن الله ـ أن يكون متخرج الأزهر محققاً لكل ذلك ،وتحقيقاً لهذه الناحية فى هذا العام المنصرم ألقيت محاضرات سريعة على السادة الوعاظ والأئمة. ألقاها عدد من خيرة الأساتذة الذين جمع بعضهم بين الثقافتين الغربية والعربية ، ولذا فقد تطور الوعظ فى المسجد وغدا توجيها فى الدين والدنيا، وسنعمل على الزيادة من هذه المحاضرات بإذن الله ليظل التوجيه لهم مستمراً واطلاعهم على كل تطور حديث موجودا .

وأما نوع التنسيق بين الأزهر ووزارة الأوقاف فهو موجود والحمد لله ، وقائم فعلا بين الأزهر ووزارة الأوقاف فى جو إخلاص وحسن نية وصدق عزيمة ، وتلكم مقومات الإصلاح والنهضة . وطريق الخير والحمد لله.

علاقة المرأة بالرجل :

وانتقل الحديث من المسجد إلى المصنع ، قلت للأستاذ الكبير علما ومقاما :

لقد ترتب على التطور الصناعى وازدياد كفاية المرأة يوما بعد يوم أن أصبحت تزامل الرجل على قدم المساواة فى أعمال كثيرة ، والمعروف أن علاقة الرجل بزميله الرجل

تتطور من زمالة إلى صداقة ثم إلى حب أحيانا ، فما هو المدى الذى ينبغى أن تسير إليه علاقة المرأة بزميلها الرجل؟ وما هى فى رأى فضيلتكم الضمانات التى تكفل لهذه العلاقة أن تقف عند حد معين ؟ .

وجاءنى الجواب راشدا حكيما . .

قال الأستاذ شلتوت :

— الدين يعمل على تقوية أواصر المحبة والصداقة بين جميع أفراد المؤمنين ، ويرى أن كل هذه المعانى وسيلة قوية للتعاون الصادق والبناء الخلقى الكريم وهو لذلك يحرص الحرص كله على غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة فى نفوس أبنائه بنين وبنات ، شباب وشيوخ ، ومتى تركز الخلق الفاضل فى أبناء الشعب كنا فى مأمن من شر الاختلاط وفتنة الفوضى فعليكم بالأخلاق حصنوها بالمثل العليا والقيم الفاضلة والدين الصحيح ، وكونوا صادقين فى هذا التحصين أقوياء فى المراقبة ، فبالمراقبة تستقر الأخلاق وتقوى فى النفوس وتثمر ثمرتها الطيبة فى الفرد والجماعة وتؤتى خيرها فى الاختلاط والانفراد . وإن المنهل العذب الذى ننهل منه هذه المبادئ والقيم إنما هو فى الرجوع إلى ديننا وإلى كتاب الله وسنة رسوله ، نعلمها الأبناء والبنات فتقوى نفوسهم وتقف سدا منيعا ضد النوازل الخلقية التى تنتاب مجتمعنا وتمتل المثل فينا . لنعد إلى الدين ولنعمل على أن يكون طريقنا ووسيلتنا إلى كل هدف وغاية .

الزكاة والإصلاح الاجتماعى .

وتداعت الخواطر حول المرأة فقلت للأستاذ الذى يحمل لواء الإسلام ويعرف مشاكل المجتمع :

— لفضيلتكم رأى سابق فى مشكلة انهيار الأسرة خلاصته أن الطلاق ليس هو السبب الرئيسى لها ، وأنه يجب تأليف لجنة لدراسة الأمر دراسة مستفيضة صريحة ومعرفة السبب الحقيقى لهذا الانهيار .

وقد ألفت بالفعل لجان فى الهيئة العليا لمعونة الشتاء ، وانتهت إلى أن السبب الأول لانهيار الأسرة يمكن فى علتين : هما الفقر والبطالة . فما هو فى رأى فضيلتكم العلاج الناجع لهاتين العلتين ؟ وهل ترون تنفيذ فريضة الزكاة إجباريا لمحاربة الفقر والإسراع ببرامج التصنيع ؟ .

قال الإمام العلامة :

— إن الفقر والبطالة داء أزمن كثيرا وطال أمره واشتدت فى كثير من الأمم الإسلامية حالته ، فأما الفقر فقد جعل الله له دواء ناجعا وبلسما شافيا إذ جعل للفقير حقا فى مال الغنى فهو شريكه فى ماله : وفيما يكسب وأوجب العمل على القادرين فى الزراعة والتجارة والصناعة فمن تأخر فى سداد هذا

الحق فهو آكله ومضيعه وظالمه، ومن ثم وجب تنظيم هذه الفريضة تنظيما يكفل للمجتمع الصيانة والأمان. والآيات كلها متضافرة على إثبات حق الفقير «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم»، «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه». «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون». ويقول بعدها: «أولئك هم المؤمنون حقا» ومبدأ التعاون يقضى أن يقسم أهل القرية أو المدينة أنفسهم أقساما، ويعملوا على التعرف للفقراء من أهل الحى، ثم تجمع الزكاة من الأغنياء وتوزع على الفقراء. لو أتيح للناس ذلك فجمعوا من الأغنياء وأعطوا الفقراء لحققوا اشتراكية الإسلام التى تناديهم بحق إخوانهم فى العيش والعمل، فإن لم يتقبل الناس على ذلك فلا بأس من أن يعمل أولو الأمر على جباية الزكاة وتوزيعها فيما يعود على الفقراء وعلى الأمة بالنفع العظيم، وبذلك يقضى على الفقر وعلى البطالة بما نقيم من مصانع وآلات، هذا توجيهى إلى الأمة جمعاء وإلى كل فرد على حدة: الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرءوس، كل فى دائرة اختصاصه، كل فى حقله الذى يعمل فيه، أخاطب فيه شعوره ووجدانه وعاطفة الأخوة الإسلامية فيه.

«ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما».

أزمة لقاء:

ونقلت إلى شيخ الأزهر حديثاً يتردد على ألسنة الشباب، قلت لفضيلته:

هناك شكوى من أزمة الزواج ويقول بعض الباحثين إنها فى الحقيقة «أزمة لقاء»: إن الخاطبة لم تعد موضع ثقة، كما أن الشباب من جانبه لا يثق بالفتاة التى يعرفها عن طريق الحدائق والسينمات، فما هى فى رأى فضيلتكم الوسيلة «المحترمة» لإيجاد أرض لقاء بين الزوج المحتمل وفتاته المفضلة؟.

الطريق ما تحدثنا به فى التكوين الخلقى، فبالخلق يطمئن الفتى إلى الفتاة كما تطمئن إليه ويأمن كل منهما صاحبه، ولا يرى الفتى ما ينفره من الزواج بالفتاة كما لا ترى الفتاة ما ينفرها من الزواج بالفتى.

مستوى الكلمة المذاعة:

واتجه الحديث إلى الكلمة المذاعة، سألت المحدث الإذاعى الفياض:

إن أغانينا المذاعة حائرة بين رأيين.

رأى يقول: إنها «تجربة شعورية» مرت بمؤلفها ومن حقه أن يصورها كما أحسها.

ورأى يقول: إن التجربة الشعورية متى أذيعت فقد وجب أن تحدو عواطف الشباب وتحمى قيم المجتمع.

وقد غلب الرأى الأول حتى أصبح أكثر أغانينا صورا مكررة من المشاعر الفردية

بطريقة هابطة . فما هي الوسيلة لنرتفع بأغانينا إلى مستوى أحداثنا ونقيم منها حراسة على حدود أحلامنا الاجتماعية فى إطار من المتعة الرفيعة والفن الجميل ؟.

وعالج الأستاذ الأكبر الموضوع فى شمول وإحاطة قال : إن كل ما ينمى العاطفة ويهذب الوجدان ويرق بالشعور أمر تبيحه الشريعة الإسلامية ولا تمنعه، ومن ذلك الأغانى الرفيعة ذات المستوى العالى التى تدفع بالمجتمع إلى رقى خلق وإلى تهذيب عاطفى أو إلى قـــوة حربية أو فكرة وطنية أو ناحية من النواحى الدينية . فكل ذلك جائز ومباح ، أما الأغانى التى تهبط بالمستوى وتحرك الشهوة وتقتل معنى الرجولة وتقضى على الغيرة فى شبابنا وتدفعهم إلى التخنث الممجوج أو تلهب العواطف فيما بينهم، بما يرد المجتمع إلى مستوى هابط دنىء ، فذلك كله أمر لا يقبله العقل ولا يرضاه ، وبذا يجانب مبادئ الشريعة فلا تقره ولا ترضاه . ومن ذلك مثلا هذه الأغانى التى تداولتها الإذاعة اليوم التى أصبحت على لسان كل فتى وفتاة يتجاوبون بها وينادى كل منهم بما تمليه هذه الأغانى - والنظريات التربوية تجعل الإنسان دائما حريصا على تطبيق ما يسمع أو يقول - فالشاب والفتاة يحرص كل منهما على تطبيق ذلك وهذا هو الانحلال الذى يسود المجتمع فيجعله هزيلا غير منتج . والإذاعة وسيلة قوية من وسائل التوجيه وطالما قلت : إنه متى أحسن توجيهها حققت الأهداف التى نريدها لمجتمعنا ، ويوم نريد الإصلاح الصحيح والتوجيه السليم يجب علينا أن نتخلع من هذه الأغانى الخليعة الهابطة بالمستوى إلى أغان تمجد ما لنا من ماض ، وتوجه آمالنا إلى مستقبل باسم وتذكرنا بأيام المسلمين الأولى ، أو تدفعنا إلى نهضة آبائنا الأولين . ولقد أباح النبى صلى الله عليه وسلم للجوارى أن يغنين يوم العيد أغنية يوم من أيام العرب الأولى ، واستمعت إليهن عائشة رضى الله عنها ، ذلك اليوم هو يوم بعاث. ولنا فى حاضرنا الآن أيام يجب أن نتغنى بها ، وأن نذكر أمجادها هى أيام ثورتنا وأيام هدم عروش الطغاة الذين نشروا بيننا الفوضى والفساد ، لنا أيام العيد المجيدة إلى غير ذلك من هذه الأيام ، وذلكم كله خير وأجدى مما يسمع الناس ويطربون له طربا عابراً ثم تكون نتيجته السوء والفساد .

الآباء والأبناء :

قلت : سؤال أخير ولكنه جوهرى بالنسبة للشباب وللأسرة .

قال تفضل ...

قلت : إن بعض الكتاب ومؤلفى الإذاعيات والصحفيين يؤمنون جدا بحق الأبناء فى الانطلاق والتحرر ، ولا يؤمنون كثيراً بحق الآباء فى القيادة والتوجيه . فما هو

رأى الدين فى علاقة الآباء بالأبناء وما هو المدى الذى يحق للابن عنده أن ينفصل عقليا عن والديه .

وأجاب الأستاذ الجليل :

نحن نؤمن بكل دعوة إصلاحية تبنى المجتمع وتشد من أزره وتحرص على بقائه ، وترابط الأسرة من أهم ما ينبغى أن نحرص عليه لبناء المجتمع سليما ، ومن الدرجات القوية فى بقاء الأسرة علاقة الولد بأبيه ، والوالد بابنه . وهذه العلاقة قد دعمها القرآن وبينها فى آيات كثيرة : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر : أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » . « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، والإحسان إلى الوالدين شرعة لله عامة أنزلها فى كل الكتب وبعث بها جميع الرسل وأخذ بها العهد علينا وعلى من تقدمنا من الأمم : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » . ثم إن الإحسان إليهما عنوان النفس الفاضلة التى تقدر النعمة قدرها ، وتعرف الفضل لصاحبه وهو أساس الخلق الكريم الذى يحفظ البيوت ويصون كرامة الأسر ، ومنه تنبت ظواهر الألفة والمحبة والرحمة بين أعضاء الأسرة ثم تمتد إلى سائر الأقارب والأرحام ، وتمتد إلى الجيران وسائر المواطنين : « وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » .

وبهذا الترابط العام تسمو معنوية الأمة وتقوى أواصرها ، فتشعر بالوحدة التى لا تعدد فيها ، وبالقوة التى لا يلحقها ضعف ، وهكذا نريد أن تكون الأمة . وأنا لست ضد تمكين الأولاد من حرية تمكن من إيجاد شخصية قوية لأنفسهم ، أما الحرية التى تجعل الولد يخرج على أبيه حتى لتنعدم الصلة بينهما ، فأنا ضدها لا أبيحها فإن ترابط الأسرة أساس كل نجاح للأمة ، وإن الولد الذى تترك له الحرية فيسىء استعمالها إنسان لا يرجى منه الخير لأحد فى أمته ، ومثله ينبغى ألا يكون عضوا فى أسرة المجتمع الإنسانى . فليأخذ الكتاب والمفكرون المسائل بهوادة ولين ورفق لنصلح من شأن أمتنا وفق ماجاء به الدين الحنيف ، فترقى الأمة أيما رقى وتحلق فى سماء المجد بأبنائها وأسرها وأفرادها وجماعاتها ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . وبعد :ــ

فهذه هى كلمة الدين والعقل والتجربة . نهديها إلى القلوب المؤمنة التى تحاول فى صبر وأمل أن تتجه بخطواتنا إلى الطريق الصحيح .

خلاف عسكر

الكتب

الملاحة العربية فى القرون الوسطى

كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد

لأحمد بن ماجد العمانى

يجرى العمل حالياً ، فى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى ، لنشر دائرة المعارف البحرية العربية التى ألفها سنتى ١٤٧٥ - ١٤٩٠ الربان العربى أحمد بن ماجد العمانى وقد سماها «كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد». وهو كتاب يتضمن تعاليم مفيدة تتعلق بمبادئ وقواعد العلوم البحرية ويعرف باسمه المختصر «كتاب الفوايد». ويتألف من ١٢ بابا :

١ - أصل الملاحة والإبرة المغناطيسية .
٢ - الصفات المهنية والأخلاقية للربان .
٣ - منازل القمر .
٤ - دائرة الرياح والحواز (١) .
٥ - علماء الجغرافية والفلك القدماء .
٦ - الطرق البحرية .
٧ - رصد النجوم .
٨ - قيادة السفن .
٩ - السواحل المختلفة ، ثلاثة أصناف من الربابنة .
١٠ - عشر جزر كبرى فى العالم ، شبه جزيرة العرب ، مدغسكر ، سومطرة ، جاوة وتايوان ، وسيلان ، وزنجبار ، والبحرين ، وسقطرة ، وابن جفان ، فى الخليج الفارسى.
١١ - الرياح الموسمية ، والأسفار .
١٢ - دليل طرق البحر الأحمر .

إن مثل هذه الدراسة المفصلة لقضايا الملاحة تشهد بالمستوى الرفيع عند العرب فى العصور الوسطى . وهذه النظرية هى ثمرة ممارسة الملاحة المتعددة الأشكال التى قام بها العرب الذين كانوا فى ذلك العهد ، يمارسون علاقات

(١) جمع حاز وهى الكلمة التى أطلقها العرب على الكمية الزاوية المتضمنة بين قسمين من الأقسام الـ ٣٢ لدائرة الرياح ويساوى الحاز ١١ درجة و ١٥ دقيقة .

وثيقة مع الشعوب الأخرى . وهكذا فإن « كتاب الفوايد » يمثل تعميما للتجربة والملاحظات لدى شعوب المحيط الهندى ، وإفريقيا الشرقية ، حتى الصين الجنوبية .

إن مخطوطين فقط لهذا المؤلف قد وصلا إلى العلم المعاصر وأحدهما محفوظ فى باريس ، فى المكتبة الوطنية . وقد قام العالم الفرنسى غبريال فران فى عام ١٩٢١ - ١٩٢٣ بطبع عدة نسخ فوتوغرافية عن هذه الموسوعة . وإحدى هذه النسخ موجودة لدى المكتبة العامة التابعة للدولة ، بلينغراد . وقد نسخ الأصل فى عام ١٥٧٦ . والمخطوطة الثانية ، التى يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٢ ، توجد فى مكتبة المجمع العلمى العربى فى دمشق . وقد عرف بوجودها فى سنة ١٩٢١ ، من نبذة صغيرة نشرت فى نشرة هذا المجمع .

ويملك معهد الدراسات الشرقية فى لينغراد نسخا عن المخطوطتين تستخدم كأساس لنشر « كتاب الفوايد » .

ويقول المستشرق الفرنسى البارز « دى سيلين » ومن القرن الماضى ، عن لغة موسوعة أحمد ابن ماجد أنها لا يمكن أن يفهمها إلا بحارة المحيط الهندى ، معتبرا إياها على هذا النحو بمثابة عقبة كئود تحول دون دراسة « كتاب الفوايد » وكان مواطنه « فران » الذى أرسى القواعد العلمية لدراسة مؤلفات الأدب البحرى العربى ، يستعد لنشر الأقسام الجغرافية من دائرة المعارف هذه . وكان يعتقد أن دراسة الفصول الأكثر صعوبة والمتعلقة بالملاحة والفلك ، فى « كتاب الفوايد » لا يمكن القيام بها إلا فى مستقبل بعيـــد .

إن وفاة العالم ، التى حدثت فى عام ١٩٣٥ قد حالت دون تحقيقه مشروعه . والواقع هو أن لغة المؤلف الذى وضعه بحار لرجال البحر هى بالغة الصعوبة ، وذلك بصورة رئيسيه لأنها تزخر بمصطلحات خاصة بالملاحة لم يحفظ المعنى الحقيقى لها ، فى جميع الأحوال ولا يمكن تفسيرها إلا إثر دراسة متأتية لمواد هائلة الضخامة .

إن العديد من الأسماء الجغرافية من الملايو والهند وإفريقيا قد طرأ عليها تغيرات كبيرة عند ترجمتها إلى العربية ، وبعضها قد بطل استعماله ، وهكذا فقد توجب القيام بعمل كبير لتفسير هذا الشطر من مفردات « كتاب الفوايد » . إن الفن العربى للقياسات الفلكية لتحديد سير السفن ، وكذلك خارطة السماء ، كما كان يفهمها الربابنة العرب ، كان موضوع دراسة طويلة . وفى الوقت الحاضر تم التغلب على الصعوبات ، بصورة أساسية وقد أعدت فعلا ، فى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتى ، الترجمة

الروسية الكاملة لدائرة المعارف البحرية العربية . وكتبت حواش لها ووضعت الجداول : وينوى المعهد أن ينشر فى عام ١٩٦٠ ، طبعة مستقلة من هذا المؤلف العلمى النفيس .

أحمد بن ماجد :

وكما هو معروف ، فإن مؤلف « كتاب الفوايد » أحمد بن ماجد كان ملاحا عربيا كبيراً . وقد ولد فى عام ١٤٤٠ فى أسرة من البحارة ، وبدأ وهو بعد صبى ، فى العمل على متن إحدى السفن . وأصبح بمرور الزمن خبيراً بالمحيط الهندى وعرض معارفه وملاحظاته فى العديد من أدلة الطرق . لقد وصلت إلينا خمسة وعشرون من مؤلفاته وهناك ثلاثة عشر مؤلفا أخرى ورد ذكرها فى ما وصل إلينا ، وكلها تقريبا منظومة شعرا . إن موسوعة «كتاب الفوايد » هى أبرز وأنضج عمل من أعمال أحمد بن ماجد . ويكمن مغزاه العلمى ليس فقط فى غنى المواد من الناحية العملية ، بل أيضا فى واقع أن المعطيات الواردة فى هذه الموسوعة هى نتيجة تجارب المؤلف الخاصة . وفى عام ١٤٩٨ ، قاد أحمد بن ماجد ، بوصفه ربانا ، مراكب بعثة فاسكو دى غاما البرتغالية ، من الساحل الشرقى لإفريقيا حتى الساحل الغربى للهند .

وحتى الوقت الحاضر كان يعتقد ، فى العلم الأوربى ، بأن هذا الملاح قام بهذا العمل بملء رضاه ، نظراً لحبه للملاحين الأجانب . إلا أن المعطيات الأخيرة تحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن رجلا حراً كما كان يعتقد ، بل هو عبد رقيق معتوق ، كان يعمل لحساب سيده ، أحمد بن الجمال . وهذا يبرر بعض تصرفاته وبعضاً من أقواله التى تتخذ معنى أوضح ولا سيما العبارة الشهيرة : « آه لو علمت من قبل ماذا يقدرون أن يفعلوا : (الأوربيون) » هذه الجملة الواردة فى أحد مؤلفاته التى كتبها فى أواخر أيامه . إن دراسة عمل أحمد بن ماجد تبرز الوجه الكبير لهذا الملاح المرموق ، الممثل المشرف للأمة العربية الموهوبة التى أسهمت كثيراً فى تطوير الحضارة العالمية . وليس سراً أن الفضل يعود إلى الملاحين العرب لمعرفتنا للرياح الموسمية وإمكانية سير السفينة الشراعية ضد مجرى الريح . ومن المفيد التذكير بأن عدداً كبيراً من المصطلحات والمفردات البحرية والفلكية فى اللغات الأوربية هى من أصل عربى .

إن دراسة وتحضير نشر الموسوعة البحرية العربية ، فى معهد الدراسات الشرقية ، يقوم بالإشراف عليها تيودور شوموفسكى ، المرشح فى العلوم ، وتلميذ المستعرب السوفياتى الشهير أغناطيوس كراتشكوفسكى . وحين

أنهى شموفسكى فى عام ١٩٤٦ دراسته فى جامعة لينينغراد ، قام تحت إشراف أستاذه ، بإعداد أطروحة دافع عنها فى عام ١٩٤٨ . وهذه الأطروحة مكرسة لدراسة أدلة الطرق الثلاثة المجهولة لأحمد بن ماجد . إن النسخة الوحيدة لهـــذه الأدلة تملكها مجموعة مخطوطات لينينغراد . وهـذا البحث ، الذى يسجل بداية نشر مؤلفات الملاح العربى الشهير ، قد طبع عام ١٩٥٧ من قبل أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى . إن نشر الموسوعة البحرية العربية ستتيح التعرف بصورة أفضل على تاريخ الشعب العربى .

* * *

اشتراكية الإسلام

للدكتور مصطفى السباعى

أصبحت الأحـوال الاجتماعية فى العـالم كله وثيقة الروابط بالأوضـاع الاقتصادية السائدة . وأصبح لزاما على المصلحين أن يواجهوا حاجات الأفراد والأمم بمـا يقر السكينة والرضا فى شئونهم العامة ، وما يلبى طبيعة التطور الإنسانى فى هذا العصر الموار بالحركة والطموح . .

وقد تعددت البرامج التى تقدمت بهـا شتى المذاهب السياسية والاجتماعية ، من رأسمالية إلى شيوعية إلى اشتراكية ، واختلفت كذلك الأسس والأهداف التى يقوم عليها كل مذهب وتصطبغ بها كل فلسفة .

وكان طبيعيا أن يتقدم الفاقهون للإسلام بمنهاج الحياة التى اختطها لهم دينهم ، وأن يبرزوا وصاياه فى المـال والحكم وعلاقة الفرد بمن حوله ، وموقفه من الدولة والمجتمع وموقف الدولة والمجتمع منه .

ولا غرو ، فالإسـلام دين شامل لحقائق الحياتين ، منظم للمعاش والمعاد جميعا ، كافل لأسباب السعادة فى الأولى والآخرة . .

وكتاب « اشتراكية الإسلام » الذى ألفه الدكتور مصطفى السباعى يعـد فى طليعة البحوث الفنية بمـا احتواه الإسلام من تعاليم فى هذا المضمار . . بل يمتاز بانتظام مقدماته ونتائجه ، واطراد الفكرة فيه على نسق رتيب متكامل ، يلمح القـارئ فيه دقـة الروح التشريعية ووفرة الثروة الفقهية ، والبعد عن المجازفات والفضول .

فى مقدمة الـكتاب حـديث صادق عن عناية الأديان والـكتب السماوية بحل مشكلة الفقـه ، وأحاديث مع المستشرقين وكبار الموظفين السوفيات عن الإسلام والشيوعية . ثم رأى المؤلف فى الحضارة الغربية بنوعيها : الرأسمالى والشيوعى ، وفى مقدمـة الـكتاب كذلك أن الاشتراكية الإسلامية تطبق على المسلمين والمسيحيين جميعا .

والحق أن ما نسمعه يتردد الآن على ألسنة الزعماء من شروح للديمقراطية الاجتماعية والتعاونية والاشتراكية ، ليس إلا سرداً لعناوين مبتكرة سبق الإسلام من قديم إلى تفصيل موضوعها ، وبناء المجتمعات المؤمنة على ضوئه .

حسبنا أن نفهم ديننا كما تنزل به الوحى وأن نرجع البصر إلى التطبيقات الأولى كما عرفت أيام الخلفاء الراشدين لندرك أننا فى غنى بمواريثنا عن اجتلاب أى نظام إنسانى آخر .

والدكتور مصطفى السباعى فى كتابه اشتراكية الإسلام يفيض الكلام حول المنهاج الإسلامى المتضمن لأعدل اشتراكية عرفها التاريخ فيذكر فى تسعة أبواب مفصلة .

معنى هذه الاشتراكية الإسلامية ، فيبدأ بالكلام عن الحقوق الطبيعية ، حق الحياة والحرية والعلم والكرامة والتملك .

ثم يعقد فصلا خاصا بمبادئ التملك . ثم يردفه بإحصاء قوانين التكافل الاجتماعى مستقاة من كتاب الله وسنة رسوله فى استيعاب حسن .

ويتلو ذلك بالمؤيدات الاعتقادية والأخلاقية والمادية والتشريعية ، ويستطرد بعد هذا البحث الفقهى إلى مقارنات تاريخية وعصرية يرجح بها هذا النظام الإلهى الذى ارتضاه الله لنا ووقى به البلاد الإسلامية شروراً كثيرة .

أجل ، فإن العالم وصل إلى بعض المناهج الاشتراكية الحالية على أنقاض من الثورات المهدمة وأشلاء من الضحايا الكثيرة .

أما الإسلام فكما يقول عنه الأستاذ السباعى :

إن تفكير الدول الغربية فى التكافل الاجتماعى ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك فى حل المشكلة من أساسها إنما كان تحت ضغط التطور الصناعى ، وانتشار موجات السخط فى أوساط العمال وأفراد الشعب ، بينما أعلن الإسلام نظامه الكامل للتكافل الاجتماعى قبل ثلاثة عشر قرنا ودون أن تكون هنالك فى البيئة العربية عوامل اقتصادية تضطر الإسلام لإعلان هذا النظام ، ودون أن يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة .

بل هى نزعة إنسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى العباقرة إلى قريب منه بعد ثلاثة عشر قرنا .

ويسرنا أن تمتلئ المكتبة العربية ، بل الإسلامية بهذا اللون من الكتابة التى يحتاج إليها العصر ، والتى يفتقر إلى التزود منها أبناء الإسلام .

بريد المجلة

يوحنا المعمدان هو يحيى بن زكريا :

إلى صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى

وعليكم السلام ورحمة الله وبعد : ففيما يلى بيان للأمور الثلاثة التى استوقفت نظركم فى مقالى عن « موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة » :

١ – إن « يوحنا المعمدان » و « يحيى ابن زكريا » عليهما السلام اسم واحد لمسمى واحد . فاسم يحيى هو مجرد تعريب لاسم يوحنا Yean (أصل الاسم بالعبرية « يوحانن » مأخوذ من « يهوحانن » بمعنى الله رحيم أو شفوق) . وقد أوردت الأناجيل قصة يوحنا المعمدان فى الصورة نفسها التى وردت بها فى القرآن الكريم فى سورتى مريم وآل عمران (انظر الإصحاحات الثلاثة الأولى من إنجيل لوقا ووازن بينها فى هذا الصدد وبين الآيات الثلاثة والثلاثين الأولى من سورة مريم والآيات ٣٣ - ٦٠ من سورة آل عمران) .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلة الأستاذ فى أن يوحنا المعمدان غير يحيى بن زكريا وهو « أنه يعرف أن يحيى ابن زكريا رسول ابن رسول ، وأن الله قد قال فيه « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ؛ مع أنه لو عرف قصة يوحنا المعمدان فى الأناجيل لتبيّن له أن ما ذكره دليل عليه لا له ، ومع أنه لم يرد فى مقالى ولا فى كلمة ترتوليان التى علقت عليها ما يفهم منه أن يوحنا المعمدان لم يكن رسولا ابن رسول .

والمسألة بعد ذلك يا سيدى من أوليات المسائل المعروفة للمطلعين على تاريخ الأديان ، وما كان ينبغى أن تكون موضع مناقشة .

٢ – إن مريم البتول التى يتحدث عنها ترتوليان والتى شقت للنساء الإسرائيليات طريقاً يبساً فى البحر فى أثناء خروج بنى إسرائيل من مصر هى أخت موسى عليه السلام . وهى التى ورد ذكرها فى القرآن فى آيتى ١١ ، ١٢ من سورة القصص ، وفى آية ٤٠ من سورة طه . وقد ذكرت أنا ذلك بصراحة فى تعليقى على كلمة ترتوليان (انظر التعليق الخامس بصفحة ٣٢ من العدد الذى نحن بصدده) .

ولو أن فضيلته رجع بصره فى التعليق

المشار إليه ، أو وقف قليلا عنــد قولى فى وصف مريم هذه أنه انشق لها ولمن كن يسرن خلفها من النساء الإسرائيليات « طريق يبس فى البحر » ورجع إلى الآية التى اقتبست منها هذا التعبير (آية ٧٧ من سورة طه) ، لو أنه فعل ذلك لوفر علينا عناء المنــاقشة فى أمر بدهى .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلته فى أن مريم هــذه لا يمكن أن تــكون أخت موسى ، وهو « أنه يعرف أن مريم البتول هى أم عيسى عليه السلام ، وأن بين مريم وموسى أحقاب » ؛ كـأنه يظن أن ليس ثمـة من سمى باسم مريم من المتبتلات ، إلا أم عيسى ، أو أن ثمـة من يجهل أن بين موسى وعيسى عدة قرون !!.

٣ — لم يعرض القرآن الـكريم لموضوع نسبة اسماعيل إلى سارة أو عدم نسبته إليها . ومن المقرر أنه لا مرجع لنــا فيما لم يرد له ذكر فى القرآن ولا فى النقوش الأثرية الثابتة من قصص العبريين السابقة للتاريخ إلا أسفار العهد القديم وشروحهــا ، وأسفار العهد القديم صريحــة فى أن إسماعيل كان ينسب لسارة ويعتبر ابناً لها ، وأنه ظل كـذلك إلى أن غضبت ســارة على هاجر وطلبت إلى إبراهيم إبعادها مع إسماعيل انظر الفقرتين الأولى والثانيــة من الإصحاح السادس عشر من سفر التـكوين » ، وقد ورد فيهما على لسان سارة مخاطبــة إبراهيم : « لقــد جعلنى الله عاقرا ، فأرجوك أن تقرب جاريتى هاجر ، فعسى أن يكون لى أولاد عن طريقها » .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلة السائل فى أن إسماعيل لم ينسب إلى سارة ، وهو « أن إسماعيل قد ظل مع هاجر ولم يفارقها ... » ؛ كـأنه يظن أنه يلزم من بقاء طفل مع امرأة وعدم مفارقتها له أن ينسب إليها . ولو كان الأمر كـذلك لنسب الطفل إلى مرضعته أو إلى مربيتــه . ولو أن فضيلته كلف نفسه الرجوع إلى أسفار العهد القــديم ، وإلى بحوث علم الاجتماع فى الأسرة وخاصة كـتابنا « الأسرة والمجتمع » لعلم صحـة ما قلناه بصدد إسماعيل وهاجر وسارة ، ولتبين له أن النظم الاجتماعيـة فى الأسرة كـثيرا ما تتعارض مع الأوضاع الطبيعية ومع صلات الدم . هذا ، وربما عدنا إلى تفاصيل هذه المسائل وما يتصل بها فى مقال تال إن شاء الله ؟

دكتور علي عبد الواحد وافي

خطاب مفتوح إلى الأستاذ الأكبر :

السيد المصلح الـكبير فضيلة الشيخ الأكبر شيخ الأزهر الشريف .

أحييكم بتحية من عندالله مباركة طيبة وبعد

فقد وضح أن فضيلتكم تعملون جاهدين من أجل إصلاح الأزهر علما وعملا وإنه لعمل مشكور وجهد محمود أجزل الله لكم والساعين فيه موفور الأجر وحسن الجزاء.

ثم لى رأى أعرضه على مسامع فضيلتكم وهو:

وقف تدريس المذاهب كلها ونهائياً فى القسمين الابتدائى والثانوى بالأزهر وتدريس الفقه، من كتاب الله وسنة رسوله فى هاتين المرحلتين.

وبعد ذلك يمكن التخصص فى دراسة جميع المذاهب أو المذهب الذى يختاره الدارس.

ومن هنا ينشأ جيل مسلم بعيد عن التفرقة المذهبية والطائفية والتعصب البغيض وبذلك يثبت فى نفس كل دارس أن المذهبية إنما هى بحث علمى فقط وليست أساساً فى الدين وبهذا العمل وحده تتجه الوحدة الإسلامية نحواً تبتعد فيه عن التفرقة المذهبية والعصبية الجدلية وعدوانها.

أستاذنا الجليل: أعتقد أن هذا هو الإصلاح الدينى الشامل الذى سيخلده لفضيلتكم الأزهر والتاريخ ويدخلكم فى زمرة المجددين لهذه الأمة دينها، وفقكم الله لصالح العلم والعمل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.؟

المنصوره محمد أحمد الشامى

تشييع جنازة أهل الكتاب:

السيد الأستاذ مدير مجلة الأزهر:

السلام عليكم ورحمة الله وبعد:

فإن هناك شيخا وقوراً وقف فى حشد من الناس يردد فى ثورة وغضب أن السير وراء جنازة الكافر حرام وأن الإسلام منع ذلك وحرمه تحريما أبديا.

وقد قال الشيخ هذا الكلام بعد أن رأى جماعة من المسلمين يسيرون خاشعين وراء جنازة امرأة يونانية عاشت بيننا منذ زمن بعيد:

فرأينا أن نكتب إلى الأزهر الشريف كى يفتينا فى هذه القضية.

رمضان الفيتورى

درنة: ميدان النصر ليبيا

(المجلة)

إن الإسلام دين يقوم على السماحة فى معاملة الآخرين، وعلى احترام أواصر الإنسانية التى تجمع بين بنى آدم قاطبة.

وقد امتاز الإسلام بهذا المسلك النبيل فى أيام كان التعصب الدينى الأعمى يسود أهل الأرض.

فلما بعث نبى الرحمة سن للمسلمين مكارم الأخلاق ومسالك البر والفضل فعن طريق

البخارى عن جابر قال : « مرت بنا جنازة فقام لها النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا فقلنا يارسول الله إنها جنازة يهودى ؟ قال إذا رأيتم الجنازة فقوموا . وفى رواية أخرى « أليست نفسا ؟ » .

وروى سفيان سمعت عن حماد بن أبى سليمان يحدث عن الشعبى أن أم الحارث بن أبى ربيعة ماتت وهى نصرانية فشيعها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم :

وعن سعيد بن جبير قلت لابن عباس رجل فينا مات نصرانياً وترك ابنه قال : ينبغى أن يمشى معه ويدفنه .

والأثران الأخيران أثبتهما ابن حزم فى كتابه المحلى « باب الجنائز » .

ونحن نحب أن نبنى علاقتنا بالآخرين على هذه السماحة ، معتقدين أن ديننا هو الذى يأمرنا بهذا البر لمن عايشنا مسالما ولم يعتد علينا أو يظاهر المعتدين .

الذكر على أصوات الموسيقى والغناء :

وجاءنا من محمد حسين عبد الله القماطى بقصر خيار بطرابلس الغرب يسأل عن :

(١) اشتمال حلقات الذكر على آلات الموسيقى وأصوات الغناء .

(٢) اختلاط الرجال والنساء حول أضرحة الأولياء .

(١) أما اشتمال حلقات الذكر على آلات الطرب فهذا ضرب من اتخاذ الدين لهواً ولعبا ولا يجوز لمن يعبد الله راجيا ثوابه وخاشيا عقابه أن يجنح إلى هذه البدع المنكرة فإن الإسلام شرح طرق الطاعات المقبولة : وبين أن التزيد عليها مردود على أصحابه .

(٢) وأما عن التقاء النساء والرجال حول الأضرحة المقامة على بعض قبور الموتى فذاك ما لا يسوغ . وأغلب هذه الزيارات لا ينبعث عن طلب العظة والاعتبار بل ينطوى على مفاسد ينبغى سد ذرائعها .

المجلة وقراؤها

ترحب المجلة بما يرد إليها من السادة القراء من أسئلة وردود .

أنباء الأزهر

العام الدراسى الجديد بالأزهر :

انتظمت الدراسة منذ الصباح الباكر فى الجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية ، وما إن انتهى الدرس الأول حتى تجمع الطلاب فى ساحات كليتى اللغة العربية والشريعة وفى فناء معهد القاهرة ، وأخذ خطباؤهم يلقون الكلمات والقصائد الشعرية فى تحية العام الدراسى الجديد وفى تهنئة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر مبتهجين بالأنظمة والمناهج الجديدة .

ثم تكلموا فى موقف حكام العراق وشعبه الحر الأبى ، ثم قرروا القيام بمظاهرة صامتة متجهين إلى ميدان الجمهورية ، وقد حيا الطلاب أثناء مرورهم بالإدارة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمناسبة العام الدراسى الجديد ، وهنالك صلوا جميعا صلاة الغائب وكان فضيلة الأستاذ الأكبر قد أوفد مدير مكتبه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحكيم سرور فألقى فى الطلاب كلمة ، وقد أم الصلاة فضيلة الشيخ سيد الشال وكيل معهد القاهرة وتكلم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ ابراهيم جاب الله شيخ معهد القاهرة الدينى كلمة ضافية ، هذا وقد اتخذ الطلاب القرارات الآتية :

١ — الاحتجاج الصارخ على حكام العراق وزعيمهم الأحمر الأحمق .

٢ — الوقوف جميعا ونحن نمثل الأمة الإسلامية جميعا صفا واحدا وراء موقظ الوعى العربى الإسلامى ومحرك المثل العليا والقيم الذاتية فى شعب العروبة والإسلام الرئيس جمال عبد الناصر .

٣ — مشاركة شعب العراق وأبنائه الأحرار والقيادات الصحيحة فيه شعورهم ووجدانهم وليعلموا جميعا أن نصر الله قريب وليتجهوا إلى الله متمسكين بدينه « ولينصرن الله من ينصره » .

كلية الشريعة تستنكر :

اجتمعت هيئة التدريس بكلية الشريعة فى حضور عميدها ووكيلها بمناسبة ابتداء العام الدراسى الجديد وقررت :

استنكار ما يقوم به الطاغون فى العراق من سفك الدماء البريئة وتسليط سيف

الإرهاب والتعذيب على رءوس الأحرار .

« إن الله لا يرضى عن البغى والإفساد فى الأرض وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ثم بعثوا بهذه البرقية إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر ونصها :

السيد الرئيس جمال عبد الناصر :

باسم كلية الشريعة : عميدها ووكيلها وأساتذتها وموظفيها وطلابها ، نرفع إلى السيد الرئيس الموفق بمناسبة العام الدراسى الجديد أزكى التحيات وأخلص الدعوات ونعاهده على أن نكون مثلا طيبا فى القيام بالواجب ورعاية حق الله والوطن والعمل على تحقيق الأهداف القومية التى تتشرف بقيادته الحكيمة الموفقة ، عاشت الجمهورية العربية المتحدة وعاش قائد العروبة ورمز الإصلاح والتقدم .

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة
بالجامعة الأزهرية

مؤتمر الرواد :

لأساتذة الكليات والمعاهد الدينية

بمناسبة انتهاء انعقاد جلسات المؤتمر الأول للرواد من الأساتذة الأزهريين المنعقد فى الإسكندرية من أول أغسطس سنة ١٩٥٩ إلى الحادى والعشرين منه يوصى المؤتمرون بما يأتى :

١ — التوجه بالشكر والتأييد إلى السيد الرائد الأول وزعيم الأمة العربية وقائد العالم الإسلامى شكراً له على إيقاظه الوعى العربى والإسلامى إيقاظاً أدى إلى الحركة والنشاط فى كل ألوان الحياة عندنا ، بما جعل أمتنا فى طليعة الأمم الناهضة والدول العاملة . والتأييد لسياسته الرشيدة فى الحياد الإيجابى والتعايش السلمى الذى جعل الجمهورية العربية صاحبة سياسة موجهة ونهضة كبرى لفتت بها أنظار العالم إليها وحققت آمال العرب والمسلمين فيما يرجون ويؤملون فى أن يعود إليهم مجدهم وعظمتهم ، وإن الرواد الأزهريين الذين لهم من دينهم الحنيف قواعد الريادة الثابتة الموجهة ليرون فى سيادة الرئيس الرائد الأمين الذى يؤمن بهذه القواعد ويطبقها تطبيقاً صحيحاً ، ليجعل من هذا الجيل جيلا ذا قوة فى إيمانه وعقيدته وثقته فى الله ثم فى نفسه ووطنه فلا تلين له قناة ولا يهن له عزم ولا يستكين .

٢ — ولما كانت جمهوريتنا عربية إسلامية ولا تزال مقومات الدولة الإسلامية هى اللغة العربية والدين واللغة يقوى بها اللسان المعبر ويعلو بها الأسلوب ، تذكر به الحاجات ويرفع ظلم الظالمين واستغلال المستغلين فى حجة دامغة

ومعان جزلة تؤثر فى النفوس وتخط معانيها فى القلوب ، والدين والشريعة تقوى القلوب وإن أمة قوى البيان فيها وتفتحت القلوب عند بنيها أمة جديرة بالنهوض ، وأن تتبوأ مقعد العزة والكرامة التى تليق بها وبأبنائها ، لهذا ولما كانت القومية العربية هى التى نعمل من أجلها الآن ونحرص عليها ؛ فتحقيقاً للهدف الأول يوصى المؤتمر بتركيز دراستها والعناية بها ويرجو أن لا يكون للعامية مكان بين دول القومية العربيـة ، وأن نعمل كذلك على ألا تسرى إلى إذاعتنا ولا إلى صفوفنا ولا إلى مؤلفاتنا لنجعل من أبنائنا جيلا تغلغت فيه العربية فآمن بها وعمل من أجلها .

٣ ـ وتحقيقا للهدف الثانى يوصى المؤتمر بضرورة العناية بدراسة الشخصيات الإسلامية العربية العظيمة التى كان لها الأثر فى إيقاظ الوعى الإسلامى والعربى ، وكذلك دراسة مبادئ الدين الإسلامى البارزة التى تكون الشخصيـة المعنوية الممتازة حتى نستطيع أن نفيد من هؤلاء فى إيصال الدعوة الإسلامية ودعم الوحدة التى نرجوها ونهدف إليها ، وإن الرواد الأزهريين ليتوجهون إلى السيد المربى الكبير كمال الدين حسين مخاطبين إيمانه القوى وعبقريته الفـذة راجين منه أن يعمل على تقرير الدين الإسـلامى كمادة أساسية فى الشهادات والكليات ، وأن تكون درجاته ضمن الدرجات التى يحاسب عليها الطالب نجاحا ورسوبا ؛ لنستطيع بذلك أن نجعل من الجيل الجديد جيلا مؤمنا بربه محباً لوطنه محيطا بالأسباب التى تكفل النجاح له ولأمته كما يجب العناية بالتوجيـه الإسلامى للطلاب داخل المدرسة .

٤ ـ توجيه الطلاب فى جميع نواحى التعليم بصفة خاصة إلى النواحى التى تدفعهم دفعا إلى التضحية والبذل والفداء وإلى التعاون على البر والتقوى لنجعل منهم مجتمعا تعاونيا منهاجه اشتراكية الإسـلام القوية ومبادئه الموجهة ومثله العليا .

٥ ـ مناشدة المسئولين فى أن يقفوا حائلا دون نشر الأفلام الماجنة التى لا تعود على شبابنا إلا بالميوعة والخنوثة وعدم وزن الأمور وتقديرها بما يحقق صالح وطننا الأكبر . وكذلك الكتابات المتحللة والصور الخليعة والمجلات والأغانى المبتذلة الرخيصة ، فان هذه كلها لو أحسن استعمالها وخلصت النيات فى توجيهها لكانت أدوات فعالة فى بناء مجتمعنا وجيلنا بناء قويا مؤمنا .

ومرة أخرى يناشد المؤتمرون أصحاب الصحف والمجلات أن يسهموا فى بناء هذا الجيل بأقلامهم وأفكارهم بناء سليما بعيداً عن كل فكرة هادمة أو مقوضة فإن للجمهورية العربية زعامة روحية وثقافية واجتماعية بين العالم العربى والإسلامى يجب المحافظة عليها ودعمها .

٦ ـ ويوصى المؤتمر بالتوسع فى الرحلات

المشتركة بين الأساتذة والطلاب الأزهريين لتقوى المعارف الحقيقية المكونة عن طريق المدركات الحسية التى تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها، كما تقوى الروابط بين الأساتذة والطلاب إخوانهم فى مختلف البلاد فتقوى الروابط والصلات بين أبناء أمتنا العربية الإسلامية.

٧ - شكر فضيلة الأستاذ الأكبر إمام المسلمين الشيخ محمود شلتوت على ما بذل ويبذل فى سبيل الدعوة الإسلامية والنهوض بالأزهر ليعيد إليه مجده وليبنى له مجدا جديداً يحقق به مهمته ويمكنه من أداء رسالته، والرواد يعاهدون الله على أن يكونوا جنوداً مخلصين يعملون فى إيمان بكل ما يحقق للأزهر الجديد أمجاده تحت لواء فضيلة الأستاذ الأكبر الذى يؤمن بأنه الرجل الذى يحقق للأزهر والعرب كل خير فى عهد الشاب المؤمن القوى الرئيس جمال عبد الناصر.

٨ - يوصى المؤتمر بتكوين نقابة عامة لأساتذة الكليات والمعاهد تجمع كلمتهم وتوحد شملهم وتحقق مصالحهم ومصالح أسرهم.

كما يوصى المؤتمر بأن يتخذ من الشريعة الإسلامية ومبادئها موجها ومقوما للجميع: العامل فى عمله والتاجر فى متجره والزارع فى حقله والتلميذ فى مدرسته حتى يكون الجيل متضامناً قوياً متراصاً مؤمناً بالله ثم بوطنه فلا يكون من ورائه إلا الخير يحقق به الأمجاد لأمته ودينه والله المستعان.

تعديل المناهج :

بكلية أصول الدين

انعقدت لجنة تعديل مناهج كلية أصول الدين يوم الاثنين ١٩ من صفر سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٥٩ م برئاسة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد نور الحسن وكيل الجامع الأزهر وعضوية السادة :

١ - الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهورى
وزير الأوقاف الأسبق

٢ - الأستاذ محمد شفيق غربال
وكيل وزارة التربية والتعليم الأسبق

٣ - الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى
المدير العام للمعاهد الدينية

٤ - « الدكتور محمد محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

٥ - « الشيخ محمد محمود الدينارى
وكيل كلية أصول الدين

٦ - « « أحمد أحمد على
الأستاذ بكلية أصول الدين

٧ - « الشيخ السنوسى أحمد يوسف
الأستاذ بكلية أصول الدين

وبعد أن نظرت اللجنة فى الموضوع قررت تأليف لجان فرعية من أساتذة المواد والسادة أعضاء مجلس إدارة الكلية للنظر فى المناهج واقتراح ما تراه بشأن تعديلها أو إقرارها .

هذا وقد نظمت اللجان الفرعية على النحو الآتى :

١ — لجنة التوحيد والمنطق القديم والحديث وتاريخ الفرق .

٢ — لجنة التفسير والحديث وأصول الفقه.

٣ — لجنة الفلسفة وعلم النفس والأخلاق.

٤ — لجنة التاريخ واللغات الأجنبية .

٥ — لجنة العلوم الدينية .

٦ — لجنة الوعظ والإرشاد .

وسيراعى فى تعديل لجان الوعظ والإرشاد علاقة المواد بالرسالة التى يقوم بها الواعظ والمبعوث حتى تؤدى على أكمل وجه ، كما ستنظر اللجنة حسن اختيار طالب الوعظ من حيث الخلق وقوة الشخصية ، ومدى استعداده للقيام بهذه الرسالة كما يرجى . والنية متجهة أن تبدأ الدراسة بقسم الوعظ والإرشاد من أول فرقة بكلية أصول الدين حتى يستطيع طالب الوعظ أن يتخصص فى هذا الشأن .

امتحان الدراسات العليا لكليات الأزهر :

عقد صباح السبت ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٧٩ ﻫ (١٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٩ م) امتحان الدراسات العليا لكليات الأزهر ويرأس هذا الامتحان فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

وقد ناقش فضيلة الأستاذ الأكبر أول الطلاب الممتحنين نقاشا دار حول أصول الدين وحول أصول الشريعة والمصدر الذى يؤخذ منه هذه الأصول ، كما تناول فضيلته مناقشة الطالب فى عموم الأدلة وخصوصها وتطبيق هذه المسائل على الأوضاع الموجودة فى مجتمعنا فى هذه الفترة .

هذا والامتحان يعقد لطلاب المرحلة الثانية . والدراسات العليا مكونة من ثلاث مراحل إذا رسب الطالب فى مرحلة منها فصل نهائيا . وتتكون المرحلة الأخيرة من امتحان شفهى ومحاضرة عامة ورسالة فى موضوع يتصل بدراسة الطالب .

والمتخرجون فى هذا القسم أهل للتدريس فى الجامعات .

لجنة الامتحان مكونة من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد نور الحسن وكيل الجامع الأزهر رئيساً لها وعضوية الأساتذة :

١ — الدكتور محمد الفحام عميد كلية اللغة العربية .

٢ — الشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة .

وعضوية اثنين يمثلان الكلية التى ينتسب إليها الطالب .

مقتطفات من الكتب والمجلات

شيخ الأزهر والمنهج العلمى :

أدلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى جريدة «اطلاعات» كبرى الصحف الإيرانية بحديث جامع أداره على منهجه السديد لمحاربة الرجعيــة فى الدراسات الإسلامية ، وتحرير تفكيرها من العصبيات الموروثة التى كانت تشكل أخطر عناصر الجمود وعوامل التأخر ، وقد أقام منهجه على أساسين يعيد بهما ركنين من أركان الإسلام كانت قد أخلت بهما الأوضاع السابقة : الأول إعادة الوحدة وسبكها مشاعر المسلمين السبك الحى الملائم لمبادئ الإسلام .

الثانى : إعادة التفكير الإسلامى إلى موضوعيته وحريته الأساسيتين فى تركيبه الأصيل ، ومن ثم دفعه موحد الصفوف نحو أهدافه الإنسانية فى طريق الحضارة يدعمه العلم .

وقد أجاب على سؤال وجهه إليه مندوب الجريدة حول الخلافات المذهبيــة بين الشيعة والسنة فقال : الخلاف فى الرأى ظاهرة اجتماعية لا مندحة عنها ، وهو فى حد الاجتهاد ضرورى لا غناء عنه فى إغناء الشريعة وتطويع قوانينها للحياة ، وهو بين السنة والشيعة مثله بين عالم وعالم من مذهب واحد .

وتجدر الإشارة إلى أن سماحته من أقطاب « جماعه التقريب » التى أسسها قبل سنوات عشر أو تزيد العلامة الكبير الشيخ محمد تقى القمى الشيعى الإيرانى ولفضيلة شيخ الأزهر من قبل آراء جمة خالف بها المذاهب السنية ، ووافق بها المذهب الشيعى منطلقا من الأدلة فى موافقته ومخالفته جميعا ، وقبله كان المغفور لهما الشيخ المراغى والشيخ عبد المجيد سليم لا يمتنعان عن الأخذ بمذهب جعفر الصادق فى المسائل الخلافية كلما أدى اجتهادهما إلى الأخذ بمذهب وللإمامين عبده والبشرى سابقة إصلاحية حرة كانت النواة رضى الله عن الجميع وأرضاهم .

إن الخطوة العظيمة المتوقعة الآن هى إقرار منهج واحد للدراسة الإسلامية تتفاعل وتتحد فيه الشيعة والسنة . إننا بمزيد من الغبطة والفرح نستقبل هذا التحول المبدع ونذكره بأعظم التقدير للإمام الجليل « شلتوت » أخذ الله بيده .

«المطرعات»

الإيمان بالله :

امتاز الإسلام بأنه جعل الإيمان بالله مبنياً على أساس من التأمل والتفكر فى خلق السموات والأرض وليس على المعجزات والعجائب كما تفعل الديانات الأخرى. وقد عاد المفكرون الحديثون إلى هذا الأسلوب القرآنى الحق، فمن ذلك ما نشره الدكتور كرونين فى مجلة المختار (يناير ١٩٥٦) تحت عنوان (لهذا آمنت بالله) وهو طبيب وروائى كبير بدأ حياته ملحداً إلى أن وضع أصابعه على ينابيع الإيمان فأصبح مؤمنا بالله قال: «ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر فى إله خالق. من الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صافية ويرى النجوم اللانهائية وهى تتألق بعيداً، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء.

اطرح عن رأسك، إن شئت، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم، وأن الله قد سوى العالم بيديه فى ستة أيام، واقبل إن شئت نظرية التطور كاملة، وتتبع الخليقة منقوشة على الحفريات، وتتبع سير الأنواع وترقيها حتى بلغت صورة الإنسان واقبل كل النظريات العلمية التى قامت عليها، فإنك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً لا يمكن أن تقول: إن هذا كله قد صدر من العدم، فلا شىء يخرج من لا شىء.

ومنذ بضع سنوات، عندما كنت فى لندن، نظمت نادياً للشبان، ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحياة ليلقى محاضرة للأعضاء. وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن (بداية عالمنا) وتحدث بأسلوب العالم الملحد، وجعل يصف عصور (الأيون) السابقة على التاريخ وكيف تحولت الأرض على مر هذه العصور من الغازية إلى السيولة إلى الصلابة وكيف أن الأرض كانت مطمورة فى مياه المحيطات، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية، وكيف أن القشرة الأرضية تكونت نتيجة تفاعلات كيميائية طبيعية، وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التى نعيش عليها، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتو بلازم. وعندما فرغ المتحدث من محاضرته صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذبا. ولكن تلميذاً وقف فى صورة عصبية وسأله: لا تؤاخذنى يا سيدى، لقد حدثتنا عن الأمواج الهائلة التى كانت تضرب الشواطىء، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر؟ وساد صمت كله حرج، واحمر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة أغرق الموجودون فى الضحك. لقد انهار منطقه الحديدى بسؤال من تلميذ صغير.

«المختار»

Contents

what is certain to benefit the society. The financial systems ardained by the Islamic Law are indeed wise socialist sysetms. They encourage enterprise and give to every earnest person a fairly rewarding return of the products of his endeavour. They widen the scope of honest competition and distinction as well as aspiration, and pave the way for all such good principles. But they, on the other hand, give equal chances to all people and aim at establishing economical equilibrium and mitigating the differences among the social classes to bring them close to one another and prevent the accumulation of wealth in the hands of the few. They found the economical relations among people on solid bases of co-operation and solidarity and of exhortation to righteousness, goodness, justice and kindness. They lay down the best systems of social solidarity, assure every individual of a decent and dignified life, and protect the world from the evils of the Communist trends and their subversive doctrines.

" that is the perfect Religion, but the majority of people know not"

This call of Abu Dharr was extreme only in one sense : it almost enjoined upon the rich to spend all their surpluses in the way of God to satisfy the needs of the destitutes ; whereas Islam has recommended this conduct as previously mentioned, and has not made it necessary. On the contrary, Islam considers the Muslim dutiful, so far as financial duties are concerned, as long as he does not fall short of what is enjoined upon him by the Islamic Law as regards alms, taxes and the financial rights of his relatives. Nevertheless, this is the least that a Muslim can do, and beyond it are in Islam high steps that are graded in their highness and nearness to God until the Muslim approaches the most supreme ideal for which Abu Dharr appealed and which is inspired by the sound idealism of Islam.

Some studious are mistaken when they consider the teachings of Abu Dharr and its like as Communist trends. The truth is that these teachings are in absolute contradictoin with Communism. When these teachings urge the landlords to pay the religious taxes (the alms) of their properties and be kind to the poor and the needy, they aim to affirm the right of individual ownership and protect it against all threats of revolt and violation from the side of the deprived and the poor. They also aim to prevent the class struggling between the rich and the poor.

Different from that is Communism, which endeavours to abolish the very principle of individual ownershp, and advocates the transfer of all holdings into communal units governed by the State, and achieves its aim by means of provoking class-stuggling. And for this reason the call of Abu Dharr and the similarly generous teachings are considered among the bitterest enemies of Communism and the most irremovable obstacles in the way of its expansion.

Now we come to the conclusion. It has been established, from all that which is already mentioned, that Islam with its injunctions in this respect means to make ownership a social employment, not a personal enjoyment for the owner, and to render the scale of its obligations overweigh that of its rights. It also means to make the owner of properties a mere trustee to spend them in the common interest and

Islamic Socialism, The Best

Safeguard Against Communism

by

Dr. Aly Abdul Wahid Wafi

(*Continued from P. 64*)

" So give to the kinsman his due, and to the needy, and to the wayfarer. This is best for those who seek God's " countenance, And such they who are successful " (Surah, 30 V, 38).

Furthermore, many verses of the Qur'an show that Islam considers the ownership as a merely social employment to which the appointed person spends the wealth on those who deserve it. It also looks upon the owner just as a trustee appointed by God to administer the wealth and spend it in the way of His. In this connection God says : " Believe in God and His Messenger, and spend of that whereof He has made you trustees : and such of you as believe and spend (aright), theirs will be a great reward " (Surah. 57, V. 7).

9 — The nineth Means is represented in the exhortation by Islam to spend in the way of God whatever surplus is there. Islam has recommended people to give away whatever wealth, which they do not need for pressing purposes, and spend it all in the way of God. It is reportod that Abu Dharr al-Ghaffari said: " The Messenger of God, peace be upon him, went towards the mountain of Ohud and I was with him. He said : O Aba Dharr. I said : yes, I ransom you with my father and my mother, O messenger of God He said : If I had as much gold as this mountain to spend in the way of God and died with only two carats left, I would not be happy, I said you mean two cantars, O messenger of God ? He said : no, I mean two carats." The Messenger meant that he would not be happy if he died before he could spend in the way of God the whole sum even the two carats.

And for this reason, Abu Dharr urged the rich, during the Caliphate of Uthman Ibn Affan, to spend in the way of God and give to the poor, the destitute and the needy all the surplus of their Properties. He also warned the rich to shun luxury, prodigality, the hoarding of Property and disabling the feeble and poor of people.

one. Religion is consistent with the nature of man as well as with the nature of the whole universe. It is ardently desirous for the realizatian of intimacy and brotherhood in man's life in conformity with what is seen of affection and brotherhood among the non-humans.

Communism, on the other hand, is a call for "revolution," chaos, disturbance and fear. Its peace means war, its liberty means slavery, its equality means plunder, and its security means agitation and anxiety.

It is founded on the principle of antithesis. So contradictian plays the dominant role in its society, and its adherent is wavering between the two contradictory extremes. He is neither alive nor is he dead. He is fluctuating between restriction in humanity and libertinism in animality, between manhood and non-manhood.

Religion reconciles the soul and body in individuals. But Communism makes the body dominante the soul and imposes on mind the mastery of the stomach. It is suitable only for animals and absolutely inconvenient for man.

and to realize justice, brotherhood and co - operation among individuals.

The achievement of man, therefore, the knowledge he attains, the society and state he stablishes, all of them should be for the service and mastery of human values. If this system is upset and the human values as well as the whole of mankind are made subservient to knowledge, society and state, then there will be no peace, no justice, no brotherhood and no co - operation. In such a condition the devil, caprices, chaos and anxiety prevail. The prevalence of these evils is not the mistake of hunmanity; but it is the shortcoming of nature which fails to express itself and show its real values.

The value of nature is manifested in its submission to man whose value is shown by his attaining a high virtuous human standard. Likewise, the value of the whole universe lies in the assertion of its Creator whose Entity is proved by perfection and harmony that are regulated by normal rules, the oddness of which lies in man's disability to understand them. All the aforementioned values are the aim of the religious message.

Decline of Communism :

Communism converts the worship of man to an idol that is exploited, yet does not have the power to exploit or direct others. It also converts the nature of man from acting mastery into an enslaved one; from a free self - determined and honoured nature into another one dominated by that which has no independent will or freedom. It equalizes between good and evil in guidance and turns the human values into empty moulds to fill with whatever it pleases and not what is good for humanity.

The god of Communism which is science is a changable one that changes from day to day. So its holiness is but a mere illusion and false imagination, and its worship is but a superstition.

The Difference Between Religion and Communism

The difference between religion and Communism is the difference between a normal call and an abnormal

and eat of His sustenance " (Surah 67, V. 15).

" And he has made subservient to you the sun and the moon, pursuing their courses; and He has made subservient to you the night and the day, and He gives you of all you ask of Him " (Surah 14, Vs. 33 - 34).

According to the message of religion man endeavours to attain " Knowledge " : " Say : Are those who know and those who know not alike ? " (S. 39, V. 9). The purpose of this attainment is to make man master the nature, not to deify and worship " knowledge ", to make him try hard to establish the material and industrial civilization : " And We sent down iron wherein is great force and advantages " (Surah. 57, V. 25). But This material and industrial civilization are meant to expand the sphere of human and spiritual values.

The message of religion accordingly urges man to partake in the formation of society not to be absorbed in it : " And the believers, men and women, are friends one of another " (Surah. 9, V. 71). According to the message of religion, man is to work for the foundation of the state: to establish justice, to maintain thc rights of its individuals, to live and protect their most valued thing's: life, wealth and honour; yet it is not to be unquestionably obeyed and surrendered to, if it is tyrannic or violating the personal rights.

Religion does not ask man to overturn the system of life and thus worship what is man-made of "science," "society " and " state ". Religion requires of man to remain normal and behave within the framework of natural laws. So lsng as he gives to beings other than himself life growth and development, is proper then for these other peingr- to be in his service and follow him.

3 — The supremacy of Human values:

The mastery of man for which religion calls is not, ln fact, that of his physical constitution and his animal growth. It is rather that of the human values, namely, justice, liberty, brotherhood, equality and the maintenance of personal rigłts. This is because religion evaluates man only on the basis of his humanity and his human qualities which are represented in the human values.

Throngh this mastery of man and human values religion aims at the settlement of peace among people,

O mankind, surely I am the messenger of God to you all" (Surah. 7. V. 158). It is this message of religion only which defines good and evil; "Surely this Qur'an guides to that which is most upright" (Surah. 17, V. 9). It is this messenger who calls for good only; "And (know) that this is my path, the right one, so follow it, and follow not other ways, for they will lead you away from His way" (Surah 6, V. 154).

The good for which religion calls is co-operation for the attainment of a better life; "And help one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression" (Surah. 5, V. 2). It is brotherhood in humanity: "O mankind, surely We have created you from a male and female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful" (Surah 49, V.13). It is the non-deviation from the right way and non-inclination to evil: "And follow not the footsteps of the devil, Surely he is your open enemy" (Surah, 6, V, 143).

God the Lord of religion, then, knows good and evil as well as the overt and the concealed, and He wishes good only because good Secures security, co-operation and brotherhood to humanity. In brotherhood and co-operation lies the elements of prosperity and progress of humanity.

2 — The Supremacy of Man

God the Lord of religion knows all about the earth and the whole nature, and from among its creatures He honours the human nature as it submits to and worships Him only. This human nature worships Him alone and doing so it surrenders to good and acts upon its principles. It also knows evil and shuns it. It accepts the harmony and peace and aims at them, It knows animosity and disorder and tries to evade them.

As God values the human nature for warshipping Him alone, He endows it with mastery over all creatures other than man; "And Surely We have honoured the children of Adam, and We carry them in the land and the sea, and we provide them with good things, and We have made them to excel highly most of those whom We have created" (Surah 17, V. 70). "And He it is who has made the sea subservient that you may eat fresh flesh from it and bring forth from it ornaments which you wear. And you see the ships cleaving through it, so that you seek of His bounty and that you may give thanks" (Surah 16, V. 14). "He it is who made the earth subservient to you, so go about in the spacious sides thereof,

existence of man. This trinity therefore is man-made, not self-made. When man abandons this trinity it will cease to exist, then it will shrink until it dies away.

So this deity is incapable of creation even though it may appear a giant creator. It is not self-sustained even though it may be seen to give life to others. By actual need disability cannot guide humanity to its welfare. It is not only that it lacks the power to distinguish between good and evil but also the initiative power to direct either to good or to evil,

Science, which is a pillar in the sanctified trinity, is pushed by man toward either good or evil but not by itself. Likewise, the state and society are directed in the same manner by man, who is the leader and guide.

Thus man who was to be deified has become in this case the worshipper. By this attitude Marxism does not only encourage the " relapse " of humanity and the enslavement of man to an " idol," incapable to live or to continue to exist independent of others, not to guide and lead others. But when it renders the Communist's heart void of faith in God, the Creator, and so depriving him of dread, it tries to make it up for him with another religion and faith that lead him to good and evil alike. The deity of that faith, i.e., science, as defined by Marxism. has no intrinsic or natural relationship to good or evil because its nature is " neutral ".

The religion or faith which equalizes good and evil does not give assurance to humanity against the prevalence of evil among its followers. Such followers may offer to their neutral god evil more than good as an oblation. But it is Marxism which agitates people to revolt in the name of the principle of antithesis. It cannot face the inevitable "revolution" in the Communist society if circumstances lead to it. It uses the principle of " evolution " to instigate people to reject the human values and deny the virtuous standard of humanity, and at the same time gives aspirations, through its philosophy, to a better life and a happier society. It also encourages people to deny God and religion, and place them before a man-made god and religion, a god who is himself ignorant of the destiny of humanity in spite of the fact that he is called "science".

1 — *The Religious Call*:

In contrast to Marxism, religion calls for faith in God the Creator, the Independent of others, the Ever-Lasting, the Changeless and the Most Supreme. He is for all people and His message is sent to the whole of mankind; "Say"

and the industrial civilzation, therefore, is the real one on the basis of which man should continue his efforts to establish a better life.

In order to bestow on science a halo of sacredness and ascribe to it the qualities of the adored, to whom believers offer their sacrifice, which, in this respect, is their contribution to the advancement of industrial civilization, Marxism demanded "faith" anew and enjoined upon its followers to believe in different " trinity " : science, " society " and " state ". Thus Marxism has become a " religion " and a " faith ".

It is realized here, however that Marxism, by its assertion of the principle of "reality " in order to destroy religion and faith, ended through this very principle, in a religion and it is not that of God but of nature, and a faith in man-mad objects not in God.

The sanctification of science and its deification make it man's master rather than his subservient. Likewise, this sanctification and deification of society calls for sacrifice and devotion from individuals without their expecting any reward. This implies that there is no other deity but this new trinity which, Marxism claims, is from the actual nature which is seen and perceived, though the deity is neither seen nor perceived. We do not see science as such but conceive it; nor do we see society as such hut conceive it as a combination of mutual relations among lts individuals. We do not see the state but trace its marks in the achievements; we only see experiments. These experiments are not science. What we see are individuals leading a life in which they have firmly believed, and following a certain course in that life whether willingly or unwillingly. Individuals, therefore, are not society; they are mere bricks in its structure. Of these individuals some are legislators and law makers, while others are only guardians and executives. Both legislators and executives are in the service of the state and not the state itself.

Thus the new deity of the new Marxist religion is not found in the tangible reality, althaugh Marxism, as we have seen, denies the existence of God because He is not a tangible: thus it denies His existence on a certain basis and then believes again in what is built on this same basis.

In the new religion of Marxism there is no dread of any deity except the deity of science, the society and the state which are the production of man: for the primitive man lives without science and without state, and thus the existence of the Marxist trinity (science, the society and the state) is after accurence to the

of metaphysics, as represented in revelation, and the influence of mind on nature itself to be a means of Knowledge, of planning the human behaviour and of defining the proper aim of the human society. This is because it considers the revelation of God and the mission of religion as a mere superstition. It also considers conceptional ideas by which the mind tries to describe nature as an illusion.

Thus it is " reality " only, not religion or mind, which must be dictated upon man and prompted to him, and from which man has first to learn and then abey what he learns. The reality in which we live is the nature which we feel, see, touch and on which we tread.

So we have, accordingly, to let this nature speak and give us guidance instead of God's guidance and the light of the mind. From this point of view, God absolutely has no existence, and the mind has no light except that which it receives from the logic of the tangible nature. God is not existent, because there is no existence beyond the material existence; and if He had a material existence we should have seen Him but actually we do not see Him. So He is not existent. The mind also has no existence independent of the material body, and its existence therefore is bound to the material existence. It has no such independence to possess any light or radiation apart from that of the material nature. It has no logic distinct from the logic of nature. but nature empowers it with its own logic and urges it to think in a certain way and it thinks.

It is held that the material nature is the existence and its logic is the only expressive logic, then the Knowledge acquired through the logic of nature is sound and authentic Knowledge. Consequently, Knowledge is not metaphysics, religious revelation or rational conceptions. But Knowledge is reality and the tangible nature. Such Knowledge, then, is worthy of worship not God, as the religious authorities believe, nor man as a conceptive power, as the rationalists claim. The altar of the worshipper is not the church nor the theoretical research but it is the " laboratory " where experiments are held on the properties of the material nature.

Human civilization is not in the least constituted by the intellctual and spiritual heritage of the past but only by that which comes out from these natural experiments. It is rather formed by science with its material effect on human life. It is the machine. then, which is the most conspicuous of these results. Industry, in all its aspects, is one of the many virtues of machine on man,

It is clear from the development of man and his move from stage to stage in humanity till he reaches the stage of human maturity that values are the highest standards in the human behaviour. This is because the infant human is like the animal in his behaviour when acting according to his instincts. In this behaviour the human mind, which is the distinguishing character of man, has little influence. But gradually the mind takes its place besidcs the instincts in man's behaviour and his development.

At a certain stage of his development the mind commands man's behaviour through the making of good customs and the sound understanding of the nature of life which includes the nature of society. When the mind dominates the instincts, man becomes in possession of the quality of humanity and differs clearly from animals.

The most important character of the instinctive behaviour is " egoiam, " and the most distinctive quality of humanity is "aggregation" or the recognition of soeiety in a manner manifest in practical application corresponding with the inner feeling of the aggregate. Egoism denies the rights of others in life. whereas aggregation consolidates these rights by virtue of co-operation on what brings about a better life for all and what protects all from injuries and aggression.

The human values are nothing but practical " samples " of aggregation and the various forms of co-operation on achieving a better human life. And if it be granted that values are the standard of the human behaviour, the expressions of the human quality of man, which he gradually attains, and the proof of the human mind's maturity and mastership over the animalist instinct in man, it should therefore be granted that these values are unchangable. This is because man either develops into a humane standard or remains in the sphere of animality. And values, as already mentioned, are the only means by which it can be seen whether man has ascended to the standard of humanity or still 'remains in the circle of animality.

It is man himself who changes and develops in his march towards humanity. But values, which are the expression of humanity, are unchangable and ever - lasting.

The Principie of Reality :

Marxism ascertained the Principle of " reality " which had been used by August Comte, Feuerbach and Steinthal, to resist by it, first of all and Particularly, the opposing and " reactionary " forces espicially religion and the idealist moral philosophy. This principle denies the effect

When Marxism uses the Principle of " antilhesis, " it means to convince people of the necessity of the change of societies, how.ever long it may take, into the proletarian form which is the inavoidable destiny of humanity. It means, further. by the use of the principle of " evolution " to convince people that this proletarian society is better than any other one. So the aspiration of people to the establishment of this society, if it ls not already established, and their endeavour to make it a reality, will not be because it is the inavoidable destiny of humanity at large but because it is better than and incomparable to any other preceding society.

Marxism, furthermore, means by the phenomenon of change to falsify the religious and idealist values, and to accuse both religion and the idealist philosophy of stupidity and misunderstanding of the universal laws and consequently of disharmoniousness with the nature of life. Religious authorities and idealist philosophers are considerd by Marxism rectionaries who confine life to a limited line. They, Marxism thinks, look backward unconscious of the marching progress of life ; while others, so Marxism claims, look forward in conformity with the laws of nature. On these said arguments Marxism evaluates the Communist society in as much as it destroys the forces which hinder people from following its ways and at the forefront of which are religion and rational idealism. When it evaluates in one side and destroys in the other, it does not resort only to such an allegation but also uses terminology which tempts people to side with it and makes them depart from what is against it. It applies " progressive ", an attractive term, to what it advocates while it applies " rcactionarism " to what it tries to destroy represented in religion and the idealist ethical philosophy.

The application of the phenomenon of " change " to the human values proves that Marxism, in fact, tries to be deceptive and cunning, just as it did before when it applied the principle of antithesis to society. There, Marxism terminated the application of this principle at the Communist society and so arbitrarily ended the logical process of the principle, and limited its function as a universal law having an incessant application.

The human values are the highest standards in the human behaviour and the ultimate ends of the human improvement. So these values, after reaching the end of their development, do nor permit increase or change, but become then a plain phenomenon which dictinguishes man from animals.

that Marxism fights theoretical or "conceptional thinking" and concentrates on "reality".

If the Communist society, i. e., the proletariat, does not expect its absorption by and transformation to another absolutely opposite society, it will then have either to be inconsistent with the logic of Marxism on which it was established and which it used to justify its existence and the transformation of any other society to it, or return, after its new form approved by the Bulchivic Revolutionists of 1917, to the "belief" which cannot be interpreted by philosophy and Logic. So it will become a society of indisputable belief. Then, it will not be the aspired to society which Marxism desired, and which replaces belief with "science," demands its individuals to fight "reactionarism" represented in faith and belif as such, and urges them to emancipate themselves from faith and belief.

The principle of Evolutien

As to the principle of *evolution* Marxism borrowed it from Darwin and used it to prove that the present condition of the being is better than the former state of that being, and that it is more valuable and more chireshed. Society as an entity will go through a process of change from a certain condition to another, and then its new condition is to be preferred to the previous one, more valuable and worthy of maintaining. The logical conclusion of this argument is that the proletarian society, i. e., the Communist society, is better than the preceding society of capitalism, and this latter is better than that of feudalism which s also better than that of the royal society. The principles of "antithesis" and "evolution" produced an attached result as a universal phenomenon which is the "change", of every being from its position to another opposite one. By the production of this phenomenon and by the claim that it is applicable to every thing, Marxism tries to pretend that the unchangability of the moral "values" in the human life is contradictory to the nature of things and nature of being. It tries to conclude that values, therefore, change just like anything does. Thus the human virtues differ from time to time and what is considered virtuous at a certain time is not to remain such forever. On the contrary, it may be the opposite of virtue. The Marxist allegation based on the phenomenon of change means that whatever religion and the moral idealist philosophy have established like "justice," personal "liberty" and the maintenance of the consecration of soul, property and honour - all may change into vices and become opposite to virtue according to the circumstantial changes of life.

with the industrialists and the majority of the labourers. The Process of strife between these two extremes will continue to produce the Proletarian society which is the ultimate aim of Marxism.

The transformation of the capitalist society to a proletarian one, according to the logic of the principle of "antithesis," means that the ownership of properties represented in factories will go to the labourers, who will become in turn industrialists.

The Marxist philosophy, when using the priniciple of "antithesis" in the social sphere, did not limit it to the logical conclusion which stipulates that it is inevitably going to its extreme opposite, and that the present form of society is going to be absorbed by a new from. Marxism, instead, went further to add that the transformation of society from one shape to another opposite one is achieved step by step until it reaches a certain point at which *revolution* is indispensable to complete this transformation. This change is like water in its becoming vapour after a process of change affected by heat till the water abruptly transforms completely to vapour.

The Marxist doctrine, therefare, does not wait for the intrinsic forthcoming transformation of society, especially that of the capitalist, to the proletarian shape. But it advocates the tactics of *revolution* and the intervention of the Communist adherents to hasten the happening of the desired *revolution* in the society.

The question that may be raised now by any examiner of the use by Marxism of the principle of "antithesis" to justify the transformation of society to a proletariat is as follows: Is it true that the proletariat has become the owners of industries and the landlords in the Communist society as Marxism had happily advocated while employing the philosophy of "antihesis"? Is the transfomation of society, according to the principle of "antithesis," is confined to its becoming a proletariat? Or do determinism and necessity conceived by Marxism in the principle of "antithesis"- as a general character, instigate the observers of the conditions of society to expect the emergence of another society from the proletariat which will be quite opposite to it, and out of which comes forth another society and so on?

So if the ownership of factories is plundered from the proletariat in the Communist society leaving them mere paid labourers or the like, then what Marxism gladly advocated, through the application of the principle of "antitheeis" to the transformation of societies, will remain in the *theoretical* and *conceptional* realm, not in the realm of reality. This is an inavoidable result in spite of the fact

by necessity apply to the society as it is necessarily applicable in " conception " and " idea". This is so because if we examine the different froms of the human society we shall find that the " Royal " form of society was the first of them followed by the " feudalist " and then by the " capitalist " one.

By analysing the structure of the " Royal " society as an entity it will be seen that it was formed of tow opposite sides : the King on the one side, and the executive officials of his government and his subjects or slaves on the other side. Through the conflict between the two opposite sides, one of them represnted in the king transformed to the other side represented in the government officials and subjects. By such diversion the second from of society manifested in feudalism took shape. That is because the land, which belonged to the king only — and to which ownership was confined ; since idustries were personal crafts undeveloped by the technical evolution as known later in the second half of the nineteenth century in Germany - went to the officials' hands, and the ex - sub jects of the king as well as his serfs became farmers and tenants of this land.

But this feudalist society did not remain just the way it was, and it is impossible for it, according to the neceesity of the principle of antithesis, to continue just the way it is; so it transformed into the capitalist society. By analysing fhe structure of feudalism it was found that its society consisted of two opposite sides: the big landlords and the tenants of the land. Through the conflict between these two sides, one of then represented in the feudalists was diverted into the other opposite side represented in the tenants. This was brought about by the flight of the feudalists with their properties and by the investment of these properties in industries while leaving behind the land for the tenants. As a result of this change the capitalist society emerged from the feudalist one. This new form of society was made of the capitalists who invested their capitals in big industries.

If the feudalist society, up to this stage, transformed from a certain Position to another opposite one, the capitalist society will be changed into another form of society; and this new form is in accordance with the principle of " antithesis " which is a universal principle. The new Position to which the capitalisf soeiety will come is that of the proletariat. This is because the industrial or the capitalist society consists of two extremes : the minority of the capitalists togethe

already converted the former society into a one - class society.

Communism as a doctrine :

Communism in this respect advocated Marxism as a philosophical doctrine depending on a number of principles already used in the iedalism of the eighteenth century, the naturalism and the positivism of the first half of the nineteenth century. These principles embody the antithesis of the German idealism, the *evolution* and the *reality* of positivism. Each one of these three principles has been employed by Marxism to prove, on the one hand, the ultimate value of Communism and the triviality of the "reactionary" values, especially those of religion, in the pre - Communist society, on the other hand. So it took a hostile and incomplacent attitude towards the Christian Church as an authority in particular and towards religion at large.

The Principle of Antithesis :

The German philosopher Fichte had used this principle to prove the originality of the human mind and its precedence in existence, and consequently its abiity of creation together with its absolute freedom which cannot be limited by "sense" or " revelation " or any other " unseen power ". He also used this principle to prove that the human mind is to dictate not to be dictated upon ; and that the human society, the law, the State and the morality are among its under ; and that the lives of all people, in their brotherly ties and acheivements in the patronage of a universal state, are an ultimate aim of its creativeness.

The other German philosopher Hegel used the same principle to ielucidate the value of the human mind and the value of God, and to show that the place of God in the universe is that of the Absolute out of which comes forth the limited, viz., the visible nature, and towards which move the somewhat unlimited such as the " State," the " law," and the " morals." Therfore God reveals and it is incumbent upon man to obey what He reveals.

Hegel concluded, through the use of this principle, that the authority of the "revelation" is above that of the " mind," and that both are above nature, above what is called the real or the tangible.

This very principle was also used by Karl Marx, the philosopher of Communism and the German thinker of Jewish faith, to prove that society would inevitably change into a proletarian society, i.e., the Communist society. He employed history to illustrate that this principle would

another one. A society as such can not be achieved except by the ultimate prevalence of the working class because this class does not rely, in its livelihood, on anything other than its own human activity and the exercise of that activity in a direct way.

To make the society a purely proletarian one the Communist Revolution hurried to adopt the *revolutionary* tactics in the conversion of the Russian society and annihiliated the other two classes : the class of business men, or the capitalists, and the class of the owners of fiefs or the feudalists. It also terminated the government system, viz., the Caeserian system, which had prevailed in Russia on the basis of the existence of those two classes. Moreover, the Communist Revolution, eradicated all sources of support to tho Caeserian regime, particularly the Orthodox Church or the Eastern Church. And because it adopted the revolutionary tactics in enhancing the transformation of the Russian society from a multiple class society to (a one of proletariat, it perpetrated violence, despotism and bloodshed against tens of thousands of the society. Therefore it was a Red Revolution and made *blood* its emblem ; because it was against its principles to give up the *revolutionary* tactics and what this demands of bloodshed.

Communisn combated feudalism, capitalism, Caeserianism and Church ; and abrogated both feudalism and capitalism. It transformed the ownership of land and factories to what it called the *State*. Thus the Russian society in the economical aspect became a Communist one. It abolished the Caeserian system of government and made it a people or a proletariat rule ; so this society in the political aspect became a democratic or a proletarian one. It abolished the Church authority and declared secularism as the State character. Thus it separated the Church from the State and made the latter sovereign over the former.

After these radical changes the Communist Russian society has become in its policy and derectives entirely contadictory to the former society, and the 1917 Revolution realized its existence as a historical fact. But in order to maintain this society and keep it away from agitations which may be incited by the social remainders of the past resulting from the elements of Caeserianism, capitalism feudalism and church authority, which remainders are called " reactionary " forces - Communism paid its utmost attention to the Marxist philosophy from which it emanated, propagated its call and tried hard to convert it to a " religion " or a " faith " as it had

COMMUNISM AND RELIGION

by

Dr, Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

Communiom as Revolution :

The Communist Revolution started before the end of the First World War in 1917 to destroy the social system of the Caeserian Russsia and establish another social system more balanced and more harmonious, from this revolution's point of view, or a society in which the causes of friction and conflict between the classes and the individuals disappear.

The sociey at which the Communist Revolution was aiming was the proletarian society which consists of one class. And if the causes of friction and conflict vanish wherein, there is no longer any need for the maintenance of the police force which is usually appointed to preseve the internal security of the society.

The Communist Revolution does not only aim at the establishment of a one-class society in which the factors of friction and strife disappear, but also aims at the creation of a society of high morality and sublime value. In such society the special guarding force to protect individuals, which force has superior authority over their existence, is no longer needed. This high morality results only from the transformation of the society into one class. This class should be neither the capitalist class nor the feudalist one ; because both of them live and depend on the use of capitalism and feudalism respectively, not on the private human activity of the individuals belonging to both classes .

The employment of capitals and fiefs necessitates, in turn, the exploitation of the human energy which is exercized by the labouring class, which is obliged to continue working to earn its bread and butter.

Thus we see that to depend in forming the hoped society on either of these classes will inevitably lead to the rising of another class, that is the proletarian class. Hence the formation of a one-class society must depend upon a class whose existence does not necessitate the presense of

which he tastes nothing but fear and hunger, tyranny and oppression, evil and corruption.

It is hoped that in the light of the aforesaid proofs, we could easily realise the immortal traits of the instructions of Islam. Such teachings are irreplacable by man - made laws and constitutions which make him vain and arrogant, and which are built on capricious intentions and overwhelming passions, and on the basis of love for domination and suppression.

In its injunctions Islam shuns excessiveness and carelessness. And it is worth mentioning here to refer to the fact that Islam demands its people to be moderate in all aspects ot life and in deciding their common interest, and to stand in the middle without swinging to either extreme. This perhaps is a third angle through which we may conceive a third element in the immortality of Islam. Such elment is referred to in the holy Qur'an in the following verses: "Thus We have appointed you a middle nation, that you may be witnesses against mankind ..." (Surah 2, V. 134). "And (He commands you, saying): This is My straight path, so follow it. Follow not other ways, lest you be parted from His way" (S. 6, V. 153).

In fine, this is Islam, and that is its *idealism* which bears the elements of its immortality. It is the religion of God which He has chosen for His bondmen to organize thereby their lives and make happy themselves and their society. He sent down its principles, as we said, with His honourable messengers, explained them in His Scriptures and then perfected them, with that which was needed for the progress of man, in His last Scripture, viz., the Qur'an, and on the tongue of the last of the prophets and messengers, Muhammad, may the peace and blessings of God be upon him.

It is incumbent upon the intellectuals and people of knowledge and opinion, who are interested in the affairs of their nations, to continue their search for and presentation of these Islamic principles, so that the demarcation lines between the truth which is revealed by God and the deviation into which the world has fallen and by which Muslims have disintegrated may become clear.

May God guide to the right path those who are striving to attain the blessings of God and to achieve the happiness of the people.

Moreover, on the treatment of non - Muslims who are in peace and on good terms with Muslims, the Qur'an says : " God fordids you not those who warred not against you on account of religion and drove you not from your homes, that you should show them kindness and deal justly with them. Surely, God loves just dealers "(Surah 60, V. 8).

The Basis of Government and Sources of Legislation :

We have already mentioned the general principles which Islam has laid down and which are the common Divine guidance to the decent life and the true happiness. Let us now know that Islam maintains these principles by means of justice and consultation which Islam takes as a basis of government and legislation, and authorizes the specialized people of sound opinions to decide upon details and particulars branching from these general principles. This is to be done in the common interest of the nation and when there is no definite text to decide upon the matter in question. Through this Islam secures for the human mind its dignity and, at the same time, saves it from uncertainty and disorder resulting from caprices and personal inclinations. Islam, furthermore, by so doing guarantees the ever - lasting and cotinuance of its principles. It makes no restriction upon the specialized thinkers, who are authorized to give decisions on unsolved problems, except the maintenance of the general framework of these general principles which ensure the security of people's life and the safety of their society from dissolution and deterioration.

From this brief presentation it is plain that the principles by which Islam has organized the life of mankind are the most sublime principles that life can ever seek for the progress and advancement of the world and for the achievement of the common good. It is also plain that by laying down these principles Islam, as we have already said, has included therin all conceivable elements of good and urged for their attainment. On the other hand, it has warned of and cautioned against all conceivable elements of evil.

It is inconceivable that these values can be neglected or replaced with others made by man and dictated by his passions and personal inclinations which are incapable of realizing the sequence of the human nature. The world will remain in uncertainty and fluctuation, without any meaterial and spiritual comfort and without breathing the air of salvation, as long as it cherishes man - made systems on which his life is based and from

And by this fascinating principle Islam has established a system of exchange of rights and duties between the individual and society, and has made the happiness of life dependent on co-operation and balance between the two sides without either of them overweighing the other. So if society refrains from carrying out its duties, things will turn bad, and life will change into unbearable hell and will confront danger and humiliation.

Ethical Morals :

Islam has extended its support to the moral principles, which are indispensable for life, by a combination of individual and ethnic morals which confer on man in himself as well as in his society a form of human magnificence and psychological beauty. And for this aim Islam has dealt with the virtue of humbleness, manners of walking, man's interest in that which does not concern him, and his pursuit of unfounded thoughts and vicious ideas. In this respect the Qur'an says : " Turn not your cheek toward people, nor walk with pertness in the land. Surely, God loves not each baggart boaster " (Surah. 31, Verse. 18). " (O man), follow not that whereof you have no knowledge. Surely, the hearing and the sight and the heart - of each of these it will be asked " (Surah. 17, V. 36). " O you who believe ! Shun much suspicion ; for surely some suspicion is a crime. And spy not, neither backbite one another " (Surah. 49, V. 12).

As regards visits to somebody else's home the Qur'an says : " O you who believe ! Enter not houses other than your own without first announcing your presence and invoking peace upon the folk thereof " (Surah. 24, V. 27). The Qur'an also shuts the doors of sexual disorder by taking precautionary measures described in the verses which read : " Tell the believing men to lower their gaze and be modest .... And tell the believing women to lower their gaze and be modest, and to display of their adornment only that which is apparent " (Ibid, Vs, 30 - 31).

Regulating the manner in which man shauld receive news, the Qur'an says: " O yon who believe ! If an evil -liver pring yon tidings, verify it ... (Surah 49, V, 6). Likewise, one of the important social virtues is stated in the Qur'an as follows: "Oyou who believe! Let not a folk deride a folk who may be better than they (are), nor let women (deride) women who may be better than they are ; neither defame one another, nor insult one another by nicknames" (Ibid, V. 11).

good and evil in this life. Islam has unequivocally forbidden all things that may spoil it or cause its weakness.

Power in Islam :

To consolidate society and protect it from aggression Islam stipulates that power should be acquired and force must be prepared. Power in Islam is not desired as a means of humiliation and destruction, or of driving people out of their homes and property and hardening their lives. But it is desired as an instrument of reform and peace when used to frighten mischief - makers. The Qur'an says : " And make ready for them whatever force you can and horses tied at the frontier, to frighten thereby the enemy of God and your enemy and others besides them, whom you know not - God knows them " (Surah 8, V. 60).

Needs of Life :

In Islam man is entitled to bodily enjoyments and good provisions of life without falling into vicious extremes of excessiveness or carelessness. He is also entitled to spiritual enjoyments by virtue of knowledge attained through self - purification and training, meditation and reflection on the marvels of glory and beauty of the Creator and the Wonderful Originator of the universe.

Islam gives man, as an individual, an independent personality and makes him, at the same time, a brick in the structure of society. As an individual entity, Islam assures man of the right of ownership of his wealth and his blood, and enterprise for his own interest without violating the rights of others. And as a social unit, Islam enjoins upon him a duty by which he is obliged to give guidance, to share in fight, and to make utmost contributions in all aspects of life. Similarly, Islam enjoins upon him a fiscal duty to be spent on the common interest and be taken from his surplus after satisfying his needs and those of his dependents. Moreover, it encourages him to establish a sound married life on solid bases to reproduce a healthy generation which can participate in the foundation of society.

In return for these duties enjoined upon the individual for the interest of society, Islam tasks the society with obligations and rights towards the individual. The society represented in rulers and people of authority is demanded to preserve the blood, honour and property of the individual. And to secure these rights and insure the observance of these duties Islam has ordained punishments decided upon by accredited people or defined by textual instructions.

obtained, Islam ordains that it should be maintained and not wasted or spent lavishly or used as a means of exploiting the conditions of the needy. It gives the disable poor as well as the common weal a right to such wealth. Besides that, Islam has stipulated that prodigality is the source of all evils and destruction of everything in this life.

For all this Islam does not tolerate extravagance, except when aiming at the commo welfare and prosperity of the nation. Hence, it fights prodigals, ruling or ruled, owners or trustees. It authorizes the Muslim rulers to be watchful to prevent prodigality in order to preserve the wealth of God to which people are mere trustees. This is meant to purify the hearts of the destitute from spite and envy originating from the sight of tokens of lavishness surrounding them while they are deprived of their necessities and enjoyment of a comfortable and peaceful life.

By virtue of this general principle which Islam has introduced, the fiscal problem caused by miserliness which threatens the peace and security of the world is solved and put an end to. This principle of Islam eradicates fiscal tyranny, protects the society from destructive Communism and other subversive movements, reserves the rights of the individuals and the fruits of their endeavours, and, finally, opens widely the door of fair competition in the quickening and progress of life.

Honour In Islam :

Islam demands the maintenance of honour as a manifestation of dignity and honesty and for the extirpation of sexual libertinism which destroys the family system and dissipates the unity of society.

Health in Islam :

Reservation of good health is emphatically demaded by Islam which fights diseases by means of remedy and immunity. Islam founds its policy on reality, and reality ascertains. that no knowledge is obtainable without good health, and that no noble struggle can be carried out without maintaining this health. This is because health is man's capital and the source of his happiness. And this maxim is so popular that it is often said : " Maintenance of health is preferable to performance of rituals".

Mind in Islam :

Mind, from the Islamic point of view, should be kept revived and lively, because it is the measure of

bondmen. In this connection God, may He be exalted and glorified, says: " It is not righteousness that you turn your faces towards the East and the West, but righteous is the one who believes in God, and the Last Day and the angels and the Books and the prophets " (Surah. 2, V. 177).

Worship :

Islam has drawn the lines of worship to foster this belief and maintain observance of the orders of God. It has ordained some forms of worship varying between fiscal and physical duties. Thus, fasting and prayer, alms and pilgrimage were ordained. Islam has intoduced these forms of worship and explained every detail concerning their performance, quantities and times, through the voice of its Messenger. By this Islam has equated its followers in order that their inclinations and opinions may not differ, and their hearts, their souls and their aims may be harmonized.

Necessities of Life :

Islam has also urged the acquisition of science and knowledge and emancipated the human mind from the fetters of blind imitation and immutability, encouraging it to penetrate into the unknown aspects of the universe to unveil the secrets of God in the earth and the skies, sea and air, simple or compound. All this is meant to strengthen faith in God and make people rejoice at the employment of their discoveries of the universe, which God has made subservient to man. To this we read a reference in the Qur'an, which says: " In the creation of the heavens and the earth, and the alternation of night and day, and the ships that run in the sea with that which profits men, and the water that God sends down from the sky, then gives life therewith to the earth after its death and spreads in it all (kinds of) animals, and the changing of the winds and the clouds made subservient between heaven and earth, there are surely signs for a people who understand " (Surah 2, V. 169).

It is sufficient for the beliver to read the chapter of the Bee in the Qur'an to appreciate the insturctions of God to His bondmen to look in and search through the various aspects of this universe and what it contains of marvels and wisdom, blessings and signs. It is due to this attitude that Islam has elevated the rank of the learned people, and for this purpose it combats illiteracy, demands the learning of wrting and places high the value of the pen.

Islam and Property :

Islam commands the earning of wealth and considers it to be the substance of life. When wealth is rightly

The Source of Immortality in Islam

PART II

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of Al-Azhar University

In the previous part of this article under the same heading we discussed some aspects of Islam, from our point of view, concerning its injunctions and its source which make logical the immortality of Islam and its validity without being confined to any particular limit. We then said that Islam is the ever - lasting message which is not linked to any certain epoch of history, and that it is the religion of God.

We declared, furthermore, that Islam was not an entirely new religion but a religion whose beliefs and aims were voiced by all messengers from the first one to the very last of them, viz., Muhammad, son of Abd Allah, may the blessings and peace of God be upon him.

In this respect we cited some Qur'anic verses as indisputable evidence of these general principles. It may be usful in the Friday sermon to summarize in simple words the creed of Islam, its worships and its attitude towards the necessities as well as the needs of life.

Creed :

Islam enjoins the belief in the Origin of being and good, and devotion of worship and glorificatiou to Him alone. So that man may not submit to another in order to enjoy his dignity and may not stray by taking mediators and interceders between him and God, and may not fall in perplexity and wavering between them while neglecting God the source of existence and good. Moreover, Islam demands the belief in the Day of Judgement and in the knowledge of the right path which He chose for His bondmen and conditioned their happiness on it in this life and the Hereafter. This right path is the belief in the angels of God who receive from Him laws and injunctions to deliver to His messengers who, in turn, convey to their people, and the belief in the Scriptures which are God's message to His

you could do it, but I resent to be distinguished in this respect ".

In spite of the fact that he was the distributor of spoil, the leader of the Arabian Peninsula and the master of kings, he died with his shield mortgaged to a Jew for a loan which he had needed for the expenses of his family. In this phenomenon there is no surprise because the policy of God in giving His treasures does not recognize peculiarity or limits of space and time. But it is the secret of the Supreme Creator, which emerged from the stillnees of the desert on the tongue of the great Messenger, and resounded in the far - reaching horizons, to be forever the light guiding every wanderer and the call awakening every inadvertent person.

As to his personality, it was the most fascinating quality of his manhood to which surrendered the despotic heads, the aggressive souls and the pitiless amongst the hearts of the valiants of the Arabs. After elevating them through his teaclings they changed their characters and followed his example in conduct and behaviour and unanimously agreed on his love, obedience and protection. To them his sayings were traditions to follow, his deeds were treaties to keep, his opinions were orders to obey, and his decisions were verdicts to observe.

That is why we Muslims mention his name in every call for prayer and in every prayer throughout the day. We mention his name with the name of God not because we worship him, God forbid that, for this would mean associating others with Him the One. We mention the name of God followed by that of Muhammad just like the mention of a rule followed by an example or of a theory succeeded by an application, because God reveals and the Messenger conveys the revelation, God gives orders and he executes them, God legislates and he applies the Divine legislation. So the mention of God is a remembrance of His orders and interdictions, and this is the demonstration of His power, and the mention of the Messenger is a remembrance of his sayings and deeds - and that stimulates the following of his example.

The anniversary of the Messengr's birthday is the anniversary of the emancipation of humanity from the bondage of illusions, the tyranny of rulers and the domination of ignorance.

It is very proper, then, for the free and conscious hearts of various inclinations and tendencies to venerate the anniversary of the Messenger of monotheism and unity, the Prophet of freedom and the advocate of peace and love.

with the resolution of a superman. He struggled armed with truth, persisted with patience, argued with logic, confuted with sound opinion, impressed with eloquence and defeated by hand. such qualities emanate only from the shrewdness of mind and inimitatable heroism, which were his clear distinction from all other messengers; because every prophet and each messenger showed superiority to his people only in some characters except the Arab Messenger who was *unique* in his ingeniousness. He was a messenger in religion, an authority in eloquence, a constitution in politics, a ledear in legislation, and a commandor in war.

Muhammad, throughout the difficult circumstances which he faced, was a sound manifestation of the spirit of God, an explicit declaration of the essence of religion, a supreme ideal of the truthfulness of struggle, a superior endurance of the hardships of the *call*, and a good example to all people.

The life of this Messenger is an ever-lasting Divine law for men of both religious and mundane concern. The means of struggle through which he reconstructed the scale of living and by which he set up the balance of society are still headlines in the records of knowledge, politics and morals. His life, may the blessings of God be upon him, was based on self-denial and spiritual training. His leadership was founded on solidarity and co - operation. He was the ruler of Hejaz, Nejd, and Yeman, and to him came the tributes of the whole Arabian Peninsula and of the neighbouring countries of Iraq and Syria. Yet his bed continued to be made of palm - fibre, and he with his famliy passed countless nights starving or satisfying themselves with little diet of dried dates and water. He wore rough and uncomfortable clothes while he distributed among people silky clothes decorated with gold.

It was the habit of his companions to stand up when they saw him approaching to show their respect for him. But he told them not to do so because that was the habit of the Persians, and that he was only an oridinary human being who eats and sits just like others do. Once he was travelling with his companions. He invited them to prepare an ewe for dinner. Immediately one of the companions said that he was to slaughter it; another said that he was to skin it, and the third said that he was to cook it. Then the Prophet said that he was to gather the shrubs. They all said: " We could do that on your behalf, O Messenger of God ". He replied: " I knew that

for the implantation of good. They guided man unto the path of perfection and sharpened his wit to receive the last Message and the Universal Call ; a message of truth and proof, not established by miracles and oblations ; a call directed to the whole populations of the universe at all times and not to a limited group and at a certain time.

Miracles were only the proof of truth and the way to God when the sense of perception was stronger than the intellect and simplicity more dominant than deep reflection.

When sights were cleared and covers of ignorance were unveiled through the long and uniting preaching of prophets, the widespread of the knowledge of the sages and the scrutinizing study of the annals, the revelation was developped into a science, the inspiration into wise judgement, the signs into conceptions, the call into logic and the message into law. Muhammad, the illiterate orphan and the have - not, became an example of the advancing humanity in its thoughtful and expressive stage With utmost wisdom, good exhortation, peaceful arguing, and with no proof except the Book of his Lord and no power but his firm faith he advocated truth. " They (the disbelievers) say : We will not put faith in thee till thou cause a spring to gush forth from the earth for us ; Or thou have a garden of date - palms and grapes, and cause rivers to gush forth therein abundantly ; Or thou cause the heaven to fall upon us piecemeal, as thou hast pretended, or bring God and the angels as a warrant ; Or thou have a house of gold ; Or thou ascend up into heaven, and even then we will put no faith in thine ascension till thou bring down for us a book that we can read. Say (O Muhammad) : My Lord be glorified ! Am I aught save a mortal messenger ? (Surah 17, Vs. 90 - 93).

It is a well attested fact that whenever you read the biographies of prophets and messengers you will be struck to see that the miracles and signs of God are given to back such a prophet or a messenger in a critical position wherein his argument or his pleading fails to convince and needs a heavenly support. Such was the case with all the prophets with the exception of Muhammad, may peace be upon him. Unlike other prophets God bestowed upon him the gifts of human perfection and distinguished him by sublime morals with complete manliness and overwhelming personality, and made him a miracle in himself and a sign in his characters. All elements of evil were mobilized against him ; he was physically attacked and mentally accused, his people were harmed, his companions were tortured, and his call was fought against. Nevertheless, he met these aggressive assaults

FROM THE DARK CRADLES THE LIGHT OF GOD DAWNED

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in - Chief

The *Speaker* Moses, son of Imran, was born in an unstable cradle. He had feelings of fear and perplexing expectations. His mother hid him in an oven from the eyes of Pharaoh and threw him into sea. She put him in a box and left him to Destiny. Then God saved him from burning and drowning to receive the *tables* from Him on the Mount Sinai.

Jesus, son of Mary, was born in the open air under the trunk of the palm - tree on the sandy earth. His fugitive mother delivered him in a rough cradle, and God gave to him the Scripture and the prophethood and the blessing which he propagated from the Mount of Olive in the East and the West.

The Chosen Muhammad, son of Abd Allah, was also born in a cradle of orphanhood and poverty. He did not find the warmth which the children who have mothers enjoy, nor the care which the children who have fathers find, nor the milk which the children of rich people get. He was brought up by some of his kinsmen, invested his wife's wealth and called to the way of his Lord. Then the Truthful Spirit Gabriel came down to him in the cave of Hiraa of the Mount of Light to reveal the ever-lasting message.

Blessed be God ! How great He is ! And how mighty His will ! He wanted His light and evidence to dawn from these humble cradles, and His glory and soverignty to emanate from these tranquil souls in order that His sign might be more glaring to the sight, His call more appealing to the mind and His word more attached to the heart. Had He chosen His messengers from among sovereign kings, the miracle would have been suspected and the omnipotence of God would have been confused.

From these poor cradles God, Who knows best where to put His message, chose His prophets and messengers, and supported them with miracles to affirm truth and provided them with signs to terrify falsehood. So they fought polytheism, combated corruption and prepared the ground

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزءان الرابع والخامس — جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ — نوفمبر سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادي والثلاثون

الفهرس

٢٢٢٢٦ ١٢

يا حسرتا على العراق !

بقلم : أحمد حسن الزيات

كان العراق يوم كان حكامه ناسا كالناس ، وعربا كالعرب مظهرا للقومية العربية ، ومصدرا للقوة الإسلامية ، ومجمعا للقيادة الروحية والثقافية والحضارية للشرق والغرب. نبى فى وجوده العارم الخصب كل جنس فلم يبق متميزا غير العرب ، وكل دين فلم يبق ظاهراً غير الإسلام ، وكل لسان فلم يبق حيا غير العربية ، وكل سلطان فلم يبق قاهرا غير الخلافة ، ثم كان الفلك حينئذ يدور عربيا على ملكوت محمد من شرقى آسيا إلى غربى أوربا ، فتشرق شمس الحياة والمعرفة من أفق الرشيد وابنه المأمون فى بغداد ، لتلقى أضواءها الهادية على ملك العزيز بالله وابنه الحاكم فى القاهرة ، ثم ترسل من هناك أشعتها المحيية على سماء الناصر وابنه الحكم فى قرطبة ، ومن هذه الخلافات الثلاث التى انبثقت من العراق فى القارات الثلاث ظهرت كلمة الله ، وبهرت حقيقة العلم ، وازدهرت مدنية الإنسان ، واتسعت دنيا العرب .

كذلك كان العراق أيام كان من خلفائه هرون والمأمون ، ومن وزرائه الفضل وجعفر ، ومن فقهائه أبو حنيفة وأبو يوسف ، ومن أدبائه الأصمعى وأبو عبيدة ، ومن شعرائه بشار وابن الرومى ، ومن متصوفيه الحسنان البصرى وابن سيرين . فلما غربت الشمس وجزر المد ووهن السلطان واستعجم اللسان وجفت مشارع الرافدين فنقت فوقها الضفادع وسعت حولها الأفاعى ، آل الحكم فيه إلى عبد الإله ونورى ، ثم استوخم الأمر واستفحل الشر فآل بعدهما إلى قاسم والمهداوى ، ومنذ يومئذ غامت سماء العراق بركام من السحائب الجون ، لا تحمل الماء ولكن تحمل الدم ، ولا ترسل الغيث ولكن ترسل السم . وتحت رعودها القاصفة وبروقها الخاطفة تنساب فى الظلام الداجى زمر من شياطين الإنس ، يمجون الكفر ، ويشيعون الفحش ، وينشرون الإرهاب ، ويلحون على المؤمنين الآمنين بالقتل والسحل والتعذيب ، ليخرجوهم من الإسلامية إلى الشيوعية ، ومن العربية إلى الشعوبية ، ومن شعب له كون بارز فى الوطن العربى الأكبر ، إلى مجتمع من أخلاط كردية وتركمانية وعربية لا يجمع بينها لسان ولا مجد ولا تاريخ .

***

وارحمتا للعراق الحبيب ! بلغ به ذل الحال وسوء المآل أن يستبد بأمره رجلان من الطراز الأدنى أحدهما يحكمه بالنار والدمار والتفريق والفوضى ويزعم أن المجزر حكومة ، والآخر يحاكمه بالطيش والفيش

والتهريج والسفه ويزعم أن الملعب محكمة ! ولولا الظلام لما أبصر البوم ورفرفت الخفافيش ، ولولا الانقسام لما تسلط (الزعر) وحكمت (الحرافيش) .

خلت الرقاع من الرخاخ
ففرزنت فيها البيادق !

لقد ابتلى العراق من قبل بالحجاج والقرامطة والزنوج والتتار والترك والانجليز فما صنعوا به جميعا ما صنع به قاسم وحده ! لم يستطيعوا بما أوتوا من ملكوت وجبروت أن يطفئوا نور الإسلام ولا أن يخفتوا صوت العروبة ، ولكنه استطاع فى أقل من عام أن يحمل بعض المسلمين العرب على أن يصيحوا هاتفين فى شارع (الرشيد) وفى ساحة (المأمون) : لا إسلام ولا عروبة ! وقوة هذا الرجل إنما أتته من ضعفه ، فلو لم يكن ضعيفا لما احتلت فراغه قوى غيره ، فهو كالصنم شىء حقير فى ذاته ، ولكن الصنم ـ كما كانوا يتوهمون ـ تحل فيه الشياطين فينظرون بعينه وينطقون بلسانه ويبطشون بيده ، ولذلك كان يعبد . وقاسم صورة من الإنس الأنيس ركب كل جارحة فيه عفريت . وللعفاريت أهواء متباينة تظهر آثارها فى قوله وفعله ؛ فهو كافر ومؤمن ، وشيوعى ورأسمالى ، وروسى وانجليزى ، وصهيونى وعربى ؛ وهو أهل لأن يكون أى شىء إلا أن يكون عراقيا ، لأن هذه القوى المتضاربة التى تجمعت فيه إنما كانت إلباً على العراق وحده ! فبفضل هذه القوى عق الابن أباه ، وقتل الأخ أخاه ، وكفر المسلم بربه ، وبغى العربى على قومه . وبفضل هذه القوى قسم القاسم العراق على نفسه ، وزعزع بالفتنة الحمراء (والكراسة الرمادية) الإيمان والاطمئنان فى نفوس أهله ، وقتل الناس بعضهم ببعض حتى زهقت فى سبيل روحه خمسة آلاف روح .

وأصبحت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ذلك قاسم ، أما المهداوى ، أو هامان فرعون ، فعلى النقيض من زعيمه : زعيمه قادر بغيره وهو قادر بنفسه . وزعيمه جهاز تسجيل يستقبل ، وهو محطة إذاعة ترسل ، وزعيمه رأس حكومة «الثورة» سنة وبعض السنة فهدم ولم يبن ، وانفعل ولم يفعل ، ورأس هو محكمة « الشعب » دون هذه المدة ، فأتى بما لم يأت به أحد فى تاريخ الإنسان : اخترع محكمة لم يخطر مثالها على بال عاقل ولا مجنون : مسرح فى ملهى رخيص ، فى صدره منصة جلس عليها العداة والخصوم وقالوا إنهم القضاة ، وعن اليمين منضدة جلس إليها الأفاكون السفاكون وقالوا إنهم المدعون ، وعن الشمال قفص حشر فيه الشرفاء الأبرياء وقالوا إنهم المتهمون ، وفى الساحة مقاعد اقتعدها المجرمون الحقيقيون وقالوا إنهم المتفرجون ! فاذا بدئت المحاكمة افتتحها الرئيس الصخاب السباب بخطبة حمقاء يسب فيها الخلصاء من ضباط الجيش ، والعلماء من رجال الدين ، والزعماء من قادة العرب . ثم يفرغ للبرىء المتهم فيفرغ

عليه كل ما فى فمه من بذاء وكل ما فى صدره من حقد، ثم يغتصب حق الادعاء فيفند الحق، ويؤيد الباطل، ويفتعل الوقائع لتتساوق الأسباب إلى تبرير الحكم الذى أعده من قبل أن يفتح الجلسة ويسمع القضية. ثم تنقلب المحكمة سوقا للمدح والهجاء على نحو ما كان «المربد» فى البصرة، فينهض الشعراء الحمر فينشدون فى الزعيم «الأوحد» والقاضى الفرد ما تنشده الصراصير القذرة فى المستنقع العفن، وفى الختام يقوم المهداوى فى هوسة من الزمر والرقص والتصفيق والهتاف فيشنق العدل والقانون والخلق فى ساحة المحكمة شنقا حتى الموت!

***

والهفتاه على أبطال العراق وشبابه! ثاروا على البغى والفساد والاستبداد فى الرابع عشر من تموز فطهروا الأرض وحرروا الناس، حتى إذا أخذوا يعوضون ما فقد، ويصلحون ما فسد، ويجمعون ما شت، قامت قيامة الشيوعية المحلية فانبعث عبد الإله فى عبد الكريم، وحلت روح «نورى» فى جسد «فاضل»، وآزرتهما عناصر الشر جمعاء، فأطفأوا الثورة بدماء من شبوها من الضباط الأحرار، وفجعوا الوطن العربى كله فى صفوة من بنيه الأبرار، وأغلقوا بيوت الموصل وكركوك وبغداد على أيامى ويتامى وعجزة، قتلوا عائليهم أو اعتقلوا أهاليهم، وتركوهم للدموع والجوع والقلق والخوف كالأغصان الأماليد والأزهار النواضر اجتثت أصولها من فوق الأرض فما لها من قرار.

أزمة وتنفرج، وغمرة وتنجلى، وأمة يصهرها القدر فى بوتقة الخطوب، وستنكشف إما عن حديد خبث وإما عن ذهب خالص. وخلوص الجوهر هو المعهود فى طبع العراق والمعروف من تاريخه. لم يغمض أبدا على قذى، ولم يصبر طويلا على ضيم، إنما يصبر بمقدار ما يتحفز للوثوب، فإذا وثب كسر القيود وحطم الأغلال وأدب الطغاة.

إن العراق يعوق ولكنه لا يضل ويستذل ولكنه لا يذل. فالخوف عليه من خطر الانحلال السياسى الذى يفقده الإرادة ويسلبه الاختيار ويحرمه الأمن ليس له محقق من ماضيه، إنما الخوف المحقق عليه هو من عقبى هذه الظاهرة المخيفة التى بدت فيه بعد أن قتل الثوار وزيفت الثورة. هذه الظاهرة هى ارتداد فريق منه عن عقيدته وعروبته استجابة إلى دعوة هدامة.

ومثل هذه المحنة التى تصيب الشعب فى دينه أو ضميره لا يكشف ضرها غير الله، ولله فى العراق جنود وأولياء يتولاهم علماء السنة وفقهاء الشيعة، وقد أهاب بهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعلنوا الجهاد الروحى فى سبيل الله والوطن ليردوا الضوال الشوارد إلى القطيع، ويرجعوا الآراء المتفرقة إلى الرأى الجميع. والله رب العالمين وولى المؤمنين قد تكفل بالحفظ لخير دين أنزل بالحق، وبالنصر لخير أمة أخرجت للناس؟

أحمد حسن الزيات

المذاهب الهدامة تهدم نفسها

للأستاذ عباس محمود العقاد

يكتب الماركسيون كثيراً عن الأديان وعلة نشوئها وتطورها ، ويخصون الإسلام بقسط وافر من هذه الكتابة ، ويبنونها كلها على فكرة واحدة يكررونها على نسق واحد فى كل دين ، فلا يدرى القارئ ما هو الفارق بين دين ودين سواه وفيهما من النقائض ما لا يصدر عن علة واحدة ، أو علل متشابهة . بل كثيرا ما يكون أحدهما هادما لغيره فى عقائده وفرائضه وآدابه ، قاضيا ببطلانه وتكفير القائلين به وإخراجهم من عداد المؤمنين بالإله الحق والرسل الأبرار ، وليس من المفهوم أن تكون أسباب النقيضين على اتفاق .

ولم أفرغ من قراءة فصل من فصولهم هذه عن الأديان عامة ، وعن الدين الإسلامى خاصة ، إلا ورد على خاطرى هذا السؤال : أى الفريقين أولى بنشر هذا الكلام ! أهم أنصار المذهب الماركسى أم أنصار الدين الذى ينتقدونه ويشرحون علة نشوئه ويريدون أن ينقضوه بشرحهم لهذه العلة ؟ .

إن فضائل الدين قد تحتاج إلى مجهود لشرحها وتوضيح أسرارها أو توضيح الأسباب العميقة التى تنبعث منها العقائد وتتخذ لها من الأشكال والرموز ما يلائم كل زمن ويوافق كل طور من أطوار التفكير والمعرفة .

إن وضوح هذه الفضائل لا يتكشف على جلائه بغير شرح وبرهان ، ولكن وضوح السخف المطبق فى أقوال الماديين الذين ينقدون الأديان ويبسطون أسباب ظهورها أمر لا يتردد فيه الذهن بعد نظرة عابرة ، ولا يعاد فيه النظر مرة بعد مرة إلا ازداد وهنا على وهن وتهافتا على تهافت ، وأصبح حجة للدين على ناقديه ، ولم تبق منه حجة للناقدين على الدين .

ولقد جاوز الماديون حد التوفيق فى كراستهم « الرمادية » التى نشروها بالعراق وجمعوا فيها أقوال القدماء منهم والمحدثين عن نشأة الدين الإسلامى وبواعث الدعوة المحمدية ، فما من مقدار من الأخطاء المتلاحقة يجتمع فى صفحات كراسة واحدة كهذه الكراسة الرمادية إلا بتوفيق كتوفيق الإلهام ... لولا أنه إلهام معكوس يتنحى فيه الصواب لنقيضه من الخطأ والزيغ والكذب الصراح .

لقد كانت هزيمة كسرى مثلا فى وقعة ذى قار سببا لثورة العرب على فارس ، ولكنك تقرأ بعد سطور أن قريشاً كانت تعتز بسلطان كسرى فى رفضها لدعوة النبى العربى وأنه

« كان من أسباب إذعان القرشيين وفاة كسرى ملك الفرس فى سنة ٦٢٨ ميلادية - إذ كان هذا الشاه معروفاً بحمايته لعباد الأوثان، ففقدوا بوفاته كل أمل للحصول على مساعدة من الخارج . . . » .

وخلال ذلك تقرأ أن سبباً من أقوى أسباب ظهور الإسلام أن إله قريش « أحرز التفوق على سائر الآلهة . أما أرباب العشائر الضعيفة ... فقد دعوا أولاد الله » .

ولا تقول لنا الكراسة الرمادية : لماذا يا ترى كانت قريش تنقم على التبشير باسم الله وتعاند الداعى إليه ذلك العناد الذى لم ينكسر ولم يتراجع إلى التسليم إلا بعد اليأس من حماية الشاه المشهور بعبادة الأوثان ؟ ... ولا تقول لنا الكراسة لماذا هاجر النبي من موطن قريش عباد الإله الأكبر ليستعين عليهم بأعداء ذلك الإله من أبناء يثرب الذين يعبدون غير الله ؟ .

وتقرأ فى الكراسة أن انتصارات العرب « لم تكن نتيجة حماسهم الدينى بل كان سببها انحلال الدولتين العظيمتين بيزنطية وإيران بعد حرب طويلة أنهكت قواهما ، وكان رعايا هاتين الدولتين قد عانوا كثيراً من الضرائب المتزايدة والاضطهادات الدينية فلم يبدوا الرغبة فى الكفاح ضد الفاتحين ، وعدا ذلك لم يكن لديهم قوة للكفاح » .

ولا نريد أن نسأل : لماذا دخل الفرس المنهزمون في الإسلام وأقبلوا على الدخول فيه مختارين ؟ ولماذا تبعهم فى القارة الآسيوية أضعاف أضعافهم من البوذيين والمجوس والوثنيين الذين لم يشتبكوا فى حرب قط مع العرب الفاتحين ؟ » .

لا نريد أن نسأل هذا السؤال بل نريد أن نأخذ على اللجاجة طريقها الطويل فنسأل : ولماذا استطاع العرب المسلمون أن يهزموا المشركين من العرب وقد بلغوا عشرة أمثالهم فى بعض الحروب ؟ .

إن المحاربين من الفريقين كانوا يتألفون من طبقات متشابهة فى الغنى والفقر وفى الحرية والعبودية ، وفى الرئاسة والاتضاع .

ففى جيش المسلمين سادة وعبيد ، وفى جيش المشركين سادة وعبيد .

وليس المشركون جميعاً من أصحاب الإقطاعات ولا المسلمون جميعاً من الفقراء المرهقين بالديون .

وقد كان أبو بكر وعثمان وخالد بن الوليد من ذوى اليسار ، وكان فى جيش المشركين ألوف من الأرقاء والمحرومين ، فما هى القوة التى غلب بها الأقلون الأكثرين غير حماسة الدين ؟ .

ويقودنا ذلك إلى سؤال آخر يستلزمه إكثار الماركسيين من ذكر الاستغلال تارة وذكر الصعاليك تارة أخرى فنسألهم : هل

قام الإسلام لأن المستغلين أقاموه أو هو قد قام لأن الصعاليك أقاموه ثائرين على أولئك المستغلين ؟

والنبي عليه السلام مامصلحته «الاقتصادية» فى تأييد الإقطاعيين ؟ وماذا استفاد لنفسه أو لأهله من تأييدهم إن صح أنه كان يختصهم بالتأييد ؟ ولماذا يثير عليهم المستضعفين ليعيش هو نفسه بعد ذلك عيشة المستضعفين؟.

إن كان « الاقتصاد » يفعل كل ذلك فهذا الاقتصاد مخلوق عجيب من عجائب الجان يتشكل على جميع الأشكال ويتلون بجميع الألوان ، بل هو مخلوق متناقض يعدو مع الذئب ويهرب مع الأرنب ، ولا يحمد الغنيمة فى الحالتين !.

* * *

والجهل وحده لا يكفى للاهتداء المظلم إلى هذا التوفيق المعكوس من الأخطاء والأكاذيب فى خلق الأغراض والعلل . فلابد مع الجهل من سوء النية لهذا الانحراف المتعمد عن محاسن الأديان ، إصراراً على حب التشويه والتشهير بغير دليل غير هوى النفس الخبيث .

فلا بد من سوء النية لإنكار تحريم الربا فى الإسلام استنادا إلى تعاطى الربا أحيانا فى البلاد الإسلامية واعتبار هذا العمل دليلا على أن الإسلام ديانة « إقطاعية » تخدم الإقطاعيين ، فما من عاقل يزعم أن القانون لم يحرم جريمة من الجرائم لأن الناس يقترفون تلك الجريمة ، وآخر من يحق له أن يزعم هذا الزعم جماعة الماركسيين الذين يعلمون أن تطبيق الماركسية لم يمنع اتهام الألوف من زعماء المذهب وخدامه بجرائم استغلال النفوذ وخيانة الشعب والخروج على المبادئ المقررة فيه ، ولم يمنع ثورة العمال والأجراء فى المجر لأنهم يطلبون الخبز والكساء ، ولم يمنع سلب الحرية فى الكتابة والتفكير لإكراه الناس على اعتقاد لا يعتقدونه ، ورأى لا يصبرون عليه بغير ذلك الإكراه .

وإذا كان مؤلف الكراسة الرمادية جاهلا بالإسلام وتاريخ الجزيرة العربية ، فالعربى الشيوعى الذى نشرها أجهل منه بتاريخ بلاده بل بتاريخ ما حصل فى بغداد وعلى مقربة منها قبل الإسلام وبعد الإسلام ، فهو يجهل تاريخ اللخميين ويسميهم الخمديين متابعة للكلمة الأجنبية على غير علم بمعناها ، وهو يذكر ثورة الزنج فيسميها الزنجة ويتكلم عن قبيلة ثقيف ومنها الحجاج الذى حكم العراق زمناً واشتهرت أفعاله وأقواله هناك ، فيسمى تلك القبيلة بقبيلة السقيف ، بل هو لم يقرأ القرآن الكريم ولم يقرأ سورة الفتح خاصة وهى مدار التشهير بالجهاد فى سبيل الله وبما زعموه من فتوح المسلمين لغير حماسة فى الدين ، فالمترجم العربى يترجم الصراط المستقيم فى أول السورة وفى بعض آياتها فيقول : « إن الحرب قد سميت فى القرآن بالطريق الأعلى » .

ومثل هذا النقل قد تكرر فى كل كلمة مفردة نقلت من القرآن الكريم كالحنفيين وهى لم تذكر فى الكتاب ، وإنما ذكر فيه الحنيف والحنفاء ، ومثله تسمية الأشهر الحرام بالأشهر « المقدسة » ، ومثله تسمية قريش بالقريشيين خلافا للقاعدة واللفظ المسموع . ومثله ذكر العرب الرحل فى مكان « الأعراب » كلما وردت الإشارة إليهم فى الكراسة ، ومثله أن النبى عليه السلام كان « يحول » وجهه فى السماء ترجمة لقوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك » إلى كثير من أمثال ذلك فيما عدا الآيات التى ذكرت فى اللغة الأجنبية بأرقامها فعرف المترجم مكانها من المصحف ونقلها بحروفها على غير علم بمعناها .

وأول مايفهم من ذلك أن أدعياء العربية والإسلام الذين نشروا تلك الكراسة بين أبناء قومهم كانوا كفاراً متطوعين للكفر قبل أن يقرءوا كتابهم ، ويطلعوا على تاريخ دينهم ، وينظروا فى نقده وتجريحه نظر العارف بما يقوله الناقدون ويقوله المخالفون لهم فى الجواب عليهم ، وإنما طبعت قلوبهم على الضغينة والتمرد حسداً للناس وذهاباً مع الشر والنقمة فكفروا وهم لا يعلمون ما الإيمان ، وما وجه الإنكار على الإسلام أو على غيره من الأديان .

وتلك شنشنة مألوفة فى هؤلاء الماركسيين على اختلاف نصيبهم من العلم بما يكتبون فيه زاعمين مخورين بأنه كتابة علمية أو كتابة « تحليلية » ، وهم لا يزيدون فيها على أسبابهم « الاقتصادية » التى يثبتونها على أسلوبهم بكلمات يبعثرونها هنا وهناك تتخللها ألفاظ محفوظة عن الاستغلال والجشع والأجور والكدح والكادحين والأموال التى تحسب بالملايين ، ويكفى مجرد الإيماء إليها لإثارة الحسد والضغينة فى نفوس السامعين أو القارئين ، وكل من تقبلها منهم فهو قبل الكفر الذى يعلله بأسبابه « البيخاوية » كافر متطوع بلا سبب معقول غير طوية الحقد واللؤم وشهوة الافتراء على عباد الله وعلى « الله » الذى يقولون عنه إنه « غير موجود » وكل ما قالوه شاهد ناطق بأنهم حاقدون عليه ، حقدهم على الموجود الذى يصرف القضاء وبيده المنع والعطاء .

إن أبعد الناس عن الدين لهو ذلك القارئ الذى تذهب بدينه حجة كحجة هؤلاء المنكرين فى كراستهم الرمادية ، وإن أضعف الناس إيمانا لتعيده إلى التفكير فى الإيمان تلك الكراسة التى تهدم الباطل بيديه وتنقض البهتان بلسانه ، فما لم يكن متطوعا للكفر ببرهان من الضغينة والعناد ، فكل مافى الكراسة الرمادية من برهان فهو هباء يطير مع الريح ، أو هو برهان للدين على المنكرين ، ولولا أنه برهان معكوس لوجب على المسلمين أن ينشروه ويتركوه لمصيره فما هو بقادر على تشكيك أحد يطلع عليه وفى لبه ذرة من يقين .

عباس محمود العقاد

صور اجتماعية :

الدِّينُ المعَامَلة

وضع رجله على سلم الترام الذاهب إلى ميدان السيدة فربط له السائق حتى ركب ، وفسح له الواقفون حتى دخل ، وقام له الجالسون فاختار مجلسه فى آخر الصف من جهة الشمال . وكان منظر الشيخ فى الواقع يبعث المهابة فى الأعين والجلالة فى الأنفس : عمامة خضراء ضخمة ، ولحية شهباء مرسلة ، وسبحة سوداء طويلة ، وجسم سمين رخو يترجرج فى جلباب رقيق مخلق . وعليه كاكولة غليظة مفتوحة ! ثم أخذ يسبح الله ويستغرق فى ذكره ، وكلما مر عليه المحصل غض من بصره ورفع من صوته وساقط الحب سريعا من سبحته . فإذا ابتعد عنه شيعه بمؤخر عينه ثم اطمأن فى مقعده .

وعاد المحصل فتلكأ عند أول الصف الذى هو فيه . فأشاح الشيخ بوجهه إلى اليسار وتشاغل بالحوقلة على صبى نط على سلم الترام المقابل !

فرفع حامل الزمارة صوته ينبه من غفل عن شراء تذكرته من الركاب ويكرر التنبيه ، فأصم حامل السبحة أذنيه عن المحصل وسبح لله وانهمك فى التسبيح .

وأخيراً لم يجد المحصل بدا من أن يوجه الخطاب إلى الشيخ ويقول :

ـ تذكرة يا سيدنا الشيخ !

ولم يجد الشيخ كذلك بدا من أن يبتسم ويرفع السبحة فى وجه المحصل ويقول :

ـ إن فى ذلك « تذكرة » لأولى الألباب .

فانفجر الركاب بالضحك وقالوا والله ظريف !

ولم يشاركهم المحصل فى استظراف الشيخ ، بل قال له فى حدة وحزم :

ـ التذكرة عندنا يا مولانا ورقة بعشرة مليمات لا تجد فى القرآن الكريم كله آية تعفيك من أدائها إلى المصلحة ، قال هذا وهو يقطع ورقة من الدفتر ويقدمها إليه . ولكن الشيخ تبلد وتباله وقال له فى برود وشرود : سأعوضك خيراً منها : فاتحة الكتاب فى ضريح أم هاشم !

ولا أطيل عليك فقد أوقف المحصل المركبة وأصر على إنزال الشيخ ، وهز الشيخ لحيته وسبحته وأصر على تحدى المحصل . وتهور المحصل بالطعن على الورع الكاذب والتسبيح الخادع والإيمان المغشوش والدجل باسم الدين . واحتج الشيخ على تهجم الجهلاء على أهل (العلم) ، واحتقار السفهاء لرجال (الطريق) ، ونسب إلى ذلك فحش الغلاء فى السوق ورفع البركة من الأرض .

وهنا تدخل الركاب وانتصروا للمحصل ، لأن الشيخ بقبح عناده قد عطل الترام ، ولأنه بسوء سلوكه قد فضح التصوف وأهان الإسلام .

ا . ح . الزيات

المبشّرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام

للأستاذ الدكتور محمّد البهيّ

— ١ —

مقدمة :

إذا كان من دواعي استقرار الحكم الوطني فى مصر الحديثة الثائرة عزل عملاء السياسة وإبعادهم عن مجال الحياة السياسية ـ فإن من صالح قيادة الأمة كشعب موحد الاتجاه ، قوى فى أحاسيسه المشتركة ، أن ينحى عملاء التبشير والاستشراق من جوانب التوجيه العام ، سواء فى التثقيف ، أو النشر ، أو الصحافة ، أو الإذاعة .

إن عملاء التبشير والاستشراق ـ وهم عملاء الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى ـ هم الذين دربتهم دعوة التبشير على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى هذه الأمة ، وعلى التنديد والاستخفاف بها ، وهم الذين وجههم كتاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف فى صورة البحث ، وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش فى الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة .

إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية ، والغض من اللغة العربية الفصحى ، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية ، وكذا بين الشعوب الإسلامية ، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة ، والازدراء بها فى المجالات الدولية العالمية .

١ ـ فهناك الدعوة إلى أن القرآن :

ا) كتاب مسيحى يهودى نسخه محمد .

ب) وأن الإسلام دين مادى لا روحية فيه ، يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة.

ج) وأنه أى الإسلام يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين عامة .

د) كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق فى الملذات الدنيا .

٢ ـ وهناك الدعوة إلى :

(ا) أن الفلسفة العربية فكر يونانى ، كتب بأحرف عربية .

(ب) وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم، وبدلا منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضا عن الأحرف العربية.

٣ - وهناك الدعوة إلى :

(ا) إحياء الفرعونية فى مصر.

(ب) والآشورية فى العراق.

(ج) والبربرية فى شمال إفريقية.

(د) والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان.

(ه) وإلى تفضيل الفارسية - كلغة آرية - على العربية كلغة سامية.

(و) وإلى أن الذى حمل أمارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهاية القرن التاسع عشر، وكذا فى الشرق الإسلامى، وحمل مظاهر الحضارة عامة - هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الأمريكيين فى سوريا.

(ز) وإلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمال إفريقية والأندلس.

٤ - وهناك الدعوة إلى :

(ا) التنفير من حياة المسلمين الحاضرة ؛ لأنها حياة بدائية ذليلة.

(ب) وإلى أن السبب فى ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها.

والتبشير والاستشراق فى ذلك سواء، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة « البحث »، وادعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى »، بينما بقيت دعوة التبشير فى حدود مظاهر « العقلية العامة »، وهى العقلية الشعبية.

استخدم الاستشراق : الكتاب، والمقال فى المجلات العلمية، وكرسى التدريس فى الجامعة، والمناقشة فى المؤتمرات « العلمية » العامة.

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء. كما سلك سبيل العمل « الخيرى » الظاهرى فى المستشفيات، ودور الضيافة، والملاجئ للكبار، ودور اليتامى واللقطاء ولم يقصر التبشير فى استخدام « النشر والطباعة » وعمل « الصحافة » فى الوصول إلى غايته.

إن البلاد العربية والإسلامية فى يقظتها الحالية تتعثر فى خطاها نحو التماسك الداخلى، ونحو تقوية العلاقات بينها، بسبب الرواسب التى تخلفت عن التبشير والاستشراق، وبسبب آخر له وزنه وأثره فى هذا التعثر وهو « ضعف المواجهة » التى يلقاها فى البلاد الإسلامية هذان العاملان القويان فى تركيز الاستعمار، وبعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عربى وإسلامى.

والمؤسسات الإسلامية - على تعددها

وتنوعها - لم تعرف تماما حتى الآن «وضعية» التبشير والاستشراق فى توجيه الشعوب العربية والإسلامية ، حتى تحاول أن تلقاها ، فضلا عن أن يكون لقاؤها إياها قويا أو ضعيفا .

١ — فالأزهر - وهو أكبر المؤسسات الإسلامية فى الشرق العربى والإسلامى - لم يخرج برسالته عن أن يكون ترديداً لتفكير القرون الوسطى فى مواجهة بعضهم بعضا كأحزاب وأصحاب مذاهب فقهية وكلامية أو شعوبية (سنة وشيعة) أو ترديدا لتفكير المتأخرين الذين سلبوا الإنسان أخص مقوماته فى الدنيا وهى ميزة الحياة .

٢ — وجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، هى تقليد لجمعية الشبان المسيحيين فى جانب ، وابتعاد عنها فى أهم جانب من جوانب رسالتها ، تقلدها فى ممارسة الرياضة ولكنها لا تقلدها فى جعل الرياضة وسيلة من وسائل التربية والإيمان ، كما تفعل جمعية الشبان المسيحيين اما ما يلقى فيها من محاضرات ، أو يعقد فيها من ندوات ، فينقص هذه وتلك عنصر الإيمان ...

٣ — وجمعية التعريف الدولى بالإسلام (التى تعقد اجتماعاتها بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة) هى جمعية طابعها شخصى ، أكثر من أن يكون حملا لرسالة وبعثا لها ، أو نشراً لمبادئها فى بلاد العالم ، كما هو المفهوم من اسمها وصفاتها .

٤ — ومعهد الدراسات الإسلامية (بالروضة بالقاهرة) معهد حديث النشأة لم يتميز اتجاهه بعد ، هل هو علمانى على نحو أسلوب الدراسة العلمانية فى التراث الإسلامى التى أدخلها علماء التبشير والاستشراق فى الجامعات المصرية ، أم هو تقليدى على نحو مايفعل الأزهر فى طريقته .

* * *

إن رواسب التبشير والاستشراق التى أشرنا إليها فيما مضى لا تتمثل فقط فى المؤسسات التبشيرية المختلفة الظاهرة فى مصر والبلاد العربية والإسلامية . بل هناك أيضاً مؤسسات أخرى فى مصر لا يرى منها التبشير وإن كانت لا تخفى هدف الاستشراق . ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر - المؤسسات الآتية :

١ — المعهد الشرقى بدير الدومنيكان ، بشارع مصنع الطرابيش .

٢ — ندوة الكتاب ، بشارع سليمان باشا .

٣ — دار السلام ، بكنيسة دار السلام بمصر القديمة .

٤ — المعهد الفرنسى بالمنيرة .

فكل هذه المؤسسات تخضع للاتجاه الكاثوليكى فى بحث الإسلام وتراثه وتخضع كذلك للنفوذ الفرنسى . والذين يعاونونها من المصريين هم أصحاب الثقافة الفرنسية

ممن درسوا فى فرنسا الآداب الشرقية والثقافة الإسلامية ، وبرعاها ، كأب روحى ، المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقية .

والذين يعاونون هذه المؤسسات من المصريين المثقفين فى فرنسا والدارسين للآداب الشرقية العربية أو للتراث الإسلامى الثقافى ـ يزداد خطرهم كلما اتصل شأنهم واتصلت مشورتهم بتوجيه الأدب ، أو الثقافة فى مصر . ولذا كان من السهل أن نفهم الغاية من عملهم إذا قرأنا هذا الخبر التالى فى جريدة يومية ، صادراً عن مصلحة حكومية ، يسيطر عليها بعض هؤلاء ممن وصفنا . وعنوان الخبر : «إصدار سلسلة كتب عن تاريخ الدين الإسلامى» وتحت هذا العنوان كتبت جريدة الأخبار بتاريخ ١٥ أكتوبر من عام ١٩٥٧ ما يلى :

« وضع المجلس الأعلى للفنون والآداب مشروعا لإصدار سلسلة من الكتب : بعضها مترجم عن كتب المستشرقين والبعض الآخر يؤلفه كتاب مصريون عن تاريخ الدين الإسلامى والأطوار التى مر بها فى عهود الاستعمار . وسيبحث المجلس الأعلى للفنون والآداب فى جلسته يوم السبت القادم هذا المشروع للبدء فى تنفيذه » .

إنه من غير شك أن هناك من له نفوذ فى هذا المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وهو من عملاء التبشير والاستشراق ، ويروج لرسالة التبشير والاستشراق ، وهى رسالة الاستعمار ، دون أن يكون فى نفسه أى أثر وطنى يعوقه عن هذا الترويج . فنحن سنرى فى الكلام عن الاستشراق ، فى هذا البحث ، ما يؤكد أن هدف المستشرقين فى كتبهم عامة وقاطبة هو التوهين للقيم الإسلامية ، وتفتيت الشعوب العربية والإسلامية فى علاقاتها وصلات بعضها ببعض .

ما نقترحه على المؤتمر الإسلامى :

إن المؤتمر الإسلامى ـ كمؤسسة إسلامية ناشئة ـ عليه إزاء التبشير والاستشراق .

أولا : أن ينقى الحياة المصرية والعربية والإسلامية من رواسب هذين العاملين فيبعد عملاءهما من حياة التوجيه فى مصر فى جوانبها المتعددة ، ويكون ذا صلة وثيقة بوزارة التربية والتعليم فى الإشراف على حياة مصرية إسلامية أفضل فى مدارس المبشرين ـ وهى المدارس الدينية التابعة للفاتيكان فى طوابعها المختلفة ، من فرنسية وإيطالية وأسبانية وألمانية وهلجرا . . . ، وعلى صلة وثيقة بالصحافة ووزارة الإرشاد القومى فى توجيه القلم والكتاب .

ثم عليه ثانيا : أن يصوغ من المؤسسات التعليمية الإسلامية ـ كالأزهر ـ جهازاً قويا يلقى به كتب المستشرقين ، وبحوثهم فى مجلاتهم ومؤتمراتهم ، فى الرد عليهم وشرح القيم الإسلامية ، وتقوية أواصر القربى بين الشعوب العربية والإسلامية .

ثم عليه ثالثا : أن يخرج للمسلمين عاجلا فى مشارق الأرض ومغاربها :

١) « دائرة معارف إسلامية » يكتبها علماء مسلمون متمكنون فى فهم التراث الإسلامى من جميع بلاد العالم الإسلامى ، وتكون مرجعا للجوانب الثقافية العديدة .

٢) وأن يقر « ترجمة » فى كل لغة من اللغات التى ترجم إليها القرآن فعلا ، بعد مراجعتها مراجعة دقيقة ، من علماء لهم سعة اطلاع فى التفسير والعلوم الإسلامية .

٣) وأن يخرج « قاموسا » للفقه الإسلامى ، على نمط القواميس العلمية الحديثة فى الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والاقتصاد . . . يكون مرجعا سريعا لمعرفة المصطلحات الفقهية ومدلولاتها فى المذاهب الفقهية المختلفة .

والفرق بينه وبين « دائرة المعارف الإسلامية » أن هذه لا تقصر موضوعاتها على الفقه ، بل تعالج جوانب التراث الإسلامى كلها كموسوعة علمية عصرية . أما القاموس فمهمته التعريف فى صورة مجملة سريعة ، علمية منظمة بالفقه الإسلامى . والمسلم المعاصر وبالأخص فى البلاد التى تعرف اللغة العربية ، فى حاجة ماسة إلى مثل هذا القاموس .

٤) وأن يصدر « مجلة » تتتبع بحوث الاستشراق التى يوردها الغرب الصليبى للشرق الإسلامى فى الوقت الحاضر ، سواء فى كتبه عن التراث الإسلامى أو فى بحوث مجلاته العديدة التى تعنى بهذا التراث ، وبوضعية المسلمين وتوجيههم . وحركة الغرب فى توريده لهذه البحوث حركة ضخمة وسريعة ، كما يرى من الدوريات التى تنشرها الجمعيات الاستشراقية فى مختلف بقاع العالم بلغات مختلفة ، ومن الكتب التى تصدرها دور الطباعة الكبيرة فى عواصم أمريكا الشمالية وانجلترا وفرنسا . والكشف المرفق بالفصل الثانى فى هذا البحث يعطى صورة تقريبية ولكنها صورة مزعجة للموجهين فى العالم الإسلامى .

وإذا ابتدأ المؤتمر الإسلامى بالقاهرة فى مواجهة « الاستشراق » مواجهة سافرة ـ وليس هناك حتى اليوم أية مؤسسة إسلامية فى العالم الإسلامى تقوم بهذا الدور ـ فستظهر له سبل أخرى يرى لزاما عليه أن يسلكها كى يصل إلى هدفه وهو :

إعادة تقييم القيم الإسلامية فى نفوس المسلمين ، وفى نفوس الرأى العام العربى .

التبشير

(أ) هدف التبشير :

سنرى فيما بعد أن الاستشراق لون من ألوان التبشير لاءم نفسه مع ظروف الحياة. وإذا كان الاستشراق نوعا من أنواع التبشير فتعرف هدف التبشير نفسه يعطينا بالتالى صورة عن هدف الاستشراق. ولن نحاول هنا أن نذكر شيئا مستنتجاً من قراءة أو دراسة لهذا الموضوع. وإنما سندع النصوص الثابتة لزعماء المبشرين تعبر عن هذا الهدف :

١ — يقول لورانس براون Lawrance brown : « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا. أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير »[١].

ويفصح القس « كالهون سيمون » عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين التى عبر عنها « براون » فيما قبل، بقوله : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية. ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات. ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها »[١].

فوحدة المسلمين إذن فى نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن، ويجب أن يكون هدف التبشير هو التفرقة فى توجيه المسلمين واتجاهاتهم. والتبشير، إذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين، يرى بالتالى درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوربية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين. وفى هذا المعنى يقول لورانس براون Lawrance brown : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى »[٢].

وتقول مجلة العالم الإسلامى الانجليزية The Muslim world : « إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب منها : أن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائما فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام

---

(١) فى كتابه « الإسلام والإرساليات Islam and missions » ص ٤٤ — ٤٨.

(١) كتاب « التبشير والاستعمار » ص ٣٢.

(٢) فى كتاب أصدره فى عام ١٩٤٤.

ليس دينا فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعبا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيا » (١) .

٢ — وهناك بجانب تفتيت وحدة المسلمين — كهدف للمبشرين — هدف آخر هو التنفيس عن الصليبية وعن الانهزامات التى منى بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان أنفقوهما فى محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدى المسلمين الهمجيين !! . يقول اليسوعيون : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح ؟ (٢) » .

٣ — وبجانب هذا وذاك يرى المستشرق الألمانى بيكر Becker : « أن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » (٣) .

وإذن هدف التبشير هو تمكين الأوروبى المسيحى من البلاد الإسلامية . والأسباب التى ذكرها هؤلاء المبشرون هنا توصل جميعها إلى هذا الهدف . فسواء أكان التنفيس عن هزيمة الصليبية ، أم الرغبة فى الانتقام من الإسلام لأنه قام فى القرون الوسطى فى وجه المسيحية . أم توهين المسلمين وتمزيقهم فى التوجيه والاتجاه — هو السبب المباشر فى التبشير فإن نتيجته حتما وعلى أى وضع هى ما ذكرنا من تمكين الأوروبى المسيحى من المسلم الشرقى ومن وطنه .

وهنا يبدو واضحاً أن التبشير مقدمة أساسية للاستعمار الأوربى ، كما أنه سبب مباشر لتوهين قوة المسلمين . « ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها إلى تلك البلاد . بل لقد كان ثمت ما هو أعظم من هذا عندها : لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلا على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسط الأجنبى » (١) .

(ب) تصوير المبشرين للإسلام والمسلمين :

وطريق التبشير لتوهين المسلمين لم يكن الدعوة إلى المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين إلى النصرانية مباشرة ، وإنما كان طريقه تشويه الإسلام ، ومحاولة إضعاف

(١) عدد يونية سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامى » .
The political geogrephy of the Mohammadan world

(٢) « التبشير والاستعمار » ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

قيمه ، ثم تصوير المسلمين فى وضعهم الحالى بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضارى فى عصرنا الحاضر .

فالمونيسنيور كولى فى كتابه « البحث عن الدين الحق » يصور الإسلام على هذا النحو : « الإسلام : فى القرن السابع للميلاد ، برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب.

لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق.

ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب .

ووعد الذين يهلكون (يستشهدون فى سبيل الله) فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات (الجنة) .

وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له ، حتى إيطاليا هددها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا .

لقد أصيبت المدنية .

ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول فى الأكثر كلاب النصارى ...

ولكن انظر ! ها هى النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سدا فى وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه (٧٥٢ م) . ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) فى سبيل الدين ، فتدجج أوروبا بالسلاح ، وتنجى النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الإنجيل على القرآن ، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة » [١] .

ويقول و . س . نلسون W.S. Nelson « وأخضع سيف الإسلام شعوب إفريقيا وآسيا شعبا بعد شعب » [٢] .

هذا فى وصف الإسلام ووصف مبادئه أما محمد رسوله فيقول عنه أديسون Addison « محمد لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن فى خياله منها إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذى جاء به للعرب » [٣] .

وفى وصف المسلمين يقول هنرى جيسب Henry Jessup المبشر الأمريكى: «المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها ... إنهم لصوص ، وقتلة ، ومتأخرون ، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم » [٤] كما يقول فى وصفهم جوليمين H. Guillimain فى كتابه « تاريخ فرنسا » : إن محمدا ، مؤسس دين المسلمين ، قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو .

---

(١) ص ٢٢٠ طبع ١٩٢٨ . وقد نال هذا الكتاب رضا البابا ليون الثالث عشر فى سنه ١٨٨٧ وعاش فى المدارس المسيحية فى الشرق والغرب إلى اليوم.

(٢) « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر السابق فى نفس الصحيفة .

ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين (المسلمين) وبين النصارى ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم .

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » (1) .

وهكذا : المسلمون متأخرون ، ولصوص وقتلة .

وهكذا : رسولهم سارق ومحرف فيما سرق.

وهكذا : الإسلام دين السيف، وليس دين الإيمان. هو دين مادى وليس دينا روحيا لأنه يسمح لأتباعه بالفجور والسلب والقتل.

هذا ما يصور به التبشير الإسلام والمؤمنين به والتابعين لرسوله . على أنه لم يفت المبشرين كذلك — بجانب تشويه الإسلام والمسلمين بغية توهينهم وإضعاف وحدتهم — أن يثيروا للغاية نفسها النزعات الشعوبية ، مثل الفرعونية فى مصر ، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان ، والآشورية فى العراق ، والبربرية فى شمال إفريقيا وهكذا ...

(ح) سبل المبشرين إلى بلوغ غاياتهم :

وتنوعت أساليب التبشير فى توصيل هذا التصوير المشوه للإسلام ورسوله والمسلمين ، إلى أجيال المسلمين جيلا بعد جيل منذ أن استقر فى الشرق العربى والإسلامى . فكانت :

١ — المدرسة - الكلية - الجامعة .
٢ — الندوة - الرياضة .
٣ — المنزل .
٤ — الكتاب .
٥ — الصحافة .
٦ — المخيم .
٧ — المستشفى .
٨ — دار النشر والطباعة .

وإن من أشهر المؤسسات التعليمية فى الشرق العربى جامعة القديس يوسف فى لبنان ، وهى جامعة بابوية كاثوليكية « وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية » .

والجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت من قبل تسمى « الكلية السورية الإنجيلية » ، ثم كلية بيروت . وقد أنشئت فى عام ١٨٦٥ ، وهى جامعة بروتستانتية .

والكلية الأمريكية بالقاهرة التى أصبحت فيما بعد « الجامعة الأمريكية » وقد كان القصد من إنشائها أن تكون قريبة من المركز الإسلامى الكبير وهو الجامع الأزهر .

وكلية روبرت فى استنبول التى أصبحت تسمى « بالجامعة الأمريكية » هناك .

والكلية الفرنسية فى لاهور ، وأسست

---

١) ص - ٨ — ٨١ من كتابه .

فى لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامى فى تكوينه فى شبه القارة الهندية.

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى بيروت فى عام ١٩٠٩ ، رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة — يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها. ونص هذه المادة ما يلى :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى. هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية . وهم أنشئوا المستشفى وجهزوه . ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ، ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده . فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ... وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه » .(١)

كما أعلن مجلس أمناء الكلية فى هذه المناسبة : « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ، ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحى ، وللتأثير المسيحى ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به »(٢).

« يتبع »

وكما يستخدم المبشرون دور التعليم — بعد أن يموهوا بأسمائها على الرأى العام — للتبشير ، يستخدمون كذلك الوسائل الأخرى التى أشرنا إليها هنا سابقاً ، للغاية نفسها ، وبالأخص الصحافة . فكتاب « التبشير والاستعمار » يذكر نقلا عن مصادر التبشير ما يلى :

« يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر . لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان أو بلا أجرة فى أحوال نادرة »(١).

والمبشرون يسيرون فى تحقيق هدفهم وفق خطط معينة مدروسة يجتمعون من أجلها بين الحين والحين . ولذلك نرى أنهم عقدوا عدة مؤتمرات لهذه الغاية . فعقدوا مثلا :

(١) مؤتمر القاهرة فى عام ١٩٠٦ .
(٢) ومؤتمر بيروت فى عام ١٩١١ .
(٣) ومؤتمر القدس فى عام ١٩٢٤ .
(٤) ومؤتمر القدس فى عام ١٩٣٥ .

وفى كل مؤتمر من هذه المؤتمرات تدرس المشروعات وتوضع الخطط ثم يجرى تنفيذها فى سرية تامة وبهمة دائبة .

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر

(١) « التبشير والاستعمار » ، ص ١٠٨ .
(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٤ —

من القضايا الهامة التي اختلف فيها «الفاروق» مع «الصديق» رضى الله عنهما ، قضية قتال مانعى الزكاة ، وهى قضية مشهورة ، ذكرها أصحاب السير كما ذكرها أصحاب المسانيد فى كتبهم ، والظروف التى وقعت فيها هذه القضية كانت ظروفا عصيبة ، إذ كان الخطر يتهدد فيها كيان الدولة الإسلامية ، وكانت بمثابة أول تجربة يمر بها الإسلام بعد وفاة الرسول وتولى أبى بكر الخلافة من بعده :

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب ، وتحركت رءوس النفاق بالمدينة ، وظن حزب الشيطان الذين كانوا يتربصون بالمسلمين دوائر السوء ، أن الفرصة قد واتتهم ، ويحدثنا التاريخ بأن بنى حنيفة وخلقا كثيراً باليمامة قد انحازوا إلى مسيلمة الكذاب ، وأن بنى أسد ، وطيأ ، وكثيرا من الناس التفوا على طلحة الأسدى .. إلخ . فعظم الخطب ، واشتد على المسلمين الأمر ، وصادف ذلك أن الصديق رضى الله عنه كان قد أنفذ جيش أسامة ، فقلّ الجند فى المدينة وساورت المطامع فيها كثيرا من الأعراب ، وراموا أن يهجموا عليها ، وجعلوا يتحينون الفرصة لذلك ، بل جعلوا يعملون على خلقها .

فماذا كان موقف الصديق رضى الله عنه من ذلك ؟ إنه استيقظ لهذه الفتنة ، وشمر لها عن ساعد الجد ، فلم ينم عنها ولم يضعف ! .

وكان أول ما فعله أنه جعل على مداخل المدينة حراسا يبيتون بالسلاح حولها ، وجعل على كل حرس منهم أميرا ، وكان من هؤلاء الأمراء على بن أبى طالب ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود .

ثم ألزم أبو بكر أهل المدينة بحضور المسجد ، والمرابطة فيه ، حتى يكونوا مستعدين للدفاع عن المدينة فى كل وقت ، ولا يحتاجوا إلى قضاء زمن طويل فى التجمع ربما ضاعت معه الفرصة ، وهذا أشبه بما نسميه اليوم «بالتعبئة العامة» التى يعلنها رئيس الدولة عند الإحساس بقرب الخطر .

وقد صح ظن أبى بكر ، وصدق إحساسه ، إذ قدمت وفود العرب إلى المدينة ، كأنها تريد أن تستكشف أحوالها ، وتعرف مدى تأهبها ، وتحاول أن تعمل على خلق الفتنة فيها ، فجعلوا يقرون بالصلاة ، ويمتنعون من أداء الزكاة ، وإنما يريدون بإقرارهم بالصلاة التمويه على جمهور المسلمين بالظهور بمظهر المؤمنين المصلين ، وأن يتحرج المسلمون من قتلهم وقتالهم ، إذ كان معروفا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأبى أن يقتل المصلين(١) .

كما كانوا - إمعاناً فى التمويه - يُخَرِّجُونَ امتناعهم عن أداء الزكاة لأبى بكر ، لأن الله لم يوجب علينا أداء الزكاة إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » فالمخاطب بهذه الآية هو رسول الله ، والذى صلاته سكن لنا هو رسول الله ، فنحن لا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا .

دخلت المدينة هذه الوفود ، وأذاعت فيها هذه القالة الماكرة ، فجمع أبو بكر الناس - وكان من عادته التى اقتبسها عمر عنه من بعده ، أن يجمع الناس ويشاورهم - فوجد القوم متأثرين بروح هو مزيج من الإشفاق على الإسلام فى هذه الظروف العصيبة ، ومن التقبل لهذا التخريج على وجه ما ، ومن إيثار الصبر على هؤلاء المتمردين حتى يشتد أمر الدولة ، وتثبت قدم الخلافة ثم يأتى الوقت المناسب لتأديبهم وردهم إلى الطاعة .

هكذا كان رأى الكثرة ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وطبعا لم يكن هناك تسجيل لما قيل فى هذا الاجتماع ، حتى نعرف منه عدد الموافقين لأبى بكر والمخالفين له ، والوجهة التى كانت لكل من الفريقين ، غير أن العبارات التى جاءت بها الرواية المشهورة التى رواها الجماعة فى كتبهم سوى ابن ماجة تثبت أن عمر بن الخطاب قال موجهاً الكلام لأبى بكر : علام تقاتل الناس وقد قال رسول

---

(١) أخرج البخارى فى باب بعث على وخالد إلى اليمن من صحيحه : أن رجلا قام فقال : يا رسول الله اتق الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك : ألست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ فقال خالد : يا رسول الله . ألا أضرب عنقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ، لعله أن يكون يصلى .

ونقل العسقلانى فى ترجمة سرجون المنافق فى الإصابة أنه أتى به ليقتل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يصلى ؟ قالوا : إذا رآه الناس ! قال : إنى نهيت عن قتل المصلين .

وأخرج الذهبى فى ترجمة عامر بن عبد الله بن يسار من ميزانه عن أنس رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقيل : ذلك كهف المنافقين ! فلما أكثروا فيه رخص لهم فى قتله ، ثم قال : هل يصلى ؟ قالوا : نعم ، صلاة لا خير فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى نهيت عن قتل المصلين .

الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ » .

فهذا الأسلوب من عمر رضى الله عنه فى الاعتراض على أبى بكر لا بد أن يكون ذروة وصل إليها النقاش والجدال فى الأمر ويغلب على الظن ، أنه سبق بمحاولات كثيرة لإقناع أبى بكر .

ومما يدل على ذلك ترجيحاً ، مارد به أبو بكر رضى الله عنه إذ قال : « والله لو منعونى عناقا » — وفى رواية « عقالا » كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

فهذا القسم الصارم ، وهذا القول الحاسم ، لا بد أن يكون فى مقابلة رأى بدا له أن الكثرة تميل إليه ، وأن أمر هذا الرأى سيعظم ويقوى بوجود مثل عمر فى جانبه ، وهذا هو مادعا أبا بكر إلى أن يحسم الخلاف بإصدار قراره الخطير الذى كان له أعظم الأثر والبركة فى حفظ دين الله ، وتوطيد دولة الإسلام ، ولولاه لتغير وجه التاريخ ! .

* * *

ولنا بعد هذا العرض أن نلقى على الموضوع النظرة التى عقدنا لها هذا الفصل ، فنقول :

هل يلتئم موقف كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى هذه القضية مع شخصيتيهما ؟ .

وبأسلوب آخر : كيف وقف أبو بكر فى هذه القضيـــة موقفاً شديداً فيه عنف وقسوة ، وهو ذلك الرجل الحليم الوديع اللين القلب ؟ وكيف وقف عمر فى القضية نفسها موقف المشير باللين مع هؤلاء المانعين للزكاة ، والرضا منهم بذلك ، وهو الرجل القوى فى الحق ، الذى لا يخاف فى الله لومة لائم ؟ .

وبأسلوب ثالث : إن عمر لم يكن فى يوم من الأيام أسيراً لحرفية النصوص ، بل المعروف عنـــه أنه يغوص فى أعماقها ، ويستكشف روحها وسرها ثم يقضى قضاءه ، فكيف غاب عنه ما عرفه أبو بكر من أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » . إلخ . لا يتعارض مع قتال قوم منعوا الزكاة التى هى ركن من أركان الإسلام ، وكيف غفل عما فطن له أبو بكر من المعنى الذى ينطوى عليه قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إلا بحقها » ، وهو يدل على استثناء مثل هؤلاء الذين منعوا الحق المالى من عصمة النفس والمال المذكورتين نصا فى الحديث ؟ .

والجواب الذى يمكن أن يتخذ أساساً فى الرد على هذا كله هو أن يقال :

إن نظرة هذين الإمامين الجليلين فى هذه القضية قد اختلفت بسبب اختلافهما فى تكييف المقصود من الزكاة ، وتكييف الصنيع الذى ارتكبه المانعون لها :

فمن الجهة الأولى نرى أن الزكاة فريضة مالية لها شبه بالعبادة من وجه واضح ، وهو كونها ركنا من أركان الدين ، يقصد وجه الله بها ، ويتقرب إليه بأدائها كما يتقرب إليه بالصلاة والصيام والحج والإقرار بالوحدانية له ، والرسالة لنبيه ، ولها شبه من وجه آخر بالحقوق التى تجب على الأفراد والتى تلزمهم بها الدولة إن لم يؤدوها .

ويدل على المعنى الأول قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، فقد ذكر الله تعالى التطهير والتزكية جوابا للأمر فى قوله « خذ » ، والتطهير والتزكية هما المقصودان بالعبادة ، ولذلك قال بعض الفقهاء إن الزكاة لا تقع صحيحة إلا إذا أخرجها المزكى بنية ، لأنها عبادة والعبادات يشترط فيها النية .

ويدل على المعنى الثانى مثل قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها » . . الآية وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن : « وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم » فالآية فيها التعبير باللام التى تدل على الملكية : « والحديث فيه التعبير بلفظ « تؤخذ » و « ترد » الذى يدل على أن هذه وظيفة على المال يتقاضاها ولى الأمر من قوم ، ويردها إلى آخرين ، وذلك شأن الحقوق .

فعمر بن الخطاب نظر إلى شبهها الواضح بالعبادة ، ورأى أن العبادات موكولة إلى الأفراد ، كل منهم مسئول عنها أمام الله ، ويسر له هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » . . إلخ . فهنا غاية للقتال مصرح بها ، ثم أكدت باستئناف كلام آخر هو قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فهو تصريح آخر بعصمة الدماء والأموال لمن يشهد بكلمة الإسلام ، ثم جاء بعد ذلك تأكيد ثان لهذا المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « وحسابهم على الله » فهذه الجملة الأخيرة دالة على أن من قال كلمة الإسلام فقد عصم بها دمه وماله ويترك حسابه على الله ، أى أن حسابه على صدقه فى هذه الكلمة أو كذبه إنما يكون على الله ، لا على الدولة ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » .

وقد يسأل سائل فيقول مثل ما قال أبو بكر رضى الله عنه : أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إلا بحقها » ؟ .

فيجاب بأن الضمير فى قوله : « إلا بحقها » راجع إلى كل من الدماء والأموال ما فى ذلك شك ، ولكن على المعنى الذى يلائم كلا منهما ، فالدماء معصومة إلا بحقها ، أى أنها لاتهدر إلا بما شرعه الله لإهدارها كالقصاص أو البغى مثلا ، وكون منع الزكاة موجباً لإهدار الدم كان محل النزاع يومئذ بين أبى بكر ومن خالفه ، وما زال محل النزاع فى الفقه حين يكون المنع مع الإقرار بالوجوب ، لا جحدا ، وكذلك الأموال معصومة إلا بحقها ، أى أنها لا تستباح إلا بما أباحه الله ، كتقاضى الديون قهرا ، أو أرش الجنايات ، أو عوض المتلفات . . إلخ . وليس منها فى رأى هؤلاء : الزكاة التى هى عبادة موكولة إلى العبد بينه وبين ربه ، وحسابه فيها على الله .

هذه هى وجهة الرأى الذى كان يقول به عمر ومن وافقه ، ولذلك نجد عمر متمشياً مع هذا الروح فيما رواه مالك فى الموطأ عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم من أنها قالت : « مر على عمر بن الخطاب بغنم من الصدقة فرأى فيها شاة حاملا ذات ضرع عظيم ، فقال عمر : ما هذه الشاة ؟ فقالوا : شاة من الصدقة ، فقال عمر : ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون ، لا تفتنوا الناس ! لا تأخذوا حزرات المسلمين » جمع حزْرة ، وهى من كل شىء خياره .

وهذا يتلاقى أيضا مع ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصيته لمعاذ : « وإياك وكرائم أموالهم » ، ومع قول عمر لمن بعثه : « ولا تأخذ الأكولة ، ولا الرُّبَّى ، ولا الماخض ولا فحل الغنم » قال مالك : « الربى هى التى وضعت وتربى ولدها ، والماخض هى الحامل ، والأكولة هى شاة اللحم التى تسمن لتؤكل » .

كل هذا يدل على نظرة عمر إلى الزكاة وأنها عبادة تعتمد السماحة ، وليست محض وظيفة على المال تتقاضى بعنف وتعسير .

أما أبو بكر رضى الله عنه فمع عرفانه بصفتها العبادية نظر إلى أمرين : أولهما : شبهها مع ذلك بالحقوق التى تجب فى الأموال وكونها حقا فى مال الغنى للفقير فلا بد أن يؤخذ ، وثانيهما : كونها شعيرة من الشعائر الإسلامية التى يقاتل الناس على تركها كالأذان مثلا فإن الأذان مع كونه سنة ، هو شعيرة من شعائر الإسلام ، ولذلك يقرر المالكية أنه إذا اتفق أهل محلة على ترك الأذان قوتلوا ، وهذا شبيه بما هو معروف فى عصرنا الحاضر من أن للدول شعارات لا تفرط فى أمرها ، فقد تقع الحرب مثلا لأن علم دولة من الدول قد أهين .

وفى بعض ما يروى عن أبى بكر نفسه :

أن مما أوصى به مبعوثيه فى حروب الردة قوله : « والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ماعليهم فإن أبوا فعاجلوهم » (١) .

ثم إن أبا بكر رضى الله عنه نظر إلى الأمر من ناحية أخرى بعين رئيس الدولة اليقظ ، وبحاسة رجل الحكم الذى يشعر بما حوله من مؤامرات وتدبير ، وقد قدمنا الظروف التى كانت تحيط بالمدينة فى ذلك العهد ، وأن المنافقين والطامعين نشطوا للعبث ، واتخذوا لإثارة الفتنة عدتهم فكان منها أنهم يثيرون مثل هذا التشكيك فى وجوب الزكاة عليهم لأبى بكر كوجوبها للرسول الذى صلاته سكن لهم ، وهم أدرى الناس بأن هذا كلام ساقط لا يمليه إلا الرغبة فى الجدال ، وصرف الأذهان عما يبتغونه من الفتنة ، لحصافة أبى بكر كحاكم مجرب فطن ، وفراسته كمؤمن ، وحرصه على سحق عناصر هذه الفتنة التى بكرت على المسلمين بعد وفاة الرسول ، كل ذلك جعله يقرر قتال المانعين للزكاة ، فإن ذلك إذا لم يكن حقا عليه دفاعا عن فريضة دينية ، فإنه حق لاستقرار الدولة ، ولاستقرار شعار الإسلام فيها :

ولهذا أرجح أن رجوع عمر إلى رأى أبى بكر كان بعد أن أقنعه بذلك ، وهو ما جاءت به الرواية الصحيحة فى آخرها كمرحلة أخيرة للنقاش بينهما ، إذ تقول : قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

ونستطيع أن نقول بعد ذلك : إن عمر كان على طبيعته وأسلوبه وشخصيته ، حين خالف أبا بكر وهو الخليفة ، لأنه كان مؤمنا بمعنى غير المعنى الذى فى نفس أبى بكر ، فلما تجلى له المعنى الذى رمى إليه صاحبه ، لم يمنعه عن قبوله كبر ولا شعور بحرج ، لأنه قوى ، والقوى لا تتولد فيه عقدة الضعف التى من شأنها أن تثنيه عن قبول الحق إذا تبين ، خوفا من أن يقول الناس عنه : لقد كان مخطئا .

ثم نقول أيضا : إن أبا بكر كان على سجيته وأسلوب شخصيته ، إذ أنه كان قوى الإيمان حين يؤمن ، وكان فى تمهله وتريثه كثيرا ما يقف من عمر موقف المثبت له ، المطفئ لجذوة حماسته حين تدعو المصلحة إلى هذا الإطفاء والتثبيت ، كما كان يفعل معه أستاذهما الأعظم وأستاذ الإنسانية كلها ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ؟

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

---

(١) ص ٣١٦ ج ٦ من البداية والنهاية لابن الأثير .

نفحات القرآن

فى وصايا القرآن دعم لنظام المجتمع

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها .
(ب) وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى .
(ج) وبعهد الله أوفوا - ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

هذه أوامر ثلاثة ، وردت فى سياق الوصايا العشر - من سورة الأنعام - لتربية الناس تربية قيمة ، فيها صلاح الدين والدنيا ، وفيها توجيه للإنسانية أن تنهض إلى مستواها المثالى : لو أن الناس حرصوا على هذه التوجيهات وأخذوا بها .

(ا) الأمر الأول - يتعلق بنظام الكيل ، والميزان ، فهما فى التعامل الشائع وسيلة الإيفاء والاستيفاء فى الحقوق المتبادلة كيلا ، أو وزنا ..

وتعلق الناس بالأموال ، وتحفظهم عليها ، ورغبتهم فى التكثر منها ، خصائص طبعنا عليها ، فهى نزعات تلازمنا فى كل حال ، ولا تكاد طبيعتنا تتخلى عن حب المزيد من المال ، ولو كان فى ملك الغير ، ولا تتخلى كذلك عن الضن بالمال ، والإمساك عليه ، ولو كان حقا عندنا للغير .

وقد استبدت هذه النزعات بأمم سابقة حتى أوردتها موارد الهلاك ، وأصبحت مثلا سيئا فى الأولين والآخرين ، وهذه - مدين - أمة شعيب عليه السلام - طاوعت نزعتها ، وأمعنت فى بخس الكيل والميزان ، وفى تطفيفهما ؛ لتشبع من الأموال رغبتها ، وعصوا رسول الله - شعيبا - فيما بلغهم عن ربه ، وفيما نصحهم به من العدل فى الإيفاء ، والاستيفاء ، وسخروا من شعيب ، حتى عاجلهم الله فى دنياهم بصيحة سماوية ، غشيتهم بصواعقها ، فتركت أجسادهم كأكوام من تراب محترق ، بل تركتهم أكواما حقا ، وتركت ديارهم أنقاضا خاوية على عروشها ،

كأن لم تكن بالأمس آهلة بسكانها ، ولم تكن مغانيهم حافلة بهم يطربون ويمرحون .

والقرآن يحيد بنا عن متابعة مدين فى نهمها وجشعها ، والافتتان بالمال ، ونهبه من الغير ببخس الكيل والميزان إذا أعطينا ، أو بتطفيفهما إذا أخذنا .

ولا يحسبن امرؤ أن التلاعب فى الكيل والميزان أمر هين يمكن التسامح فيه ، أو أنه أمر يمكن دائما درؤه بسلطة القانون، وفرض العقوبات ؛ فإن القوانين لا تخلق فى الناس ضمائر تراقبهم ، ولا تنتزع من نفوسهم غرائز تتحكم فيهم ، فإن لم يكن من جانب الله ردع زاجر فى الدنيا كما صنع بمدين ، وكما يبتلى غيرهم بالفقر والحرمان ، ريثما يقتص منهم بأمور أخرى فى دنياهم ، وبعذاب أشد فى أخراهم ؛ نقول : إن لم يكن من جانب الله ردع ، لفلتت الأموال فى تيار جارف من شهوات الجامحين ... ولا ريب فى أن مدار التعامل بين الناس على الكيل والميزان فى أكثر ما يتبادلون .

فبقدر ما يهتز أحدهما عن مستواه الوسط العدل ، يكون الجور فى التعامل ، ويقع الظلم على أحد الجانبين ، ويهتز تبعا لذلك نظام المجتمع من ناحية خطيرة ، هى ناحية التعامل ، أو هى : الجانب الاقتصادى ، وهو الجانب الحساس فى تكافل الجماعة ، وهو جانب لا يقبل الهوادة .

إذ تكون النتيجة الحتمية لهذه الهوادة أن تنعدم الثقة ، أو تضعف بين كل متعاملين ، فتتعثر الحياة الاقتصادية عن نشاطها المرغوب فيه ، وتكون المعاملة مقرونة دائما ، أو غالبا بالتشكك ، وبالحذر ، أكثر مما ينبغى .. وهذا بعيد عن مقاصد الإسلام فيما يريده لأمته من نهوض .

لذلك التعليل الذى قد يغيب عن كثيرين لم ينظر الإسلام إلى مسألة الكيل والميزان على أنها مجرد مسألة روحية ، بل نظر إليها على أنها دعامة ركيزة فى نظام الاقتصاد وميدانه ، وأنها ركن أصيل فى بناء المجتمع .

وما دام الإسلام فى تشريعه لنظم الحياة يحض على العمل المنتج ، ويحث على الأخذ بأسباب القوة : من علم وابتكار ، وكسب واستثمار فهو يعتبر التلاعب فى الكيل والميزان مساسا بمقياس العدالة ، وتطويحا بالثقة التى يجب توافرها ، وصدا للناس عما يتطلع إليه الدين الإسلامى فى أهله من نشاط فى دنياهم ، وأن يقنعوا بما يسر الله لهم من حلاله عن حرامه .

فلا غرو ـ أن يسخط الله على من تعدى حدوده ، وأن يمنع البركة مما كثر عنده ولو تراكم المال عنده ، حتى ينتهى الحرام على كثرته إلى ضآلة ، ثم إلى بوار .

ونحن نشهد بأبصارنا فى واقع الحياة بين الناس ما يؤيد هذا فى غير شبهة ، فكم من متاجر أغلقت!! وكم من مصانع تعطلت!!. وكم من ثروات ذهبت ، وذلك بسبب ما تسرب إلى جميعها من بخس ، أو تطفيف فى الكيل أو الميزان .

ولو أنك تتبعت آيات الكتاب فى شأن الكيل والميزان لوجدتها فى كثرة كاثرة ، ووجدتها مبثوثة فى عدة سور ، حتى إنك لتجد ذكر الميزان أربع مرات فى آية واحدة من سورة الرحمن « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

ومع هذه العناية بشأن الكيل والميزان ، والحض على القسطاس فيهما ـ وهو تمام العدل ـ فقد خفف الله عنا ما لا نستطيعه من الضبط حين العجز عن التحكم فيها ، عند التساوى بالدقة ،فقال تعالى عقب ذلك : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » .

وبيان هذا ـ أن فى صفقات المبيع ما يثقل أو يخف عن المساواة نوعا فيهتز الكيل أو الميزان صعوداً ، أو هبوطا ، دون قدرة على تمام التحرى ـ وهنا يكون الحرج بين الأخذ بالقسطاس ، وبين التسامح فيما زاد أو نقص ، وهو فى ذاته يسير .

فكان من فضل الله على عباده أن تجاوز لنا عما لا يمكن ، وعما يشق التحرز منه : زيادة أو نقصا .

(ب) الأمر الثانى فيما نحن بصدده ـ قوله تعالى : ـ وإذا قلتم فاعدلوا . . ولو كان ذا قربى ـ لم يكن العدل منشوداً فى المبادلة المالية وحدها ، بل فى كل شأن آخر .

وقد جاءت فى هذا التعميم آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » يعنى فى كل شىء .

غير أن الكتاب الكريم أمرنا فى هذا المقام بالعدل فى القول ؛ لأن القول أكثر ما يجرى بين الناس ، فمجاله أفسح ، والألسن دائما فى تخاطب ، وفى أخذ ورد ، وفى مغالبة ، وحوار .

فأمر الله بالعدل فى القول على وجه الإطلاق ، حتى لا تكون أقوالنا متأثرة بالغرض ، ولا يكون للعصبيات أو الخصومات سيطرة على الضمير ، فلا يطغى باطل على حق ، وحينئذ يكون الأدب الإسلامى هو الطابع الواضح ، ويكون الإخاء الإنسانى سائداً بين الناس وتكون هذه الظاهرة كفيلة ببقاء المحبة أو أحفظ لروح التعاطف بين الجماعة من كل محاولة أخرى تراد للمجاملة .

ورعاية العدل فى القول دون تأثر بقرابة ، أو عداوة تدلنا على أن الإسلام يحرص على جانب العدل العام أكثر من حرصه على

البر بالقرابة ، مع ما بلغ من وصيته بذوى القربى ، فهو لا يبيح أن يكون العطف على القرابة خادشا للنظام العام ، بل تطرح العصبيات جانبا ما دام العدل فى غير جانبها ، وكم كان لهذا التوجيه من أثر طيب فى حياة الجماعة يوم كان المسلمون يستمعون ويستجيبون .. فأين نحن الآن من هذا المسلك الذى جذب إلى الإسلام قلوبا متحجرة ؟ .

حـ ـ الأمر الثالث ـ وبعهد الله أوفوا ـ

والعهد معناه : اتفاق بين طرفين على عمل جائز ، فإذا اقترن بفسخ ، أو إشهاد لله فهو عهد الله .

ومعنى العهد كذلك : ما شرع الله للناس من دين يتعبدون به .

وكل ما يلتزمه المرء لله من طاعة كنذر صدقة أو نحوها فهو عهد الله .

وليس من العهد مطلقا ما يكون فساداً أو إضراراً بالغير دون سبب مشروع وفى الوفاء بالعهود منافع للناس وتوثيق للروابط بينهم ، ولذلك شدد القرآن كثيراً فى تكليفنا بالمحافظة على العهود ، حتى اعتبر الإسلام الوفاء بالعهد أمارة الإيمان الصحيح ، واعتبر الغدر بالعهد نفاقا وخروجا عن الإيمان .

ومن البداهة أن امرءا لا يلتزم عهده الصحيح أو لا يخجل من الغدر به لا يكون امرءا كريم النزعة ، ولا مستجيبا لضمير ، ولا مأمونا على شرف .

وأضرار هـذه النقائص ليست فردية وإنما هى ماسة بصالح المجتمع ، وحسبه ما ورد فى شأنه من تشنيع وتهديد .

ونحن نرى نقض العهد مخزاة فاشية كان يجب أن يتنزه عنها المسلمون .

ولكن الجهل وسوء البيئة أوقعا كثيراً من الناس فيما لا يتفق مع أخلاق دينهم حتى خيل لغير الفاهمين أن هذه النقيصة من ناحية التربية الإسلامية .

والإسلام برىء من هذا ونحوه ، وإنما الذنب ذنب من تسموا بالمسلمين، ولم يتعرفوا روح دينهم ولا آدابه .

هذا وقد اعتبرت الأوامر الثلاثة التى تحدثنا عنها ـ وصايا ـ وحينما تحدث عنها القرآن قال : (ذلكم وصاكم به) وحكمة هذا أن الأمر قد يكون فى المندوب غير المحتم .

وأما الوصية فإنها تكون فيما يكون أمراً محتما لا تسامح فيه كهذه الأمور التى تحدثنا عنها والله المسئول أن يذكرنا ما أوصانا به وأن يعلمنا ما جهلنا ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

التشريع الإسلامي بين التشريعات الحديثة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

تمهيد :

يعرف الباحثون عن تاريخ الأمم والشعوب أنه كان لكل مجتمع ، مهما كانت درجته من الفكر والحضارة ، حظه من قواعد قانونية يجرى عليها فى معاملاته وتصرفاته المالية ، وفى الأحوال الشخصية التى تقوم عليها الأسرة من الزواج وما يتصل به ، وفى علاج جرائم المجتمع بوضع العقوبات الزاجرة الرادعة ، وفى غير هذا كله من الشئون ومسائل الحياة ومشاكلها .

نعم . إن هذه المعاملات التى تقوم بين الناس فى أى مجتمع ، وعلاقات بعضهم ببعض ، لا يمكن أن تترك فوضى ينظمها كل فرد وفق رغبته ومشيئته ، وإلا حقت قولة الفيلسوف الفرنسى (بوسويه) : « حيث يملك الكل فعل ما يشاءون ، لا يملك أحد فعل ما يشاء ، وحيث لا سيد ، فالكل سيد ، وحيث الكل سيد ، فالكل عبيد ، وتلك حال لا يتصور أن تكون ، وإن كانت فهى لا تدوم ، إذ ينتهى الأمر إلى أن يكون الحكم للقوة تقضى فى الضعفاء بما تشاء » .

والمجتمع العربى ، فى شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، لم يشذ طبعاً عن هذا الأصل الذى يقوم عليه بقاء الشخص والنوع والاجتماع والعمران . من أجل ذلك ، نعرف من التاريخ أن العرب عرفوا فى جاهليتهم قواعد قانونية كثيرة قام عليها مجتمعهم ، وكان ذلك فى نواح شتى من النواحى التى عالجها الإسلام فيما بعد ، فألغى منها ما لا يتفق والعدل والصالح العام ، وأبقى ما وجده خيرا ، فما كان الإسلام ليغير كل ما كانت عليه الأمة العربية ، حتى ما كان صالحا لبناء مجتمع صالح للحياة الطيبة .

على أنه مهما كان حظ العرب قبل الإسلام من القواعد والمبادئ القانونية فى هذه الناحية أو تلك من نواحى الحياة العملية ، فإننا لا نستطيع أن نزعم أنهم وصلوا من ذلك إلى ما يكفى لتقوم عليه أمة صالحة للحياة ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة للإسلام وشريعته .

أجل ! ظهر الإسلام والعرب ـ بل العالم كله ـ فى أشد الحاجة إليه فآتاهم العقيدة الحقة ،

والشريعة الصحيحة ، والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة ، لتسهم فى بعث العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور ، وكان هذا ما نسميه اليوم بالفقه أو التشريع الإسلامى .

شموله وغناؤه :

والتشريع الإسلامى نظام شامل بلا ريب ، فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته ، فى خاصة نفسه ، وفى صلاته بالله تعالى ، وفى علاقاته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى علاقة الأمة أو الدولة الإسلامية بالدول الأخرى. إنه ينظم كل هذه العلاقات ، وذلك ببيان القواعد التى تهيمن عليها وتحكمها على اختلاف أنواعها .

وذلك يرجع إلى أن الإسلام - على خلاف غيره من الأديان التى سبقته - ليس عقيدة دينية فحسب ، بل هو دين وأخلاق ودولة بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى ومدلول . والواقع يؤيد هذا الذى نقول . فكان لابد إذن من أن يكون فى التشريع الذى جاء به جميع النظم والأحكام التى تقوم عليها كل هذه العلاقات ، من عامة وخاصة ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالفرد أو المجتمع أو الدولة .

ولذلك ، نجد فى هذا التشريع العبادات وأحكامها ، وهذا ما لا يوجد فى أى تشريع آخر قديم أو حديث ، والمعاملات وأحكامها على اختلاف ضروبها ، وبعبارة أخرى ، نجد فى التشريع الإسلامى - فضلا عن أحكام العبادات التى تنظم صلة العبد بربه وخالقه - كل ما يشتمله القانون بقسميه الكبيرين : القانون الخاص ، والقانون العام .

ففيه القانون المدنى الذى يعتبر أصل القانون الخاص بجميع فروعه الأخرى ، وفيه القانون التجارى ، وقانون المرافعات ، والدولى الخاص ، ثم فيه القانون الدولى العام ، والقانون الدستورى ، والقانون الإدارى والقانون المالى الذى يلحق به ، ثم القانون الجنائى[1] .

ومن هذا نرى بوضوح أن التشريع الإسلامى قد عرض لكل مسائل القانون بأقسامه وفروعه العديدة المختلفة ، وهذا أمر بدهى لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليل ، مادام أنه كان تشريعاً كاملا للأمة الإسلامية فى كل أحوالها الداخلية والخارجية ، وكذلك لكل أمة أخرى تريد الخير لنفسها .

على هذا التشريع الشامل لكل أبواب وفروع التشريعات الحديثة ، والغنى بأصوله القوية وأحكامه الصالحة لكل زمان ومكان ،

«١» من الخير الرجوع فى هذا كله إلى كتابنا «الفقه الإسلامى - مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه» ص ١٠٣ - ١١٥ من الطبعة الثانية ، فقد تكلمنا عن ذلك بتفصيل .

قامت الأمة الإسلامية قروناً طويلة ، وأفاد منه الغربيون أنفسهم فى قوانينهم الوضعية أيام كانوا يعتبرون المسلمين عباقرة ومثلاً عليا فى كل شىء ، وبخاصة فرنسا ، فقد استمد القانون المدنى الفرنسى الذى وضع عام ١٨٠٥م الكثير جداً من أحكامه من التشريع الإسلامى على مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه .

وذلك ، بأنه لم تأت سنة مائتين من الهجرة حتى كان مذهب مالك قد ساد فى الأندلس فى الحكم والقضاء ، وهو لا يزال سائداً فى المغرب الإفريقى حتى اليوم ، وكانت بلاد الأندلس مثابة يفد إليها علماء أوربا يغترفون من العلم الإسلامى ويستضيئون بنوره ، وهى مع هذا قطعة من أوربا ، وبذلك يكون التشريع الإسلامى قد حكمت به أقاليم من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا .

وكان من هذا أن انتشر مذهب مالك فى تلك الأصقاع ، وأن استمرت قواعده وأحكامه معروفة فى تلك البلاد بعد خروج المسلمين منها ، فأفاد منه واضعو القانون المدنى الفرنسى حين آن لفرنسا أن تضع لها قانوناً مستقلاً ، وليس على من يريد التأكد من ذلك الذى نقول إلا أن يقوم بشىء من المقارنات بين التشريع الإسلامى وبين القانون المدنى الفرنسى ، هذا القانون الذى هو الأصل الأول لقوانيننا الوضعية الحديثة [1] .

ولكن بعد أن تزحزح المسلمون فى الأزمان الماضية عن قيادتهم للعالم ، وأخذ علماء الفقه الإسلامى بالتقليد فى الأحكام الشرعية ، وقف الاجتهاد فى التشريع ، وانزوى الفقهاء عن الحياة العامة قليلاً أو كثيراً حسب الأزمان المختلفة ، ولولا ذلك ما كنا بحاجة أبداً لاصطناع قوانين لا تتفق وديننا وتقاليدنا ، قوانين يبين من المقارنة أن التشريع الإسلامى يفضلها فى كثير من النواحى .

مقارنات :

يطول بنا الحديث إذا دخلنا فى المقارنات الكثيرة بين التشريع الإسلامى وبين التشريعات الوضعية القديمة والحديثة ؛ ولأن حيز هذا المقال ضيق محدود نكتفى بالبعض منها ، وبذلك يتبين لنا سمو التشريع الإسلامى على غيره من القوانين الوضعية فى نواح كثيرة ليس من اليسير عدها وإحصاؤها .

---

(١) هذا رأى بدأ يأخذ قوة فى أوساط علماء تاريخ القوانين والشرائع المنصفين ، ومع هذا راجع « المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية المدنية والتشريع الإسلامى » للأستاذ سيد عبد الله حسين ، جـ ١ ص ١٧ وما بعدها .

(أ) يرى الأستاذ الدكتور على بدوى ، وهو أحد المصريين الأعلام فى القانون - بحق - أن التشريع الإسلامى له استقلاله عن غيره من التشريعات القديمة ، وأنه يفوق فى كثير من النواحى غيره من التشريعات الحديثة ، ومن ذلك نظام «الحسبة» وهى وظيفة اجتماعية قانونية إسلامية تقابل وظيفة النيابة العمومية اليوم ، ونظام العقاب بالتعزير وهو ترك تحديد العقوبة نوعا ومقدارا للقاضى فيحكم بما يراه تبعا لما يراه من ظروف الجريمة وحالة المجرم ونفسيته ، وهو نظام ، يمتاز به الفقه الإسلامى وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث [١] .

(ب) والدكتور شفيق شحاته الأستاذ بكلية الحقوق يقول فى بعض ما كتبه ، وإذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظم القانونية ، وجدنا التشريع الإسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير بعض المبادئ العظيمة ، ومنها مبدأ انتقال الملكية لمجرد الاتفاق (أى بلا حاجة لإجراءات رسمية وأمور شكلية) ومبدأ سلطان الإرادة (أى إرادة كل من المتعاقدين) [١] .

ومبدأ النيابة التعاقدية ، كما يقول وهو بصدد بحث نظرية النيابة فى العقد بطريق الوكالة أو الفضالة ، ومبدأ النيابة هذا لم يصل إليه التشريع الرومانى إلا بعد جهاد عنيف وهو قد بقى مجهولا من التشريع الفرنسى القديم ، أما الفقه الإسلامى فقد قال بالنيابة التامة ، وبالنيابة التامة إلى حدود بعيدة جدا [٢] .

جـ - والأستاذان الدكتور عبد الرزاق السنهورى والدكتور أحمد حشمت أبو ستيت يقولان فى المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى ، ما يحسن أن ننقله حرفياً أيضاً « : لم تسلك الشريعة الإسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى ، فإن هذا القانون بدأ عادات كما قدمنا ، ونما وازدهر من طريق الدعوى والإجراءات الشكلية . أما الشريعة الإسلامية ، فقد بدأت كتابا منزلا ووحياً من عند الله ، ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطقى والأحكام الموضوعية... إلا أن الفقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء

---

(١) راجع مجلة القانون والاقتصاد ، العدد الخامس من السنة الأولى الصادر فى نوفمبر ١٩٣١ م ص ٧٣٣ وما بعدها .

(١) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الإسلامية ، جـ ١ ، ٢٠١ .

(٢) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الاسلامية جـ ١ ، ١٦١ .

الرومان ، بل امتازوا على فقهاء العالم ؛ باستخلاصهم أصولا ومبادئ عامة من نوع آخر ، هى أصول الأحكام من مصادرها ، وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه [١] .

د — هذا ونكتفى فى ناحية المقارنات ببيان أن التشريع الإسلامى تسوده النزعة « الجماعية » التى تهدف إلى صالح الفرد والمجتمع معاً ، وهذه النزعة تجدها واضحة فى تشريعات العبادات والمعاملات معاً فكل التشريعات فى هاتين الناحيتين تهدف إلى تهذيب الفرد وتحقيق ما فيه خيره وخير المجتمع بأسره ، والمثل لذلك واضحة ندركها بسهولة ويسر وتكفينا فيها الإشارة .

نشير مثلا ، إلى حكمة تشريع الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ وحل البيع وتحريم الربا ، والأمر برعاية الجار والوفاء بالعقود وتحريم الزنا ، وإقامة الحدود صيانة للمجتمع ، إلى آخر ما نعرف من الأحكام التى جاءت بالأمر والنهى والحل والحرمة ، ففيها كلها تهذيب للفرد وخير له وللمجتمع معاً .

وبعد هذا التعميم لا بد من التخصيص ، وذلك بالإتيان ببعض المثل المحدودة الواضحة الدلالة على ما نقول ، أى على أن الطابع العام السائد فى التشريع الإسلامى من أول أمره هو الطابع الجماعى ، وذلك بعكس التشريعات الوضعية .

أوجب الله تعالى فى أموال الأغنياء حقا معلوماً للسائل والمحروم ، وهذا ما نسميه بالزكاة التى تؤخذ من الأغنياء لتعطى للفقراء ، ثم جعل فى أموال الأغنياء حقوقا أخرى غير الزكاة ، ولهذا نرى الله تعالى يقول : « سورة البقرة آية ١٧٧ » « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة » . .

وإذن ، ففى المال حقوق أخرى غير الزكاة وهذه الحقوق تعطى لذوى القربى واليتامى والمساكين ونحوهم .

ومثال ثان . وهو من المعروف ، كما رواه الإمام أبو يوسف [١] ، أنه لما فتح الله العراق والشام على المسلمين أيام عمر بن الخطاب أراد فريق كبير من المسلمين قسمة الأرض وما عليها بين أصحاب الحق الفاتحين ، لكن الإمام عمر رأى أن يترك الأرض بيد ملاكها على أن يدفعوا الخراج والجزية لصالح المسلمين جميعا . وكان هذا توفيقا من الله لعمر بن الخطاب كما عوده فى كثير من الحالات .

وأوجب التشريع الإسلامى من ناحية أخرى ، النفقة اللازمة فى بيت المال لكل

---

(١) أصول القانون ، ص ١٣٢ .

(١) كتاب الخراج ، ص ١٤ — ١٥ .

فقير عاجز عن العمل وليس له قريب تجب عليه نفقته، لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم الذى يعيش تحت ظل الإسلام، وفى هذا يروى التاريخ أن عمر بن الخطاب أمر برفع الجزية عن كل ذمى لا يقدر على أدائها وبأن يفرض له فى بيت المال ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام.

ومثال آخر، بل مثل أخرى نأخذها من تطبيقات القاعدة الإسلامية المعروفة، وهى: «لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام» هذه القاعدة التى عرفها التشريع الإسلامى منذ وجوده، والتى عرفتها التشريعات الحديثة بعد ذلك بقرون وقرون تحت عنوان «نظرية سوء استعمال الحقوق».

فطبقا لهذا الأصل العظيم يجب ألا يسىء المرء استعمال حقه لدرجة أن يكون فى ذلك ضرر كبير لآخر، ولهذا، يكون للزوجة أن تطلب تطليقها من زوجها إذا نالها بضرر غير مشروع، وللجار أو الشريك أن يطالب بالشفعة فيما باعه شريكه أو جاره الآخر لأجنبى، مع أن من خصائص الملكية حرية المالك فى التصرف فيما يملك، وللإنسان أن يحفر فى أرض غيره مجرى ماء ليروى أرضه البعيدة عن مجرى الماء، ويجبر صاحب الأرض الأخرى المجاورة للماء على ذلك.

تلك المثل، ولو شئنا لأتينا بأخرى كثيرة، فيها الكفاية لإثبات النزعة «الجماعية» للتشريع الإسلامى، هذه النزعة التى نجد مصدرها الأصيل فى القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم وأحكام وآراء كبار الصحابة والتابعين؛ وذلك - كما قلنا - لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لصالح الفرد وحده، بل لصالح المجتمع كل فى أوسع حدوده.

أما التشريعات التى هى من صنع البشر، فلم تلاحظ فى أول أمرها بخاصة هذه النظرة الجماعية أو الاجتماعية السامية، بل كانت تسودها الروح الفردية العنيفة، ولنأخذ مثلا لذلك القانون الفرنسى الذى صدر فى مفتتح القرن التاسع عشر.

لقد ساد هذا القانون روح فردية قوية تلتئم مع الروح التى أملت حقوق الإنسان، وهى تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها، وتنظر إلى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة، وقد كان من نتائج ذلك، أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره [1].

(١) راجع «مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الإسلامية، والقانون المدنى الحديث»، للأستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد، ص ٥.

ومن الحق أن التشريعات الوضعية فى هذا العصر الحديث أخذت فى الحد من استعمال المرء لحقوقه ، فنشأت نظرية سوء استعمال الحقوق التى أشرنا إليها آنفا ، ولكن بقى من الثابت الذى لا ريب فيه أن نظر التشريع الإسلامى إلى حقوق الأفراد وتقييدها بما يحقق مصلحة الجماعة ولا يضر صاحب الحق ، أوسع مدى وأبعد أثرا من نظر التشريعات الحديثة إلى اليوم فى هذه الناحية .

ونعتقد أن هذه التفرقة الواضحة ، بين طابع التشريع الإسلامى الإلهى وبين طابع التشريعات الوضعية ، ترجع إلى تفرقة أساسية فى أصل حقوق الفرد فى الشريعة الإسلامية والقوانين البشرية .

إن القوانين الوضعية تعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يملكها ويتصرف فيها كما يرى ، فلا حرج عليه ولا تثريب إن أساء استعمالها ، أما الشريعة السماوية الإسلامية فترى أن الفرد نفسه وكل ما يعتبر له عادة من حقوق ملك لله وحده ، والله لا يمنح ما يمنح لعبيده من حقوق إلا لغرض حكيم هو تحقيق الخير للفرد والمجتمع معا ؛ ولذلك نجد تقييد استعمال الحقوق فى نواح مختلفة وكثيرة جدا ، ومن ثم ، وجب أن يكون الإنسان فى عمله واستعماله لحقوقه متفقا مع قصد الله من التشريع ، وإلا كان عمله باطلا لمناقضته للشريعة ومقاصدها .

الحاجة دائما لهذا التشريع :

يتبين من هذا الذى قلناه ، أن حاجتنا للتشريع الإسلامى ، وذلك مبلغ علوه على التشريعات الوضعية وغناه فى كل ناحية من نواحى القانون ، لا تزال اليوم أمراً ضروريا كما كانت فيما مضى ، إنه تشريع صلحت به أمة عظيمة سادت البشرية قرونا طويلة ، ولن تصلح فى هذا العصر وفى كل عصر إلا إذا أخذت به وأقامت حياتها على أسسه ومبادئه وأحكامه .

وإذاً ، لنا الحق فى أن نريد أن يكون هذا التشريع الأساس الأول والمصدر الرسمى لقوانيننا الحديثة ، ولا بأس علينا مع هذا فى أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأى أمة من الأمم الأخرى ، بل لعل هذا يكون واجبا ، فما كانت أمة لتستغنى عن غيرها فى كل شئونها .

ونحمد الله تعالى على أنه وجد وعى قوى فى مصر والبلاد العربية والإسلامية ، أخذ يطالب بتخليص قوانيننا من الاحتلال الأجنبى ، وهو احتلال فرنسى فى الأكثر من نواحى القانون ، كما أخذ كثير من رجال القانون وأعلامه ينادون بما نطالب به ، وكان من هذا أن دخل فى القانون المدنى الجديد كثير من الأحكام والنظريات المستمدة من الفقه

الإسلامى وذلك أمر معروف .

على أن هذه بداية طيبة نرجو أن تصل بنا إلى مانريد ؛ ويسرناهنا أن ننقل عن الأستاذ الدكتور السنهورى هذه الكلمة القيمة على وجازتها :

« والهدف الذى نرمى إليه هو تطوير الفقه الإسلامى ، وفقاً لصناعته ، حتى نشتق منه قانوناً حديثاً يصلح للعصر الذى نعيش فيه ، وليس القانون المصرى الجديد أو القانون العراقى الجديد ، إلا قانوناً مناسباً فى الوقت الحاضر لمصر أو العراق ، والقانون النهائى الدائم لكل من مصر والعراق ، بل ولجميع البلاد العربية ، إنما هو « القانون المدنى » الذى نشتقه من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطورها . وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحدت ، فيأتى القانون ليدعم وحدتها ، وقد تكون فى طريقها إلى التوحيد ، فيأتى القانون عاملا من عوامل توحيدها ، ويبقى على كل رمزاً لهذه الوحدة »[1] .

أما كيف نصل لهذا الذى نريد ، من سيادة الشريعة الإسلامية فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية ، وما هى الوسائل التى تؤدى بنا إلى مانرجو فى المستقبل القريب. هذا ، وذاك ، لا يتسع له نطاق هذا المقال ، ولعلنا نتكلم عن ذلك فى مقال آخر ، والله المستعان ؟

الدكتور محمد يوسف موسى

---

[1] « ١ » راجع العالم العربى مقالات وبحوث ، الكتاب الثانى ، بحث القانون المدنى العربى ص٢٨ و٢٩ ، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية مطبعة مصر سنة ١٩٥٣ م .

الصديق المهذب

أخ لى ، عنده أدب ، مودّة مثله نسب
رعى لى فوق ما يُرعى وأوجب فوق ما يجب
فلو سُبكت خلائقه لبُهرج عندها الذهب

فى دعوة الإسلام قضاء على الإلحاد

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

إن دعاة الهدم والتخريب يحرصون الحرص كله على هدم الدين ونشر الإلحاد ؛ ليطيب لهم الجو فى إذاعة مذاهبهم المضللة ، وآرائهم المنحرفة ؛ ذلك لأن دعاة الإلحاد يرفعون عن ضمير الفرد شعوره بالمسئولية فى أخطائه ، ويلقونها على المجتمع . فهم يهدمون الأساس الذى لا قوام للأخلاق بغيره ، ويقولون للمذنبين والمقصرين : إنكم جميعاً أبرياء من التهمة منزهون من الوصمة ؛ لأن اللوم كله على المجتمع فى عجز العاجز وفساد الفاسد وإجرام المجرم وتقصير المقصر .

أما الدين فهو يلقى التبعة على الفرد ويشرك معه المجتمع إذا لم ينهه عن فعل المنكرات ، ويمنح الحرية الفردية فى أجمل صورها واستقلال الشخصية فى أدق معانيها ، ولكنه لا يتركها فوضى ، فللمجتمع حسابه وللإنسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها .

فغاية الملحد أن يطعن فى الدين ويصد عن سبيله بقلمه ولسانه . فيبالغ فى الدعوة إلى حرية الرأى ، والتخلص من التشريعات والأوامر والنواهى ، ليصير الإنسان مطلق العنان لا تقيده حدود ولا تحده واجبات بل يسلم نفسه للشهوات والانطلاق فى الإباحية للملذات .

فالملحد لا يحافظ على عرض أحد ولا على ماله ولا على حرمه وإنما هو خاضع لسلطان الهوى على النفوس ، وحب إرضاء الغرائز الدنيا والرغبة فى النزول على حكم الشهوات ، والتحرر من كل القيود والمسئوليات . هذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسع نطاق إلا فى جو من الإلحاد ينكر القوانين السماوية ، ويسخر من كلمة الأديان ويرفع من القلب شعور الاستحياء من الله ؛ لأن الذى يريد أن يعطى لنفسه هذه الحرية الخلقية المطلقة ، لا يمكنه أن يتجنب وخز ضميره ما دام هذا الضمير يقظا واعيا ، وما دامت فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية فى هذا الضمير ؛ فلابد إذن أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس لإخفاء هذه الصورة المرسومة فى لوحة ضميره ، ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق النوافذ التى يرى منها نور الله ، والتى يسمع منها داعى الله .

لذلك حرص دعاة الإلحاد ـ وهم الشيوعيون ـ على إلقاء التصريحات التى تقلل من شأن الدين ، وتصفه بأنه خرافة ورجعية ؛ جاء فى خطبة لوزير المعارف ، فى حكومة السوفييت :

نحن نكره الأديان لأنها تبشر بحب الجيران

والعطف والرحمة ، وهذا يخالف مبادئنا فليسقط حبنا لجيراننا . فإن ما نريده هو الكراهية والعداوة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم .

ويقول الماديون الملحدون :

إن الدين نفثة المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها ، إنه أفيون الشعوب الذى يخدرها لتسهل سرقتها ، والدين - جملة - هو الغذاء الخادع للضعفاء لأنه يدعوهم إلى احتمال المظالم ولا يزيلها .

وجاء فى الخطاب الذى ألقاه (لينين) فى اتحاد الشبان الشيوعيين سنة ١٩٢٠ : أنه ينكر صراحة وجود الله عز وجل فيقول :

« إننا ننكر ما يدعيه المتدينون من أن مبادئ الأخلاق هى أوامر من عند الله ، فنحن بالطبع لا نؤمن بالله ونعلم تمام العلم أن رجال الأديان نسبوا إلى هذا الاسم (الله) هذه الأمور لتحقيق مآربهم الاستغلالية . إلى أن قال :

ولكى يتسنى لنا بلوغ الأهداف الشيوعية لابد لنا من الاتحاد وأن نوجد هذا الاتحاد بأيدينا فإن الله لن يخلقه .

أما الإسلام فيقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام الشرع ، وأمام الله ، فى الدنيا والآخرة ، لا فضل إلا للعمل الصالح ولا كرامة إلا للأتقى . قال تعالى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنظرة الإلحاديين إلى الإسلام نظرتهم إلى مزاحم خطير يخشون منه أن ينازعهم السلطان على عقول الأمم وضمائرهم فى مسائل الأخلاق والمعاملات .

فالإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ، ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، ويعيد هذا الأمر فى آيات متعددة من القرآن الكريم قال تعالى : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » « يأيها الناس آمنوا كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .

ولا يستطيع الإلحاديون أن يتخذوا من الإسلام فى تشريعاته حجة لتسخير المجتمع فى خدمة أصحاب الأموال ، كما يقول المفسرون الماديون للأديان . فقد ظهر الإسلام فى مكة ، وكان سكانها مصدر ثروتهم وقوتهم هى التجارة ، فالمال إذن كان فى مكة له شأن أى شأن ، وأعظم دليل على ذلك هو وجود فئة كبيرة من المرابين ، وشيوع تعاطى الربا فيما بين تجار مكة ، حتى صار مصدراً ثانيا من مصادر ثروتهم « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا » .

فكان الربا فى مكة فاحشا جدا يتراوح بين ٤٠ و ١٠٠ فى المائة كما ذكر (بندلى جوزى)

فى بعثه عن الإسلام . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وكان عدد المرابين فى مكة كبيراً جداً فى عصر النبوة ، ولذا كان ضررهم على المجتمع ، وأضرارهم بالفقراء والبائسين لا حد لها مما نراه مصورا تصويراً واضحا فى موقف القرآن من الربا، وحملاته القاسية على المرابين ؛ لأن هذه الطبقة من الناس لم يكن يهمها من الدنيا إلا جمع المال ، فحمل القرآن على هذه الطائفة ، حملة شعواء ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وفى صحيح مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ... وفيها وأكل الربا) .

ثم أخذ الإسلام يتدرج مع الأغنياء فحثهم على التصدق وأعلمهم أن للسائل والمحروم حقوقا فى أموالهم ، وجعل ذلك شرطا من شروط المتقين الصادقين ، فقال تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون » إلى أن قال : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

بل جعل ذلك وسيلة من وسائل النجاة يوم القيامة فقال تعالى : « كلا إنها لظى نزاعة . للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل . والمحروم » .

ثم أخذ الإسلام يتتبع الأغنياء والموسرين فى كل مناسبة يطالبهم بالإنفاق ومد يد المساعدة للمعسرين ، فجعل إطعام الفقراء والتصدق على المساكين كفارة لكثير من الهفوات : فى حنث اليمين وفى إفطار رمضان عمدا أو بعذر ، وفى محظورات الحج وفى يوم عيد الفطر والأضحى ، وفى كل المواسم الدينية .

ومن عجيب ما جاء فى الإسلام بصدد معالجة الفقر ومعاونة البائسين مما يقطع حجج الملحدين ويلقمهم حجرا ، ولا يستطيعون أن يدعوا أنهم خير من الإسلام فى معالجة هذه الظاهرة فى المجتمع . وذلك بما توجه به القرآن إلى الوارثين الذين يجلسون لتقسيم الميراث والأموال الطائلة ، ويحضرهم أقاربهم واليتامى والمساكين ممن ليس لهم نصيب فى ذلك الميراث فقد حثهم الإسلام على أن يعملوا على سل سخائم النفوس ، وتفريج حقد الصدور بأن يمنحوهم شيئا مما ورثوه فما المال الذى ورثوه إلا رزق ساقه الله إليهم عفواً من غير كسب ، فلا ينبغى أن يبخلوا به على المحتاجين . بل يجب أن يتراحموا عليهم بجزء يسير مع تطييب خاطرهم ، والتلطف إلى قلوبهم بالكلام الجميل قال تعالى : « وإذا حضر القسمة

أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

هذا وإن القرآن فى علاجه للفقر لم يكتف بأن توجه إلى الأغنياء بالإنفاق والمسارعة إلى البر ، بل توجه أيضا إلى الفقراء يؤدبهم ويحثهم على الصبر وقوة العزيمة والسعى فى الرزق وتطهير قلوبهم من الحقد على الأغنياء والاضطغان عليهم .

فتوجه إلى الفقراء يخبرهم أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وهو الذى يغنى ويفقر بيده الخير وعنده مفاتح الرزق ولا ينزله إلا بقدر معلوم « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم» « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

فالمجتمع الإسلامى يقوم على المساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والألوان والأجناس ، ولا تمنعه المساواة أن يعطى المزايا النافعة حقها من الإنصاف لمصلحة المنتفعين بتلك المزايا فى جميع الطبقات ، ولا يفاضل فى الحقوق بالمال أو بالوراثة فإنما يكون التفاضل بينهم بالعلم والعمل «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ؛ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

روى البخارى (أن رجلا مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يستمع لقوله ، فسكت صلى الله عليه وسلم ، ثم مر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون فى هذا ؟ قالوا حرى إن خطب أن لا يزوج ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) .

والإسلام ضد الاحتكار والكنز، قال تعالى: « يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

أما الاحتكار فقد ضرب الإسلام بيد من حديد على أيدى المحتكرين المتحكمين فى الأسواق ، وذلك ليجنب المجتمع شرور الرأسمالية التى يخوف الناس بها دعاة الإلحاد

فقد روى معقل بن يسار رضى الله عنه . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من

دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة) يريد بمكان عظيم من النار .

وروى عن عمر قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

(من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما (من احتكر الطعام أربعون ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه) .

فأنت ترى أن الإسلام لم يترك لدعاة الإلحاد وهم الشيوعيون بابا يدخلون منه إلى نشر مذهبهم بحجة رفاهية المجتمع وإقامة دعائم المساواة والحد من شره الرأسمالية فقد تكفل الإسلام فى تشريعاته بما هو أوفى من ذلك وأقوى وأكثر صلاحية وأجلب للإنسانية سعادة .

والداهية الدهياء فى هذه الدعوى المنكرة أن دعاتها لا يؤمنون إلا بالمادة ويكفرون بما وراءها ، فهم يرجعون كل ما يقع فى التاريخ من حركات إلى أسباب اقتصادية ولا مرجع لها غيرها وما دامت الأسباب الاقتصادية - دون غيرها - هى التى تملى على التاريخ حركته وسيره حيث تشاء فلا مجال إذن للاعتراف بإله خالق مدبر للكون بقدرته وإرادته ، أما الإسلام فهو يطلب من الإنسان أن يعترف بأن من فوقه إلها له قدرة عليا ، توجه الكائنات وتسخرها حسب قوانين منظمة نافعة وتعصمه من اليأس فى ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء . « قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . يريد أنه أعطى مخلوقاته سبحانه كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ثم هدى إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه ، وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه ، وقال تعالى : « ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » . « ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

فالإسلام هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً ، وعاملا لروحه وجسده ، وناظرا إلى دنياه وآخرته ، مسالماً أو محارباً ، معطيا حق نفسه أو معطياً حق حاكم ولا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة .

وبعد : فالحلال بين والحرام بين فمن شاء فليكن ملحداً ومن شاء فليكن مسلماً « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » .

عبد الوهاب حمودة

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد على غريب

حفظ الأزهر طوال ألف عام الدين واللغة والمعرفة ، وهذه الأبنية التى أنشئت على غراره ، كانت بمثابة البيت الذى بناه « أبرهة » ؛ ليصد به الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام .

ولئن صح ما رواه المؤرخون من أن « المعز لدين الله » أقام الأزهر الشريف ؛ ليذيع رسالة « الفاطمية » ، فهذا المعهد الجليل الخالد ، نفض يديه من عبث العصبية الدينية ، وأذاع رسالة الله .

ومن شتى بقاع الأرض ، كان الشباب المسلم يفد على الأزهر ، مزوداً بالقليل من المال ، والكثير من الإيمان : من الهند ، والصين ، والملايو ، وجاوه ، والتركستان ... من عشرات الشعوب الإسلامية التى يكتب كل شعب منها اسمه على خريطة الدنيا بالدم والجهد والتضحية . كانوا يحضرون إلى القاهرة ؛ ليجلسوا على أرض الأزهر ، وليستمعوا إلى شيوخه وهم يصاولون الكلمات والحروف ؛ ابتغاء أن يستخرجوا منها ، من الأسرار ما يملأ بقاع الأرض ، ولم يكن الشيوخ أوفر نعمة من طلابهم ؛ فإنهم جميعاً سواء فى خشونة العيش ، وربط الأحجار على البطون ، وطعامهم الحقيقى : هو العلم ، وهو أقسى على أسنانهم من الخبز الجاف .

ولم يكن أهل الدين فى عزلة عن الحياة ؛ رغم كل ما هم فيه من زهد وقناعة ... كانوا هم الطبقة المثقفة ، وشيخ الأزهر الذى قد لا يخرج إلى الدرس فى يومه ؛ لأنهم يغسلون له قميصه ، وهو لا يملك سواه ! .

إذا ما وقفت بين يديه امرأة من السوقة ، تمسح دموع عينيها بطرف ردائها ، وتشكو إليه من أن الوالى استلب منها بضعة قروش . شيخ الأزهر هذا الجائع المحروم ، الذى يعتبر نفسه مترفا ؛ من يفطر على بصلة ! ينقلب إلى عملاق ، قدماه فى الأرض ، ورأسه فى السماء يمضى إلى الوالى ، وهو يقود أعظم جيش من إيمانه وتقواه ، فينهره ويغلظ له فى القول ، وقد يمسك به من تلابيبه ، ويهزه هزاً عنيفاً ؛ حتى يستخلص منه حق المرأة الشاكية .

كذلك كان الأزهر ، وهذه حال شيوخه وطلابه ، وما من دعوة إلى الجهاد فى سبيل الوطن إلا ارتفع الصوت بها من الأزهر ؛ فالحياة عند هؤلاء الذين يعمرون بيت الله : هى الكرامة الإنسانية ، ولا شىء يوازيها ،

ورغائب الجسد فسوق ، والتحرر من الخوف فضيلة ، والموت فى سبيل الحق ، هو وحده الشهادة العليا . . . ! .

هذه الصور الجميلة الرائعة ، كانت تتوارد فى مخيلات القرويين ومن إليهم من أهل الحضر ، فيبعثون بأبنائهم إلى ذلك المعهد ؛ ليصبحوا خليقين بالانتماء إلى الفصيلة الإنسانية ...!. وما من شيء يمكن أن يصرفهم عن هذا الغرض السامى النبيل ، فهم يقصدون إلى الأزهر على الدواب ، وفى السفن التى تجوب البحار والأنهار ! .

وكان والدى قرويا مستور الحال فى أقصى بلاد الصعيد ، وينفق على أسرة أبناؤه فيها عشرة ، وكان فى صباه قد تعلم القراءة والكتابة ولكنه لم يقنع بهذا القدر من المعرفة ؛ ففى أوقات فراغه ، يحضر الدرس على المرحوم الشيخ الدردير صالح ، وهو رجل يعتبر أعلم العلماء ؛ لأنه أمضى بضع سنوات فى معهد دينى أهلى بجرجا .

ثم راح والدى يعلم نفسه بنفسه ؛ اشترى الكتب الدينية وقرأها . ثم قرأها ، وأخيراً جلس ليلقى درسه على أخى الأكبر وعلىّ ، ثم أذن للناس بعد ذلك بأن يتلقوا عليه الدروس فى « المضيفة » أو فى المسجد .

وكان والدى حر الفكر إلى حد ، ولم أفطن لهذه الحقيقة إلا بعد سنوات طويلة ، فكان يطربه أن يقرأ فى كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » قول مؤلفه المفكر الإسلامى العظيم ابن رشد :

« أخطأ أبو حنيفة فى هذا الرأى » ، و « جانب مالك التوفيق لهذه المسألة » ، و « شذ الشافعى عن الجماعة فى هذا الأمر » .

والعجيب أن أخى الأكبر كان يغضب أشد الغضب ، حين يصغى إلى مايتهجم به ابن رشد على الإمام مالك ، فقد كان مالكى يغالى فى تعصبه للإمام مالك ، أما أن يتعرض ابن رشد لبقية الأئمة المجتهدين فذلك ما لا يعنيه ! .

وقرأت على والدى كذلك ، «رسالة التوحيد» للإمام محمد عبده ، وثلاثة أجزاء من تفسير الفخر الرازى ، ولم أكن أفهم الكثير مما أسمعه ، برغم أن والدى يحاول جاهداً أن يدخل هذه الفلسفات العويصة فى رأسى !.

وفجأة راح يقرأ علينا « حديث عيسى ابن هشام » للمويلحى . وقد أعجبت كثيراً بهذه الحكايات الحديثة ، التى تتناول حياتنا فى مصر ، وبطلها أحد الباشوات ، شاء المؤلف أن يبعثه من مرقده ؛ ليرى ما لم يكن يراه من قبل من تغير وتبذل وانحلال .

وكان أخى الأكبر قد أمضى عاما فى الأزهر ، وعاد الينا مزهوا بما درسه ، كما لو أن القمر يطلع من كمه ! . وجاء أهل القرية جميعاً يرحبون بقدومه ، ويلثمون يده ، ثم هم

يسألونه عن أنباء الدنيا ، وأحاديث السياسة . ولكنه لم يكن يدرى عن ذلك شيئا ، فهو يمضغ كلمات ويدمدم ، فيخيل إلى هؤلاء القرويين السذج أن هناك أحداثا خطيرة ومثيرة ، يحاول أن يخفيها دونهم هذا الشيخ الأزهرى الصغير ! .

وقال لى والدى : ستذهب إلى الأزهر الشريف فى العام القادم ، ولم أكن فكرت فى شىء من أمر مستقبلى ، ففى هذه البيئة الريفية الفقيرة ، يصعب على أمثالى أن يفكروا فى أمر المستقبل ، وإنهم ليدعون ذلك للأقدار ، تقرر فيه ما تشاء ! .

وكان على أن أحفظ نصف القرآن الكريم فإن ذلك هو الحد الأدنى لقبولى طالبا فى الأزهر ، فقد دخل « النظام » إلى هذا المعهد ، ونسقت الدراسات فيه ، وإنى لأشك فى أن هذا كان إصلاحا ، بل هو الإفساد الحقيقى ، إذ أن الدراسة فى الأزهر القديم كانت أقرب إلى الدين ، وإلى المعرفة ، وأدعى إلى الجد فى سبيل تحصيل العلوم ! .

وكان هؤلاء الشيوخ الفقراء ، يؤلفون الكتب ويواصلون البحث . ومهما قيل عن هذه الكتب « الصفراء » ، فإن فيها مظهرا واضحا للدراسة العميقة ، ولسلامة الإدراك ، ولجودة الفهم . ومنذ وُجِدَ « النظام » فى الأزهر لم يعد ثمة وجود لهؤلاء المؤلفين العظام ، وإن كنا سمعنا عالماً من الأزهر لم يجد ما يؤكد به علمه الفياض ، إلا أن يفتى بأن الرقص حلال فى حلال ! .

والمسألة أن المبشرين ومن إليهم من أشباه المثقفين ، شنوا حربا ظالمة على الأزهر ، واتهموه بالرجعية وبالتأخر وبالجمود . ولم تضع هذه الحرب أوزارها أبداً ، حتى العامة تأثروا بهذه الحرب وخاضوها ، وهذه المحاولات التى بذلت لما وصفوه بالإصلاح ، كانت بمثابة رد على هذه التهم البشعة ! .

وغالى الأزهريون فى دفع تهمة الجمود عنهم ، حتى إنهم نقلوا المسرح إلى معهدهم ، وقد ينفر الكثيرون من رأيى هذا ، ولكننى أومن به .

فالأزهر القديم الذى قدم لنا فلتات من البطولة والعبقرية كان فى نظرى أجمل ؛ وإنى لأتمثل الشيخ حسن العدوى واقفاً أمام محكمة عسكرية انجليزية ، فى مؤتنف عهد الاحتلال بمصر ، ورئيسها الذى صدعته الخمر فى أمسه ، يسأل الشيخ بلسان المترجم ، عما إذا كان قد أمضى « منشوراً » ينادى فيه بخلع الخديو توفيق ، لأنه خان وطنه؟ .

وأجاب الشيخ :

ـ أنا لم أوقع على هذا « المنشور » ولكن هاتوه لى الآن ، فأوقع عليه ، لأن الخديو توفيق خان وطنه ودينه ! .

وأعود إلى ما كنت فيه . . .

كان حفظى لنصف القرآن مستحيلا

وإليكم السبب ، لست أدرى إلى اليوم ، كيف أمكن لنسخة من كتاب « تاريخ الصحافة العربية» لمؤلفه «الكونت فيليب دي طرازي» أن تتسلل من القاهرة عام ١٩١٧ إلى بيت ريفي فى قرية اسمها : «العسيرات » من قرى نجع حمادي ؟ .

لم أسأل والدى عن كيفية حصوله على هذا الكتاب ، ولماذا اشتراه ؟ وقد وجدته فى إحدى الغرف فقرأته . . . لا بل كدت آكله ، وشغلت نفسى به إلى درجة أننى عاودت قراءته عشرات المرات ، ولعل هذا يفسر انتمائى بعد ذلك إلى مهنة الصحافة المتعبة . . !.

على أنه كان قد تقرر سفرى إلى القاهرة ؛ لأنتسب إلى الأزهر . وسألنى والدى ، عما إذا كنت أحفظ نصف القرآن ، فكذبت وأكدت له أننى أحفظه ولست أدرى لماذا لم يختبرنى ؟ على أنه لم يفعل ، وانتابنى الهم والفزع من أن أرسب فى الامتحان ، وأفضيت بما يخامرنى إلى أخى فطمأننى .

وشغل منزلنا أسبوعا كاملا بإعداد الزاد لنا ، كل شىء أعدوه : اللحم ، والخبز ، والأدم ، والفاكهة ، حتى الملح لم تنس جدتى - يرحمها الله - أن تدس فى متاعنا كمية كبيرة منه ؛ بسبب سوء رأيها فى ذوق القاهريين ؛ إذ كانت تعتقد أنهم من الرفاهية والترف بحيث لا يضعون فى الطعام ملحا ! .

وركبنا الدواب إلى محطة السكة الحديد فى « بندر فرشوط » والطريق إلى « البندر » كالطريق إلى الجنة ؛ محفوف بالمكاره وإنك لتسلكه اليوم وهو معبد ميسور ، وفى الغد لا تقوى على السير فيه ؛ فإن القروى الذى يملك قيراطين من الأرض إذا جاء يرويهما ملأ الطريق بالماء ، فاستحال عبوره ، وأية كلمة تقال نقداً لهذا التصرف ، قد تؤدى إلى نشوب معركة يزهق فيها كثير من الأرواح !.

هذا القروى الذى يملك القيراطين ، لم يكن قد رواهما بالماء والحمد لله ، فمشينا نذرعه ونحن نثرثر ونضحك وعلى شاطئ المصرف كان نبات الحلفاء يتمايل مع الريح ، والهوام والحشرات والفيران - وربما كانت الثعابين تختفى فى هذا النبات وتجرى إلى غاياتها . والطيور فى الجو ترقبنا ثم تضحك من سخافتنا بأغاريدها المشجية ، فليس أسمج فى مجال الطبيعة فى الريف من هؤلاء الريفيين أنفسهم !.

وجاء أكثر أهل القرية يودعوننا على المحطة ، وفيهم الراكب والراجل ، وكنا نحس ما يصنعون من صنوف التوقير والاحترام ، كما لو أننا أصبحنا عضوين فى هيئة كبار العلماء ، فهذه الروح العجيبة الواضحة ، روح التقدير والإجلال للأزهر تجعلهم يعاملون كل من ينتسب إليه بفيوض من التقدير والإكبار .

وركبنا الدرجة الثالثة لأنه ، كما قال غاندى : لا توجد درجة رابعة ! .

فكان علينا أن نمضى فى القطار إحدى عشرة ساعة . ولست مستطيعا أن أقدم إلى

القارئ صوراً لما يجرى فى الدرجة الثالثة من قطار الصعيد . فقد اختفيت تحت أكوام المتاع ورحت أتسلى بالعبث مع خواطرى وأحلامى.

كانت لدى فكرة غير واضحة المعالم عن القاهرة، المدينة التى لا يأكل أهلوها الطعام بأيديهم ، بل بأدوات معدنية ، ولا يركبون الحمير ولا البغال ، بل إن مطيتهم الكهرباء ... ! .

وكنت مقتنعا - لفرط سذاجتى - أنه لا يوجد فيها فقير واحد فمن أين يجيئها الفقر على ما فيها من غنى ورفاهية وترف ، وهى تسبح فى الأضواء ، ويرتاض أبناؤها فى حدائق يملأ عبيرها الجو ، ولا بد أنهم يأكلون اللحم مرتين فى الأسبوع ، وربما أكلوه ثلاث مرات، فإننا نحن القرويين نشق ونبصق الدم لتثقل بالذهب جيوب أهل هذه المدينة العامرة ؟ .

وعندما دخلتها تحطمت فكرتى التعسة عنها بين يدى ، وذهلت ؛ فما كان ينبغى أن أرى ما رأيت : الزحام على أشده كأن الناس يساقون إلى الحشر ، الأكتاف تلامس الأكتاف ، والأيدى تتدافع ، والرءوس تتواثب على سطح هذا الموج المتلاطم ، والصرخات تنبعث من كل فم . ! .

ورأيت الفقر ممثلا فى صبية حفاة عراة ، يسجدون على الأرض بين لحظة وأخرى ، يلتقطون شيئاً لا أعرفه ، والأوحال تملأ هذه الدروب التى سلكناها فى طريقنا إلى المنزل والنسوة جالسات على الأرض ، أمام أبواب المنازل ، يتقاذفن الشتائم أو يثرثرن بلهجة لم أوفق إلى فهمها ، وثمة شيخ محنى الظهر واهن الصوت يدعو للمحسنين بالعز والتأييد ! .

قال لى أخى الأكبر والبهجة تملأ صدره :
- كيف رأيت القاهرة ؟ .

وماتت الكلمات على شفتى ، ولم أجد لعابا أصنع لها منه كفنا ! ولم نكن سلكنا الطرقات التى يقيم فيها كبار الموسرين من الأجانب والمصريين ، بل رحنا نضرب فى الأحياء الفقيرة التى لا بد أن تنتهى بنا إلى « الباطنية » حيث يقطن أخى . . ! . وذهلت أكثر عند ما وجدت هؤلاء التعساء يضحكون ويقهقهون غير مبالين بما هم فيه من بؤس وشقاء .

وفهمت - بعد وقت طويل جدا - أن الفكاهة والتنادر والضحك ، اتخذها المصريون وسيلة من أقوى وسائل الدفاع ، وأنهم يحاربون الظلم بالنكتة ، ويقاومون العدوان بالسخرية وما من حاكم نجا من هذه الألسن التى تطول وتطول ، حتى تلتف حول عنقه وتجذبه إليها ، وليس القصد من هذا إتاحة الفرصة للأفواه أن تضحك على الطاغية المستبد ، بل القصد أن تنزله من سمائه إلى الأرض ، وتجعله فى مستوى الخلائق التى يرهبها ويعذبها فلا تعود تخشاه ... ! .

وقبل أن نقترب من المنزل تفقدنا متاعنا فإذا جانب منه مفقود ، ووقف سائق العربة يكاد يمزق ثيابه وهو يقسم بأغلظ الأيمان على أنه ما رأى شيئا ، وكان يرفع يديه إلى أعلى ويدور حول العربة باحثا منقبا ، وهو يدمدم ويظهر الغيظ ، ليؤكد براءته من السرقة .

على أن واحدا من الأزهريين القدامى كان معنا ، فتقدم إلى سائق العربة ونظر فى وجهه ، وفجأة رأيناه يمسك بتلابيبه ويهم بضربه ، فصرخ الرجل وكان قميئا نحيلا ، والأزهرى القديم عملاق ، وسمعناه يقول له :

ـ أنا أعرفك ... ! . عد بنا إلى القهوة الصغيرة وأرجع ما سرقته .. ! .

وعاد الرجل بنا طائعا ذليلا إلى القهوة الصغيرة المنزوية فى درب ضيق ، ولم يكن يجلس عليها أحد ، ورد إلينا متاعنا ، وفهمنا أن الرجل لص يتصيد الأزهريين ، ويسطو على ما يجلبونه من قراهم من زاد ، على أنه لم يخجل بعد أن أفرغ حمله ، أن يستجدى الخبز منا وكنا كراما فأعطيناه .

وهممت بالدخول إلى المنزل الذى كان يجاور منزل « أسرة طموم » وهى التى اشتهر بعض أفرادها بالعلم ، وواحد منها ألف كتابا يدرسه فى الأزهر ، وقد أنسانيه الشيطان ، والعجيب أن مدرس الخط لنا فى السنة الأولى كان من هذه الأسرة ، وهو إنسان رقيق مهذب .

قلت : إننى هممت بدخول المنزل ، وإذا بى أجد نفسى أمام سيدة نصف عارية ، فتحت باب غرفتها الأرضية ، وراحت تنظر إلينا وكانت جميلة ، أو على الأصح لم تقع عيناى على أجمل منها ، وكانت تبتسم وتحاول أن تخفى وجهها بطرف ثوبها ، ويبدو أنها كانت تتوقع أن ترانا على ما رأتنا فيه ، وإن كانت رغم ذلك أصرت على أن تستعرض موكبنا فى فضول . . . ! .

أما أخى الأكبر فقد أغمض عينيه وراح يضرب الأرض بحذائه ، كما لو أنه أراد أن يؤدب بحذائه « إبليس » ، وبعضنا تظاهر بأنه لم ير شيئاً ، وإن كان قد راح يتابعها بعينيه . أما أنا فلم أجد من الكياسة أن أتجاهل هذه الإنسانة ، فطفقت أحملق فيها كما لو أنها هبطت من السماء . . . ! .

وعاقبنى أخى بعد ذلك عقابا شديداً . . . ! .

وبعد العشاء اقترح بعضهم أن نذهب إلى الأزهر الشريف ، فراقت لى الفرجة عليه ، واستطلاع أمره . وخرجنا نخب فى كساوانا ، وقد ألفت نفسى هذه المشاهد المتنافرة وإنى لأحفظ إلى اليوم الصورة المطبوعة على قلبى لهذا المعهد الجليل ، فقد أحسست له رهبة ، وسرت فى بدنى قشعريرة ، وأنا أخطو إلى داخله . وثمة شبان مثلنا يخرجون منه ويدخلون إليه فى غير احتفال ولا مبالاة ،

غير أن عدواهم لم تصبنى . فمشيت على أرضه وكأنما أمشى على جمرات من نار . . ! .

لقد بدا لى شيئا هائلا مروعا ، لا حد لهيبته . ورحت أتطلع إلى مشارفه ، ونحن فى الفناء فتعثرت فى أولئك الذين يجلسون هناك ،ويأكلون ويسمرون ويضحكون ..!.

وجلسنا على « الحصير » والأضواء القليلة المتناثرة تتمايل . وفى ذلك الوقت كان يضاء بـ (غاز الاستصباح) ولا أدرى هل استبدلوا به الكهرباء ؟ .

ونسينا الوقت فلم نعد نهتم له ، وجاء طلاب كثيرون يسلون على معارفهم من جماعتنا . وفى فناء المسجد رأيت أحدهم يدخن ، فأنكرت ذلك إنكاراً شديداً . وهؤلاء المقيمون فى الأزهر لكل واحد منهم خزانة من الخشب يودعها ثيابه وطعامه وحذاءه وذهبت أسأل عن كل ما أراه . . . كنت مشوقا إلى أن أستوعب كل شىء عن الأزهر الذى أتاحت لى الظروف فرصة الانتساب إليه .

وفى الصباح جاء يوم الجمعة ، فتشاور كبار الجماعة فى الذهاب إلى حديقة الحيوان ، ولا تسل عما خامرنى من فرح وغبطة ، فإننى كنت سمعت عن هذا المكان الذى استطاع الآدميون أن يحبسوا فيه الحيوانات المفترسة، وكان فرحى أشد لأننى سأركب ـ لأول مرة ـ الترام ... ! .

وأعاذك الله من أزهريين فى عام ١٩١٨ اتفقوا على أن يرتاضوا فى حديقة الحيوان ؛ فإنهم قرروا أن نمشى إلى هناك على أقدامنا ، وقالوا : إنها رياضة . وقالوا : إنها « فركة كعب » وهكذا سرنا من الأزهر إلى الجيزة راجلين ... ! .

بلغت الحديقة وأنا ألهث ، فارتميت على مقعد هناك ورفضت الفرجة ، ورأيتهم يتسكعون حول هذه الأسوار التى تحجب الحيوانات ، وعادوا إلىّ وكنت قد استرحت قليلا ، فمشيت معهم وأنا أعانى من التعب والإرهاق . . ! .

ولما اقترب موعد الخروج هممنا بالانصراف ، وكان معنا طالب بمزاح خفيف الروح ، فنظر إلىّ ورأى ما أنا فيه من جهد وتعب ، وكان منظرى كئيبا مغرقا فى البشاعة لما أصبت به من نكدوهم . وعندئذ رأيته يوصى زملاءنا بأن يتجمعوا حولى ، ويخفونى عن الأنظار ، ولما سألوه عن السبب قال ضاحكا :

ـ أخشى ما أخشاه أن لا يسمحوا بخروجه من حديقة الحيوان . ! .

وعدنا إلى الأزهر سيرا على الأقدام . ؟

« للحديث بقية » **محمد على غريب**

النحو الجديد

للأستاذ على العمارى

تهذيب النحو أو تيسيره أو تحريره أو تجديده — على حسب اختلاف المهتمين بالدراسات النحوية فى التعبير — فكر يبدو أننا سنظل زمنا طويلا ندور حولها قبل أن تقف أقدامنا على أرض صلبة نبدأ منها الطريق .

والحديث فى النحو - على هذا النحو - ليس وليد يومنا هذا وإنما تمتد جذوره إلى أوائل هذا القرن .

وقد فزعت لهذا الحديث بيوت كثيرة ، وتصاولت فيه أقلام كتاب كبار ، وصغار أيضا. وكانت الصحف والمجلات - فى أول الأمر - هى الميدان ، ثم ألفت الرسائل والكتب ، وألقيت المحاضرات ، وقامت المناظرات .

وكانت الآراء تشتجر وتعترك ، ويحتدم بينها الخصام والنضال ، ثم ينفرج غبار المعركة عن وجهات نظر ثلاث :-

ففريق يرى - وهم الأكثرون - أن نلتمس طريقاً - أى طريق - لنيسر النحو على الدارسين ، ولا سيما المبتدئون منهم ، وفريق يرى - وهم أصحاب النيات المدخولة - أن نلغى النحو العربى جملة وتفصيلا ، ونبدأ فى وضع قواعد للعامية ندرسها للطلاب ونعممها فى جميع الأقطار العربية ، أما الفريق الثالث - وهم الراقدون مع أصحاب الكهف - فرأيهم الذى لا يحيدون عنه أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

وأصحاب الرأى الأول ليسوا على درجة واحدة، بل منهم المعتدل الذى يكتفى بالتيسير دون أن يمس القواعد والأصول الثابتة فى النحو القديم ، ومنهم المتطرف الذى يرى أن نهدم بعض الأصول ونقيم أصولا أخرى مكانها ، وبين هذين الفريقين طوائف على درجات فى هذا الأمر .

ومهما يكن من أمر، فقد كان من الواجب أن تقوم هذه المعارك ، وما نشك أن العربية استفادت منها كثيراً ، حتى الآراء المتطرفة كشفت لنا عن نواح استفدنا من إلقاء الأضواء عليها، والحركة - دائماً - من أقوى

أمارات الحيـاة . ولا ضير على النحو من استمرار هـذه الخصومات ، أو على وجه الدقة هذه المصاولات التي يكون الوصول إلى الحق رائدها فى أغلب الأحيان .

وقد رأيت أن أعيد فتح هـذا الباب فى مجلة الأزهر بسبب ما ظهر من كتب فى السنوات الأخيرة تعالج هذا الموضوع ، منها كتاب النحو المنهجى ، وكتاب تحرير النحو ، وقد كان لهذين الكتابين شأن علمى ، وشأن آخر تربوى ، ولذلك سنناقشهما – أولا – ثم نلقى نظرة على الكتب الأخرى .

وقبل أن أعرض لمناقشة ما فى الكتابين من مادة علمية أحب أن أقدم بعض المسائل العامة .

القواعد والأصول المقررة فى العلم – أى علم كان – أمانة تجب المحافظة عليها ، وليس معنى ذلك أن نقدسها فلا نبيح لأحد أن ينالها بنقد أو تجريح ، ولكن معناه أن نزن كل نقد يوجه إليها بميزان منصف عادل ، وأن ندافع عنها ونناضل دونها إذا رأينا أن الناقدين يحيدون عن المحجة عامدين ظالمين .

وربما كان من الحفاظ على هـذه الأمانة وحسن الرعاية لها أن نعين من ينقدها بحق وأن نشد أزره ؛ لأن الذين تركوا لنا هـذه الأمانة قضوا أعمارهم فى خدمتها وتهذيبها ، ولم يحظروا علينا أن ننظر فيها وأن نقوم ما قد نراه من اعوجاج لم يروه فى بنائها .

هذه واحدة . أما الثانية ، فنحن لا ننكر أنه من حق كل إنسان أن ينقد ، وأن يقول ما حلا له من القول، على أن يكون قوله موضع نظر العلماء ، ولكن الذى لا يقره منصف أن يجعل الإنسان – مهما كانت مكانته – من نفسه ناقدا وحكما ، وأن يعطى لنفسه الحق فى أن يفرض آراءه على الآخرين. فقد كانت الآراء الجديدة فى النحو أو فى البلاغة ، أو فى أى علم آخر تطالعنا فى المجلات أو فى الكتب فلا نرى بأسا ، بل نحمد لأصحابها غيرتهم ونأمل أن تكون لهذه الأبحاث نتائجها الطيبة، ولكن الذى حدث فى الأعوام الأخيرة أن وزارة التربيـة والتعليم فرضت على التلاميذ دروسا فى النحو هى مجرد آراء فردية ، وكان الواجب ألا تبيح الوزارة هذا حتى ترجع إلى المجامع اللغوية وإلى الهيئات العلمية التى تعنى بدراسة النحو العربى ، وأنا لا أعتقد أن هيئة ما تستطيع أن تغير فى علم من العلوم دون أن ترجع إلى ذوى الاختصاص فى هذا العلم ، فهل يكفى فى نظر وزارة التربية والتعليم أن يقوم جماعة من الأساتذة بوضع آراء جديدة فى التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء حتى تبيح لنفسها فرض هذه الآراء فى مدارسها ؟ .
وإذا كان ذلك لا يكفى فى نظر الوزارة بالنسبة لهذه المواد — وهو ما نعتقده — فكيف كان كافيا فى النحو العربى ؟ .

إن الآراء الجديدة التي تضمنتها كتب الوزارة فى حاجة شديدة إلى البحث من جديد وبعضها عورض من علماء لهم مكانتهم فى العلم ، وكان على الوزارة أن تأخذ عبرة من كتاب (إحياء النحو) فإن هذا الكتاب أحدث دوياً فى الأوساط العلمية ولكن أحداً لم يأخذ بالنظريات التي جاءت فيه ، ولم تستطع هذه النظريات أن تأخذ طريقها إلى أى هيئة علمية فتدرس فيها دراسة رسمية . على أننا لو أبحنا لكل أستاذ أن يتناول مادته على الطريقة التي تنوول بها النحو لأشعنا الفوضى فى العلم ، ولشككنا الدارسين فيما يدرسون ! .

لا بأس أن يناقش الأستاذ مع طلابه المتقدمين فى الدراسة بعض ما يعن له من آراء ولا بأس أن ينشر هذه الآراء على الناس ليروا فيها رأيهم ، أما أن أستاذاً أو مجموعة من الأساتيذ يفرضون آراءهم على آلاف مؤلفة من المتعلمين الناشئين ليقولوا لهم : إن هذا هو العلم ولا علم سواه ، فذلك أمر خطير ، جد خطير .

والمسألة الثالثة تتعلق بكتاب النحو المنهجى ، ذلك أنه يجب على كل من يحاول أن يهدم قديما ، ويقيم مكانه جديدا ـ ضرورة إشاعة الثقة به فى نفوس القراء ـ ألا يلجأ إلى المغالطات ، ولا إلى التجاهل ، فإذا أخطأه التوفيق فى هذه المسألة كان موضع تهمة من القراء ، وقلما يفلح فى إقناع أحد .

وقد وقفت على أمرين فى كتاب النحو المنهجى لم أحمدهما للمؤلف ، وأخشى أن يكونا سبباً فى الغض من قيمة الكتاب ، وفى رمى صاحبه بما أظن أنه منه براء .

أول الأمرين : أنه عاب على النحاة المتقدمين إهمالهم صيغ التعجب السماعية . فقال فى صفحة (٣١) : « وأسلوب التعجب لا يعرف النحويون منه إلا الباب التقليدى المتوارث الذى هو باب ما أفعله وأفعل به ، ويتحدثون عنه ، ويفيضون فيه ، ويضعون له الشروط الكثيرة التي تبيح للمتكلم أن يتعجب أو تحرم عليه ألا يتعجب ، وتحدد الصور التي يتعجب بها تعجبا مباشرا أو بالواسطة ، ولعله يكون أجدى من هذا كله على أبنائنا أن نقدم إليهم أساليب التعجب الأدبية التي تفيدهم فيما يقرءون أو يكتبون ، ولست أريد أن أهدر صيغة (ما أفعله وأفعل به) ولكنى أريد أن أقدم للمتعلمين إلى جانبها قول الله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ، وقول عنترة :

لله در بنى عبس لقد نسلوا
من الأكارم ما لا تنسل العرب

وقول المتنبى فى سيف الدولة :

وكيف تعلك الدنيا بشىء
وأنت لعلة الدنيا طبيب

وقولهم: (واها لك، ولله دره فارسا) ... وهكذا نجد كثيرا من الأمثلة فى الأساليب الأدبية تفيد التعجب، ولم يتعرض لها النحاة، ودراستها للبادئين أولى».

فأولا: متى أهمل النحويون الأساليب التعجبية؟ وكيف يحكم عليهم عالم أطال النظر فى كتبهم بأنهم لم يعرفوا من التعجب إلا الباب التقليدى؟!.

بين يدى الآن - وأنا أكتب هذا المقال - كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لمؤلفه جمال الدين بن هشام، وهو من أكثر الكتب تداولا، ومن الكتب المقررة دراستها فى المعاهد الدينية التابعة للأزهر، وفى كثير من دور التعليم خارج مصر، وهو متن عليه شرح كبير، يقول مؤلفه (باب التعجب) هذا هو عنوان الباب، وفى أول سطر يقول: «وله عبارات كثيرة نحو كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم؟ سبحان الله، إن المؤمن لاينجس. لله دره فارسا. والمبوب له منها فى النحو اثنتان». فكيف يسوغ بعد ذلك أن يقول رجل هو من دارسى النحو والمؤلفين فيه أن النحويين لايعرفون منه إلا الباب التقليدى، وأن النحاة لم يتعرضوا للصيغ السماعية؟!.

على أن المطولات فى النحو، وكتب البلاغة، تعرضت للأساليب التى تفيد التعجب، وكلها مما يدرس فى دور العلم.

وثانيا: هل صحيح إن دراسة هذه الصيغ السماعية أجدى على التلاميذ من دراسة ما سماه بالباب التقليدى؟ وهل صحيح - كذلك - أنها أولى بالدراسة؟ لقد وصف المؤلف الباب التقليدى فقال: إن النحويين أفاضوا فيه وأضافوا إليه الشروط الكثيرة التى تبيح للمتكلم أن يتعجب أو تحرم عليه ألا يتعجب، وتحدد الصور التى يتعجب بها مباشرة أو بالواسطة ... فأيهما أجدى على الطالب الناشئ أن تضع فى يده قاعدة وتمرنه على استخدامها، وهذه القاعدة يستطيع بها أن يستخرج من المادة الخام مادة صالحة للاستعمال كلما أراد، أم أن تحفظه عدداً من الصيغ؟!.

أظن الجواب واضحا، بل أعتقد أن هذا المنطق لا يسعفنا فى النحو وحده بل فى كل علم وفى كل فن، بل وفى شئون الحياة نفسها.

القياس، والسماع، أيهما أكثر فائدة؟. وأيهما أعون على القراءة الصحيحة، والكتابة القويمة؟.

وثانى الأمرين أن المؤلف أراد أن يثبت أن أكثر النحو غير محتاج إليه، ولو قال هو هذا الكلام لكان قولا، ولكنه أراد أن ينسبه للمتقدمين، وبالضرورة لا تكون له الأهمية البالغة إلا إذا كان رأى المتقدمين كلهم، وعلى ذلك ساق كلامه موهما أنه رأى

المتقدمين وهو فى الحقيقة رأى واحد من متأخريهم ، قال فى صفحة (٥٠) : « وقد اعترف المتقدمون بأن النحاة أدخلوا فى النحو ما لا يحتاج إليه ، بل قرروا أن أكثره غير محتاج إليه ، قال ابن الأثير فى النحو : « وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن ، ومع هـذا فإنه وإن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض بضرورة الإفهام فإن الواضع لم يخص شيئا منه بالوضع ، بل جعل الوضع عاما ، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعنى » .

فأنت ترى أن الرأى رأى ابن الأثير وحده ، ولكن المؤلف نسبه إلى المتقدمين جملة (وقد اعترف المتقدمون) لا أحدهم (بل قرروا) وهم المتقدمون أنفسهم وأعينهم بجملتهم وتفصيلهم ، وإلا فما هـذا الإصرار على نسبة القول إليهم ، فقد عاد فى صفحة (٥٢) - وقد كان هذا الرأى لابن الأثير فيما صرح به - فقال : « وقد فكر المتقدمون فى مسائل النحو ، ورأوا أن لا يدرس منه إلا الضرورى ورأوا أن أكثره غير محتاج إليه ، وقد تقدم رأى ابن الأثير فى هذا » على أن فى العبارة اضطرابا (وقد اعترف المتقدمون بأن النحاة أدخلوا) . فمن هم المتقدمون ؟ ومن هم النحاة ؟ أهم المتقدمون أم غيرهم ؟ .

وإذا تجاوزنا عما هو واضح من قصد الإيهام فى كلامه وأنه لم يجد من المتقدمين أحدا ينسب الرأى إليه غير ابن الأثير ، وقد كان يمكنه أن يقول : ورأى ابن الأثير من المتقدمين إلخ . إذا تجاوزنا هذا نجد أن المتقدمين أو أكثرهم - على الأقل - يرون أن النحو كله ضرورى وإلا ففيم أفنوا أعمارهم ؟! .

وقد نقل الجاحظ فى كتاب الحيوان عن الخليل بن أحمد أنه قال : « لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شمر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه » .

وابن الأثير يتكلم - فقط - فى إفهام المعنى . وليس الغرض من النحو منحصرا فى هـذا المقصد ، بل للنحو أغراض كثيرة لا يجهلها أحد من المهتمين بدراسته ، ونلفت النظر هنا بصفة خاصة إلى ما كتبه إمام البلاغة والنحو الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز) عن النحو .

هذا . وموعدنا بمناقشة هـذا الكتاب ، وصنوه « تحرير النحو » مناقشة علمية المقال الآتى (إن شاء الله) ؟

على العمارى

هل ينتفع الميت بعمل الحي ؟

للأستاذ عمر عبد الوهاب الجندى

إن القرب سواء كانت عبادة بدنية محضة كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن . أو مالية كالصدقة أو مركبة منهما كالحج والجهاد لا تتحقق ويعتد بها ويجازى عليها إلا بالنية « إنما الأعمال بالنية ، ولكل امرئ ما نوى » ، وثمرتها تقوية الإيمان ، وإيقاظ القلوب ، وتطهير النفوس من الأمراض كالحسد والحقد ، وإعدادها لاتقاء سخط الله وغضبه باتباع سبيل الحق مع الخالق والخلق « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » . « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . فعمل القرب ونيتها من الحى لا من الميت فثمرتها وثوابها يكونان له ولا ينتقل ثوابها منه إلى الميت بالإهداء أو الهبة ؛ لأن الإهداء بعث المهدى به إلى المهدى له تكريما له ، والهبة تمليك الموهوب للموهوب له بلا عوض ، ولا يتم كلاهما إلا بالتسليم والقبض وهذا يقتضى أولا أن يكون المهدى به ، والموهوب من الموجودات كالذهب والفضة والتمر والزبيب . والثواب ليس من الأعيان الموجودة بل معنى من المعانى فهو عدم ، ويقتضى ثانيا أن يكون المهدى له أو الموهوب له موجوداً وهو هنا الميت معدوم فلا يتم التسليم والقبض بين الطرفين ؛ لذا لم يثبت أن النبى عليه الصلاة والسلام فعل قربة من القرب ، وأهدى أو وهب ثوابها إلى الأموات تشريعاً لأمته التى كان رءوفا رحيما بها حريصا عليها ولو فعل ذلك ولو مرة لتوفرت الدواعى على نقله ، والعمل به من الصحابة لأنه من الشعائر الدينية التى يشهدها الجم الغفير منهم وكانوا أحرص الناس على الاقتداء به فى فعل ما لم يكن من اختصاصه فى العبادات والمباحات التى أتى فيها بما يدل على مشروعيتها ، كمواظبته على الإتيان بها بكيفية مخصوصة كالأكل والشرب واللبس والنوم . والمتفق عليه أنه لم يرد عن أحد من السلف أنه فعل قربة من القرب كتلاوة القرآن وأهدى أو وهب ثوابها إلى الأموات . وهم القدوة للأمة فى نقل التشريع إليها من النبى عليه الصلاة والسلام والعمل به فى العبادات ، فليس لغيرهم التعبد

بما لم يتعبدوه ، ففى سنن أبو داود عن حذيفة ابن اليمان « كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله فلا تعبدوها فإن الأول لم يدع للآخر مقالا ، فاتقوا الله يا معشر القراء ، وخذوا طريق من كان قبلكم » . ولم يشرع الله من القرب للميت إلا أمرين : أحدهما الدعاء له فى صلاة الجنازة وزيارة القبور وغيرهما كما شرعه للأحياء بعضهم لبعض كما ورد فى الكتاب والسنة ، لا ليكون ثوابه للمدعو له حيا أو ميتا بل ثوابه للداعى لأنه عبادة بدنية محضة له وإنما شرعه الله رجاء تفضله على المدعو له برحمته وتجاوزه عن سيئاته ، فهو من قبيل الشفاعة التى يأذن الله بها لمن يشاء ويرضى من عباده وهو المختار فى قبوله ، وعدم قبوله ، وثانيهما الصدقة من الأولاد عن الوالدين بالاتفاق .

وقد تصدق سعد بن عبادة بمخرف « بستان » له عن أمه ، وحفر بئرا بالمدينة المنورة لسقى الماء صدقة أيضاً عن أمه ، ويسمى إلى الآن ببئر أم سعد ، وذلك بإرشاد النبى عليه الصلاة والسلام له بأن صدقته عن أمه نافعة لها ، فالصدقة من الأولاد عن والديهم فى الحقيقة من سعى الوالدين ؛ لأن أولادهما من عملهما وسعيهما وكسبهما كما ورد فى الأحاديث الصحيحة فهى داخلة فى عموم الآية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ولا يقاس على الصدقة من الأولاد عن والديهم صلاتهم لهما وصيامهم لهما وحجهم وجهادهم عنهما ؛ لأنها أعمال بدنية محضة صادرة من الأولاد بنية منهم ولا دخل للوالدين فيها بعمل ونية ، بخلاف الصدقة فإنها ليست عملا بل هى تنازل عن مال للوالدين حق فيه « أنت ومالك لأبيك » .

وأما عمل القرب للميت من غير الأولاد من صدقة وغيرها فلم يرد بجواز فعلها نص من كتاب أو سنة ففعلها للميت عمل بالرأى وتشريع بما لم يأذن به الله وعدم انتفاع المرء حياً أو ميتاً بعمل الغير قربة له هو ما ترشد إليه الآيات القرآنية « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . « ثم توفى كل نفس ما كسبت » . « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » . « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وهذا التشريع هو ما تقتضية العدالة الإلهية وتستسيغه العقول السليمة وتقبله الطباع المستقيمة ، لأن به تنقطع طماعية العائثين فى الأرض فساداً فى حياتهم الدنيوية ، اعتمادا على شفاعة الشافعين لهم من الصالحين ، وما سيفعل لهم من القرب بعد وفاتهم غير تائبين كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن لهم وما يسمونه العتاقة وهى قراءة عدد مخصوص من سورة الإخلاص لعتق رقبة المذنب من النار ، وما يسمونه

السبحة ، وهى ذكر عـــدد مخصوص من التسبيحات والتهليلات له وغير ذلك من البدع التى لم يرد بها شرع وتمجها العقول الواعية ، لأن المريض لا يشفى بشرب غيره الدواء عنه ، ولا يشبع الجائع بأكل غيره الطعام عنه ، ولا يستريح الجسم المتعب بنوم غيره عنه بل نجاة المرء وفلاحه لا تكون إلا بتزكيته نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح الخالص لله كما أن شفاءه لا يكون إلا بانحرافه عن الطريق القويم الذى هدانا الله إليه لا بانحراف غيره عنه .

قال تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وقال « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . إن النبى عليه الصلاة والسلام وهو أزكى الخلق نفساً وأعظمهم خلقاً وأتقاهم وأخلصهم لله عملا لم يجزم بقبـــول عمله ولا يدرى عاقبة أمره . كما ورد فى الكتاب والسنة قال تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين» وعنه عليه الصلاة والسلام « لا أدرى ـ وأنا رسول الله ـ ماذا يفعل بى » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » . فكيف نركن إلى رأى من يقول : إن عمل القرب من الحى للميت نافع له عند الله ، وهو ليس عملا له ولم ينوه ولا تعقل النيابة فيه لأنه عبادة لفاعله . إن هذا التشريع أقرب إلى الهزل منه إلى الجد لأنه يسوى فى القبول عند الله بين من زكى نفسه ونهاها عن الهوى بمن اتبع نفسه هواها فضل وغوى ، وهذا تأباه العدالة الإلهية . قال تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » . « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » . « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » . إلى غير ذلك من الآيات التى تحقق العدالة الإلهية بين البار والفاجر . إن تشريع انتفاع الميت بعمل القرب له من الحى كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن والصدقة من غير الأولاد لم يرد به كتاب ولا سنة ، بل تشريع بالرأى كتشريع الأحبار والرهبان غفران خطيئات المخطئين من أهل ملتهم ، بصلاتهم لهم وصيامهم وترتيل المزامير من التوراة والإنجيل لهم والتصدق بالقرابين عنهم وما ورد من الأحاديث الظنيــة الثبوت التى تفيد انتفاع الميت بعمل القرب له من الحى كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن ، مخالفة لظاهر القرآن القطعى الرواية المحكم الآيات فإنه صريح فى أن المرء لا ينتفع إلا بعمله وكسبه ، لا بعمل

« البقية فى صفحة ٤٤٩ »

ذو القرنين فى القرآن والتاريخ

للأستاذ عمر الطيبى

نشرت مجلة الأزهر الغراء فى عددها الصادر فى شهر صفر ١٣٧٩ مقالا مطولا بتوقيع الأستاذ نور الحق تنوير عنوانه « ذو القرنين فى القرآن والتاريخ » ذهب فيه إلى القول بأن قورش الفارسى هو المقصود بذى القرنين ، وقد جاء المقال كما قال فى أوله ، تعليقا على نقاش دار على صفحات جريدة « الأخبار الغراء التى تصدر بالقاهرة بين الأستاذين العقاد والغزالى نفى فيه الأستاذ العقاد الرأى الذى ذهب إليه عامة المفسرين « كذا » من أن يكون الإسكندر المقدونى هو ذو القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف ، وتابع الأستاذ الغزالى رأى المفسرين فجاء الأستاذ نور الحق ليقول إن ذا القرنين هو قورش الفارسى .

لفت نظرى فى مقال الأستاذ نور الحق أمور رأيت أن أتحدث عنها رجاء أن يواصل أهل الذكر والاختصاص البحث حتى تتبين الحقيقة .

الأستاذ نور الحق استنتج ما قاله عن قورش مما جاء فى بعض أسفار التوراة المتداولة اليوم ، ومن أقوال بعض المؤرخين الغربيين ، وقد سبقه إلى هذا الاستنتاج مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف السابق فى الهند بمقالات طويلة نشرتها بمجلة « ثقافة الهند » الغراء فى أعدادها الصادرة عام ١٩٥٠ وقد زاد على ما قاله الأستاذ نور الحق بنشر صورة تمثال لقورش على رأسه صورة حية ممتدة من الوجه حتى مؤخرة الرأس كأنها تمثل قرنين ! . وعرف مكان السد تعريفا يخالف ما ذهب إليه الأستاذ نور الحق ، كما تحدث عن « دربند » أو « باب الأبواب » ليؤكد أنه مكان آخر غير السد .

فالأستاذان أبو الكلام ونور الحق ، اتفقا على القول بأن قورش هو ذو القرنين ، واستنتجا هذا القول من بعض أسفار التوراة ومن أقوال بعض المؤرخين غير المسلمين . واختلفا فى تعيين مكان السد ، وأسمى الأستاذ نور الحق بعض أصحاب الأسفار أنبياء مع أنهم ما ذكروا بين الأنبياء لا فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية ، وفى حين أن الذين يعترفون بنبوتهم ، ويحرصون على أن يقيموا دولة إسرائيل من بين الأموات بداعى أن هذا ما وعد الله به ، ينكرون نسبة تلك

الأسفار ـ التى نقل عنها ـ لأصحابها، ولا يقولون بما جاء فيها . ويطيلون الحديث عن خلاف بين نسخ الأسفار التى يعترفون بها ، ويعزونه لأسباب يطول شرحها ، تحدث عنها الذين فسروا التوراة أو ألفوا تواريخ لتأييد ما جاء فيها من حوادث وأحداث .

ويزيد بعضهم بالاستنكار فيؤكد أن كاتب سفر دانيال ـ وقد استشهد الأستاذ أبو الكلام ونور الحق ببعض ما جاء فيه ـ يهودى مجهول اسمه ، كتبه فى آخر مدة الجلاء البابلى أو بعد صدور أمر قورش بعود بنى إسرائيل (المطران يوسف الدبس فى تاريخ سورية ص٥٦٠م٢ ج ا وص٥٨٧ وقد تحدث فى تاريخه عن الخلاف بين النسخة السبعينية وغيرها وعن الخلاف فى سفر القضاة ومن كتبه ومتى كتب وعن القول بأن أسفار الملوك متعددة الأقلام وعن أخطاء النساخ) .

الكبش ذو القرنين :

نقل الأستاذ نور الحق الفقرات ٣ — ٥ من الإصحاح ٨ من سفر دانيال وفيها : « ورأيت فى الرؤيا وأنا أعبر نهر أولاى فرفعت عينى ورأيت ، وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر . . وللأعلى طالع أخيراً . رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منقذ من يده » .

ثم يقول الأستاذ : إن دانيال فسر هذه الرؤيا فى البقرة ٢٠ من نفس الإصحاح بقوله : « أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى وفارس » .

يرى القارئ أن كاتب السفر لم يقل : « إن الكبش من ملوك مادى وفارس بل قال ملوك مادى وفارس ، فهل كل ملوك مادى وفارس يحملون لقب » « ذو القرنين » ؟! .

وقصة الكبش والاستدلال بها ، والاستنتاج منها ، معروفة قبل أن يستنتج منها الأستاذ فقد جاء فى مقال للبرنس عمر طوسن نشر فى عام ١٩٣٠ م ما نصه :

« ولفظ ذى القرنين كنى به مؤلفو العرب الإسكندر المقدونى ، وقد أثبت الأستاذ برنشيا مدير المتحف الرومانى بالإسكندرية فى محاضرة ألقاها أخيراً أن هذه الكنية صحيحة ، وأن الإسكندر لما فتح مصر وزار معبد الإله آمون بواحة سيوة ، وكان هذا الإله يرمز إليه بكبش ذى قرنين جعلته كهنته ابناً له فاتخذ هذا الشعار . وأيد الأستاذ برنشيا ذلك بما عثر عليه من قطع النقود التى عليها صورة الإسكندر بشعاره هذا » (مجلة السيدات والرجال ص ١٥٨ السنة ١١ فى مارس ١٩٣٠ شوال ١٣٤٨) .

وإذن فأسطورة الكبش معروفة قبل دانيال ،

قرناه يختلفان عن قرنى تمثال قورش الذى استشهد به مولانا أبو الكلام :

سفر عزرا أيضا :

أراد الأستاذ نور الحق أن يثبت أن قورش كان ملهما فنقل فقرات من الإصحاح الأول لسفر عزرا، وسفر عزرا من الأسفار التى استنكرتها طوائف مسيحية تلعب حكوماتها بالعالم ، فقد روى المطران دبس « ص ٦١١ ج ١ م ٢ من تاريخه استنكار من أسماهم أهل الانتقاد لهذا السفر ثم دافع عن صحته لأن طائفته تعترف به » .

وذهب الأستاذ نور الحق إلى أن قورش من معتنقى الديانة الزردشتية وأنها أقرب إلى الإسلام من الديانات الأخرى . وقد أسهب أبو الكلام فى الحديث عن الزردشتية حتى كاد أن يقول بأنها من الأديان السماوية ! وهذا ما نسمعه وما نقرؤه لأول مرة .

من هم يأجوج ومأجوج ؟.

وليعين الأستاذ نور الحق القبائل والأقوام التى سميت يأجوج ومأجوج ، يرجع إلى سفر حزقيال فينقل عنه الفقرة ٢ من الإصحاح ٣٨ ونصها : « يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه » .

وقد رجعنا إلى سفر حزقيال (طبعه لمنفعة الكنائس الشرقية وليم واطسن فى لندن سنة ١٨٦٠ م على النسخة المطبوعة فى روسية سنة ١٦٧١ م باسم « كتاب المقدس المشتمل على كتب العهد العتيق الموجودة فى الأصل العبرانى وأيضا كتاب العهد الجديد ») فإذا بنص الفقرتين الأولى والثانية من الإصحاح ٣٨ هكذا : « وكان إلى قول الرب قايلا . يا ابن البشر اجعل وجهك على أجوج أرض ماجوج رييس راس ماساخ وتوبال » .

ثم نقل الأستاذ نور الحق الفقرة الثانية من الإصحاح العاشر من سفر التكوين وهى : « بنو يافث جومر ويأجوج ومادای ویاران وتوبال وماشك وتيراس » .

وقد رجعنا إلى كتاب المقدس « الذى نقلنا عنه ما جاء فى سفر حزقيال فإذا بالفقرة الثانية من الإصحاح العاشر هذا نصها بالحرف : « فبنو يافث غامر وماجوج ومادای وياوان -بالواولا بالراء- وتوبال وموشوخ وتيرس » .

فإذا لجأنا إلى التأويل وقلنا أن « جومر » ترجمها بعضهم « غامر » و « مادى » رسمها بالألف بعد الدال ، و « ماشك » تعنى « موشوخ » أو « ماساخ » وتيراس تحريف روس أو روش أو راس فما نقول فى يأجوج كما نقل الأستاذ ، وماجوج كما نقلنا عن « كتاب المقدس » فى حين أن حزقيال زعم كما جاء فى النصين أن الرب قال له : اجعل وجهك

« على جوج » أرض ماجوج فجعل جوج اسم أرض لا اسم قبيلة ، ولا اسم أمة ولم يذكر لفظة ياجوج البتة ! .

على أن أبا الكلام نقل نص نبوة حزقيال كما يلي :

وصلني كلام الرب قائلا : يا ابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضده ، نعم شطر جوج الذي هو رئيس أرض ماجوج ، ومسك ، وتوبال فقل له إلخ .

ثم فسر بقوله : « وصف جوج بأنه رئيس مسك » و « توبال » فكأن النبوة صورت موقع « سي تهين » الجغرافي بهذا الوصف فليس « مسك » إلا ما نسميه الآن بموسكو أما توبال فهي بلاد البحر الأسود المرتفعة . (ص ٣٠ - ٣١ العدد الثالث من ثقافة الهند الصادر في سبتمبر عام ١٩٥٠) .

العرب عرفوا يأجوج ومأجوج :

والعرب عرفوا يأجوج ومأجوج دون توسط أسفار من التوراة لما حدثهم الله سبحانه وتعالى عنهم في سورة الكهف وحدثهم في السورة نفسها عن ذي القرنين ولما أنذرهم الله بخروجهم بقوله في سورة الأنبياء :

« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » - الآية ٩٦ - وسمعوا ورووا الأحاديث النبوية التي تتحدث عن أمتي يأجوج ومأجوج ، وأرسل الواثق بالله العباسي سلاماً الترجمان ليخبره عن السد وهل فتح كما رأى في الرؤيا أم لا . وقرأوا كتاب جنكيزخان قبل أن يغزو بلادهم إلى سلطان خوارزم لما هدده بالغزو وقد ذكر فيه بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله اتركوا الترك ما تركوكم وبما روى من فتح السد .

وقد نشر الأستاذ (طنطاوي جوهري) وعنه أخذنا ما تقدم عن كتاب جنكيز خان ، صورة خريطة لبلاد يأجوج ومأجوج وللسد ، قال : إن صديقه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة دار العلوم رسمها ، كما أن الأستاذ الجوهري قال : إن عالماً مسلماً روسيا من أوفا يدعى الشيخ عبد الله زاره وتعرف إليه ، وخاطبه باللغة العربية الفصحى ، وقال له : إننا نحن المغول يأجوج ومأجوج والتتر فريق من تلك الأمم « من ص ٢٠٠ إلى ٢٠٦/٩ تفسير طنطاوي جوهري وحديث الشيخ عبد الله في ص ٢٠٥ » .

والعرب اليوم في حاجة ماسة لمعرفة يأجوج ومأجوج وللاستعداد للطوارئ لا سيما إذا صح ما كانت كتبته بعض الهيئات العربية السياسية من أن الكثرة من اليهود الذين نزلوا فلسطين من الخزر الذين اعتنقوا اليهودية ، وبعد أن قرب وقت خروج يأجوج ومأجوج وبدت النذر ومنها ما يقع اليوم في العراق من الشعوبيين الذين

يتنكرون للدين الإسلامى وللقومية العربية أيضا ، ومعرفة يأجوج ومأجوج والوصول إلى السد واكتشافه من جديد سهل ميسور فى عهد الجمهورية العربية المتحدة .

المفسرون لم يجمعوا :

والغريب أن الأستاذ نور الحق بعد أن نفى أن يكون بوسع الإسكندر أن يبنى مثل هذا السد العظيم قال « وربما اختلط هذا الأمر على بعض المؤرخين الغربيين فنسبوا هذا السد إليه متأثرين بماذهب إليه المفسرون المسلمون من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى(آخر الصحيفة ١٧٩ من مجلة الأزهر).

وإذا رجعنا إلى ما قاله مفسرو القرآن الكريم لا لنجد أنهم أجمعوا على أن ذا القرين هو الإسكندر . فالطبرى على الرغم من أنه روى حديثاً أن يهوداً جاءوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين فأخبرعما جاءوا يسألون وأجابهم أنه رومى بنى الإسكندرية إلى آخر ما فى تلك الرواية فالحديث فى سنده شيخان لم يسميا ، وقد استنكره ابن كثير وزاد أن ذا القرنين كان فى عهد ابراهيم الخليل عليه السلام وروى ما قيل من أنه عربى وتوسع فى هذه الرواية فى تاريخه ونقل أبياتاً لأحد الحميريين مطلعها :

قد كان ذو القرنين جدى مسلماً
ملكا تدين له الملوك وتحشد

وقال : وقد جاء فى حديث أنه كان من حمير وأمه رومية ص ١٠٤ : ٢ تاريخ ابن كثير « الطبعة الأولى » .

والزمخشرى قال : إسكندر ولم يزد ، والمؤرخون : يقولون إن هناك ملكين اسم كل واحد منهما اسكندر ، وفى الجلالين قال : إن اسمه اسكندر وبذا ينتفى الإجماع ، وقد ألف الشيخ راغب الطباخ عضو المجمع العلمى العربى فى الإقليم السورى المتوفى من بضع سنوات رحمه الله ، رسالة أيد فيها أن ذا القرنين من العرب ، ومعلوم أن العرب فى جاهليتهم كانوا أبرع منا اليوم فى معرفة جغرافية العالم فضلا عن أنهم جاسوا خلال الديار الروسية .

والمفسرون المعاصرون أيضاً :

والمفسرون المعاصرون قالوا بأنه اسكندر المقدونى فطنطاوى جوهرى قال ٠ إن كثيراً من العلماء يقول : إنه اسكندر الرومى بن فيلبش وهناك رأى آخر أنه من حمير واسمه أبو كرب بن إفريقش وإفريقش هو الذى رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فإلى تونس فسميت القارة كلها باسم إفريقيا .

والأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق قال : هو عبد صالح ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة

والسطان وقيل نبي كما يشهد له ظاهر قوله تعالى (ياذا القرنين) وسمى ذا القرنين لبلوغه المشرق والمغرب فكأنه حاز قرنى الدنيا وليس هو الإسكندر المقدونى تلميذ أرسطو بل كان قبله بقرون .

والسيد قطب قال فى كتابه « فى ظلال القرآن » : لقد سأل سائلون عن ذى القرنين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن فى هذه السيرة فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت فى التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين وينبغى أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وصورة التمثال ليست بدليل :

وصورة تمثال قورش التى نشرها أبو الكلام آزاد فى ثقافة الهند والتى قال : إنه عثر عليها فى المرغاب على الحدود الإيرانية الفارسية لا تنهض حجة ولا تعد دليلا على أن قورش هو ذو القرنين وقد رأيت هذه الصورة قبل نصف قرن قبل أن أسمع أن أحداً يقول : إن قورش هو ذوالقرنين وممن نشرها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت المارونى فى تاريخ سوريا مقابل الصحيفة ٣٢٨ من الجزء الأول المجلد الأول وهذا التاريخ طبع فى المطبعة العمومية الكاثوليكية فى بيروت سنة ١٨٩٣ ميلادية وقد قال المطران : إنها صورة ملك الفرس وجدت فى سهول مرغب « يعنى مرغاب » حيث كانت عاصمة الفرس وعلى رأسه تاج فى أسفله حية وعلى كتفيه أربعة أجنحة جناحان مرتفعان إلى ما فوق وآخران متدليان إلى أسفل إشارة إلى السلطة الملكية بحسب اصطلاح الأشوريين ويده الواحدة مرتفعة لدعاء أو إصدار أمر . اهـ .

والناظر إلى الصورة يرى خطوطاً فى أعلاها تظهر فيها آثار حروف معدودة بينما الصورة التى نشرها أبو الكلام أشد وضوحا والأحرف ظاهرة والأسطر ستة ولكنه ما ترجم الكتابة أو لم يطلع على ترجمتها .

فأبو الكلام لم يكن أول من نشر صورة التمثال فى مجلة عربية ، وقد يكون أول من قال بأنها تدل على أن قورش هو ذو القرنين والقرنان فى الصورة أقرب إلى الوهم وهما يختلفان عن قرنى الكبش فى الاتجاه وفى أنهما صورة حية فوقها بعض الصور .

مكان السد :

أما مكان سد يأجوج ومأجوج فقد قال الأستاذ نور الحق تنوير أنه سد « دربند » التى يسميها العرب « باب الأبواب » فى حين أن أبا الكلام آزاد نفى أن يكون سد « دربند » هو السد الذى بناه ذو القرنين

ليحول دون إفساد يأجوج ومأجوج . ومهد لتعيين مكان السد ببحث عن يأجوج ومأجوج وعن أدوار سبعة أغاروا فيها على الأمم المجاورة لهم وقد أسمى هذه الأدوار « خرجات » ، وقال: إن الخرجة الخامسة كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد حيث تدفق سيل للقبائل المنغولية على الصين أسماهم مؤرخو الصين (هيونغ نوه) وحرف الاسم فأصبح « هن » وفى هذا العصر بنى امبراطور الصين « شين هوانغ تى » ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصدهجمات هؤلاء المغيرين .

وقال : إن الخرجة الأخيرة كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا وخرجت بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد مدينة السلام وختم بقوله :

توجد فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال قوقاز كأنها جدار طبيعى ، وقد سد هذا الجدار الجبلى ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب إلا طريقاً واحداً بقى مفتوحا وهو مضيق فى وسط سلسلة الجبال يوصل بين الشمال والجنوب ، ويسمى هذا المضيق فى أيامنا هذه بمضيق داريال ، ويشار إلى موضعه فى الأطالس الحاضرة بين وادى كيوكز vadi kaukas وطفليس « تفليس كما كان يسميها العثمانيون » حيث يوجد إلى الآن جدار حديدى من قديم الأزمان . ولا ريب أن هذا الجدار الذى بناه قورش ، إذ تنطبق عليه الأوصاف التى وصف بها القرآن سد ذى القرنين قائلا إنه استخدمت فى بنائه زبر الحديد وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله ، فلا يبقى به خلل ، وقال إنه بنى بين جدارى جبليين . وهذا ما نراه فى مضيق داريال : جدارين جبليين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدى الذى أقفل باتصال الجدارين الطريق الذى كان مفتوحا بينهما .

وقال إن هناك كتابات أرمنية لها أهميتها لأنها بمنزلة الشهادة المحلية ، وهناك شهادة أخرى هى لغة بلاد جورجيا .

وبعد نحو صفحتين نفى أبو الكلام أن يكون (دربند) هو السد .

دربند معروفة فى اليوم :

وبعد : فالعرب عرفوا « باب الأبواب » وعرفوا أن الفرس كانوا يسمونه « دربند » وتحدث ياقوت الحموى عن باب الأبواب وقال هو الدربند دربند شروان ، وعن فتحها ونسب إليها جماعة من المسلمين ونقل شعراً عربياً ذكرت فيه .

وتحدث عنها جغرافيو العثمانيين فقال شمس الدين سامى فى قاموس الأعلام مادة « دربند » أن العرب يسمونها (باب الأبواب)، و (الباب) وهى معروفة عند الأتراك بـ « دمير قبو » يعنى الباب الحديدى وقد

فتحها العثمانيون . واستولوا عليها فى محارباتهم مع الصفويين أكثر من مرة واستردها الصفويون . وعام ١٧٢٢ م ضبطها بطرس الأكبر العاهل الروسى وبعد ٦ سنوات استردها نادر شاه وعام ١٨١٣ تركت لروسيا

ونسب إليها أبو الوليد حسن بن محمد من علماء الحديث توفى عام ٤٥٣ هـ (مادة دربندى) ثم تحدث عن دولة صغيرة قامت فيها فى القرن العاشر للهجرة النبوية امتدحكمها نحو مائة سنة وعرفت بالدولة « الدربندية » وقد أسمى حكامها وأرخ لهم .

هذا وقد أذيع من نحو سنتين أنه اكتشف فى روسيا المكان الجبلى الذى كان يجلس فيه جنكيز خان ويشرب الشاى وفى أعلى الجبل صورة كأس فمن اكتشف الكأس يسهل عليه أن يكتشف السد وفى هذا بلاغ . .

« دمشق » عمر الطيبى

(بقية مقال : هل ينتفع الميت بعمل الحى ؟ .)

غيره له « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . الآية ، وقد قرر أئمة الحديث بأن من علامات وضع الحديث مخالفته لظاهر القرآن مع عدم إمكان التوفيق بينهما بتأويل تجيزه القواعد الشرعية والأوضاع اللغوية ، لذا لم يعول عليها إماما السنة رواية ودراية : مالك والشافعى رضى الله عنهما ، وذهبا إلى ماصرح به القرآن من أن المرء لا ينفعه إلا عمله وكسبه المنقطع بموته أو الباقى بعد وفاته ، ومنه ولده الصالح الذى يدعو له ويتصدق عنه فإنه من عمله وكسبه . كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فعنه عليه الصلاة والسلام: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وعنه عليه الصلاة والسلام، « الولد من كسب أبيه » فمن أخطأه الصواب وحسنت نيته ووثق بصحة هذه الأحاديث مع مخالفتها لظاهر القرآن فعليه أن يجعلها من قبيل المتشابه الذى استأثر الله بعلمه : كالروح ، ووقت الساعة . ويتمسك اعتقاداً وعملا بظاهر القرآن ، وصريحه دون غيره ، وإلا كان مبتدعا ومشرعا بما لم يأذن به الله ، فيكون عليه وزره ووزر من اتبعه ولا تقبل توبته ما دامت هذه البدعة . أسأل الله أن يجعلنا ممن يهتدون بصريح القرآن وصحيح السنة وما عليه الجماعة .

عمر عبد الوهاب الجندى
شيخ معهد دسوق الأسبق

طريق السعادة

للأستاذ علي الطنطاوي

المستشار بمحكمة النقض

« ورد على فى بريد هذا الأسبوع كتاب من أخ من أوساط الموظفين كتب إلى ثائرا فائراً ، يذم الدهر ، ويشكو الزمان لأن مرتبه وهو الذكى العالم المستقيم (كما يقول عن نفسه) لا يبلغ ربع ما يناله زميل له ، ليس له ربع ذكائه ولا علمه ، وكلما طالب منعوه ما هو حق له ، وحرموه منه ؛ فكان تحكم بشر مثله فى رزقه أشد عليه من ضيق الرزق — إلى آخر ما قال . » .

ولقد مرّ بي ، أنا ، مثل هذه المحنة ، حين خطبت أيام الحكم العسكرى فى الشام من نحو عشر سنوات (تلك) الخطبة التى حملها المذياع من منبر مسجد جامعة دمشق (١) إلى آفاق الأرض فأغضبت علىّ الحكومة ، وأثارت علىّ الجرائد ، وقسمت الناس إلى فريقين : فريق معى ينكر ما أنكرت من رقص البنات فى (الدوحة) واختلاطهن بالشباب فى الجامعة وتكشفهن فى الملعب وفى السينمات والشوارع بحكم التقليد القردى لأوربة . الذى يسمى بلسان العصر «التقدمية» ، وفريق على ، يخشى أن تفوته هذه المتعة ببنات الناس فهو يحارب كل داع إلى صيانة أوستر، ونال منى الحاكمون فى منصبى وفى رزقى.

وقعدت عشية مغيظاً محنقاً ، لا من الجرائد وسبابها ، فما باليتها ولا قرأت ما فيها ، ولا بنقص المرتب وضياع المنصب، بل غضباً لحريتى وكرامتى وأن يتحكم فىّ إنسان مثلى ، ويملك التصرف فى عملى وفى رزقى ، وأظلم على الليل وأنا مستغرق ذاهل أدارى من نفسى غضبة أخشى أن تتفجر تفجر القنبلة ، وكان فى غرفتى شعبة من الراد (١) فسمعت القارئ يقرأ حتى بلغ قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا» فتنبهت

---

(١) فى جامعة دمشق مسجد تقام فيه الجمعة .

(١) الراد كلمة وضعتها من قديم للراديو الذى يرد الصوت . أما محطة الإذاعة فهى المذياع .

إليها كأنى ما سمعتها قط ، وكأنما نزل بها جبريل الساعة على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحسست أنها جاءت برداً على كبدى وسلاماً ، فسكت عنى الغضب ، وامّحت عن عينى الغشاوة ، ورأيت حقيقة القدر رأى العين وقلت : يا رب إن كنت أنت الذى قدر وقسم ، وأنت الذى أعطى ومنع ، فأنا راض بما قسمت لى .

نعم يا أخى الذى كتب إلى ...

. . . هو الذى قسم المعايش ، وهو الذى قدر الأرزاق ، وما يملك هؤلاء الناس عطاء ولا منعا ، ما الناس إلا وسائط . فهل تغضب على محاسب الدائرة ، فى أول الشهر إذا أعطاك مائة وأعطى الرئيس مائتين ؟ وما ذنبه حتى تغضب عليه ؟ أهو الذى وضع الملاكات[1] وحدد الرواتب أم هو منفذ لما قرر من قبل وأمضى ؟ .

هذا هو مثلك ومثل من تظن أنهم أعطوك أو منعوك ، وأنهم قدموا غيرك وأخروك . إن هم إلا (محاسبون) أما الذى قرر جداول الأرزاق من الأزل ، وحدد مقاديرها فهو الله رب العالمين ، فما كان لك فسوف يأتيك ، على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك أتستطيع أن تنال (ليرة) من راتب زميلك مهما كنت قويا وكان ضعيفا ؟ ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

فإذا لم يكن لك كل ما تريد ، فلماذا لا تريد كل ما يكون ، فتستريح وتريح ؟ .

وهذه هى نعمة الإيمان بالقدر . وليس معنى الإيمان أن تستلق على ظهرك وتنتظر أن ينزل عليك رزقك من السقف فإن السماء (كما قال عمر) لا تمطر ذهباً ولا فضة ، بل أن تعمل للدنيا عمل من يعيش فيها أبداً ، وأن تجمع المال من كل وجه حلال ، وأن تضرب فى آفاق الأرض ، وتأخذ بأسباب الرزق ، ولا تدخر جهداً هو فى طاقة البشر لا تبذله للغنى ، فإن لم تصل بعد ذلك كله إلى ما طلبت ، فلا يدفعك اليأس إلى الانتحار ولا يسلمك الغم إلى المرض ، بل تعز وارض وقل : لقد عملت ما على ولكن الله لم يكتب لى النجاح ، وأنا راض بقضاء الله .

هذه حقيقة الإيمان فى دين الإسلام ليست تسيباً وكسلا كما يظنها العوام وأشباه العوام . وأنت تعرف قصة الرجل الذى ترك ناقته على باب المسجد ودخل على الرسول فلما خرج لم يجدها ، فرجع ، فقال : يا رسول الله ، ناقتى ، تركتها وتوكلت على الله فضلت!

(١) الملاك فى الشام هو (الكادر) لا يعرف إلا بهذا الاسم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيدها وتوكل على الله ، هذا هو الإيمان ، إن الله قد جعل الكسب منوطاً بالعمل والنبات مقرونا بالحرث والزرع ، والشفاء موقوفا على الطب والعلاج ، فمن قعد وطلب الربح لم يربح ، ومن أراد الحصاد ولم يزرع لم يحصد ، ومن طلب الشفاء ولم يتداو لم يشف . والله لا يبدل قوانين الكون ، وسنن الوجود ، إرضاء لكسول أو خمول . فاعمل وادأب ، وخذ وطالب ولا تسكت عن حقك ولا تقصر فى ابتغائه ، ولكن لا تدع اليأس يدخل عليك ، والحقد الأسود يأكل قلبك . ولا تقل ما لفلان وفلان ! فلقد كنت أنا يوما مثلك أجد من هم دونى ، ومن كانوا تلاميذى قد حازوا الجاه والمال ، وبلغوا أعلى المناصب ، فأتألم . ثم قلت لنفسى : يا نفس ويحك ، لم الحسد ؟ ومن أعطاك العهد على أن تكونى أبداً فوق الناس ؟ أو ليس خيراً لك يا نفس أن أدخل على وزير أو كبير فيجلنى ويرانى مثله ، من أن أدخل على من يستصغرنى ويرانى دونه ؟ أولست فى خير ؟ أوَلا أتقلب فى النعم ؟ وبرئت من مرض الحسد فاسترحت وصرت أنظر إلى نعم الله على فأرانى لا أستحق بعضها ، وها أنذا اليوم لا أشكو شيئاً وأعبُّ السعادة - والله - عباً .

وليس فى الدنيا أحد لا يجد من هو أفضل منه فى شىء ، ومن هو أقل منه فى أشياء ، إن كنت فقيراً ففى الناس من هو أفقر منك وإن كنت مريضاً أو معذباً ففيهم من هو أشد منك مرضاً وأكثر تعذيباً فلماذا ترفع رأسك لتنظر من هو فوقك ، ولا تخفضه لتبصر من هو تحتك ؟ إن كنت تعرف من نال من المال والجاه ما لم تنله أنت وهو دونك ذكاء ومعرفة وخلقا ، فإن فيمن لا تعرف من أنت دونه أو مثله فى ذلك كله وهو لم ينل بعض ما نلت ، وفلسفة الرزق أدق من أن تدرك وانظر إلى الناس تر منهم الغواصين الذين جعل الله خبزهم وخبز عيالهم فى قرارات البحار فلا يصلون إليه حتى ينزلوا إلى أعماق الماء ، والطيارين الذين وضع خبزهم فوق السحاب فلا يبلغونه حتى يصعدوا إلى أعالى الفضاء ، ومن كان خبزه مخبوءاً فى الصخر الأصم فلا يناله إلا بتكسير الصخر ، ومن رزقه فى مجارى المياه الوسخة أو المناجم العميقة التى لا ترى وجه الشمس ولا بياض النهار ، ومن يأخذه بيده ، أو برجله ، أو بلسانه ، أو بعقله ، ومن لا يصل إلى الخبز إلا ببذل روحه وتعريض مهجته للهلاك كلاعب (السيرك) الذى يترصده الموت من كل مكان فإن لم يدركه ساقطاً على رأسه ، أدركه وهو بين أنياب الأسد أو تحت أرجل الفيل .

فاحمد الله أن جعل رزقك على مكتبك تصل إليه وأنت قاعد على كرسيك لم يجعله في رءوس الجبال ولا في أعماق البحار ولا في مواجهة الأسد والنمر.

وهذه المزايا التي تقول أن الله أعطاكها، مزية الفهم والعلم والجد والدأب والاستقامة والأمانة أليست نعماً تستحق أن تحمد الله عليها؟ أو ترضى أن تزداد مالا، وأن تكون عيياً غبياً أو جاهلا أو خاملا أو لصاً أو مجرما؟ فلا تأسف إذا أعطيت هذه النعم كلها وحرمت المال الوفير، بل أسف إن حرمتها وأعطيت أموال قارون!.

وهل السعادة يا أخي بالمال؟ ما المال إن لم تَشْتَرِ به متعة عيش أو لذة نفس، أو مكرمة يبقى ذكرها، أو صالحة ينفع أجرها؟. المال وسيلة. فإن لم يتوسل به إلى نعيم دنيا أو سعادة آخرة، كان ورقا مصوراً أو معدنا براقا. كالذي زعموا أنه كان له دعوتان مجابتان، فدعا ربه أن يجعل كل شيء تمسه يده ذهبا فأعطيها فكاد يطير عقله من الفرح، وانطلق يلمس كل ما يجد فيحوله ذهبا، حتى جاع فأخذ الصحن ليأكل فصار ما فيه من الطعام ذهبا، وعطش، فحمل الكأس ليشرب فصار ما فيها من الماء ذهبا، فقعد جوعان عطشان. فأقبلت ابنته تواسيه فعانقها فصارت تمثالا من الذهب، فدعا ربه الدعوة الثانية أن يعيد كل شيء كما كان لأنه أدرك أن الرغيف للجائع، والكأس للعطشان، والبنت للأب، خير من ملء الأرض ذهباً.

وأنت تستطيع بمرتبك القليل، إن أحسنت التصرف فيه، واشتشعرت الرضا به، أن تكون أسعد ممن له الآلاف المؤلفة من الليرات، وأنا أعرف رجالا يدخل على الواحد منهم في يومه، مالا يدخل على في السنة أو السنتين من المال، وأنا أعيش عيشا أرفه وأرغد مما يعيشون، لا آكل أطيب مما يأكلون، ولا ألبس أفضل مما يلبسون، ولا أمتع نفسي أكثر مما يستمتعون، ولكني أرضى أكثر مما يرضون. ولي بعد ذلك لذائذ، هم محرومون منها: لذة المطالعة أمام المدفأة في ليالي الشتاء، ولذة التفكير الحالم في الفراش قبل النوم، ولذة المناظرة في مجالس العلم والأدب، ولذة المحاضرة في النوادي والإذاعات، وهم محتاجون إليّ، يسألونني فأعلمهم، ويجيئون إلي فأحكم بينهم وأنا لا أحتاج إلى واحد منهم، لأنهم إنما يفضلونني بالمال وأنا لا أطمع في أموالهم ولا أرضى أن آخذ منهم، وأنا إن أردت القناعة والرضا، وجدت من المال ما يكفيني وإن لم أقنع ولم أرض لم تكفني أموال الدنيا.

وما يصنع بالمال من يدخل عليه فى شهره العشرة آلاف والعشرون والخمسون من كبار التجار والموسرين ؟ أيمكن أن يلبس الرجل عشر بذلات معا ؟ أو أن يأكل عشرين رغيفافى غذاء ؟ أوينام على خمسة أسرة فى وقت واحد ؟ إلا أن يكون الإنفاق فى السرف والترف والفسوق والعصيان ، وهذا شىء ليس له حدود ، ويمكن أن ينفق المرء فى ليلة واحدة ، على الخمر والعهر ، ما جمعه فى عشر سنين ويمكن أن يشعل دخينته (سيكارته) بورقة مائة الليرة ، ولكن هذه كلها أفعال السفهاء المجانين ونحن نتكلم عن العقلاء من الناس !.

ولقد بقيت مرة وحدى فى دار المحكمة القديمة فى دمشق فقعدت أمام البركة وأردت أن تمتلئ حتى يفيض الماء من جوانبها ففتحت (الأسباع [1]) كلها فتدفق الماء ولكنها لم تمتلئ فعجبت وقمت أفتش فوجدت (المارب) الكبير مفتوحا فسددته ففاض الماء ...

فقلت : إنه ليس العبرة بفتح (السبع) ولكن بسد (المارب) العبرة بتقليل المصروف لا بتكثير الوارد ، فلا تأس على نفسك إن قل مرتبك ، وارض فإن الرضا هو السعادة التى يفتش عنها الناس ويبحث عنها الفلاسفة ويهيم بها الأدباء ، وهى تحت أيديهم كالذى يفتش عن نظاراته فى كل مكان ، ويسأل عنها فى الدار كل إنسان والنظارات على عينيه .

السعادة بالرضا والإيمان :

واعلم بعد: أن كل حال إلى زوال ، فلا يفرح غنى حتى يطغى ويبطر ، ولا ييأس فقير حتى يعصى ويكفر ، فإنه لا فقر يدوم ولا يدوم غنى ، وكم من رجال نشئوا على فرش الحرير ، وشربوا بكئوس الذهب ، وورثوا كنوز المال ، وأذلوا أعناق الرجال ، وتعبدوا الأحرار ، فما ماتوا حتى اشتهوا فراشا من صوف يقى الجنب عض الأرض ، ورغيفا من خبز يحمى البطن من قرص الجوع ، وآخرون قاسوا المحن والبلايا وذاقوا الألم والحرمان ، وطووا الليالى بلا طعام فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم ، وتكاثرت الخيرات ، وصاروا من سراة الناس ، وهل فى الدنيا غنى لم يكن يوما أو لم يكن أبوه أوجده فقيرا ، وكم فى الدنيا من فقير صار أو صار ولده أو حفيده رب الملايين .

---

(١) السبع فى عامية الشام مصب الماء إلى البركة وكان يكون على صورة سبع – والمارب مخرج الماء منها .

فلا ييأس أحد ، فربما صار ابن آذن [1] المحكمة رئيسها ، وصار ابن الرئيس آذنها ، وغدا ولد الفلاح صاحب الأرض ، وولد صاحب الأرض فلاحا يشتغل بطعام يومه .

وإنما هى الأيام يداولها الله بين الناس ككرة الملعب ، ما تكون بيدك إلا ريثما تنتقل إلى غيرك والعمر كله ماض فهل يبقى لك المال إن ذهبت الحياة ؟ .

وسيسوى الموت بين الأحياء جميعا . الغنى والفقير ، فى نظر الدودسواء ، والعامل والأجير والصعلوك والأمير والكبير والصغير كلهم يصير إلى البلى والانحلال ثم يلقى السعادة الدائمة أو الشقاء الخالد .

قم فى المقبرة تلق قبرا يشمخ بأنفه كبرا على القبور ، يزهى بالرخام المجزع المنقوش ، ويضحك بالزهر والورد وآخر يكبو متعثرا بالطين ، تحت أقدام السائرين ، وقبرا ثالثاً قد مات كما مات من فيه فعاد القبر ترابا فى الأرض ؟.

تفاوتت المظاهر ولكن اتحدت البواطن ، فما فيها كلها إلا رمم بالية ، وعظام نخرة ، لا تختلف رمة عن رمة ، ولا عظام عن عظام ولا تميز جمجمة الملك من جمجمة الصعلوك ، ولا ساق القاضى الذى حَكَمَ من ساق المجرم الذى حُكِمَ ، وما رد قبر الحياة على ميت ، ولو كان قبر الامبراطورة شاهجان (تاج محل) أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض .

ما يبقى للميت إلا الذكر فى الدنيا والعمل للآخرة ، وما الذكر ـ إن حققت ـ وما الشهرة إلا خدعة كبرى ليس وراءها شىء ، والعمل الصالح هو وحده الباقى ؟

على الطنطاوى

مستشار محكمة النقض

فى الجمهورية العربية المتحدة

(١) الآذن فى الشام الفراش .

الإمام الزمخشرى والشعوبية

قال الإمام الزمخشرى :

أحمـــد الله على أن جعلنى من علماء العربية ، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميمهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين .

تطوّر النحو العربيّ

للدكتور عبد الله درويش

لقد خلع الدين الإسلامى على اللغة العربية ظلا من الإجلال والتقدير ، والعناية ، قاربت فى بعض الأحيان درجة القداسة وكانت العناية بها إبان نشأة الامبراطورية الإسلامية عناية تقوم على أنها جزء من مقومات الإسلام : ولذا رأيناها تغزو اللغات المحلية وتصرعها ، حتى أصبحت اللسان فى أرجاء الدولة من المحيط إلى الخليج .

وقبل أن نغوص فى أعماق موضوع البحث يحسن أن ننبه على فرق كبير بين شيئين .

أحدهما اللغة : والثانى قواعد اللغة أو نحوها grammer فنصوص اللغة كما حفظت لنا ممثلة فى القرآن الكريم وفى الحديث وفى أدب العرب من شعر ونثر ، لا نملك نحن أن نغير فيها شيئا ، بل ليس من حقنا هذا ، ذلكم هو الشأن بالنسبة للأمر الأول .

أما الأمر الثانى وهو النحو ، فمن حيث إنه تحليل للتراكيب اللغوية ووسيلة لفهم الأساليب المختلفة : يمكن أن ينظر إليه من زوايا متعددة كل يختار الزاوية التى يستطيع بها أن يصل إلى هدفه .

كذلك نفرق بين شيئين آخرين .

بين النحو من حيث إنه تحليل للنص العربى المأثور وبينه من حيث إنه وسيلة لتعلم اللغة . فالأول هو الذى يعنينا ، أما الثانى فيعنى رجال التربية .

كيف دون النحو :

إذا استعرضنا الأدلة المادية التى ترشدنا إلى وضع النحو العربى لم نجد أسبق من «الكتاب» لسيبويه و «معجم العين» للخليل بن أحمد : فالأخير رغم أنه كتاب لغة إلا أنه يشتمل أحيانا على بعض قضايا النحو والصرف .

وفى الكثير الغالب يستعمل اصطلاحات كتلك التى استعملها كتاب سيبويه . ولكن هل كانت هناك كتب أخرى تتكلم فى النحو قبل ذلك ؟ .

لا نستطيع أن نجزم بهذا ، رغم أن بعض الروايات تقول بوجود «الإكمال» و «الجامع» لعيسى بن عمر .

ولكن الذى لاشك فيه أن هناك محاولات كثيرة سبقت كتاب سيبويه . والدليل على ذلك ورود أسماء علماء لغويين نقل عنهم سيبويه فى كتابه .

فإلى أى مدى كان مجهود هؤلاء الرواد فى النحو العربى ؟ .

لقد كان من البواعث القوية على النظر فى وضع قواعد للغة العربية ظهور اللحن ، وبالتالى للمحافظة على نص القرآن الكريم من أن يعتريه تصحيف أو تحريف .

فقد بدأ اللحن خفيفاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . واهتم بتدوين هذه الظاهرة اللغويون والنحاة .

فقد ذكر ابن جنى فى الخصائص (حـ١/٤٠٨) أن قد لحن رجل بحضرة رسول الله فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .

والظاهر أن الخطأ اللغوى كان معروفا بهذا الاسم أيضاً « اللحن » فقد روى السيوطى « المزهر ٢ / ٣٩٧ » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا من قريش . ونشأت فى بنى سعد فأنى لى اللحن » .

وقد روت كتب الطبقات طرفا من لحن العامة والأمراء على السواء . . وكان أشد أنواع اللحن ما وقع منه فى القرآن الكريم عما يتغير معه المعنى . . أو يؤدى اعتقاده إلى الكفر ، كما يقول أهل العقيدة . مثل ما وقع فى آية : « أن الله برىء من المشركين ورسوله » . فى سورة التوبة .

ويظهر أن سورة التوبة كان فيها من المشكلات النحوية ما يجعل كثيرين يزلف لسانهم فيقعون فى اللحن .

فقد روى ابن عساكر «تاريخ دمشق ٤/٦٥ روضة الشام» أن الحجاج سأل يحيى بن يعمر « أتسمعنى ألحن على المنبر ؟ » فقال يحيى : « الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يروى الشعر» قال : « أتسمعنى ألحن حرفا ؟ » قال : « نعم . فى آى القرآن » قال « فذاك أشنع » وما هو ؟ قال فى قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله » . تقرؤها أحب . بالضم .

فأنف الحجاج أن يكتشف بعض رجاله أنه يلحن فأمر به فبعث إلى خراسان . كما نقلوا أن الوليد بن عبد الملك كان يلحن أيضا .

وهذا اللحن أدى إلى التفكير . فى عمل شىء ما لحفظ القرآن وصونه من أن يتطرق إليه اللحن .

فأول محاولة لذلك هى محاولة أبى الأسود الدؤلى « وكانت بالنقط » أى الدلالة على الضمة والفتحة والكسرة بنقط تكتب فى

المصحف ، فالفتحة نقطة فوق الحرف والضمة نقطة بين يديه والكسرة نقطة تحته : وكانت الحروف نفسها غير معجمة أى غير منقوطة فأمر الحجاج بنقط الحروف : فكان فى المصحف نقطان أحدهما للحروف، والآخر لعلامات الإعراب. ثم كتبوا أحدهما بالمداد الأحمر حتى جاء الخليل بن أحمد فهداه تفكيره الثاقب إلى وضع الضمة كرأس الواو والفتحة كألف مائلة على الحرف والكسرة مبدأ الياء تحت الحرف .

فكانت محاولات . أبى الأسود هى الأساس لوضع قواعد يعرف بها المضموم والمفتوح والمكسور من الكلمات . أو بعبارة أخرى يعرف بها شىء مما نسميه الآن بقواعد النحو . .

ورغم أن الباعث دينى إلا أن المسألة لم تقف عند هذا الحد بل أخذ أتباع أبى الأسود يضيفون إلى ما ابتدأه مسائل أخرى: حتى انتهت إلينا فى كتاب سيبويه .

وفى تلك الحقبة من الزمن كان للعرب وخصوصا فى البصرة اختلاط كبير بالجاليات الأجنبية فى تلك المدينة خصوصا من الفرس والروم ، وقد كان عدد كبير من الباحثين اللغويين من الموالى أى غير عربى النشأة فسيبويه نفسه كانت أمه فارسية . . ولم يكن العرب ـ خصوصا بيئاتهم العلمية ـ منعزلين بل أخذوا من الموالى وأعطوهم فتأثروا بالثقافة الإغريقية . . خصوصا بنظرية أفلاطون فى مشكلة الوجود والعدم فقد رأى أن الموجودات نوعان: ذوات وأحداث فالذوات أمور مادية أو معنوية مثل الباب والمصباح والصبر والحكمة والأحداث أفعال تقع فى زمن خاص مثل الضرب أو الكلام الذى يدل عليه بكلمات ضرب يضرب اضرب ... إلخ .

وهذا يسوقنا إلى التساؤل . هل كان النحو عربى النشأة ؟ ومن الذى وضعه ؟ .

أما السؤال الأول : فجوابه أن النحو نشأ عربيا خالصا وبمجهود العلماء العرب أو المستعربين من الموالى . ونشأ فى مدينتين عربيتين هما البصرة والكوفة وبوازع دينى ، اشترك فيه كثير من القراء ، إذ كان أغلب القراء نحويين أيضا .

ولكنه تأثر بما كان معروفا لديهم من فلسفة اليونان إلى حد ما ولا يمكن أن ننكر تأثير الفلسفة اليونانية فى مصطلحات العلوم العربية (راجع كتاب أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة الدكتور تمام) .

أما السؤال الثانى : فقبل أن نجيب عليه ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن بين أبى الأسود الدؤلى وبين سيبويه سلسلة من الرواة بين كوفيين وبصريين منهم :

عنبسة الفيل ، ميمون الأقرن ، نصر ابن عاصم ، يحيى بن يعمر ، أبو عمرو بن العلاء ابن أبى إسحاق ، عيسى بن عمرو ، أبو جعفر الرؤاس ، أبو زيد يونس الأخفش ، الخليل بن أحمد ، الكسائى ، سيبويه ، الفراء ، الكسائى .

وقد وردت أسماء هؤلاء العلماء فى كتاب سيبويه ، فهذا يدل على أن النحو بدأ قبل سيبويه ، ثم اكتمل على يديه ، حتى أصبح يستحق أن يكون علما ذا منهج ، وله أبواب وفصول ومسائل ، تدون فى مؤلف خاص . وهذا يجرنا إلى التساؤل من جديد هل الكتاب من وضع سيبويه وحده ؟ لقد حاول بعضهم التشكك فى ذلك كما تشككوا فى نسبة كتاب العين للخليل وقد تصدى كثير من المؤلفين لبحث هذه القضية . وآخر بحث واف فى هذا الموضوع هو كتاب « سيبويه إمام النحاة » لأستاذنا الكبير على النجدى .

وقد انتهى إلى أن الكتاب لسيبويه ، بمعنى أنه مؤلفه . وإذا أخذنا فى الاعتبار أن التأليف يعنى جمع المواد والمسائل وتبويبها ، وذكر آراء العلماء السابقين ، ومناقشتها وإضافة جديد فى المادة وانتهاج منهج خاص فى التأليف . فإذا أخذنا ذلك فى الاعتبار فإن سيبويه بهذا المعنى هو مؤلف الكتاب .

ولا يضيره فى ذلك نقله عن العلماء السابقين، حتى ولو كثر هذا النقل عن عالم بالذات إذ قد أكثر سيبويه النقل عن أستاذه الخليل بن أحمد . واعتمد عليه فى ذلك اعتماداً كبيرا .

وإذا طبقنا مدلول التأليف على كتاب المفصل مثلا نجد أن المسائل النحوية منقولة عن الكتب التى سبقته ولكن شخصية الزمخشرى واضحة فيه فى التبويب وعرض المسائل ومناقشتها ، والإدلاء فيها ببعض الآراء . وما ينطبق على المفصل ينطبق على غيره من الكتب النحوية وغير النحوية ، بل على الأبحاث التى يقوم بها المختصون ، للحصول على درجات علمية كالماجستير والدكتوراه . وهذه لا ينازعهم فى نسبتها إليهم منازع .

هذا بالنسبة للكتاب . ولنعد إلى السؤال من الذى وضع النحو ؟ .

إن قواعد النحو أشبه ببيت كبير اشترك فى صنع مواده الأولية طائفة كبيرة من المختصين .

فليست نسبة وضعه إلى أبى الأسود وحده . ولا إلى الخليل وحده ولا إلى شخص واحد فى وسط سلسلة الرواية التى بينهما .

وهذا يجعلنا نأخذ بشىء من التحفظ رأى من ينسبه إلى أبى الأسود أو ابن أبى إسحق أو نصر بن عاصم أو الخليل .

وطبعاً لا ينبغى . حيث رفضنا أن يكون شخص بمفرده قد وضع النحو - لا ينبغى أن نحكم بأن الإمام علياً كرم الله وجهه هو واضع النحو - وإن كان أبو الأسود قد قام بالنقط بإيحاء منه وتحت رعايته .

فكما لا يصح فى عصرنا الحديث أن نقول إن الوزير الفلانى أو الحاكم الفلانى قد جدد الأدب أو الشعر الحـــر . أو حتى النحو الوصفى ، إذا ما تبنى الفكرة ورعاها وشجع الباحثين فيها فكذلك لا ينبغى من الناحية العلمية أن ننساق وراء الأهواء الشيعية التى تحاول نسبة النحو للإمام على كرم الله وجهه.

مدرستا الكوفة والبصرة :

لقد أفاضت كتب الطبقات فى ذكر المدرستين ورجالها وأوجه الخلاف بينهما وأوجه التشابه .

وكما نعلم - فمدرسة البصرة أسبق فى الوجود ، فقد وجدت الطبقة الأولى من الكوفيين مع الطبقة الثالثة من البصريين .

وقد جمع ابن الأنبارى من مسائل الخلاف إحدى وعشرين ومائة مسألة فى كتاب « الإنصاف » .

ويذكر العلماء أن البصريين قياسيون . أما الكوفيون فيذكرون أنهم سماعيون يغلبون جانب النص على جانب القياس .

وقد غالى فى ذلك الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام ج ٢/ ٢٨٤ وبجانب هذا نرى أحد المستشرقين جوتولد فايل الألمانى - الآن يهودى فى إسرائيل - يقول بعدم وجود مدرستين بالمعنى العلمى المميز للمدرســـة النكرية ؟ .

فقد ذكر - فى مقدمة طبعته لكتاب الإنصاف أن الاتجاه الكوفى الذى وجد مخالفاً لاتجاه الخليل وسيبويه يرجع إلى تأثر الكوفيين ، وعلى الأخص الكسائى والفراء بيونس بن حبيب البصرى الذى كان له مذهب خاص وأقيسة تفرد بها ، خالف فيها الخليل وسيبويه .

ويستطرد فايل فيقول :

يغلب على الظن أن يونس بن حبيب كان صاحب التأثير الموجه فى الكسائى والفراء الكوفيين . فقد كان يونس هو الوحيد من القدماء الذى يمثل آراء الكوفيين فقد ذكره كذلك ابن الأنبارى . كما ذكره صاحب شرح المفصل ابن يعيش خمس مرات من سبع فى جانب الكوفيين . ثم ذكره السيرافى فى أخبار النحويين البصريين - كما روى . ذلك عنه السيوطى فى بغية الوعاة (٦٢٤) حيث قال « وله قياس فى النحو ومذاهب ينفرد بها . سمع منه الكسائى والفراء » .

فجوتولد فايل يرى أنه لم يكن هناك مدرستان متميزتان من ناحية التفكير اللغوى . ولكن كان هناك أفراد نشئوا فى البصرة وأفراد نشئوا فى الكوفة - وتتلمذ أفراد كل جهة على أفراد الفريق الآخر .

والحق أن أوجه الشبه بين المدرستين أكثر من أوجه الاختلاف ففى كتاب الإنصاف مسائل اعتمد فيها البصريون على السماع مع شهرتهم بالاعتماد على القياس . كما أن فيه بعض مسائل اعتمد فيها الكوفيون على القياس مع شهرتهم بالاعتماد على السماع .

ولكن هذا لا يمنع أن الأولوية لدى البصريين كانت للقياس فحكموا بشذوذ كثير من الشواهد التى أوردها الكوفيون . كما أن الكوفيين بحكم موقع مدينتهم وسط العراق . وكثرة القبائل العربية فيها التى نزحت مع الجيوش الإسلامية التى رابطت هناك . وكثرة عنايتهم بالقراءات . ووفرة روايتهم لأشعار العرب وحفظها كل ذلك قد أثر فى نظرتهم للنحو إلى حد كبير .

ولكن الفريقان ، البصريون والكوفيون : يعتمدون على منهج واحد هو منهج التأثر بالفلسفة والتعليل التى أدت إلى نظرية العامل والحذف والتعليل وعقدت كثيرا من مسائل النحو التى هى فى حد ذاتها بسيطة . وسنبين هذا فى مقالنا القادم إن شاء الله ؟

« للبحث بقية »

عبد الله درويش

مدرس النحو بكلية دار العلوم

الوطن

ولى وطن آليتُ ألا أبيعَهُ وألاّ أرى غيرى له الدهرَ مالكا

وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهِم مآربُ قضّاها الشبابُ هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهُمُ عهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا

مناقشة

ألا تزال للدين رسالة؟

للأستاذ فتحي عثمان

إيضاح منهج :

« في أول الأمر » يمتد (الدين) إلى كل شيء ...

فكل ظاهرة اجتماعية ظاهرة دينية، وهذان اللفظان مترادفان . ثم تحررت الوظائف الاقتصادية والسياسية والعلمية من الوظيفة الدينية شيئاً فشيئاً . . .

والتفكير الحر ظاهرة لا بداية لها في كل مكان، ولكنها تنمو دائما في جميع عصور التاريخ ».

هكذا يقول دوركايم في كتابه : (تقسيم العمل الاجتماعي) . وهو يعرف تطور الدين بأنه (تقهقر) . ويذكر ريناخ - من أتباعه - أن البدائي كان يشعر على الدوام بقوى رهيبة ، وأنه يعيش في رعب مستمر . ولما حدد رجال الدين عدد الأمور المحرمة، وأعلنوا أنهم وسطاء بين الإنسان وبين القوى الإلهيــة ، صنفوا ضروب الفزع ، واختصروا عددها ، وقد شهدت الشعوب القديمة تحديد أيام النشاط الديني وساعاته ، وهكذا وجد الفرد نصيباً أكبر من الحرية . وعندما قررت المسيحية عقائدها ساعدت على التعجيل بعصر الحرية ، لأن ريناخ يرى أن المسيحي متى سلَّم بالعقائد استطاع أن يتجه بنشاطه بعد ذلك نحو الأعمال الدنيوية ! ! ! .

وحدد أوجست كونت (قانون الأحوال أو الأطوار الثلاثة) ، « فني بدء الإنسانية كانت الأفكار الدينية (في عبادة الأصنام) متحدة اتحادا تاما ومباشرا بالإحساسات نفسها ... وكان مذهب تعدد الآلهة أول هبوط عام في التفكير الديني . . . وكان التوحيد سبباً في ازدياد هذا الهبوط ، ففي الحياة الحقيقية سواء أكانت فردية أم اجتماعية يظل المذهب الكاثوليكي منصرفا على الدوام إلى زيادة نصيب الحكمة الإنسانية بالتدريج على حساب الإلهام الإلهي ، وأدى المذهب

البروتستنتى إلى انحلال التصورات الصوفية نهائياً . وهكذا فقانون التطور هو فى نهاية الأمر قانون القضاء على الأفكار الدينية فى العالم » ! ! ! .

* * *

هذه الفكرة يتناقلها أناس بغير وعى وبصيرة ، وعلى غير إلمام بالدراسة التاريخية والاجتماعية . فينبغى أن يراعى أولا ،ماينبغى مراعاته فى كل دراسة إنسانية ، من التحفظ فى إطلاق التعميمات ، وعدم مسايرة أهواء الحدس فى اصطناع القوانين ، وقد أشرنا ، إلى ذلك فى مقالنا السابق . وما أدق إشارة جوستاف لوبون فى كتابه (روح الثورات) : « إن ما ألفه كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يثبت ما للمبادئ الدينية والأدبية المحتقرة الآن (!!) من الشأن فى ذلك الزمن . فالمصلحون فى كل زمن سعوا إلى إقامة المجتمعات الجديدة على مالا تقوم بغيره من المعتقدات الدينية والأخلاقية ! وإلى ماذا يستند المصلحون فى إيجاب تلك المعتقدات ؟ ؟ إلى العقل !! فما دام العقل هو الذى يصنع الآلات المعقدة فلم لا يستعينون به على إيجاد معتقدات دينية أو خلقية !! . . إن أوجست كونت قد أسس (ديناً) وضعياً لم ينتحله سوى بضعة أشخاص حتى الآن ، ويأمر هذا الدين بتعيين كهنة ، يدير أمورهم حبر جديد غير الحبر الأعظم للمذهب الكاثوليكى !!! » .

وينبغى بعد ذلك أن تعرف الظروف التاريخية والنفسية التى صدرت عنها بعض الأحكام المتسفة والتعميمات الساذجة والتقريرات الفطيرة . . . إن القوم كانوا (يدينون) بمحاربة الدين ، و(يتعبدون) ببناء صرح علم مادى لا يدع أى فراغ لشىء غيبى ، ولا يسمح بمقدار ذرة من سلطان للإلهيات والروحيات بعد أن ذاقوا من كهنتها الأمرين ، وبعد أن بهرتهم أضواء الكشوف والمخترعات . . . فلما هدأت الأعصاب ، ونشأت أجيال فى ظل مدنية الآلات فلم تعد شيئاً جديداً فتانا ، وحققت هذه الآلات راحة ووفرت جهداً ووقتاً للتفكير ، وطحنت الناس الحروب العالمية ، والأزمات الاقتصادية والمتاعب النفسية للحضارة الآلية ، تغيرت النظرة فتغير المنظور ، وهفا الناس إلى حديث الروح . . . « وقد اضطر أوجست كونت نفسه إلى الاعتراف ، فى النصف الثانى من حياته بأن العاطفة تحتل المقام الأول وبأنه يجب إشباعها ، ومن ثم انتهى إلى ابتكار (دين تحقيقى !) ليستعيض به عن الديانات الموحى بها ، وهو عبادة عظماء الرجال أو عبادة الإنسانية » ! ! (باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة دكتور قاسم) !! . . .

ثم ينبغي أن تعرف المناهج الاجتماعية والتاريخية على وجهها ، حتى يتحدد مدلول الألفاظ دون لبس أو خلط . إن اصطلاح الدين في نظر علم الاجتماع أوسع من أن يقصد به الديانات السماوية ، وهذا فريزر يرى أن الدين بدأ بظهور فكرة الآلهة ، أو على أكثر تقدير بظهور أرواح الأفراد أو أرواح الطبيعة التي يتخيلها المرء على غرار أرواح البشر ، ويقول دوركايم : إن العنصر المشترك حقيقة بين جميع الديانات هو معنى الأمور المقدسة ، فتقوم على تصنيف الأشياء في نوعين متضادين : قدسي ودنيوي ، والأشياء المقدسة ليست مجرد الكائنات الشخصية من آلهة أو أرواح ، بل قد تكون صخرة أو شجرة أو نبعا أو نهرا أو قطعة خشب ، وقد يوجد هذا الطابع في طقوس أو ألفاظ .

وعلم الاجتماع لا يهتم (بالتقويم) ، وليس هو من العلوم المعيارية ، فالعقيدة الصحيحة والخاطئة ، والعبادة السليمة والمنحرفة ، والوثنية والفتشية والحيوانية ، والتعدد والوحدانية ، والآلهة المشخصة والقوى المطلقة في موازينه سواء . ومن هنالك لا غرابة أن يرى علم الاجتماع الروحانية الغيبية (تتقلص) ، ويرى داعية الدين أن هذا التقلص المقصود هو تقلص الخرافة ، وأن من الخير للإنسانية أن تتقلص الخرافة دون جدال .

ولذلك يدرس علم الاجتماع ظاهرة السحر ، ويحلل العلاقة بينها وبين الدين ، ويرى فريزر أن السحر كان سابقا على الدين ، وأن الإنسان حاول إخضاع الطبيعة لرغباته بمجرد تأثير صنوف سحره قبل أن يحاول تدليل (!) إله متحفظ متقلب الهوى سريع الغضب بما تحتوي عليه الصلاة والقربان من حلاوة التلبيح » !!! ويرى باستيد أنه « من المحتمل أنه كانت هناك مرحلة لم ينفصل الدين فيها عن السحر، ولكن أخذت تلوح فيها ضروب النزاع بينهما . ثم جاءت مرحلة ثانية كانت مفترقا لطريقين : يقود أحدهما نحو الجمود الذي ينتهي إلى السبات والركود ، ويتجه الآخر نحو الجانب الروحي » ... ولعل في هذه النماذج اليسيرة من ألوان الدراسات الاجتماعية ما يدعو إلى تفهم مناهجها في التأريخ للتطور الديني .

وليس معنى ذلك أن الدراسات الاجتماعية التاريخية لا تسد حاجة عند الدارس المنصف لقضية الدين ... إنك إن طرحت منها أهواء الحدس والتعميم وشهوات المجازفة بالتقنين تقدم أبحاثا ذات قيمة كبيرة ، لو فهمت على وجهها ، وأحسنت الاستفادة منها ؛ لنستمع إلى باستيد يقول : « تظهر الديانات وتتطور داخل الحضارات التي لا يمكن أن تسبقها

أو تتـأخر عنها دون أن تتعرض للموت ، ومعنى هـذا أن هناك علاقات بين النماذج الدينية وبين مختلف التراكيب الاجتماعية . ولنفحص تأثير المجتمع على الدين : إن كل تحول يطرأ على المجتمع يصحبه انقلاب مماثل فى النظم الدينيـة ، مثال ذلك الانتقال من نظام البدو إلى الحضر ، فالعرب الرحل الذين يوحد بينهم صراعهم المرير ضد الصحراء يقدسون أسلاف العشيرة ، أما لدى الزراع الذين استقروا فى بقعة من الأرض فإن تقديس الأوليـاء يحتل مكان تقـديس الأسلاف ، وهو أقل اطرادا وأكثر تخلخلا منه ، وقـد أدى استمرار الإسرائيليين فى يهوذا إلى أن يصبح (يهوه) إلهـا للزراعة على غرار (بعل) بعد أن كان إلها للرعاة . وقـد انعكس الانتقال من جنى الثمار إلى الزراعة فى الانتقال من ديانة ساذجة تقول بحياة المادة إلى عبادة أقل سذاجة وهى عبادة الطبيعة ، ويؤدى تحول النظام الأسرى إلى مثل هـذه التغييرات ويتجلى ذلك بمتابعة تاريخ الآلهة الإناث والذكور عند الإغريق . وبظهور المـدن ينعكس التركيب الاجتماعى الجديد على التصورات الدينيةوالنظام الدينى ، وكانت أقـدم ديانة فى الصين ديانة زراعية مصحوبة بأعياد الربيع ومواكبها ومبارزاتها وأغانيها ، وورث الشريف فى المدن الإقطاعية الطابع المقدس لهذه الأعياد . . وفى الثورات يؤدى انتصار السوقة فى نهاية الأمر إلى عودة الأفكار القديمة . ثم تفضى التجارة ، ونمو الزراعة إلى اختلاط الشعوب وتعبر محاولة التوفيق بين المذاهب الدينية عن محاولة التوفيق بين الشعوب من الوجهة الاجتماعية . وإذا كان كل تعديل يطرأ على بنيـة المجتمع مؤديا إلى انقلاب مماثل فى الحياة الدينيـة ، فكذلك يؤدى بقاء حالة اجتماعية معينة إلى بقاء نموذج دينى بعينه ، على الرغم من التغير الطارئ على العقائد ، إن المسيحية احتلت محل الوثنيـة فى أيرلندا ومقاطعة الغال ، ولكن كان نظام الهيئة الدينية الجديدة مجرد نسخة مأخوذة عن نظـام المجتمع القديم ، وأنشئت الأديرة أولا قبل تشكيل الأسقفيات والأبرشيات » .

قد يقرأ المتدين هذا الكلام فينفر ؛ لأن الدين يغدو وفق هـذا المنطق نتيجة التطور الاجتماعى لا إلهام الوحى الإلهى ، ولكن الباحث الدراسى يستطيـع أن يقيم موازين الحق ويخرج بالثمار النافعة من كل جهد .

* فينبغى أن يستوثق من صحة الوقائع التاريخية التى استخلصت منها النتائج ، ومن اطراد هـذه الوقائع ، كيلا تكون الأحكام مبتسرة ترضى أهواء خفية . وينبغى أن ينظر إلى محاولات الاستنتاج والاستيطان فى دراسة

الوقائع التاريخية على أنها مجرد (محاولات) لا غير .

* فإذا تم ذلك فإن مثل هذه الدراسات الاجتماعية قد تفيد فى توضيح بعض الأمور، مثل تفسير ظهور بعض الديانات غير السماوية وتطورها ، وإبراز الأشواق والرغبات الإنسانية التى يسعى البشر لتحقيقها عن طريق الديانات المصنوعة . . . ومن هذا وذاك يمكن التوصل إلى ما ينتظر الإنسان أن يحققه الدين المنشود له من إرضاء ونهوض فى الوقت نفسه .

* ثم إن هذه الدراسات تعين على تدبر مجارى التفكير البشرى فى تلقى الدين السماوى فالبشر يتصورون الدين وفق ظروفهم النفسية والعقلية والمادية ، وقد ينحرفون بأهوائهم عن سلوك الطريق الذى خطه الوحى مستقيما لا عوج فيه . . . ولما كان الفكر الدينى شيئاً غير (الدين) نفسه فى نصوصه المتناهية المحدودة المحكمة ، فإن الاستنارة بالدراسة الاجتماعية قد يعين على تحليل عوامل تكوين الفكر الدينى فى عصر أو بيئة أو عند شخص وما طرأ من تغيرات فى فهم الدين وتنفيذ أحكامه .

* كذلك تعين الدراسات الاجتماعية على تقدير أهمية (البيئة) فى الفكر والنفس ... ومن هنا يبدو رائعاً حرص الدين على تسلم زمام التوجيه فى الأسرة والمجتمع والدولة والعالم عن طريق التشريع ، وعدم الاكتفاء بالتقرير النظرى العقلى البحت للعقيدة ومن هنا لا يترك الدين للناس كنظرية حسابية يثبتها الإحصاء والتجريب . إن التكوين النفسى والاجتماعى ينبغى أن يصاغ بحيث يعين الفرد على الحياد العقلى ، ويرفع عنه الضغوط والمؤثرات التى تجعل (النظرية) التى تقررها العقيدة الدينية فى واد ، وإيحاء التربية والثقافة والتقاليد والسلطة فى واد آخر .

لكن الدين فى الوقت نفسه يجعل نظمه وشرائعه من المرونة بحيث لا تنحصر ولا تنغلق ولا تتجمد « فالدين - أخيراً - مجموعة من العقائد والعواطف أكثر من أن يكون مجموعة من النظم ؛ لأن النظم لما كانت تهدف إلى تنسيق العلاقات المادية بين الناس كانت تتوقف إلى حد كبير على الشروط العمرانية والخاصة بالتركيب المادى للمجتمعات ، وتخضع الهيئات الدينية لنفس هذه الشروط بالقدر الذى تكون فيه نظما اجتماعية ، ولكنها تفسح المجال للقلوب الطموحة وللحاجات العقلية ، وحينئذ نجد نصيب الأعمال الإلهية فيها أقل منه فى أى مجال آخر » كما يقول باستيد .

* وتعين هذه الدراسات كذلك على

استيضاح تطور الديانات السماوية نفسها ، وتعليل افتراقها فى التفاصيل عن بعضها ... فالله تعالى قد أرسل كل رسول بلسان قومه ، يترجم عن مطالبهم وآمالهم ، ويشرع لهم ما يوافق احتياجاتهم . والقرآن لم يورد تفصيل الرسالات السابقة على الإسلام ، ولكنه أبرز أهم معالمها ، فإذا هذه المعالم المميزة تختلف ما بين رسول ورسول اختلاف الأقوام الذين جاءهم المرسلون : « ولوطاً إذ قال لقومه ، أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » .. « وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم آية من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » . . « وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » .

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون » ... « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين » . . « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين » .

« وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم » .. « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » . وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . . . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم

بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين » ... « فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » ... « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً » .

تلك آيات نرى فيها جليا تباين الأوامر الإلهية التى ابلغها المرسلون لأقوامهم ، نتيجة اختلاف ظروف هؤلاء الأقوام المادية واحتياجاتهم النفسية والاجتماعية ما بين نهى عن الفاحشة وأمر بوفاء الكيل ، وصيحة بتحرير شعب ، وهى تكشف أسلوب تقديم القرابين الذى جرى عليه ابنا آدم فى فجر البشرية ، وكيف استوحى القاتل أسلوب الدفن من نبش الغراب .. وتبرز طابع القبيلة فى بنى إسرائيل وبيئتهم فى القرية وبجوار البحر والحظر المفروض عليهم يوم السبت ، والأمر بدخول (أرض مقدسة) ، ونزوعهم إلى التجسيم والتشبيه إلخ هذه الإشارات الموحية فى دراسة تطور المجتمعات والأديان ... !.

هذا هو الدين فى ماضيه ... فما بقى له ما يؤديه فى حاضره ؟ ؟ سوف نعرض لذلك فى الجزء القادم إن شاء الله

فتحى عثمان

من نعم الله

قال فيض بن إسحاق :

كنت عند الفضيل بن عياض يوما ، إذ دخل رجل وسأله حاجة ، وألح فى السؤال ، فقلت للرجل : لا تؤذ الشيخ ! .

فقال لى الفضيل : اسكت يافيض .. ! اما علمت أن حوائج الناس إلينا نعمة من الله علينا ؟ . فحذار أن نمل النعم ، فتتحول نقما ، ألا نحمد الله ؛ أن جعلنا موضع من يُسأل ، لا موضع من يَسأل ؟ .

الانحلال شر من الشيوعية

للأستاذ محمد كامل الفقي

ليس من شك فى أن شرة الشيوعية قد انطفأت وأن حدتها قد انكسرت ، وأن خطرها على العرب عامة وعلى مصر خاصة قد زال إلى غير رجعة إن شاء الله ، « ومصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله » .

وغيرتنا على هذه الأمة الإسلامية ، وعلى أمجادها ، تدفعنا دفعا إلى التناصح والتعبير عن كل ما نرى الخوض فيه سبيلا إلى تصون المسلمين ، وبقاء رايتهم مرفوعة ، وكلمتهم عليا ، والمؤمن حكيم كيس لا يحكم على الأشياء من لمحات لبعض جوانبها فهو متفطن يهتدى بنور قلبه إلى ما فيه خير لنفسه ولأمته والبصيرة عين لا تنام .

لم تكن دعوة الشيوعية منذ حين وهى فى طغيانها لتثير فى نفسى خوفا وقلقا ، وقد فزع لها الناس وظنوها معاول تهدم قلاع الإسلام ، وتغزو ديار المسلمين ، وسخرت قوى الدولة جميعا لتبصر بخطر الشيوعية ، وتفتح الأعين على قبحها وشرها المستطير ، وجردت من علماء الأزهر سيوف مشرقية ، وبات الناس بين صبح واعظ ، وعشية منذرة ...

أما أنا فقد كان أمرى من هذه المحنة عجبا ، لقد قلت علام هذه الصيحات وفيم ذلكم الضجيج ؟ إن القلوب المؤمنة . والنفوس التى عمرها اليقين ، وجرى حب الإسلام فيها مجرى الدم هازئة بتلك الشيوعية ، ساخرة من الدعوة لها مهما برق أسلوبها ، وأحكم زيفها ، فمهما دقت طبول الشيوعية ، ومهما زعمت للناس بأن فيها المساواة والمن والسلوى ينزلان على الناس فهى كذب وزور وخداع وتضاليل فى رأى المؤمنين الذين عرفوا الإسلام وحده قانونا سماويا لا ينازع فى إسعاد البشر فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة ، فالشيوعية فى أسماع هؤلاء المؤمنين طنين ذباب وطنين الذباب لا يضير .

والمائعون المنحلون من هذه الأمة المتفلتون من زمام الدين ، الناكصون على أعقابهم الذين خرجوا عن حدود الله ، فاستباحوا كل حرام ، وانطلقوا سادرين فى غيهم ، لا يستحون من كبيرة ، ولا ينفرون

من فاحشة ، هؤلاء وحدهم هم خلايا الشيوعية المستعدة لتلقى هذه المبادئ الفاجرة ، المرحبة بأهدافها ، الراغبة فى التمسك بما تهدف له ، وما تسعى إليه .

فإذا كانت الشيوعية تدعو إلى التخلص من الدين الإسلامى وتزعمه رجعية تتنافى مع ما يسمونه تقدما وحضارة ، فهؤلاء المنحلون المتميعون أسبق إلى الفرار من الدين من هؤلاء الشيوعيين ، وأكثر إلحادا منهم .

وإذا كانت الشيوعية تجاهد القرآن الحكيم وتنال من قدسه ، وتبذل الجهد البالغ للخروج من حدوده ، فالمتميعون المنحلون لا يحبون القرآن ولا يحبون أهله والمعتصمين به ، وينفرون من وارف ظلاله ، وفسيح جناته .

وإذا كانت الشيوعية تحطم الحدود التى تحمى العروبة والوطن العربى من أعدائه الذين يقرعون بابه بكل يد ، لتنماع الأمة العربية ، وتغوص فى الرمال أقدام العرب ولا تبقى لهم مقومات تعينهم ، ولا شخصيات تميزهم ، ولا استقلال يضمن لهم الكرامة والعزة والأمن ، فالمتميعون المنحلون من هذه الأمة أعدى أعداء هذه المعانى الكريمة التى تتسم بها العروبة ، ويتميز بها العربى فى سمته ، وصفته ، ووجهته .

إذن فالمتميعون المنحلون من هذه الأمة شيوعيون بغير عنوان أو شر من الشيوعيين وهم خلايا شيوعية أو شر منها بغير لقب ، والشر المستور أدهى وأمر من الظاهر المستعلن ، وهو يقتضى من الحذر والحيطة أضعاف ما يقتضيه المكاشف المجاهر ، فما هـو إلا سوس ينخر فى العظام دون أن يحس أثره إلا بعد أن يستفحل خطره .

لذلك لم تكن فورة الشيوعية منذ حين لتقض مضجعى ، ولم يكن انطفاء شعلتها ليريح صدرى ويذهب موجدتى ، فالنظر القصير هو الذى ينخدع بهذه الظواهر التى لا تروج إلا عند السذج الأغرار .

هلموا إذن لنهتك الستار عن أعداء المسلمين هؤلاء ، هلموا إذن لنكشف القناع عن هذا الاستعمار المقنع الذى يدخل على وطننا بأيدى إخواننا من هذه الأمة ، وهو يتسلل إلى أبنائها وإلى الأجيال المقبلة - لا قدر الله - هينا رفيقا مستخفيا ، لا نتلقاه حذرين ، ولا نستقبله خائفين ، وكيف نخافه أو نخشاه وهو يغشى الصالح من أخيه وتسرى عدواه من الرفيق إلى رفيقه ، ومن الجار إلى جاره ، ومن القرين إلى قرينه دون أن ننبه إلى خطره ، أو ننفر من شره ، أو نبصر له سلاحا ، أو نسمع له قعقعة !!!

تعالوا إلى هذه الفتن التى هى شر من جميع المبادئ لنرى كيف تغزو القلوب ، وتدخل إلى النفوس « منجمة » على دفعات فتفعل

فعل الخمر احتساها المخمور كأسا فكأسا حتى خر صريعا .

ذلك الانحلال لو كاشف الناس وفاجأهم دفعة ذات ضجة وصياح لارتدخاسئامدحورا، ولنبه صوته الصاخب أمتنا الإسلامية إلى دعاته والنافخين فى بوقه فحطموهم وحطموا أبواقهم ، ولكنه كان كالحمى لا تعرف بوادرها حتى تظهر عواقبها .

المرأة المنحلة لم تبدأ سفورها بلبس « الشوال » ، إنما كشفت عن وجهها أولا ووجدت منكرين مستغفرين من ذنبها العظيم ، وظلت تجمع أنصاراً ومؤيدين حتى وجدت عشاقا ومعجبين ، فإذا السفور تهتك وفجور ، وإذا كشف عن الساق وغير الساق ، وإذا كل ما فى المرأة ملك نفسها تعرضه أو تخفيه والملايين ترى ولا تنكر ، وتنظر وتستمتع ، والغيرة تموت وتموت حتى كأن عشرات الألوف أو مئاتها لم تخلق لها رجولة ولم تولد فيها غيرة .

وكان عجبا أى عجب أن يصحب الفتى فتاة فى الطريق ، وكان الفاجر الذى ينحدر إلى هذه المخالطة المعالنة يكابد من سخط الناس وألسنتهم الحداد ما يكابد ، حتى انتهى الأمر إلى مشاهدة الجريمة لا الاختلاط ، ومعاينة العشق وآثاره ، والفسق ومخباته ، فى العامل والتلميذ والموظف وفى المدارس والجامعات .

ومهما نثرت رائحة المسك على دور التعليم فمن خلالها نشم ريح الفاحشة ما ظهر منها وما بطن .

فالغريب بالأمس مألوف اليوم معتاد غداً ، وهو بعد غد عرف وظاهرة طبيعية ومازلنا حتى شهدنا من أبنائنا من يفعلون الفاحشة ويقولون « وجدنا عليها آباءنا » . ومن يتمثل عندئذ بقول الله : « سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين » .

لعلك إذن أيها القارئ أدركت معى مهما أوجزت لك القول أن الشيوعيين ما تطاول شرهم ، وما استفحل جرمهم ، ليسوا شيئا مذكورا بجانب هذه « الخلايا » التى تقوم فى أمتنا على سمعنا وبصرنا . وعلى رضا منا حينا ، وعلى سخط منا حينا . وهى ماضية فى طريقها لا تلوى على شىء .

وسنبين لك إن شاء الله فى مقال لاحق فصائل هؤلاء المنحلين وجرائمهم ، وواجب الوطن نحو هؤلاء المنحلين وثقتنا بالمجد العظيم للأمة إن هى كافحتهم وكانت جادة فى أخذهم بما لا يدع للفتنة دولة ولا جاها إن شاء الله ؟

محمد كامل الفقى
المدرس فى كلية اللغة العربية

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

وصف جمع المذكر غير العاقل بجمع المؤنث

١ — يقال فى العربية : عندى كتب قيمات وآثار نفيسات ، فإذا بحثنا عن مفرد قيمات ونفيسات هنا وجدناهما قيما ونفيسا ، إذ كانا وصفين لمذكرين : كتاب وأثر ؛ يقال كتاب قيم وأثر نفيس . وهذا موطن بعض الغرابة ، فإن المعروف فى الجمع بالألف والتاء أن يكون للمفرد المؤنث ، ومن ثم سمى جمع المؤنث السالم . والذى دعا إلى ارتكاب هذا مع غرابته أن القيم من الكتب لايجمع جمع المذكر السالم لاختصاصه بالعقلاء وذوى العلم ، فلا يقال : كتب قيمون ، فدعت الحاجة إلى جمعه بالألف والتاء ، وهو الجمع الذى يناظر جمع المذكر السالم ، وقد صار هذا منهجا مألوفا فى العربية ، وتنبه إليه النحاة ، فجعلوا مما يجمع بالألف والتاء وصف المذكر غير العاقل ؛ ويمثل له الشيخ خالد فى التصريح بقولهم : جبال راسيات .

ومما جاء منه فى الكتاب العزيز قوله تعالى : « واذكروا الله فى أيام معدودات » ، وقوله تعالى : « الحج أشهر معلومات » . فمعدودات فى الآية الأولى جمع معدود الذى هو صفة ليوم ، ومعلومات فى الآية الثانية جمع معلوم الذى هو صفة لشهر . ومنه قول الأجرد اليربوعى من شعراء الحماسة فى رثاء أخيه .

وسامى جسيمات الأمور فنالها
على العسر حتى أدرك العُسُرَ اليُسْرُ

وذلك أن جسيمات الأمور هى الأمور الجسيمات .

وقد فعل العرب هذا فى أسماء مالا يعقل المبدوءة بابن كابن عرس وابن آوى فقالوا فى جمعهما : بنات عرس وبنات آوى ، وهذا لأنه لايتسنى لهم أن يقولوا : بنو عرس وبنو آوى إذ كان البنون لا يقال إلا لذوى العلم . ومن هذا بنات نعش لعدة كواكب ، الواحد ابن نعش ، لأن الكواكب مذكر . وقد قال النابغة الجعدى فى الخمر :

وصهباء لا يخفى القذى وهى دونه
تصفق فى راووقها ثم تقطب[1]

تمززتها والديك يدعو صباحه
إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

فعاملها معاملة العقلاء لما أسند إليها الدنو والتصوب ، وقد خرجها سيبويه[2] على هذا ، وجعلها من قبيل قوله تعالى : « يأيها النمل ادخلوا مساكنكم » .

٢ ــ ويقال : عندى ثياب رقائق ، فيكون فيه أيضاً بعض الغرابة ، كالذى قبله . وذلك أن « رقائق » مفرده المعهود من أمره رقيقة لا رقيق ، فكيف ساغ أن يجمع رقيق الذى هو صفة ثوب، مفرد ثياب ، على رقائق وقد رأينا فى الوجه السابق فى « جبال راسيات » أن الذى أوقعهم فى الغرابة تعسر جمع المذكر السالم عليهم ، وقرابة ما بين جمعى المذكر السالم والمؤنث السالم ، وكأنهم هنا حملوا جمع التكسير على جمع التصحيح بالألف والتاء ، فلما كان وصف المذكر غير العاقل إذا أريد جمعه جمع تصحيح جمع بالألف والتاء ، فكذلك إذا أريد جمعه جمع تكسير ساغ أن يكسر تكسير المؤنث .

ومما جاء من هذا قول أعرابية[1] فى رثاء ولدها :

لئن كنت لهواً للعيون وقرة
لقد صرت سقما للقلوب الصحائح

فالصحائح جمع الصحيح الذى هو صفة القلب، وإنما الصحائح فى قياسها جمع الصحيحة ، ولكن الصحيح لما كان وصفا لما لا يعقل جمع على الصحائح . وقد تبع الأعرابية أبو العلاء المعرى إذ يقول فى لزومياته :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنبـــاء الأمور الصحائح

وجاء من هذا قوله تعالى : « فعدة من أيام أخر » . فأخر هنا جمع آخر الذى هو صفة يوم مفرد أيام ، وإنما يجمع آخر على آخرين ، فأما أخر فواحده أخرى ، ولكن لما كان آخر صفة ما لا يعقل جمع جمع أخرى.

وقد ذكر أبو حيان[2] قاعدة لخص بها ما قلناه فى جمعى التصحيح والتكسير فقال : « وأخر صفة لأيام . وصفة الجمع الذى لا يعقل تارة تعامل معاملة الواحدة المؤنثة ، وتارة تعامل معاملة جمع الواحدة المؤنثة . فمن الأول ، إلا « أياما معدودة» ، ومن الثانى أيام «معدودات» ، فمعدودات جمع لمعدودة ، وأنت لا تقول : يوم معدودة ، إنما تقول : معدود لأنه مذكر، لكن جاز ذلك فى جمعه» .

---

(١) فى اللسان عقب إيراد البيتين : « الصهباء : الخمر . وقوله : لا يخفى القذى وهى دونه أى لا تستره إذا وقع فيها لكونها صافية ، فالقذى يرى فيها إذا وقع ، وقوله : وهى دونه، يريد أن القذى إذا حصل فى أسفل الإناء رآه الرائى فى الموضع الذى فوقه الخمر، والخمر أقرب إلى الرائى من القذى : وتصفق تدار من إناء إلى إناء وقوله : تمززتها أى شربتها قليلا قليلا وتقطب : تمزج بالماء » .

(٢) الكتاب ٢٤٠/١ .

(١) من العقد الفريد فى التعازى والمراثى .

(٢) البحر المحيط ٣٣/٢ .

ويمكن تلخيصه على وجه آخر فيقال : إن وصف المذكر غير العاقل يعامل فى جمعه معاملة وصف المؤنث .

كلفته الأمر ، كلفته بالأمر :

الوارد فى المأثور من كلام العرب : كلفته الأمر . وفى الكتاب العزيز فى أواخر سورة البقرة : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . ويقول علقمة الفحل فى قصيدة له فى المفضليات فى الحديث عن قلبه .

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيب
يكلفنى ليلى وقد شط وَلْيُهَا
وعادت عواد بيننا وخطوب

(شط وليها : بعد عهدها) .

وقد دون هذا الاستعمال صاحب الأساس والمصباح . ففى الأساس : « وكلفه الأمر فتكلفه » . وفى المصباح : « وكلفت الأمر - من باب تعب - : حملته على مشقة . ويتعدى إلى مفعول ثان بالتضعيف فيقال : كلفته الأمر فتكلفه ، مثل حملته وزنا ومعنى ، على مشقة أيضا » .

وقد اشتهر من قديم بين الأصوليين والفقهاء أن يقال : كلفه بالأمر ، وهو مكلف بالأمر ، والتكليف بالأمر . وفى المستصفى للغزالى ١/٨٦ : « ذهب قوم إلى أن كون المكلف به ممكن الحدوث ليس بشرط » . وفى مسلم الثبوت ١/٨٤ : « وثانيا : كلف أبا جهل بالإيمان » ، ومن مسائل الأصول المشهورة : لا تكليف إلا بفعل . ويقول البيضاوى فى تفسيره فى أواخر سورة البقرة عند قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » : « وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق » .

وقد عاب النقاد المحدثون ما وقع فيه عامة المصنفين وسرى إلى سائر الناس من تعدية التكليف ومتصرفاته إلى المفعول الثانى بالباء ويقول اليازجى فى لغة الجرائد ٩٧ : « ويقولون : كلفته بالأمر فيعدون هذا الفعل إلى المفعول الثانى بالباء ، والصواب تعديته إليه بنفسه ، تقول : كلفته الأمر » .

على أن هذا الذى اشتهر يخرج على وجه سائغ صحيح . ذلك أن يضمن التكليف بالأمر معنى الإغراء به ؛ فإن من كلفك أمراً فقد أغراك به وأولعك به . والتضمين سائغ منقاس إذا روعى به غرض يراد . والغرض هنا إفادة الإغراء بالفعل والهيج له ، والتزيين ؛ ليكون المكلف أسرع إلى الامتثال. وللعلماء غرض آخر ، وهو التفريق بين وصنى الإنسان الذى يطلب منه الفعل والفعل نفسه ، وهذا لا يفى به الاستعمال الأصلى إذ كلاهما عليه مكلف ، وفى هذا ما ينأى عن غرضهم من الإيضاح والتمييز ، فأما على الاستعمال الآخر ، فالإنسان مكلف ، والفعل مكلف به ، وهذا أقرب إلى الإفهام ، وأنأى عن التعويص والإبهام .

محمد على النجار
الأستاذ فى كلية اللغة العربية
وعضو المجمع اللغوى

أثر الروح الإسلامية فى النفس البشرية

للشيخ عباس طه

المقومات الاجتماعية :

الإسلام آخر الأديان السماوية نزولا ، وكتابه خاتم الوحى الإلهى للإنسانية ، وقد نص فيه على ذلك فى غير موطن منه ، وأثبت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده إلى يومنا هذا ، اللهم إلا مذاهب لبعض الأفراد ادعى أصحابها أنهم رسل الله ، وبعضهم غلا فاعتبروا زعيمهم الخالق نفسه متجسدا.

ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث ؛ فلم تقم لتلك الأديان المزعومة قائمة ، ولو كانت من الله لبزت جميع الأديان فى الاتباع ، ولكانت لها دولة وصولة فى العالم ، ولم تكن على ما هى عليه الآن . وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل فى كل نحلة .

بهذا الاعتبار جاء الإسلام حائزاً لمميزات الخواتيم ، وهى النهايات التى ليس وراءها مذهب ، سواء كان ذلك فى المعتقدات والعبادات والمعاملات ، أم فى الأخلاق والآداب وروابط الاجتماع . وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فإننا نبسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية فنقول:

كانت الروابط الاجتماعية قبل الإسلام لا تعدو دائرة القوميات ، فكان لكل قوم دعتهم الضرورة للحياة، حياة مشتركة أساسها نعرة جنسية قائمة على المصلحة المادية دون سواها . فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك فى الحياة دفعا لعاديات جماعات أخرى ، وتعاونا على مبدأ تقسيم الأعمال ، والإفادة من الميول المختلفة فى المحاولات المعيشية .

على هذا الأساس ، قامت جميع الروابط الاجتماعية السابقة ، لم تشذ واحدة منها فتتطلب غرضا أسمى من المصلحة المادية ، وهو إلى اليوم مدار الدعوة الرئيسية إلى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لغاية معينة . ولكن هل هذه النعرة القومية هى المثل الأعلى للدعوة إلى الاجتماع وإلى التضامن فى الحياة والتساند فى تذليل ما يعترضها من عقبات ؟ اللهم لا وإليك البيان :

الأمم تتطلب اليوم إبطال الحروب لما ثبت أنها تصبب الغالب والمغلوب على السواء

بسبب دخول الحياة العالمية فى ترابط اقتصادى تام ، فما يفسد هذا الترابط أو يخل به تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء .

فقد انتصرت الأمم الأوروبية على الألمان فى الميدان ولكنها تحملت وإياها تبعات تلك الحرب الشعواء. فما من أمة منها إلا وقد اضطربت حياتها واختل توازنها ورجعت فى بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين ، وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدى على كيانها من الحرب السابقة وأشد إخلالا لتوازنها ، ولذلك تجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها .

ولكن تجنب الحرب لا يكون بالتمنى ، فهو يقتضى تحديد التسلح ، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتحاكم إلى العدل لا إلى السيف ، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة .

كل هذا لا يكفى ، فإن الجوع كما قيل كافر ، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقيت بها الزيادة فيها ، وإلا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات الملحة ، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب ، والضمير البشرى أصبح لا يطيق أن يضغط على أمة ويضيق على خناقها لتموت تحت تأثير حاجة طبيعية لبعضهم منها أوفى نصيب ، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة .

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعا عادلا بين الأمم حيث يعدم تطلعها للاستعمار والعدوان على غيرها من الأمم ، ولكن وصولها إلى هذه النتيجة من العسر بمكان ؛ فإن شراهة المحرومين وشح المستأثرين تمنع من الوصول إلى حل وسط .

ولكن الوصول إلى هـذا الحل أمر لا محيص منه ، فإن الترابط بين الأمم تشتد عراه يوما بعد يوم ، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعاً على نسبة تقدم المدنية ، والمدنية تيار جارف يطغى فى طريقه على كل عقبة .

ولسنا ننسى أنه إلى جانب هـذه العوامل الداعية إلى التعامل والتفاهم بين الشعوب ، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيرا ، منها ذيوع مبادئ الفلسفة بين الناس ، وهى تصور الحروب البشرية تصويراً لا قبل للضمير البشرى بقبوله ، وتلطف الشعور الإنسانى إلى حد النفور من كل عمل وحشى ، وتبطل الأوهام التى كانت تبنى عليها أمجاد الأمم من الانتصار فى الحروب ، واستئصال شأفة الأعداء ، أو تمزيقهم كل ممزق ، وتضعف التعصب للأديان إلى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية البشرية . وفوق هذه العوامل كلها عامل ذيوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل

النقض ، وتجليته للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحانى بحجج حسية تثلج الصدور ، ويشترك فى الخضوع لها الناس كافة .

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الإنسانية أنه لابد تحت تأثير جملة هذه العوامل المتضافرة ، من توحد الإنسانية فى المعتقدات الأولية . وفى الآداب النفسية ، وفى روابط الاجتماع أيضا .

نعم ، إن بلوغ هذا الشأو يحتاج لوقت طويل ، ولكن الإنسانية متجهة إليه ولا يتخيل شىء يصدها عنه ، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعى ، وأنه لا محيص من تأثيره . فالروابط الاجتماعية ستنقلب من المادية البحتة ، التى تفضى إلى التزاحم والتنازع على العيش ، إلى مادية وروحية فى آن واحد ، تفرض على الكافة حقوقا تتناسب وترابط مصالحهم وتداخل مرافقهم ، ووصولهم إلى درجة من السمو الأدبى بحيث يستفظعون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء البعض . فالإسلام الذى جاء بالمثل العليا فى جميع الشئون الإنسانية جاء بالمثل الأعلى فى هذه الناحية أيضا فلم يدع إلى اجتماع أساسه القومية ولا الجنسية ، ولم يعبأ بالأواصر اللغوية ولا التاريخية ، ولكنه تخطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها ، ودعا إلى المثل العليا للاجتماع التى ستنتهى إليها الإنسانية : وهى الوحدة النوعية والأصول الأدبية والمبادىء الخلقية ، فجاء مجتمعه ذا صبغة عالمية عامة ، لا قومية خاصة ، وأول أساس وضعه فى هذا الصرح الاجتماعى العالى قوله تعالى : « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير . » .

فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة ، ولا أمة بعينها ، وقد جاءت جميع آياته داعية إلى هذا المبدأ السامى : مبدأ الوحدة الإنسانية . بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون . وهو لأجل أن يوحد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة ، لا خيالا شعريا ، دعا إلى الدين الجديد بأن يكون دينا عاما للإنسانية ، وهو دين الفطرة الذى يتجه إليه الإنسان محفوزا بمقتضيات فطرته لا بتعليم معلم ولا بتوريث مورث قال تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والفطرة تدعو إلى الاعتقاد بخالق الكون وبالروح وبقائها فى عالم وراء هذا العالم ، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها فى هذا العالم وعلى حب الحق ، وكراهة الباطل ، وإيثار

العدل ومكارم الأخلاق وإقامة دولة الفضيلة في الأرض .

يقول قائل : كل دين يدعو إلى هذا ، فأية مزية للإسلام عليها ؟ نقول نعم ، والإسلام يقرر أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى أول أنبيائه ، فحرفه الناس وأخرجوه عن أصوله ، وتفرقوا فيه ، وذهب كل فريق بما تخيله منه ، ينابذ به سواه ويستحل دمه . فجاء الإسلام لتنبيه الناس إلى هذا الخطأ البين والضلال البعيد . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم · (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير . » . وقال سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

فالإسلام كما ترى لا يتوجه للأمم بوصف أنه دين جديد ، ولكن بوصف أنه دين الإنسانية كلها ، وإنما أعيد الوحى به نقيا خالصا ، ليرفع الخلاف الذى أوجده قادة الأديان بغيا بينهم ، ففرقوا الناس أحزابا وشيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

فالإسلام يدعو لتوحيد دين الإنسانية ، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعا ، وهو إنما تعددت صوره بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستغلوا الخلاف بين الناس ، مواتاة لمطامعهم ومسايرة لمزاعمهم ، فالدين فى نظر الإسلام كل لا يقبل التجزؤ ويشمل ما أوحاه الله إلى الناس كافة واعتبار كل من أرسلهم إليهم فى جميع العصور والأجيال وحدة قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

والإسلام لأجل أن يسد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخداع الشعوب وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض ، أقام العقل حكما يرجع إليه فى التفرقة بين الحق والباطل ، وجعل الدليل وسيلة من وسائل الوصول إلى لباب المسائل المتنازع عليها . وزاد الإسلام على هذا ، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد وجعل كل إنسان مسئولا عن نفسه ، وخلى ما بينه وبين ربه بإسقاط الوسطاء الذين انتحلوا لأنفسهم هذا الحق فى غفلة الحق ، وفى دور طفولة الإنسانية .

فالأديان كما يقول المعترض تدعو كلها إلى عقائد واحدة ، ولكنها ملتاثة بشوائب الآراء البشرية ، مما لا مناص من التنابذ عليه ، ولكن الإسلام يدعو إلى تلك العقائد خالصة من شوائب الآراء ، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الإنسانية جمعاء ، لا دين طائفة من الطوائف ولا أمة من الأمم ؛ فدين الإنسانية لا يجوز أن يكون حاملا طابعا من قومية ، ولا أثر من عقلية ولا شائبة من حالة نفسية . بل أصولا أولية ، ومبادئ كلية وآدابا عالمية .

هذه الغاية سينتهى إليها العقل البشرى حتما ، وإذ ذاك لا تجد الإنسانية فى طريق وحدتها حائلا يمنعها منها ، وعند ذاك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين ، وتكون العلوم قد بلغت شأنا تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة ، وتخلص المدنية من آفاتها الموبقة فتقوم على سياسة رشيدة فى حكوماتها ، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها ، وإذ ذاك يتحقق ما وعد الله به فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

فالإسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية والمبادئ الخلقية والعقائد الفطرية ، قد وضع أساس مجتمع عالمى عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدها وتعرف حدها . وقد جرى فى ذلك على سنته من الدعوة إلى النهايات من كل الأمور والإهابة إلى الغايات فى جميع الشئون .

عباس طه
المحامى

مايقال عن المسلمين والعرب

الإسلام فى افريقية الغربية

للأستاذ عباس محمود العقاد

كلما استراح دعاة التبشير والمطامع السياسية إلى سبب يعللون به انتشار الإسلام فى إفريقية وآسيا رجعوا عن هذا السبب بعد حين، وأحسوا أن انتشار هذا الدين له سبب آخر لم يهتدوا إليه. ثم هم يرجعون عن هذا السبب الآخر كما رجعوا عن السبب الذى استراحوا إليه من قبله. ولا يزالون كذلك ولن يزالوا على هذا التردد بين الأسباب وهذه الحيرة بين الأخطاء. ما داموا يتعمدون فى بحثهم أن ينكروا فضل الإسلام وأن يلتمسوا لانتشاره كله علة غير العلة التى يستحق بها الدين أن ينتشر بين الناس، وهى صلاحه للاعتقاد والعمل والتصديق.

إن علة انتشاره السيف !.

إن علة انتشاره السماح بتعدد الزوجات !.

إن علة انتشاره السذاجة فى أصوله وأحكامه ! إلى آخر هذه العلل المتشابهات !.

وكلها علل باطلة ظاهرة البطلان لا تثبت على النظرة الناقدة لمحة واحدة حتى يتبين بطلانها على الأثر فى لمحة تالية.

أما الانتشار بالسيف فالحكم فيه حكم الوقائع والأرقام.

إن حروب الإسلام فى الهند والجزر الهندية أقل الحروب فى تاريخه وفى تاريخ كل عقيدة دينية أو عقيدة من عقائد الإصلاح كائنة ما كانت، ولا يقل عدد المسلمين فى الهند وجزرها عن مائتى مليون.

أما تعدد الزوجات فقد ظهر من دراسة أحوال الزواج بين القبائل الإفريقية أنه ليس من الميسور لكل من يطلبه، وليس من الكثرة بحيث يتخيلون من أحوال المعيشة الإفريقية، وقد حرم الإسلام شرب الخمر وهى أيسر لمن أرادها من الوثنيين وأحب إليهم وأدنى إلى التناول فى كل يوم وكل ساعة ولم تحرمها الأديان الأخرى تحريم البتات كما حرمها الإسلام، فلم يكن ذلك حائلا دون

إقبال الإفريقيين عليه بغير جهد وبغير تبشير وبغير ترغيب بمختلف الوسائل التى يتوسل بها المبشرون وأصحاب المطامع السياسية .

أما سذاجة العقيدة فلا فرق فيه بين الإسلام وبين دين من الأديان عند النظر إلى المبادئ الأولى التى يعرضها الدعاة أول مرة على المستمعين إليهم ، وربما كانت تكاليف الفرائض اليومية فى الإسلام أكثر وأظهر من أمثالها فى الأديان الأخرى ، ومنها ما تخفى تكاليفه أياما قبل أن يدعى إليها الداخلون فى الدين .

كل هذه الأسباب لم تصلح لتعليل انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية على التخصيص وقد ناقضها الواقع فى أرجاء القارة حتى أوشك الباحثون من المبشرين وأصحاب المطامع السياسية أن يقنعوا بالتسليم للواقع ويكتفوا بتسجيل المشاهدات كما يلمسونها فى كل موطن من المواطن التى دخلها الدين الإسلامى ، فلا يزيدوا على إحصاء الدواعى أو الموانع المحلية حيث كانت ، مع الإشارة الخفية إلى وسائل توكيد هذه الموانع والاستفادة منها فى إقامة العقبات وتعسير أسباب التيسير والترغيب .

ويجرى على هذه الوتيرة كثير من المؤلفين المحدثين الذين يقصرون مباحثهم على أحوال القارة الإفريقية وما تشتمل عليه من العوامل المؤاتية أو المعارضة لنفوذ الأوربيين فيها ، ومن أهمها عوامل الترحيب أو عوامل النفور من الإسلام بين الإفريقيين الأصلاء والإفريقيين الواردين على القارة من غيرها.

ومن هؤلاء المؤلفين المشغولين جد الاشتغال بالتبشير فى القارة الإفريقية سبنسر ترمينجهام صاحب كتاب « الإسلام فى الحبشة » وكتاب « الاتصال المسيحى بالإسلام فى السودان » وكتاب « الإسلام فى إفريقية الغربية » . وهو الذى نعنيه بالنظر فى هذا المقال (1) .

يكاد هذا الكاتب أن ينسى خصائص الدين الإسلامى ليقبل بعنايته كلها على الظروف المحلية من جغرافية واقتصادية وطائفة عارضة من الظروف النفسية ، وعلى هذا الأسلوب يفسر أسباب المقاومة وأسباب القبول كما فعل فى النبذة التى كتبها بهذا العنوان إذ يقول ما فحواه :

« إن انتشار الإسلام وما ترتب عليه من توزيع السكان المسلمين فى هذه البقاع كان نتيجة لعوامل متعددة ، بين تاريخية وجغرافية ونفسانية وأهمها فى خطوطها العريضة عاملان تاريخيان : أحدهما سريانه المتمهل منذ القرن الحادى عشر إلى القرن السابع عشر على أيدى

(1) Islam in west Africa by P. Spencer Trimingham.

التجار ورجال الدين من البربر المرابطين ...

وقد أدى إلى قيام طبقة حاكمة في بيوت الإمارة وبيوت التجارة والوجاهة، أما الآخر فهو الحركة التي اشترك فيها السود والفلانيون - رحالة بلاد النيجر - وأنشأوا بها نحلة ذات حكومات دينية أخذت في التجمع خلال القرن التاسع عشر بعد وفود الأوربيين على البلاد.

ولا يخفى أن الإسلام قد دخل إلى البلاد من الشمال حيث يقيم هؤلاء. وهؤلاء فكان من جراء ذلك أن سكان الإقليم اصطبغوا شيئاً فشيئاً بالصبغة الإسلامية، وحالت عوائق الموقع دون وصول العقيدة إلى الجنوب كما حالت بقايا الوثنية دون تعميمها حيث وصلت من شمال الإقليم. وقد كان تغير المناخ من أسباب تعويقها، إذ حدث غير مرة أنه وقف في الطريق سداً دون المغيرين، وهنالك تتعذر المواصلات ويتفرق السكان فرقا صغاراً على مسافات متباعدة فيتوقف الزحف إلى الجنوب، وقد كانت غابات غانة حائلا دون تقدم الوافدين الذين تعودوا المعيشة في السهول، وضاعف الصعوبة عوارض الحمى الصفراء والملاريا ومرض النوم والقحط والمجاعة، وراح الوثنيون يلوذون بما اعترض الوافدين من الهضاب والمستنقعات وبحيرات نهر النيجر. إلا أن أسبابا أخرى نفسية تحسب من العوارض التي تماثل تلك العوارض الجغرافية في قوتها ...

فالإسلام خليق، أن ينتشر بين أبناء المدن لأنه حضارة لا بد لها أن تتوطد في مركز من المراكز المدنية يتلاقى فيه طلاب التجارة والمرافق والتعليم ويكون لهم أثرهم في القدوة الاجتماعية والتدين، فهؤلاء المدنيون بما عهد فيهم من النزعة الفردية ومن التطلع ومن الانحصار في شئون السوق والمصنع يقبلون على العقيدة الإسلامية، ومثلهم الرحالون المتنقلون في الإقبال على هذا الدين لخلوه من المراتب الكهنوتية وقلة ما يتطلبه من التغيير في المعيشة أو من تكاليف العبادة على بساطتها وسهولتها ... إلا أنه قليلا ما يستهوي أصحاب المعيشة الريفية الذين ترتبط أعمالهم بالزرع والعناية بتربية الأطفال والماشية. وقد يقبل عليه الرحل من أبناء القبيلة الواحدة ويعرض عنه إخوانهم المشتغلون بالزراعة، فلا يعهد في هؤلاء الريفيين أن يقبلوا عليه إلا بعد «فترة فراغ من العقيدة ...».

وخلاصة الموانع «الريفية» التي تصد أصحاب المعيشة الزراعية عن الإسلام في رأي المؤلف أنهم يرتبطون كل يوم بشعائر التقاليد والقرابين والدعوات والتعاويذ التي تعترض الإسلام كما يعترضها، فلا يسهل التغلب عليها بحكم العادة أو القدوة قبل استئصالها وتثبيت أركان العقيدة الجديدة مما يشق القيام به في نطاق محدود.

على أن المؤلف يذكر أمثلة من القبائل الوثنية طواها الإسلام فى عقيدته الكبرى - عقيدة الشهادتين والفرائض - وتركها بعد ذلك وما ورثته من تقاليد أسلافها التى درجت عليها فى معيشتها اليومية ، فأصبحت فى عداد المسلمين الذين يقاومون سياسة الغرب . بدافع من العقيدة ومن الوطنية أو عصبيّة القبيلة معاً ، وابتلى منها الغرب بعدو مزدوج العداوة صلب المراس على دعاة الفتح والتبشير .

* * *

وينتهى المؤلف من شروحه المطولة على هذه الطريقة « الواقعية العملية » إلى الخاتمة التى يقرر بها زبدة الكتاب ويصف الحالة فى العصر الحاضر، فيوجزها فى نبذة خلاصتها: أن الديانات الباطنية التى تشبه فى العصر الحاضر الديانات العامة أو العالمية المشتركة لا تنفى ما عداها ولا تتصف بما اتصفت به المسيحية والإسلام من الشمول أو الإحاطة التى لا بد أن تصطدم بما تقدمها ، ولكن الإسلام قد سوى ما بينه وبين الشعائر المتقدمة من الخلافات التى تدفع إلى الصدام العنيف فاستطاع الإفريقى ، وهو مشتمل بسربال الدين الإسلامى أن يوفق بين الطرفين فى نطاق عقيدته الجديدة ، وجاءت السيطرة الأوروبية فلم يقتصر أثرها على تثبيت الإسلام حيث تزعزع واضطرب فى مواطنه ، بل ساعدته على الانتشار بين أرجاء إفريقية الغربية كلها، ووجب على كل دارس للتغييرات الدينية أن يعلم أننا نواجه فى أقاليم شتى إسلاما ينشر دعوته ويستميل أبناء تلك الأقاليم إليه .

إلى أن يقول ما نترجمه بنصه بعد الإشارة إلى الثقافة الغربية : « إنها على ما أحدثته من أثر فى الجماعات الوثنية الكثيرة زعزع الأسس العتيقة وجنح بهم إلى البحث عن مستقر جديد قد لقيت بين الجماعات التى توطد فيها الإسلام حاجزاً لم يتزعزع إلا فى الوقت الحاضر بعد استدراج الشباب إلى اتخاذ الأطوار الغربية ، وليس إسلام إفريقية الغربية كإسلام القرن العشرين فى الشرق الأدنى حيث تسرى تيارات الحضارة الغربية فى نواح شتى وتؤثر أثرها فى أهله فيستجيبون لمطالب العالم الحديث ، بل هو إسلام القرون الوسطى ، وعزلة شيوخ الدين فيه عزلة جد حقيقية فليس لاتصالهم بالعالم الإسلامى فى شمال إفريقية والشرق الأدنى غير أثر هزيل .

وعلق المؤلف على ذلك فى هامش الصفحة قائلا: «إن فقهاء الدين العارفين باللغة العربية كما يطلعون عليها فى كتب الفقه لا يفهمون العربية العصرية إذا قرأوها فى صحيفة أو مجلة

مصرية ولا يهتمون بالتعلم على نمط جديد . ولم تصادف المحاولات التى أريد بها إصلاح التعليم الدينى غير قليل من النجاح ، ولاحظ - مثلا - مصير الكلية القرآنية العليا التى أسسها فى باماكو - سنة ١٩٥٠ - أربعة من غلاة الخريجين الأزهريين . فإنهم اهتموا بتوكيد فهم القرآن على أسلوب غير أسلوب الاكتفاء بالحفظ والاستظهار وتناولوا فى دروسهم بعض الموضوعات الحديثة . فارتفع عدد الطلاب إلى أربعمائة . بعد فترة وجيزة ، ولكن دراساتهم تعرضت للإنحاء عليها من جانب الفقهاء وجانب العصريين . فأمرت السلطة بإغلاق المدرسة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ لأن السلطة فى إفريقية الفرنسية ومثلها إفريقية الانجليزية تميل إلى مناصرة المحافظين على المجددين، وقد عولجت تجربة أهون من هذه التجربة فى السودان الفرنسى على أيدى جماعة تسمى جمعية المرشدين أنشأت عدداً من المدارس تتوسع فى استخدام اللغة الدارجة وكذلك أنشئت فى (زرعة) Zaria مدرسة تصر على تعليم اللغة العربية ولكنها تلقى الإرشادات الدينية بلغة القبيلة » .

* * *

فى هذا القسط من الكتاب كفاية للتعريف بالغرض الذى تحوم حواليه هذه الطريقة « العملية الواقعية » فى التنبيه إلى أسباب انتشار الإسلام وأسباب مقاومته بين قبائل إفريقية الغربية ، ولولا أنه بحث يتصدى له أساطين التبشير المتفرغون له فى القارة الإفريقية لجاز لنا أن نقول : إنه بحث علمى برىء يتجشم الباحثون أعباءه ومغارمه طلباً للمعرفة الخالصة دون غيرها ، ولكن أساطين التبشير لا يشغلون أنفسهم بأسباب نشر الإسلام لينشروه أو ليقفوا حياله متفرجين مغتبطين ، وأقرب ما يخطر على البال بداهة بغير حاجة إلى الفطنة الثاقبة أنهم يعرفون هذه الأسباب ليعرفوا منها الأسباب « العملية الواقعية » لوقفه وصده وتحويل القبائل الإفريقية عنه والاستعانة بالعوائق القائمة لزيادة العقبات فى طريقه ، ومن هذه الوسائل أن تستعين السلطة بالجامدين من المسلمين المتأخرين على محاربة طلاب الإصلاح والتقدم ، فتبلغ ما تريد من التعويق والتعطيل وهى تغنم الشكر من أولئك الجامدين .

* * *

على أن الكتب السياسية أدنى إلى كشف الستار عن الخطط المبيتة من كتب التبشير ، وبخاصة كتب السياسة التى ينشرها أناس تابعون لدولة غير الدولة المسيطرة على الإقليم الإفريقى المحكوم ، فإن مؤلفى هذه الكتب قد يكشفون أسرار السلطة المزاحمة لهم حبا

الغلبة عليهم فى ميدانهم ، والتشهير بهم بين رعاياهم ، إن لم يكشفوها حباللحقيقة وإنصافا للمحكومين .

ومن الكتب التى ينبغى أن تقرأ فى هذه الأيام لبيان الأغراض التى يتوخاها المبشرون والمستعمرون من تلك البحوث « العملية الواقعية» عن أحوال الإسلام والمسلمين فى القارة الإفريقية كتاب ضخم عن « إفريقية الغربية الفرنسية » ألفه انجليزى وانجليزية ضليعان . فى هذه المباحث خبيران بأسرار السياسة التى يطلقون عليها فى الغرب اسم توريب إفريقيـة Eurafrica ، أى إدخال إفريقية فى الحظيرة الأوربية ، وهما ريشارد أدولف Richard Adolph ، وفرجينيا تومسون Virginia Thomson . وتزيد صفحات الكتاب على ستمائة صفحة من القطع الكبير .

وأصرح ما فى الكتاب كلام المؤلفين فى الفاتح السلمى زافير Xavier Coppolani الذى كان « أول من فطن لإمكان استغلال النفور الذى يشعر به البربر المرابطون فى علاقتهم بالعرب » وأنه يستغل المنافسة بين زعماء البربر ، كما يستغل النفور بين العرب والبربر المرابطين ، ويدفع بعضهم بهذه الوسيلة إلى وضع أنفسهم « تحت الحماية الفرنسية » لقهر خصومهم ومنافسيهم على الزعامة ، دون أن تنطلق فى الإقليم رصاصة واحـدة أو تتـكلف الدولة من الغرم غير القليل من المال (صفحة ١٦٣) .

ويشبه ذلك فى الصراحـة أن المستعمرين تيقظوا بعـد فـترة من الغفلة لخطر الإسلام فى زحفه على القبائل الوثنية : « وقليـلا ما شجر النزاع بين الوثنيين ـ والمسلمين لأن الأولـين متفرقون منقسمون نحلا وفئات لا تقـوى على أكثر من المقاومة السلبية لمسالك الإسلام فى تقدمه . ولم يتنبه الفرنسيون عنـد قدومهم للمعنى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى الذى يدل عليه تقدم الإسلام وغلبته على القبـائل الوثنية . فإنهم كانوا فى إبان المعارضة بسلطة الكهنوت يلتزمون الحيـدة فى المسائل الدينية ولا يدركون أنهم بذلك يمهـدون لنجاح المسلمين فى اكتساب الوثنيـين الذين تأبى السلطـة الحكومية على القسس أن يعملوا على تبشيرهم ... ولم يدركوا الحقيقة إلا بعـــد نشوب الفتنة فى كايس وستادوجو (سنة ١٩١١) وثبوت اتصالها بالدعاية الإسلامية من قبل صنهاجة . فعلموا يومئذ متأخرين أنهم يمهدون بسياسة الحيدة فى المسائل الدينيـة لتمكين الإسلام من إقامة سلطة سياسية إلى جانب السلطة الدينية » .

وشبيه بهذا فى الصراحة أن السلطة أذنت بتعليم المسلمين فى المدارس العصرية وحظرت على تلك المدارس أن تتعرض للدعوة الدينية

إذ كان مقصدها من هذه السياسة أن ترشح أبناء الزعماء والشيوخ لوظائف الحكومة فتلهيهم بها عن دعوة الوثنيين إلى الدخول فى الإسلام (صفحه ١٤٩) .

وقد يعتمد المسلمون على أنفسهم فى إدارة مدارسهم فلا تتاح لهم الفرصة لاستقدام المدرسين الأكفاء إليها ، ولا تنجح المدارس فى تخريج الشبان الصالحين لولاية الوظائف وإدارة الأعمال المستقلة مع اكتفائها بالبرنامج العتيق المعهود فى معاهد التعليم على أساليب القرون الوسطى .

* * *

وتمام هذه الخطط إنما هو تفصيلات لهذه الخطوط العريضة كما يقولون فى المصطلحات الأوربية ، ولبابها جميعا أن الطريقة الحديثة التى يتوخاها المبشرون والمستعمرون لتقرير أحوال المسلمين « الواقعية العملية » إنما تفضل فى هذا العصر على المناقشات « اللاهوتية » حول خصائص الإسلام لأنها أنفع للمبشر والمستعمر فى « العمل الواقعى » ؛ لتجريده من وسائل الانتشار وإحاطته بالعوائق والعقبات وتعزيز ما يوجد منها فى طريقه من أثر الظروف الجغرافية أو الاجتماعية .

* * *

ولنا نحن أن نأخذ من دراساتهم هذه ما ينفعنا ويهدينا إلى العمل اللازم فى الواقع ، وخلاصته فى سطور قليلة : أن الإسلام لا تزال له فى القارة الإفريقية قدرته الطبيعية على التقدم والثبات ، وأن الحوائل فى سبيله إنما هى حوائل مصطنعة من فعل السياسة أو من فعل « الظروف الجغرافية » على الأكثر ، وفى وسع دعاة الإسلام أن يقابلوا تلك الحوائل بما تستدعيه من حيطة واجتهاد . ؟

عباس محمود العقاد

تصويب فى الجزء الماضى

فى العمود الثانى من صفحة ٢٥٩ السطر ٢٥ : التضامن ، صوابها : التطامن .
« الأول « ٣٥٤ « ١٩ : المدنية ، « : المدينة .
« « « ٣٥٥ « ٢١ : طبيعيين ، « : طبيبين .

وجهة نظر الشيوعية فى الاسلام

عن مجلة « صحيفة الميزان »

« صحيفة الميزان » صحيفة دورية تتبع ما يكتبه الروس عن الشرق عامة . وهى تصدر عن المركز الآسيوى الرئيسى للأبحاث بالاشتراك مع جماعة دارسى الشئون السوفيتية بكلية القديس أنطونى التابعة لجامعة أكسفورد بانجلترا .

وفيما يتعلق بوجهة نظر الروس عن الإسلام فى هذا العدد نجده واضحا فى المقالات التى ظهرت تحت عنوان « المادية والنقد التجريبى » ، وهذه المقالات قد انتشرت انتشارا واسعاً فى محيط الفلسفة السوفيتية وصحف الحزب الشيوعى الروسى . وعلى أى حال فإن النغمة المغرضة لهذه المقالات وإشاراتها المتكررة إلى « تخلف » الدراسات السوفيتية وإخفاقها فيما يتعلق بالدراسات الشرقية كل هذا يدعو إلى رسم برنامج يهدف إلى تحليل المذاهب الشرقية وإعادة تقديرها وتقييمها ، وهذا يستدعى بالضرورة اختباراً مباشراً للمذاهب التى قامت عليها الحركات القومية فى الشرق الأوسط من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ذلك البرنامج سوف يفحص ويختبر التقاليد الدينية والفلسفية لهذه المنطقة . . . والمقصود من هذه التقاليد والفلسفات هو الإسلام بالذات .

وجهة نظر الشيوعية عن الإسلام :

ووجهة نظر الشيوعية عن الإسلام تظهر فى دائرة المعارف الروسية الكبرى فى المجلد ١٨ لسنة ١٩٥٣ كما يلى :

« الإسلام ـ كغيره من الديانات ـ قد لعب دائما دوراً رجعياً وذلك بوضعه فى أيدى الطبقة المستغلة سلاح الظلم الروحى الذى يعانى من سطوته العمال . وقد استغل بواسطة المستعمرين الأجانب لاستعباد شعوب الشرق » .

وعلى أى حال فإن المقالة فى حديثها عن طوائف الإسلام ، تقول : إن هذه الطوائف كانت فى بعض الحالات تعبيراً عن احتجاج لا حول له ولا قوة ، صادراً عن الطبقات الكادحة ضد ظلم الطبقات وظلم الإقطاع .

ويقول « بيلايابيف » عن « الطائفية الإسلامية » سنة ١٩٥٧ : إن الحركات الشعبية التى ظهرت فى صورة نحل وطوائف إسلامية لا يمكن أن تكون ناجحة بطبيعة الحال :ـ

« إن الشكل الدينى لهذه الحركات يجب أن

يعتبر كواحد من الأسباب الرئيسية للفشل النهائى للحركات الطائفية التى حاول المشتركون فيها من الطبقات العليا أن يؤسسوا مملكة من الحق والعدل على ظهر هذه البسيطة . والواقع أنه لا يمكن لدين من الأديان أن يقوم بدور المحرر للشعب من الظلم والاستغلال . وعلى الرغم من هذا فإن الدين يعتبر من جهة أخرى - من وجهة نظر السوفييت - المعبر الذى يوصل إلى التغير الناجح » .

وفى مقالها عن « الدين » تقول دائرة المعارف السوفييتية :-

«يدلنا تاريخ المجتمعات أنه فى حالة استبدال عقائد دينية معينة بأخرى يمكن — طبقا للشروط المحددة للهيكل الاجتماعى — أن يعتبر هذا الاستبدال متصلا بالمظاهر الناجحة فى حياة الشعوب كما هو الحال - مثلا - بالنسبة للمسيحية فى عصورها الأولى ، وفى اعتناق الروس للمذهب الشيوعى إلخ . ولكن هذا لا يغير من أسباب انبثاق الأفكار الدينية وانبعاثها أو يغير من جوهرها » .

إن هذه الثنائية فيما يتعلق بالموقف العلمى الروسى تجاه الدين هو مظهر للموقف الثنائى فيما يختص بموضوع الدعاية اللادينية ، وهذا الموقف محدد - على سبيل المثال - فى مقالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى ظهرت فى « برافدا » فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، وقد أوضحت هذه المقالة أن الحزب الشيوعى الروسى « يعتبر أنه من الضرورى توجيه دعاية علمية إلحادية منظمة وعميقة ، وفى نفس الوقت عدم محاولة إيذاء المشاعر الدينية للمؤمنين بدين معين أو المتبعين لنحلة من النحل بأى حال » .

والكاتب الروسى « ليتمان » كغيره من الكتاب الروس يوافق على المظاهر السياسية لبعض الحركات الدينية ، ولكنه على خلاف غيره من الكتاب الروس لا يوافق على الهجوم التقليدى الروسى على الأديان كما هى ، وبدلا من ذلك فإنه يقترح أن التصحيح الطبيعى للمثالية الدينية الشرقية إنما يوجد فى الشرق نفسه وفى التقاليد المادية الشرقية التى يجب على العلماء السوفييت عرضها وشرحها . ودراسة المادية الشرقية فى الظاهر يمثل خطوة جديدة بالنسبة للعلماء السوفييت ، وسوف لا يكون مفاجئا إذا صحبت هذه الدراسة بموقف جديد بالنسبة للديانات الشرقية نفسها .

عبد المحسن البيلى
بإدارة الثقافة الإسلامية

صلوات روح ..! (*)

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

سموت بالروح إلى خالق　　في ليلة نشوى بخمر الضياءْ
ذابت بها الظلمة حتى غدت　　أسطورة طال عليها العفاء
ورقَّ فيها النور مسترسلا　　كهمس ناى هائم فى الفضاء
ما زلت أسمو ، والمنى فى يدى　　رفاقة مثل النجوم الوِضاء
وفى شعورى نشوة حلوة　　تسكب فى نفسى أرَقَّ الغناء
وملء نفسى فتنة ترتوى　　من روعة الليل ، وسحر المساء
حتى انتهت روحى بأشواقها　　لمنهل الغيب الذى فى السماء
فانتفضت فيها ضراعاتها　　وأطلقت فى الصمت هذا النداء :
يا منهل الغيب اسقنى قطرة　　من ذلك النور ، وهذا الصفاء
تجعلْ حياتى نغما شاديا　　فى عالم يهفو إليه الرجاء
أحسه صوتا عميق الصدى　　يهز أعماقى بسحر الدعاء
وصورة طال عليها المدى　　وما خبا فيها رفيف الرواء
يا منهل الغيب . . وبى حيرة　　قد صيرَتنى أستحق الرثاء
كطائر أُبعد عن عشه　　فهام فى إحدى ليالى الشتاء
وبى حنين يتحدى الثرى　　ويرتقى بى طائرا حيث شاء
ولى قيود تتمنى سدى　　لو أننى أنسى سبيل العلاء

(*) من ديوان « حياتى ظلال » المعد للطبع .

لبستها ثوبا إله الورى قد صاغه لى من تراب وماء
حتى يحين الأجل المرتجى فأنزع القيد ، وألقى الرداء
يا منهل الغيب .. وبى غربة تنبت فى عمرى هموم البقاء
لا الأرض دارى ، لا ، ولا أهلها أهلى ، فكيف الصبر ؟ كيف العزاء ؟
غريبة بالحب فى عالم الحب فيه خدعة أو رياء
نسجته ظلا به يحتمى وصغته نورا به يستضاء
وطفت فى دنياى مسحورة تغمرنى إشراقة وانتشاء
أبحث عن روح أرى طيفه يفتن أيامى بحلم اللقاء
فلم أجده ، فألفت المنى حتى جفتنى ، فألفت البكاء
غريبة بالصمت .. من نايه يشير إلهامى أرق الحداء
أراه ظلا سابحا فى السنا كطيف عطر سابح فى الهواء
وأحتسيه خمرة عتقت فى الغيب .. يدرى سرها الأنبياء
والصمت سحر هائم فى الدجى يهفو إلى الغيب ، ويبغى الخفاء
صاغت حياتى منه أسرارها فاستغرقت فى عزلة وانطواء
والصمت سر همت فى جوه على جناحى لهفة واشتهاء
والصمت بحر موجه نائم يحلم بالعودة من حيث جاء
عبرته وحدى على زورق يود لو يسرى لغير انتهاء
وعدت منه بشهى الرؤى وفى الرؤى رى ، وفيها غذاء
فالصمت عندى بالرؤى حافل وعند غيرى حافل بالهباء
غريبة بالحزن ... نيرانه تلقى على ضوئى ظلال الفناء
وسره فى داخلى كامن محجب بالصمت والكبرياء
يدرى أساه من رمانى به ومن تولانى بطول العناء
إليه أشكو وحده غربتى وحيرتى فى الأرض . أرض الشقاء
ولهفتى الكبرى إلى موطنى فى عالم يهفو إليه الرجاء
أبعدت عنه ، فعرفت الأسى ولست أدرى سر هذا الجزاء
خطيئة الجنة من آدم علام تكوى نارها الأبرياء ؟

وأطرقت روحی بأشجانها لعلها تسمع صوت القضاء
فاهتز فى أعماقها هاتف يشع مثل البارق المستضاء
وقال فى صوت عميق الصدى تمازج الرقةُ فيه المضاء
يا هذه الروح التى تشتكى من دائها ، والداء فيه الدواء
من يحمل الآلام يقعدْ بها إن لم يحملها بروح الفداء
فلتحملى الآلام فى قوة فإنها تخشع للأقوياء
ولا تضيق بحياة الورى وتهربى مما بها من بلاء
وجاهدى الليل بهذا السنا وكافحى الشر بهذا النقاء
فالبدر لا تظهر أنواره إن لم يُرِقْها فى ظلام المساء
والخير ما جدواه إن لم يكن قد ألجأَ الشر إلى الانزواء ؟
ورقرقى نورك من نبعه لكل ظمآن إلى الاهتداء
فالدر فى الأصداف مثل الحصا مادام لا يكشف عنه الغطاء
والبقلة الخضراء فى أرضها خير من البستان بين العراء
حتى إذا ناداك رب الورى وكنت قد أبليت خير البلاء
دخلتِ دنيا الغيب مزهوة لتغنمى فيها دوام البقاء
هذا قضاء الله فى خلقه لكل شيء محنة وابتلاء

* * *

وخيم الصمت سوى نبأة من الصدى قد آذنت باختفاء
فأذعنت روحى ، وعادت إلى دنيا الشقاء البكر ، والأشقياء
ولم تزل تعجب مما رأت فى ليلة نشوى بخمر الضياء
أكان وهما شاعرىّ الرؤى ؟ أم كان حلما ساحرىّ البهاء ؟

ابراهيم محمد نجا

ثورة بيضاء من نور الإله ..!

للأستاذ محمد هارون الحلو

بأذانِ الفجرِ طيرُ الخلدِ كبَّر ... وبنصرِ الله قدْ هنَّى وبشَّرْ
كيف لا يهتف بالنصرِ المؤزَّرْ شبتْ الثورةُ ، والشعبُ تحرَّرْ

* * *

ثورةٌ بيضاءُ من نورِ الإله تملأُ القلب بآمالِ الحياه
وتُشعُ الحبَّ لحناً فى الشِّفاه سكِرَ القلبُ ، وقد لذَّ هواه

* * *

طهَّرتْ مصر من العادى الدخيلِ فالتقَ الأحرارُ بالحُرِّ الأصيلِ
تحتَ ظِلٍّ من رُبى الخلدِ ظليلِ وَصحا الشعبُ على الحُلمِ الجميلِ

* * *

فُتِّح الخيرُ بها باباً فبابا فانطلقنا للأمانىِّ عِذابا
نزرعُ الخيرَ ونجنيهِ ثواباً كيف لا نُسرِعُ لِلمجدِ طِلابا ؟

* * *

ثورةٌ كبرى على الشرقِ خطاها تصرعُ الباغى، وتسقيهِ لظاها
رايةُ الحقِ أذلَّتْ من عصاها واستضاءَ الكونُ من نورِ هداها

* * *

موكب العزَّةِ منها ، والطِّماح بارقٌ كالنجمِ ، مرهوبُ الجناح

ما غدا إلاّ على نصر مُتَاحِ بمضاءٍ ، وبعزم ، وكفاحِ

* * *

بَعَثتْ فى الشرق شعباً أمجَدَا وتلاقتْ وَحْدَةُ العُربِ يَدَا
أمةٌ ترقبُ ذاكَ الموعِدَا باركَ اللهُ بها جُنْدَ الفِدَا

* * *

ثورَةٌ تذكو لهيباً ، وَضِراما كلمّا رامَ بها باغٍ أثامَا
وَضِياها يملأُ الدّنيا سلاما ويُشيعُ الحُبَّ صفواً ، ووِئامَا

* * *

وحّدتْ شعباً أبيّاً عربيّا عاش فى الشرق رسولاً ونبيّا
صيحةُ الحقّ بها دوّتْ دوِيّا لم تذر فى الأرض جبارا عصيا

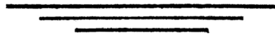
* * *

ومضى يدعو بنورِ اللهِ داعٍ ينقذُ العالم من هولِ الصراع
وسرى النورُ إلى خيرِ البقاع يحمل الرايةَ بالأمر المطاع

* * *

جاء نصرُ اللهِ والفتحُ المبينْ ومضى للشطّ ربّانُ السفين
موكبٌ يحدوه جبريلُ الأمينُ فتعالى اللهُ ربُّ العالمين

محمد هارون الحلو



أنباء الأزهر

من السيد الرئيس إلى الأستاذ الأكبر:

أرسل السيد الرئيس جمال عبد الناصر برقية إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر هذا نصها :

تلقيت بالغبطة برقيتكم المتضمنة أكرم المعانى وأصدق المشاعر بمناسبة المولد النبوى الشريف ، وفى هذه الذكرى المجيدة يطيب لى أن أدعو الله مخلصا أن يحقق للمسلمين مجدهم السالف، وأن يجمع قلوبهم على الخير والتآلف، حتى يعز الإسلام وتعلو راية العرب والله الموفق إلى مافيه سواء السبيل ، كما إنى أبعث إليكم بأخلص الشكر متمنيا لكم الصحة والسعادة .

جمال عبد الناصر

الدكتور طه حسين عند الأستاذ الأكبر:

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه السيد الدكتور طه حسين والمستر رادولف سالات مدير الشئون الثقافية باليونسكو والدكتور تقى نصر ممثل مقيم فى مصر لمجلس المعونة الفنية للأمم المتحدة .

قال الدكتور طه حسين للأستاذ الأكبر :

ـ إننى أحب زيارة الأحرار والارتباط بهم وأقصد من الحرية ، حرية الفكر وحرية المعرفة ، الحرية الموصلة إلى السمو فى الهدف والنبل فى الغاية والتى تحقق آمال الناس جميعا فيما يهدفون إليه أملا يبنى ولا يهدم ويعلى ويرفع ولا يخفض ، وقد جئت فى صحبة المستر رادولف سالات ليقدم إليكم تحية هيئة اليونسكو جميعا مقدرين لكم جهودكم فى إثارة الوعى الدينى المنظم الذى يجمع ولا يفرق ، وإنه ليقدر هو والهيئة أن الأزهر أقدم جامعات العالم، وهو مصدر من مصادر الإشعاع العالمى فهوجدير بالتقدير ولذا رأى أنه من الواجب عليه أن يزور الأزهر جميعا ممثلا فى شخصكم .

قال الأستاذ الأكبر للدكتور طه حسين :

ـ إننا نضع يدنا فى يدك وفى يد كل محب لإعلاء شأن العقل الإنسانى حتى نتمكن جميعا بيد واحدة وبتماسك واحد أن نخوض خطر

الحياة الحرة الرتيبة ، وأنا أعتقد أن أول من يقدر الأزهر ويقدر جهاده ، إنما هى هيئة اليونسكو .

ونعتقد أيضا أن توجيه العالم إلى الخير إنما هو إلى الأزهر وإلى كل هيئة تنشد العلم ، وتسعى إلى المعرفة. ومن بينها هيئة اليونسكو وذلك بما يركز الأمن والاستقرار فى ربوع العالم ويمنع من وقوع مثل هذه المذابح الدامية التى تقع دائما صراعا بين الحق والباطل وبين الحرية والاستعباد . وأنا أرى أنه لا يصح أن تقف الهيئات العالمية على حد البحث العلمى الجامد ، وإنما يجب عليها أن تعمل دائما لتوطيد أركان الأمن وتركيز السلام ؛ فإنه لايجوز أن تستخدم النعم التى أنعم الله بها علينا من عقول مفكرة، وآراء سديدة، وقوة فى الإدارك ، لا يجوز أن تستغل هذه أو توجهها إلى الشر وإلى إثارة الخواطر وتحطيم القوى ، وذلك كله إنما يكون من طريق التعارف الذى يبعث على الحب والتآلف ، فإن الروح والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وهنا قال الدكتور طه حسين :

ـ إن هيئة اليونسكو مشغولة فى هذه الحقبة من الزمن بمشروع هو فى غاية الخطورة وهذا المشروع يهدف إلى التعارف الحر وليس تعارف على أساس السياسة ، وإنما هو على أساس الحرية الصحيحة والعلم والمعرفة وهو ماتهدفون إليه، وهنا قال فضيلة الأستاذ الأكبر : لعلكم تذكرون يا أخى الدكتور أن الأزهر خطا خطوة واسعة فى سبيل التقريب بين المذاهب جميعا ، فخطا هذه الخطوة حتى فى التقريب بين أهل السنة والشيعة . وكلية الشريعة الآن تدرس الفقه المقارن بين المذاهب الأربعة ، وبين غيرها من المذاهب الأخرى ، وأنا حريص على أن يعرف الطلاب ، ويدرك العلماء الأصول ويقدروا المراجع ـ وأنا شخصيا ـ أرى أنه ليس فى الدين ما يلزم بمذهب معين . فكل الأئمة صح عنهم إذا صح الحديث فهو مذهبى ، وأنا حريص على أن يكون مرجعنا الكتاب والسنة ، نستقى منهما ، ونأخذ عنهما ، وننهل من منهلهما العذب .

على أن كل مايخالف هذا الأصل ، ويخالف الكتاب والسنة . فنحن نرده ولا نقبله ، وأبو حنيفة يادكتور يقول : من لم يعرف من أين أتينا برأينا لا يصح أن يقلدنا ، ولقد سمعنا فى أوقات كثيرة أن ابن تيمية ضال مضل ، ونفر المرجفون الناس من مذهبه ولكنه تكشف لهم الأمر فعرفوا أنه هاد ومهدى . ثم سأل الأستاذ الأكبر الدكتور طه حسين : أتذكر يادكتور الموضوع الذى أسقطوك فيه فى الشهادة العالمية ؟ قال « نعم ،

إنه المطلق والمقيد ، فقال « وكم سنة قضيتها في الأزهر ؟ قال : أنا دخلته سنة ١٩٠٢ وتركته سنة ١٩١٢ م وبقيت فيه عشر سنوات ، أنا أحب الأزهر وأومن بأنه المشعل القوى ـ والقوى جدا ـ الذى ينير للعالم الطريق المستقيم ، وأحب فيه العلم والمعرفة وأكره التزمت ، أنا أذكر يا فضيلة الشيخ يوم أن كنت طالباً وكان معى اثنان من الزملاء وكنت أحضر النحو على الشيخ أبو النجا وكنت حريصاً على النقاش العلمى ولكن الشيخ لم يعجبه ذلك وكأننى قد أفرطت فى النقاش فطردنا من الدرس وأقسم ألا يدرس ونحن فى الفصل فامتثلنا وتركناه . ورحنا نحضر على الشيخ عبد المعطى الشرشيمى فى زاوية العميان ، وكان ما كان ثم قال الدكتور طه حسين ، أتذكر فضيلتكم يوم أن جلسنا سويا أنا وفضيلتكم والأستاذ على عبد الرازق وأخذنا نبحث فيما يجب علينا أن نقدمه لخدمة الشريعة الإسلامية وللعقل البشرى ، فاتفقنا يوم ذاك على أن يكتب الأستاذ على عبد الرازق فى العقيدة ، وتكتبون فى الشريعة ، وأكتب أنا فى تاريخ التشريع ؟. فرد فضيلة الأستاذ الأكبر فقال : « إنه لمن حسن الحظ أن تجيئوا اليوم وقد انتهت المطبعة من طبع كتابى فى العقيدة والشريعة تحت عنوان « الإسلام عقيدة وشريعة » فقال الدكتور طه حسين : وقد كتبت أنا أيضاً فى قسم التاريخ كتابا باسم « مرآة الإسلام » وما زلنا فى انتظار ما يكتبه الأستاذ على عبد الرازق ، ثم قال السيد المستر رادولف : إننى لأستحى أن أذكر النسبة بين عمر اليونسكو وعمر الأزهر المديد وبين عملها وعمل الأزهر المجيد .

واليونسكو ، وإن كانت مؤلفة من جموع دول العالم فإننى أعتقد أن قدرتها على نشر السلام فى الأرض أقل بكثير من الأزهر ، ولكننا نطمع فى الكثير من الأزهر وخاصة فى عهدكم الذى يؤمن المصلحون برسالتكم فيه. فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : لا تنسوا أن ضغط الملوك والأمراء واضطراب موقفهم من الأزهر وقف عائقاً فى كثير من الأوقات أمام رسالة الأزهر وأمام آداء مهمته ، حتى لقد وصل الأمر أن الضغط فى بعض الأحيان قد كبت حرية الفكر وحرية الرأى وحرية التعبير ، فقضى الضغط بأن يفصل سبعون عالما من علماء الأزهر وكنت من بينهم ، ومع ذلك فقد ظلت رسالة الكفاح إلى أن هيأ الله للأزهر هذه النهضة المباركة فى هذا العصر الحديث.

فقال الدكتور : إن الوقت الذى فصلتم فيه أبعدت كذلك أنا عن الجامعة ، فكان الضغط على كل النواحى العلمية ومصادر النور والعرفان.

ثم قال الأستاذ الأكبر موجهاً كلامه

للدكتور طه حسين : إن عليك واجبا للأزهر وهذا الواجب كذلك على كل من تتلمذ فى الأزهر وأخذ عن الأزهريين وإذن لخدمة الأزهر واجب عليك فقد ركز الأزهر نواحيك العلمية، وأنا شخصيا أعتقد أن الأزهر إن شاء الله سيصل بمعونة الله ومعونة إخوانى المصلحين إلى جمع كلمة المسلمين ورجال الإنسانية على كلمة واحدة وهدف واحد .

ـ قال الدكتور طه حسين : وما شأن البعوث عندكم ؟ .

ـ قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الجمهورية معنية كل العناية بأمر هذه البعوث ، ومظهر ذلك إقامة هذه المدينة التى تتكون من إحدى وأربعين عمارة ضمت خمسين جنسية من مختلف الجنسيات الإسلامية، ليتفقهوا فى دينهم ويتعرفوا إلى نواحى الاجتماع والتعاون والديمقراطية الصحيحة فى إسلامهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وليكونوا رسائل حية لجمهوريتنا . يربطون بيننا وبين إخواننا فى جميع الدول . وهؤلاء يعد لهم الآن منهاج دراسى يتفق وطبيعتهم ، ويحقق الصلة بيننا وبين دولهم، ويساعدنا ويساعدهم على تحقيق رسالة الإسلام. ولقد وفد إلى الأزهر فى هذه الآونة أحد المسلمين الأمريكان ليدرس فى الأزهر ، وقد أمرت له بمنحة شهرية ، أدعو الله لهذا ولغيره أن يكون جهاده وتعلمه فى سبيل الله ، ثم فى سبيل الربط الحر المتين بين دول الأرض بما ينشر السلام ويحققه ، ومشيخة الأزهر تدعوكما لزيارة هذه المدينة المعدة على أحدث النظم فى العالم ، وقد استجابا للدعوة على أن يحدد موعد الزيارة .

هذا وقد طلب الدكتور طه حسين من الأستاذ الأكبر بناء على اقتراح مندوب اليونسكو ترجمة كتبه إلى اللغات الأخرى فوعد فضيلته بأنه سيتم ذلك قريبا . فقال السيد الدكتور : وأتمنى لو ترجمت إلى الأسبانية ، وأذكر بهذه المناسبة أننى عند ما كنت وزيراً للمعارف أرسلت بعثة إلى أسبانيا فاشترك الأزهر بواحد وكنت أود أن لو انتفع به الأزهر وهو الآن أستاذ فى كلية دار العلوم ، وهنا سأل أحد الصحفيين الدكتور طه حسين : ما هى آخر مرة زرت فيها إدارة الأزهر ؟ فقال سنة ١٩٥٢ زرت فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم واليوم أزور فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت وهما العالمان اللذان دوت أفكارهما فى الشرق وفى الغرب: ثم استأذن فى الانصراف فودعه الأستاذ الأكبر شاكرا له هذه الزيارة .

وكيل وزارة خارجية بورما يزور الأزهر:

زار اليوم وكيل وزارة خارجية بورما

والسكرتير العام لمجلس الوزراء. فيها دار كلية الشريعة بالأزهر واستقبلهم فضيلة العميد الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى، وقد استمع هو ومرافقوه إلى محاضرة فى المقارنة بين المذاهب فى الأدلة القطعية والظنية، وأثر ذلك فى الخلاف فى المسائل الفقهية. ثم استمعوا إلى محاضرة أخرى فى القانون الإدارى ألقاها بالعربية ثم ترجمها إلى الانجليزية الأستاذ مصطفى درويش المستشار فى مجلس الدولة.

وبعد أن انتهوا من هذه الزيارة، زاروا مكتبة الأزهر، ثم زاروا فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه، وبعد أن حيوا فضيلته قال لهم: إن الأزهر ليسر كثيراً بزيارة عقلاء الإنسانية، والإسلام دائماً يقدس حقوق الإنسان ويضع الأسس السليمة له، تلكم الحقوق التى منها الحرية والاستقلال والنشاط فى العلم والاختراع. وأنا أعتقد أن مثلكم يعتبر من الصف الأول لرجال الإنسانية. والإسلام لا يرى العصبية ويمقت التعصب فى أى وجه من وجوهه، بل يعتبر أن الداعين للسلم والاستقرار من رجال الدعوة للإسلام، والأزهر يقوم بنصيب كبير فى خدمة الإنسانية، وكم كنت أتمنى أن أجد اليوم الذى تتجرد فيه هيئة الإنسانية العليا من جميع أطماعها ونزواتها للدفاع عن حقوق الإنسان تنفيذاً لما أمرت به جميع الأديان. ويوم ذاك لا نسمع بالمذابح التى تقض المضاجع فى جميع جهات الأرض، ولا نسمع يومئذ عن استغلال الاختراعات فى إيلام الإنسان وعدم استقراره. والدين يدعو دائماً إلى الوحدة الشاملة كما أنه يدعو إلى السلم والأمان والاستقرار، والإسلام يربط بين القلوب، ويجمع الناس إلى هدف واحد يتجلى ذلك فى قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »، ويقول تعالى: « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ».

لهذه الاعتبارات أنا أشكركم على تلكم الزيارة الطيبة وأعتبرها أثراً من آثار الربط الإنسانى الفاضل، وقال السيد وكيل خارجية بورما: أنا سعيد لهذه الزيارة وأشكر هذه الفرصة التى أتاحت لى التعرف بالأزهر وبشيخ الإسلام، وإننى لجد فخور بهذه الزيارة، وأنهى لفضيلتكم: أن المسلمين فى بورما، يتمتعون بحرية دينية كاملة ؛ ولذا فإننى أزف إليكم هذه البشرى ؛ لتدل على ما بيننا من صادق التعاون. وإن المسلمين عندنا أسهموا بنصيب كبير فى بناء مجتمع بورما ؛ فلذلك أسسوا المدارس والمستشفيات وغيرها.

إننى ياسيدى لأقدر تماما، المجهود الذى

الكتب

نقد وتعريف

مع الله

للأستاذ محمد الغزالى

نقد وتعريف للأستاذ : محمد عبد الله السمان

إن التعرض للمؤلفات مشكلة لدى الكاتب الذى يسعى فى كتابته إلى إنصاف الحقيقة . لأن معظم الكتاب لا يكلف نفسه مشقة فيجنح إلى التقريظ ، والبعض يجنح إلى مجرد العرض ، وفى اعتقادى أن الهدف الأساسى من الكتابة عن الكتب يجب أن يكون النقد ؛ لأن مجرد التقريظ ومجرد العرض لا يؤديان إلا إلى الإعلان ، وربما كان هناك من أساليب الإعلان الصريح ما هو أكبر أثراً .

وإذا كانت الأمانة العلمية تقتضى المؤلف

يقوم به الأزهر فى بناء حضارة عظمى استمرت مدة من الزمن بلغت قرونا ، وإننا لنقدم دائما أخلص التعاون وأصدق المودة .

الموسم الثقافى للجامع الأزهر :

استأنفت قاعة المحاضرات الأزهرية نشاطها السنوى المعتاد ، وقد قصد إليها الرواد من شتى الطبقات لاستماع المحاضرات التى وجهت مشيخة الأزهر الدعوة إلى سماعها .

وبدأ الموسم بمحاضرة عن « واجب العلماء » ألقاها الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ثم ألقى الأستاذ عيسى عبده المحاضرة الثانية عن « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » .

وستظل القاعة مفتوحة طيلة الموسم الثقافى تستقبل زوارها وتقدم إليهم رجال الفكر الإسلامى ، فى شتى الموضوعات .

العرض العسكرى لطلاب الأزهر :

اشترك الأزهر فى يوم الجيش بنخبة من أبنائه المدربين ، شكلوا عدة طوابير عسكرية بدأت عرضها من ميدان صلاح الدين واخترقت أهم شوارع القاهرة ثم عادت إلى ميدان الأزهر حيث أطل عليها الأستاذ الأكبر مشجعا هذا الروح الحربى ، ومنوها بقيمته المعنوية .

حين يؤلف ، فإنها تقتضى أيضا الناقد حين ينقد ، وألا تكون للخواطر والعواطف مكان لديه وهو ينقد ، كانت هذه المعانى تمر بذاكرتى حين بدأت القراءة فى الكتاب الجديد « مع الله » لأخى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، ووجدتنى متحمسا - لا لمجرد القراءة والاستيعاب فحسب - ولكن للعثور على مواطن الضعف إن كانت هناك مواطن للضعف ، وعلى معالم الفجوات إن كانت هناك معالم للفجوات ، وقد طرحت جانبا المجاملة - لأنها فى رأيى أشبه بفرشاة طلاء تبعث بصفحات الكتاب فلا تمنحه إلا تشويها .

ولقد قرأت كتاب « مع الله » من أوله إلى آخره ، كما قرأت أخا له من قبل « كفاح دين » فلمست من هذين الكتابين الشقيقين أن الأستاذ الغزالى يمر بتجربة نفسية ، سداها الغيرة المتدفقة على الإسلام ، ولحمتها الإشفاق مما يخبئه المستقبل لهذا الدين من أحداث ، فأنت تحسب أن الأستاذ الغزالى لم يكن يمسك قلما ليكتب فحسب ، وإنما كان يحمل سيفا مصلتا يبعث القوة فى القلم ، ليغوص فى أعمق المعانى فيخرجها ، ويبحث عن أمتن القوالب ليصوغها فيه ، وهو مع ذلك حريص على أن يمسك بأفئدة القراء ليهتزوا مع اهتزازات سيفه وقلبه ، وكنت أحد القراء الذين لم تحتمل أعصابهم قراءة الكتاب جملة واحدة ؛ لأن المعانى التى طرقها تحتاج إلى أعصاب من فولاذ .

جعل الأستاذ الغزالى كتابه « مع الله » دراسات فى الدعوة والدعاة ، وكتبه للدعاة وليس للعامة لأن تكوين الدعاة - كما يقول - يعنى تكوين الأمة .

فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين ، وأثر الرجل العبقرى فيمن حوله كأثر المطر فى الأرض الموات ، وأثر الشعاع فى المكان المتألق ، وكم من شعوب رسفت دهرا فى قيود الهوان . حتى قيض الله لها القائد الذى نفخ فيها من روحه ريح الحرية فتحولت - بعد ركود - إلى إعصار يجتاح الطغاة ويدك معاقلهم » .

* * *

ولقد ربط الأستاذ الغزالى بين الدعوة والدعاة ربطاً متيناً ، فالدعوة رصيد ضخم من المعانى ، والدعاة هم المصارف التى يتفاعل بين جدرانها هذا الرصيد الضخم ، وإذا كان لابد أن يكون الرصيد عملة نظيفة . فأوجب أن تكون المصارف من النبوغ والعبقرية بمكان ، والإسلام بطبعه دعوة سليمة ، ولكن الدعاة هم الذين يكيفون هذه الدعوة بحسب إمكانياتهم ، فهم يستطيعون أن يرتفعوا بها ليستقروا فوق القمة ، كما يستطيعون أن يهبطوا بها ليستقروا فوق الحضيض ،

والمشكلة تنحصر فى الدعاة وحدهم ، فإذا أعدوا إعداداً سليما ، وتوافرت لهم شتى الإمكانيات ، ساروا بالدعوة إلى المكان اللائق بها .

قدم بحثا مسهبا للتعريف بالدعوة والحاجة إليها ، وأشعل معركة حامية الوطيس ضد من يحاولون العبث باللغة العربية ، أولئك الذين يهدفون إلى تهديد الإسلام ومحاولة التخلص منه ، وناقش مسألة كانت جديرة بالمناقشة هى قضية التبليغ عن الدعوة ، فكل مسلم مطالب بالإيمان وبحراسته ضد العدوان ، وبترغيب الناس فيه بالعمل وباللسان ،وهذا محور الركن الركين فى الإسلام . . . ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحقيقة المرة ـ كما يقول الأستاذ الغزالى ـ أن أمة الدعوة إلى الله فرطت فى جنب الله ، ولم تخلف رسولها العظيم فى طبيعة الإشعاع والإسعاد التى اقترنت ببعثه » .

وقدم الأستاذ الغزالى بحثا مسهبا أيضا عن السنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين ، وهى أنهم فى نظرتهم إلى جلال الله تتضاءل فى أعينهم شخوص المخلوقين ، ويذوب ما ينسب إليهم من بأس وإرهاب ، وما داموا هم دعاة حق ، فلا بد أن يوجد الصراع بين الباطل والحق ، والسنن العامة فى هذا الكفاح ، هو أن الزبد يذهب جفاء ، وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، وحمل الأستاذ الغزالى حملة قاسية على المستشرقين ففند مذاهبهم فى الكتابة عن الإسلام ، وكشف عن مخابئ أهوائهم فى النيل من دعوة الإسلام ، ووقف طويلا عند اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف ، وأكد أن الإسلام لم يخرج عن دائرة الحق والإنصاف فى حروبه ، وأن التعصب الأحمق فى غيره مما سبقه من الأديان لا زالت طلائعه إلى اليوم واضحة للعيان .

وفى بحث « الدعوة وحملتها » ناقش الأستاذ الغزالى قضية « الكهنة » وأن الدعوة فى الإسلام لا تقتضى وجود طبقة من الكهان ، فالإسلام فريضة شائعة وواجب عام كسائر الفرائض والواجبات التى نيطت بعنق الفرد ، وكان انعدام طبقة « الكهان والقساوسة » من المجتمع الإسلامى وإحساس كل تابع للإسلام بأنه رجل له محاسب أمام الله وحده عنه ، جعل انطلاق الإسلام فى المشارق والمغارب أثرا لهذا الشعور القوى ، وهذا لا يمنع من أن تؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافى واسع النطاق يقرب حقائق الإسلام من الشعوب المحرومة ، ويفند مثات الشبه التى روجها المفترون ضده ، وما أصاب دولة الإسلام ما أصابها من احتياجها فى السابق واللاحق ، إلا بسبب

هذه الفجوة التى لم يهتم بها فى ما مضى ، ولا نعنى بها الآن وبعد أن عدد الأستاذ الغزالى صفات الدعاة ، وهى الصلة بالله ، وإصلاح النفس ، ودقة الفهم للدين والدنيا ، والإخلاص الذى هو أساس أى داع إلى الله ، والشجاعة التى هى خلق أصيل فى الداعية إلى الله ، وغير ذلك من الخلال الجامعة ، أفرد بحثا عن « الدين والعلم » فالإسلام ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة ، والعلم جزء لا ينفصل عن الدين ، ونحن حين نكتفى بدعاة ليسوا مزودين إلا بالعلوم الشرعية ، فإنما نحاول عبور المحيط فوق لوح من الخشب ، والواجب أن تسير العلوم الشرعية إلى جانب العلوم المدنية جنبا إلى جنب ، فإن الملاحدة والمارقين لا يستمعون إلى آيات تتلى من القرآن إلا إذا قارنها منطق علمى ، كما أفرد الأستاذ الغزالى بحثا آخر عن أساس الوحدة العظمى ، وهو الإسلام الذى يتضمن هذا الدستور الخالد « إنما المؤمنون إخوة » ، والأمر الإلهى الصريح « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

وفى الحديث عن وسائل الدعوة تحدث الأستاذ الغزالى عن : القدوة الحسنة ، والتعليم . . والتذكير ، والخطابة ، والترغيب والترهيب ، والقصص الدينى ، والكتابة ، وفى الحديث عن مقاومة الهدامين تحدث عن الهدم الروحى ، والهدم التاريخى ، والهدم العسكرى ، ونبه الداعية إلى الله إلى هذه الأنواع الثلاثة التى تعمل جنباً إلى جنب ، وغايتها أن تتلاقى فوق أنقاضنا ، وذلك ليتذوق الحقيقة المرة ، ويقف عليها ، ويستعد لمجابهتها .

وفى الباب الأخير من الكتاب ، قدم الأستاذ الغزالى نماذج حية من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن أقوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح ، والكتاب المعاصرين ، لتكون هذه النماذج الحية زاداً للداعية إلى الله فى المهمة الملقاة على عاتقه .

هذا هو الكتاب العشرون للأستاذ الغزالى « مع الله » مررنا به مروراً ، إذ من العسير أن يستعرض الكاتب استعراضاً كاملا لكتاب بلغت صفحاته نصف الألف ، وإذ غضضت الطرف عن جانب التقدير للكتاب ، فليس إلا لأجد فى هذه الصفحات القليلة مساحة لما لا حظته عليه ، كنت أود أن يلتزم الأستاذ الغزالى طريقة العناصر فى بحوثه جميعها ، فالعنوان مثلا يوحى بأن له عناصر ، ليتها رصدت فى أول البحث ليلتزم مناقشتها ، ولكنه تركها — دون أن يهملها — تمرح وتسرح فى خضم شرحه المسهب الثائر ، وكنت أود ألا يكثر من طريقة النقل المتكامل لمقال أو رأى لكاتب ، فقد نقل

رأى الإمام محمـــد عبده ، والشيخ رشيد فى تفسير آية « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ... » « فجاء فى أكثر من سبع صفحات ، ونقل رأيا للأستاذ فريد وجدى فى مجال : « الدين والعلم » فجاء فى أربع صفحات ، وأثبت مقالا — فى أزمة التدين — للأستاذ القمى جاء فى ست صفحات ، ومقالا للأستاذ محب الدين الخطيب فى أربع صفحات ونصف ، وكان الأجدر أن يكتفى بالإشارة الموجزة لإعطاء فكرة عن آرائهم ، لكن يظهر أن الأستاذ الغزالى كان يشفق على أعصاب القراء ، فهو فى كتابه ثائر يمتشق الحسام ، والقضايا التى تتصل بالإسلام جعل منها معامع ، فأراد أن يجعل مطبات بالمقالات التى نقلها بكاملها لتهدئة الأعصاب ، وقد نقل آراء للمستشرقين جاءت مسهبة ، وليس فى هذا ما يؤاخذ عليه ، لأنها مزاعم أراد تفنيدها ، ولابد من إثباتها ليستقيم تفنيدها .

ويظهر أن ثورة الأستاذ الغزالى جعلته يعتبر المستشرقين جميعا « نفراً من الناس جندهم الاستعمار ليكونوا فى ميدان العلم أداة للطعن فى الإسلام وتشويه حقائقه واصطناع الفتوق فيه ، وأسلوبهم الأثير أن يلبسوا الحق بالباطل ... » والواقع أن المستشرقين ليسوا كذلك كلهم ، فمنهم من أسلم وحسن إسلامه ، كالمسيو « إيتييه دينيه » الذى ترجم له الدكتور عبد الحليم محمود : « محمد رسول الله » والمسيو رينيه « الشيخ عبد الواحد » الذى كتب عنه الدكتور أيضا ، وقد شهد الأستاذ الغزالى نفسه للمستشرق سير « توماس أرنولد » بأنه « من أعدل إخوانه رأيا وأنفذهم بصراً ، وأميلهم إلى أدب اللفظ وإثبات الحق » والواقع أن القلة النادرة من المستشرقين العدول ، لم ينحرفوا عن قصد ، وإنما لأن الكتب الإسلامية التى وصلتهم لم تكن كاملة النضج .

وأنا لست مع الأستاذ الغزالى فى أن الحكومات تكون مقصرة إذا لم توفر الدعاة للغزو الثقافى ، فالشعوب الإسلامية وحدها هى المسئولة ، فهناك آلاف الأثرياء وقفوا أموالهم وأراضيهم على المساجد ، ونحن بحاجة إلى جماعات أهلية تتخذ مركزا عاما فى بلد إسلامى للدعاة ، له فروعه فى سائر بلاد العالم ، والمسلمون من عرقهم وكدهم ينفقون على مؤسسة الدعاة .. هذه المؤسسة التى يكون لها استقلالها الكلى ، وللدعاة امتيازات الدبلوماسيين حتى يؤدوا مهمتهم فى أمان ...

وبعد — فالكتاب سفر ضخم ولست أتجاوز الحق إذا قلت : إننى بحاجة دائما إلى قراءته كلما سنحت الفرصة لأعصابى بقسط من الهدوء . .

محمد عبد الله السمان

بريد المجلة

إن بعض الظن إثم

يقول السيد محمد فريد طاهر من الإسكندرية فى رسالة له :

(١) قال تعالى الله « اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم » : هل تفيد الآية أن هناك من الظن مالا يجتنب ، لأنه ليس إثماً ؟ .

والمجلة تقول :

نعم هناك ظنون لا حرج فيها . إن الظن المحظور هو اتهام الناس بالشر لخاطر يهجس فى النفس ، وبناء أحكام شتى على مثل تلك الخواطر الشاردة وذلك ما عنته الآية ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » أما إسداء المعروف لامرئ تظن به الخير ، فلا شيء فيه ، وكذلك استخدام الذكاء فى كشف بعض الخفاء كما قال الشاعر :

والألمعى الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا . . .

ثم هناك الظن العلمى الذى يقوم عليه كثير من النظريات ، وهذا الظن مرتبة من البحث قد يتبعها اليقين . . .

وهناك أيضاً الظن العلمى المعمول به فى أحكام الشريعة إذا كان الدليل عاما ، أو مستنداً إلى حجة غير قطعية . . .

فليس كل ظن محرما والآية تفيد ذلك .

الفصد والحجامة

ويقول السيد محمود أحمد السمان بمعهد الإسكندرية :

نشرت صحيفة أسبوعية « أن الفصد والحجامة والاستفراغ كلها وسائل بدائيـة ووحشية فى العلاج وليس لهـا مبررات ولا دواع فى دستور الطب الحديث » .

كيف يستقيم هـذا الـكلام مع ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتجم ولم ير بأسا بهذا العمل ؟

والمجلة تقول :

لا شك أن قلم الـكاتب قـد اشتط وهو يتناول الموضوع ، فقد يكون الطب الحديث استغنى عن الحجامة لوجـود عوض يقوم مقامها كتوسيع الشرايين ببعض العقاقير أو

امتصاص الدم الزائد فى حالات الضغط العالى بطريق « العلق » الذى يمتص هذا الدم . . . أو بطريق اكتشاف أدوية أخرى تسكن الدم ، وتنظم سيره ، واهتداء العالم حديثا إلى هذه الوسائل لا يعنى أن الوسائل الأولى موضع الطعن والزراية . لقد أدت مهمتها يوم كان العلم قاصراً عليها ، فإذا وجدت وسيلة أكفل للصحة وأروح للبدن فلاضير من ترك الأولى ـ دون نكير ـ والأخذ بالأخرى ، والدين لا يمنع من هذا . . .

الرضاع المحرم :

ويقول السيد سيف الدين خطيب من دمشق :

امرأة أرضعت طفلة عدة رضعات متفرقة ، مع تغذيتها بما تيسر من الأطعمة الأخرى . هل تعتبر أما لها ويحرم على بنيها الزواج منها؟

والمجلة تقول :

إن الأئمة مختلفون فى قدر الرضاع المحرم ، فمنهم من يرى قليله وكثيره سواء فى وجوب التحريم : ومنهم من ذهب إلى غير ذلك كالشافعية والإمامية . فالشافعية يشترطون للتحريم خمس رضعات مشبعات .

والإمامية يقـــولون بعشر رضعـات مشبعات متصلات ، فلو رضع تسعا ثم طعم شيئاً آخر ، وأرضعته امرأة أخرى لم يعد ذلك محرما .

ونحن لا نرى حرجا من اتباع أى مذهب إسلامى فى هذا الشأن .

الاسلام والمستشرقون :

كتب الدكتور سليمان دنيا فى العدد الماضى من مجلة الأزهر الغراء مقالا عن الإسلام والمستشرقين ، ناقش فيه مناقشة هادئة منطقية إفتراءات ذلك المستشرق الذى ادعى بأن الدين الإسلامى آلى جامد ، وكأنه يريد أن يقول ، إن تشبث المسلمين بدينهم هو علة تأخرهم وأنهم إن نفضوا أيديهم منه ، فلا بد أن يحققوا لبلادهم القوة والحضارة والسيادة ، ! وهذا المستشرق ليس إلا فرداً من جيش لجب قد أعد إعداداً كاملا للنيل من الإسلام وتاريخه والثقافة العربية وعلمائها ، ومما يؤسف له أن كثيراً من المثقفين عندنا قد آمنوا إيمانا عجيبا بآراء المستشرقين حول ديننا وحضارتنا دون تمحيص أو درس لها ، لأنها فى نظرهم فوق مستوى النقد والمناقشة ، فيجب أن تؤخذ قضية مسلمة ، وهذا لعمرى أشد بلاء من أغاليط المستشرقين وافتراءاتهم! والمستشرقون بوجه عام يكادون يجمعون على أن تعاليم الإسلام لا تصلح للعصر الحديث ولا تلائم طبيعة التطورات البشرية الراهنة وأن القوانين الإسلامية إن كانت قد لازمت الزمن الماضى واستجابت لمطالبه ، فإنها

اليوم عاجزة كل العجز عن تحقيق الحياة المستقرة للإنسان الحديث ، فالإسلام قد جاء لبيئة خاصة ولفترة زمنية خاصة فمن العبث أن ينادي اليوم إنسان باسترشاد الإسلام في مرافق المجتمع في القرن العشرين ؛ لأن هذا رجوع إلى حياة الصحراء وتقهقر بالمدنية إلى الوراء .

ومن ناحية أخرى فالمستشرقون إذا تحدثوا عن الإسلام فإنهم يطرقون موضوعات خاصة لمشكلة القضاء والقدر ، والمتشابه من الآيات القرآنيـــة ، وزوجات الرسول وتعدد الزوجات والحدود ، والجنة ، والنار ، وغير ذلك من الموضوعات ، التي يتسنى لهم أن ينفذوا عن طريقها باللف والدوران والكذب والاختلاق إلى النيل من الإسلام وعرضه في صورة مشوهة منفرة ، وأنه ليس الدين المنقذ للبشرية من ضلالاتها وخرافاتها . فالمستشرقون عامة يدرسون الإسلام والثقافة الإسلامية لغاية سياسية تبشيرية أكثر منها علمية ، ولهم أجهزتهم العلمية المختلفة التي تذيع آراءهم في كل مكان كما أن لديهم الإمكانيات المادية التي تساعدهم على مواصلة نشر مكائدهم وأباطيلهم .

والواجب علينا إزاء هذه الحملات المتتابعة من قديم أن نجند لها قوة تفند مزاعمها وتدحض أباطيلها لا باللغة العربية فحسب بل بلغات المستشرقين أنفسهم ، فقد آن لنا — بعد طول خمول وكسل وإهمال — أن نوقف هذا الزيف الذي أفسد العقول وضلل الأفكار وساعد على الإلحاد ، وفي أستاذنا الأكبر أمل كبير في أن يولي هذا الأمر عناية بالغة وهو خير من يدرك حقيقته ويعرف آثاره .؟

محمد الدسوقي

ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة

إلى الدكتور علي عبد الواحد وافي :

ومرة ثانية «السلام عليكم ورحمة الله» وبعد :

فقد قرأت لك ما قرأت في العدد السابق من مجلة الأزهر - عدد صفر - ثم بدا لي أن أعلق بالاستفسار عما اشتبه علي في بعض عبارات ، وكنت أحسبك ترحب باستفهامي وتعرف منه أنني حريص على الاستفادة منك ولا سيما أنني - فيما أعتقد - لم أكن جافيا في كلمة واحدة مما كتبته إليك .

لهذا أسفت كثيراً حينما وجدتك في إيضاحك بالعدد الجديد (ربيع الأول) من المجلة تلذع بكلمات لا تكون إلا عن غضب ، ولمن يكون مسيئا إليك .

فلماذا غضبت مع أنك - كما طلبت منك - حاولت أن توضح ؟ ؟ .

أتريد أن يكون كل قرائك مسلمين بما رجعت أنت إليه من أناجيل وإصحاحات ؟؟ أم تريد أن

نتحاشى الاستفهام وننسب إليك الخطأ ولا ننسب إلى أنفسنا قصوراً فى الفهم ؟؟ .

يا دكتور على ! ! هذه ظاهرة أدبية كنت أربأ بك عنها . .

أما احتجاجك - لما شرحته - بالأناجيل والإصحاحات فأمر له تقدير قد يكون راجحا عندك ومرجوحا عند غيرك وعلى كل حال: فقد زدتنا لبسا إذ رجعت بنا إلى أناجيلك وإصحاحاتك ، فقلت : مثلا إن هناك مريم بتول سوى أم عيسى، وتلك أخت شقيقة لموسى وهى التى شقت الطريق يبسا فى البحر لبنى إسرائيل ، ونحن نقرأ فى القرآن أن موسى ضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فهل نكذب القرآن ونتبعك فى الرجوع إلى الأناجيل ؟؟. ومرة ثالثة ، وأخيرة .

(السلام عليكم ورحمة الله)

عبد اللطيف السبكى

نحو آفاق واسعة :

لا نكران فى أن القرآن الكريم قد سجل وجهات النظر للتمردين على الله من وثنيين ومتألهين ومارقين ، لا باعتبارها ذات قيمة منطقية — ولكن لأنها تعبير عن آرائهم وإن كانت فاسدة ، تقديساً لحرية الرأى نفسها ، وليتبين للناس الفرق بين الغث والسمين ، الغث الذى يتمثل فيه منطق المتمردين ، والسمين الذى يتجلى فيه مطق الحق تبارك وتعالى .

ونحن نلمس أن بعض الدول المسلمة يحرم فى بلاده أن تتسرب مجرد ألفاظ الشيوعية والوجودية والاشتراكية والفاشية والنازية إلى صحفها ، ولو كان الاتجاه فى هذه الكتب يبدو فيه التضخم الهجومى على هذه المذاهب ، وفى زعم هذا البعض من الدول ، أن هذا الإجراء خير وسيلة وأجدى طريقة للقضاء على مذاهب تلك الألفاظ .

ولم تكد الصحف تنشر نبأ تدريس فقه الشيعة فى محيط « الفقه المقارن » بكلية الشريعة ، حتى هاج بعض العلماء هياجا شديداً ، كأن الأزهر قد قرر إلغاء الإسلام من كيانه وحياته ، وهؤلاء العلماء لا يستطيعون أن ينكروا :

أولا : أن فقه الشيعة فقه إسلامى ، وأن ما خالف فيه مذهب السنة لم يكن بدون سند من القواعد المتفق عليها فى كتب الأصوليين.

وإذا فرض أن فقه الشيعة ليس من الإسلام فى شىء ، فأى نكران على تدريسه مقارنا بالمذاهب الإسلامية ، وكذلك تدريس غيره من التشريعات الوضعية ؟ .

إن التشريعات الوضعية التى أصبحت جزءاً من حياتنا حتى ليخيل إلينا أنه لا غنى لنا عنها ، هذه التشريعات لم يكن مقدراً لها أن تطأ بلادنا ، وتتحدى التشريع الإسلامى لو لم تقف عقليات علماء الدين عقبة كأداء فى سبيل الاتفاق على تشريع إسلامى موحد . فالمعروف أن الخديو عباس أبدى رغبة فى إعداد مشروع بتشريع فى المجالين : المدنى والجنائى ، وتجمع شيوخ المذاهب الفقهية ليؤكدوا أن اتفاقهم فى الآراء ضرب من المحال، وكان أن استوردنا التشريعات الوضعية بأيدينا — لا بيد عمرو .

إن الأزهر يحمل على عاتقه فكرة الإسلام وهو يواجه هذه الحياة بها . والعالم الإسلامى إنما ينظر إليه نظرة تقدير وإكبار لذلك ، فهل نطالبه أن يجمد على كتب الفقه والتوحيد القديمة وكفى ، ولا دخل له بعد ذلك بما يدور حوله من التيارات الفكرية الأخرى ـ ولا يملك التعرض لها أو مناقشتها ؟

إن الشيوعية خطر محدق بالدين والمجتمع والكرامة الإنسانية ، وتدرس فى الجامعات العالمية كفلسفة أو نظرية اقتصادية ، فلم لا تدرس فى الأزهر من الزاوية الإلحادية لا سيما فى كلية أصول الدين ؟ .

منذ بضعة عشر عاما لم يكن للشيوعية فى الشرق الإسلامى وجود يذكر ، والسبب فى أن لها بعض الوجود اليوم فيه ، هو أننا ـ باسم الإسلام ـ أعلنا كفرها دون أن تكون لدينا أسباب ذات قيمة ، واكتفينا بالبيانات الدينية الرسمية ، واستعداء خطباء المساجد عليها دون أن يقبل علماء الدين أنفسهم على دراستها مكتفين بحفظ بعض العبارات التقليدية عنها . .

إن فى العالم مذاهب فكرية قديمة ، وأخرى معاصرة ، وثالثة قد يأتى بها المستقبل ما دامت العقول البشرية تؤدى وظائفها ، والأزهر لا يقوى على البقاء إذا وقف مكتوف اليدين حيال هذه المذاهب بما فيها من منحرف أو مستقيم ، وإذا حاط نفسه بستار حديدى من التزمت والجمود .

منذ أكثر من عام ونصف صدر لى كتاب عنوانه : « محمد الرسول البشر » تضمن آراء اعتبرت جريئة فى نظر البعض ، ولسوء الحظ وقع الكتاب فى يد إيطالى مستشرق يعنى بالبحوث الإسلامية ، فأرسل إلى مجلة لواء الإسلام يرجو إبداء رأى محرريها فى آراء الكتاب ، قبل أن يبدأ ترجمته :

لقد كتبت إليه المجلة على لسان محرريها تقول: « نفيد سيادتكم ألا تعليق لنا على هذه

الآراء ، إلا أن ما وافق الكتاب والسنة فعلى العين والرأس ، وما لم يوافقهما نضرب به عرض الحائط . . والسلام » .

وكان لمحررى هذه المجلة منطق مؤداه أن الكتابة عن مثل هذه الكتب الجريئة من شأنها أن تسهم فى انتشارها .

وحين قرر الأزهر تدريس الرياضة فى معاهده ، ثار بعض العلماء أيضا لأن علامة + تشبه الصليب ، وكنت أعتقد أن مثل هؤلاء قد انتهوا حين توقفت عصا الشيخ عليش عن نشاطها فى مطاردة الإمام محمد عبده ، ولكن للأسف أثبتت الأيام أن عصا الشيخ لم تفتأ تزاول نشاطها ، لتفرض على الأزهر أن يظل بعيداً عن الحياة والاحياء .

محمد عبد الله السمان

من الأستاذ الأكبر

إلى رئيس تحرير الجمهورية :

جرى بين فضيلة الأستاذ الأكبر وبين الأستاذ كامل الشناوى حديث شفهى حول قوامة الرجل على المرأة قال عنه المحرر إنه لم ينته إلى نتيجة . فلما اطلع عليه الأستاذ الأكبر كتب إليه هذا البيان .

السيد الأستاذ كامل الشناوى :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد : فقد قرأت لكم بجريدة الجمهورية بتاريخ ٢٤ من أكتوبر ١٩٥٩ كلمة تمس ماجرى بيننا يوم زيارتكم لنا فى المكتب . ونحن نقرر :

أولا — أن قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء » مع قوله تعالى « وللرجال عليهن درجة » لا يقابلان بقول إنسان ما « لا قوامة لرجل » . فهذه كلمة إنسان قد يكون متأثراً بمظاهر وظروف خاصة .

ونقرر ثانياً — أن الآيات الحكيمة الصريحة قد جاءت بيانا لمقتضى الشأن الذى جعله الله للرجل والمرأة بمقتضى الخلق والتكوين ، من جهة ما للرجل من الحول والقوة على العمل دون المرأة ، وبمقتضى التشريع الذى جعله الله للمرأة تكريماً لها ، وهو أن يقدم الرجل لها فى مبدأ الحياة الزوجية مبلغا من المال يعرف فى لسان الشرع بالمهر ، حفظا لكرامتها من الابتذال ، وتقديم نفسها للرجل بمال أو بغير مال .

وقد كررت بنفسك كلمة « الشأن » التى جاءت على لسانى فى هذه المناقشة مما جعلنى اعتقد أنك قد اقتنعت بما سمعت ، إذ لم تعد تسأل فى الموضوع ، واعتقد أن فى هذا القدر بعد هذا البيان ما يكفل لاقتناع مثل الأستاذ كامل بما قرره صريح القرآن وصار معروفا من الدين بالضرورة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

أخوكم محمود شلتوت

مقتطفات من الكتب والمجلات

القومية والإنسانية

إن النزعات القومية الصحيحة لا تعادى الإنسانية ، بل تؤمن بالصلة الوثيقة بين البعث القومى والبعث الإنسانى ، بين إذكاء المثل القومية لدى المواطن وبين تفتيح حياته الإنسانية عن طريق هذا الإذكاء القومى ، فتفتيح إنسانية الفرد لا يكون إلا عن طريق تربيته القومية وبنائه القومى ، عن طريق ربط مصيره بمصير شعبه . والفرد لا يزكو إنسانا إلا إذا زكا قبل ذلك مواطنا قوميا .

وطاقاته لا تؤتى أكلها إلا إذا عملت ضمن إطار حى محدود قائم فعلا فى كيان الأفراد إطار الأمة التى ينتسب إليها .

« العرفان »

القرآن ومحمد والإسلام :

فى دائرة المعارف السوفيتية

دائرة المعارف هذه تقع فى ٥١ مجلدا وهى المرجع الأساسى فى كل الموضوعات فى العالم الشيوعى كله ، أى أنها فيصل الحقائق والآراء لثمانمائة مليون نسمة ، أما هيئة دائرة المعارف فتتبع مجلس الوزراء السوفييتى رأسا .

والوصف التالى للقرآن مقتطف من الطبعة الثانيـة لدائرة المعارف السوفيتية ، المجلد رقم ١٢ ، صفحة ٥٦٤ :

« القرآن ... الكتاب المقدس الأساسى للمسلمين ، مجموعة من المواد الدينية المذهبية والأسطورية ، والقانونية . . وقد وضع القرآن وشرع خلال حكم ثالث الخلفاء العرب ، عثمان ثم أدخلت عليه فيما بعد ، حتى بداية القرن الثامن ـ وفق ما وصلنا من المعلومات ـ بعض التغييرات . ووفقا للتقليد الإسلامى التاريخى الدينى ، يعتبر محمد هو مشرع القرآن ، كما يعتبر مؤسس الإسلام ، على أنه وفقا للتحليل الموضوعى للقرآن ، هناك نظرية تقول : إن جزءا معينا منه فقط يرجع إلى محمد ، أما الأجزاء الأخرى من هذه المجموعة فلا بد أنها تنتمى لعصور متقدمة عليه أو متأخرة عنه .

« ويمكن أن نتبين هذا من وجود عدد من الأساليب المختلفة فى القرآن ، يمكن أن تعزى لتطور اللغة العربية ، ولزمن ظهور « السور » ومكانها . وتستخدم الطبقات الاستغلالية ، القرآن ورجال الدين الإسلامى الرجعيين كسلاح لخداع الجماهير الكادحة وكبحها

أما فيما يختص بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد وردت سيرته هذه فى البيانات التى نقتطفها من دائرة المعارف السوفييتية الضخمة ، الطبعة الثانية ، المجلد ٢٨ صفحة ٥٩٩ .

« محمد ... مبشر دينى ، يعتبر مؤسس الإسلام ، ويصور فى العقيدة الإسلامية على أنه « أعظم المرسلين وخاتمهم » ، وهو عربى نشأ فى مكة . وأبعد ما أمكن الوصول إليه فيما كتب عن سيرة محمد ، كتب فى النصف الثانى من القرن الثامن ، كتبه جامع للأساطير نشأ فى « المدينة » يدعى (ابن إسحق) وعنوان كتابه هو « حياة رسول الله » ، وقد ألف هذا الكتاب بناء على أمر من الخليفة فى بغداد .

وإلى جانب الحقائق الواقعية عن حياة محمد ، يشمل الكتاب عددا من الأساطير والخرافات . وفى كتب السيرة الأكثر حداثة طمست هذه الأساطير تماما صور محمد التاريخية ، وحتى يومنا هذا ما زالت سيرة محمد تبنى على المعلومات شبه الأسطورية الواردة فى القرآن والتى يتقبلها طلبة الإسلام البرجوازيون بغير مناقشة .

وتقول إحدى الأساطير : إن محمداً ينحدر من أسرة هاشم ، إحدى أسر قبيلة قريش التى كانت تعيش فى مكة . وقد طور محمد تعاليم الموحدين قبل الإسلام - الحنفاء - وراح يبشر بالإسلام فى مكة . وقد مكن لظهور الإسلام ، ظهور مجتمع طبقى بين العرب تكون تدريجيا . . . وقد تحول محمد فى نظر الأجيال التالية من المسلمين إلى « قديس » ، و « صانع معجزات » و « شفيع » للمؤمنين . ويحاول المدافعون عن الإسلام ، والطبقات الاستغلالية ، أن تستخدم صورة محمد لإضعاف الكفاح الطبقى .

أما عن الإسلام فنسوق هذه المقتطفات من موضوع عن الإسلام جاء فى دائرة المعارف السوفييتية ، الطبعة الثانية ، المجلد ١٨ ، من صفحة ٥١٦ إلى ٥١٩ :

ولقد لعب الإسلام دائما - شأنه شأن سائر الأديان - دوراً رجعيا ، إذ أصبح أداة فى أيدى الطبقات المستغلة لكبح الطبقة العاملة . روحيا . . . وقد نشأ الإسلام نتيجة لنمو مجتمع طبقى بين العرب .

ومن خلق مجتمع طبقى فى جزيرة العرب

نشأت أزمة اقتصادية واجتماعية بين قبائل العرب المحليين وانعكس هذا فى ظهور الإسلام ليبرر عدم المساواة اجتماعيا واقتصاديا وقيام جهاز الاستغلال .

وقد تأثر تكوين الإسلام إلى حد كبير بالمفاهيم الدينية البدائية لقبائل العرب ، كما تأثر بالمسيحية واليهودية والمجوسية فقد صورت العبودية وعدم المساواة الاقتصادية فى السور المكية بالقرآن على أنها ظواهر من صنع الله نفسه ، وأنها لهذا لا يمكن تبديلها ، والرأى الذى يبديه بعض المدافعين عن الإسلام حول « شيوعية الإسلام الأصلى » وزعمهم أن محمداً ـ الذى يعتبر مؤسس الإسلام ـ كان ثائراً ومصلحا اجتماعيا مهما ، يهدف إلى إخفاء حقيقة الإسلام . . . وليس أدعى إلى وصف هذا التزييف من أن القرآن يدافع عن العبودية فى إصرار ، ويبررها فى دأب ويعتبرها من صنع الله ، كما يدافع عن عدم المساواة اقتصادياً واجتماعيا بين الناس .

وكنتيجة لانتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات الاستغلالية ، فقد اقتلعت جذور الإسلام ، كما اقتلعت جذور أى دين آخر من الاتحاد السوفييتى ، ولم يعد الإسلام فى الاتحاد السوفييتى إلا مجرد أثر . . .

« الصداقة »

غاندى يبحث عن مثل العليا :

إنى لا أبيح لنفسى أن أعد فى مصاف النساك والقديسين أو الروحانيين ، ولكن اهتدائى بالمثل العليا فى إنجاز أعمالى وتصرفاتى قد ساعدنى على تنظيم شئون حياتى ، وأنار أمامى الطريق ، فأصبحت أرى الأشياء على حقيقتها وعلاتها . وفى وسع كل إنسان أن يحذو هذا الحذو ، وينهج هذا النهج ، فيتوصل بدوره إلى ما توصلت إليه من النتائج . ولقد وصلت إلى هدفى تدريجيا وعلى مراحل ، وكنت كلما أهم بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أهيئ كل الأسباب والوسائل اللازمة للوصول إلى هدفى المنشود ، وأفكر فى النجاح فى ذلك تفكيراً عميقا حتى أوفق إلى بلوغ المثل الأعلى . وإنى قد نجحت فى توجيه وقيادة نفسى نحو الخير ، أما شعارى فقد كان العفة ومعاملة الناس بالحسنى والرأفة وعدم العنف . ولقد توصلت إلى كل ذلك باختباراتى الشخصية وتجاربى اليومية وجهودى المتصلة ، وشعرت بأنه لا مندوحة لى من أن أقف نفسى وأكرس حياتى لخدمة المصلحة العامة والعناية بإصلاح المجتمع الإنسانى .

« ثقافة الهند »

thers to their other brothes indicates that relations may be motivated by envy and misbehaviour in their relations to one another to be a source of weakness and disturbance instead of being a source of strength, aid and influence.

Thus it is only logical that man should be guided in such a manner as to strengthen his relations with his relatives. This guidance is understood from the Qur'an which pays a considerable attention to this kind of relationship from the psychological as well as the spiritual and material aspects. God, exalted be He, says: "... And those related by blood are nearer to one another in the Book of God ..." (Surah. 8, V. 75). He also says: " That is the good tidings God gives to His servants who believe and do righteous deeds. Say: I do not ask of you a wage for this, except love for the kinsfolk . . ." (Surah 24, V. 22).

In these two glorious verses the Qur'an expersses how deeply concerned it is about the maintenance of good relations among relatives and how this course is prescribed in all the Divine messages and Scriptures. This prescription proves that God has ordained people to take serious interest in this kind of relationship to maintain the satisfaction and purity of self by means of extending aid to the needy who will then escape the evil of envy and humiliation.

Besides these two verses, there are others which command the wealthy people to take good care of their relatives and participate in satisfying their needs not because these latter are needy or poor but because they are simply relatives. The Qur'an says: " And give the kinsman his right, and the needy, and the traveller; that is better for those who desire God's Face ; those - they are the Prosperous " (Surah. 30, V. 38. See Surah. 2' V. 177,215).

The Qur'an attaches more importance to this course of relations among relatives than it does to any other course. (See above).

When the Messenger was asked about giving charity to one's kinsman, he said: " Who gives his kinsman will receive two rewards one for the charity he did and one for caring for his kinsman ".

This is religion in the life of man when compared to law and philosophy And this is the role of Islam in particular in the life of man. It means unity of the Worshipped and harmony in the behaviour of man. It is justice and balance in the relations between couples, parents and children and relatives. It is the message of God to lead men aright, and its way is the straight way.

This is because man's relatives, if they are sincere to him, are the source of his power ; as they represent to him more than the non-relatives represent. They associate with in blood ties, in the inherited characters, in the familiar customs, in terendercies and trends. They are his company, his supporters and his private community.

Conversely, they themselves may become the source of his weakness and anxiety when they are spiting him. This is the state of man with his relatvies: he either becomes powerful or weak because of them. The glorious Qur'an elucidates these two opposite extremes concerning the relation of man with his relatives. As for the first side it says on the tongue of Moses appealing to his Lord " And my brother, Aaron, he is more eloquent in speech than I, so send him with me as a helper to confirm me. Surely I fear that they would reject me. He said: we will strengthen your arm with your brother, and we will give you both an authority, so that they shall not reach you.With Our signs,you two and those who follow you, will triumph. " (Surah 28, V. 34-35). Moses thus demanded his brother Aarom, on both of them be peace, from their Lord exaltad be He, to be in his company and to help him and protect him in conveying His message.

The Lord, exalted be He, gave him what he asked. He strengthened his arm with his brother, consolidated his power and authority and promised them with victory, they and their followers. It is clear that kindred here was a power because it remained unspoiled. It was in a state of sincerity, purity and unity.

As for the other side it can be represented in the story of Joseph, on whom be peace, with his brothers. The relation of kinship was defiled between Joseph and his brothers ; they spited him, tried to device him to the most horrid form in the sense that they wanted to kill and remove him so that their father's regard might be exclusively for them. In this connection the Qur'an says:"Verily in Joseph and his brothers there are signs for the inquierers. When they said: Certainly. Joseph and his brother are dearer to our father than we, though we are a (strong) company. Surely our father is in manifest error - Slay Joseph or banish him to some (other) land, so that your father's regard may be exclusively for you, and after that you may be a righteous people ". (Surah 12, V. 7 - 9). Nay ! they repented for this erroneous intentions, and the following verses refere to their repentance " They said : By God ! God has indeed chosen you over us, and we are certainly sinners" (Ibid. V. 91). "They said: O our father, ask forgiveness of our sins for us, Surely we are sinners". (Ibid. V. 97). Yet the former attitude of those bro-

God the Almighty says : " And We have enjoined on man concerning his parents - his mother bears him with faintings upon faintings" (Surah 31, V. 14). He also says " And We have enjoined on man the doing of good to his parents. His mother bears him with trouble and she brings him forth in pain" (Surah 46, V. 15) And finally He says : "And say : My Lord, have mercy on them, as they brought me up (when) I was a little)" (Surah 17, V. 24).

On the contrary the Qur'an demands only the parents in their relation with their children not to be fascinated by those children ; because this fascination may divert the parents from the remembrance of God and from the excecution of His injiunctions in man's life. In this respect God says :"O you who believe, let not your wealth nor your children divert you from the remembrance of God" (Surah 63, V. 6). If the parents are overwhelmed by the love of their children then they misunderstand life, mislead their children and misuse the enjoyment of their love. Consequently, they will lead an abnormal life deprived of psychological repose and full of unexpected and horrible events.

This is what the Qur'an ordains concerning the relation between parents and children according to the human nature free from abnormality n its growth and development. The Qur'an always addresses the personality in this respect.

As for forbidding parents from killing their children, the Qur'an says: " And kill not your children for fear of poverty — We provide for them and for you. Surely the killing of them is a great wrong" (Surah. 17, V. 31), and says : " And slay not your children for (fear of) poverty —We provide for you and for them" (Surah 6, V. 152). Likewise, the Qur'an in its verses concerning the animosity of some children towards their parents does not indicate that all this is based on the uniform human nature nor does it draw a method to correct this nature, but it is only a remedy of an emergent condition ; a remedy of a rare abnormality in the human nature resulting from an abnormal environment.

Thus the doing of good to the parents and the control of their love to their children are the correct way to the equality in relations between both sides. And that is the Qur'anic method on all the aspects of human life.

Relatives :

The Qur'an treats the relations among relatives in a manner similar to that of the individual towards his society, his wife or husband and his parents or his children, and the very aim of the aforementioned relations is sought also here.

internal facts of the world except the children either side by side with wealth or in a later degree.

The attitude of the Qur'an towards parents is different from its attitude to children. It does not speak of parents as an adornment in the life of their children or as a source of temptation and boasting to them. It mentions parents in connection with the care due to them from their children. (See Ss. 2. 4, 29, 31, 46, Vs. 215, 8, 14, respectively.)

These expressive verses of the Qur'an prove that there is a difference between the relation of the parents to the children and the relation of these to the parents, and that the relation of either side is not identical with that of the other. Hence the message of the Qur'an in this respect aims at harmonizing and balancing the course of relations between the two sides. It endeavours to change the ordinary course of these relations and make a central meeting - point where neither side would averse to the other.

Because the parents naturally and instinctively or customarily have more and stronger motives to go to a meeting - point, the commandments of the Qur'an on this matter are almost addressed to the children only and presented in a formula the violation of which is unforgivable. This can be seen from the expression of the Qur'an which combines the demand of doing good to the parents with the demand of associating none with God in the course of worshipping. God, exalted be He, says: " And when We made a covenant with the children of Israel : You shall serve none but God, And do good to (your) parents" (Surah 2, V. 83 . See Ss. 17, 6, Vs. 23, 152).

The Qur'an, when neglecting the definition of the course of behaviour of the parents towards their children, depends on the strong, natural and instinctive motive of the parents. In contrast with this attitude it pays much attention to the duties of the sons towards their parents. God, exalted be He, says in the same chapter of the Israelites: "And your Lord has decreed that you serve none but Him, and do good to parents. If either or both of them reach old age with you, say not " Fie " to them, nor chide them, and speak to them a generous word. And lower to them the wing of humility and of mercy, and say : My Lord, have mercy on them, as they brought me up (when) I was little" (Surah 17, Vs. 23-24).

Moreover, the Qur'an may add reasons and motives to the association of doing good to the parents with serving none but God, which reasons and motives instigate the good - hearted sons to do rightousness and good to their parents ; beceuse these are taken from the development of the children themselves.

so far as marriage relations are concerned, is a message of balance, justice and harmony like what we observed in the behaviour of the individual toward himself and his society. As for the demand of the Qur'an to shun the doing of harm in treatment, it is not confined to marriage relation only but also includes the course of relation between man and his fellow man. Nevertheless, this is more emphatic and far more necessary in the former case than it is in the latter one because the doing of harm is tatally incoherent with marriage and its proper purpose.

The Relation Between Children and Parents :

Concerning the relationohip between children and parents, the Glorious Qur'an aims at justice, balance and harmony. The Qur'an views this relationship in its actual form and looks to the two sides of it as one overweighing the other because they in fact are not in the same position nor are they in the same degree. The relationship of parents to their children is much stronger and far deeper than that of the children to their respective parents. The parents are by normal nature more loving and more attached to their children than these are to them. So the relationship of children to parents is not equal to that of the latter to the former as far as inclination and love are concerned, and the attachment of either side to the other is not balanced or of the same degree.

The Qur'an refers to this inequality in the sense that whenever it addresses parents with regard to their children it portrays these as an adornment and a pleasure in their parents's lives. And because the children are an adornment and an enjoyment the Qur'an has described them as a trial and a temptation to their parents. Moreover, the Qur'an mentions children accompanied by the mention of wealth which is also an adornment and an enjoyment, and which is a source of trial and temptation. Furthermore, in some verses it almost confines the adornment of life to the pleasure of having children and wealth. God exalted be He says in the Chapter of The Cave: "Wealth and childrdn are an adornment of the life of this world..!" (Surah 18, V. 46). He also says in the Chapter of Mutual Disillusion : " Your wealth and your children are only a trial " (Surah 64, V. 15). Again He says in the Chapter of Iron : " Know that this world's life is only sport and play and gaiety and boasting among yourselves and a vying in the multiplication of wealth and children,.. " (Surah 57, V. 20).

The logic of these expressions, which speak of children as the adornment of life or the temptation of the world or the source of boasting, means that the attachment of parents to their children is very strong so much so that parents are not conscious of any external appearances or

man are the same as these of the woman; but it may be said that man, for instance, is to maintain his family and the wife, in return for this, is to look after her children and so on.

The degree of man above woman, to which the second verse cited above refers and which is described in the first verse as making men the maintainers of women," does not change the natural role of man as a subscriber to the harmony and equality in the marriage life. Actually this degree is a human necessity ordained to render marriage a success not to destroy it or accomplish any accidental purpose at the expense of the very principle of marriage.

When the Qur'an gives its advice as how the cople should treat each other, it does not certainly want to destroy the security and quietness of mind which the Qur'an has made the goal of marriage. Otherwise, the Qur'an would be illogical and inconsistent with its own principles by which it urges patience, endurance and the avoiding of harm, - if the marriage life onfronts any sudden crisis - as it says : " And treat them (women) kindly. Then if you hate them, it may be that you dislike a thing while God has Placed abundant good in it" (Surah 4, V. 19). So the demand by Islam that men should be harmless and kind in their treatment and be patient with their wives at times of aversion indicates the solicitude of Islam to maintain Peace and comfort among couples.

Although the Holy Qur'an makes harmony and mutual understanding the purpose of marriage, it does not mean to abolish or disregard the personality of any party to marriage. On the contrary, it maintains the personality and individuality of each one of the two sides concerned, and organizes their relation in such a way as to make it fruitful for their own good as well as for the good of humanity. And for the reason of maintaining the individuality of both sides the Qur'an does not deprive either side after marriage of the personal rights due to that particular side as an individual. This is why the individual has personal rights as well as marriage rights and is tasked with various obligations in the same way. Thus the expenses of the wife, although she may be wealthy, is to be paid from her husband's property. She is tied to her husband by the marriage contract, yet she has the right to invest her own money the way she Pleases and to exercise her own faith, political doctrine and free expression of her opinions. But it should be noted that this guaranteed liberty of the wife or of the husband must be restricted to the limits which do not cause any harm to either party of marriage.

The message of the Qur'an then

did He make, that he might find comfort in her." (Surah. 7, V. 189).

In order to attain this harmony there should be two things : (a) The husband must preserve the timidity and dignity of his wife through a practical action taken by him to express his appreciation to the woman to whom he Proposes marriage. This action means that man should offer a free gift to the proposed to wife for the accomplishment of the marriage. The following verse ascertains the attitude we are viewing ; " And give woman their doweries as a free gift. But if they of themselves be pleased to give you a portion thereof, consume it with enjoyment and pleasure." (Surah 4, V. 4). The Qur'an emphasizes this attitude by stating that this gift is the woman's right from which man can take no portion without her own consent to show that this gift affects deeply her morale and her position towards the husband after getting married.

This gift, viz., the dowery, however small, makes the wife feel that the husband he it is who wanted her and that the sex had no part in their marriage ; because if she realized that the sex played certain role in the marriage she would have felt inferoir to man as it was her situation before Islam. By virtue of the dowery the wife feels dignified and lives in a plane of equality in humanity with her husband.

When the feeling of equality in humanity between the couple is established, they will lead a harmonious and prosprous course of life which may produce good offsprings who will be brought up under the care and love of their coherent parents.

The second thing is that rights and obligations concerning the marriage life are equal according to the nature of each. Both husband and wife exchange equal rights and obligations. It is noteworthy to say that the meaning of equality here is that man and woman should contribute to the marriage life in order to reach its aim which is security, comfort and harmony. Likewise, the mutual benifit of the two parteners should prevail in their relation in the sense that none of them should not be exploited by the other,

The two glorious following verses refer to the equal rights and obligations already explained : " Men are the maintainers of women, with that God has made some to excel others and with what they spend out of their wealth" (Surah 4, V. 34). " And women have rights similar to those against them in a just manner, and men are a degree above them" (Surah. 2, V. 228).

The similarity referred to in the second verse means equality in rights and obligations. It is not necessary that all the rights and obligations of

and shut the door of evil, yet they demand endurance and self-control.

The Qur'an has given all these and other instructidns concerning the common society, viz., the nation, with the purpose of maintaining its solidarity and cohesion, and to take precautionary measures against the destructive factors which go back to the upsetting of justice or the disturbance of social balance.

Loyalty to foreign rulers, partiality in settling disputes, hasty yielding to slander, exploitation of the weak by the strong and indifference of the rich, of the learned, of the héaltly, etc., to the needy, the ignorant and the sick respectively - all these things inavidably lead to disturbance in the social scale and upset justice. Thus the message of the Qur'an concerning the common society is one of justice and balance just like its message to the individual which is meant to establish balance between the two forces dominating him.

Family :

These are the commandments of the Qur'an in connection with the common society. And if we move from this sphere to consider the comparatively small entity of society, namly the family, we shall find that these Qur'anic commandments are ordained for the same purpose, and that they are mecnt to establish the family system, like that of society and of individual bebaviour, on the basis of justice, balance and uprightness.

Husband and Wife :

The morals of the Qur'an regarding the husband and the wife are the symposium of its morals relating to (a) the individuals towards himself, (b) the individual towards his society and (c) the individual, who is a partner in marriage life towards the other partner.

This is because marriage means association of two individuals whose principal aim should be the establishment of a harmonious life; sothat the behaviour of the Couple may be consiatent, and look like that which emanates from a single Person, aiming at uniform end and going on the same way.

It should be born in mind that the states of this behaviour is beyond that of the individual towards his society at large. God, exalted be He, illustrates this meaning when He says " And of His signs is this, that He created mates for you from yourself that you might find quiet of mind in them, and He put between you love and compassion. Surely there are signs in this for a people who reflect ". (Surah. 30, V. 21), and He also says " He it is Who created you from a single soul, and of the same

the fulfilment of his children and wife's ritghts, and so on.

The Almighty God depicts the rejction of giving the rights to its owners by substitution of good for worthless, by absorption and by great sin.

The Qur'an ascertains this attitude because the violation of the weak by the powerful indicates that the society which gathers both of then is not but a means for the achievement of the personal purposes and does not act as a common guardiaship for the rights of every individnal.

It is clear that the society was set up to associate in one union, to aim at one target and to one balance represented in justice and equilibrium.

In addition to all these injunctions, Islam commands the differences among individuals should be tightened so that the poor may not feel his diprivation, the sick his disability, the ignorant his laziness and misunderstanding, the young his weakness and ripeness and the oldman the effect of his oldage. To realize this aim, Islam urges the wealthy to give, the healthy to help, the educated to guide, the senior to have mercy on the junior who, in return, holds the former in a great respect and esteem. But Islam paid much attention to the spendivg of money on one hand to the needy through the well off, and this because money has a certain power which induces its owner not to spend, and, on the other hand, the deprivation of money may lead to anxiety, envy and animosity of the deprived against the well off. God, Glorious be He, says " And those who are steadfast seeking the pleasure of their Lord. and Keep up prayer and spend of that which We have given them, secretly and openly, and repel evil with good; for such is the (happy) issue of the abode (Surah 13, V. 22). Again He says: " These shall be given their wage twice over for that they patiently endured, and avert evil with good, and expend of that We have provided them " (Surah. 28, V. 54).

It should be noted that expending here is not the alms - giving, which is obligatory, but the voluntary charity in secret or in public, which is far beyond the injunction of alms - giving. God, Exalted be He, has in this point associated the qualities that urge man to endure with those which help him solve his problems. Patience in times of distress and crises, performing the prayer which forbids indecency and dishonour, expending in the way of God and for noble purposes, averting evil with good - all are protective measures to prevent the happening of crises.

does not share the believers is these qualities, and therefore does not state them or he might oppose and try to abolish them.

Moreover, the Qur'an Commands the believers to be just and to adopt policy of gustice amonge people; in this respect a Qur'anic verse says Surely God Commands you to make over trusts to those worthy of them and that when you judge between people, yon judge with justice."(Surah 4, V. 58) The Qur'an thus, Commands justice between people because the source of security among individuals in the feeling that they are all equal in the domain of the society, and that the society, therefore, is not a biased party that judges between a loyal group and an antagonist one. Thus the society acts as a Common guardian. The feeling of security, justice and equality urges the individuals to affirm the survival of their society as to protect it against its extrinsic enemy.

As for the reception of news, Qur'an commands the believers to think it over and not to accept it precipitant, but they should realize the good tidings from the purposeful and defamatory rumours. In this connection the Almighty God says " O you who believe, if an unrighteous man brings you news, look carefully into it, lest you harm a people in ignorance, then be sorry for what you did " [Surah. 49. V. 6]. The Qur'an wants, through this commandment, to keep the relations between the individuals sound and pure. This is because the harms caused by the precipitation of acceptance of bad rumours, whether they concern the individuals or the government, do not dissipate only the unity of society but rather foments dissinsion and agitation which may end with distaseteful animosity among the individuals. So the society dissolves into conflicting groups and consequently may be annihilated.

As for the weak, the Qur'an commands the believers not to exploit them ; it forbids the violation of the orphan, the labourer and the servant. God the Almighty says " And give to the orphans their property, and substitute not worthless [things] for [their] good [ones], and devour not their property [adding] to your own property. This is surely a great sin " (Surah. 4, V. 2). The verse quoted here, though it is aiming directly at the guardians to give the orphans, viz., the unripe, their own properties without delay after having become nature, but it goes beyond this particular case to demand that rights should be given to its owners whose position is like that of the orphans. Therefore the man who is in charge of an affair is demanded to give the labourers their rights, and the husband is responsible for

Islam by defining the aim of the adherents through the worshipping of God alone, endows them to appreciate their dignity and to lead the course of life without being hampered by any obstacle resulting from the idols of paganism in all its forms. The feeling of dignity, the emancipation from the fetters of superstition and the struggle against the hardships of life *without depending on any certain position of any star or planet*, as it was the custom of the Arabs before Islam, or without waiting for permission from a trustee or master, as it was the habit of slaves in the post-all this is a clear manifestation of the worshipping of God alone. And those who hold that feeling reinforce their struggle by guidance and vigilance, and they, therefore, must achieve success in their struggle and gain victory in their fight.

In order to prevent the interference of any factor which may subdue the relations among individuals or divert their attention and thinking from thinking on the Almighty God alone to struggle about those relations, the Qur'an ordains what keeps these relations strong, makes the individual constantly observe God's teachings and what directs their efforts to the realizations of their own good and the welfare of their society, which would lead to the souvereignity of the present society and also of the successive generations. The Qur'an commands the maintenance of the souvereignity of society in the sense that the individuals should not be loyal to any other than themselves. And this loyalty means that the status of the intrussive should not be raised in their hearts to that of regent or to that who is considered authority and to whom their affairs are resorted. God affirms this attitude when He says " And the believers, men and women, are frinds one of another. They enjoin good and forbid evil and keep up prayer and pay the poor - rate, and obey God and His Messenger. As for these, God will have mercy on them. Surely God is Mighty, Wise. " (Surah. 9, V. 71). God in this verse gave reason to the preference of frindship among the believers, and driving away the influence of the intruder. This reason lies in the joint qualities and manners which are the basic elements of Islamic society. The joint qualities mentioned is the verse are enjoining good, forbidding evil, keeping prayer, paying the poor - rate and obeying God and His messenger. It is obvious then that the guardianship of the intrussive foreigner will eliminate these qualities and consequently will erase the personality of the Islamic society. This is because the guardian intrussive foreigner

in adherence to God's commandments.

Dealings :

As we have seen, man is wavering between two opposite directions: that of the righteous self and the other of the self which is wont to command evil. This wavering of the individual is realized on a larger scale in the course of relations between man and his fellow man. People are unlike one another in the sense that every individual has his own customs and aspirations resulting from the certain environment in which he is brought up, and inasmuch as the number of individual increases, their differences grow larger.

Society :

The same course of unity, which Islam has ordained for the individual, is also demaned with regard to society, Islam guides the society in a way as to enable its individuals to get united. The dealings set up by Islam is the means to achieve this aim.

The unity of society does not depend only on the circumstances surrounding the individuals as a result of the environment and place in which they live or of the ways by which they make their living, but it is indispensable for the society in the course of realizing a solid and vivid unity to have one and the same goals, This is because the unity in aim is the centre around which the people gather and for which they consolidate their bonds to become brethren in feeling after having been united in aim.

The Glorious Qur'an took into consideration, before giving its moral commandments, the aim of the society which it seeks and the form in which that society should be. The role of these commandments, then, to keep balance of the society and secure the good relations among its individuals from disintegration and perishing.

The worshipping of God alone is the glorious end which the Qur'an has defined for its society. God, exalted be He, says in His Holy Book " And serve God, and associate naught with Him " (Surah 4, V. 36), Say: I am commanded to serve God, being sincere to Him in obedience". (Surah 39, V. 11), " That is God, your Lord. There is no god but He; the Creator of all things; therefore serve Him, and He has charge of all things. Visions comprehends Him not, and He conprehends (all) visions; and He is the Subtle, the Aware ". (Surah 6, V. 103—104) add " Surely this your community is a single community, and I am your Lord, so serve me". (Surah 21, V, 92).

not obliged to deprive himsef of lawful things.

The worship of fasting thus signifies man's resignation to God which means admitting the existence of God and His being the Lord of the universe. It is, therefore, a further step in guiding man to realize the unity of his essence and to make his self righteous so that he may not seek any ideal in the existence except the Supremacy and likness of God.

Moreover, Islam has ordained pligrimage to make man conduct a course of a simple and natural life in the sense that he refrains from the non - essential things in life and gives in the form of offering oblations. Thus pilgrimage leads to the same noble aims to which lead prayers fasting and alms - giving.

When man follows one uniform direction in life, his behaviour then becomes upright; he does not fluctuate between two opposite extremes, nor does he put on one face to-day and another to - morrow, nor does he do one thing to - day and its contradictory to - morrow, nor does he incline to the right to - day and to the left to - morrow.

Such uprightness proves that he has become logical with unity of his essence, and that he has benefited from his worship of God, The One. The proof of this uprightness in man's behaviour is established when this behaviour accords the verse which says: " And seek the abode of the Hereafter by means of what God has given you, and neglect not your portion of the world, and do good (to others) as God has done good to you, and seek not to make mischief in the land. God surely love not the mischief - makers " (Surah, 28, V. 77).

If man endeavours to take his portion of the world, not to usurp the portion of others, seeks at the same time God's contentedness in his portion by doing good to others as God has done good to him, and refrain from mischief; he then will be upright and moderate. He does not resort to passive dependence (tawakual) but follows the natural way of earnest work and thus attains his protion of life. He is neither exultant nor conceited by attaining what he has of God's favours. He appreciates these favours in the sense that he does not misuse them in any way as to harm himself or his society, to commit sin or do the forbidden, to descrate the honour of others or deprive them of the right to those favours, He gives of them to his relatives and his neighbours, the poor and the needy. With all these qualifications he, no doubt proves himself upright and sencere

The aim of worships in Islam, therefore, is the acquisition of unity in man and the making of his behaviour in conformity with it. The aim of dealings in Islam is also the attempt to lessen the effects of dualism in relations among people, make them as uniform as possible and render man's behaviour harmonious with the results of this attempt.

Worships :

Man by the nature of his creation is subject to two oppsite powers, and for this reason he has two opposite trends in life: One emanates from the self which is wont to command evil and the other from the righteous self. The former self is that which induces man to be capricious and passionate, while the latter is that which exhorts him to be moderate and upright. The worships of Islam, like prayers, alms - giving (zakah), fasting and pligrimage are mean to make man follow one trend and render his self righteous to be moderate and upright.

Islam has ordained prayers in which man stands in God's presence with deep veneration to express His greatness and glory by saying: " God is Most Great ", and to feel the real value of the whole existence in which there is only One Being to Whom belong greatness and glory. After this value is fixed in the worshiper's heart, his self will become righteous, and it is unexpected from him then to think of approaching anything in the existence other than God. This is because the self which is wont to command evil is only that which subjects man to other than God in the existence, and it is not different, then, in the aim from the devil himself.

Conversely, Islam has ordained the worship of alms - giving to make the believer, who observes this duty as a means of attaining God's contentedness, follow one straight trend which is that of the giver. In this way the inclination of man to the other opposite trend of greeds and usurpation can be suppressed. Consequently, it is established that alms-giving is a worship to achieve the unity of man and make him follow the example of God in granting instead of falling into the sins greed and usurpation.

Fasting is also ordained by Islam not only to ascertain the glory of God or to train man as not to be fond of making collections of things. It is meant to control the self and accustom man to deprivation in response to God,s instruction. Deprivation in fasting is actual and more effective, from the moral and practical point of view, than granting in alms-giving; because the giver here is

revelation, and are aiming at one end which is " the balance ", the uprightness and moderation.

Faith :

Faith in monotheism in the manifestation of balance, uprihtness and moderation. Faith is one God means that unity is desired and is ultimate end in Islam. In this respect Shaykh Muhammad Abduh says " As for the faith of all people in one God, it is meant to unite their inclinations and consentrate them in one Lord to whose authority all people submit. And in this faith lies the system of their brotherhood and the foundation of their happiness, and to it they will come even though this may take along time " (Ibid. P. 51).

The faith in one God also means unity in the essence of man and in his relations with his fellowman whether that man is a member of his family or his society, and in family or his own society or of another Islamic society.

The Unity in the essence of man has a designed course, and to his Unity the ordinance of sublimation and worships is the way. Likewise, the Unity in the relations among individuals and societies has a designed course, and to it the ordinance of dealings is the means. God says to His kind Messenger : " Say : He, God, is One. God is He on Whom all depend. He begets not, nor is He begotten ; And none is like Him " (Surah. 112. Vs. 1 — 4). This means that God, the Worshiped, is One and *the* Lord, His unity is absolute and produced by none other than Himself ; " He begets not, nor is He begotten, " and this is why there is in existence no equal to Him ; "And none is like Him. "

By this short chapter of the Qur'an, the unity of God was defined as pure from the equality and the likeness of others. And because the Worshiped is He to whom man heads in his life, this pure unity is the ultimate end of man in his efforts and behaviour. Man thus has to adapt himself to this unity and behave accordingly ; otherwise, he will not be able to appreciate the unity of the Exalted God. Similarly, if his behaviour is not systematically disciplined, it will be a sign of his failure to realize unity in himself. As regards his relations with others, he has to mitigate the dualism between himself and those others, and to develop it into unity or, at least, reconcile the two sides of taht dualism one to the other. The attempts at this mitigation or reconciliation should be demonstrated in his behaviour If he fails in this course, he will be far from the appreciation of God's unity.

of " erring " nor to the existence of the executive authority and its direct supervision. In connection with this point, Shaykh Muhammad Abduh says: " People are in agreement on that some deeds are beneficial and others are harmful. In other words, some deeds are good and some are bad. Some sages and those of sound thinking from among people can find the truth about that. People are also in agreement on that the good deed is the one which lasts longer as far as its benefit is concerned, even though it may be harmful at the present time, and on that the bad deed is a one which leads to corruption or disorder in the private or social life, even though it gives great pleasure in the beginning. But people differ in their opinion about any particular deed when taken by itself and as such according to their differences in temper, nature, home-background and all surrounding circumstances. This is why they fall into all aspects of evil while every one of them thinks that he is seeking the useful thing. So the human minds alone is incapable of leading its owner to happiness in life " (Risalah el-Tawhid, p. 48).

He also says " Therefore the human mind was in need, to control the perceptive faculties and physical powers, to supporter or helper ; and this helper is the prophet himself " (Ibid. P. 51).

As regards nations he says: " The mind only is not sufficient to realize the happiness of the nations without a Divine guide. It is like the animal which cannot perceive all the tangibles by the sense of sight only ; but there must be with that sense, the sense of hearing, to perceive for example, what can be heared. Simirlarly, religion serves as a general sense by which the means of happiness, which means the mind is uncertain about can be discovered. Mind is the only authority to know that general sense, and to use it according to the purpose for which it was granted, and to submit to the beliefs and deeds revealed by that very sense ". (Ibid, P. 82).

The Merits of Islam as Religion

when the discourse moves from religion in general into Islam in particular, the need for religion in the life of man will be stronger, and more pressing.

This is Because Islam, as known from the Qur'an and the Genuine Traditions, includes faith and legislation concerning the sublimation of man's morals and his dealings.

All these contents are not man-made but all of them are Heavenly

is a defect in both philosophy and law, and the making of philosophy and law by man is a reason of their infallibility which leads to carelessness about following philosophy and obeying law. The conclusion is that the power of philosophy is not spontaneous but in the repeated appeal for it, and the power of law is not intrinsic but in the authority which executes it.

Unlike philosophy and law, religion is exempt from these two defects because God who revealed it is free from finiteness and error. So the value of religion in comparison with philosophy and law is intrinsic. And when religion changes into a philosophy or law, there is the possibility of return to its primary nature free from philosophy and law, as long as its original source is saved from interpolation and change. Then it will continue to maintain its intrinsic value. This means that the danger which may encroach upon religion through the accretion of man is removable by means of holding these accretions as human products without giving them the sacredness of religion or the infallibility of its sources.

Besides the infallibility of religious revelation and the indefiniteness of God in His message to mankind, there is another thing to distinguish religion from both philosoply and law There is on the side religion man's conscience which comes forth from man's fear of and dutifulness to God. This conscience in regarded as the executive authority of law,yet it is a spontaneous authority and not separate from the man of religious sonscience. With law the case is different; the follower of law abeys it out of his fear of the state authority which supervises its execution. So if the state slows down its supervision, the effect of the law will disappear, and its very existence will consequently shrink. Thus two joint things are needed in the sphere of law : the text of the law and the executive authority, while in the sphere of religion the whole thing depends on the believing person only.

As regards philosophy, it is not accompanied by external supervision nor does it create a conscience or internal supervision. So it is less singnificant in practical life than the law and therefore much less valuable in contrast to religion,

This is a speech about religion, philosophy and law in the life of man in a general way. It is clear from this speech that religion has the first place in man's life and his guidance. It is a source of guidance which is not subject to the defect of (finiteness) nor to the probability

in the past and the United Nations Organisation at present, though marked with international characters are designated to serve the interests of big and strong Powers only. The League of Nations was a presumably legal means fòr the occuPation of weak and small nations by the big Powers. What the charter of the League contained of authorizing the big powers to exercise Mandate and Trusteeship over the small nations was a Practical example of the achievement of the big Powers' ends under the Pretext of the international law, yet those ends were the humiliation and exploitation of the small nations by the big powers to raise the standard of living in the latter at the exPense of the former.

The United Nations Organisation is only a repeated form of the League of Nations as far as its charter and ends are concerned. That is why the big powers declared in the recent Past, when they could not realize their imPerialistic ends because of the opposition from the majority of member states of the Organization, that the Organizalion was no longer capable of solving the international disputes and cases. This attitude finds a handsome demonstration in the disprute of the Suez Canal in November of 1956.

Because philosoply and law were produced by the limited man, doctrinal conflicts have been the general character of philosophy, and obvious differedces between national laws and divergent interpretations of the international law have been the permanent character of the man-made law.

To the conclusion that God, unllke man, is indefinite and unlimited in what He reveals for the benefit of humanity, another essential thing is added concerning philosophy and law. This essential thing means that whoso follows philosophy or whoso must obey law is acting on the basis that what he follows or obeys is a man-made system which is not infallible and does not ascertain truth or justice. It is a mere conjecture of a sincere philosoper or legislator. The realization of this fact by the follower of philosophy or the loyal to the law leads to non-enthusiastic or temporary following and loyalty, The temporariness of following and loyalty means by nature carelessness about the accomplishment of the philosophical aim and the end of the law. And since the solicituous aim of philosophy and law is the doing of good, the realization of this aim will necessarily suspend inasmuch as there is carelessness about following the particular doctrine or obeying any given law.

The limitedness of man therefore

possession, in expressing his opinion and belief and in adopting any doctrine he pleases. The individual is also entitled to adhere to the customs and traditions prevailing in his society or to abandon those customs and traditions. He is indifferent to the poverty of other members in his society, to their misery and to the hurting of their feelings or sentiments. Such are the philosophers of individual liberty.

These are examples to show the difference of philosophical thought and doctrines, which difference is due to the fact that the thinker is influenced by his private as well as his puplic life.

As for law, the case is not different from that of philosophy because legislation is based on philosophical foundations and ideas. Law is based on the legislator's conception of life. The legislator in modern times is the state, and his conception of life varies according to the system of the state itself.

There is the Communist state with its own laws to maintain the Communist rule among its individuals. There is the capitalist state with its own laws to guarantee the utmost liberty of the individual in investing his capital. There is the socialist state with its own laws and constitution to set up the mutual relations between the state and individuals on the basis of the socialist ideology which aims at social justice among the classes of society. There is the monarchal state whose constitution is based on the idea of protecting and exalting the throne. There is the republican state whose constitution is based on the affirmation of the individuals' rights to be appointed to the office presidency.

There is also the Jewish society whose law is founded on the idea of maintaining the jewish traditions, customs and belifs concerning the " personal code", and on the idea of timing the jewish annual holidays, deciding the permissible diet and the manner of eating and drinking, etc. Besides this society, there are Christian and Budhist, pagan and Muslim societies the laws of which must include its own traditions, customs and beliefs.

Therefore, the cause of the difference in constitutions and laws lies in man's being limited. This is why there has been what is called " national law " and what is called "international law". The international law, however, is characterized by prejudice for the strong nation as regards its customs and ends of life. Similarly. the characters of the international organizatisms, like the League of Nations

that which suits the personal interest, and they, accordingly, hold man as the criterion of good. Some people see good in bodily enjoyment even though it may be accompanied by usurping the possessions of others or desecrating their honours. Some other people see good in solitude and cutting themselves from the enjoyments of life and the course of society. Inasmuch as people of the first category rush to attain the enjoyments of life which they think enjoyable from their point of view, people of the second category stand passive and adopt a negative attitude. The man of the former category is the individualist or the existentialist, whereas the man of the latter is the ascetic Brahmin or the mystic.

Moreover, while we find some philosophers, viz., the idealists, who define good by that which benefits as many people as possible, we find others, viz., the realists, who define good by that which benefits their own society. On the other hand, we find philosophers who helieve that the " end " justifies the " means." So if the achievement of their end depends on slander or conspiracy or heedless and total killing or desecration of honour, the means to that end is legitimate in their opinion. Therefore, the annihilation war in Algeria, for instance, is justifiable in the eyes of the French imperialists because it will enable them to exploit the human and economical resources of that nation. The establishment of imperialism therein is an end justifiable for the interest of the French imperialists and thus the means to that end is also justifiable and derives its justification from the prospective benefit.

Besides such instrumentalist philosophers of the Machiavellian character, there are others who exhort to the doing of duty for its own intrinsic value, to the doing of what man is obliged to do for the benefit of himself, of his society and of humanity at large without expecting any reward or praise. Such philosophers are those of "duty," who follow the Kantian example.

You see philosophers who advocate the abolishing of the individual's personality and its absorption by society. They justify the suppression of the individual's liberty and the confiscation of his property, and subject his behaviour to the interest of society which is the " state". Life, accordingly, is the right of society not of individuals. These are the philosophers of the Communist doctrine. In contrast to these, we see other philosophers who contend that society should be in the service of the individuals, and that the individual has complete liberty in commerce, in

good, it is established on the fact that this demand is guidance from God. But when philosophy and law demand the same, it is understood that this demand is the outcome of man's speculation. Therefore the difference between religion and philosophy together with law is constant.

The difference betweeu God and man lies in the manner in which the course of good is defined.God, the Lord of all,the Most Supreme, the Self-Sufficient, draws the course of good in such a way as to make it beneficial and attainable for all peaple. He defines the award of the doing and shunning of good in accordance with the result of that good, in conformity with the human nature and in the light of what this good can contribute to the weal of mankind.

God, in defining and ordaining good, has no particular interest and is not influenced by any factor. Because He knows the human nature and not even the weight of an atom in the earth or in the heaven escapes His konowledge, He ordains good in a way coherent with the potentialities of this nature. Also He decides the award of good with the purpose of benefiting mankind by doing good and shunning evil.

With regard to man in his philosoply and codification, he is limited to his environment, his legacy and cultural background. The rural person differs from the urban in understanding life and giving it an expression. The member of a pious family is distinguished, in his appreciation of the moral values and the social bonds, from that of a bad family. Similarly, the ignorant man is different from the enlightened man in understanding and belief, and the man of a certain department of knowledge is different from those who are especialized in other departments of it; the physician is not like the engineer, and both are unlike the agronomist, and all of them differ from the man of accountancy, and so on.

So if man is Limited to his environment, legacy and cultural background, it is only logical that he is influenced by these factors which reflect on his behaviour, his thinking and his conception of life and of its purposes, Man is the production of these three factors ; and his behaviour, his thinking and judgement are the crystalization of them. Thus the man of philosophical thought is influenced, in his definition of the quiddity of good and the way of its attainment, by both his private and common life. And this is why we find among philosophers various definitions of good and various ways of its acquisition, most of which contradict one another. We find some philosophers who conceive good as

efforts to explain the intrinsic value of the particular source to which they adhere, and to prove that it is the only guaranteed course of sound guidance and the only way to achieve the desired aims of human life.

Religion may become a philosophy or a constitution or a legislation. It may become a philosophy when the human mind attempts to justify and reason its principles from the rational point of view; because philosophy is nothing but the intellectual reasoning of the " being ". So if the principles of religion are explained through reason, they become included in philosophy. It may also become a constitution when its principles are applied to the events of life and the behaviour is said to be applicable to those principles. When this application is to take place, it is not sufficient to make judgements without sound justificaton, but there should be comprehensive understanding of the applied principles and the applied - to events. This comprehensive understanding deducted from religion is the form of law to which religion has developed.

When religion takes the shape of philosophy, it pleases the philosophers, and when it becomes a constitution, it attracts the jurists and legislators. Religion may become a philosophy but it does not change to be like the philosophy originaly produced by man. Likewise, when it becomes a law, it does not resemble the law initiated by man. Religion, philosophized and codified, still maintains the general characters of religion ; it remains religion.

The general character of religion is that it is revealed from God and that man has to believe in it and obey its ordinances without hesitation or doubt. Man has to be psychologically satisfied with religion even though he may not appreciate its wisdom, because it is from God who is different from man and Most Supreme and Whom man cannot define or conceive His essence. Philosophy and law may become a dogma but then they will not possess the character of religion as aforementioned ; they will be held as traditions or customs. Neithor philosophy nor law can acquire the nature of religion because both of them are the production of man and will remain so. What they can acquire, however, is the nature of traditions or customs which are to be followed as a familiar heritage.

Thus there is a fundamental difference between religion, on the one hand, and philosophy and law, on the other hand, in the sense that religion is from God whereas philosophy and law are man - made. And when religion demands man to do

RELIGION IN THE LIFE OF MAN

by
Dr. Muhammad El - Bahay
Director General of The Islamic Culture
Administration.

Man has developed from the life of jungle to that of law and civilization, from the life of material power, to which he resorted to settle his disputes, to that where in law prevailed and was resorted to in ending controversies and defining the course of relations among people. The first point from which the human life started was victory gained through family and tribal realtionship and by the great in numbers of some communties in contrast with others. The dominant phenomenon in to - day's life is the prevalence of human justice represented in the conception of man - made law. And between the first point and the dominant phenomedon came religion and philosoply each of which played the principal role in a certain period in the history of humanity, and each of which is still exerting some influence in a certain manner.

The stage of jungle life ended with the supremacy of religion over man's life, then came philosoply to rival religion and afterwards law interfered to take part in this competition and play its role in guiding man. So religion, philosoply and law have become the distinguishing character of the contemporary man's life, and each one of these three conflicting powers is trying hard to gain survival, on the one hand, to ordain man's destiny, on the other hand. The difference between the three lies in that religion is ascribed to the Worshipped God, whereas law and philosoply are the production of man. nevertheless, the aim of each one of the three is hardly different from the aim of the rest; religion shows the way in which mankind conceive their security in peaceful co - existence; philosoply tries the same; and law, in turn stands for the maintenance of the measures which local and international societies adopt as means of securing co - existence and fruitful co - operation.

Each one of these three sources of gudidance has its own enthusiastic adherents who devote their lives and

innocent without mercy, and slaughter them to dye, with their pure and sinless blood, the earth of God which He created as a symbol of mercy upon His bondmen - that God has assimilated their hearts to rocks; nay He has made them worse in hardness than rocks: "Then your hearts hardend after that, so that they were like rocks, rather worse in hardness. And surely there are some rocks from which streams burst forth; and there are some of them which split asunder so water flows from them; and there are som of them which fall down for the fear of God. And God is not heedless of what you do ,, (Surah. 2· 74). It is also a sufficient alarm to the cruel that the messenger, peace be upon him, said: "mercy is not rooted out save from the heart of the unhappy". And the most unhappy is he who stains the face of the earth with the blood of the innocent for no fault except that they believe in God, in His messengers, in the last day and in their responsibility to God and to themselves for combating the evil as well as corruption. The most unhappy is he who kills the fathers to make orphans their children, the husbands to make widows their wives, and the sons to make bereaved their mothers. The most unhappy are those upon whom God bestows His favours of dignity, authority and nobility, then they turn back upon their heels ingrate and associate others with God saying that there is no life but this life and that they shall not be raised again.

What we hear to-day about the current events in some Muslim countries is only the result of pitiless hearts.

The difference between the merciful and the cruel is the difference between the happy and the miserable, betwen the human and the non-human, between the believer and the disbeliever. So be merciful and exhort one another to mercy in order that your faith may become perfect, your happiness become great and humanity be proud of you and so that you may live in peace and security. Listen to what Abu Hurayray ascribed to th prophet, peace be upon him, concerning mercy which says:" He who does not pity will not be pitied"

May God guide you and me to exercise the virtue of mercy peace and mercy of God be upon you.

that, one of man's virtues motivated by noble sentiments and honest human feelings. So God calls Himself the Merciful and favours His people with the grace of mercy. He says : " Your Lord has ordained mercy on Himself, (so) that if any one of you does evil in ignorance, then turns after that and acts aright, then He is Forgiving, Merciful " (Surah 6, V. 54). He exalted in rank the faithful to Him and made them belonging to Him alone ; as the Qur'an says : " And the servants of the Beneficent are they who walk on the earth in humility, and when the ignorant address them, they say, Peace ! " (Surah 25, V. 63).

Moreover, God conferred on His Messenger the favour of mercy and made it the main factor of his people's faith in him and their adherence to his Call. The Qur'an refers to this favour in the following verse : "Thus it is by God 's mercy that you are gentle to them. And had you been rough, hard - hearted, they would certainly have dispersed from around you. So pardon them and ask forgiveness for them and consult them in (important) matters " (Surah 3, V. 158). Furthermore, as God made mercy a favour from Him to the Messenger He made the mercy of the Messenger a favour to the Believers in the sense that He sent to them a compassionate, merciful messenger : " Certainly a messenger has come to you from among yourselves ; grievous to him is your falling into distress, full of concern for you, to the believers (he is) compassionate, merciful " (Surah 9, V. 128).

This is mercy as described in the Book of God, and this is its place with Him ; " Surely the mercy of God is nigh to the doers of good " (Surah 7, V. 56).

Disbelief is the Source of Cruelty :

Cruelty is the character of disbelievers who have no faith in God and do not feal His glory or appreciate that His glory lies in His mercy, It is a character of ravenous and beastlike people who should not live with the virtuous of mankind whose proper attitude is to drive them away to bushes and caves.

It is a sufficient warning to the cruel - who desecrate the honours of people, shed their blood, murder the

tenfold the like thereof, while whoso brings an ill - deed will be awarded but the like thereof; and they will not be wronged" (Surah, 6, V, 160). Every blessing or gift, common and special, that God has bestowed upon His bondmen is only a fruit of His mercy. Sound health, property, the good wife, the righteous children and suceess in life all are signs of God's mercy. Similarly, knowledge, guidance, the comfort of conscience and the overcoming of difficulties and obstacles in the way of noble causes are made possible by the mercy of God. Moreover, inspiring the mind with what is useful and mighty in life, authority, influence and nobility are attainable through the mercy of God. So let us all reflect on the traces of His mercy and appreciate its effects which surround us and embrace all aspects of our lives. God, "The Beneficent has made known the Qur'an. He has created man. He has taught him utterance" (Surah. 55. Vs. 1 — 4).

God Likes His bondmen to Follow His Example

Mercy, after all, is one of the most magnificent attributes of God Who likes His bondmen to have such an attribute end to be, as He describes them in the Qur'an, " merciful among themselves", So that the old may show kindness to the young and the young may have respect for the old, the rich and powerful may help the poor and weak respectively, the learned and wise may guide the ignorant and the erring.

God likes the ruled people to enjoy the mercy of their rulers, the children to feel the mercy of the fathers, the pupils to experience the mercy of the teachers, the sick to have the mercy of the physicians, and the poor, to receive the mercy of the rich. Those who are the source of mercy to the servants of God will enjoy His mercy. He will favour them, make them happy with His pleasant company and save them from the troubles of life and death, because "the merciful are pitied by God."

It should be borne in mind that mercy is not confined to man only. God has ordered man to have mercy upon, his fellow man as well as upon animals for both man and the animals need mercy. In support of this injunction, it is reported that the Messenger, may the peace and blessings of God be upon him, said: "Be dutiful to God in treating animals; ride them when they are fit for riding and eat their meat when it is good for eating".

Faith is the Source of Mercy:

Mercy is a fruit of faith. It originates in man's heart from his hope for God's mercy, and is in addition to

The Mercy of People Is the Way to the Mercy of God

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

One of the attributes of God, Who created and perfected His creation and Who gave the best guidance, is the attribute of mercy. He has made this attribute incumbent upon Himself and said: " And My mercy embraces all things " (Surah 7, V. 156). He has chosen for Himself two glorious names derived from the root of the word mercy (rahmah); He is called the Compassionate, the Merciful. His believing bondmen are requested to seek His help in the name of these two attributes since they are commanded to start all their actings " in the Name of God, the Compassionate, the Merciful ".

God, may He be exalted, opened His glorious Book (the Qur'an) with the affirmation of Praise to Him for His being Lord of the world and for taking care of His creatures. Then the assertion of His Lordship was followed by these two excellent attributes, viz., the Compassionate and the Merciful, to point to the fact that His Lordship over the world and His guidance to mankind are not based on compulsion and tyranny but on mercy and mercifulness: " Praise be to God, Lord of the Worlds, The Beneficent, the Merceful" (Surah 1, Vs. 2 — 3).

Truly He brings us up with mercy by which He cares for us when we are foetuses and when we develop from stage to stage throughout our lives. He treats us with mercy when we are infants, during our youth and maturity, and when we become old. It is with mercy that He looks to us when we are dying and departing from our souls and even when we are standing in His presence to be judged, for what we have done, " On the day when every soul will find itself confronted with all that it has done of good, and all that it has done of evil (every soul) will long that there might be a mighty space of distance between it and that (evil) " (Surah 3, V. 30).

God judges us with mercy and shows us the good things to do and the bad things to shun. Thus He says: "Whoso brings a good deed will receive

disbelievers and heroes of Quraysh, whose number was about one thousand worriors. The Muslims won the battle and killed many of the disbelievers in the valley of Badr. They returned to Medina (al - Madinah) victorious with many prisoners and spoils in their hands. The numerous disbelievers, on the other hand, retreated to Mecca (Makkah) with defeat and injured victims. With the same Divine Spirit the Beduins of weak bodies, primitive weapons and small numbers emerged from the valleys and the desert of the Arabian Peninsula to fight against the two gigantic Persian and Roman empires which divided between themselves the domain of the world. The Muslims annihilated the power of the Persian Chosroes and destroyed the throne of the Roman Caesar.

It was with the very inflamatory spirit in the blood of the strivers that Port Said stood firm in 1956 against one hundred and sixty thousand descendants of the Crusaders, and that Algeria is now standing firm against seven hundred and fifty thousand descendants of Napoleon. It is due to this Divine Spirit, which empowers the strivers in the way of God with patience, persistence firmness, courage, altruism and sacrifice; and which makes the power of the Muslim striver double that of his enemy. The Qur'an confirms this point by the verse which says: " So if there be of you a hundred steadfast, they shall overcome two hundred; and if there be of you a thousand, they shall overcome two thousand by God's help. And God is with the steadfast " (Surah 8, V. 66).

After all, *al - jihad* is a happiness that cannot be enjoyed except by those whom God chose to honour man, to support His truth and to establish justice and order on the earth. God calls such chosen people martyrs and places them in paradise with the truthful and the prophets. Those are whom God has bought their souls and properties — theirs in return is the Garden. They conquered the earth for Islam and paved the way for civilization which came as a result of their heavy sacrifices and the pure blood they shed on the conquered lands.

How happy are those whom God chooses to make, through their striving, the Muslim homeland powerful and to keep, with their martyrdom, the Muslim nation alive !.

says: " O you who believe, when you meet those who disbelieve marching for war, turn not your backs to them, And whoso turns his back to them on that day - unless manoeuving for battle or turning to join a company - he, indeed, incurs God's wrath and his refuge is hell. And an evil destination it is " (Surah 8, Vs. 15 — 16).

There are two kinds of jihad (striving): the valourous striving and striving as such. The former is superior to the latter because the valourous warrior gives without axpecting any compensation and sacrifies without thinking of reward. When this warrior takes the last glance at the world before his findal departure, he feels quite satisfied, as he has performed his duty, and is pleased because he is going to enjoy the company of God. As for the ordinary striver (mujahid) he exchanges his property and soul for the promised paradise of God. So, sacrifice in his opinion is like a commercial operation of selling and buying and means work and wage.

The source of strength in the strivers (mujahidin) is Islam alone. Before the advent of Islam the Arabs had been scattered entities on the vast and sandy desert with no unity or bonds amongst them. When God chose them to deliver His message to the world, He supported them with His Spirit Which brought them together, united their hearts and integrated their scattered communities: "And He has united their hearts. If you had spent all that is in the earth, you could not have, united their hearts, but God united them " (Ibid., V. 63). Then God strengthened this spirit in the hearts of the Muslims by the beliefs of *al - Qadaa* which means that God knows all events before they take place and *al - Qadar,* which means that events occur according to what God knew. Through these two beliefs the Muslims became certain that they are not alone, and that God is always with them to guide them and ordain their course of life, He revealed to His messenger, peace be upon him, the verse which reads as follows: " Say: Nothing will afflict us save that which God has ordained for us " (Surah 9, V. 51).

In addition to all that, God guaranteed for the striver (mujahid) one of two most excellent things: victory, which is followed by the glorification of God, the freedom of the homeland and the dignity of man; or martyrdom, which is succeeded by commemoration in the world and immortality in paradise.

With this Divine Spirit the Muslim fighters, whose number hardly reached three hundreds, went to the Battle of Badr to meet the heads of

advisors to whose cermons he turns his back. Such failure is, perhaps, due to the fact that the observance of these duties is based on the relationship between man and God, and that man's own conscience is the only motive to undertake these duties.

With regard to the faith of al - Jihad (striving), it is based on a combination of relationships between man and his God, his motherland, his offspring, his property, his heritage, his remembrances and his aspirations. So this faith is constantly vivid in the Muslim's heart in spite of the elaps of time. It is like fire in a still volcano which fire may calm down but remains unextinguished. When the religion is disdained and the motherland is attacked, the enthusiasm of all Muslims arises, and the faith of jihad shows itself active and lively in the hearts of Muslims, who hasten to defend their religion, to protect their motherland and to destroy all antagonist elements,

In this phenomenon lies the explanation of the attitude of all Muslims in their different and distant countries against the imperalist powers during the Triprartite Aggression on Egypt. That attitude condemned the aggressors and proved the readiness of all Muslims to resist, with their money and lives, that aggression. It also explains the unanimous opposition of all Arabs to what is being inflicted upon Algeria by the brutal and barbarous imperialism. This opposition is so strong and deep that it led the Arabs to support the Algerians with money and equipments, and to back them before world forums.

The sympathy of the Arabs for Egypt and their support to the Algerians were not based on racial ties nor on the neighbourhood responsibilities, but on the faith of striving, which God revealed in His Book and the Messenger explained in his Traditions and which the jurists detailed in the sources of jurisprodence.

Like the other pillars of Islam, *al-jihaa* (striving) is authorized by the text of the Holy Qur'an some chapters of which, like those of Immunity (Al - Tawbah) and Spoils of war (Al - Anfal), deal with war, peace, spoils, prisoners, treaties and the general rules of war in Islam. One of the most significant meanings of the Glorious Qur'an is that it pays its utmost attention to the treatment of prisoners who are captured by the Muslims, while it almost neglects the Muslim prisoners who may fall in the hands of the enemy. This is because the Qur'an enjoins firmness in war and forbids retreat except for military tactics or for reinforcement. In reference to this rule the Qur'an

French language and to believe in a religion other than their own.

Look into the whole world and search through any place you please, then you will find that all eyes and ambitions are focused only on this part of the world, viz., the East, from which God's light dawned, and by which God was known and in which man was honoured.

My reply to the question raised earlier is that the sincere Muslim is still aware of the fact that his religion means Qur'an and sword, his history includes victory and civilization, his constitution is concerned with both religious and mundane affairs, his war means *striving* and martyrdom, and his government has the character of both religious caliphate and popular leadership. The Muslim thus is ever striving and never abandons this duty. When he does not strive against his enemy he fights against his caprices to discipline himself.

Upon the tremors of the First World War the conscience of the Muslims woke. They began to realize the causes of their subjugation and their being occupied by their enemies. They became aware of the fact that their evils emanated from their reliance on truth only without paying any attention to force, and on words without taking interest in deeds. These evils led the Muslims to weakness which is inconsistent with the Aarb nature as well as with the essence of the muslim character.

when the Muslims woke, a popular call prevailed among them extending beyond the artificial boundaries and inspired by faith, intuition and language, and urging them to strive in public as well as in secret to attain their independence, their unity, their mutual affiction and Power. The hardships in the way of these noble yet difficult aims cannot be overcome except through valourous striving which is enjoined by the law of God and is demanded by the very nature of the Arabs. This valourous striving means giving money and sacrifying oneself in the way of God or for honouring man or for the achievement of the freedom of the motherland. Striving is a common duty incumbent upon every able Muslim when his co-religionists face a common danger the resistence of which requires the joint efforts of all Muslims such as the danger of imperialism and Zionism. The carrying out of this duty is not limited to a certain time or place or race. It is like the five Pillars of Islam with a minute difference from them. The Muslim may fail to observe these five pillars and abstain from prayers and fasting, and may neglect the alms-giving and pilgrimage, although he may be exhorted by preachers and

AL - JIHAD AN ARAB VIRTUE and a Religious Injunction

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT

Editor - in - Chief

You ask me : When, if not to - day, should the Muslim strive in the way of God ? There are many good reasons for him to carry out this duty. His religion is confronted by intrusive and disbelieving Communism. His motherland is surrounded with intrigues engineered by imperialism. His brethren of Palestine were driven out from heir homes and properties by the Christian powers and replaced with the descendants of Judas, the makers of The Cross, and his fellow men in Algeria are dying by horrible means on the tops of mounts and in the bottoms of valleys while fighting, with their limited number and simple equipments, against three - quarters of a million of savage soldiers whose French character branded them with cruelty and stubborness, and who are being armed with the most destructive weapons supplied by the North Atlantic Treaty Organization and used to annihilate the Algerian towns with their inhabitants of orphans, widows and the helpless. His peoples in the Arab and Muslim countries are still struggling against the imperialist ambitions and tyranny, striving to secure their dignity and rights and appealing to world conscience for support without receiving any significant response.

There is Russia, on the one hand, trying to penetrate into the Eastern countries to abrogate their religions and philosophies in order to replace them with its own doctrines. There is America, on the other hand, trying to hamper the Russian efforts and monopolize the natural resources of these countries. There is also Britain trying - by means of killing, treachery, despotism and persecution - to vacate the southern region of the Arabian Peninsula from its people and populate it with fraudulent slaves who may guarantee the survival of the British occupation and rule over that region. Besides these three world Powers, there is France using its numerous troops and strong force in a bid to make the Algerian people French and compel them to live under the French flag, to speak the